مصرع الإلحاد

ببراهين الإيمان

سماحة الشيخ العلامة

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عمان

الجزء الثاني

الكلمة الطيبة


مصرع الإلحاد
ببراهين الإيمان

جَمِيعُ ٱلْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الكلمة الطيبة
مسقط ـ سلطنة عُمان

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م

مصرع الإلحاد

ببراهين الإيمان

سماحة الشيخ العلامة

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ
كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا
هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

(الإسراء: ٨١ ـ ٨٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين

الباب الثالث

في براهين الإيمان

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وفيه مقدمة وستة فصول:

- المقدمة: بين يدي البراهين.
- الفصل الأول: في البراهين المستوحاة من معجزة الحياة.
- الفصل الثاني: في البراهين التي في خلق الإنسان.
- الفصل الثالث: في البراهين التي في خلق الحيوان.
- الفصل الرابع: في البراهين التي اشتملت عليها الكيمياء الحيوية.
- الفصل الخامس: في البراهين التي في أنحاء الآفاق.
- الفصل السادس: في البراهين التي في خلق الذرة.

بين يـدي البراهين

كم هي براهين الإيمـان المنبثة فـي تضاعيف هذا الوجـود، فمن أدقّ الأشياء إلى أجلّها تتجلى هذه البراهين، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فما من جزيئة أو ما هو أدق منها، إلا وهي حافلة بما لا يحصى عدده من آيات الله تعالى العظمى، وكلماته البليغة، التي تشـهد بوجوده ووحدانيته وتصريفه للخلق، وانفراده بالحكم والقهـر، فما تقع عليه العين، وما يتوصل إليه الفكر، وما يسـنح للفهم من كل جلي أو خفي؛ هو من شواهد الإيمان، لأنه دال على الله تعالى.

وقد بيّن الله سـبحانه هذا الأمـر الجلل، في قولـه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالشـيء يصدق على كل ما يمكن أن يخبر عنه، فينطبق على الدقائق التي لا تكاد تبصر حتى بأشعة المجهر، كما ينطبق على الجلائل التي يرتد الفكر والوهم دون تصور أبعادها، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

وما أبلـغ الحكمة التي يؤتيها الله عبـده، ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد سمعت حكمة بالغة قبل سنين مضت من أحد الدعاة النشطين[1]، إذ تلا آية لقمان الكريمة السالفة الذكر، وقال: إنّ الله تعالى أراد بها تقريب الحقائق العظمى، التي لا تحدها العقول، ولا تتخيلها الأوهام، ولذلك ذكر الله ﷻ أنّ البحر لو كان يمده سـبعة أبحر لتكون كلها مدادًا لرسـم كلمـات الله تعالى لنفدت البحار، ولم تنفـد كلمات الله، وإلا فالأمر أعظم مـن ذلك، فلو كان البحر يمده سـبعة ملايين أو سـبعون مليونًا من البحار، لتكـون كلها مدادًا لكلمات الله تعالى لما أمكن إحصـاء كلمات الله تعالى بذلـك، لأن البحار محدودة، وكلمات الله تعالى لا تحد.

وهذه حقيقة يقتضيها الإيمان بالله سـبحانه الذي أحصى كل شيء عددًا، وأحاط علمه بالخفايـا كالجلايا، فلم يفته شـيء مما اشـتملت عليه الدنيا والآخرة، وإذا كانت الدنيا تنتهي إلى أمد، فإنّ الآخرة لا حد لها، وقد أحاط الله بكل كائن فيها، فكيف يمكن أن تحصى كلماته؟.

وسـوف ترى أخي القارئ الكريم في هذا الباب مـن عجائب آيات الله تعالى في خلق الإنسـان، وفي خلق سـائر مخلوقاته ما يؤكد هـذا المعنى، وحسبك أن كل جُزَيْئةٍ في الخلق هي بحر من الحقائق، لا ساحل له ولا قعر، وكل جُزَيْئةٍ مبرمجـة وفق نظام رتيب برمجة مشـروحة ببيان لغوي عجيب، تقف العقول أمامه مشـدوهة حائرة، وهو بيان يدعو إلـى الإيمان بالله، الذي أبدع هذا الوجود وقدّره تقديرًا.

---

(١) هو الشيخ راشد بن ناصر البطاشـي، الذي ولد ودرس وعاش في زنجبار إلى وفاته، وكان داعية مشهورًا فيها.

وإذا كان العلامة ابن أبي نبهان يقول قبل نحو قرنين من الزمن أو أكثر: «إن كل ذرة من ذرات الوجود هي كلمة من كلمات الله، ناطقة بجميع معرفته تعالى التي أراد أن يعرف عباده المكلفين عبادته منها، وكل ما يدل عليه جميع الوجود من ذلك، تدل عليه كل ذرة من ذرات الوجود، وما بقي فكالشرح لتلك الكلمة»[1]، فإنّ ما حدث بعد قوله هذا من اكتشاف هائل لحقائق الوجود وما في طواياه من آيات الله تعالى البينات التي تعجز الأرقام عن حصرها، والعقول عن تصورها كافٍ لإثبات أنَّ كل ذرة في الكون هي سفر حافل بآيات الله تعالى التي لو درسها البشر قرونًا لما وصلوا في اكتشافها إلا إلى قطرة من بحرها أو رشة من ثجها، فماذا عسى أن تحصي عقول البشر ـ ولو اجتمعت جميعًا ـ من عجائب الخلق التي في الذرة؟ فضلًا عما في العناصر والمركبات وما في الأجسام والأجرام من آيات الله تعالى العظمى.

على أنّ الإيمان بوجود الله تعالى وأنه رب الوجود وخالقه، ومبدئه ومعيده، وأنه غاية كل ساع وأمل كل ملهوف فطرة مركوزة في طباع الخلق، ويولد عليها كل مولود وينشأ عليها كل ناشئ حتى تنحرف به التربية عن هذا النهج الفطري المستقيم، وهذا ما عجز عن إنكاره الملاحدة أنفسهم، لأن تلك حقيقة أثبتتها دراساتهم كما ذكر ذلك د. هشام عزمي عندما قال: «لا ينكر معظم علماء الملاحدة ـ إن لم يكن كلهم ـ وجود فطرة الإيمان بالله داخل الإنسان، نظرًا لتضافر الأدلة قديمًا وحديثًا على هذه الحقيقة، ففي بحث كبير تحت إشراف جامعة أوكسفورد عمل فيه ٥٧ باحثًا في عشرين دولة على مدار ٣ سنوات، وتكلف ١,٩ مليون جنيه استرليني، وتم نشر نتائجه في عام ٢٠١١م، ثبت أنّ الأطفال الصغار يولدون ولديهم فطرة الإيمان بوجود الله والحياة بعد الموت».

---

(١) السعدي؛ جميل بن خميس: **قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة**، ٤٦/٤، تحقيق: مجموعة من الباحثين، مكتبة الجيل الواعد ـ مسقط/سلطنة عمان، ط ١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

ثم أضاف إلى ذلك: «فقضية وجود الفطرة في حد ذاتها لا ينكرها الملاحدة، ولا يستطيعون إنكارها، بعد حسمها من علمائهم وكبرائهم أنفسهم، لكنهم يسعون لإيجاد تفسير مادي لها يتفق مع إنكار وجود الله»[١].

ثم ضرب العديد من الأمثلة لمحاولاتهم الفاشلة من أجل الخروج بهذه النتيجة ـ التي لا مراء فيها ـ عن نهجها الصحيح، وتفسير ذلك تفسيرًا ماديًا بجعل الإيمان بالله واليوم الآخر نتيجة لتفاعلات معينة في دماغ الإنسان[٢].

ولا يخفى أنَّ الفطرة السليمة هي القاعدة القوية للإيمان ومطلق التدين، فقد دلنا القرآن الكريم على أنّ الوحي المنزل من عنده سبحانه إنما هو تجاوب مع الفطرة، فلا يخرج الدين الصحيح عن الفطرة السليمة، وهذا ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، وعن عياض بن حمار أنّ النبي ﷺ قال: «**ألا إنّ ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظانًا**»[٣].

---

(١) د. هشام عزمي: **الإلحاد للمبتدئين**، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٣) أخرجه أحمد: **مسند أحمد**، (رقم: ١٧٤١٤، ٣٨٧/١٣)، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب (٥١) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب (١٦) الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (رقم: ٢٨٦٥ [٧٢٠٧]، ص ١١٧٤)، وأخرجه أيضًا: الطبراني: **المعجم الكبير**، باب العين، عياض بن حمار المجاشعي، (رقم: ٩٨٧، مج (٧) ٢٤١/١٧)، وبمثله أخرجه أيضًا النسائي في =

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**»[1].

وكم رأينا في المجتمعات المادية الإلحادية ما يدل على أنّ قوة الإيمان بالله في الأطفال فطرة قوية تستعصي حتى على الآباء والأمهات أن يقاوموها، وقد أثبت ذلك الدكتور **جستون باريت** في كتابه **فطرية الإيمان**، ومما قاله: «إنّ الأفكار الدينية مختلفة جدًا عن الأفكار المدعاة أو الخيال، فمنذ بدأت بإلقاء محاضرات عامة عن المعارف التي بني هذا الكتاب عليها، وأنا أتلقى الكثير من التقارير من أناس يخبرونني فيها عن مدى سهولة اعتناق أطفالهم للدين، وعن مدى صعوبة صدّهم عن الإيمان بالله، فقد أخبرتني زميلة عمل سابقة عن بناتها الثلاث، وتبلغ أكبرهن الثامنة من عمرها، تقول: (أنا مسيحية ولكن زوجي ملحد، وقد قررنا أن لا ندفع أولادنا في أي اتجاه، لكن هذا

= الكبرى؛ **السنن الكبرى**، كتاب (٦٤) فضائل القرآن، باب (٥٠) قراءة القرآن على كل الأحوال، (رقم: ٨٢١٣، ١٣٧/١٠ ـ ١٣٨)، والبزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٣٤٩١، ٤١٩/٨ ـ ٤٢٠).

(١) رواه البخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٢٣) الجنائز، باب (٧٩) إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، (رقم: ١٣٥٨، ص١٠٦)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٤٦) القدر، باب (٦) معنى كل مولود يولد على الفطرة، (رقم: ٢٦٥٨ [٦٧٥٥]، ص١١٤١)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٣٩) السنة، باب (١٧) ذراري المشركين، (رقم: ٤٧١٤، ص١٥٦٩).

وقد روي من طرق أخرى عند أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٥٥٢٦، ٢٤١/١٢)، وأبي يعلى؛ **مسند أبي يعلى**، (رقم: ٩٤٢، ٢٤٠/٢)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٥) الإيمان، باب (١) الفطرة، (رقم: ١٣٢، ٣٤١/١)، والطبراني؛ **المعجم الكبير**، (٦٤) الأسود بن سريع المجاشعي، (رقم: ٨٢٨، مج (١) ٢٣١/١) و(رقم: ٨٣٤، مج (١) ٢٣٢/١)، والحاكم بمعناه؛ **المستدرك**، كتاب (٢٠) الجهاد، (رقم: ٢٥٦٦، ١٣٣/٢ ـ ١٣٤)، وأبو نعيم في الحلية؛ **حلية الأولياء**، (٤٤٩) عبد الرحمن بن مهدي، (رقم: ١٢٩٤٧، ٢٨/٩)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب اللقطة، باب (١٦) الولد يتبع أبويه في الكفر فإذا أسلم أحدهما تبعه الولد في الإسلام، (رقم: ١٢١٣٨، ٣٣٣/٦)، والضياء المقدسي؛ **الأحاديث المختارة**، (رقم: ١٤٤٦، ٢٤٩/٤).

لا يبدو أنه مهم، فالبنات الثلاث جميعهن يؤمن بالله، وبدرجة عميقة، بل إنّ أكبرهن تشاجرت مع أبيها وأخبرته أنه مخطيء باعتقاده أنّ الله غير موجود).

كما أبدت أم ملحدة من أوكسفورد في انجلترا ذهولها عندما اكتشفت أنّ طفلها ذا السنوات الخمس لديه إيمان راسخ بالله، رغم كل جهودها للعكس.

وافق والدان غير مؤمنين من انديانا بعد تردد على إرسال طفلتهما، وهي في سن الروضة إلى رحلة تنظمها مدرسة الكتاب المقدس، وقد عادت الطفلة إلى المنزل من هذه الرحلة مبدية رغبة عارمة للاستمرار في التعرف على الله، كما اكتشف زميل دنماركي أنّ طفلته الصغيرة قد تلقت صدفة حالة من الإيمان بالله، وذلك في أحد أشد المجتمعات العلمانية على سطح الأرض، إنَّ هذه القصص والكثير غيرها ليست هي الأسباب التي تدعوني إلى القول بأنّ الأطفال يولدون مؤمنين، لكنها تقول إنَّ ما يجري هنا هو شيء مختلف عن المصادفة أو التلقين، فلماذا يكون من السهل أن ندفع الأطفال ليؤمنوا ويقتنعوا بنوع من الآلهة أكثر من المعتقدات الأخرى، كالاعتقاد بفوائد نبات البروكلي مثلًا، أو أنّ عمتهم الكبرى ليست مرعبة حقًا، أو الاعتقاد بعدم وجود إله»[1].

وذكر بعد ذلك أنّ آباء الاطفال الصغار والمراهقين منهم على وجه الخصوص يعلمون أنهم لا يستطيعون ببساطة، برمجة معتقد أطفالهم، فهم يستطيعون تلقينهم، لكنهم غالبًا يفشلون، وذكر عن الممثلة الكوميدية جوليا سويني (Julia Sweeney) أنها حاولت تربية ابنتها لتكون ملحدة لكن الأمر بدا صعبًا، وقال بعد ذلك: «إنّ المحاولات المستمرة لتلقين ابنتها الإلحاد بالله واجهت صعوبات حقيقية بسبب الميل الفطري للأطفال نحو الإيمان الديني، فالأطفال لا يتقبلون كل الأفكار على حد سواء»[2].

---

(١) جستون باريت: **فطرية الإيمان**، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧ ـ ١٨.

وقال في موضع آخر: «يتقبل الأطفال بسهولة أنّ الله خالق العالم الطبيعي من الجبال والبحيرات إلى الأشجار والفيلة، وتشهد هذه الحقيقة بالتأكيد على قابلية الأطفال لقبول كائنات ذات قوة وقدرة تفوق البشر، يؤثر تفاعل الأطفال المبكر مع الأشياء الفيزيائية عليهم، من خلال التجربة المباشرة فيدركون أنّ قدرتهم الخاصة على تحريك الأشياء، وتغيير البيئة لها محددات، فالأبواب التي يريدون فتحها لا تتزحزح وأختهم الصغيرة ثقيلة بعض الشيء، فلا يمكنهم رفعها وحملها، ويستدل الأطفال بالتأكيد أنّ الذي خلق الجبال له قدرة خارقة عمومًا، أليس ذلك صحيحًا؟ ربما ولكننا لسنا مضطرين، لحسن الحظ أن نسلم بهذا الموقف دون دليل مستقل»[1].

وقال أيضًا: «كنت أعرف طفلة أذهلت أهلها مرة وهي بعمر الثانية عندما قالت إنها رأت ملائكة في غرفتها، وفي الزاوية العليا على وجه الدقة، وفي عمر الثالثة وفي حالة غضب شديد من أهلها دخلت الطفلة ذاتها إلى غرفتها وأغلقت الباب بعنف وبدأت تتمتم بعنف، كنت هناك وشهدت هذا الموقف، وعندما فتح أهلها الباب وطلبوا منها أن تفسر هذا التصرف الغريب الذي قامت به، جاوبت على الفور: (لم أكن أتكلم معكم، كنت أتكلم مع الله).

كما نشرت أم الطفل بِن الذي عمره ثلاث سنوات على الفيسبوك ما يلي: (اقتبس من قول بن البارحة: تتكلم حيوانات الماء مع الله، وتتكلم الديناصورات السابحة مع الله، وكذلك يجب أنّ نكون كلنا على تواصل) تلا ذلك بالطبع بعد عدة دقائق كلام تقليدي لطفل في عمر الثالثة، إذ قال أريد أن أذهب للمتجر وأشتري ألعابًا»[2].

---

(١) المرجع السابق، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٩.

وبعد أن قطع شوطًا في الاستشهاد بكثير من الشواهد، من تجاربه الخاصة في تعامله مع الأطفال وأهليهم، قال: «عرضت في خريف عام ٢٠٠٦ أمام ملأ من الحضور في كلية فرانكلين ومارشال في لانكستر (بنسيلفانيا) بعضًا من أفكار هذا الكتاب وأثناء جلسة المناقشة الحيوية بعد المحاضرة الرسمية، بدا الجمهور مهتمًا على الأخص بمفهوم أنّ أسس الإيمان أو حتى الإيمان نفسه ينشأ فطريًا أثناء سنوات ما قبل المدرسة، ولما أكدت على هذا التفسير للدليل الحالي بادر رجل كان قريبًا من صفوف المقدمة بالسؤال المباشر: (ألا يعني أن الإيمان بالإله أمر صبياني؟) فأصابت الجمهور المهذب دهشة مما اعتبروه سؤالًا وقحًا، بل وتهجميًا، ولكنه كان سؤالًا وجيهًا»[1].

وما كان طرح هذا السؤال ممن طرحه إلا للعقدة النفسية التي رانت على قلوب الذين كفروا بالله، فضاقت صدورهم من الإيمان به تعالى، حتى عدوا منطق الفطرة وصوت العقل الدالين على أنّ الإيمان به من ضرورات الحياة هذيانا لا يصدر إلا من أطفال قصر، أو من كان مثلهم في ضيق أفق التفكير، وما هو إلا كما أخبر الله تعالى عن نفوس هؤلاء المريضة الخائبة في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقد واصل الدكتور جستون باريت ذكر تخبطات الملاحدة، في تفسير هذه الظاهرة الفطرية في نفوس الأطفال، كما كان من سيجموند فرويد وريتشارد دوكينز الملحدين الشهيرين، وندع الدكتور جستون باريت ليشرح مواقفهما بنفسه، فقد قال: «يعبر فرويد أكثر من مرة عن إصراره بأنّ الإيمان بالآلهة ينشأ نتيجة إسقاط قلق فترة الطفولة على العالم الطبيعي، (عندما يتميز الطفل وهو يشب ويترعرع أنّه مقضي عليه بأن يبقى أبد حياته طفلًا ولن

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

يكون في مقدوره أبدًا أن يستغني عن الحماية من القوى العليا والمجهولة، يضفي عندئذ على هذه القوى خصال شخصية الأب، فيبتدع لنفسه آلهة، الآلهة التي يخشى جانبها ويسترضيها ويفوض إليها مع ذلك مهمة حمايته).

طبقًا لفرويد يحتفظ الكبار بالخوف الطفولي من القوى المجهولة ويخترعون إلهًا يكون بمثابة شخصية أب كوني، يعكس حاجة طفولتهم المبكرة إلى أب يحميهم، ولكن يخافون منه في الوقت نفسه.

لا يقف تحليل فرويد عند طفل محدد أو مسار نمائي محدد، من الطفولة حتى البلوغ، بل يسعى ليفسر سبب كون الإيمان بالآلهة إيمانًا بشريًا عامًا، ولفعل ذلك يقترح أنّ القصة النمائية التي يروج لها تعيد على المستوى الفردي تمثيل مشكلة واجهتها الإنسانية عمومًا، منذ نشأتها كجنس بشري.

(وعلى هذا النحو يتشكل مخزن غني بالفكر نشأ من الحاجة إلى تقبل عجز الإنسان، وبنته مادة قدمتها ذكريات عجز طفولته، وطفولة جنس بشري بأكمله).

والخلاصة: أنّ فرويد يرى أنّ أساس الإيمان بالآلهة أمر طفولي أو صبياني نؤمن بالآلهة لأننا نشعر دائمًا بالقلق أمام القوى الطبيعية الخارجة عن سيطرتنا، ونتغلب على هذا القلق باختراع كائن أو كائنات لها خواص تعود إلى آبائنا أثناء فترة الطفولة المبكرة، ونتذكر أننا عندما كنّا أطفالًا صغارًا ـ ولو لا شعوريًا ـ ذلك الإحساس من الحماية بواسطة أب قوي ولكنه مخيف، ونستخدم هذه الذاكرة الطفولية ـ مرة أخرى لا شعوريًا ـ لنخلق مفهومًا للإله.

إلا أنَّ فرويد يتمادى بخطوة أخرى، فهو يرى أنّ الإيمان بالآلهة ما هو إلا وهم طفولي قديم (كذلك لا يجعل الإنسان من قوى الطبيعة كائنات يسعه الاتصال بها كأنداد ـ فهذا لن يتفق وما تحدثه في نفسه من وقع هائل ـ بل يضفي عليها خصائص الأب ويحولها إلى آلهة، وبالتالي لا يكون مجرد طفولي بل يكون أصلًا تطوريًا كما حاولت أن أبيّن).

يقصد فرويد بكلمة تطوري أولي أنَّ الآلهة ليست بدائية فقط من حيث التطور البشري الفردي، بل هي بقايا بدائيتنا وأصل ما قبل التأريخ، ويعبر بفجاجة أننا اكتسبنا الإيمان بالآلهة من أسلافنا رجال الكهوف، بل ربما اكتسبناه من الأنواع ما قبل البشرية، فالإيمان بالإله طفولي وقبل بشري».

ولربما تصور جستون باريت أنّ الناس سَيَعُدُّون ما قاله فرويد تحليلًا نفسيًا واقعيًا للطبيعة البشرية بسبب شهرته فيما يتعلق بعلم النفس، لذلك أراد أن يؤكد بأنّ الجمهور من علماء النفس لا يوافقونه على ذلك، فقال على إثر ما تقدم: «لم يأخذ دَليلَ فرويد الواهي بجدية بخصوص أصول الفكر الديني إلا قليل من علماء النفس وغيرهم من العلماء الدارسين للدين، إلا أنَّ فكرة أنَّ (الإيمان بالآلهة أمر صبياني محرج) بقيت ولم تختف تمامًا، فلنأخذ مثالًا توضيحيًا:

يتبنى ريتشارد دوكينز موقف (طفولية الدين) في بعض مقابلاته وكتاباته الحديثة، وهذا مثال توضيحي لمنظور دوكينز اقتبسناه من إحدى مقابلاته في عام ٢٠٠٦م: (إنني أهتم بشغف كبير بالحقيقة وإنّ أحد الاختلافات الرئيسية الواضحة بين بابا نويل والإله أنك لا تجد أي بالغ ـ ممن يؤمن بإله ـ يؤمن بوجود بابا نويل، وللأسف هنالك كثيرون لا يؤمنون ببابا نويل وفي الوقت نفسه يؤمنون بإله، وقد حان الوقت أن يكبروا ويطرحوا الإله جانبًا في نفس السن التي يطرحون فيها بابا نويل جانبًا، وإن كان هناك بعض الأشخاص القلقين من فقدانهم لإيمانهم، فأنا أشجعهم وأقول لهم اصمدوا لأنكم إن وقفتم وشاهدتم العالم الحقيقي مباشرة، فسيتبين أنه مكان أروع من العالم الذي يرسمه الدين والإيمان الصبياني هذا).

فدوكينز وفرويد يريان أنَّ الإيمان بالإله أو الآلهة يعد أملًا طفوليًا ينبغي للناس أن يكبروا ويطرحوا الإله جانبًا».

ثم يواصل نقد كلامهما فيقول: «إنّ وصم المعتقدات والممارسات الدينية بأنها صبيانية والاستنتاج بأنه ينبغي التخلي عنها بناء على ذلك الأساس ليس إلا خطابًا إقناعيًا فارغًا، وإنّ المقارنة الشائعة مع بابا نويل وجنية الأسنان تفضح هذا الغباء والخمول الفكري والجهل الخطير، أولا يؤمن الكبار البالغون بالآلهة ولا يؤمنون ببابا نويل وجنية الأسنان، بينما قد يؤمن الأطفال بالثلاثة كلهم، والحقيقة كما أشار العالم اللاهوتي ألستر ماكلجراث (Alister McGrath) ـ أنّ كثيرًا من البالغين ـ وهو منهم ـ يؤمنون بإله معين لم يكونوا مؤمنين به وهم أطفال، وتعد هذه الحقيقة أيضًا نقطة تعارض مع حالتي بابا نويل وجنية الأسنان، فالناس لا يستهلون أو يستأنفون الإيمان بهما في فترة البلوغ، بعد أن كانوا لا يؤمنون به وهم أطفال، كما أنّ بابا نويل وجنية الأسنان لا يملآن الفضاء المفاهيمي الموجود عند الأطفال (والبالغين) نتيجة إدراكهم الطبيعي، ولا يفسر بابا نويل وجنية الأسنان بسهولة النظام والغائية المتكيف العادي، ولا يفسران حسن الحظ أو سوء الحظ ولا يفسران أمور الأخلاق والحياة والموت والحياة الآخرة، وليس لهما أهمية تذكر فيما يتعلق بالمجريات اليومية الخارجة عن نطاق اهتمامهما المحدود جدًا (هدايا عيد الميلاد ومبادلة السن بالمال) لاحظ أنّ الوالدين يخدعان عمدًا أطفالهم بمعتقدات كهذه عن طريق التسلل والخداع، ولا يأكل البالغون (في العادة) القربان المقدم للآلهة ويتظاهرون أنّ الآلهة أكلته بنفس الطريقة التي يأكلون بها حلويات بابا نويل إن كان التلقين والخدع مصطنعة هي كل ما تعنيه الآلهة فسيطرحها البالغون عندما يكبرون جانبًا.

أتصور أنّ أغلب الكبار يؤيدون فكرة أنه ينبغي في فترة البلوغ التخلي عن التفكير (الصبياني) أو (غير الناضج) دون أي تحقق، أليس كذلك؟.

رجاء اعذروا سذاجتي، ولكن لماذا؟ لماذا عندما نعتبر فكرة ما أنها صبيانية ستكون على الفور فكرة سيئة أو خطيرة أو خاطئة؟ قد تقول (لا شك

أنَّ معرفة الأطفال قليلة مقارنة بمعرفة البالغين، ويرتكبون أخطاء أكثر في التفكير، فأحكامهم بالتالي ليست جديرة بالثقة)، هذا أمر متفق عليه ولكن ما يقتضيه هذا الأمر أنه ينبغي لنا أن نفحص معتقدات الأطفال بعناية أكثر من معتقدات البالغين، وخاصة إن انحرفوا عما يؤمن به البالغون، ولكن البالغين يؤمنون عمومًا بالآلهة.

إنّ حالة هذا الإيمان الذي يبدأ في فترة الطفولة ويستمر عادة في فترة البلوغ تضعه في نفس فئة الإيمان بالجاذبية، وبقاء الأجسام الصلبة، وتعاقب الزمن، وقابلية التنبؤ في القوانين الطبيعية، وأنَّ المؤثرات تسبق الآثار، وبأنّ الحيوانات تلد صغارًا تشبهها، وأنّ للناس أفكارًا وحاجات تحرك أفعالهم وتوجهها، وأنّ بعض الأمور صحيحة أو خاطئة أخلاقيًا، وبأنّ الأمهات يحببن أبناءهن وبناتهن، وبالكثير الكثير من الأفكار عن العالم، وقد ناقشنا بعضها في فصول سابقة.

إنّ جميع هذه المعتقدات تنشأ مبكرًا في فترة الطفولة وتستمر عادة في فترة البلوغ. فإذا كان الإيمان بالآلهة أمرًا (صبيانيًا) أو (غير ناضج) وفق الاعتبار نفسه لهذه الأنواع من المعتقدات، فنعمًا هذه الصحبة.

أفضّل النهج الذي يعتبر أنّ عقولنا أساسًا جديرة بالثقة لتعطي المعتقدات الصحيحة، وأنه ينبغي اعتبار معتقداتنا (الصبيانية) الناشئة فطريًا معتقدات صحيحة حتى نحصل على سبب وجيه يجعلنا نشك بأنها معضلة. ليس واضحًا لي لِمَ نفعل العكس، ومع ذلك نبقى أناسًا طبيعيين عقلاء! تنشأ الكثير من معارفنا الأساسية وقيمنا المرشدة أثناء فترة الطفولة وتشكل لنا حياتنا. ينبغي لنا أن نثق في هذه المعتقدات (الصبيانية) البريئة حتى تثبُت إدانتها. قد يردُّ ملحد داروينيّ بأنّ هناك أسبابًا أخرى وجيهة تعاكس الإيمان بكثير من الآلهة إن لم تعاكس الإيمان بها جميعها. قد يكون هذا

صحيحًا، إلا أنّ الاكتشاف بأنّ الإيمان بالآلهة أمر (صبياني) ليس واحدًا من هذه الأسباب الوجيهة.

ولننتبه أيضًا ليس معنى عدم نشوء فكرة أو اعتقاد ما نمطيًا في فترة الطفولة، وتأخره حتى فترة البلوغ أنه اعتقاد صحيح. إن اعتبرنا الإيمان بالآلهة إيمانًا (غير ناضج) أو (صبيانيًا) لأنه نشأ مبكرًا في الحياة، فلنتذكر إذن أنّ كثيرًا من المعتقدات (الناضجة) أو (البالغة) لا تحمل أي أفضلية على معتقدات الطفولة من حيث المصداقية أو القيمة، أو المرغوبية. يبتكر البالغون نظريات علمية وآراء فلسفية ننبذها فيما بعد لأنها خاطئة أو غير ذات جدوى. لا تجد أي طفل يؤمن أنه لا شيء يوجد حقيقة إلا النفس، أو أنه ليس هناك عالم خارج النفس، أو أننا أدمغة في مكان واسع ما. يجرب البالغون هذه الأنواع من المعتقدات، اعتقدوا مثلًا أنّ تدخين التبغ وتعاطي المخدرات لا يضران؛ بل هما للتمتع وتسلية الأوقات، واعتقدوا أنّ فصد دماء الناس وفتح الثقوب في جماجمهم علاجان مناسبان للاضطرابات المزاجية أو الوجدانية، في حين لا يبتدع الأطفال مثل تلك الآراء. ويميل البالغون أكثر إلى الاعتقاد بأن قتل أنفسهم أو قتل غيرهم فكرتان جيدتان، من الصعب أن تجد طفلًا في الخامسة يوافقك على هذا تحت أي ظرف من الظروف. قد يكون البالغون أكثر اطلاعًا وربما أكثر ذكاء من الأطفال، لكن إضافة إلى كونهم أكثر صوابًا من الأطفال فهم يخطئون أيضًا أكثر من الأطفال.

وأُثير هذه القضايا لأبيّن أنّه إن كان إيمان ما (صبيانيًا) بمعنى أنه نشأ في فترة الطفولة المبكرة، فليس لهذا علاقة مباشرة بصحته وصلاحيته أم لا، وقد يكون من الحصافة التعامل مع معتقدات الطفولة على أنها معتقدات بريئة حتى تثبت إدانتها»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٨ ـ ٢١٤. «بتصرف يسير»

والخلاصة؛ أنَّ الإيمان بالله ركيزة في النفس بمقتضى الفطرة لإحساسها بالحدوث عن العدم، وافتقار كل ما في الكون إلى من خلقه فسواه، وأحكم صنعه وأتقن نظامه، وأنّ كل ما يتدفق في هذا الوجود إنما هو من آلائه تعالى الواسعة، التي لا يستغني عنها قوي ولا ضعيف في أقل من لحظة عين، ولصفاء نفوس الأطفال وعدم تكدر فطرتها بملوثات ينطبع فيها هذا الإيمان، وتخليهم عنه بعد قراره في نفوسهم ليس هو إلا لما يعرو النفوس من ظلمات الشك التي تأتي من قبل الشيطان، كما جاء في الحديث القدسي: «**وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[1]، ولا يعد ذلك رقيًا في الفكر، ولا تقدمًا في العلم، وإنما هو انتكاسة في الجهل، وترد في الضلال، وتخبط في الحياة.

ومهما يكن حال هؤلاء فإنهم يبقون شاعرين بفراغ نفسي وخواء روحي لا يملؤهما إلا الإيمان بالله، ولذلك تجد من آمن بعد كفره منهم يعرب عن ارتياح ضميره، وطمأنينة نفسه، وراحة قلبه، لأنه استجاب لداعي الفطرة بعد أن ندَّ عنها، وبإيمانه هذا يشعر بتفاعله مع نفسه التي تنسجم حركاتها الاضطرارية الفطرية مع مقتضى الإيمان بالله، كما يشعر بتناغمه مع أصوات الكائنات المسبحة بحمد الله، الشاهدة له بوحدانيته.

هذا؛ وقد كان **جستون باريت** واقعًا تحت تأثير بيئته البعيدة عن حقيقة الإيمان الصحيح، فلذلك كان يعبر بالآلهة مع أنه لا إله إلا الله، وهذا ما تقتضيه الفطرة، ويقتضيه تفاعل الإنسان مع المنظومة الكونية، الموحدة لله، الخاضعة لكبريائه.

وإذا كانت هذه الآيات تتجلى للعالم والجاهل والذكي والغبي، والغمر والعبقري، كل بحسب مداركه وفتوحاته، فإنه يُعْجَب من الإنسان ـ كيفما كان في سعة أفقه أو ضيقه ـ أن يعرض عن الله تعالى ويتجاهل آياته العظمى

---

(١) سبق تخريجه.

فيغمض عنها عينيه، ويُصِمُّ عن نذرها أذنيه حتى تصل به الوقاحة والبذاءة إلى أن ينكر وجوده تعالى؟! فكيف ينكر وجوده، وكل جزيئة في جسمه تقيم عليه من الحجج، والشـواهد الدالة على الله ما لا يدخل في الحسبان، وهي تنادي بلسان حالها مسفهة أحلامه وشاهدة عليه بالغرور والخسران المبين؟!.

وكم تجد في عبارات الملحدين أنفسـهم ما يوحي بإدراكهم عظمة آيات الله تعالى في الوجود، وكيف صمـم هذا الوجود تصميمًـا بديعًا في إتقانه، حكيمًا في نظامه، لا يوجد فيه ما يعاب فـي صنعته ولا في تدبيره، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملـك: ٣]، ولكنهـم مع ذلك كلـه ينزعون منـزع المكابرة والتعامي عـن هذه الآيـات، ليعزوا هذا الانسجام في نظام الكون إلى تلك الفوضى العشـوائية في الطفرات الوراثية التي يبوئونها مقام الخالق العظيم، كما كان ذلك من **دانييل دينيت** عندما قال في كتابه **فكـرة داروين الخطيـرة**: «إنّ عالم الأحياء بـكل ما فيه من جمال وعجائب وما يبـدو عليه من تصميم دقيـق مدهش بارع، ليـس مخلوقًا أو مصممًا عن طريق إله أو أي شيء شبيه بالإله، ولكنه نتاج انتخاب طبيعي قام بغربلته طفرات وراثية عشـوائية، إنها عملية ميكانيكية لا واعية، أنتجت من الفوضى هذا الانسجام دون معونة من عقل»[1].

ومثل ذلك ما أثبته في كتابه **مثل بقايا التطوريين** من أن الحياة قد نشأت بالتطور الكيميائي العشوائي الذي يخضع للقوانين الكيميائية والفيزيائية[2].

وهذا كلام غني عن التعليق، فإنّه ينقض نفسـه بنفسـه، ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، فتراه يعترف بما في عالم الأحياء من

---

(١) د. عمرو شريف: **خرافة الإلحاد**، ص ٣٩٩، نقلاً عن:
(Darwin's Dangerous Idea, New York: Simoon & Shuster, 1995, p50).

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص ٣٩٩.

جمال وعجائب، وما يبدو عليه من تصميم مدهش بارع، ولكنه بجانب ذلك يصر على أنه ليس مخلوقًا أو مصممًا عن طريق إله أو أي شيء شبيه بالإله، ويعزو ما فيه من التصميم الدقيق والجمال البارع إلى انتخاب طبيعي يدعي أنه قام بغربلة طفرات وراثية عشوائية، يسميها عملية ميكانيكية لا واعية، ويزعم أنها أنتجت من الفوضى هذا الانسجام دون معونة من عقل.

ويا للعجب ما أسخف هذا الكلام، وما أغرب صدوره ممن يدعي العقل، ويزعم أنه على بيّنة من أمره، فأنى للطفرات العشوائية أن تنتج الدقة والنظام، وأنى للفوضى أن تلد الانسجام، ولكن العقول إذا خارت حارت، حتى لا يدري صاحبها ما يصدر عنه من الهذيان.

ثم يتبع ذلك بأنّ هذه الفكرة تجبرنا إلى أن نعيد النظر في كل مفاهيمنا (الطفولية) حول الحياة والأخلاق والقيم، زاعمًا أنها تؤدي في النهاية إلى التنكر تمامًا للإله مدعيًا أنّ هذه الفكرة ستبقى وتسود، لأن البقاء للأصلح، وسوف تنقرض المفاهيم الدينية، وقد أدت به البذاءة في القول إلى أن يقترح بأن يحتفظ ببعض المتدينين في حدائق ثقافية للحيوان حتى تشاهدهم الأجيال القادمة، بشرط أن لا يسمموا عقول أبنائهم بأفكارهم عن الإله[1].

ولعمري؛ لبئست الفلسفة هذه التي تسلب رب السماوات والأرض، الذي أحصى كل شيء علمًا، واتصف بمطلق الكمالات صفة الخلق، وتعطيها للطفرات العشوائية، وتزعم أنّ مصير الأمر إلى التنكر المطلق لوجود الله، وأنّ هذه الفكرة هي التي ستبقى وتسود، بينما المفاهيم الدينية ستولي إلى غير رجعة، وتؤدي هذه الفلسفة بصاحبها إلى أن يقترح بالاحتفاظ ببعض المتدينين في حدائق حيوانية ثقافية لتشاهدهم الأجيال القادمة من أجل الاستخفاف بهم، وبما يدينون به من الدين، مع اشتراط أن لا يسمموا عقول أبنائهم بأفكارهم عن الإله.

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٩٩ ـ ٤٠٠.

وندع هنا للعقول أن تنظر في هذه الدعوى، وهل يمكن أن تصدر إلا ممن أصيب بلوثة معضلة في عقله؟!.

ويضيف دينيت إلى ما تقدم؛ أنّ أي إنسان يشك اليوم في أنّ تنوع الحياة على كوكبنا قد حدث بالتطور الداروينى، فهو ببساطة جاهل لا يعذر، ويعلق على كلامه هذا د. عمرو شريف بأنه: «يبدو أنّ وصف الآخرين بالجهل يعجب الدراونة، فلم يكن دينيت هو السباق به فـ دوكنز كتب في عام ١٩٨٩م في جريدة النيويورك تايمز يقول: (لا أتجاوز الحقيقة إذا اعتبرت من لا يؤمن بالداروينية إما جاهل أو غبي أو مجنون أو شرير مؤذ)» ويضيف إلى ذلك د. شريف: «لقد كان دوكنز أكرم من دينيت إذ أعطانا حق الاختيار بين أربع نقائص..! كما لم يرفض التماس العذر لنا، أما دينيت فكان أكثر حزمًا عندما اعتبر أنّ الجهل لا يعذر، وفي النهاية فإنّ كليهما يتبنى اللهجة المستعلية الصارمة فاستحقا الوصف الذي أطلقاه على أنفسهما؛ بأنهما ملاحدة أصوليون»[1].

وهكذا شأن الأمور عندما تنقلب الموازين عند الناس، فيصبح العلم جهلًا والجهل علمًا، والحق باطلًا والباطل حقًا، والصلاح فسادًا والفساد صلاحًا، والبر فجورًا والفجور برًا، على أنّ دينيت هذا هو في نفس القطيع الإلحادي الذي يضم دوكنز ويضم معهما سام هاريس الملحد الحقود، وكريستوفر هتشنر وآخرين.

ووصف دينيت للتطور الداروينى بالخطورة يتمثل في أربعة محاور:

١ ـ أنه يمكن رد كل سمة من سمات العالم إلى آلية ميكانيكية عمياء لا غاية لها ولا بصيرة.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠٠.

٢ ـ أنه لا ينبغي أن يشارك الإيمان العقل كمصدر للمعرفة حتى في قضايا الغيب.

٣ ـ أنّ فكرة وجود الإله المتشخص فكرة طفولية غير منطقية.

٤ ـ أنّ الأدلة التقليدية على الألوهية المتمثلة في الحدوث وافتقاره إلى التصميم هي غير صحيحة، وعليه فمن ادعى وجود الإله عليه أن يقدم دليلًا حسيًا عمليًا[1].

ولا يخفى على متأمل أن جميع هذه المحاور إنما استلهمها دينيت من عقليته المادية البحتة، وفكره المنغلق المظلم، فرد جميع سمات العالم إلى آلية ميكانيكية عمياء لا غاية لها ولا بصيرة، فكرة طائشة لا تصدر عمن فيه مثقال ذرة من بصيرة، فإنّ الأمور كلها إنّما يقاس بعضها على بعض، وهل يمكن لعقل بشري أن يتقبل تنظيم شيء وإتقانه بطريقة آلية لا دخل فيها للإرادة ولا للتصميم، فهب أن كتابًا مطبوعًا وجدناه بين أيدينا محكمًا في تعبيره، دقيقًا في مضامينه، يتناول فنًا من فنون العلم بعمق واستيعاب؛ هل يمكن أن يتصور أنّ آلة طابعة أنشأته وأحكمت تعبيره، وأتقنت ترتيب أبوابه وفصوله من غير خطأ في كلمة أو إخلال بحرف واحد كل ذلك بدون إرادة ولا عقل؟! وإذا كان هذا في كتاب واحد لا يتجاوز مئات من الصفحات، وربما يكون مختصرًا لا يتجاوز عشرات منها بل هو ينطبق حتى على سطر أو سطرين منه، بل ينطبق على جملة واحدة منه، فكيف يصدق عقل أنّ خلق الإنسان الذي يشتمل على ملايين الملايين من الخلايا المنتظمة المنسجمة فيما بينها كأنها حروف كلمة ذات معنى أو كلمات جملة مفيدة، ومع ذلك فإنّ كل خلية منها مبرمجة برمجة لغوية حرفية لو شرحت محتوياتها من المعاني

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٤٠١.

لملأت عشرة آلاف مجلد، كل مجلد منها ألف صفحة كما سيأتي، كيف يمكن تصديق أنّ يكون ذلك كله وقع بطفرات عشوائية من غير إرادة ولا عقل؟!.

ناهيك بالخلايا العصبية التي اعترف الملحد المعاند دوكنز أنّ في كثير من هذه البلايين من الخلايا العصبية يوجد لكل خلية ما يزيد عن ألف سلك كهربي، يصلها بعصبات أخرى، كما سيأتي إنّ شاء الله نص كلامه موثقًا، فأنى يتصور أن تكون الضربات العشوائية هي التي أبدعت هذا كله؟.

ويا ترى؛ هل يمكن أن يصدق دينيت الملحد أنّ حاسوبًا أعد بنفسه معلوماته، ونسقها من غير أن يكون في ذلك تصميم، أو أن يكون وراءه عقل أو يد؟ وإذا كان ذلك في معلومات الحاسوب وحده فكيف بما اشتملت عليه كل خلية من معلومات تحير العقول وتدهش الألباب، أنى يمكن أن يكون ذلك من غير أن يكون وراءه علم ولا إرادة؟؟! وإذا كان هذا كله في خلية واحدة، فما بالك بهذه الخلايا التي هي في الجسم، والتي هي على أقل تقدير عشرات من التريليونات؟!.

وإذا كان هذا في الإنسان الواحد، فما بالك بهذه الأعداد الهائلة من البشر، بل ما بالك بهذه الأعداد الهائلة من الكائنات الحية الأخرى؟!.

وما بالك بهذا الكون كله الذي ينتظم كل شيء منه في سلك منظومته العامة، مع أنه لا يمكن لعقل أن يتصور أبعاده، أو أن يتخيل حدوده، ناهيك أنّ ما اكتشف منه وصلت مسافته إلى نحو مائة وثمانين مليار سنة ضوئية، كما سيأتي بيانه موثقًا إن شاء الله، وهو بهذه الأبعاد كلها منظومة واحدة، منسجم كل ما تشتمل عليه من أدق ذراته إلى أوسع مجراته، بل ما دون الذرات بحيث لو كانت الكتلة بين البروتون والإلكترون أقل قليلًا مما هي عليه لما استقرت الشمس، ولما ظهرت الحياة.. ولو كانت كتلة البروتون أثقل مما هي عليه الآن بـ ٠,٢٪ فقط، فإنّه سينحل إلى نيوترونات، وبالتالي سيعجز عن الإمساك بالإلكترونات التي تدور

حول النواة، وسينهار النموذج الذري، ولو كانت النسبة بين كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون أقل قليلًا مما هي عليه الآن، فلن تظهر نجوم مستقرة، ولو كانت أعلى قليلًا مما هي عليه الآن، فلن تظهر الأنظمة التشفيرية في خلايا الكائنات الحية، كما سيأتي ذلك مفصلًا وموثقًا في موضعه ـ إن شاء الله ـ.

ومما يؤكد استحالة انتظام حروف مطبوعة بآلة طابعة لتتكون منها كلمات ذات معنى من غير أن يقوم أحد ذو وعي بطبعها ما ذكره **أنتوني فلو** في كتابه **هناك إله**، أن تجربة أجراها المجلس القومي البريطاني للفنون، وضع فيها الباحثون حاسوبًا في قفص فيه ستة قرود، وظلت القردة تدق أزراره لمدة شهر كامل، وكان ما طبعته فيها من الحروف المفرقة بلغ (٥٠ صفحة) ولكنها جميعًا خلت من كلمة واحدة ذات معنى، وقد لوحظ أن هذه النتيجة كانت بالرغم من أن أقصر كلمة باللغة الإنجليزية هي حرف واحد (A و I) فحرف (A) في حد ذاته كلمة إن وجدت مسافتان على كلا الجانبين، وقد استخلص من ذلك الذي قام بعرض هذه التجربة أنّ احتمالية الحصول على كلمة مكونة من حرف واحد هي احتمالية واحدة في كل (٢٧٠٠٠) احتمالية[١].

ولا يخفى أنّ انطباع حروف في خمسين صفحة لم يكن بفعل الحاسوب بنفسه، من غير أن يكون هناك ضغط على أزراره، فبتأثير ذلك الضغط كان انطباع هذه الحروف ومعنى ذلك أنها لم تكن أثرًا بغير مؤثر، ولكن بما أنّ الضاغط على الأزرار لم يكن ذا وعي وقصد تعذر أن تأتلف من هذه الحروف جميعًا حروف بعينها تمثل كلمة ذات معنى، ولو كانت هي بنفسها لا تتعدى حرفًا واحدًا، وهذا مما يدل قطعًا على أنّ انتظام أي شيء كان لا يمكن أن يكون بغير نظم من أحد.

---

(١) ينظر؛ أنتوني فلو مع روي إبراهام فارجيس: **هناك إله، كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره**، ص١٠٠ ـ ١٠١، تقديم د. محمد العوضي، ترجمة: جنات جمال، رواسخ ـ الكويت، ط ٢: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

وحكى فلو بعد ذلك: أنّ الذي قام بعرض هذه التجربة طبق تلك الاحتمالات على أربعة عشر شطر بيت شعري طويل، اختار منها شطرًا معروفًا، وقد أحصى حروفه فوجدها ٤٨٨ حرفًا، ثم تساءل ما هي احتمالية أن يحصل بالطرق على لوحة المفاتيح على ٤٨٨ حرفًا، وبنفس الترتيب التسلسلي تمامًا، كما جاء في ذلك الشطر؟.

وأجاب: بأنّ الاحتمالات ستظل ٢٦ احتمالًا مضروبة في نفسها ٤٨٨ مرة أو (٢٦ أس ٤٨٨) [$٢٦^{٤٨٨}$]، أو بتعبير آخر (١٠ أس ٦٩٠) [$١٠^{٦٩٠}$]!.

وأضاف إلى ذلك: والآن، عندما نحصي عدد الجسيمات في الكون ـ بالطبع ليست حبات الرمل، ولكن أقصد البروتونات والإلكترونات والنيترونات ـ فستجد عددها (١٠ أس ٨٠) [$١٠^{٨٠}$]، أي واحد وعلى يمينه ٨٠ صفرًا، وأنّ (١٠ أس ٦٩٠) [$١٠^{٦٩٠}$]، أي واحد وعلى يمينة ٦٩٠ صفرًا! معنى ذلك أنه ليس هناك جسيمات تكفي لإجراء المحاولات، وسنحتاج إلى مزيد من الجسيمات بمقدار (١٠ أس ٦٠٠) [$١٠^{٦٠٠}$].

وإذا أخذنا الكون وحولنا مادته بالكامل إلى رقاقات للحاسب الآلي ـ انس أمر القرود ـ تزن كل منها جزءًا من المليون من الجرام، وافترضنا أنّ كل رقاقة تستطيع أن تجري المحاولات بسرعة، (لنقل مليون محاولة في الثانية) سنجد أنّ عدد المحاولات التي ستحصل عليها منذ نشأة الكون هي (١٠ أس ٩٠) [$١٠^{٩٠}$] محاولة، أي أنك ستحتاج مرة أخرى كونًا أكبر بمقدار (١٠ أس ٦٠٠) [$١٠^{٦٠٠}$] أو عمرًا أطول للكون بنفس المقدار![1].

كل هذا مما يؤكد استحالة أنّ يكون نظام هذا الكون الذي يبهر العقول، وتعجز الأفكار عن تصوره، والعلوم عن تصويره، يستحيل بكل المقاييس العقلية والعلمية أن يكون وليد طفرات عشوائية كما يدعيه الملحدون.

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٠١.

وأما دعوى دينيت أنه لا ينبغي أن يشارك الإيمان العقل كمصدر للمعرفة حتى في قضايا الغيب، فهي ليست صادرة إلا من عمى بصيرته، وأنى للملحد أن تكون له بصيرة؟! وقد أجاد من قال:

..... وعمى البصائر من عمى الأبصار

وقال أصدق القائلين: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فكيف يتصور أن يكون العقل ينفذ بنفسه إلى الغيب المغيب فيكتشف ما وراء ستاره الغليظ، فهب أنّ أحدًا قبل قرنين أو ثلاثة تحدث بين الناس بأنه سيأتي زمان يتيسر لكل أحد فيه أن يكلم غيره، ولو كان أحدهما في مشارق الأرض والآخر في مغاربها، بل يمكنهما أن يتراءيا كما لو كانا جالسين في مجلس واحد، أو أنه سيتيسر للناس عبر الأثير أن يتحدث أحدهما من أي بقعة في الأرض، فيمكن لمن في الأرض جميعًا أن يسمعوا صوته ويفقهوا حديثه، كأنه أمام كل واحد منهم في مجلس يجمعه به، ومع ذلك أيضًا يمكن أن يشاهدوه ويروا حركاته، ويسمعوا تردد أنفاسه كما لو كانوا بين يديه، أتُرى من يسمعون حديثه في ذلك الزمن البعيد يمكنهم أن يصدقوه في ذلك أو أنهم جميعًا ستطبق كلمتهم بأنه مجنون يهذي، وأنه بحاجة إلى أن ينقل إلى مصحات الجنون؟!.

فهذه هي حدود العقل يظل في كل عصر محدودًا بحدود بيئته ومحيطه، وإذا كان ذلك في هذه الحياة نفسها؛ فكيف يتصور للعقل أن يفوق الإيمان في إدراكه حقائق الغيب الذي هي في عالم يأتي بعد عالمنا هذا؟.

أما الإيمان فإنّه يستلهم معرفة ذلك من الوحي القطعي الذي ينزل به أمين السماء على أمين الأرض، من عند الله تعالى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم ما تخفيه الصدور، وما تنطوي عليه الضمائر ويحيط بكل ما في الدنيا والآخرة؛ لأن الدنيا والآخرة هما من صنعه، لولاه

لما وجدت دنيا ولا آخرة، ولما وجـدت ذرة في الوجود، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وأما دعواه أنّ فكرة وجود الإلـه فكرة طفولية غير منطقية..! فهي لا تدل على طفوليته فقط بل هي دليل على أنه هو أقل إدراكًا وأسوأ حالًا وأدنى وزنًا من ذرة في الهباء، كيـف وكل ذرة هي بذاتها مكتبة حافلـة بآيات الله تعالى الشاهدة عليه.

وكذلك دعواه أنّ أدلة الألوهية غير صحيحـة، وأنّ من ادعى وجود الإله يلزمه أن يقدم دليلًا حسـيًا عمليًا..! فإنها لا تـدل إلا على عماه عن آيات الله الجلى، وسوف تجد إن شـاء الله في الأبواب الآتية ما يثلج الصدور من هذه الأدلة القاطعة التي عميت عنها عين دينيت، كما عميت عنها بصيرته المظلمة.

وقد وجـدت أطروحة دينيت هـذه معارضة قوية من قبل كبار فلاسـفة الغرب أنفسهم كالفيلسوف الأمريكي الشـهير **ألڤين كارل بلانتينغا** الذي رد عليه قائلًا: «عبر تاريخ الفلسـفة القديمة والحديثـة والمعاصرة كان هناك من يرى أنه لا يوجد دليل مقبول على وجود الآخرين، أو وجود الشخص نفسه، أو وجود العالم الخارجي، أو وقوع الأحداث الماضية، ومع ذلك لم يقل أحد إنّ اليقين بوجود هذه الأشياء غير منطقي».

وأضاف إلى ذلك: «إنّ دينيت وغيره ممن يتبنون المذهب الطبيعي لا يدرون شيئًا عن فلسـفة الدين، الذي يشغل ثلث الفلسـفة، ومع ذلك لا يتوقفون عن الخوض فيها والهجوم عليها، ينبغي أن يعوا أنّ الربع الأخير من القرن العشرين قد شهد موجات من انحسار الفلسفة المادية لصالح الفلسفة الدينية».

وختم كلامه قائلًا: «لقد فات دينيت أنّ الإنسـان الأمريكي ما زال يؤمن بالإله والدين، وإن لم يمارس طقوسـه، كما أثبتت الإحصائيات أنّ أكثر من

٨٥٪ من الأمريكيين يرفضون التطور الداروينى، ويعارضون تدريسه لأولادهم في المدارس، معنى ذلك أن فكـرة داروين كانت خطيرة على العلم أكثر مما كانت خطيرة على الدين»[١].

ولا يخفى أنّ الإلحاد شديد الكراهية للتدين أيًا كان نوعه، لأنه يسعى إلى إطلاق الإنسـان ليرتع في مراعي شـهواته من غير قيد، كما هو شأن البهيمة العجماء، ولا غـرو فإنهم لا يقيمون وزنًـا للإنسـانية ولا يلتفتون إلى تلك النفخة الغيبية التي نفخها الله تعالى في الإنسـان، فميـزه على غيره وفضله تفضيلًا، ويرى الملحدون أنّ انضباط الإنسـان في سـلوكه بحسب ما يمليه الدين من فروض، وما يقيده به من أخلاق هو كبت لحرية الإنسان كما تكبت حرية الحيوان عندما يحصر في أقفاص، أو يقيد بأرسان.

ولكن مع هـذه الكراهية البالغة التي تشـمل أي دين كان؛ فـإنّ كراهيتهم للإسلام وتآمرهم عليه، وإثارتهم الشبهات حوله ومبالغتهم في الافتراء عليه هي أضعاف ما يكون منهم تجاه جميع الأديان مجتمعة، وذلك يعود إلى عدة أسباب.

أولها: عقيدة الإسلام الصلبة التي يتهشـم عليها الإلحاد بكل شبهه، وما تمتاز به من قوة براهينها العقلية، وما تتسـع له مما يدور بفكر الإنسـان من تسـاؤلات حول الغيب، بحيـث تجيب على كل تسـاؤل وتحـل كل لغز، وتكشف كل سر معمى.

ثانيها: اعتمادهـا على القرآن الكريم، وهو الوحـي الإلهي الوحيد الذي بقي مصونًا من أيدي العابثين، لم تنحـرف به الأهواء، ولا تمل به الرغبات، وهو آية معجزة حارت منهـا ألباب معارضيه، وذلك ممـا يرجع إلى إحكام مبناه وعمق معناه، وتطابقه مع الحقائق، وانسجامه مع العلم، وبجانب ذلك هو حافل بكل ما تحتاج إليه الإنسـانية مما يُقَوّم حياتها الفكرية والاجتماعية

---

(١) د. عمرو شريف: خرافة الإلحاد، ص٤٠١.

والسياسية والأدبية، ويهذب مع ذلك أخلاقها ويرتقي بها فكرًا وسلوكًا، وبجانب ذلك يشمل في بيانه وتشريعه جميع الأطوار البشرية الفكرية والسياسية والاقتصادية وغيرها، منذ إنزاله على النبي العربي الأمي ﷺ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد بهرت آيته العظمى ألباب الملحدين بما تكشف لهم من أنّ بيانه الدافق بأجل الحقائق وأقدسها وأصدق المعاني وأجلاها تسري فيه روح غيبية لم تكن في أي تعبير آخر وإن سما إلى أرقى درجات الفصاحة والبلاغة المعهودتين في كلام البشر، وهذا ما جعل أشهر رادة الملحدين في بلاد العرب **شبلي شميل**، يفصح بأصرح العبارات عما يكنه في نفسه من إعجاب بهذا القرآن، وإجلال لمن نادى به بين الناس، وهو نبي الهدى عليه أفضل الصلاة والسلام، وذلك في قوله:

دع من محمّد في سدى قرآنه ... ما قد نحاه للحمة الغايات
إني وإن أك قد كفرت بدينه ... هل أكفرنّ بمحكم الآيات
أو ما حوت في ناصع الألفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بها ... ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبّر والحكيم وإنّه ... ربّ الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجى رجل السياسة والدّهَا ... بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد غلب النهى ... وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى ... من سابق أو حاضر أو آت[1]

---

(١) محمد رشيد: **مجلة المنار**، (العدد الصادر يوم الثلاثاء غرة محرم/ ١٣٢٦هـ والموافق ٣ مارس ١٩٠٨م)، (مج ١١/١٠ ـ ١١)، وأيضًا: (العدد الصادر بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٣٥هـ، والموافق ١٨ أبريل ١٩١٧م)، (مج ١٩/٦٢٧ ـ ٦٢٨)، وينظر كذلك: **الوحي المحمدي**، ص ١٤٠، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط ١٠: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ثالثها: أنّ الإسلام الحنيف هو دين الفطرة الذي ينسجم معها ولا يصطدم بشيء منها، فهو بذلك مطلب فطري، ولذلك تتفاعل معه النفوس بمجرد ما تطلع على محاسنه ومزاياه.

رابعها: أنّ الإسلام عقيدة وشريعة، يضمن لكل من تمسك به الرقي في معارج الكمال، ولذلك كانت أمته عندما كانت تتمسك به مضرب الأمثال بين الأمم في حسن قيادتها ورقي أخلاقها وعلو سياستها، فتحول به رعاة الأغنام؛ الذين كانوا عبدة للأصنام إلى قادة للأمم، ورادة للفضائل، ومنارات للفكر، وأوتاد للسلامة والأمن.

وهذا الذي جعل فلاسفة الغرب يعترفون بما كان للفاتحين العرب ـ الذين هذبهم الإسلام، وارتقى بهم الإيمان ـ من أخلاق عالية لم تكن لغيرهم من الأمم كما جاء ذلك في قول الفيلسوف الفرنسي **جوستاف لوبون**: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب»[1].

ولا يخفى أنّ هذه الأخلاق الإيمانية التي كانت متمثلة في سلوك الفاتحين الأولين من المسلمين، كانت هي الوسيلة للتعريف بالإسلام والدعوة إليه بين جماهير الأمم التي تمكنوا من قيادتها، فما لبثت تلك الجماهير أن تحولت إلى دين الإسلام الحق مع كونها غير خبيرة بلغة أولئك الفاتحين، ولغة قائدهم ودليلهم القرآن، وإنما رأوا في سلوك كل واحد من أولئك إسلامًا يمشي على الأرض، بمحاسنه ومكارمه، فتساوقوا إلى اتباعه عن طواعية واقتناع، وهذه الوسيلة هي أنجح الوسائل إلى يومنا هذا في

---

(١) ينظر؛ رشيد رضا: **الوحي المحمدي**، ص١٤٩، تعليق رقم (٣)، وينظر؛ محمد الغزالي: **قذائف الحق**، ص٢٩٣، دار القلم ـ دمشق، ط٢: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، والميداني: **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها**، ص١٨٦، والعفاني؛ أبو التراب سيد بن حسين: **أعلام وأقزام في ميزان الإسلام**، ١٤٣/٢، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ـ جدة، ط١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

الدعوة إلى الإيمان، وتعريف الناس بهذا الدين المتين، وقد اطلعت بنفسي على أمثلة حية من هذا التأثير في نفوس الناس، الذين كانوا بعيدين عن الإيمان لا يخطر منهم على بال، فضلًا عن أن يحفزهم إليه حافز، وأذكر من بين هذه الأمثلة أن شابًا عمانيًا كان طالبًا في إحدى الجامعات بالمملكة المتحدة، وكانت له زميلة بريطانية في دراسته، فأعجبت أيما إعجاب بأخلاقه، وكانت تتحدث عنه باستمرار عند أسرتها، وتنقل إليهم محاسنه التي لم تر مثلها في بشر، وعندما سألته عن هذه الأخلاق الراقية التي لا يوجد لها نظير فيمن عرفتهم من الناس؟ رد عليها: بأنّ هذا هو الإسلام، فما كان منها إلا أن اتبعته في دينه فأعلنت إسلامها، وأبلغت بذلك أهلها، وأخذت تدعو أسرتها إلى الإيمان الذي أكرمها الله ﷻ به فاقتنعت به الأسرة، ما عدا أباها الذي كان مصّرا على أن يبقى متحررًا من تبعات الدين، ولكن ما لبث هو بعد أن اطلع على هذا التحول العظيم الذي حصل لأسرته، حتى انقلبت إلى شبه ملائكة يمشون على الأرض، أن اتبعهم على الإيمان فانضم إليهم.

وبما أنّ الشاب العماني هو الذي ساق إليهم هذا الخير بإذن الله تعالى، عرضوا عليه جميعًا أن يتزوج ابنتهم تلك، إذ لا يعرفون لها كفوًا غيره، وبعد إلحاح وافقهم على ذلك، فتم زواجه بها، وبعد تخرجه أتى بالأسرة جميعًا إلى عمان وآثرت أن تستقر في المحيط الإسلامي، وأن تستبدله بتلك البيئة اللادينية التي كانوا فيها، وقد أصبحت هذه الأسرة أكثر التزامًا بتعاليم الإسلام وآدابه من كثير أو من أكثر من ولدوا على الإسلام ونشأوا عليه.

وهذا مما يقلق الملحدين طبعًا، فلا عجب مع هذا أن يشنوا على الإسلام تلك الحملة الشعواء، ويوجهوا إليه حرابهم.

خامسها: أنّ متانة أصوله ومرونة فروعه تبهر الألباب، وتجتذب الأمم إلى اعتناقه، فكم من عدو قضى حياته في محاربة الإسلام عندما كان يجهله،

ولكن ما كاد يفتح عينه على محاسنه حتى انجذب إليه فآمن به واتبعه، سواء كان ذلك في بداية دعوته الأخيرة على يـدي النبي ﷺ، أو ما كان من بعد، كالذي حصل من المغول الذين كانوا أشد ضراوة في حربه، وأكثر مبالغة في عداوته، فتحولوا بعد ذلك إلى أن أصبحوا حماته المخلصين، وكذلك ما كان من كثير من فلاسفة هذا العصر، عندما درسوه بإخلاص.

سادسها: أنّ الإسلام لا دخل فيه لأهواء البشر ولا لنزعاتهم، وإنما هو من عند الله، هذا عندما يجرد مما ألصق به من أهـواء الناس، ويؤخذ خالصًا من مصدره الأصيل، كتاب الله الهادي المبين، وسنة نبيه ﷺ الصادق الأمين الثابتة الصحيحة، التي لم تشب بشيء من شوائب التدليس.

وهو بجانب ذلك دين جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى هداة لخلقه، وأمناء على وحيه ـ كما تقدم بيان ذلك ـ.

وفي هذا يقـول د. هيثم طلعـت في إحـدى مناظراته مـع الملحدين: «لا يوجد سـوى الإسـلام الدين التوحيدي النقي الذي نادى به جميع أنبياء العهد القديم، وهذا أصل رسالة الإسلام».

ويضيف إلى ذلك: «الإسـلام الذي يوافق في عقيدته عقيدة جميع أنبياء العهد القديم، هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلى نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسـى وداود ويونس وهارون وعيسـى، فعقيدة هؤلاء جميعًا هي عقيدة الرب إلهنا، رب واحد بلفظ التوراة والإنجيل، هذه العقيدة التي لا تعرف تثليثًا ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة، ولا انتزاع آلهة من آلهة أخرى ـ انتزاع روح القدس من الأب ـ ولا آلهة قومية»[1].

---

(١) د. هيثم طلعت: مناظرة الملحدين، ص٤٢.

سابعها: ما ينبعث من أصوات من الشرق والغرب داعية إلى اللجوء إلى حمى الإسلام من أجل فتح خزائن معارفه، والاستفادة منها في حل مشكلات العصر ـ كما سبق ذلك ـ حتى من كبار الساسة، بله عظماء الفلاسفة والمفكرين.

ثامنها: ما يتميز به الإسلام من عدم مجاملة قوي على حساب ضعيف، أو ظالم على حساب مظلوم، فهو يضرب على أيدي الظلمة جميعا، ويقطعها أن تمتد إلى أي أحد ببطش أو سلب أو انتهاك حرمة، وهذا ما يسوء الذين ألفوا الظلم والاستبداد، وركنوا إلى الوطء على قيم الحق والاستخفاف بموازينه، فلا عجب إن شنوا عليه غارة شعواء.

لأجل هذا كله ترى أنّ الملاحدة بجميع أصنافهم، وأين ما كانوا، يؤرقهم هاجس الإسلام، ويقض عليهم المضاجع، فلا يفتأون عن شن حرب ضروس عليه، لا يهدأ ضرامها، ولا تتوانى رحاها عن الدوران، ناهيك ما كان من ذلك الملحد الضال الحقود سام هاريس الداعي إلى التخلص من المسلمين بقنبلة نووية..!.

وقد شهد بهذا شهود من خارج المحيط الإسلامي، بل من المجتمعات التي يروج فيها الإلحاد، ويعم فيها الفساد، كما كان ذلك من الإعلامي الأمريكي الشهير المهتم بحقوق الإنسان **وليام إميرسون** في قوله: «ليس الجديد في الإلحاد الجديد عدوانيته ووقاحته فقط أو الترويج له إعلاميًا أو التناول العلمي للدين، ولكن أشد الجديد ظهورًا هو مهاجمة الممارسات الإسلامية بل والإسلام ذاته».

وقد وضح د. عمرو شريف المراد من اصطلاح **الإلحاد الجديد** بأنه: «يطلق في الغرب على الأفكار التي طرحها مجموعة من الكتاب الملاحدة، التي تتبنى أنه لا يكفي التعايش بين الإلحاد والدين، بل ينبغي مهاجمة

الألوهية والمفاهيم الدينية ونقدها وطرحها للتحليل العلمي والموضوعي، وفي سبيل ذلك تبنت هذه الموجة التفسير المادي الطبيعي لكل الظواهر ابتداء من نشأة الكون حتى المشاعر الروحية للإنسان»[1].

وبيّن أهم الكتّاب الذين تبنوا هذا الاتجاه، وفي مقدمتهم تلك العصابة الإلحادية التي سبق ذكرها، وهم **دوكنز ودينيت وسام هاريس وكريستوفر**.

وذكر د. عمرو شريف عن الإعلامي الكبير **توم فلين** رئيس مجلس حقوق الإنسان بالولايات المتحدة أنه كتب في عام ٢٠١٠ مقالًا، وضع الإلحاد الجديد في حجمه الحقيقي، جاء فيه: «ينبغي أن ندرك خطأ ما يثار حول حركة الإلحاد الجديد، فهي ليست جديدة ولا هي حركة! الجديد هو إثارة عاصفة عن طريق تركيز ناشرين كبار على طباعة وتسويق عدد كبير من الكتب، حتى قرأها الملايين، واحتلت قوائم أعلى المبيعات».

وأضاف إلى ذلك: «ولا شك أنّ الإلحاد الجديد له أبعاد سياسية، من أهمها الترويج للخوف من الإسلام، واضطهاده (الإسلاموفوبيا/ Islamophobia) فكتابات مجموعة الأربعة تنضح بكراهية شديدة للإسلام، كما تستخدم مفاهيم صامويل هنتنجتون في كتابه **صراع الحضارات (The Clash of Civilisations)** لتأصيل العداء للإسلام في نفوس الشعوب...»، ثم أشار إلى ما تقدم ذكره في كلام **وليام إميرسون**، ثم أتبع ذلك قوله:

«إنني أرفض بشدة وصف الإلحاد الجديد بالإلحاد العلمي، فهو وصف لا يستحقه، فهؤلاء الكتّاب وإن كانوا يتناولون القضايا العلمية فتناولهم أبعد ما يكون عن المنهج العلمي المنزه عن الغرض. كذلك فإنني أرفض وصف أوقح أربعة من شراذم هذا الاتجاه بأنهم الفرسان الأربعة، فاصطلاح الفارس

---

(١) د. عمرو شريف: خرافة الإلحاد، ص ٣٩٣.

يستخدم في جميع اللغات للإشارة إلى الرجل الشهم الذي يهب حياته للدفاع عن الحق والوقوف في وجه الباطل. من ثم؛ فإنّ وصف هؤلاء الملاحدة بالفرسان أسلوب إعلامي للانتقاص من الديانات وإظهار أنها في جانب الباطل، بحيث يخسر الدين معركته مع الإلحاد من قبل أن تبدأ»[1].

وهو كما قال؛ فإنّ هذا كله لا يعدو أن يكون دعاية إعلامية فاجرة لتلميع الملاحدة والإلحاد، وتحقير الدين والمتدينين بتصوير أنّ الدين إنما هو قائم على الأوهام، لا على حقائق العلم، وأن المتدينين هم أكثر الناس ضلالًا في الفكر، واستئسارًا للأوهام.

وقد أسرف غلاة الملاحدة في تصوير العداوة بين العلم والدين حتى قال **بيتر أتكنز**: «على البشرية أن تقبل أنّ العلم قد قضى على أي مبرر للاعتقاد بوجود غاية من الموجودات، إنّ ما تبقى من هذا الفكر ليس إلا أوهامًا تغذيها العاطفة».

ويتجاوز شدة هذا التعبير وعنفه تجاه الدين والإيمان به زعيم الملاحدة الجدد **ريتشارد دوكنز** حيث يقول: «إذا كنا نعتبر أنّ مرض الإيدز ومرض جنون البقر من الأخطار التي تهدد البشرية؛ هو أحد أكبر الشرور في العالم، بل يفوق الجدري الذي تم القضاء عليه. إنّ الإيمان هو رذيلة كل دين فهو اعتقاد لا يقف وراءه دليل»[2].

ومنشأ هذا كله الحقد الأسود الذي تغلي به صدور الملاحدة ضد الدين والتدين، وقد سبق ما ينقض هذا كله فيما نقلناه عن كبار الفلاسفة ـ من أمثال **هكسلي وماكس بلانك** ـ من تأكيدهم أنّ العلم والدين، لا ينفك بعضهما عن

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٤.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧.

بعض، ومعنى ذلك أنّ كل علم بلا دين هو وهـم وجهل، وكل دين بلا علم هو ضلالة وخرافـة، وقد عرفت مما تقـدم بأنّ دين الإسـلام يتميز من بين الأديان برسوخه في الجانب العلمي، وأنّ جميع الحقائق العلمية التي تتكشف حينًا بعد آخر تؤكد معجزة هذا الدين، وكذلك التجارب البشـرية التي منيت بالفشل الذريع في حلولها لمشكلات الإنسانية حتى انطلقت ألسنة العقلاء في الشرق والغرب تنادي بضرورة الاسـتفادة من الإسلام، والعودة إليه من أجل حل هذه المشكلات العويصة التي استعصت على كل علاج بشري، حتى من الملاحدة أنفسهم كما صرّح بذلك فيدل كاسترو رغم غلوه في الإلحاد، وشدة عداوته للدين.

ولأجل قوة هـذا الدين وعظمته؛ التي تبهر الألباب ورسـوخ براهينه في أرض علمية صلبة، وما يتميز به عقيدة وشريعة من حده لمشكلات الإنسانية الفلسفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وسرعة اقتناع الناس به عندما يكتشفون هذه المزايا منه غصّت نفوس الملاحدة بكراهيته وبغضه، كما ذكرناه. وكان نصيبه من تآمرهم على الأديان هو النصيب الأكبر، فهم يحاولون استئصال جذوره بكل ما يملكون من قوة، ومكر، ووسـائل مادية ومعنوية، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وهذا مما لا تجد فيـه اختلافًا وافتراقًـا بين المذاهب الإلحادية سـواء الصريحة منها أو التي تتسـتر وراء شـعارات أخرى، فنحن نلمس من هؤلاء الذي يرفعون شعار العقلانية بيننا أنهم قد تكون فيهم مرونة ليجاملوا أي دين آخر، ولكنهم تجاه الإسلام في أي موقف من المواقف لا يترددون في إظهار

حقدهم الأسـود الدفين عليه، وعلى كل من تمسك بشيء منه، فحربهم عليه متأججة نارها، مشتعل ضرامها، فهم يستفزهم ضد الإسلام كل ما يصدر من أهله من غيرة عليه، وصون لحرماته، وحمايـة لحماه، أولا يكفي دليلًا على ذلك أنهم جن جنونهم، وملأوا الدنيا احتجاجًا واستنكارًا بمجرد أن لقي أحد تطاول على الذات الإلهية المقدسـة أدنى عقوبة تتصور، وما كاد ينفلت من ذلك العقاب حتى ملأوا الدنيا بهجة وسرورًا واستبشارًا وافتخارًا بأن وصلوا إلى مبتغاهم، وعـدوا ذلك الجاني بطـلًا، وقدموا إليه التهانـي من أعماق قلوبهم، وعدوا لقاءهم به من أعظم أمانيهم في الحياة لا لشـيء إلا لأنه كان أجرأ على الله، وعلى إهانة ذاته المقدسـة، فيا ترى لو أنّ هؤلاء ـ الذين أثلج صدورهم وأراح ضمائرهـم التطاول على الله رب العالميـن وإله الموحدين المعبود بحق دون سائر المعبودين ـ لو سمعوا من أحد من المسلمين تطاولًا على بعض آلهة الوثنيين، كبوذا وبراهما، أتراهم كانوا يسكتون عن ذلك، أو أنهم سـيملأون الدنيا ضجيجًا اسـتنكارًا لهذا الحدث، ومطالبة بعقاب هذا المتطاول بدعوى إثارة الفتن بين البشـر، كما هو شـأنهم دائمًا في مواقفهم المخزية ضد الإسلام الشادة على أعضاد أعدائه.

وكم نسمع ونقرأ مما يقولونه أو يكتبونه ما يدل على هذا الموقف منهم، فقبل أربع سـنوات من الآن نشـر أحد منظري فكرهم تغريدة يدعو فيها إلى عدم تمييز بعض الأديان على بعض، بدعوى أنّ جميع الأديان يجب أن تعتبر طريقًا إلى الله، فرد عليه أحد بقوله: هل البوذية والهندوسية طريق إلى الله؟ فرد على ذلك أحد تلامذته ومريديه بما حاصله: «أنه قبل التنقيص من شأن البوذية والهندوسية يجب النظر إلى الإسلام، وشـعائره التعبدية، فالطواف في الحج هو طواف بحجر، والسعي هو من حجر إلى حجر، ورمي الجمرات هو رمي حجر بحجر»، ومعنى ذلك أنه يدعو إلى تنقيص الإسلام غير مدرك ـ بسبب ظلمات الإلحاد المتراكمة على عقله ـ أن وراء كل شـريعة من هذه الشـرائع

حكمة عالية، وغاية سامية، في وصل النفوس ببارئها ﷻ، كما ثبت عن عائشة ﵂ أنّ النبي ﷺ قال: «**إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله لا لغيره**»(١)، وسر ذلك يدركه أولو البصائر النيرة، ولا يمكن أن يدركه من اسودت سرائرهم بظلمات الإلحاد، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ومثل ذلك ما كان من هذا المنظر نفسه عندما كتب أحد أتباعه تغريدة ينتقد فيها على المسلمين صلاة الخسوف، فرد عليه: «نعم هي صلاة خسوف»، ومراده بذلك أنها صلاة المخبلين، لأن الخسوف في اللغة العمانية الدارجة جمع خَسْف، والخَسْفُ عندهم هو المخبل الذي لا يملك تمييزًا بين الخير والشر، أو بين النفع والضر، أو بين الحقيقة والوهم، ولا يستطيع أن يتصرف إلا كما يتصرف المجانيين، ومعنى ذلك اتهامه للذين يصلون هذه الصلاة بأنهم من هذا الصنف من الناس، وهل هذا يعني إلا أنّ رسول الله ﷺ والذين صلوها من الصحابة والتابعين، ومن سائر المؤمنين قرنًا بعد قرن؛ كانوا معدودين عنده من المخبلين.! هذه هي نظرته إلى شعائر الإسلام وإلى القائمين بها من عهد الرسول ﷺ فمن بعده، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

وبجانب هذا ينادون دائمًا بوجوب أن يكفّ المسلمون ألسنتهم عن انتقاد أي شيء من سخافات الآخرين، بل لو حدث شيء من ذلك لعدوه جرمًا، تجب محاكمة من صدر منه ذلك، مع أنهم وقفوا بكل جهودهم مع المتطاول

---

(١) أخرجه أبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (١١) المناسك، باب (٥٠) في الرمل، (رقم: ١٨٨٨، ص١٣٦٢)، والحاكم؛ **المستدرك**، كتاب (١٦) المناسك، (رقم: ١٦٨٥، ٦٣٠/١) وقال: «صحيح الإسناد»، والبيهقي في شعب الإيمان؛ **الجامع لشعب الإيمان**، الشعبة (٢٥) من شعب الإيمان وهو باب في المناسك، (رقم: ٣٧٨٧، ٥٢٠/٦ ـ ٥٢١).

على الله رب العالمين، أويبقى في نفسك شكّ ـ أيها القارئ الكريم ـ بأنّ هؤلاء يصدرون عن نفس المصدر الذي يصدر منهم الملاحدة الحاقدون على الإسلام المسفهون لكلياته وجزئياته من تعاليمه العظيمة.

وإذا كانوا ينادون بعدم القدح في أي فكر من الأفكار، وعدم التعرض لها أو لأهلها، معوّلين في ذلك على ما يسمونه بحرية الفكر أو حرية التعددية، أولا يكونون بهذا قد خالفوا ما يدعون إليه بهذا القدح في شعائر الإسلام، وتنقيص القائمين بها، مع أنها ـ بلا ريب ـ عند المسلمين جميعًا موضع قداسة، لأنها تشريع من رب العالمين الذي تجب طاعته، وتحرم معصيته على الناس أجمعين، وعلى الناس جميعًا أن يعبدوه كما شرع، سواء أدركوا الحكمة من وراء تلك المشروعية، أو لم يدركوها، فإنّ هذا هو الانقياد والإذعان الواجب على العباد لربهم تعالى.

ولا يعني هذا الموقف منهم إلا أنهم يرون أنّ لكل مبدأ حقًّا في الاحترام وعدم المساس بخصوصياته إلا الإسلام، فهو عندهم مرتع لنقدهم واستخفافهم به وبحرماته، وتطاولهم عليه وعلى مقدساته، وليت شعري؛ من أين استوحوا هذا التصرف الأحمق الحاقد، وعلى أي معيار اعتمدوا في هذه المفارقات، وبأي شرعة سوغوها لأنفسهم، نعم؛ إنما ذلك هو وحي شيطانهم إليهم، وتلك هي معاييره الباطلة، وتلك هي شرعته الخاسرة، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]، ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

ومع هذه العداوة السافرة للإسلام، والتآمر المكشوف عليه، لا يزالون يلزون أنفسهم به، ويتحدثون باسمه تحليلًا وتحريمًا، وتأويلًا وتفسيرًا، ليموهوا الحقائق وليمعنوا في الضلال والإضلال، وهذه إحدى وسائلهم في

نقض عراه، وهدّ صرحه من الداخل، وإلا فما لهم وللإسلام والتحدث باسمه، وهو براء من كل ما يقولون ويفعلون، إذ ليس الإسلام بضاعة رخيصة مبتذلة يساوم عليها كل دعي ومفتون، وإنما يتحدث باسم الإسلام خاصة أهله المؤمنين به، الموقنين بربانيته، الغيورين عليه، فإنّ كل كلمة تقال عن الإسلام يجب أن تكون محسوبة معلومًا صوابها، معروفًا مصدرها، ولهذا لم يكن لجماهير المسلمين أنفسهم ـ مهما كان تمسكهم بالإسلام، وكيفما كانت غيرتهم عليه ـ أن يفوهوا بكلمة في هذا إلا بعد الرجوع إلى الذين آتاهم الله الحكمة بما أوتوه من علم الكتاب، وبما اكتشفوه من خزائن السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فإنّ الله تعالى وجه أولئك إلى أن يرجعوا في كل ما أشكل عليهم أو انبهم عليهم حكمه إلى القادرين على الاستنباط من معادن الكتاب والسنة، وهم الذين جمعوا بين إخلاص القول والعمل لله سبحانه، والغيرة البالغة على حرمات دينه وابتغاء رضوانه وبين عمق الفهم وسعة الإدراك، والإحاطة الواسعة بما في مصادر التشريع واستجماع آلات الاجتهاد جميعًا، وهؤلاء هم العلماء الربانيون الذين يحل لهم أن يتحدثوا باسم الإسلام، ويبينوا للناس ما انبهم منه، ويدلوهم على مسالك الرشد فيه، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ولأجل هذا شدد الإسلام في كل ما يصدر من الإنسان من قول في أمر الدين بغير علم وبيَّن القرآن أنّ الداعية إلى ذلك إنما هو الشيطان، في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩]، بل قرن الله ذلك بالإشراك به في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وحسبك ذلك

تشديدًا وتغليظًا، ولهذا كان أصحاب النبي ﷺ يتدافعون الفتيا خشية أن يقولوا على الله ما ليس لهم به علم، وكانوا أرسخ الناس قدمًا في علمي المعقول والمنقول، ناهيك أن تكون الأمة جميعًا قد تتلمذت عليهم، وقد ذكر هديهم في ذلك الإمام النووي في **آداب الفتوى والمفتي والمستفتي** حيث قال ما نصه: «عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول، وفي رواية: ما منهم من يحدث بحديث إلا ودّ أنّ أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ودّ أنّ أخاه كفاه الفتيا، وعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: من أفتى في كل ما يسأل فهو مجنون»[1].



(١) النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: **آداب الفتوى والمفتي والمستفتي**، ص ١٤، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الفكر ـ ط ١: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.



الفصل الأول

في البراهين المستوحاة من معجزة الحياة

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: في حيرة الألباب من أمر الحياة.
- المبحث الثاني: في الخلية التي جعلها الله أصل هذه الحياة.
- المبحث الثالث في مشاهد آيات الخلق وعظمة الخالق في جزيئات.
- المبحث الرابع: في طي أوهام الجهل بإشراق حقائق العلم.
- المبحث الخامس: في دلالة الزمن على استحالة وجود أدنى شيء من هذه الخلايا، بتأثير الطبيعة.

المبحث الأول

في حيرة الألباب من أمر الحياة

إنَّ الحياة لغز معمًّى من أسرار الله تعالى في خليقته، فبدون الحياة لا يمكن أن يكتشف شيء من إبداع الخلق وانتظام المخلوقات وطبائعها التي تنتظم وتنسجم على رغم اختلافها وتباينها، إذ بدون الحياة لا يكون حسّ ولا يمكن إدراك وهي حقًّا من أعجب ما أوجده الله ﷻ في خلقه، كيف تسري هذه الحياة في جسم ميت لا حراك له ولا حس ولا إدراك، فيتحول إلى كائن آخر بسريان هذا السر الإلهي في أجزائه فيقوى على الحركة، ويتمكن من التمييز بين الكائنات بما يفاض عليه من مواهب الحياة، كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس، وهي الحواس الظاهرة وكذلك الحواس الباطنة، كالذي يلابسه من الفرح أو الحزن، أو الخوف أو الأمن، أو الجوع أو الشبع، أو الظمأ أو الري، أو الحب أو البغض، وتكون له الإرادة فينزع إلى ما يلائمه من الأفعال والأحوال، ويجانب ما لا يلائمه.

وقد حارت الألباب في هذا الأمر العجيب، ولم يستطع البشر ـ مع تقدمهم العلمي وإنجازاتهم الهائلة، في اكتشاف عجائب الخلق وغرائب الحياة ـ أن يفسروا هذا اللغز المعمى وإنما ألقوا الكلم على عواهنه رجمًا بالغيب، فزعم التطوريون بأنّ الحياة انبثقت بنفسها من مادة أو مواد غير حية، وليت شعري؛ على أي أساس ينبني هذا التفسير للحياة؟.

لندع الإجابة هنا للباحث الإنجليزي روبرت جميس في كتابه القيم **خرافة التطور** فقد قال ما نصه: «علينا أن نفهم طبيعة المادة التي يزعمون أن الحياة انبثقت منها.

إنّ المواد الموجودة في الكون تتألف من عناصر أساسية، فما هو العنصر؟.

الحديد عنصر، والهيدروجين عنصر، واليورانيوم عنصر، فالعناصر هي المكونات الأساسية للمادة، والعنصر هو كل مادة تتألف من ذرات متماثلة لا يمكن تبسيطها أو تدميرها بالطرق الكيميائية العادية، هي الوحدات الأساسية التي تشكل كل المواد الموجودة في الكون.

وهذا يطرح السؤال، هل يمكن للعناصر أن تتطور؟.

العلم يجيب بالنفي لأن الذرات هي الوحدات الأساسية للعناصر، والذرات بشكل عام تميل للاستقرار، وعلى سبيل المثال، عندما تتحلل مادة ما أو مركب ما بسبب ظروف تؤثر فيه، فإنّ عملية التحلل هي فعليًا سعي الذرات إلى الاستقرار، وتنتهي العملية باستقرار ذرات هذا المتحلل.

هذه الحقيقة تنسجم مع مبدأ علمي معروف يسميه العلماء (إنتروبيا ENTROPY) والذي يعني أنّ المادة تتجه دومًا للاستقرار، وذلك بالانتقال الدائم من الانتظام إلى عدم الانتظام، ولنوضح ذلك بمثال.

إذا أحضرنا العناصر التي تشكل سيارة مثلًا.. الحديد، الألومينيوم، النحاس، السلكون، التنغستين... إلخ، وتركنا تلك العناصر على سطح الأرض تتعرض لمؤثرات الطبيعة، فهل ستشكل سيارة؟! أبدًا ستظل كما هي إلا إذا جاء إنسان وحولها إلى آلة مثل السيارة.

أما إذا جئنا بسيارة وتركناها عرضة لمؤثرات الطبيعة فإنها ستتحلل عاجلًا أم آجلًا إلى عناصرها الأساسية، وهذا مثال على مبدأ (الإنتروبيا) حيث نرى

الاتجاه من الأكثر انتظامًا إلى الأقل انتظامًا، وفي الحقيقة فإنّ مبدأ (الإنتروبيا) معاكس تمامًا لمبدأ التطور، إنّ هذا المبدأ يؤكد حقيقة علمية أساسية تتعلق بالمواد غير الحية على سطح الأرض، وهي أنّ المادة غير الحية لا تحاول أن تجد طريقة لتطور من نفسها، ولكنها تتجه نحو إيجاد وضعية من الحيادية والاستقرار.

فإن قال قائل: ألا يمكن أن يحدث ذلك بمرور الزمن؟ فالجواب: لا يمكن التعويل على مرور الزمن لحدوث التغيير، فالوقت هو عدو التطور، ذلك أن مرور الزمن يؤدي إلى التحلل والتفسخ، تصدأ بمروره المعادن أو تتآكل، تندرس الهضاب وتصغر الجبال، وغير ذلك من الحوادث التراجعية، الوقت يهدم ولا يبني»[1].

هذا؛ ولم يكن هذا الكلام مبنيًا على تخمين وأوهام، وإنما هو مبني على حقائق يدل عليها الاستقراء العلمي، فإنّ الله سبحانه طبع هذه الحياة الدنيا على الفناء، وجعل كل ما فيها آيلًا إلى الزوال، فلذلك يتسارع الفناء في المواد بمرور الزمن عليها، وذلك بما يحدث فيها من التآكل والفساد، فالزمن جعله الله تعالى من عوامل الهدم، ولم يجعله من عوامل البناء، وإذا كان الحي ـ بمرور الزمن عليه في هذه الحياة ـ يبلى بعد جدته، ويضعف بعد قوته، ويفنى بعد وجوده ـ كما هو مشاهد في الإنسان والحيوان ـ فما بالك بمادة لم تسر فيها روح الحياة؟ وقد صدق من قال:

إنّ الجديدين إذا ما استوليا ... على جديد أدنياه للبلى

وإذا كانت المادة الجامدة الميتة هذا هو شأنها مع الزمن، فكيف يمكن أن تكون هي مصدر الحياة؟! إنها هذه من المجادلات التي لم تنشأ إلا عن

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص١٩ ـ ٢٠.

المكابرة، وتجاهل الحقائق الماثلة للعيان، وقد سلط العالم الباحث **روبرت جميس** الضوء على هذه المماحكات الباطلة فقال:

«لقد تشبث العلماء لعقود عديدة بفكرة النشوء العفوية للحياة من المادة غير الحية، غير أنّ العالم الفرنسي الشهير **لويس باستور** قطع بتجاربه وأدلته قول كل خطيب، وأثبت أنّ الحياة لا يمكن أن تتشكل إلا من حياة أخرى، ولم يستطع العلم حتى الآن أن يثبت أنّ خلية واحدة يمكن أنّ تنشأ عفويًا أو مع مرور الزمن من مادة غير حية، وتساعد قوانين الرياضيات أيضًا على نفي نظرية تشكل المادة الحية من مادة غير حية، كما سنبين بتفصيل أكبر في فصول لاحقة حين نتحدث عن الصدفة التي يزعم التطوريون أنها أسهمت في نشوء المادة الحية، وسنرى أنّ ذلك أمر غير ممكن إطلاقًا.

ورغم كل الأدلة التي تنفي التطور، فإنّ التطوريين يحاولون التمسك بأي قشة يظنون أنها قد تنجي نظريتهم من الغرق، لدرجة أنّ بعض علمائهم المعروفين عندما عجزوا عن إثبات إمكانية التطور العشوائي للحياة عبر الأجيال على سطح الأرض، زعموا أو افترضوا أنّ ذلك حدث في الفضاء الخارجي.!!

يقول عالم الفلك البريطاني سير **فريد هويل**: (لا يمكن للنظريات الكونية التي تتحدث عن أصل الحياة أن تعطي أي دليل مقنع أو مقبول من الناحية الكيميائية على إمكانية تشكل الحياة على الأرض بشكل عفوي عشوائي دون تدخل خارجي، والذي يمكن استنتاجه إذن أنّ الحياة لم تنشأ على الأرض، بل نشأت على المذنبات الفضائية).

فهل تقدم هذه الفكرة حلًا لمعضلة أصل الحياة؟ بالتأكيد لا.. ولكن تنقلها من الأرض إلى مكان آخر.

وهذا مثال آخر عن تخبط كبار العلمـــاء عندما يتعلق الأمر بأصل الحياة، يقول عالم الأحياء الشـــهير الدكتور جورج والد الحائـــز على جائزة نوبل في الحديث عن نشـــأة الحياة: (إنّ مجرد التأمل في عظمة هذه المهمة كفيل بأن يجبرنا على أن نعترف بأنّ هذا النشـــوء العشـــوائي للكائن الحي مســـتحيل، ولكن ها نحن هنا كنتيجة لهذا النشوء العشوائي)».

وقد تعقبه الدكتور جميـــس بقوله: «هذا لعمـــري كلام متناقض عجيب يســـتحق الوقوف عنده للحظات لنفكر بما قاله الدكتور والد، وهو يعلم ويقر بأنّ الأمر مستحيل، ولكنه مع ذلك يصدقه ويؤمن به!!.

ألا يجدر بتصريح من مثل هذا العالم أن يقرع أجراس الإنذار عند أولئك الذين يعتنقون هذه النظرية وهم من خارج الوسط العلمي؟! ألا يضعهم ذلك على المحك؟ كيف يستمعون بدهشة وتصديق لكل كلمة يقولها العلماء حتى حين يعجزون عن تقديم ذرة من دليل على نظريتهم؟! بل حتى حين يعترفون باســـتحالتها؟! ألا يعني هذا أنهم يصدقون كذبة كبيـــرة؟ هل نريد أن نمضي حياتنا لاهثين وراء خرافة هزيلة الأركان؟! هل نريـــد أن يتعلم أولادنا معرفة زائفة تؤهلهم لتقبل الأكاذيب المنشـــورة في المستقبل، لمجرد أنّ من يقولها عالم أو منســـوب للعلم؟! هذا وضع غيـــر صحي إطلاقًا، وإنـــه لأمر مناف للمنطق والعلم أن يتم الترويج لفكرة أو نظرية رغم معرفتنا الأكيدة بخطئها، وإنه ليوم حزين للعلم الصحيح وللمعرفة العلمية الحقيقية»اهـ[1].

كل هذا يؤكد أنّ الحياة سرّ معمى لا يعلمه إلا من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وهؤلاء ما كان هذا التخبط منهم إلا لأنهم عموا عن سبيل الله، فتفرقت بهم السبل، وهاموا في كل وادٍ، وأغاروا وأنجدوا من أجل أن يجدوا تفسيرا للحياة، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلًا، ومن العجيب أن يقول

---

(١) المرجع السابق، ص٢١ ـ ٢٣.

قائلهم بأنّ الحياة انتقلت إلى الأرض من المذنبات الفضائية، وليت شعري؛ كيف نشأت على تلك المذنبات إن كانت نشأتها على الأرض متعذرة؟! وما هو الفرق بين المذنبات الفضائية والأرض التي نحن عليها؟!.

والأعجب من ذلك أن يعترف أحدهم بأنّ النشوء العشوائي للكائن مستحيل، ولكنه يصرّ مع ذلك بأنه نتيجة لهذا النشوء العشوائي، فكيف يقر باستحالة ذلك ويصر معه بأنّ هذه الحياة أثر لهذا النشوء العشوائي، فواعجبًا من عقول تصدق أن يكون للحركات الطبيعية العشوائية الأثر المطلق في إيجاد الحياة، مع أنّ الطبيعة نفسها ميتة لا إرادة لها، ولا سمع ولا بصر ولا علم ولا إدراك..! ولا تصدق أنّ الله العليم بكل شيء القدير على كل شيء، الذي لا تخفى عليه خافية ـ مهما كانت دقتها ـ هو الذي خلق الموت والحياة، وأنه يخرج الميت من الحي والحي من الميت، وأنه منه المبدأ وإليه الرجعى..!.

وسوف نعود ـ إن شاء الله ـ في مباحث آتية إلى مناقشة هذه الأوهام، وتفنيد هذه الشبه بعد حديثنا عن أصل الحياة، ولكن قبل أن أغادر هذا المبحث إلى ما بعده أرى أن أفسح المجال هنا لأحد كبار علماء الأحياء، وهو **الدكتور ألبرت ماكومب ونشستر** الذي راض علوم الأحياء، وتخصص في علم الوراثة وفي تأثير الأشعة السينية على **الدروسوفيلا** حيث كتب تحت عنوان **العلوم تدعم إيماني بالله**، وكان مما قاله:

«ليس من شك أنّ العلوم تزيد الإنسان تبصرًا بقدرة الله وجلاله، وكلما اكتشف الإنسان جديدًا في دائرة بحثه ودراسته زاد إيمانه بالله، لقد حل العلم اليوم محل كثير من الخرافات القديمة التي غالبًا ما طغت على المعتقدات الدينية، واستبدل بها حقائق رصينة تستند إلى المشاهدة والتجربة، وكما عدلت الكشوف العلمية أساليب الطب القديمة من الكي والحجامة إلى تلك الأساليب الحديثة من التشخيص والعلاج، فإنّ العلوم الحديثة قد غيّرت

كذلك من بعض المعتقدات حول علاقة الإنسان بالله، فلم يعد الناس يعتقدون أنّ سبب المرض ما هو إلا سخط من الله ينزله بعباده عقابًا على خطاياهم، وإنما سببه غزو للجسم تقوم به بعض الكائنات الدقيقة التي تخضع لكل القوانين الطبيعية التي تتحكم في سائر الكائنات الحية الأخرى، إنّ إيماننا بالله لم يتزعزع بسبب معرفتنا بهذه الحقائق، بل ازداد علمًا به وبالعالم الذي خلقه ﷻ، وكذلك بتلك الكائنات التي يصيب بها من يشاء.

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يدرس أعمال أي صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذي أبدع تلك الأعمال، وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا في دراسة أسرار هذا الكون وسكانه، ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذي أبدعه، وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء، وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة، وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون.

انظر إلى نبات برسيم[1] ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق، فهل تستطيع أن تجد له نظيرًا في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار بآلاف من التفاعلات الكيماوية والطبيعية، ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم، وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية.

فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إنّ الله لم يصنعها هكذا وحدها، ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر، إنّ دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم

---

(١) هو القت المعروف عندنا.

الأحياء وأكثرها إظهارًا لقدرة الله، إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث تصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر، ومن العجب أنّ كل صفة من صفات النبات: كل عرق، وكل شعيرة، وكل فرع على ساق، وكل جذر أو ورقة يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغًا كبيرًا فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات، تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكرموسومات.

ولهؤلاء المهندسين ذوي الأحجام الضئيلة القدرة على تعديل خواص النباتات التي تنتجها هذه الخلايا الدقيقة في فترات نادرة من الزمان، فهي بذلك تنتج كائنات أكثر قدرة على التلاؤم من أسلافها، لقد مرت بالبشر فترة كان أغلب الناس يعتقدون فيها أنّه من الكفر أن يعتقد المرء أنّ الكائنات الحية التي تعيش اليوم على سطح الأرض كانت في يوم من الأيام على صورة تخالف الصورة التي خلقها الله عليها بادئ الأمر، أما في الوقت الحاضر فإنّ معظم المفكرين يرون أنّ خلق كائنات لها القدرة على التكاثر، وعلى تغيير أشكالها وتركيبها، تبعًا للظروف التي تحيط بها، يعد أشد دلالة على قدرة الله من خلق كائنات لا تتطور، ولا تستطيع إلا أن تنتج صورًا مكررة من أنفسها طيلة الزمان.

ويقف العلماء اليوم على عتبة كشف جديد بالغ الأهمية، ألا وهو خلق الحياة داخل المعمل، وفي أنابيب الاختبار، وقد أمكن فعلًا الوصول إلى خلق صورة من صور الحياة داخل المعمل، ولكنها صورة بدائية على درجة كبيرة من البساطة والنقص، وقد تم ذلك بمزج بعض المواد الكيماوية بنسب معينة لكي تتكون منها مادة تسمى حمض ديسوكسي ريبونيوكليك (DNA)، وهي من المواد التي لم يكن من الممكن إنتاجها من قبل إلا داخل الخلايا الحية. إنها مادة الحياة، مادة الوراثة التي تحمل الصفات الوراثية عبر الأجيال، وتضع طابعها على جميع الأحياء التي تدخل في تركيبها.

وقد أمكن أخذ هذه المادة من بروتوبلازم بعض الخلايا الحية وإدخالها في بروتوبلازم بعض الأنواع الأخرى، فأدى ذلك إلى جانب من التغير في الصفات الوراثية للأنواع المطعمة بهذه المادة.

ونحن لا نعلم ماذا يكون شأن ذلك الحمض الصناعي الذي حضره الإنسان في المعمل، وكيف يكون تأثيره عندما يطعم به بروتوبلازم الخلايا الحية، هل تمتصه الخلايا، وهل يتسق مع تركيبها، وهل تحدث فيها نفس التأثيرات التي تحدثها المادة العضوية الطبيعية؟ إننا لا نعرف الإجابة حتى اليوم عن هذه الأسئلة، ولا يزال مستقبل الجهود التي تبذل في هذا الميدان في كف القدر، فبعض العلماء يتشككون في إمكان الوصول إلى خلق الحياة، والبعض الآخر يعدونه من الأمور المستحيلة، ولكن حتى إذا نجحت هذه الجهود، فهل يزعزع ذلك من إيماننا بالله؟ إنه لا يزعزع إلا إيمان أولئك الذين لديهم إيمان سطحي؟ أما من يقوم إيمانهم على أساس التفكير العميق، فإنّ ذلك لا يعد أكثر من خطوة جديدة في إدراك ما أبدعه الخالق الأعظم الذي خلق وحده تلك الروائع التي يعمل الناس جاهدين متكاتفين في الكشف عنها.

فإذا كنّا نريد أن ندعم إيماننا بالله فعلينا بمزيد من التعمق في كشف الحقيقة». اهـ[1]

وكلامه هذا يدل على أنّ العلم يسير مع الإيمان جنبًا إلى جنب، ويؤدي إلى مؤداه، إذ لا يمكن أن يفترقا أو يصطدما في شيء، فالعلم يعزز الإيمان، ومهما كان من تصرف الإنسان فيما خلقه الله تعالى بمحاولة تطوير شيء منه، فإنّ ذلك لا يعدو أن يكون انتفاعًا بما آتى الله تعالى الإنسان من دراية

---

(١) نخبة من العلماء الإمريكيين: الله يتجلى في عصر العلم، العلوم تدعم إيماني بالله، ص ١١٠ ـ ١١٣.

بأسرار الخلق، وطبيعة المخلوقات، فلا يعني ذلك أن الإنسان خالق لما تصرف فيه، إذ لو لم يكن بين يديه ما يتمكن من دراسته وتتبع نظامه لما أمكنه أن يفعل شيئا، كما أنه لو لم يلهمه الله تعالى كيف يتصرف ويعمل لما استطاع أن يقدم أو يؤخر، فالخلق كله لله تعالى وحده، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، وقد تحدى الله سبحانه الذين يجحدون هذه الحقائق، ويتجاهلون خلق الله ويجعلون له سبحانه شركاء فيما خلق بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

وغاية ما يتوصل إليه الإنسان في هذا هو اكتشاف جوانب من أسرار الخلق، والانتفاع بهذا الاكتشاف في دعم الإيمان بالله، والاستفادة بما يكون لذلك من آثار طيبة في هذه الحياة.

ومع جودة كلام الدكتور الذي نقلناه، فإنّه لا يخلو من بعض المآخذ الناشئة عن التباس المفاهيم عنده بسبب عدم الانضباط في دراسته وتعبيره بتوجيه الوحي الرباني، من ذلك تعبيره عن الخصائص الألوهية بطبيعة الخالق الأعلى، وقد علمت أنّ الطبيعة لا تكون إلا في المخلوق، فإنّ الله هو الذي يطبع مخلوقاته بما يشاء من خصائصها، ولا أثر لأحد عليه حتى يطبعه على شيء، وإنما صفاته تعالى أزلية أبدية، وهي في الحقيقة عين ذاته المقدسة، وكذلك ما عسى أن يفسر به بعض كلامه من الإشارة إلى مذهب التطور، حيث نسب إلى الكائنات المخلوقة القدرة على التكاثر وعلى تغيير أشكالها وترتيبها تبعًا للظروف التي تحيط بها، وقد علمت ما في مذهب التطور من البعد عن الحقيقة، اللهم إلا ما يكون من تطور الشيء بعينه في مراحل تكوينه، ومراحل وجوده إلى أن يفنى.

في الخلية التي جعلها الله أصل هذه الحياة

إنَّ الخلية هي أعظم مظهر لتجليات ربوبية الله تعالى، وعظمته التي لا تحد، وإحاطته بكل شيء قدرة وعلمًا، فهي مكمن السر الإلهي في هذه الحياة، فمن الخلية يبدأ سرّ الحياة المدهش المحير، حيث تدب في مجموعة من المادة الميتة فتنبثق منها الحياة، ولا تزال تسير وتتعقد حتى تصل إلى أن يتكون منها مخلوق من أشرف وأكرم خلق الله تعالى؛ وهو الإنسان.

وهي بكل محتوياتها وتركيبها معجزة ربانية تحار منها العقول، فمن أسرارها انبثاق بقية أنواع الحياة في الإنسان، فمن مجموعة الخلايا يتكون النسيج، ومن مجموعة الأنسجة التي تتضافر فتؤدي مهمة واحدة يتشكل العضو، ومن مجموعة الأعضاء يتشكل الجهاز، ومن مجموعة الأجهزة يتشكل الكائن الحي بحقيقته المدهشة، وبنائه الفذ الغريب.

وهي تتكون من حجرة يلفها غشاء مضاعف تملؤها مادة سائلة، اختلفوا فيها هل هي شبه غروية أو لا، وفي هذه المادة السائلة ـ وتسمى السيتوبلازما ـ تستقر النواة التي هي مكمن سر حياة الخلية، لأن الخليَّة دونها لا تستطيع أن تتابع سيرها في الحياة، والنواة بناؤها محكم دقيق، فهي كذلك يحيط بها غشاء نووي مضعف، وبداخلها يستقر أهم شيء في الخلية، وهو ما يسمى بالموروثات، التي بواسطتها تنتقل صفات النوع إلى ذراريه، وفي داخل النواة نواة أخرى تسمى بالنوية، بالإضافة إلى شبكة كروماتية.

والخلية ـ التي تمثلها نطفة الإنسان، التي يتم بها التلقيح مع بييضة[1] المرأة، لإنشاء خلية جديدة كاملة، يتم خلق الإنسان منها فيما بعد ـ تبلغ ما مقداره من الوزن (١٠-٩) أي جزءًا من مليار من الغرام، بينما بيضة النعامة تبلغ من الوزن ١٠٠ غرام، ومعنى ذلك أنّ بيضة النعامة التي يتخلق منها ولدها أثقل وزنًا بمائة مليار مرة، وهذا بطبيعة الحال يدعو الإنسان إلى أنّ يفكر في أصل خلقه، وقد بيّن الله تعالى أن خلقه كان من شيء مهين، ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، والضفدع ـ التي هي من صغريات أنواع المخلوقات على الأرض ـ بيضتها هي أكبر من نطفة إنسان بمائة مليون مرة، ولكن الله سبحانه أودع في هذه النطفة المهينة من أسرار الخلق ما يدهش العقول، والخلية الإنسانية الأولى بمجرد أن تتكون تبدأ في الانقسام بشكل سريع ودقيق هائل، حتى تنقسم إلى نحو خمسين قسمًا تكون خلاياها عندئذ بالملايين، وهي في هذه الحالة تكون مستعدة للتخصص فيما بعد.

ولا تزال مراحل الأطوار تواجه هذا الناشيء الذي بدأ رحلته هذه في أعماق الرحم من خلية واحدة تكونت منها هذه الملايين من الخلايا، فيعبرها محفوفًا بالعناية الربانية، ومشمولًا بالرعاية الرحمانية إلى أن تصل هذه الرحلة مداها،

---

(١) لعل السواد الأعظم من الناس يستنكرون التعبير بالبييضة، ويرونه شاذًا عما هو مشهور عند الخاصة بله العامة من التعبير عنها بالبويضة، وهذا كما يصغرون الشيخ على شويخ، مع أنه بخلاف ما هو منصوص عليه في المعاجم العربية المعتمدة، قال في اللسان (١٧٣/٨): «وتَصْغِيرُ الشَّيخ شُيَيْخٌ وشِيَيْخٌ أَيضًا، بِكَسْرِ الشِّينِ، وَلَا تَقُلْ شُوَيْخ»، والبيض مثله وزنًا، وتركيبًا لحروفه، وقد جمع السجاعي صيغ جمع الشيخ وتصغيره المعتمدة في قوله:

مشايخ مشيوخاء مشيخة كذا ... شيوخ وأشياخ وشيخان فاعلما

كذا شيخة جمع لشيخ وصغرا ... بضم وكسر في شييخ لتفهما

لأجل هذا لم أجد وجها لتصغير بيضة على بويضة ـ وإن شاع ذلك واعتمد في المجامع العلمية ـ وإنما أبقيت ما أنقله عن غيري حسب استعماله له، هذا من ناحية القياس، أما من ناحية النقل اللغوي فإني لم أجد في المعاجم العربية المعتمدة تصغيرًا لبيضة.

لينتقل من ضيق الأرحام إلى فضاء الأرض، التي هيأها الله ﷻ لأن تكون مناخًا مناسبًا للإنسان، وذلك كله إنما يكون بعد أن يصل هذا الناشيء الجديد إلى الطور الأخير، حيث يكتمل خلقه، وينفخ فيه السر الإلهي الذي تكون به الحياة.

وعندما يغادر الرحم إلى الدنيا تصبح خلايا جسمه ملايين الملايين، بحيث قدرها بعضهم بألف مليون مليون خلية (١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) وهي مترتبة في الجسم ترتيبًا دقيقًا، يحفظ لأعضائه توازنها وتكاملها حتى يؤدي كل جهاز من أجهزة الجسم دوره الوظيفي كاملًا غير منقوص، كجهاز التنفس، والجهاز الهضمي، والجهاز البولي، والجهاز التناسلي، والجهاز اللمفاوي، والجهاز الدموي، والجهاز العضلي، والجهاز الصقلي العظمي، والجهاز العصبي، والجهاز الجلدي، والجهاز الضام، بالإضافة إلى الحواس كالسمع والبصر والذوق والشم والإحساس عن طريق الجلد، وهي جميعًا في تعاونها وتكاملها تشكل كينونة واحدة وهي الإنسان.

على أنّ كل جهاز من هذه الأجهزة ينقسم إلى أقسام تتكامل فيما بينها ليؤدي الجهاز دوره الطبيعي، فالجهاز الهضمي مثلًا ينقسم إلى الفم واللسان والحلق والبلعوم والمري والفؤاد والمعدة والبواب والاثني عشرية والأمعاء الدقيقة، ثم الأمعاء الغليظة ثم السين الحرقفي، ثم المستقيم، ثم الشرج، وهي جميعًا تتعاون تعاونًا وثيقًا يتحقق به دور بالغ الأهمية في حياة الإنسان وكذلك جهاز التنفس حيث يشترك الأنف والفم في أول مجرى للتنفس، وخاصة مجرى الأنف، ثم الحلق، ثم الرغامي، ثم القصبات، ثم القصيبات، ثم الأسناخ الرئوية التي يبلغ عددها (٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠) سنخ رئوي، وهي تفرش سطحًا مساحته سبعون مترًا مربعًا، وهو كله للتبادل الغازي بنظام محكم بديع.

وهذه جميعًا تشترك في تحقيق غاية هي من أهم ضرورات الإنسان في حياته، وهي التنفس الذي هو عنوان على بقاء الحياة واستمرارها، ويتحقق

ذلك بنقل الأكسجين إلى الكرية الحمراء، حيث يرتبط بالهيموغلوبين الموجود في الكرية الحمراء، وهذه تنقلها إلى الأنسجة العطشى، حيث تكون عمليات الأكسدة والاحتراق واستنفاذ الغذاء، ونشر الطاقة، والحرارة اللازمة الضرورية للإنسان، حتى يتابع سير حياته، ثم نقل غاز الفحم الناتج من الاحتراق بطريق الأوردة حتى يصب مجموعها العام في القلب الأيمن، أي الأذينة اليمنى، ثم البطين الأيمن، ثم ينتقل من طريق الشريان الرئوي إلى الرئتين، حيث يجري غاز الفحم إلى الخارج، حيث ينقلب الدم الفاسد إلى دم أحمر قانٍ يحمل الأكسجين بدلًا من غاز الفحم، ثم ينتقل بدوره إلى القلب الأيسر، أي الأذينة اليسرى، بواسطة الأوردة الرئوية الأربعة، فيصب في أعلى الأذينة اليسرى، ثم إلى البطين الأيسر، ثم يمر عبر الشريان الأبهر ـ وهو ما يسمى بالوتين ـ إلى جميع أجهزة الجسم، فتتغذى بواسطة الأكسجين والأغذية المنقولة إليها.

وكم ترى في انتظام خلايا كل جهاز من أجهزة الجسم من الآيات المحيرة، الدالة على جمال الإبداع، وكمال الترتيب، والإحاطة التامة بكل دقيقة وجليلة، ممن خلق فسوى، وقدر فهدى، فلو ألقينا نظرة إلى المعدة ودورها العظيم، وكيف تكونت من أربع طبقات من الناحية النسيجية، لرأينا من ذلك عجبًا، فهي من الخارج تشبه القربة، وهي مكونة من قطعة واحدة من اللحم، ولكن بالنظر إلى جدار المعدة، ومحاولة تبين محتوياته تحت المجهر المكبر، ينكشف أن هذا الجدار مكون من أربع طبقات، فهو أشبه ما يكون بجدار يغلفه جدار ثانٍ، والثاني مغلف بثالث، والثالث مغلف برابع، وهو يبين كيف تستطيع المعدة أن تهضم اللحم وهي لحم، مع ذلك لا تنهضم مع الطعام، فالجدار الداخلي الأول مكون من طبقة من الخلايا المخاطية التي تفرشه حيث تقوم بإفراز حمض كلور الماء بنسبة معينة، وهي أربعة بالألف، ومن خلايا معينة وهي المسماة بالخلايا الهامشية، بالإضافة إلى الخمائر،

وإلى ما يسمى بالعامل الداخلي، وهو الذي يقوم بالدور الأساسي في تكوين فيتامين ب١٢، الذي يقوم بـدور مهم وحيوي في تكويـن الكريات الحمر، ووقاية الإنسان من فقر الدم، وتحت هذه الطبقة طبقة أخرى، وتعرف بالطبقة المخاطية، وتحت هذا الجـدار الثاني جدار ثالث يغلفـه، وهو عضلي وهو الذي يتمطط إذا امتـلأت المعدة كثيرًا، والتكوين العضلـي ليس واحدًا، بل يترتب ـ أيضًا ـ على ثلاث طبقات، أولها طبقة عضلية ذات اتجاه منحرف، ثم طبقة أخرى عضلية ذات اتجاه دائري يحيط بالجدار المعدي، ثم طبقة عضلية ثالثة ذات اتجاه طولاني.

وما أعجب هذا الترتيب وأبدعـه، وما أبلغ أهميته، فإنه يسـير التمطط المعدي في أي اتجاه كان، فإذا امتلأت المعدة ـ مثلًا ـ بسـائل ثقيل يترسب في القاع، فإنّ عمل العضـلات الدائرية يكون له الدور الأساسـي هنا، وإذا امتلأت بطعام يملأ جميع الفراغ المعـدي، فإنّ عمل العضلات الطولانية هو الذي يحل المشـكلة هنـا، وإذا اجتمـع العاملان معا تضافـرت العضلات الطولانية والدائريـة معًا للقيام بالمهمة التي تتعيـن، وإن لم يكن هناك نظام معين في تمـدد المعدة تضافرت العضلات بأشـكالها الثلاثـة معًا، ويحيط بالجدار الثالث جدار رابع وهو ما يسمى بالطبقة المصلية، وهي الدرع الذي يغلف الطبقات جميعًا من جهـة، كما أنه صلة لربطها ببقيـة الأجهزة داخل البطـن، بالإضافة إلى دخول التروية الدموية من خلال هـذه الطبقة، حيث تغلف وتسـتر الأوعية الدموية والأعصاب، والأعصاب تشكل ضفائر عصبية تسمى بضفائر بسنر وأورباخ، الأولى مكانها تحت الطبقة المخاطية، والثانية ما بين الطبقات العضلية، وبالضبط ما بين الطبقة العضلية الطولانية والدائرية.

هذا؛ وكم وراء ما ذكر من أسرار وعجائب تضيق عنها مكتبات العلم وتكل الأفهام عن تصور مجملاتها، وترتد الأوهام دون تخيل أبعادها، وقد اكتشـفت

البحوث الطبية المتتابعة نزرًا يسيرًا منها، فحير الأفهام وأدهش الألباب، وهي جميعًا ترجع إلى تكوين الخلية وما يترتب على اجتماع الخلايا وتناسقها وانتظامها من أمر عجيب في الجسم، فالنسيج إنما يكون بتراص الحُجَر الخلوية جنبًا إلى جنب بين الحين والآخر، ويبدو ما بين جمهرة هذه الخلايا نهر صغير، لا يزال يصغر تدريجيًا حتى يصل إلى درجة من الصغر بحيث يضيع بين الحشود الخلوية فتتعذر متابعته، وبهذا تتحقق التغذية الخلوية، فهي تتغذى عن طريق التشرب، حيث يحيط بها السائل الخلالي، وكأن مجموع الخلايا يغطس في سائل كالإسفنجة التي تغطس في الماء، وهو كذلك بالفعل.

وبيان ذلك أنّ للخلية غشاء يغلفها، وهو يمتاز بكونه يشبه المرشحة الانتحابية، فهذا الغشاء ترشح منه المواد من داخل الخلية إلى خارجها، وهي تمثل نتائج الاستقلال وإخراج بقايا الفضلات الفاسدة، وغاز الفحم، كما أنها تدخل المواد التي تحتاجها الخلية من السكر والماء وغيرهما، ولكن ذلك يتحقق بحساب دقيق ومراقبة بالغة، فهي تدخل المواد التي تحتاجها الخلية من السكر والماء وغيرهما بمقدار، وذلك من طريق الغشاء الخلوي، وتجدها تسمح بمنتهى السرعة لدخول مادة البوتاس، حيث يشكل البوتاس الموجود ضمن الخلايا ٩٨٪ من بوتاس البدن العامة، و٢٪ يوجد في الدم، وهي تمنع مادة معدن الصوديوم والكلور، لأن المنطقة الانتحابية لمادة الصود هي خارج الخلايا، وهذه وتلك معدن، فالصود والبوتاس معدنان متقاربان، ولكن غشاء الخلية يرفض الأول ويأخذ الثاني، مع العلم أن ذرة البوتاس وزنها ٣٩، وذرة الصود وزنها ٢٣، أي أن ذرة البوتاس أكبر وأثقل، وكذلك لا يسمح الغشاء بدخول المواد البروتينية ويسمح بدخول السكر.. والبولة، وهذه الخاصية عجيبة، فالغشاء يتصرف كأنه عاقل فيرفض إدخال عنصر كالصوديوم مثلًا، ويسمح بدخول عنصر آخر كالبوتاسيوم، حتى أن الخلية صارت بمثابة الملجأ الأمين الوحيد لشاردة البوتاسيوم في البدن.

وإذا كانت هذه العجائب في غشـــاء الخلية، فما بالك بما في باطنها، فهناك بحر زاخر من أسرار الحكمة الربانية، لا يمخر عبابه ولا يسبر أعماقه إلا العوامون الماهرون فللخلية باب لا يلجه كل وافد، وإنما عليه حارس أمين، يسمح ببعض الذرات بالدخول ويمنع بعضها كما تقدم، ومما يباح له ذرة الســـكر، ولكن هذه الذرة إذا كانت من نوع النشـــويات يبدأ تغيرها من لحظة مرورها بالفم، بســـبب وجود خميرة النشأ في الغدد اللعابية الموجودة بالفم، وهي غدة تحت الفك وغدة تحت اللسان، والغدة النكفية، وإذا كانت من أنواع السكر الأخرى؛ فإنها تصل إلى الأمعاء، وهناك يحصل لها التغير الأساسي، حتى يمكن لها أن تدخل جدار المعي بدون جواز مرور، وهو عملية الفسفرة في مصطلح الكيمياويين، ومن هناك تصل إلى الكبد عبر الدوران، حيث يعتبر مركز الجمارك العام.

وهنا يتم الفحص الدقيق في حاجة الجسم إلى سكر، فقد يمر بطبعه، وقد يتحول إلى مولد للسكر إذا اقتضت الحاجة ذلك فإن زاد عن الحد الذي يريده حوله إلى مراكز التمويل الأخرى وهي العضلات، التي تختزنه بشكل مولد له ليكون حاضرًا عند الطلـــب، ويتم بهذا انتظـــام بين مقدار الســـكر في الدم ووضعه في الكبد، فإذا اســـتنفذ البدن ما به من سكر قامت الكبد بطريقة آلية بحل السكر المتكاثف عندها إلى سكر مستســـاغ؛ ليزود به الدم، ومن الدم ينتقل إلى كل خلايا الجسم.

ولا يكون مرور السكر عبر هذه الطرق على وتيرة واحدة وإنما ذلك بحسب احتياج الجســـم، فقد يجتاز الطريق السريع فورًا إلى الأنســـجة، حيث يحترق ويتحول إلى غاز فحم وماء، وذلك بحسب حاجة الخلية، وقد يتحول إلى دسم وشحم بحســـب حاجة البدن لذلك، وبقدر الفائض، وقد يدخل إلى العضلات ليتحول إلى مولد ســـكر أو يســـتقر في الكبد، ولكن يختلـــف وضعه بين هنا وهنالك، فالكبد تقلب الكلوجوز إلى غليكوجين عند زيادة الوارد منه، ويحصل

العكس عند حاجة البدن، ويتم ذلك باستمرار دون توقف، لأن حاجة الجسم إلى السكر من أجل تموينه بالطاقة والحرارة اللازمة للحياة، فهو يستهلكه باطراد، وأما مولد السكر في العضلات، فهو إما أن يحوله إلى حمض لين أثناء استهلاكه، وهذا بدوره يتحول في الكبد من جديد إلى مولد سكر، وإما أن يحرق ويستفاد من القدرة المتشكلة، وعندما تصل ذرة السكر إلى البوابة السرية المتحركة في جدار الخلية يقوم هرمون الأنسلين لإيصالها إلى الخلية.

وهي كلها أمور مقدرة بمقادير حتى ينتظم أمر الجسم عندما يستقر السكر في الدم بنسبة معينة، وهي غرام واحد في كل لتر من الدم، لأن زيادته أو نقصانه يؤديان إلى اضطرابات مخيفة، وما أعظم ما تقوم به المنظمات الهرمونية في أمر السكر، فهي التي تقوم بزيادة السكر عند الحاجة إليه، بينما هناك هرمونات مضادة مهمتها عكس ذلك، وهي تعمل بانتظام، والأنسلين هو الذي يقوم بنقص السكر في البدن، بنقله إلى الخلايا بزيادة استخدامه أو بمنع انحلاله من الكبد، وزيادة قابليته إلى التحول إلى الدسم، ونقص التحولات الأخرى التي تصل إلى سكر، كما في تحولات الدسم والحموض الأمينية.

وأما الهرمونات المضادة التي تشترك جميعًا في حل السكر فهي هرمون الغلوكاكون الذي يفرز من المعثكلة، وهرمون النمو من الفص الأمامي للغدة النخامية، وبعض هرمونات قشر الكظر، والإدرينالين من لب الكظر، وكذلك البتروكسين وهو هرمون الغدة الدرقية، الذي يتعاوض أيضًا في الاستقلاب، وكذلك حل السكر.

هذا كله من أجل الثبات والتوازن ما بين هذه الهرمونات، وتنظيم إفرازاتها بالتعاون مع الكبد وجعل السكر في ثبات واستقرار في الدم، فما أعجب صنع الله في ذلك، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

وإذا كان الغشاء الخلوي يمنع من دخول البروتينات إلى داخل الخلية ـ كما سبق ـ فكيف يتكون البروتين الخلوي اعتمادًا على إمكان الخلية وحدها خاصة، كما أنّ بعض الخلايا في الجسم تقوم بتركيب هرمونات هي في غاية التعقيد كما هو في هرمون الأنسولين من خلايا بيتا في جزر لانغرهاش من المعثكلة، أو البتروكسين من خلايا الغدة الدرقية، أو هرمون النمو من العنصر الأمامي من الغدة النخامية، أو التيستوميكرون وهو هرمون جنسي عند الذكور من خلايا ليديغ في الخصية، فكيف يتم هذا؟.

ولا تظهر الإجابة عن ذلك إلا بتصور شيئين، أولهما: البروتين ما هو؟ وكيف يتكون؟، ثانيهما: ما الذي يتكون داخل الخلية التي ما زلنا في حيرة عن اكتشاف بعض أسرارها؟.

أما البروتين: فإنّه تتكون مواده ـ ومنها اللحم ـ عن اجتماع مجموعة ضخمة من الأحماض الأمينية، والحمض الأميني هو عبارة عن ذرة من اجتماع حمض وأمين، كما هو اسمه، والأمين هو الذي يوجد في تركيبه ذرة آزوت مع ذرتين من الهيدروجين، وتكون صفاته معاكسة للحمض، أي تميل للقلوية، وعليه فإنّ الحمض الأميني يحمل خاصيتين، وهي الحموضية والقلوية، وتلك هي ميزته، وقد يبدو هذا شيئًا بسيطًا في أول البحث، ولكن كيف تتكون من البروتينات المعقدة خاصة مع كثرة أعداد الأحماض الأمينية؟! والأعقد هو اجتماع الأحماض الأمينية بشكل إن اختلف قليلًا عن الآخر نتج عنه مركب آخر، يختلف كل الاختلاف عن المركب الأول، حتى أنّ تبديل بعض الذرات في المركب نفسه يقلب المركب رأسًا على عقب، والسر في هذا يعود إلى حد الحياة في الخلية، الذي هو النواة، حيث يستقر مركز الرئاسة والإدارة وتنظيم الأمور هناك.

ولم يكن هذا ليظهر لولا فضل الله على عباده باختراع المجهر الإلكتروني وما وفقهم له من البحث عن أسرار الخلية، فقد وجدوا أن الخلية لا يمكن أن

تعيش بدون نـواة، فلذلك قالوا أنّ سـر الحيـاة إنما هو في النـواة، فبدأوا يدرسون النواة، وفي النواة تبين وجود أجسام غريبة ما كانوا ليعيروها اهتمامًا، ولكن بمتابعة البحث والدرس وجدوا هذه الأشـكال ثابتة وفي كل انقسـام خلوي عندما تنشطر الخلية إلى نصفين تتولد خليتان جديدتان، بحيث تكون الخلية المتولدة كأصلهـا، وتبينوا أنّ لهذا الانقسـام علاقة بهذه الموجودات داخل النواة، حيث إنها تنقسـم إلى نصفين مع كل انشـطار خلوي، وتتلون بالأصباغ بشـدة، فلذلك سـموها الصبغيات، وبمتابعة البحث تبين أن هذه الصبغيات لها دور كبير في الوراثـة، ففيها تكمن الخصائص الوراثية، فتنتقل من خلالها من الأصول إلى فروعها، وهو أمر ثابت في كل الأنواع الموجودة في الأحياء النباتية أو الحيوانية، فضلًا عن الإنسان.

وإن عجبـت فاعجب أن تكـون هذه الصفـات الوراثية كلهـا في خلية لا تبصر حتى بالمجهر!! كلون الشعر والعينين، وطول القامة، ولحن الصوت، وقسمات الوجه، وشكل المشية والمزاج، وتشكيل العظام والعضلات، وشكل الأصابع والأظافر، واسـتطالة الأنـف، وفتحة العينين، وأهـداب الأجفان، واسـتدارة الصـدر، والهرمونـات، والأخلاط، والغـدد، والزمـر الدموية، والأمراض الوراثية، وشكل الجمجمة وغيرها.

وهذه أسرار وقف العلم البشري أمامها خاسـئًا وهو حسير، فبعد جهود مضنية توصل العلم إلـى أنّ هذه الصبغيات هي الأسـاس في الوراثة وذلك بتعـرف العلماء على ما يشـابهها في التركيـب داخل الخليـة إذ وجدوا أنّ الصبغية مكون من اجتماع حمض فسـفور وسكر خماسـي (أي فيه خمس ذرات فحم، وهو سـكر ريبوز، ولذلك سـمي المركب بالحمـض الديبي) بالإضافة إلى مركب عضوي أزوتي، فأطلق على هذا المركب الثلاثي الحمض الديبي النووي، واختصروه فسـموه (D.N.A) ووجدوا أنّ هذا الحمض يشبه

سلمًا فيه عمود يفصل بينهما درج لكنه ليس بمستقيم، بل هو ملفوف على نفسه، بحيث لو جعل على استقامة واحدة وربط العمودان ببعضهما لامتد هذا الحمض خارج النواة مسافة متر ونصف، كما وجدوا أنّ هنالك أحماضًا تشابههن في الخلية، ولكنها تختلف بميزتها عن ميزة الأُوَل من ناحية تركيب ذرة الأكسجين فقط، فلذلك سمي (R.N.A) ووجدوا من هذا الأخير ثلاثة أنواع في الخلية الواحدة.

وبعد هذه المقدمة لنأتي إلى كيفية تركيب البروتين في هيولا الخلية (المادة التي تحيط بالنواة، وتقع ما بين النواة والغشاء الخلوي تسمى بالهيولا الخلوية) لقد وجد أنّ في هيولا الخلية الواحدة ما يقرب من (٥٠٠) ألف جسيم ديبي، أي من النوع الأخير الذي سبق شرحه، بالإضافة إلى (٥٠٠) مصورة حيوية، تضاف إليها (٥٠٠) مليون ذرة إنزيمية، وقد استطاع العلماء أن يتعرفوا بعد جهود مضنية أنّ الحمض (D.N.A) يشبه الأستاذ الذي يعطي المعلومات لتلاميذه لكي يقوموا بأمر ما، وأنّ الحمض الثاني (R.N.A) ينطلق من النواة كالرسول الذي يحمل رسالة مهمة وهناك يقترب من الجسيمات الديبية في الهيولا (نوع من أنواع (R.N.A) الثلاثة) ويهمس لها سرًا بأن تقوم بعمل ما، فيتحرك طرف ثالث في القضية وهو النوع الثالث من الحمض (R.N.A)، ويسمى بالناقل، فينادي الأحماض الأمينية فتجتمع إليه لتتلقى عنه ما يأمرها به، فتكون تحت تصرفه، ثم يبدأ في صفها بشكل فني دقيق ماهر، وكأنه أعقل العقلاء، حتى يبني منها البروتين الذي يناسبه، أو الهرمون الذي يريد إطلاقه!!.

ومن جملة العناصر التي تسبح في السائل الخلوي المريكز، الذي يحاول أن يكون في مركز الخلية، يضع النواة إلى أحد أقطابها، والعجيب في هذا العنصر أن يتكون من اسطوانة، فيها تسعة أنابيب أو ألياف أخرى، وهو رقم

سري من أسرار الله تعالى في خلقه، وقد اكتشف أن هذا المريكز يظهر كأنه المخطط والمهندس لمرحلة الانشطار الخلوي، حيث يقوم أثناء انقسام الصبغيات فيرسم خطوطًا وطرقًا دقيقة أمام الصبغيات المنتشرة وهي في شكلها تشبه المغزل، ثم لا يلبث أن يتكون في الخلية من كل طرف ما يشبه الكوكب المشع، كأنه القمر المنير في الظلمات، ولذلك سميت هذه الأشعة بالأشعة الكوكبية، وتصدر الأوامر للصبغيات أولًا أن تقف بحالة استعداد في منتصف الخلية، ثم يأمر كل شطر من شطري الصبغي المنقسم أن يتجه إلى أحد طرفي الخلية، وهو يهتدي في تنقله هذا بهذا النور المشع الذي يحدد له السير، فتتضح له الطريق حتى يصل إلى الطرف الأول للخلية في هدوء!!.

وفي نفس الميقات يكون وصول توأمه إلى الطرف الآخر، وتنقسم الخلية إلى قسمين بعد انشطار الصبغيات بهذه الكيفية[1].

هذه هي الخلية، وهذه بعض أسرارها، وما هي إلا جزء قطرة من محيط ثجاج، لا يدرك قعره، ولا يرجى الوصول إلى ساحله، وحسبك أنّ الله سبحانه جعل هذه الخلية هي أصل الحياة ومكمن سرها، ومهما بحث الباحثون واكتشف المكتشفون من أبعاد أسرارها العظيمة، فإنّ ذلك لا يتعدى أن يكون في الجانب المادي منها، وهو ما تتركب منه، وتنقسم إليه، وما بين هذه الأجزاء من تكامل وتناسق وانسجام في كل ما تقوم به من أدوار، وما يناط بها من وظائف، وهي أمور محيرة طبعًا، ومن وراء ذلك ذلك السر الغيبي، وهو سر الحياة الذي أودعه الله سبحانه فيها، وليت شعري؛ كيف يكابر الملحدون، وينكرون عتوًا واستكبارًا ما يرونه من آيات الله تعالى الدالة عليه في ذلك؟!.

---

(١) ينظر؛ جلبي؛ خالص: **الطب محراب الإيمان**، ٣٥/١ ـ ٥٨، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ٧: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

فكيف يفسرون هذا الانسجام العجيب، وهذا التكامل في هذا العالم الخلوي الواسع، بما فيه من العجائب المحيرة الداعية إلى الاعتبار والتأمل في آيات الله تعالى العظيمة، كيف يفسرون خلق هذه الخلية المهينة الحقيرة بالنظر إلى دقتها بهذه الكيفية العجيبة بحيث تتسع لهذه الكائنات المودعة في تضاعيفها، وكيف يفسرون هذا التقدير الدقيق لكل محتوياتها حتى لا يوجد بينها نشاز ولا اضطراب، وكيف تؤدي هذه المحتويات جميعًا أدوارها العجيبة لتكون جميعًا متكاملة متوائمة، وكيف يمكن لها أن تهتدي إلى ما تقوم به من أدوار منسجمة، من أين جاءت هذه الهداية، فكيف وصلت إليها؟؟!.

أويتصور أن يكون ذلك كله من الطبيعة العمياء الصماء الجهول الميتة! بحيث تكون قادرة على إعطاء كل ذرة في هذه الخلية دورها الطبيعي وطاقتها التي تتمكن بها من أداء هذا الدور والقيام بهذه المسئولية، مع أنّ الطبيعة نفسها هي بحاجة إلى من يطبعها ويهديها ويبصرها، فكيف يرد هذا كله إليها ولا يرد إلى الحي القيوم، السميع البصير، العليم الخبير، الذي خلق السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟؟!.

فكيف يقر عاقل أن تكون الطبيعة هي التي قامت بهذا كله، وينكر أن يكون فاطر السماوات والأرض هو الذي فعل ذلك وأوجده، وهو الذي أوجد هذا الانسجام وهذا التكامل بين ما اشتملت عليه الخلية من الدقائق العجيبة؟!.

على أنّ تركيب الخلق يبدأ أولًا من خلية واحدة تتكون بتلاقح نطفة الذكر مع بييضة الأنثى، مع أنّ القذف المنوي الذي يكون من الذكر تكون فيه مئات الملايين مما يسمى بالحيوانات المنوية، فيقع الاختيار على واحد منها، ليتصل بالبييضة، بينما تهلك البقية فيما دون ذلك، فمن أين جاء هذا الاختيار لو لم يكن وراء ذلك من يصرف كل شيء بحكمته، ومن الذي

أوجد تهيؤ ذلك الحيوان وتلكم البييضة للقاح بمـا أودع في كل منهما من الخصائص العجيبة، التي تعجز عقول البشر جميعًا عن تصورها وتصويرها، إلا ما بدا لها منها؟!.

ثم بعد ذلـك يمر هذا الكائن الذي اجتمع شـمله بهـذا اللقاح بمراحل الأطوار طورًا بعد طور، فتتولد الخلايا الكثيرة بعدما كان أصلها خلية واحدة فحسب، إلى أن يتكامل الخلق فيشتمل الجسـم على مئات ملايين الملايين من الخلايا، فمن أين جاء هـذا الكم الهائل من هـذه الخلايا، وكيف كانت رعاية هذا الأمر في أعماق الرحم حيث لا تمتد يد ولا تصل عين إلى أبعادها إلا يد وعين العليم القدير، الذي يعلم ما فـي الأرحام، ويصرف كل ذرة في الوجود، ولا يعزب عن علمه ما هو أقل من ذرة في هذا الكون؟!.

وكيف تتنوع هذه الذرات بتنوع ما يتركب منه الجسم، وكيف تنسجم فيما بينها ولا تصطدم، وتأتلف ولا تختلف، وتتكامل ولا تتعارض؟! مع أنّ هذا الأمر مطرد لا يتوقف منـذ بداية الخلق وإلى أن يـرث الله جميع الكائنات، ويكون معادها إليه.

على أنّ الإنسـان بعد خروجه من ضيق الرحم، إلى فضاء هذه الأرض، لا تتوقف الخلايا في جسمه عن الحدوث والفناء، فهي تتجدد في كل لحظة بكمية هائلة، بحيث يسـتهلك في كل ثانية ١٢٥ مليـون خلية، وفي كل دقيقة ٧٥٠٠ مليون خلية، وتحل محلها بدائل عنهـا اللهم إلا في خلايا الدماغ التي اختصت بالبقاء والاستمرار حتى لا يضيع ما استوعبته الذاكرة، فهل الطبيعة الميتة الجاهلة العمياء الصماء يمكنها أن تفعل ذلك، وإذا كان الصناع المهرة يخطئون فيما يصنعونه مع عنايتهم بالدراسة، واسـتعانتهم بالتجربة، فكيف تكون هذه الطبيعة ـ مع ما تتصف به من الموت والعمى والصمم ـ متوفقة في هذا التصميم والإبداع؟!.

أولا يجدر بالإنسان أن يقف طويلًا أمام هذه الحقائق، ويستمد منها البصيرة والفهم والإدراك، حتى لا يضيع في متاهات هذه الحياة بين الأفكار الضالة، والمفاهيم الحائرة، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٠].

وكم تجد من آيات الله المعجزات التي تصحب خلق الإنسان من هذه الخلية الأولى، التي يتولد منها ذلك الكم الهائل من الخلايا المتنوعة في الجسم، التي هي بدورها تحيا لتموت كما هو شأن الإنسان نفسه، فهي تتجدد باستمرار في جسم الإنسان ما خلا خلايا الدماغ، التي هي مقر الذاكرة المختزنة لذكريات صاحبها، فإنّ هذه تبقى حية إلى أن يموت صاحبها ـ كما ذكرنا ـ، وكم شدّ القرآن انتباه الناس لهذه المعجزات العظيمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ناهيك من هذه الآيات الكبرى أنّ هذا الإنسان ـ الذي كرمه الله تكريمًا، وآتاه العقل والحكمة، واستخلفه في الأرض، ومكّن له في الكون، بحيث سخر لمصلحته كل ما في أرجائه ـ هو في الأصل نقطة صغيرة من هذا الماء الدافق المهين، إذ لا يكون خلقه من كل الماء ـ أي المني المتدفق في حال المباشرة الزوجية ـ وإنما يخلق من تلك النقطة الصغيرة من هذا الماء، وهي في دقتها وحقارتها لا تكاد تبصر حتى بأشعة المجهر، وقد عبر عنها القرآن تارة بالنطفة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]، وتارة

بالسلالة كما في قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة: ٨]، فالقرآن كما ترى يصرح بأن هذه النطفة إنما هي شيء من المني الذي يمنى، وكذلك السلالة ما هي إلا بعض الماء المهين، وقد نص على هذا حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ الذي جاء فيه: «**ما من كل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء**»[1].

وهذا بالقطع يدل على أنّ الإنسان إنما يخلق من شيء يسير جدًا من الماء الدافق، وسيأتي إن شاء الله بيان ما قيل أنّ الحيوانات المنوية التي تتزاحم في الدفقة الواحدة من ماء الرجل من أجل تلقيح البييضة تعد بمئات الملايين، ولم تهتد إلى هذا العلوم المعاصرة إلا فيما قبل أقل من قرنين من الزمن، إذ لم يكن قبل ذلك معروفًا عند الباحثين ما اصطلح فيما بعد على تسميته بالحيوانات المنوية[2]، وقد علمت أن القرآن والسنة سبقا إلى بيان ذلك قبل ثلاثة عشر قرنًا.

وبجانب ذلك أيضًا فإنّ بييضة المرأة التي يتم تلقيحها تختار من بين غيرها بحسب العناية الربانية، فإنّ الطفلة عندما تكون جنينًا في الرحم يشتمل مبيضها على ٦ ملايين بييضة، وإذا خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها، وتستمر بعد ذلك في الاندثار حتى إذا بلغت المحيض لم يبقى منها إلا ثلاثون ألفًا، وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن أربعمائة بييضة في

---

(١) أخرجه الطيالسي؛ **مسند أبي داود الطيالسي**، (رقم: ٢١٧٥، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١١٨٢٣، ٢٩٣/١٠)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١٦) النكاح، باب (٢٢) حكم العزل، (رقم: ١٤٣٨ [٣٥٥٤]، ص ٩٢٠)، وأبو يعلى؛ **مسند أبي يعلى**، (رقم: ١١٥٣، ٣٨٤/٢)، وأبو عوانة؛ **مسند أبي عوانة**، كتاب (١٤) النكاح وما يشاكله، باب (٤٦) النهي عن العزل، (رقم: ٤٣٤٩، ٩٨/٣)، والطحاوي؛ **شرح معاني الآثار**، كتاب (٧) النكاح، باب (٨) العزل، (رقم: ٤٢٧٣، ٣٩٣/٢).

(٢) ينظر؛ البار: **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، ص ١١٢ ـ ١١٣.

حياة المرأة كلها، وفي كل شهر تنمو مجموعة من البييضات، ولكن يد القدرة الإلهية تختار واحدة منها فقط لتكمل نموها وتخرج لملاقاة الحيوان المنوي السعيد في الثلث الوحشي لقناة الرحم.

وكما يختار القدر ويصطفي حيوانًا منويًا واحدًا لهذه المهمة من بين تلك الملايين، فكذلك يكون اصطفاء للبييضة الملقحة والكرة الجرثومية، على أنه وإن تم التلقيح بادئ ذي بدء، فليس كل بييضة تلقحت، فإنّ الأبحاث الحديثة جدًا تثبت أنّ ٧٨٪ من كل حمل يجهض، ويتم إسقاطه، وإنّ ما يقرب من ٥٠٪ يكون إسقاطه قبل أن تعلم الأم أنها حامل، كما جاء ذلك في مجلة (MADICINE DIGEST) عدد يناير ١٩٨١م، وهذا مما أشار إليه القرآن الكريم في وصفه للمضغة بأنها مخلقة أو غير مخلقة، وصرح به حديث ابن مسعود أنه قال: «إذا وقعت النطفة في الرحم، بعث الله ملكًا فقال: يا رب مخلقة، أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة، مجتها الأرحام دما»[1][2].

والحديث في روايتي الطبري وابن أبي حاتم هو موقوف على ابن مسعود ﷺ - وإن ذكره د. البار[3] عن النبي ﷺ - إلا أنه لا يمكن أن يقوله ابن مسعود ﷺ من غير أن يسمعه من النبي ﷺ، فإن ثبتت نسبته إلى ابن مسعود فإنّه تلقاه من كلام المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يخرج ما يقوله من هذه الحقائق عن كونه وحيًا يوحى، فإنّ هذه الخفايا لا يمكن أن يتسلط عليها الناس من غير أن يستقوها من منبع النبوة، المرفود بوحي الله.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره؛ جامع البيان، سورة الحج (الآية ٥)، (رقم: ١٨٨٤٥، مج (١٠) ١٥٤/١٧.

(٢) ينظر؛ البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ١١٢.

(٣) ينظر؛ المرجع السابق، ص ١١٢.

في مشاهد آيات الخلق وعظمة الخالق في جزيئات الخلية

سبق الكلام في الخلية وما تنطوي عليه من عجائب، وما تحتويه من أسرار الانسجام والوئام بين مكوناتها، وقد ظهر للباحثين ما في تكون هذه الجزيئات من دقة متناهية، وما تحويه من دلالات على عجيب الخلق وعظمة الخالق سبحانه، فقد أودع الله سبحانه فيها برمجيات لها لغات معبرة عن الحقيقة مكذبة للنظرة المادية في تفسير وجود الكون ونشأته، وذلك أنه قد ثبت بالاكتشاف العلمي أنّ الخلايا الحية ليست كائنًا بسيطًا، يتألف من سائل هلامي يحيط به غشاء رقيق، فقد اتضح أنّ كل خلية هي عالم قائم بذاته يحتوي معلومات وبرمجيات ومورثات، ويجري فيه على عدد الدقائق والثواني ما يذهل لب العاقل من العمليات الحيوية والتفاعلات الكيميائية، وبهذا سقط القول بأنّ أصل الحياة مادي، وأنّ الحياة الأولى نشأت بالمصادفة، ولو أضافوا إليها عوامل ليحاولوا ستر عورة مصادفتهم، وكلما تقدم العلم اتسع الخرق على راقعه عند أولئك الذي يعولون على فكرة المصادفة في تفسير أصل الوجود.

وقد علمت مما تقدم أنّ البروتينات هي المكونات الأساسية للخلية، وقد قام العلماء بحساب احتمال تكوين جزء بروتين واحد من الحجم الصغير بالمصادفة، فإنّ جزء البروتين يتألف من سلسلة من جزيئات أصغر وهي الحموض الأمينية، فهي بمثابة وحدات بناء البروتينات، ويتفاوت طول

السلسلة بحسب نوع البروتين، فقد يصل إلى أن تكون بعض أنواع البروتين تمتد سلسلتها إلى بضعة آلاف، ومع وجود الكثير من الحموض الأمينية في الطبيعة، إلا أنّ الحموض التي تدخل في تركيب البروتينات هي عشرون حمضًا فقط، تتكون منها هذه السلاسل، وقد حسب العلماء احتمال تكوين بروتين من الحجم الصغير يبلغ طول سلسلته ١٥٠ حمضًا أمينيًا فقط بالمصادفة، فافترضوا كما يزعم الداروينيون أنه لما نشأت الحياة على الأرض كانت المحيطات مليئة بسائل يسمونه السائل ما قبل الحيوي، فيه مكونات وجزيئات ومركبات، من بينها الحموض الأمينية، فتهيأت لها الظروف للتفاعل وتكون أول الخلايا الحية، وقالوا لدينا عشرون حمضًا أمينيًا، ولو أردنا تكوين سلسلة طولها حمضان أمينيان فقط فهناك عشرون احتمالًا للحمض الأميني الأول في السلسلة ومن أجل كل حمض منها هناك عشرون احتمالًا للحمض الثاني، فعدد الطرق لتكوين هذه السلسلة هي عشرون مضروبة في مثلها، فتصل إلى (٤٠٠) احتمال، ولتكوين سلسلة من ثلاثة أحماض أمينية، يصل عدد الاحتمالات إلى عشرين مضروبة بتكرار في مثل عددها ثلاث مرات (٣٢٠)، فتكون نتيجة ذلك (٨٠٠٠) احتمال، ولتكوين سلسلة من أربعة أحماض أمينية، يكون عدد الاحتمالات هو رقم ٢٠ مكررًا في نفسه أربع مرات، فتكون نتيجة ذلك (١٦٠,٠٠٠) احتمال، وهكذا كلما زاد طول السلسلة تضاعف عدد احتمالات تكوينها بأرقام فلكية، وبناء على ذلك يمكن حساب عدد الاحتمالات لتكوين سلسلة من الأحماض الأمينية بطول (١٥٠) حمضًا أمينيًا، فتكون نتيجة ذلك كما حسبها العلماء رقم ١٠ مدعومًا بقوة ١٩٥ ـ أي (10^{195}) ـ وهو رقم خيالي.

على أنّ هذه السلاسل ليست كلها بروتينات، لأن السلسلة لا تكون بروتينًا إلا إذا كان للحموض الأمينية تركيب معين، ويمكن أن يشبه البروتين بجملة لغوية مفهومة، والأحماض الأمينية بالحروف، وكما أنها ليست كل

جملة متسلسلة من الحروف تشكل كلامًا مفهومًا، كذلك ليست كل سلسلة من الأحماض الأمينية تشكل بروتينًا، ولو تغير مكان حمض أميني واحد في أي بروتين لم يعد الجزيء الناتج بروتينًا.

وقد بحث علماء متخصصون في هذه المجالات، وبعد حسابات طويلة ومعاناة بالغة، أخذوا فيها بعين الاعتبار نسبة البروتينات الفعّالة في هذه السلاسل الناتجة، بالإضافة إلى عوامل أخرى، توصلوا إلى أنّ احتمال تشكيل بروتين فعّال طوله ١٥٠ حمضًا أمينيًا بالمصادفة هو ١ إلى ١٠ مكررة ١٦٤، أي: (١٠[١٦٤]).

ولم يكن هؤلاء من علماء الدين تخرجوا في كليات الشريعة أو أصول الدين، وإنما هم علماء غربيون معظمهم من أمريكا وبعضهم من أوروبا، وقد قدمت دراساتهم في مؤتمرات علمية على أعلى مستوى، وفي أرقى الجامعات الغربية، ومن بين هؤلاء الدكتور دوغلاس آكس الذي قام بأبحاثه في جامعة كامبردج الشهيرة، ونشر نتائج أبحاثه ما بين عامي ١٩٩٦م و٢٠٠٤م في عدد من أهم المجلات العلمية المتخصصة ومحاضر الأكاديمية للعلوم في أمريكا[١].

وكم في تضاعيف هذه الكائنات من أسرار عظيمة وعجائب ليس لها حد، كل سر من أسرارها ينادي بلسان حاله معبرًا عن افتقاره إلى واجب الوجود لذاته، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ويعبر عن قدرة الخالق العظيم وإحاطته بالكائنات كلها علمًا وخبرة فهو الذي رتبها على هذا النحو العجيب، وواءم بينها في ترتيبها، فكانت متكاملة كل جزء منها يكمل بقية الأجزاء من غير تصادم ولا اضطراب، وبهذا يتبين سرّ التعبير القرآني عندما أخبر الله سبحانه عن كلماته العظيمة في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

---

(١) ينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص٦٢ ـ ٦٤، نقلاً عن كتاب البيّنة في الخلية للبروفسور ستيفن ماير، ص٢١٢.

شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، فما أبلغ كل كلمة من هذه الكلمات، وما أفصح بيانها، وأعظم برهانها، وأقهر حجتها لكل جاحد ومعاند.

وقد صدق **بيل غيتس** عندما قال ـ حينما أدهشته هذه الحقائق ـ: «إنّ الحمض النووي يشبه برنامجًا حاسوبيًا، ولكن تعقيده الشديد أكبر بكثير من أي برنامج كتبه البشر»[1]، وهذا الرجل يعد ملك الحواسيب والبرمجيات في العالم، وهو مالك أكبر شركة برمجيات عالمية، هي شركة ميكروسوفت، وقد وصف بهذا الأحماض النووية التي هي مكونات الخلية الحية، وعلق على كلامه هذا المهندس **فداء ياسر الجندي** فقال: «في داخل خلايانا الحية يحدث العجب العجاب، وما يقوله **بيل غيتس** غيض من فيض، ونقطة في بحر»، ثم أخذ يشرح تلك البرمجيات المذهلة التي تحدث عنها، وعن الأحماض النووية أين توجد، وكيف تكون فيها هذه البرمجيات، وهي الوظائف التي تقوم بها، فذكر عقب ذلك أن العلماء اكتشفوا حتى الآن أن المعلومات والبرمجيات الموجودة في هذا الحمض النووي العجيب تقوم بوظيفتين أساسيتين:

الأولى: هي تخزين صفات الكائن الحي التي يحملها ويتميز بها، فبالنسبة إلى الإنسان؛ لون عينيه، وثخانة شعره، وسمك أظافره، وشكل أنفه، ومناعة جسمه، واستعداده لبعض الأمراض دون غيرها، ونبرة صوته وبصمة عينه، إلى ما وراء ذلك، كل ذلك مكتوب بدقة خارقة معجزة داخل هذا الحمض النووي العجيب، بواسطة رموز خاصة تشبه المعلومات والبرمجيات الحاسوبية، ومن تلك الرموز يتكون ما يعرف بالجينات الوراثية.

الثانية: هي تخزين المعلومات اللازمة لتصنيع البروتينات، ثم تشغيل هذه البرمجيات اللازمة لهذا التصنيع.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧، نقلا عن: كتاب البينة في الخلية للبروفيسور ستيفن ماير، ص١٢.

ثم تساءل: كيف يتم تخزين المعلومات الوراثية ونقلها للأجيال اللاحقة؟ وما أهمية البروتينات في جسم الإنسان؟ وما تركيبها؟ ولماذا تحتاج إلى برمجيات ومعلومات لتصنيعها؟ وأخيرًا كيف كان لاكتشاف وظائف الحمض النووي دور في تقليص نظرية داروين وتفنيدها؟.

وقد تولى الإجابة عن هذه التساؤلات جميعًا مستعينًا بالله تعالى، كما يلي: أما الحمض النووي الذي يحتوي على هذه البرمجيات الخارقة، فهو المعروف باسمه العلمي (DNA) وهو جزيء غاية في الصغر موجود في نواة كل خلية حية، لا تمكن رؤيته إلا بالمجاهر الإلكترونية التي تكبره بملايين المرات، ويحتوي جسم الإنسان على تريليونات من الخلايا كما سبق بيانه، ومعظم خلايا الجسم البشري، يبلغ متوسط قطرها ١٠ بيكرونات، والبيكرون هو جزء من ألف من المليلتر، أي أنّ قطر الخلية هو جزء بالمائة من المليلتر وفي كل خلية نواة داخلها، ويبلغ قطر النواة في المتوسط ما بين ٥ بيكرونات و٧ بيكرونات، وداخل هذه النواة يوجد ٤٦ من الكروموسومات أي الصبغيات، والكروموسوم هو جسيم مهم جدًا ومعقد جدًا، ويحتوي كل كروموسوم على جزيء حمض نووي (DNA) بالإضافة إلى بروتينات وجزيئات أخرى.

والحمض النووي هو على شكل ضفيرة من سلسلتين متوازيتين ملتفتين، وحلقات كل سلسلة هي وحدات متشابهة متراصة، تسمى كل منها نيوكلوتيد ويمكن تعريبه إلى رابط نووي، وهو مركب كيميائي يتألف من جزء من السكر الريبوزي المنزوع الأكسجين (Deoxyribose sugar)، ومن هنا جاء مصطلح (DNA) وهو الحروف الأولى من المصطلح الأجنبي (Deoxyribose Nucleic Acid)، وجزيء السكر هذا يرتبط من أحد طرفيه بجزيء فوسفاتي معظم ذراته من فوسفات، ومن الطرف الآخر بجزيء يسمى قاعدة نيتروجينية مكوناته ذرات

من الهيدروجين والكربون، وحتى يتم تشكيل الضفيرة والسلسلتين يرتبط كل نيوكلوتيد بجاره في السلسلة نفسها، بواسطة الجزيء الفوسفاتي، في حين يرتبط بالنيوكلوتيد المقابل له في السلسلة الأخرى من الضفيرة بواسطة القاعدة النيتروجينية وتكون هذه القواعد بمثابة درجات السلم، تصل كل رابطة بين كل نيوكلوتيد من السلسلة الأولى، ومثله من الثانية، ثم تلتف السلسلتان من الضفيرة المذكورة.

وجزيء السكر والجزيء الفوسفاتي متطابقان تماما في جميع النيوكلوتيدات، أما القاعدة النيتروجينية فهي التي تختلف، وتوجد أربعة أنواع من القواعد النيتروجينية لها تراكيب كيماوية، وأسماؤها العلمية هي: الأدينين ورمزه (A)، الثايمين ورمزه (T)، الجوانين ورمزه (G)، وأخيرًا السيتوزين ورمزه (C).

وخلاصة القول أنّ الحمض النووي هو ضفيرة مكونة من سلسلتين متماثلتين تماما في التركيب الكيميائي، وبرمجيات الحمض النووي تكمن في درجات السلم الواصل بين السلسلتين، وهي أربعة أنواع: (CG, GC, AT, TA).

يبلغ عرض هذه الضفيرة ٢ نانومتر، وهو جزء من بليون المتر، وتبلغ ثخانة شعر الإنسان في المتوسط ١٠٠,٠٠٠ نانومتر، أما طول الضفيرة فيقاس بوحدة خاصة هي (Kb)، وهذه الوحدة تعادل ١٠٠٠ نيوكلوتيد أي ١٠٠٠ وحدة من الوحدات المكونة للسلسلة، فإذا علمنا أنّ المسافة بين كل وحدتين هي ٠,٣٤ نانومتر، وأنّ طول الحمض النووي في خلايا البشر يتراوح ما بين ٥٠٠٠ ـ ٢٥٠,٠٠٠ (Kb)، أي ما بين ٥٠ مليون ٢٥٠ مليون نيوكلوتيد أمكننا أن نحسب طوله وهو يتراوح ما بين ١٧ و ٨٥ ميكرونًا.

وتساءل إذا كان الحمض النووي يصل إلى ٨٥ ميكرونًا، فكيف يكون وضعه في نواة الخلية مع أن الخلية كلها قطرها عشرة ميكرونات؟ وأجاب بـ: أنّ الحمض النووي يلتف على نفسه آلاف المرات، ويضغط نفسه ليكون

كتلة صغيرة، يتم حشـــرها داخل الكروموسوم، وليس هذا ببعيد كما هو شأن العرض المتناهي في الصغر لجزيء الحمض النووي.

وإذا كان كل ما ســبق هو وصفًا لجزيئات كيميائية، فأيــن البرمجيات؟ أجاب بـ: أنهــا تكمن في درجات الســلم الواصلة بين السلســلتين، أي في القواعد النيتروجينية، فهذه الروابط ـ كما ســبق بيانه ـ لها أربعة أنواع، وهي كما تقدم: (CG, GC, AT, TA)، وقد اكتشف علماء الكيمياء الجزيئية والكيمياء الحيوية أنّ هذه الروابط الواصلة بين سلسلتي ضفيرة الحمض النووي مرتبة بدقة مذهلة تشــبه ما يســميه المبرمجون (الشــيفرة المصدرية) وهي ترجمة للمصطلح الأجنبــي (source code) ومعنى ذلك أن لدينــا معلومات وبرامج حاسوبية مكتوبة بأبجدية مؤلفة من أربعة أحرف، أو أربعة رموز، فكل رابط يمثل حرفًا في هذه الشــيفرة، ويوجد فــي كل خلية بشــرية ما يزيد على ٣ مليارات رابط نووي، موزعة على الكروموسومات الموجودة في نواة الخلية، وعددها كما سلف ٤٦ كروموســوم، وهذا معناه بلغة البرمجيات والمعلومات أنه يوجد في كل خلية بشــرية ما يزيد على ٣ مليارات حرف من المعلومات والبرمجيات، وبتعبير مبســط إنّ كل خلية بشــرية تحتوي علــى مكتبة من المعلومات المرتبة والبرمجيات المعقدة تعادل ١٠,٠٠٠ مجلد ضخم، كل مجلد يحتوي على نحــو ١٠٠٠ صفحة[1]، وهــذه المعلومــات والبرمجيات تخزنها

---

(١) لا تزال المعلومــات تتجدد والأرقام تتنامى، بمــا منَّ الله تعالى به من تنامي الاكتشــافات العلمية، التــي تتجلى بها آيات الله تعالى في الأنفس وفي الآفاق كما وعد ســبحانه بذلك، ناهيك ما ذكره الكاتب أردوخان محمد علي في مقاله الذي نشرته مجلة المجتمع الكويتية في عددها (١٧٩٧) بتاريخ ٦ ربيع الآخر ١٤٢٩هـ الموافق ٢٠٠٨/٤/١٢م بعنوان **الشريط الوراثي ينقض أسس الفلسفة المادية** وكان مما احتواه مقاله أنّ الجزيئة فيها من أسرار خلق الله ما لو شرح لملأ تسعمائة ألف صفحة أي أربعين ضعف الموسوعة الطبية البريطانية وهي في أربعين مجلدًا!!!، وإذا كان هذا في الجزيئة فما بالك بالخلية كلها، فعلم البشر مهما بلغ في اكتشاف =

الخلايا، وتنقلها وتنسخها، وتقوم بتدقيقها، ثم استخدامها في مهمات حيوية، لا تقوم الحياة بدونها، وهذه المعلومات والبرمجيات هي بمثابة كتاب الحياة، كما يسميها كثير من علماء الكيمياء الحيوية[1].

هذه حقائق ليس فيها مراء، لأنها نتيجة بحث علمي رصين، قام به جمهرة من علماء الفيزياء والكيمياء الحيوية وغيرهم، ولم تكن دراستهم بدافع الانتصار للدين، وإنما كانت من أجل إنجازات علمية والسبق في المضمار العلمي، ولا إخال أحدًا من الملاحدة وأذنابهم يجادل في شيء من ذلك، وإنما يتعامون عن الحقيقة الدامغة التي تشرق شمسها، ويشعشع سناها، عندما يردون كل هذه العجائب التي يشتمل عليها الإنسان إلى الطبيعة، متجاهلين أن يكون وراء ذلك كله من أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء قدرة، ومتصاممين عن الأصوات التي تجلجل في أرجاء الوجود من كل ما خلق الله في الكون معبرة عن الافتقار إلى واجب الوجود لذاته.

وليت شعري؛ أي عقل يصدق أن يكون ترتيب هذه الجزيئات في أعماق الخلايا والتنسيق بينها في أداء وظائف الحياة، والقيام بمهماتها، وهذه البرمجيات العلمية الهائلة التي تحير كل عاقل، وتدهش كل مبصر، مع اشتمالها على البيان الواضح ـ على ما في تضاعيف خلق الإنسان من معارف

= أسرار الخلق فإنه لا يصل إلا إلى النزر اليسير منها، وقبل عشر سنوات من الآن التقيت بالطبيب الماهر الأستاذ الدكتور خالص جلبي، فأخبرني أنّ خريطة الجينات البشرية سيستغرق شرحها ٣٠٠ عام، وما أدراك ما سوف يتجدد في كل عقد من هذا الزمن من الاكتشافات العلمية، ويتجلى من الحقائق المطوية في تضاعيف خلق الإنسان، حتى يدرك الإنسان أنه مهما أوتي من علم فما هو إلا قطرة من بحر، وما أعظم قول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٧ ـ ٤٣، ويراجع موقع مشروع الجينوم البشري:
https://web.ornl.gov/sci/techresources/HumanGenome/project/info.shtml

وعلوم لا يمكن أن يحيط بها البشـــر ولو تضافرت جهودهم جميعًا وتناسقت من أجل استيعابها وشرحها ـ أن يكون ذلك كله من غير قصد وتصميم وإرادة من عزيز حكيم؟!.

ناهيك من ذلك هذا النص الذي جـــاء في **موقع المعرفة** في الحديث عن بعض محتويات الجينوم البشـــري، وهو كما يلي: «تكفـــي المعلومات التي يحتوي عليها الجينوم البشـــري لملء كتب ورقية يبلـــغ ارتفاعها ٦١ مترًا، أي ما يوازي المعلومات التي يحتوي عليهـــا ٢٠٠ دليل للهواتف يحتوي كل منها على ٥٠٠ صفحة!

فيما بيننا نحن البشر، يختلف الدنا **DNA** من فرد لآخر بنسبة ٥,٢٪ فقط، أو ١ من كل ٥٠ حرفًا، ويضع ذلك في الاعتبار أنّ الخلايا البشرية تحتوي كل منها على نسختين من الجينوم.

إذا أردنا أنّ نقرأ الجينوم البشري بســـرعة حرف واحد في الثانية لمدة ٢٤ ساعة يوميًا، فسيستغرق الأمر قرنًا كاملًا للانتهاء من قراءة كتاب الحياة!»[1].

وما هذا التحديـــد بالأرقام المذكورة هنا إلا جهد بشـــري متواضع من أجل استكشاف آثار صنع الله تعالى في خلق الإنسان، وما هو ببالغ من ذلك غرضًا إلا كما يأخذ الطير بمنقاره من محيطات البحـــار، فإنّ الأرقام الحقيقية هي أضعاف ذلك بكثير، والعلم ينمو في كل حين، ويأتي بجديد من هذه العجائب المدهشة، تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وإذا كان ما ذكر كله نســـبة ضئيلة من آيـــات الله تعالى في الأنفس، فما بالك بآياته في الآفاق، وهو الذي يقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

---

(١) موقع المعرفة الإلكتروني، ينظر: https://www.marefa.org

وإنما العجب كل العجب ممن يصعر خده، ويعرض عن هذه الآيات كلها متجاهلًا كل ما تـدل عليه من عظمة الخالق، واتصافـه بالكمالات المطلقة، التي تنقطع جميع الألسن، وتنتهي جميع اللغات، وتتحطم جميع الأقلام ولو كانت أضعاف أضعاف ما أنبت الله في الأرض من شجر، ويجف كل مداد ولو كان أضعاف أضعاف محيطـات البحـار، دون الوصول إلى غايـة من بيان عظمتها، ومع ذلك يصدق أن تكون هذه البرمجيات ـ وما تشـتمل عليه من العلوم، وما تحتويه من اللغات الدالة عليها، والكلمات المعبرة عنها ـ ناشئة عن الطبيعة العمياء الميتة الجهول..!.

فليت شعري؛ هل يصدق عقل بشري أن يكون اختراع هذا الخلق من قبل بشـر، ولو بلغوا في العبقريـة أرقى حدودها، ودرسـوا الطبيعـة من جميع جوانبها، وكان عددهم أضعاف سـكان الأرض، فأنى أن يكون ذلك من قبل طبيعة لا إدراك لها، ولا تصور عندها، بل هي نفسها بحاجة إلى من يطبعها؟!.

أرأيتم أن لو قيل بأن هذه المعلومات جميعًا أو بعضها دونت في أسفار، وشـرحت شـرحًا مفصلًا، ورتبت ترتيبًا باهرًا، من غير أن تتدخل في ذلك إرادة أحد أو قدرتـه، أكان هؤلاء يصدقـون ذلك؟! كلا، وألـف كلا، فإنه لا يصدق ذلك إلا من كابـر عقله وصدق وهمه، وكان مـن أغفل المغفلين وأحمق الحمقى والمجانين، فأين فلسفة هؤلاء وعلمهم ومداركهم ووعيهم؟! أولم تكفهم ليدركوا أنهم فـي وضع حقيق بأن يندبوا فيـه حظهم من هذه الحياة، بما وقعوا فيه من أمر يزري بهم، ويهوي بهم في دركات لم تهو إليها البهائم العجم؟.

وأين عقول هؤلاء من عقل بدوي نشأ وعاش في صحراء قاحلة، تلفحه في الصيف بهجيرها اللاهب، وفي الشتاء ببردها القارس، من غير أن يعرف طريقًا إلى مدرسة، فضلًا عن الإلمام بعلوم الفيزياء أو الكيمياء الحيوية أو الفلك أو

غير ذلك، ولكنه عندما سئل: كيف عرفت ربك؟ أجاب بكل عفوية وبساطة: «إنّ البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلّان على الصانع الخبير؟!».

فأين هذا العقل النير، من هـذه العقول المظلمة من قـومٍ راضوا العلوم وسـبروا العالم، وجمعوا بيـن التحقيق العلمي والعمق الفلسـفي، كيف لم يجدهم ذلك كله شيئًا، فارتكسوا في هذا الضلال المبين؟؟!.

أرأيتم هؤلاء الذين يجادلون بغير بصيرة، فينكرون ما هو أظهر البدهيات وأقواها برهانًا من أمر الخلق، لو قيل لهم بأنّ مكتبة حافلة بملايين المجلدات تحتوي على شـرح جميع ما في الخلايا وجزيئاتها، وكل ما تنطلي عليه من هذه العجائب، بلغة يفهمها جميع الناس، من غير أن يملي لسان بحرف مما اشتملت عليه، أو يخط قلم أحد شـيئًا من ذلك، أو يعتني ذهن بترتيب شيء من هذه المعلومات، وإنما تولت الطبيعة وحدها إنشـاء هذا التأليف الضخم الهائل، وهي التي طبعت كلماته في الطروس، ونسـقت بين مفرداته وجمله، وفصلت أبوابـه وفصولـه، ووضعت تراجم لكل شـيء من ذلـك، أتراهم يصدقون هذا الهراء من القول، أم أنهم يتهمون قائله بالجنون البالغ، ويعزون قوله إلى الهذيان؟!.

ومثل ذلك لو قيل لهم بأنّ الطبيعة تولت تأليف كتب في فنون شـتى، في الفلسـفة وعلوم الطبيعة، والطب، والهندسـة، والفلك، وسـائر أنواع العلوم، من غير أن يقوم أحد بشيء من ذلك، ومن غير أن يقع خطأ ولا في حرف واحد، وأنها طبعت ذلك فيما لا يحصى عدده من المجلدات، أتراهم يصدقون هذه الدعوى؟!.

فلعمري؛ إنّ هذا ـ وإن كان من المستحيلات عقلًا وعادة ـ هو أهون من أن تكون الطبيعة الميتة الجامدة هي التي اخترعت خلق الإنسـان من تلقاء

نفسها، بكل ما اشتمل عليه من عجائب الخلق، وبدائع الصنع، وهي التي ركبت ما في كل خلية من خلاياه من نواتها وجزيئاتها، ثم رتبت الخلايا حتى تكون منها النسيج، ثم تكونت منها الأعضاء، ثم نفخت الروح في جسمه، فوهبته بذلك الحياة، وفتحت له أبواب العلم والمعرفة، وعلمته كيف يسعى في الأرض، ليحقق مصلحته، وهي التي أوجدت في كل خلية من خلاياه هذا الكتاب المنشور الحافل بشرح وتفصيل ما انطوت عليه من بدائع الخلق، وذلك بإيجاد هذه البرمجيات الهائلة وتهيئة هذه اللغات الدالة عليها، فإنّ إنجاز هذا أبعد من الخيال من شرح هذه الحقائق في مجلدات العلم، وطبعها لتكون ميسرة للقارئين تحفل بها المكتبات، ليتهيأ لكل قارئ الاطلاع عليها، إذ لا يخفى ما في هذا من التعقيد الذي يفوق بكثير إنشاء مجلدات العلم، من غير أن يكون وراء تأليفها عقل مفكر، ولا لسان معبر، ولا يد تخط أو تطبع.

فإنّ اختراع هذه الخلايا ـ بما فيها من عجائب الصنع، وترتيب جزيئاتها في نواة كل منها بحسب ما هي عليه ـ هو نفسه أعجب وأبعد عن تصور الأذهان، أو تخيل الأوهام، فضلًا عن إيجاد عنصر الحياة في الخلية نفسها، وما بالك بتنسيق هذه الخلايا ـ على اختلاف طبائعها وتباين وظائفها ـ حتى تكون جميعًا في كثرتها الكاثرة كالشيء الواحد في تكاملها وتناسقها، وتناغم أصواتها، وانسجام حركاتها، ناهيك بهذه البرمجيات الهائلة في تضاعيفها، وتلك اللغات الكاثرة التي تدل عليها، أولا يكفي هذا كله على الدلالة بأن الطبيعة ذاتها هي أعجز وأجهل وأحير من أن تقوم بهذا الأمر؟ ولو كانت بذاتها قادرة على ذلك كله فليت شعري من أين اكتسبت هذه القدرة؟! وبأي طريقة تمكنت من هذا الأمر؟! أتكون عاجزة عن تأليف كتاب في أي فن من فنون العلم وطبعه من تلقاء نفسها، وتكون قادرة على إيجاد الخلق من العدم، وخلق الإنسان على هذا النحو؟!.

هذا؛ ووراء ما ذكرنـــاه حقائق تدهـــش العقول، وتقطـــع دابر المراء والشـــقاق في أمر الخلق، منها تكوّن البروتينات في الخلية، وقد سبق أنّ الخلية الحيّة عالم قائم بذاته، وهي تشبه بمجموعة من المصانع وورشات العمل، التي تقـــوم بكل ما يلـــزم الكائن الحي من عمليـــات وتفاعلات لضمان استمرار الوظائف الحيوية في جســـمه، بل واستمرار حياة نفسه، ومن بين هذه العمليات عملية تصنيع البروتيـــن، وهي عملية معقدة تمر بثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة النسخ:

تتلقى نواة الخلية اتصالًا من مكان ما في جسم الإنسان، ولا يعرف كيف يتم هذا الاتصال يخبرها أنه في حاجة إلى بروتيـــن معين، فتحول النواة هذا الاتصال إلـــى الحمض النووي المناســـب، الذي يحتوي علـــى المواصفات المطلوبة أو البرنامـــج المطلوب لتصنيع ذلك البروتيـــن، ولا يكاد الحمض النووي يتلقى هذا الاتصال حتى يحدد الشيفرة البرمجية المطلوبة لتصنيع هذا البروتين، ثم يبحث عن الجزء من سلســـلته الحلزونيـــة المحتوي على تلك الشيفرة، وبعد تحديد أولها وآخرها تبدأ السلسلة بالتفكك في المجال المحدد الذي يحمل الشـــيفرة المطلوبة، كما يتفكك الســـحاب الذي يســـتخدم في الملابس، وتتفكك الروابط بين القواعد النوويـــة (النيوكلوتيدات) في ذلك المجال، ثم يستدعي المراسل الذي يقوم بنقل التعليمات بتشكيل البروتين، (RNA) وهو شـــبيه بجزيء (DNA)، ولكنه يختلف عنه في أنه أصغر بكثير، وفي أنه سلسلة مفردة، ليســـت مزدوجة، طولها يعادل طول الشيفرة البرمجية للبروتيـــن المطلـــوب، فيقوم هـــذا المراســـل بالتواضع على أحـــد الطرفين المفككين من سلســـلة (DNA)، وينســـخ تسلســـل القواعد، ثم ينفصل عنها وتعود السلسلة إلى الالتئام كما كانت سابقًا.

وما يقوم به هذه المراسل يسميه العلماء (النسخ) وتأتي بعده (الترجمة)، وما أدراك ما هذه الترجمة فإنّ ما قام المراسل بنسخه هو شيفرة برمجية لتصنيع البروتين، وتسلسل القواعد في الشيفرة التي يحملها جزيء (RNA)، وليس ذلك عشوائيًا، فقد اكتشف العلماء أن كل ثلاث قواعد متجاورة من السلسلة هي رمز لحمض أميني معين، وأنّ الأحماض الأمينية إذا توضعت حسب تسلسل هذه القواعد يتحصل البروتين المطلوب.

الثانية: مرحلة النقل:

ينطلق المراسل برعاية الله وتوفيقه من نواة الخلية، ويخترق مسام النواة لينفذ منها إلى الوسط السائل الموجود بين النواة وبين غشاء الخلية، وهو (السيتوبلازما)، وفي عباب هذا السائل العجيب تسبح مكونات وجزيئات عديدة وكثيرة، منها الحموض الأمينية، ولكنها لا تكون منفردة بل يكون كل حمض أميني محمولًا على جزيء يسمى (tRNA) وسنسميه من الآن الناقل، والنواقل هي بمثابة عمال البناء الذين يبنون البروتين، ولو تخيلنا أنّ الأحماض الأمينية هي الطابوق الذي يبنى منها البروتين، فإنّ كل ناقل هو عامل يحمل فوق رأسه طابوقة أي حمضًا أمينيًا معينًا، وهذا العامل له ثلاث أرجل، لا رجلان فقط، وهي عبارة عن ثلاث قواعد نيتروجينية، هي رمز هذا الحمض الأميني، وعندما يدخل الناقل إلى سيتوبلازما الخلية تبدأ ترجمة التعليمات، وتليها أعمال البناء.

الثالثة: مرحلة الترجمة والبناء:

ولا بد عندها من وجود مراقب عمال يشرف على العمل، ويتحقق من أنّ كل عامل يقوم بمهمته، على أكمل وجه، وهذا المراقب في الخلية يسمى (الريبوزم) يتوضع على المراسل أي السلسلة المنسوخة من الحمض النووي،

ثم يبدأ باستدعاء عمال البناء، أي النواقل، واحدًا بعد الآخر، حسب تسلسل الشيفرة التي يحملها المراسل، فتلتصق أرجل العامل (شيفرة الحمض الأميني) فوق ما يطابقها، وهكذا يصطف العمال فوق السلسلة، بذلك يتم تركيب الحموض الأمينية حسب الشيفرة المنقولة من الخلية، وهذه هي عملية الترجمة، أي ترجمة الشيفرة المنقولة من الخلية إلى تسلسل معين للحموض الأمينية، ينتج عنه بروتين معين، ثم يقوم رأس العمال بربط الحموض الأمينية بعضها ببعض بروابط كيميائية خاصة، وكلما ترابط حمضان انفصل عن كل منهما الناقل الذي يحمله (أي وضع العامل حمله). وهكذا حتى تتشكل سلسلة الأحماض الأمينية التي يتكون منها جزء البروتين، وبعد أن يضع جميع العمال أحمالهم، وتتكون السلسلة تبدأ السلسلة بالالتفاف بشكل محدد معين حسب نوع البروتين، لتأخذ شكلها الثلاثي الأبعاد، وهو البروتين بشكله النهائي[1].

وإذا كان تصنيع بروتين واحد يمر بهذه المراحل المعقدة كلها، فما بالك بما يتجدد في كل حين من هذا الصنع العجيب في أعماق الخلايا، بحيث لا نشعر به قط، وكيف يمكن للطبيعة ـ مع جهلها وعجزها وعماها وصممها ـ أن تقوم بهذا كله؟! وأنت تدري أنّ جميع هذه العمليات المعقدة تجري في أعماق الخلايا الدقيقة، حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع ولا ذهن يتصور، فكيف يتم ذلك؟! ولأجل هذا قلت إنّ استحالة أن تكون الطبيعة الميتة العاجزة الجهول هي التي تقوم بهذا أشد وأعمق من استحالة أن تنشئ الطبيعة من تلقاء نفسها مجلدات العلم التي تقوم بشرح هذه الأسرار، وبيانها، وأن تقوم وحدها بطباعة ذلك.

---

(١) ينظر: الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ٤٥ ـ ٤٩، اعتمادًا على كتاب **البينة في الخلية** للبروفيسور ستيفن ماير.

وهنا أدع المجال للأستاذ الجليل المهندس فداء ياسر الجندي ليقوم بالتعليق على هذا، فقد قال على أثر تسطيره لهذه العجائب، ما نصه: «يا للهول، لولا أنّ هذه العملية المعقدة قد شاهدها العلماء بالمجاهر الإلكترونية، لظننا أنها ضرب من الخيال، ولما صدقنا أنّ كل ذلك يحدث في نواة الخلية المتناهية في الصغر، معلومات مخزنة، وبرمجيات معقدة، وتعليمات مرتبة، واتصالات متبادلة، وتنقلات محسوبة، وأوامر دقيقة، ونسخ، وترجمة، وعمال يشتغلون، وخطوط إنتاج، وأشياء أخرى دقيقة معقدة لم نذكرها للتبسيط والاختصار.

فمن الذي وضع خطة العمل المحكمة المعجزة هذه؟ ومن الذي يرشد المراسل ليأخذ الأحماض الأمينية إلى مكانها؟ من الذي يقول للحمض النووي: تفكك من هذا المكان إلى ذاك؟ ومن الذي يأمر المراسل بالتشكل ضمن هذا المجال المتفكك؟ وكيف يشعر العمال (الريبوزمات) بأنّ هناك مراسلًا قد خرج من نواة الخلية إلى السيتوبلازما فتنطلق إليه وتأخذ مكانها في سلسلته وتضع أحمالها؟ ومن.. ومن.. ومن..؟.

وكل ذلك لإنتاج جزيء بروتين واحد، فكيف إذا علمنا أنّ هناك آلاف الأنواع من البروتينات، وأنّ بعض البروتينات تضم سلسلته آلاف الأحماض الأمينية المرتبة بترتيب مرسوم يجب أن لا يختل، وإن اختل الترتيب فقد البروتين فاعليته، وأصبح مجرد جزيئات زائدة لا عمل لها، وفوق ذلك كله فإنّ هذه العملية، عملية تصنيع البروتين، تحدث في جميع خلايانا على مدار الساعة، ولا تستغرق الواحدة منها إلا بضع ثوان...!!.

فكم عدد الشيفرات والمعلومات والبرامج التي تحويها خلايا أجسامنا، ومن الذي وضع تلك الخطة المحكمة للتصنيع؟ وأين التعليمات أو دليل الاستخدام (الكاتالوك) الذي ترجع إليه الخلايا أثناء عملها لتتبع تلك الخطط المرسومة؟.. وكيف تم إنشاء هذا النظام المحكم المتناهي في الدقة؟.

هل يعقل أن يكـــون مصدر كل ذلـــك ماديًا بحتًا؟ وتفاعـــلات كيميائية عشوائية؟ وطفرات عمياء متتالية؟ هل يمكن أن تكون البرامج التي تكلم عنها بيل غيتس والتي أقر بأنّ البشر يعجزون عن كتابة مثلها، هل يعقل أن تكون موجودة دون أن يكون وراءها مصدر قوة عاقلة ذكية لا حد لقدرتها وعلمها؟.

لقد كان علم الوراثة وعلم الكيمياء الحيوية واكتشاف الحموض النووية، واكتشـــاف أنّ الخلايا ليســـت مادة فحســـب، بل تحتوي على (معلومات) وخطط وبرمجيات، كانت كل هذه الأمور هي المسامير الأخيرة التي تم دقها في نعـــش نظريـــة دارون، القديمة منهـــا والحديثة، لأنها لم تســـتطع (ولن تســـتطيع) أن تقدم إجابـــات علمية مقنعـــة ومعقولة عن كل الأســـئلة التي طرحناها أعـــلاه، وعجز هذه النظرية عن الإجابة على تلك الأســـئلة يجعلها باطلة ومن مخلفات التاريخ، لأن تصنيـــع البروتين هو من أهم ـ إن لم يكن أهم ـ العمليات والتفاعلات الحيوية التي تحـــدث في كل خلية حية، والتي لا بد منها لاستمرار الحياة» اهـ[1].

وهو كلام موفق ســـديد، ولكن ليته لم يصف القوة الإلهيـــة بأنها عاقلة وذكية، فإن أصل العقل هو المنع، يقال عقله يعقله إذا حجزه عن فعل شيء، ووصف العاقل بذلك لأنه يحجزه عقله عن الوقوع في المهالك، والله أجل من أن يوصف بأنّ شـــيئًا يحجزه عن شـــيء، فهو يوصف بالعلـــم والإدراك ولا يوصف بالعقل، وأما الذكاء فهو من صفات الإنسان، قال في **اللسان**: «الذكاء من قولك قلب ذكي وصبي ذكي إذا كان ســـريع الفطنة، وقد ذكي بالكســـر يذكى ذكا. ويقال: ذكا يذكو ذكاء، وذكو فهـــو ذكي. ويقال: ذكو قلبه يذكو إذا حي بعد بلادة، فهو ذكي على فعيل»[2].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٩ ـ ٥١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ذكا)، ٣٨/٦.

وهذا يعني أنّ الذكاء يعقب البلادة وهو مما يجب تنزيه الله تعالى عنه، وإنما شاعت عبارة التصميم الذكي ونحوها في كلام الغربيين، وعلينا أن نحترز وأن نعبر بما هو مشروع لنا في الدين.

وقد تساءل على أثر ذلك عن المدافعين عن نظرية دارون، هل يعززون موقفهم بأدنى قدر من الأدلة العلمية القاطعة على نظرية التطور، وهل صحيح ما يدعونه من عدم انسجام القول بأنّ هذا الكون وراءه إرادة عظمى أوجدته وصرفته، وأنّ هذا المريد العظيم وهب الحياة لما يشاء من مخلوقاته مع العلم؟.

وأجاب: بأنّ أنصار نظرية دارون ظلوا ـ رغم تهافتها ـ مطمئنين إليها على مدى قرن ونصف القرن، وعولوا عليها في تفسير نشوء الحياة، إلى أن جاء اكتشاف بنية الحمض النووي، واكتشاف أنّ هذا الجزيء يحتوي على معلومات مبرمجة ومنسقة وفاعلة ومرتبة بشكل مذهل، يشبه إلى حد خارق وعجيب المعلومات والبرامج الحاسوبية التي يعرفها الإنسان، فأدت هذه الاكتشافات المذهلة إلى تغير شامل في نظرة علماء الطبيعة إلى الحياة ومكوناتها، فقد كانوا يعتقدون أنّ الحياة هي مادة وطاقة، فتبين لهم أن هناك عنصرًا ثالثًا، لم يكن معروفا من قبل، وقد يكون أهم هذه العناصر، وهو أن الحياة تتألف من مادة وطاقة (ومعلومات) وقد قدر ما تحويه نواة كل خلية بشرية من المعلومات بأنّه يعادل ألف مجلد ضخم، وهي مرتبة ترتيبًا مذهلًا مدهشًا، وأنّ هذه المعلومات مزودة ببرمجيات وأنظمة تشغيل، وآليات تقوم بمعالجة هذه المعلومات من أجل القيام بالمهمات الحيوية التي لا غنى للحياة عنها، منها صناعة البروتينات ومنها نقل الصفات الوراثية من الأسلاف للذرية.

وهذا يقتضي التساؤل؛ كيف نشأت هذه المعلومات وما يصاحبها من برمجيات وآليات ونظم تشغيل؟.

وذكر على أثر ذلك قصة يستلهم منها بيان الحق في هذه القضية، رواها البروفيسور ستيفن ماير في كتابه **البينة في الخلية**، ولأجل ما في هذه القصة من الحجة التي تدمغ شبهات الباطل نوردها كما ذكرها الأستاذ في نقله لها عن صاحبها، وإن كان من عباراتها ما لا يتفق مع نهجنا في التزام المصطلح الشرعي فيما يتعلق بوصف الله تعالى، ودونكم القصة حسبما جاءت:

«دخل الدكتور ستيفن ماير إلى قاعة المحاضرات حاملًا معه كيسًا مليئًا بمربعات بلاستيكية يحتوي كل منها على حرف من حروف الأبجدية، ثم سأل كل طالب أن يسحب حرفًا من الكيس ويكتب هذا الحرف على السبورة، فكانت النتيجة حروفًا متوالية، ولكنها غير مرتبة ولا تعني شيئًا، ثم قال لطلابه: دعونا نجرب مرة أخرى، أعاد الحروف إلى الكيس وأعاد الكرة، فنشأت مجموعة أخرى من الحروف المتوالية بلا معنى، وشرع يعيد ويعيد ولم يحصل على شيء.

ثم أرسل أحد الطلاب إلى المكتبة ليأتي له بكتاب منها، وعندما عاد الطالب إذا به يجد على السبورة حروفا مرتبة بجملة مفيدة هي مقولة شكسبير الشهيرة: «أكون أو لا أكون»، فقال الطالب: هل هذه لعبة جديدة؟ هل أصبح المطلوب تركيب جمل شهيرة؟ فقال له الأستاذ: أبدًا، كنا نمارس اللعبة نفسها في غيابك فكان أن ترتبت الحروف وصاغت هذه الجملة، عن طريق سحب الحروف من الكيس، ففغر الطالب فاه وقال: لا تقولوا لي إنّ هذا الترتيب نشأ من السحب العشوائي في غيابي!! فقال له الأستاذ: نعم، هو كذلك، فقال الطالب: هذا مستحيل، فهذه جملة مفهومة مرتبة بلا أي خطأ، ولا يمكن أن تحصلوا عليها خلال غيابي القصير في المكتبة.

قال الأستاذ: كلامك صحيح تمامًا، وحق لك أن تندهش، وقد بينت أنت أسباب اندهاشك، وهما سببان: الأول: هو وجود جملة لها معنى، والثاني: أن

ذلك حصل في فترة قصيرة جدًا لا تتجاوز دقائق معدودة، لكن علينا الآن أن نبرر هذه الأسباب علميًا، تفضل بالجلوس مكانك ودعنا نناقش الأمر.

ويتابع الأستاذ: لو أنك وجدت حروفًا مرتبة بشكل عشوائي لا معنى له لما قلت مستحيل، فما هو الفرق بين هذه الجملة وبين الحروف التي كانت تظهر في السحوب السابقة حتى يكون ظهور هذه الجملة مستحيلًا، وظهور غيرها ممكنًا؟

جواب هذا السؤال بسيط وواضح، أن ما نعرفه من تجاربنا البشرية، وخبراتنا المتراكمة على مرّ العصور، وما يقوله العقل والعلم والمنطق، أنّ كتابة الشعر أو النثر ذي المعنى، وبشكل عام الحصول على أي معلومات منسقة ومرتبة وذات فاعلية أو وظيفة تؤديها، لا يتم إلا إذا كانت خلفه إرادة واعية وعقل مفكر، ولا يكون بطرق عشوائية لا إرادة ولا عقل وراءها، وهذا ما جعلك تقول (مستحيل) عند رؤيتك للجملة المفيدة، مع أنّ الحروف العشوائية التي تظهر في السحب العادي يمكن اعتبارها معلومات، شأنها شأن أي مجموعة من حروف متتابعة، ولكن ليست كل المعلومات فاعلة وموجهة ومرتبة.

وأضاف الدكتور ماير: ولتقريب ذلك، ولبيان الفرق بين المعلومات العشوائية وتلك الفاعلة، سنضرب مثالًا آخر. هب أنك تريد أن تتصل بصديقك جون هاتفيًا ولكنك نسيت رقمه المؤلف من عشر خانات، ثم رحت تضغط على أزرار الهاتف بشكل عشوائي، فستحصل بعد كل عشر ضغطات على رقم هاتف، ولكن هل هو رقم جون؟.

إنّ الأرقام التي ستحصل عليها بعد كل عشر ضغطات لا فرق بينها عمليًا وبين رقم جون، فكلها أرقام من عشر خانات، غير أنّ رقم جون مرتب ترتيبًا معينًا يجعله ذا معنى ويجعله فاعلًا ومؤثرًا وينتج عن ترتيب خاناته حدث معين هو الاتصال بشخص معين لا غير.

والفرق بين رقم جون وكل رقم تحصل عليه عشوائيًا، هو الفرق نفسه بين مقولة شكسبير وأي ترتيب آخر لحروف هذه المقولة، فالمعلومات الموجودة في أحرف مقولة شكسبير، وتلك الناتجة عن ترتيب خانات رقم جون هي معلومات فعالة مرتبة ذات وظيفة وليست عشوائية، أما أي ترتيب آخر لحروف المقولة أو لخانات رقم الهاتف، فهي معلومات، ولكنها عشوائية لا معنى لها، وليس لها أية وظيفة أو تأثير.

والآن، لنفرض أنّك حاولت الاتصال بصديقك عن طريق الضغط العشوائي على أزرار الهاتف عشر مرات على أمل أن يحالفك الحظ بالحصول على الرقم المطلوب، فكم من المحاولات يلزمك حسب علم الاحتمالات للحصول على الرقم المطلوب، وكم من الوقت سيستغرق ذلك؟

إن الأرقام التي يمكن توليدها من العددين ١ و٢ هي أربعة: ١١، ٢٢، ١٢، ٢١، أي ٢ مضروبة في نفسها، أما الأرقام التي يمكن توليدها من الأعداد ١ و٢ و٣ فهي سبعة وعشرون رقما: ١١١، ١١٢، ١١٣.... إلخ. أي ٣ مضروبة في نفسها ثلاث مرات، أو بتعبير رياضي ٣ مرفوعة للقوة ٣ [٣٣].

وعلى هذا المنوال فإن العلم يقول لنا إنّ عدد الأرقام التي يمكن الحصول عليها من إعادة ترتيب عشر خانات هي ١٠ مضروبة بنفسها عشر مرات، أي رقم يتألف من العدد ١ وعلى يمينه عشرة أصفار، أي عشرة آلاف مليون رقم! ولو أنّ كل محاولة تستغرق منك خمس ثواني فقط، فإنّ الزمن اللازم لك لتجرب كل الأرقام الممكن تركيبها من الخانات العشر، هو ١٥٨٥ سنة فقط!! وهذا للحصول على رقم من عشر خانات فقط، وليس للجملة الطويلة التي كانت على السبورة.

وهذا ما يبرر قولك (مستحيل) بفطرتك دون القيام بهذا الحساب، لأن العقل والعلم والمنطق يقول إنّ الأستاذ والطلاب كونوا هذه الجملة بإرادتهم

الواعية وعقلهم المفكر خلال غيابك القصير، وإنك لو أردت الحصول على رقم جون فمن الجنون أن تحاول عشوائيًا رغم أن رقمه لا يزيد على عشر خانات، بل ستحاول الحصول على الرقم من مصدر (عليم) ذي إرادة واعية وعقل مفكر مثل أن تتصل بصديق يعرف رقمه، أو تتصل بدليل الهاتف.

وهنا يصل الدكتور ستيفن إلى بيت القصيد، بعد أن تيقن طلابه بالدليل والعلم والحساب أنّ المعلومات الفاعلة المنسقة ـ حتى لو كانت جملة بسيطة، أو رقمًا صغيرًا ـ تحتاج لإرادة واعية وعقل مدرك حتى يتم إنتاجها، وأنّ العشوائية لا يمكن أن تنتج معلومات فاعلة منسقة ذات وظيفة محددة وهدف واضح (عبارة ذات معنى أو رقم هاتف محدد)، وأنّ علم الاحتمالات يخبرنا أننا نحتاج لعدد فلكي من المحاولات وزمن طويل جدًا لإنتاج معلومة من عشر خانات، فماذا نقول إذن عن أكثر من ألف مجلد من المعلومات المرتبة المنسقة الفاعلة ذات الهدف الواضح والوظيفة المحددة والتي تحتويها الحموض النووية الموجودة في نواة خلية واحدة؟.

ما هو التفسير لوجود مثل هذه المعلومات في هذا الحيز المتناهي في الصغر وبهذا الترتيب المذهل؟ ليس هذا فقط، بل إنّ هذه المعلومات الهائلة مرفقة ببرمجيات على أعلى درجة من الدقة والكفاءة ولم يكتب مثلها بشر، وبتعليمات تشبه نظام التشغيل الذي ينفذ البرمجيات في الحواسيب، فهل هناك تفسير لذلك كله أكثر وضوحًا وأشد إقناعًا من أن وراء هذه المعلومات إرادة واعية وعقلًا مدركًا ومصممًا ذكيًا؟

لقد عجز الداروينيون حتى اليوم عن المجيء بتفسير مقنع لوجود المعلومات في الكائنات الحية، وعندما تحاصرهم بالسؤال لا يجيبون ويتهربون، وإن أجابوا فسيقولون: نعم ليس لدينا تفسير مقنع لذلك، ولكننا أيضًا لا نسلم بوجود مصمم وراء هذا التصميم لأن هذا معناه الاعتراف

بوجود الإله، وبالتالي الانتقال إلى مفهوم ديني، وهذا أمر غير علمي، ونحن قوم لا نؤمن إلا بالعلم..!

يا سبحان الله! أليس العلم والمنطق والعقل، كلها تقضي كما رأينا، باستحالة وجود معلومات معقدة وفاعلة وذات وظيفة محددة وموجهة بغير مصمم أو فاعل أو إرادة واعية؟.

كيف إذن يرفضون ما يؤدي إليه العلم والمنطق، ثم يدّعون بعد ذلك أنهم أهل العلم؟ ويصفون من يتبع المنهج العلمي والأدلة القاطعة بأنه لا يسير في ركاب العلم؟

عذرًا، لن نتجاهل عقولنا ولن نتنكر للمنطق والعلم والعقل، حتى نسلم بأن هناك أي تفسير لوجود هذه المعلومات المذهلة الخارقة دون أن يكون وراءها مصمم ذكي وإرادة واعية وهدف محدد. ألا ما أصدق وأوجز وأحكم ما قاله المتنبي:

وليس يصحُّ في الأفهام شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل»[1]

هذه حجة عقلية تدحض شبهة الداروينيين وغيرهم من الملاحدة، وتقيم حجة الحق شاخصة مرتفعة هامتها، منتصبة قامتها، تتحدى كل مكابر، فإذا كان هذا الطالب لم يصدق بحال أن تكون الحروف المسحوبة بطريقة عشوائية تكونت منها جملة واحدة مفيدة، وعدّ ذلك من المستحيلات ـ لأنه على خلاف ما يقتضيه العقل، وبعكس ما جرت به العادة، وأثبتته التجارب البشرية التي لا تحصى عددًا ـ فما بالك لو قيل له بأنّ الحروف المسحوبة بطريقة عشوائية تكون منها شطر بيت موزون بوزن بحر من بحور الشعر المعروفة؟ بل ما بالك لو قيل له بأنّ هذه الطريقة نفسها ولدت بيتًا كاملًا،

(١) الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص٥٤ ـ ٥٨. «بتصرف يسير».

أتراه يصدق ذلك؟ فضلًا عما لو قيل له بأنّ هذه الطريقة نفسها انتظمت بها قصيدة عصماء من بحر واحد، وعلى روي واحد، تتناول غرضًا من أغراض الشعر كالمديح أو النسيب، أو الفخر، أو الرثاء والندب، أو العتاب أو أي غرض آخر.

بل ما بالك لو قيل لأي أحد بأنّ هذه الطريقة العشوائية تكون منها كتاب ضخم في الطب أو الهندسة أو المنطق والفلسفة أو الفلك أو التاريخ أو الفقه أو أصوله أو مصطلح الحديث أو نقد الأسانيد وتراجم الرجال أو التفسير أو ما تفرع عنه من علوم القرآن، أترى أحدًا من الناس يصدق ذلك، ويقره؟! كلا؛ بل الكل يبادر إلى تكذيب من قال ذلك وتسفيهه، والنداء عليه بالخبل والجنون، وأنّ دعواه هذه لا تعدو أن تكون هذيانًا، كالذي يصدر عن النائم من الأصوات.

وإذا كانت هذه هي ردة فعل كل من يسمع هذا القول أو يجده مكتوبًا، ولا ينتظر منه عكس ذلك، ولو كان طفلًا ناشئًا أو أميًا جاهلًا، فاعجب كيف يصدق ذو نهية أنّ الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم واشتملت كل خلية من خلاياه من عجائب التكوين، وغرائب الإبداع على ما يحار معه كل عقل، ويندهش منه كل لب، حسبك ما في نواة الخلية وما في كل جزيئة منها من السر المصون الذي لو حاول أحد أن يدرسه في جميع عمره وكان عمره أضعاف أعمار البشر العادية، لما وصل منه إلى طائل، وانقطع منه العمر قبل أن يحقق شيئًا من أمنيته، أترى أنّ وجود هذا الإنسان بما فيه من التناسق العجيب بين جميع خلاياه، التي تقدر بمئات ملايين الملايين، كان نتيجة صدفة عشوائية، من غير أن تتدخل في ذلك قدرة قادر، وحكمة حكيم، وعلم محيط ممن وسع كل شيء علمًا، وأحاط بكل شيء قدرة، ناهيك بهذه البرمجيات العلمية الدقيقة كيف يتصورها عقل أنها نتيجة صدفة عمياء صماء جهول؟؟!.

ليت شـــعري؛ أين عقول هؤلاء العباقرة الذين دخلوا مجاهل هذا العالم، وابتكروا مـــن العلوم ما يحير الألبـــاب، ويدهش البصائـــر، كيف وصل بهم الإسفاف في القول، والضلال في الاعتقاد، والحيرة في التصور، إلى أن وقعوا في هذه الدركات الهابطة من السخف، والغباء؟!.

نعم لم تغنهم العلوم والفلســفات شـــيئًا عندما جهلوا أو تجاهلوا منشئ الوجود، الذي تتجلى في كل موجود آياتـــه، وتقطع دابر كل عناد بيناته، وقد صدق عليهم قول الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٦ ـ ٧].

هذا؛ وقد تجد كبار الملاحدة قد يشـــارفون التسليم للحقيقة التي تبهرهم من خلق الإنســـان، وعجيب صنع الله تعالى فيه بأنهم لا يجدون تفسيرًا لهذا الأمر المدهش المحير إلا الإذعان بأنّ وراء كل ذلـــك قوة خفية غيبية بيدها النشر والطي، وتصريف كل شيء، لكن تغلب عليهم نزعة الإلحاد، فيكابرون الحقيقة الساطعة، ويتجاهلون جميع البراهين القاطعة، وينثنون من اليقين إلى الشـــك، ومن العلم إلى الجهل، ومن الحـــق إلى الباطل، فنجـــد مثلًا رأس الإلحاد في عصرنا الجبار العنيد **ريتشـــارد دوكينز** فـــي تمهيده لكتابه **صانع الســـاعات الأعمى** يعترف بما يواجهه الملاحدة، حيث يقول: «والمشكلة هي مشـــكلة التصميم المركب، إنّ الكمبيوتر الذي أكتـــب عليه هذه الكلمات له قدرة على اختزال المعلومات ولما يقرب مـــن ٦٤ كيلوبايت، (البايت الواحد يستخدم لاختزان كل حرف واحد من النص)، وقد صمم هذا الكمبيوتر بوعي وأنتج إنتاجًـــا متعمدًا، أما المخ الـــذي تفهم به كلماتي فهـــو نظام من بضع عشـــرات الملايين من الكيلوعصبـــات (kilo neurones)، وفـــي كثير من هذه البلايين من الخلايا العصبية يوجد لكل خلية ما يزيد عن ألف سلك كهربي، يصلها بعصبات أخرى، وفوق ذلـــك فإنّه على مســـتوى الوراثيات الجزيئية

تحوي كل خلية واحدة فيما يزيد عن تريليون خلية في الجسم قدرًا من المعلومات المرقومة في شفرة دقيقة يساوي ما يحتويه كل الكمبيوتر الذي لدي، وتركب الكائنات الحية يضارعه الكفاءة الرائعة لتصميمها الظاهر، وإذا كان هناك أي شخص لا يوافق أنّ هذا الكم من التصميم المركب يصبح مطالبًا بتفسير، فإني أقر باليأس منه»[1].

فانظر كيف شارف التسليم واعترف بالحقيقة؛ حيث صرح أنّ كل خلية من خلايا الدماغ مصممة تصميمًا عجيبًا، حيث تحتوي على ألف سلك كهربي يصلها بغيرها، ومع ذلك تحتوي كل خلية من خلايا الجسم التي تزيد على تريليون خلية قدرًا من المعلومات المرقومة في شفرة دقيقة يساوي ما يحتويه الحاسوب الذي عنده، ومعنى هذا ـ بلا ريب ـ أنّ المعلومات المختزنة في شفرات الخلايا تتجاوز كل إحصاء بشري، وتفوت مدارك الناس جميعًا، فكيف يتصور أن تكون الطبيعة العمياء والطفرات العشوائية هي التي أوجدت كل ذلك؟! فهل يمكن للعشوائية المتخبطة أن تتقن نظامًا دقيقًا مدهشًا ينتظم كل خلية من خلايا الجسم، وتهب كل خلية ما تحتاج إليه من الأسلاك الدقيقة الواصلة بينها وبين سائر أخواتها، وتمنح هذه الأسلاك من القوى الفاعلة ما يهيئها لأداء وظيفتها الحيوية؟!.

وهل يتصور أن تحصي الطفرات العشوائية المتخبطة دقائق المعلومات المحيرة لتودعها خزائن شفرات هذه الخلايا؟! فليت شعري؛ كيف يعترف ريتشارد دوكينز أن الحاسوب الذي بين يديه صمم بوعي وأنتج إنتاجًا متعمدًا، مع أنه لم يشاهد تصميمه بعينيه، وإنما صدق بعقله وإدراكه أنه لا يمكن إلا أن يكون ناشئًا عن تصميم وقصد، مع أنه يختلف كل الاختلاف عن جسم الإنسان، فالإنسان أوجد من عدم!! بينما مصمم جهاز الحاسوب لم

---

(١) ريتشارد دوكنز: صانع الساعات الأعمى، ص ١٣. «بتصرف»

يوجد مادة تصميمه من عدم وإنما تصرف في مـادة كانت موجودة من قبل، وتمكن بخبرته ومهارته أن يجمع متفرقها وأن ينظم شتاتها حتى تتحول إلى ما انتقلت إليه؟!.

وليت شـعري؛ لو أنه قيل له بأنّ هـذا الجهاز تكـون تلقائيًا من غير أن يسـبقه تصميم ولا عمـل ولا إرادة ولا قصد، وإنما تصنعـت مادته بذاتها، فَتَكوَّن منها هذا الجهاز وانتظم بنفسه، واستقبل من وحي الطبيعة ما تَخَزَّن فيه مـن المعلومات، أكان مصدقًا لهـذه الدعوى؟ أو أنه كان سـيصعق من هذه الفرية، وسـيصرخ في وجه مفتريها مناديًا عليه بالسـفه والضلالة، والحماقة البالغة، والاستهتار بعقول الناس؟!.

هذا؛ مع أنّ ذلـك الجهاز بكل تصميمه وإعداده لا يسـاوي شـيئًا مما تحتويه أي خلية من خلايا جسـم الإنسـان من البرمجيات الدقيقة المتناسقة المنتظمـة انتظامًـا، ناهيـك أنّ كل خلية بشـرية تحتوي علـى مكتبة من المعلومات المرتبة والبرمجيات المعقدة تعادل ١٠,٠٠٠ مجلد ضخم، كل مجلد يحتوي علـى نحو ١٠٠٠ صفحة، فيـا ترى ما الذي يحصي هـذه المعلومات الدقيقة المنظمة تنظيمًا من الحواسيب؟ على أنّ الحاسوب لا يمكن أن يتلقى معلوماته بطريقة عشوائية، وإنما تخزن فيه بنظام رتيب، وخبرة فائقة، فكيف يتصور أن تكون الخلية التي جاءت من طفرات عشـوائية متخبطة تتسع لهذه المعلومـات كلها، لـولا أن وراءها من أعدها إعـدادًا متقنًـا، وأودعها هذه المعلومات الجمة الفائقة بحكمة وخبرة تفوقان كل تصور؟.

فكيف يتعامى ريتشارد دوكينز ويتعامى معه الملحدون عن هذه الحقائق كلها، ويتعامى عن خلقه من نطفة مهينة حقيـرة تطورت بصنع الله تعالى في أطوار شتى، حتى كان منها هذا الإنسـان الذي اشتمل على هذه التريليونات من الخلايا المتجـددة فيه في كل لحظـة، واختص من بينهـا خلايا الدماغ

باستمرارها لتحتفظ بمعلوماتها، وما لبث بعد ذلك أن كفر بنعمة الله، وكابر في إنكاره لكل ما يشهد عليه بضلاله من جزيئات جسمه، التي تنادي كل جزيئة منها بأنّ الله هو خالقها وراعيها، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۞ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۞ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٣٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

في طي أوهام الجهل بإشراق حقائق العلم

ما أعجب الحقائق العلمية التي برزت للعقول في هذه الحقبة التاريخية من الزمن، حتى عادت النظريات السابقة أوهامًا تنبو عنها العقول، وتستخف بها الأحلام، وكم ظهر للناس بعد داروين من حقائق أدهشت العقول، وحيرت الألباب، ناهيك بالأحماض الأمينية التي بدلت المقاييس، ودكدكت النظريات، وتجلى فيها من سر الخلق الغيبي ما كان مطويًا غير بارز للألباب، ففي عصر داروين كان العلماء يظنون أنّ الخلية الحية ليست إلا مادة هلامية، محاطة بغلاف رقيق، ولم تكن عندهم فكرة عما يجري بداخلها، ولكن بعد تقدم العلم واكتشاف المجاهر الإلكترونية وغيرها من وسائل البحث العلمي الحديثة، وما حدث من ثورة علمية هائلة في الجينات وأسرارها، واكتشاف العلماء أنّ كل خلية هي عالم قائم بذاته، وأنّ الأحماض النووية الموجودة فيها ليست إلا مخازن هائلة للمعلومات والبرمجيات لا تدانيها في ضخامتها وتعقيدها أية وسيلة تخزين أو برنامج حاسوبي يعرفه البشر ـ وقد تقدم توضيح شيء من ذلك ـ أصبح العلماء الآن موقنين أنّ إنشاء أي كائن حي معقد مثل ثلاثي الفصوص مثلًا، يحتاج إلى كمية هائلة يصعب تصورها من المعلومات، ذلك أنّ كل بروتين يوجد في الكائن الحي يحتاج تركيبه إلى معلومات وبرامج، ومثل ذلك تركيب البروتينات والخلايا لتشكيل الأنسجة المختلفة، ثم تجميع الأنسجة لتشكيل الأعضاء، ثم اتحاد الأعضاء المختلفة لتشكيل الأجهزة مثل

جهاز الهضم والتنفس وغيرها، ثم طرق وآليات عمل تلك الأجهزة، ثم تناغم تلك الأجهزة ليكون عملها منسجمًا من غير تضارب ولا نشاز، لتتحقق الحياة الآمنة للكائن الحي، كتفاعل الأطراف مع الجهاز العصبي، أو نقل الرؤية من العين إلى مراكزها في الأعصاب وغير ذلك، كل هذه الأمور وغيرها تنبني على معلومات وبرمجيات اكتشف العلماء بعضها، وهو مخزن في الحمض النووي، على شكل جينات وبعضها ما زال البحث جاريًا عنه.

فيا ترى؛ ما هو حساب المعلومات اللازمة لإنشاء هذا العدد الضخم المتنوع من الكائنات التي ظهرت فجأة في العصر الكامبري انطلاقًا من مولدات الخلية ـ كما يزعم دعاة التطور ـ؟!.

لا يخفى أنّ جميع الآلات الحاسبة تعجز عن إحصاء ذلك، لأن أرقام هذه الحقائق هي فلكية هائلة، فجميع المعلومات التي تختزنها حواسيب الأرض اليوم لا تعادل جزءًا منها، فكل ما حدث آنذاك هو بحق ودون مبالغة أكبر انفجار للمعلومات في تاريخ الأرض.

وهذا أمر يستوجب وقفة طويلة للتساؤل كيف ظهرت هذه المعلومات من لا شيء؟! إذ لم يكن يوجد في الأرض إلا وحيدات الخلية أو كائنات مجهرية بسيطة، لا أعضاء لها ولا أجهزة ولا أطراف، ولو أخذنا في حساب نسبة المعلومات اللازمة لبناء وحيدة الخلية رياضيًا إلى المعلومات اللازمة لثلاثي الفصوص لكانت النتيجة متناهية في الصغر، حتى لا تعد إلا صفرًا، فهل يعرف البشر والعلماء والعقول مصدرًا آخر لظهور هذه المعلومات والبرمجيات بهذه الدقة والبراعة من لا شيء، من غير أن يكون وراءها اختراع وتصميم، من عليم خبير، قدير على كل شيء؟.

وإن شئت أن تعرف حقيقة ذلك فانظر هل يمكن لطفل ظهر على حاسوب ليس عليه برمجيات، وأخذ يلعب بلوحة مفاتيحه بشكل عشوائي،

فظفر بنسخة من نظام تشـغيل (ويندوز) يعمل بكفاءة عالية ولا أخطاء فيه، فهل يمكن تصديق هذه القصة، ولو اسـتمر لعب هذا الطفل بالحاسوب إلى ملايين السنين؟.

فإنّ تصديقها أسـهل من تصديق أنّ المعلومات اللازمة لتصميم كائنات العصر الكامبري وجدت عشوائيًا، دون أن يكون وراءها مبدع اخترعها، وهو بكل شيء عليم.

هذا سؤال لا يجد الداروينيون ما يمكنهم به أن يجيبوا عليه، وأنى لهم أن يجدوا جوابًا شافيًا عن مصدر هذه المعلومات والبرمجيات الهائلة، في كميتها الخارقة لنوعيتها، وإنما يلجأون في مثل هـذا الموقف المحير المخزي إلى القول بـأنّ آلاف البحوث تؤيد التطـور، وقولهم بأنّ نصف جمجمة تشـبه جمجمة البشر عثر عليها هنا أو هناك، وأن البكتيريات تكتسب المقاومة ضد الأدوية، ويعيش الأقوى منها، وغير ذلك مما اعتادوه، فإذا طولبوا بتفنيد هذه الأدلة العلمية المنطقية التي تنفي نظرية التطور، وتدل على التصميم المتقن المحكم من عليم خبير، هرعوا إلى قولهم: (أتريدوننا أن نؤمن بالخالق؟! هذا دين وليس علمًا)، وما ذلك إلا دليل أن تمسكهم بنظرية التطور لا علاقة لها بالعلم والمنطق والدليل والبرهان والتجربة.

أما الذين يؤمنون بالعلـم والعقل والمنطق والتجربـة والدليل العلمي، فسيقولون جميعًا سبحان الخلاق العليم، الذي بيده ملكوت كل شيء، ويقول للشيء كن فيكون[1].

ولا يزال التطوريون يلهثون وراء السـراب بحثًا عما يمكنهم التعويل عليه ولو كان ذلك دليلًا ضعيفًا، فهم يحلمون باكتشـاف خلية حية بدائية

---

(١) ينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص٧٢ ـ ٧٤.

بسيطة التكوين، لأن اكتشافًا كهذا من شأنه أن يقدم بعض الدعم لنظريتهم، فهل تحقق حلمهم هذا؟ يقول عالم الجيولوجيا الجزيئية مايكل دينتون جوابًا على هذا السؤال: «علم الأحياء الجزيئي أظهر أنه حتى أبسط أنظمة الحياة على أرضنا اليوم وأعني الخلايا البكتيرية هي كائنات معقدة بشكل كبير، فكل خلية تعد مصنعًا مصغرًا مليئًا بمعدات جزيئية ذات تركيب مذهل ومعقد، مكون من مئات الآلاف والملايين من الذرات، وهي أكثر تعقيدًا من أي جهاز صنعه الإنسان، ولا نظير لها إطلاقًا في العالم غير الحي».

ومن المعلوم أنّ هذا العالم الجيولوجي لم يقل هذا إلا بتأثير الحقائق العلمية التي بهرته، ولم يتأثر بالدين قط، فإنّه كما هو مشهور من ملاحدة العالم، وقد تقدم ذكر ذلك.

ويعلق على كلامه الدكتور روبرت جميس، فيقول: «وهكذا يتهافت الحلم مرة أخرى، فإنّ أصغر خلية بهذا القدر أكثر تعقيدًا، وقد بلغ من تعقيدها أنّ المعلومات التي يحتويها الحمض النووي (DNA) في أصغر وأبسط خلية كفيلة بأن تملأ ستمائة ألف صفحة، لو تمت كتابتها على الورق».

وأضاف إلى ذلك: «وتلخيصًا لهذا الفصل أود أن أقتبس ما قاله العالمان فريد هويد وتشاندرا ويكرامسنغ: (المشكلة التي يواجهها علم الأحياء هو الوصول إلى بداية بسيطة... لبقايا الأحافير لأشكال الحياة القديمة، التي وجدت في الجبال، لا تكشف عن بداية بسيطة... لذا فإنّ نظرية التطور تفتقر إلى الأساس الأول اللازم لتقوم عليه الحياة).

كيف يمكن أنّ نتخيل بناء ضخمًا دون أساس يقوم عليه؟!»[1].

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص٢٩ ـ ٣٠.

وقد عرج قبل هذا على ما يواجهه التطوريون من مشكلات معقدة أعياهم الجواب عنها، ومما قاله في ذلك: «لنتجاهل هذه الحقائق للحظة ونتخيل أنه بطريقة ما كان هنالك (سائل حيوي) في المحيطات يحتوي على جميع الأحماض الأمينية ما هي فرصة تشكل جزيء بروتين واحد في تلك الحالة؟.

وهنا مجددًا يواجه التطوريون مشكلة لا حل لها، ومعضلة لا جواب لها. ذلك أنّ عدد الأحماض الأمينية اللازمة لتشكيل جزيء البروتين هو عشرون حمضًا أمينيًا، تترتب على شكل سلاسل من الحموض الأمينية، يتراوح طول السلسلة ما بين ٥٠ في الحد الأدنى، وقد يصل طولها إلى بضعة آلاف حمض أميني في بعض أنواع البروتينات، علمًا أنّ الأحماض الأمينية المعروفة تعد بالمئات، والمطلوب منها عشرون فقط.

وهناك أمر آخر، الأحماض الأمينية نوعان: منها ما هو يساري التوضع، ومنها ما هو يميني التوضع (حسب طريقة توضع ذرات العناصر فيها) والعجيب أنّ البروتينات لا يدخل في تركيبها إلا الأحماض الأمينية ذات التوضع اليساري، ولا يزال ذلك لغزًا يحير العلماء حتى اليوم، وهذا الأمر يقلل بشكل كبير من فرص تشكل البروتينات عشوائيًا.

وأخيرًا فإنّ أبسط خلية حية معروفة تحتاج لتتشكل إلى آلاف البروتينات والأنزيمات والجزيئات الأخرى، وقد قام العلماء بحساب احتمال تشكل أبسط خلية حية في السائل الحيوي الذي افترضوا (دون دليل) وجوده في المحيطات قبل تشكل الحياة، مع أخذ كل هذه الأمور بعين الاعتبار، (عدد الأحماض الأمينية المطلوبة ٢٠ من مائة، وكلها توضعها يساري، والبروتين يحتاج لسلسة طويلة من الأحماض مرتبة بشكل محدد، والخلية تحتاج لآلاف البروتينات والأنزيمات والجزيئات) فوجدوا أنّ هذا الاحتمال هو ١ مقسومة على ١٠ مرفوعة للقوة (٤٠٠٠٠) [١٠-٤٠٠٠٠]!!.

ولنوضح هذا الاحتمال بمثال، إن هذا الاحتمال يعادل أن يقوم أحدنا برمي حجر النرد خمسين ألف مرة متتالية فيحصل في جميع هذه الرميات على الرقم (٦)!!.

وهذا أمر مستحيل طبعًا، حتى أنّ أحد العلماء التطوريين يعترف بذلك قائلًا:

(الاحتمال ضئيل للغاية، ولا يمكن أن يتحقق حتى لو كان الكون كله سائلًا حيويًا).

وهذا كله طبعًا مع فرضية أنّ الحموض الأمينية تشكلت في الغلاف الجوي المفترض آنذاك ثم غاصت في محيطات السائل الحيوي، وقد رأينا أنّ العلم ينفي ذلك.

ولا تنتهي المعضلات التي يواجهها التطوريون عند هذا الحد، ذلك لأن العلم أثبت أنّ البروتينات لا يمكن أن تتشكل إلا بوجود الحموض النووية، وأن الحموض النووية لا يمكن أن تتشكل بدون البروتينات، فهنا لدينا مشكلة البيضة والدجاجة، أيهما تشكل أولا؟.

يقول أحد العلماء: أصل الشفرة الجينية (وهي من مكونات الحمض النووي) يطرح مشكلة بيضة ودجاجة عويصة مستعصية، لا تزال حتى الآن غير محلولة»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧ ـ ٢٩.

في دلالة الزمن على استحالة وجود أدنى شيء من هذه الخلايا، بتأثير الطبيعة

من المعلوم أنّ الطبيعة مرتبطة بالزمن، فقد جعل الله سبحانه تأثيرها في أي شيء مرهونا بزمن ما، وإيجاد الكون حدث عظيم لا يتسع الزمن مهما تطاول لأن يسعف الطبيعة في تحقيق أقل ما يتصور منه، فما بالك بوضعه المعقد، فقد سبق أنّ الحمض النووي، لو وضع تحت مجهر إلكتروني فسيبدو شكله كسلم ملتف، يتألف من حبلين يلتفان حول بعضهما، وكل حبل يتألف من وحدات متصلة ببعضها تسمى قواعد، وكل قاعدة من كل حبل تتصل بقاعدة من الحبل الآخر، لتتشكل درجات السلم الملتف، والقواعد ليست متشابهة، بل تتألف من أربعة أنواع، وهي مرتبة ترتيبًا محددًا دقيقًا، بحيث يعد بمثابة شيفرة برمجية، وهذه الشيفرة هي التي تحدد ملامح الحي كلها، وخصائصه وميزاته، سواء من حيث الشكل الخارجي كشكل الأنف ولون العينين، أو من حيث ميزاته الأخرى، مثل قابليته لأنواع معينة من الأمراض، أو قدراته العقلية والإدراكية، وغير ذلك. وباختصار فإنّ ترتيب القواعد في جزيء DNA هي اللغة التي تستخدمها الكيمياء الحيوية في كتابة ملامح وصفات الكائن كلها، ومن الوظائف المهمة للحمض النووي تصنيع البروتينات في الخلايا، وهي أهم مكون من مكونات الخلايا الحية، وهي جزيئات كبيرة نسبيًا يتألف كل منها من سلسلة من جزيئات أصغر، تسمى

الحموض الأمينية، ونصف الوزن الجاف لأغلب الكائنات الحية يتألف من البروتينات، وبعض البروتينات يصنعها الجسم داخل الخلايا، والبعض الآخر يتناولها الكائن الحي بواسطة الطعام.

والبروتينات أنواع كثيرة، ولها وظائف متعددة، فمنها على سبيل المثال بروتين الهيموجلوبين الموجود في كريات الدم الحمراء، ووظيفته نقل الأكسجين إلى خلايا الجسم، ومنها الأنسلين، وهو يساعد عملية الاستقلاب في الجسم، وقد تحتوي الخلية الواحدة على مئات أو آلاف من البروتينات حسب نوع الخلية، لكل منها وظيفة محددة، وكل هذه البروتينات وما تقوم به من وظائف محصورة في حيز الخلية المتناهي الصغر، لدرجة أنّ خمسمائة بروتين منها يمكن أن تتسع لها النقطة التي على آخر السطر.

وتعقيد الخلية تعقيد بالغ يصفه العالم **بول ديفيس** في كتابه **المعجزة الخامسة** في قوله: (كل خلية مليئة بتراكيب معقدة غاية في التعقيد، وكأنها تم تصميمها اعتمادًا على دليل هندسي فائق الدقة، فترى فيها ملاقط ومقصات ومضخات ورافعات وأنابيب وسلاسل في غاية الصغر، بل وحتى مركبات النقل، فالخلية بالتأكيد هي أكثر من مجرد حقيبة معدات، هي عالم منسجم قائم بذاته، تتفاعل مكوناته معًا في انتظام مدهش لتكوّن ما يمكن تشبيهه بخط إنتاج معقد في مصنع).

وقد سبق فيما تقدم أن أي كائن حي يبدأ تكونه عند التناسل من خلية تناسلية واحدة ملقحة، تنقسم إلى خليتين ثم إلى أربع، وهكذا. وفي نقطة ما تبدأ الخلايا بالتخصص، فبعضها يصبح خلايا عصبية، وبعضها خلايا عظمية، وبعضها عضلات، وبعضها جلد، وتنتظم جميعًا لتشكل أنسجة، لتقوم الأنسجة بدورها فتشكل أعضاء، وتتشكل من الأعضاء الأجهزة، ومع هذا الانقسام المنظم المدروس العجيب يبدو في الخلايا أمر مدهش، وهو أنّ

كل خلية من الخلايا الجديدة الناتجة عن الانقسام تحتوي على نسخة مطابقة تمامًا للأحماض النووية، التي تحتويها الخلية الأم، وذلك مما يضمن الحفاظ على كافة الصفات الوراثية لتنتقل إلى الأجيال المتتالية.

وغرفة التحكم أو العقل المدبر؛ الذي يتحكم بكل هذه العمليات هي نواة الخلية، كما سبق ذكره، فهي تحتوي على الحمض النووي الذي توجد فيه التعليمات الكاملة لبناء الكائن الحي، على شكل جينات، والجينات هي جزء من الشيفرة التي هي موجودة في الحمض النووي العجيب، الذي يحتوي على كل الصفات الوراثية للكائن الحي، ولذلك أصبح يستخدم في عالم التحقيقات لتعقب المجرمين.

وثَمَّ وظائف أخرى للحمض النووي، سبق التعرض لها فيما تقدم، كما سبق بيان أنّ الحمض النووي في بناء البروتين يحتاج لمساعدة جزيئات أخرى تسمى النواقل أو المرسال.

وكل هذه الحقائق التي تبرز من الخلايا وأحماضها النووية، والأدوار التي تقوم بها شواهد دامغة تجتث كل ما يقوله التطوريون، وقد أكد ذلك الدكتور **روبرت جميس** في قوله: «إنّ هذه العمليات الكيميائية الحيوية المعقدة، شكلت عند اكتشافها كابوسًا مريعًا للتطوريين، ومعضلة عويصة جعلتهم يضربون أخماسًا بأسداس، ويحارون في كيفية الخروج من هذه الورطة، وإثبات أنّ كل ما يقوم به الحمض النووي ومرساله من عمليات حيوية، كتصنيع البروتينات، ونقل الصفات الوراثية، قد تطور بآليات التطور المعروفة، وهي الطفرات المتراكمة والاصطفاء الطبيعي، فهذه المكونات المتناغمة كلها والتي تعمل بشكل متزامن ومتعاضد، (الحمض النووي والمرسال، والنواة، والريبوزم، والآلاف غيرها من البروتينات والأنزيمات والجزيئات) قد فشل التطوريون تمامًا في إثبات أنها نتيجة التطور، لأنها

تعمل معًا، وبشكل دقيق ومحكم، وغاية في الروعة والانتظام والتنسيق، فكيف يتطور كل منها على حده، ثم تعمل معًا بهذا التنسيق العجيب؟.

إنّ هذه الحقيقة تنفي تماما فكرة التطور التدريجي، بل إنّ تشكل هذه العناصر أصلًا قبل دخولها معًا في أي من العمليات التي ذكرناها أمر مذهل، لا يمكن أن يكون نتيجة تطور، ناهيك عن عملها معًا، لنسأل أنفسنا مثلًا: ما هي فرصة تجمع مجموعة من الذرات لتشكل خلية حية؟.

يجيب عن هذا السؤال العالم كريستيان دو دوف (Christian de Duve) الحائز على جائزة نوبل في كتابه **رحلة في الخلية الحية** حيث كتب يقول: (إذا حسبنا فرصة ولادة خلية بكتيرية واحدة، وهي أبسط أنواع الخلايا، بسبب تجمع ذراتها المكونة عشوائيًا فإنّ الأبدية لا تكفي لخلق تلك الخلية المفردة)!!.

فإذا كانت الخلية الحية التي هي حجر بناء كل الحياة على سطح الأرض، لا يمكن علميًا أن تتشكل عن طريق الصدفة، ألا يرينا هذا أن التطوريين لا يملكون أساسًا لنظريتهم؟.

والحمض النووي العجيب الـ **DNA** والذي يتألف من شيفرة معقدة هي بمثابة خريطة الحياة، لا يمكن أن يتغير ذاتيًا إلا بمؤثر خارجي كما أثبت العلم، وإن حصل ذلك فإنّ فرصة تغيير كهذا لتخريب الخلية، وبالتالي التسبب في تشوهات أو موت للكائن الحي أكبر بكثير من فرصة تحسين هذه الخلية وتطويرها، كما يقول العلماء.

والحمض النووي جزيء موجود في كل كائن حي، وهو متشابه في بنيته العامة في كل الكائنات، ولكن تسلسل القواعد (درجات السلم الملتف) في كل كائن مختلف عن غيره من الكائنات، وهذا الاختلاف هو الذي يمنح كل

حيوان أو نبات شكله وصفاته، بل إنّه في النوع الواحد، كالبشر مثلًا، لا يمكن أن تجد شخصين لديهما تطابق في الحمض النووي بشكل كامل.

كتب رذرفورد بلات **Rutherford Platt**: (هذه الجزيئات من الـ **DNA** تمتلك تركيبًا كيميائيًا متقاربًا في معظم الكائنات، وبالحجم نفسه تقريبًا، فنجد تشابها بين تلك التي يمتلكها القط أو الذبابة، أو عفن الخبز أو ورقة العشب الأخضر، ولكن مع هذا، فإنّ هذه الجزيئات مشفرة لتجعل كل كائن حي مختلفًا تمامًا عن باقي الكائنات الأخرى، فتجعل الكلاب مختلفة عن الأسماك والطيور، وعفن الخبز مختلفًا عن شجر التفاح، والفيلة مختلفة عن البعوض، وهكذا).

ولأن جميع الكائنات الحية مكونة من العناصر الأساسية نفسها، وتتغذى من المصادر نفسها، وتعيش على كوكب واحد، وتحت القوانين الفيزيائية والكيميائية نفسها، فلا عجب أنّ هنالك تشابهًا في تصميم ومكونات الحموض النووية، ولكن من جهة أخرى هنالك بالتأكيد اختلافات في التشفير، أي في ترتيب القواعد في هذه الحموض، بحيث تسمح باختلاف الأحياء عن بعضها في أشكالها وصفاتها وأصنافها، فنرى بعضها يعيش في الهواء، وبعضها على سطح الأرض، وبعضها تحت الماء، بعضها أليف وبعضها جارح، منها طيور وزواحف وثدييات، وهكذا، وإنّ الأوامر أو الشيفرات التي يحملها الحمض النووي **DNA** هي التي تحدد الخصائص لكل الكائنات الحية. وهذه الخصائص المتوارثة تفصل أنواع الفصائل المختلفة عن بعضها لتجعل بينها فجوات كبيرة.

ونظرًا لأهمية الحموض النووية فإنّ العلم يقول إنّ الحياة لا يمكن أن تبدأ على الأرض إلا إذا كانت موجودة، لأنها هي التي ترسم الخارطة الحيوية لكل كائن، وتحتفظ بصفاته وخصائصه، سواء كان وحيد خلية أو حشرة أو سمكة أو نبتة.

ولا يكفي وجود الـ DNA وحده لبدء الحياة، بل لا بد من وجود جزيئات المرسال RNA لتنقل تعليمات الحمض النووي، ولا بد أيضًا من وجود بعض البروتينات المعينة وبترتيب خاص، وإنّ حتمية وجود كل هذه العناصر معًا لإنشاء خلية حية يجعل من تطور الحياة بشكل تدريجي أمرًا مستحيلًا»[1].

وقد أدركت أخي القارئ مما قاله هؤلاء المتخصصون في هذا المجال الحيوي المهم أنّ ولادة خلية بكتيرية واحدة ـ وهي أبسط أنواع الخلايا ـ باجتماع ذراتها عشوائيًا لا تكفي له الأبدية، فما بالك بالخلايا المعقدة، وما بالك بالأنسجة والأعضاء والأجهزة التي في الأجسام، وما بالك بهذه الأنواع الهائلة من أنواع المخلوقات الحية من بشر وحيوانات وأنواع النبات وما بالك بهذا السر الغيبي سر الحياة الذي عبر عنه القرآن بنفخ الروح، أترى أنّ هذا كله يمكن أن يكون نتيجة تطور أو أن يكون من صنع الطبيعة الميتة العمياء الصماء البكماء، من غير أن يكون ذلك صادرًا من عليم حكيم سميع بصير قاهر قدير، يقول للشيء كن فيكون.

فالعجب ممن يصدق أن يكون هذا كله من تأثير الناموس الطبيعي، أو التفاعل التطوري، ولا يصدق أن تكون هذه شواهد على فعل الله تعالى، الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟!.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٤ ـ ٥٧.

الفصل الثاني

في البراهين
التي في خلق الإنسان

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: في مراحل خلق الإنسان.
- المبحث الثاني: في الآيات التي يسطع نورها من طبيعة الإنسان.



ما أعجب خلق الإنسان، وما أدله على الله ﷻ، وحسب الإنسان أن ينظر إلى نفسه فيتملى آيات الله في خلقه، ويشاهد بعينيه آثار صنعه تعالى في كل جزيئة من جسمه، ويفكر في كل طور من أطوار تكوينه، وما يزخر به من آيات الله تعالى الدالة عليه، وكم نبّه الله تعالى الإنسان في القرآن على آياته العظيمة في خلقه، ليستوحي منها العبر، ويستلهم منها الإيمان، ويستبين منها منهج الحق، وكم كان الربط بين بدء الخلق وإعادته ليدرك الإنسان أنّ الذي بدأ خلقه فأخرجه من العدم، وأدرجه في مدارج الأطوار، حتى انتهى إلى ما هو عليه لا يعجزه أن يعيده كما خلقه أول مرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

وقوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٣٢].

وقولـه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ ـ ١٠].

وما أعجب خلق الإنسان الذي استخلصه الله تعالى من جماد، فأخرجه من تراب، ثم جعل نسـله يتدرج في أطوار شـتى حتى ينتهي من ذلك إلى هذا الإنسان الذي اشتمل على عجائب الخلق وبديع التصوير، فكان صورة مصغرة من هذا الكون البديع بأطرافه المترامية، ومُكَوَّنَاته الغريبة، وكان حريًا أن يعد متحفًا ربانيًا، يجد متفقـده فيه من الآيات ما يذهب بـكل لبّ، ويطير بكل فكر، وسوف يجد القارئ الكريم ـ إن شـاء الله ـ في مباحث هذا الفصل من القول في هذا ما تقر به عينه، وتطمئن إليه نفسـه ويتثبت به إيمانه، وإن كان نزرًا يسيرًا، لا يسـاوي شـيئًا مما يزخر به هذا البحر المتلاطم من آيات الله تعالى العظمى، ونلخص ذلك في مبحثين:

في مراحل خلق الإنسان

من الضرورة أن يدرك الإنسان أنّه ليس أزلي الوجود، فلوجوده بداية، وإذا كان الكون ـ الذي يشكل وجود الإنسان فيه جزءًا يسيرًا من قطرة في محيط لا تدرك أبعاده ولا يعرف قعره ـ كان بعد أن لم يكن كما تشهد بذلك براهين العلم القاطعة، بحيث توصل الكل إلى أنّ الحرارة الديناميكية فيه تتناقص باطراد، حتى تنتهي إلى درجة الصفر المطلق، وهنا تنتهي نشأة هذا الكون الأولى، فيفنى بعد وجوده، كما وجد بعد عدمه، فإنه من المستحيل مع هذا أن يكون أزليًا، إذ لو كان أزليًا لذهب بحكم هذا التناقص قبل أمد لا يحصى، وإذا كان كذلك فكيف بهذا الإنسان، أليس وجوده مرهونًا بوجود هذا الكون الذي جعله الله له حاويًا ومستقرًا كغيره من الكائنات؟.

وهذا يعني أنّ الجنس البشري كغيره من أجناس الكائنات، كان وجوده طارئًا بعد أن كان غير موجود، ويتأكد بحال الفرد من هذا الجنس، إذ لا يمكن لأي فرد بأن يدعي أنه أزلي الوجود، إذ من الضرورة أن يدرك بأنّ وجوده محدود البداية والنهاية، فإن كان طوى من عمره أربعين سنة مثلًا، فقبل الأربعين لم يكن له خبر في الوجود، فضلًا عن أن تكون له عين، وهذا بطبيعة الحال دال على أنه جاء من عدم، وإذا كان كذلك، فكيف يفسر هذا المجيء؟ من الذي أخرجه من ضيق العدم إلى رحاب الوجود؟ إنه من المستحيل بأن يكون بنفسه استطاع أن يُكَوّن نفسه، وأن يأتي بنفسه من العدم

إلى الوجود، إذ كيف يتصور أن يكون للمعدوم اختيار وقدرة على الخلق وهو نفسه لم يكن ولم يخلق؟!!.

وما الإنسان إلا صنعة تفتقر كغيرها مما يصنع إلى صانعها، وإذا كانت الصنائع المألوفة عند الناس ـ التي لا تتعدى صنعتها أن تكون تطويرًا لها بتجميع ما تفرق منها، وتأليف ما جُمِّع من موادها ـ لا يمكن أن تتكون عشوائيًا باجتماع موادها، وائتلاف مكوناتها، إلا بتصميم من أحد، فكيف بما ليس له مادة، ولم تكن له أجزاء متفرقة فتجمع؟! فلو قيل لأحد بأنّ هذه السيارة تكونت بنفسها من غير أن يصنعها صانع، ويصممها مصمم، وإنما اجتمعت أجزاؤها المتفرقة، فتركب بعضها مع بعض بطريقة متقنة محكمة؛ لما كاد يصدق ذلك، وكذلك يقال في جميع الآلات والمباني وغيرها.

وإذا كان هذا فيما كانت مادته موجودة فكيف بما لم يكن له وجود قط، أنى لهذا المعدوم أن يخرج نفسه من العدم إلى الوجود من غير صنعة صانع ولا فعل أحد؟!.

فإن خيل إلى أحد أنّ أبويه هما اللذان صنعاه، بما كان بينهما من لقاء ترتب عليه أن تحمله أمه؛ بما تلاقى في رحمها أثناء هذا اللقاء من حيوان أبيه المنوي وبييضة أمه، فتم بذلك تكون هذا المعدوم، وتدرج في مدارج الأطوار، حتى انتهى إلى ما وصل إليه، ثم خرج من رحم أمه، فإنّ هذا يدل على منتهى الغباء والعجز عن تصور الحقيقة، أو على تجاهلها، فأنى للأبوين أن يكون لهما الخيار في الحمل ونوعه، فكم من رجل وامرأة عاشا حقبة من الزمن وهما زوجان تتم بينهما المعاشرة، ولكن لم يتحقق لهما الحلم الذي كانا يتمنيانه، وهو أن يتمتعا بثمرة زواجهما مما يأتيهما من مولود تقر به أعينهما، حتى إذا أيسا أو كادا ييأسان، كان ما ليس في حسبانهما وهو تحقق هذه الأمنية الغالية في قلوبهما.

على أن الإنسان لا يتحقق له ما يتمناه في كل حين، فقد يتمنى الذرية ولا يرزقها، وقد يتمنى أن يجد فرصة للاستمتاع من غير أن ينقطع بحمل وولادة، ولا يتحقق ذلك بل يتوالى الحمل، وتتابع الولادة، وقد يتمنى الذكران أو الإناث ولا يتحقق له ما يتمناه، وإنما تكون الذرية من الجنس الذي لا يتمناه، وهو دليل على أنه ليس له من الأمر شيء، فما هو إلا متسبب، وليس له تصريف في شيء، وإنما الأمر بيد غيره، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

وإذا ثبت أنّ مجيء الإنسان إلى هذه الحياة لم يكن ذلك باختياره ولا باختيار والديه، وإنما هو خارج عن اختيارهم وإرادتهم، ثبت بالقطع أنّ وراء هذا الأمر مختارًا يصرف كل شيء بإرادته واختياره، وحسب الإنسان أن ينظر إلى حلقات الأسباب التي مر بها حتى انتهى به الأمر إلى الوجود، فقد جعل الله سبحانه من سنته في خلقه أن يكون التوالد نتيجة لقاء معين بين ذكر وأنثى، وقد أوجد الله سبحانه في نفسيهما جميعًا داعية لهذا اللقاء، مما فطرهما عليه من الشهوة والرغبة في قضاء الوطر، وبسبب ذلك كان الميل الفطري من كل واحد من الجنسين إلى الجنس الآخر ميلًا ملحًا لا يقف في وجهه شيء.

وليت شعري؛ كيف كان هذا الميل لو لم يكن وراءه مصرف ومدبر؛ يربط بين المسببات والأسباب، ويخلق الأثر الذي يكون من السبب في المسبب، فلو لم يخلق الذكر كيف كان يمكن للأنثى أن تستقل بالولادة، وكيف كان يمكن أن تشبع رغبتها الفطرية وهاجسها الملح إلى أن تقضي وطرها من الجنس الآخر، وكذلك لو خلق الذكر دونها، فإنه يظل في معاناة وشدة مما يقاسيه من عنت هذه الشهوة الجامحة.

وقد جعل الله سبحانه هذه الرغبة في كلا الجنسين على السواء، إذ لم يخلقها في الرجل دون المرأة، أو في المرأة دون الرجل، وجعل انجذاب كل واحد منهما إلى الآخر، انجذابًا ملحًا تدفعه عوامل شتى، فقد جعل الله تعالى في خلقة كل واحد من الذكر والأنثى ما يغري الآخر به، ويدعوه إلى التواصل معه، فالمرأة تغري الرجل بأنوثتها، وتجتذبه إليها إن أقبلت أو أدبرت، بما جعل الله فيها من طبيعة اللين، التي تشد الرجل إليها، والرجل يغري المرأة بعكس ذلك مما جعل الله فيه من صلابة الفحولة، التي تشد المرأة إليها، وبسبب هذا كان كل منهما يحس بفراغ شديد لا يملؤه إلا الاتصال بالطرف الآخر.

ولم يجد هؤلاء من وسيلة لتعزيز دعواهم في كون الحياة انبثقت من جماد ميت بسبيل المصادفة، فإنّ هذه مكابرة لم تقم على دليل من العلم، ولا برهان من العقل، وإنما ظلوا غارقين في عماهم متجاهلين كل دليل على بدء الخلق، مصرين على نظريتهم، ولو ثبت فشلها، وانكشف عوارها، وقد سبق في الحديث عن الخلية ما يسقط دعواهم، ويفند شبههم، وإن كان لا يعدو أن يكون أقل من نقطة في محيط زاخر لا يعرف له قعر، ولا يتصور له ساحل، وقد تركت كثيرًا مما قاله الكاتبون في هذا المجال حرصًا على الاختصار، وتفاديًا لإملال القارئ، وهنا نعرج على لمحة يسيرة من عجائب خلق الإنسان للإمعان في إزهاق الباطل الذي جاؤا به.

لا يخفى أنّ نصوص القرآن دلت على أنّ بدء خلق الإنسان كان من طين، فمنه خلق الله آدم أبا البشر، وهذا العنصر يوجد في كل إنسان، فإنّ كل عناصر التراب توجد في جسم الإنسان، فالهرمونات والمنتجات الحيوية تتكون من اجتماع ذرات معينة من عناصر التربة، وأهمها المكونات العضوية التي يتداخل في تركيبها الفحم والهيدروجين والأكسجين، ومنها تتكون آلاف الآلاف من المركبات المعقدة، وتركيبها بطريقة كيميائية عجيبة بحيث لو

اختلفت الذرات الداخلة في تركيبها بعض الاختلاف، أو تبدلت في موضعها من مكان لآخر، لتغير المركب إلى غيره في خواصه وصفاته.

ويتسلسل الوجود البشري في الأرض عبر التوالد الذي يتم بالاتصال بين الذكر والأنثى، وهو كما تقدم، نتيجة جاذب فطري يدعو كلا منهما إلى الآخر، ليتم هذا الاتصال بينهما، فيجتمع به في رحم المرأة، الحيوان المنوي من الرجل والبييضة منها، ليكون بينهما اللقاح الناتج عنه خلق الإنسان.

وقد جعل الله في خصية الرجل مصنعًا للحيوانات المنوية، وهي ذات تركيب دقيق تتكون من مجموعة ضخمة من الأنابيب المنوية، التي تتلوى وتتحلزن بشدة، فطول الأنبوب الواحد يصل إلى المتر، ويجتمع منها ما يقرب من ألف أنبوب، يتصل بعضها ببعض، ثم تصب جميعًا في البربخ، الذي هو بمثابة النهر العظيم، وتلك الأنابيب بمثابة روافده، وتشكل شبكة تسمى بشبكة هيللر، ومن هذه الشبكة ينصب (١٠ ـ ١٢) قنينة على البربخ، وتلتقي هناك أمواج زاخرة من النطف ذات الأذناب الطويلة وهي تسبح في اتجاه واحد حتى تصل إلى البربخ، وطوله ستة أمتار.

وهو يمتلئ بأعداد ضخمة من الحيوانات المنوية، لأنه بالتفافه وتعرجه الطويل يكون استعداده لاستيعابها جميعًا أمرًا ميسورًا، فتقف النطفة قليلًا في هذه القناة الطويلة قبل أن تنتقل إلى غيرها، لتصعد إلى الأعلى فتصب في خزان معد هناك، وهو ما يسمى بالحويصل المنوي، حيث تجتمع الحيوانات المنوية مشكلة رأس قذيفة على خيط طويل ممعنة في السير إلى مهمتها، وهي خلق الإنسان منها، ويبلغ طول ذنبها عشرة أضعاف طولها، وذلك لتيسير السباحة لها حتى تصل إلى غايتها وهي البييضة.

ومن أسرارها الانقسام المنصف، فالصبغيات أو الموروثات التي تحمل صفات الأب، ليست كاملة وإنما يوجد نصفها، ليتم تكاملها عندما تجتمع

بالبييضة بما تنقله هذه الأخيرة من صفات الأم، عن طريق نصف الصبغيات أيضًا، وباجتماع النصفين يتخلق بمشيئة الله تعالى إنسان كامل.

ويستفاد من الطب أنّ الخصية في الأصل كانت قريبًا من الكلية في الظهر في المرحلة الجنينية، ولكن تنزل مع ولادة الإنسان إلى مكانها الطبيعي، وهو الصفن خارج الجسم، وسبب ذلك أن النطف لا يمكن أن تعيش في حرارة البدن، بل لا بد أن تكون حرارة مستقرها دون حرارة الجسم بـ (٢ ـ ٤) درجات، ولذلك كان أنسب مكان للخصية هو الصفن، ويتبين بهذا سر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقد تم ذلك عندما كانت الخصية في الظهر عند الكُلْيَة.

وما أعجب التفاعلات التي تكون قبل اللقاح لتوليد النطف وتلبيتها حتى تكون مهيأة للقاح، فملكة الغدد في الجسم وهي النخامة، ترسل من فصها الأمامي هرمونًا يقوم بدور الرسول المحرض في استثارة حمية النطف، لتنمو وتتقدم، فتمر بمراحل، حتى تكون مهيأة للإلقاح، كما ترسل ملكة الغدد رسولًا آخر إلى بعض المراكز الخلوية المندسة بين النطف، وهي المعروفة بخلايا ليديغ، وذلك أن تفرز هرمونًا جنسيًا يقوم بإعطاء الخواص الجنسية للذكر من غلظ الصوت وبروز الحنجرة، وصلابة العضلات، وضيق الحوض، وكبر الأكتاف وتوزع الشعر، خاصة في العانة، وتحت الإبط، وبقية الجسم بشكل عام، بالإضافة إلى الميل الجنسي، فيتكون الذكر على ثلاث مستويات ليستمر النسل في البشر، وتتكون النطفة التي بها سر التكوين، ثم حصول الميل الجنسي، والمظاهر الخارجية المميزة للذكر عن الأنثى.

وهنا تتجلى آيات الله العظمى في الخلق والإبداع، فما الذي جعل للهرمون الجنسي المذكر المسمى بالتيستوميترون قوة في صنع بصلات

الشعر، فتخرج بكيفية معينة تميز الذكر عن الأنثى، فهي في الذكر مثلثة تبدأ من السرة وتمتد إلى الأسفل، بينما هي في الأنثى مجتمعة حول الفرج، وكيف كان أثر هذا الهرمون على بقية بصلات الشعر والجسم، حيث تظهر في كل جسم الذكر، بينما هي في الأنثى نادرة، فلا يرى الشعر على جسمها إلا في حالات شاذة، ومع ذلك أيضًا له أثر على الحبال الصوتية، ليغلظ الصوت، كما أن له أثرًا في تهيئة العضلات لتدخر البروتينات حتى تشتد وتقسو، وكذلك انفتاح عظام الصدر ومفاصله، وضيق عظام الحوض ومفاصله، وتجد هذا الهرمون يتحدث بلغات مختلفة ويعقب آثارًا متنوعة، فيؤثر على العظام والمفاصل، والعضلات وحبال الصوت، وغضاريف الحنجرة، وبصلات الشعر، وكذلك المزاج النفسي، الذي يظل سرًا محيرًا، ولغزًا مدهشًا، فمن أين جاءت هذه القدرات؟!.

أولا يكفي ذلك دليلًا على أنّ وراء ذلك قدرة أعلى وإرادة أسمى، وتدبيرًا أوسع ممن يعلم السر وأخفى.

وما أعجب شأن الحيوان المنوي عندما يجتاز ذلك النفق السحري يشق كالغواصة عباب المفرزات والأخلاط والماء الكدر، ولا يصطدم بالجدران، ولو اصطدم فإنّ القلنسوة التي تغطي رأسه تقيه آثار هذا الاصطدام، لأنها تجعله مصفحًا مدرعًا، ويسير بجنبه جيش من النطف، تبلغ الملايين، كل منها يسعى إلى هذه الغاية، وهي خلق الإنسان، ويضيق النفق ويتسع بين حين وآخر، إلى أن ينتهي إلى المستودع العام، الذي تجتمع فيه النطف، وهو الحويصل المنوي، فتبقى فيه في انتظار المناسبة الجنسية لتتدفق، وتنطلق للقاء ذلك الموعد، واجتماعها في الحويصل أمر مهم، إذ لولاه لاستمر تدفقها إلى الإحليل، ثم القضيب، فيستمر الإفراز، وهو ما يجعل المصنع يخسر بضائعه.

وما أعجب شأن ذلك الحيوان المنوي، الذي يصل إلى الرحم بأمان مع ما يعترضه ويتهدده من عقبات وأخطار، فالإحليل ـ وهو المجرى الذي يسيل فيه البول والسائل المنوي ـ طويل، ثم إن طبيعة وسطه في المجرى الحموضة بسبب استمرار مرور البول، وكذلك طريق المهبل طويل خطير، بسبب الحموضة الشديدة الموجودة فيه أيضًا، والمفرزات في الحويصلة المنوية قليلة، فكيف يجتاز هذه المخاطر كلها؟!.

إنّ إرادة الحكيم الخبير، هيأت لكل شيء أسبابه، فخطورة الأوساط الحامضية يدفعها كون تفاعل السائل المنوي قلويًا، وكم يسبق إيصال هذه المادة المهمة التي هي ماء الحياة إلى الرحم من مقدمات، منها احتقان الحويصل المنوي حتى يتدفق ما اجتمع فيه إلى الخارج، وهو لا يتم إلا بالتوجيه العصبي، من مراكز الإشراف العصبية المجتمعة في النخاع، وهي تعمل وفق الأوامر التي تتلقاها من الدماغ، ووسيلته في إرسال أوامره الفكرة المتكونة عن الوسط الخارجي، وهي تغذيها الحواس، وأهمها النظر، فهو الذي يحرك الفكرة الغريزية فتنطلق الأوامر إلى النخاع فيضغط على الأعصاب بدوره، وهي تتولى تنبيه الحويصل المنوي والغدد الأخرى، فما تنقضي إلا لحظات حتى تفرز الغدد المختبئة في الطريق إفرازها، وهي الغدد البصلية الإحليلية ومفرزها ذو طبيعة قلوية، بها يؤمن الطريق البولي أن لا يؤذي الحيوانات المنوية.

وتعزز ذلك ضمانات أخرى، فغدة البروستات تفرز مفرزاتها أيضًا، فيتمهد الطريق عبر القضيب، وينظف من المفرزات الحامضية، ويكون العضو الذكري قد استوفى انتشاره، وذلك من الأوامر العصبية التي هيأت كل الأطراف المهمة لتأدية هذا الغرض الحيوي، وهنا يحصل الدفق السريع، فلا يقف السائل المنوي في الطريق طويلًا، وتكون المفرزات الأولى قد عدلت المفرزات الحامضية في الطريق البولي، في إحليل الرجل ومهبل المرأة،

وبهذا تأمن النطفة الوصول إلى مستقرها، أما الرعشة الجنسية، أو حصول الأرتواء الجنسي، فهو من الأسرار النفسية التي يعيي تفسيرها.

وفي السباق إلى هذه الغاية الحميدة بين الحيوانات المنوية تنافس شديد، فالدفقة الواحدة من السائل المنوي فيها نحو (٤٠٠) مليون حيوان منوي[١]، كل منها يسعى لأن يكون هو الفائز بإحراز قصب السبق، فيصل إلى البييضة ويلتحم بها، ليتكون بذلك الإنسان، وفي حين هذا التسابق بين هذا العدد الهائل من الحيوانات المنوية إلى البييضة، تكون هي في البوق تتهادى بدلالها كملكة محاطة بحاشيتها، وعلى رأسها الإكليل المشع، مستعدة لاستقبال الفائز الأول.

وما أعجب شأن المبيض، المصنع المنتج لبييضات المرأة، فهو يبنى وتوضع فيه المواد الأولية وهي الخلايا التي تتكون منها البييضات، غير أنه يظل مغلقًا لا تفتح أبوابه للإنتاج حتى سن البلوغ، عندما تكتمل الأنثى وتتهيأ بمظهرها الجسمي، وخواطرها النفسية، فيبدأ عندئذ المبيض الهاجع بالعمل، وتنطلق البييضة الأولى منه، وفي المبيض ما يقرب من (٤٠٠) ألف جريب (والجريب كيس يشبه الجراب الصغير، به خلايا صغيرة تحيط بالبييضة الأصلية، التي تحمل صفات الأم) ولا ينطلق من المبيض سوى ٤٠٠ جريب وسطيًا خلال الحياة، وهو ما يعادل بييضة واحدة في كل شهر، ويظهر ذلك في الدورة الطمثية المعروفة بالعادة الشهرية، فهي تستغرق عند المرأة الطبيعية ٢٨ يومًا، أي ما يعادل شهرًا قمريًا.

---

(١) جاء في كتاب آيات الله المبصرة للأستاذ الدكتور توفيق علواني أن القذفة الواحدة من مني الرجل تحتوي على ٥٠٠ مليون حيوان منوي، وأفادني أحد الأطباء أن متوسط الحيوانات المنوية ٤٠ ـ ١٠٠ مليون في كل مليمتر، ينظر؛ توفيق علوان: آيات الله المبصرة، ص٢٢، دار بلنسية ـ الرياض، ط١.

وتتفاوت الكائنات الحية في مواسمها الجنسية بتفاوت أجناسها، وكذلك يكون الاختلاف باختلاف أنواعها، فالإنسان الذكر متهيئ لذلك بطبعه مدى حياته، بينما الأنثى في الغالب تمتد عندها هذه المرحلة نحو أربعين سنة، كل ذلك لحكمة أرادها الخالق سبحانه.

ويلاحظ أنّ قذف البيوض من المبيضين يكون بالتناوب كما هو الشأن في كل غدد الجسم، فإفراز الهرمونات متقطع وعمل الكبب الكلوية بالتناوب، فكل فوج يعمل، ويربح قسمًا من العمل، كما أنّ الأسناخ الرئوية لا تنفتح كلها أثناء التنفس، وكذلك الأوعية الشعرية الدموية لا تتوسع كلها إلا في حالات خاصة، كزيادة الجهد والصدمات وغيرها، وهل هذه قاعدة في كل غدد الجسم وأجهزته؟ والبييضة لا تكون وحدها في المبيض، بل تحيط بها حاشية من الخلايا، كأنّها ملكة على رأسها تاج مشع من الخلايا المسماة بالتاج أو الإكليل الشعاعي، وهي موجودة في قربة صغيرة تسمى جريب دوغراف، وهذا الجريب يحتوي بداخله بجانب الخلايا على سوائل هرمونية تهيئ الرحم لاستقبال البييضة الملقحة، وإذا مر الشهر بدون أن يحصل اللقاح انهدم الغشاء المخاطي في الرحم، وسال الدم الطمثي المعتاد.

أما سر انطلاق البييضة من المبيض ـ وهي داخله كالسجين أو أشد ـ فهو يعود إلى الارتباط المعقد ما بين غدد الجسم الداخلية، فالغدة النخامية هي دماغ الغدد ومفتاحها الأول، بل هي بمثابة الملكة لها تتربع على عرشها داخل الجمجمة في مكان محمي آمن، وترسل أوامرها من هناك في ذروة الجسم، ومن جملة الأوامر هرمون يبلغ رسالة مستعجلة إلى الجريب الموجود في المبيض يأمره أن يتحرك ويزيد من مفرزاته، ويستدعي الاحتياطي من جنوده الخلوية، فتجتمع الخلايا الاحتياطية، وتشكل جيشًا خلويًا يحيط بالبييضة ليسيرها، وهو يحميها مما تتعرض له حتى تبلغ غايتها، وهي قشرة المبيض، ويكون الجريب

قد كبر إلى درجة يبلغ حبة الكرز، فيضغط على قشرة المبيض الرقيقة، ويأتي هنا هرمون آخر بأقصى سرعة يوجه بأمر ملكة الغدد حرس الحدود بأن يفسحوا المجال بسرعة لخروج البييضة وانفجار الجريب كما ينفجر اللغم الموضوع على الحدود عندما يمر عابر سبيل بدون معرفة بطبيعة الحدود!!.

وهذا الانفجار مرسوم، فهو يدفع بالبييضة إلى البوق الذي يطبق على المكان المنفتح من جدار المبيض، وكأن تفاهمًا كان بين حرس الحدود وهذا البوق الذي هو نهاية النفير، وفي ذلك الوقت يكون الجريب المنفقئ قد دلق سوائله في فسحة البطن، وهي هرمونات تثير الميل الجنسي عند المرأة، كأنها تحثها حتى لا يضيع هذا الجهد المبذول ليحصل التلقيح، ولا يقذف بالبييضة إلى الموت، لأنها لا تعيش أكثر من ٢٤ ساعة على أبعد حد، وينقلب الجريب بعد ذلك إلى مهمة جديدة تعين البييضة التي انطلقت إلى سبيلها، فهو لا ينسى الوفاء لها طول صحبته لها، ولهذا تسمى بقية الجريب بالجسم الأصفر، لأنه يمتلئ بمادة صفراء، هي هرمون خاص يسمى البروجيسترون (اللوتئين)، فيمهد الطريق أمام البييضة فيما لقحت ويبلغ الرحم رسالة مستعجلة ليستعد لاستقبال البييضة التي هي في الطريق إليه، فيكون كل شيء على أحسنه، حيث يسمك غشاء باطن الرحم، فتزداد غدده وطبقات خلاياه، وفي هذه الرحلة يحصل تطور للبييضة وهو ما يعرف بالانقسام المنصف، بحيث تحتوي البييضة على نصف الكروموسومات حتى تلتقي بالنطفة التي يكون في حوزتها النصف الآخر من قبل الأب، فيتشكل من اجتماع النصفين بشر سوي، تجتمع فيه الخصائص الوراثية من الأب والأم كليهما.

وفي هذا السفر الشاق يتم اللقاء التاريخي بين الحيوان المنوي والبييضة بطريقة عجيبة، تدل على إعداد عجيب لهذا اللقاء ممن يعلم الخفايا كالجلايا، ولا يعجزه شيء مما ظهر أو بطن، فهو لقاء أشبه بلقاء رجلين؛ كل منهما يأتي

من جهة، ليلتقيا في مكان معين، بعد أن يجتاز كل واحد منهما مئات الأميال، فأنى يتصور ذلك إن كان كل واحد منهما يمشي معصوب العينين لا يبصر موطئ قدميه؟!.

وذلك لأن البوق الذي تسير فيه البييضة يعتبر نفقًا هائلًا، وهو أكثر من المساحة التي تقطعها النطفة، فقطر النطفة يبلغ بضعة ميكرونات، وقطر البييضة ٢٠٠ ميكرون، بينما يبلغ طول النفير ١٢ سم، وثخانته ١ سم، وهو على كل حال أجزاء من السنتيمتر من الداخل، والميكرون هو جزء من الألف من المليمتر، وطول النفير ٢٤٠ ألف ضعف للنطفة، وتعبر النطفة ثلثي هذه المسافة في مدى ساعات، وقد علمت كيف يكون السباق بين تلك الملايين من النطف لتنتهي إلى لقاء البييضة، والفائز بذلك عند اقترابه منها يرسل إليها إنزيمًا خاصًا، يعد رسولًا يخبرها بمجيئه فتفتح له الباب، وتبعث إليه إشارة من جدارها الخارجي يأذن باقترابه وهو مخروط الجذب كما يسميه الأطباء، حيث تتبارز منطقة صغيرة من الجدار الخارجي للبييضة فيقترب من هذا التبارز الحيوان المنوي، وإذا بالجدار ينفلق من جهته بقلنسوته المصفحة، ويخلف وراءه ذنبه الطويل الذي صاحبه في هذه الرحلة الطويلة لأنه لم يعد بحاجة إليه، ويدخل في جوف البييضة الحشوة الإنسانية النصفية، فتقترب النواتان وتندمج الصبغيات، وتكتمل، وتتراكب الكروموسومات بعضها فوق بعض، فيتخلق إنسان جديد تجتمع فيه صفات الأب والأم.

وهذه الصفات الوراثية تكمن في الحمض الريبي النووي المنقوص الأكسجين، الذي يرمز إليه (DNA)، فكل صفات الإنسان تكمن في هذا الحمض الذي يبلغ من الطول ثلاثين انجسترون (A)، وهو يتكون من ألف دورة تتوزع فيها الموروثات التي تحمل الصفات الإنسانية الإرثية بطريقة يعجز الطب عن تفسيرها.

والبيضة ـ التي تكونت من اجتماع البييضة المنطلقة من المبيض والنطفة القادمة من الذكر ـ تبلغ من الوزن جزءًا من المليون من الغرام، ومن هذا الجزء اليسير خلق الإنسان، ولهذه الخلية الملقحة لها زمان ومكان، إذا قدمت أو أخرت يتعذر اللقاح، فيتعذر خلق الإنسان، فزمان البييضة هو اليوم الرابع عشر من الدورة الشهرية، وتعيش ساعات قليلة، أو يومًا على أبعد حد إن لم تلتق بالحيوان المنوي، وكذلك الحيوان المنوي يدخل البوق وله من العمر ٣ ـ ٤ أيام لا أكثر، فإذا حصل التلقيح كان عمره عمر الإنسان، وإن لم يحصل مات في أيام.

وبالنسبة إلى المكان فهو المثلث الوحشي؛ وهو الثلث البعيد من الرحم، ففيه يتم التلقيح ولو كان في غيره لفشل، وقد علل العلماء هذا بعلل شتى، تصوروها كل بحسب ما رأى، ولكن التعليل السليم يرجع إلى كون هذا الأمر مدبرًا من العليم الحكيم كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٦١].

وهنا يبدأ انقسام هذه الخلية الجديدة التي سميت بالبيضة الملقحة، فقد طبعها الله تعالى على التكاثر السريع، حتى تتطور الخلية التي تزن جزءًا من مليون من الغرام فتصبح في موعد الولادة إنسانًا متكاملًا يزن ٣٢٥٠ غم، وتبلغ خلاياه ٢٠٠ بليون خلية، ومنهم من يقدرها ألف ترليون خلية، وذلك ناتج عن تلك الانقسامات العجيبة، وأما وزنه فيفوق ما كان عليه أول مرة بـ ٣٠٠٠ مليون مرة.

وعندما يتم التلقيح تحاط البيضة بجدار سميك يحول دون وصول بقية النطف إليها عندما تقذف في الرحم، فتصطدم رؤسها بالجدار لئلا تصل إلى هذه البيضة، فيكون سبيلها الموت، وإذا تم اللقاح تتابع الانقسام المولد للخلايا بطريقة هندسية (٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨ ـ ٢٥٦ ـ ٥١٢.... إلخ)

وبهذا تتولد الخلايا مع عدم زيادة البيضة الأصلية، فالحاصل إنما هو انقسام البيضة فقط، وفي أثناء هذا الانقسام تسير البيضة في نفق البوق حيث تدفعها التيارات المصلية الموجود في البوق، وتستغرق رحلتها عبر هذا النفق نحو عشرة أيام، حيث يكون الانقسام قد أخذ ذروته، وقد قيل بأنه يحصل نحو خمسين انقسامًا، وعندما تصل إلى الرحم يكون الغشاء المخاطي الرحمي مهيأ لاستقبالها، ويحدث هنا دخول البييضة إلى داخل جدار الرحم، بما يتهيأ لها من وسيلة ذلك، إذ تصبح في شكل التوتة من كثرة ازدحامها بالخلايا، وتمد أرجلًا كأرجل الأخطبوط تصدع الجدار الرحمي بقوة، وعندما يتم لها ذلك تنطمر في جدار الرحم، ويغلق الباب الذي فتح لها خلفها، وتستمر الأرجل الأخطبوطية تمتد على مدار التوتة، وهي تعرف بالزغابات، فتقوم بقضم محتويات الجدار، مع العروق الدموية، فينهمر دم غزير تتكون منها برك تحيط بهذه العلقة العالقة في ذلك الجدار، وتنغمس الأرجل الأخطبوطية في خضم ذلك الدم، لتمتص منها غذاء الجنين.

ويحاط هذا الكائن الذي تحول إلى علقة بالزغابات الكوريونية، التي تمتص من الدم كل ما يلزم لتخلق الجنين من الماء والأملاح المعدنية والفيتامينات والسكريات والأحينات والدسم، كما لو كان أحد في وسط غرفة يمد بكل ما يحتاج إليه فيها من أنواع الغذاء.

وهكذا تبدأ الخلايا التي تكونت وتشكلت في أثناء ذلك بمهماتها، فبعضها يختص بالتكوين الخارجي للمضغة، وبعضها بتكوين الخريطة الأولى للمساحة الإنسانية، وتعرف هذه اللوحة بمجموع الوريقات التي تتخلق منها الأعضاء، وهي تنقسم إلى وريقة ظاهرة وباطنة ومتوسطة.

ويبدأ التخلق بظهور ميزابة في وسط المضغة يكون منها الدماغ والنخاع في المستقبل، وتظهر بجانبها قطع تعرف بالقطع البدئية تتولد منها الفقرات،

وامتدادها العظمي وهي عظام الأطراف، ومنها العضلات، حيث تمتد لتتكون عضلات كل الجسم، والعظام هي الأصل والعضلات تكسوها، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وتستمر الخلايا في الانقسام لتتخلق منها الأعضاء، فيختص بعضها بالحواس، وأخرى بالعظام، وبعضها بالعضلات، وغيرها بالأجهزة، فتتكون من الوريقة الباطنة الرغامي والقصبات والرئتان والبلعوم والأنبوب الهضمي والكبد والمعثكلة، كما يتشكل من الوريقة المتوسطة الجمجمة ونسيج الرأس الضام وعضلاته، وعضلات الأطراف، وهيكل العظام، والجهاز التناسلي، وغشاء الجنب وهو يغلف الرئتين، والثامور وهو يغلف القلب، والصفاق وهو يغلف الأمعاء، والقلب، والعروق والبلغم، والجملة البولية، كما يتكون من الوريقة الظاهرة بشرة الجلد، والعناصر الملحقة به؛ من غدد وشعر وأظافر وأعضاء الحواس والجملة العصبية.

وكل ذلك يتم بمنتهى الدقة وغاية الإتقان في نسق واحد، بحيث تتكفل كل مجموعة خلوية لبناء جهاز خاص، بل نسيج خاص، مع كونها لا تستقل بعملها بل تتعاون مع غيرها، فكل جهاز يأخذ مكانه الطبيعي، وأي خلل يؤدي إلى تشوهات خطيرة في المستقبل، بل يعرض الحياة للخطر، ولذلك يكون كل عضو في مكانه الطبيعي، فالعين لا تنمو في البطن، واليد لا تنبثق من الرأس، والأذن لا تنبت في الساق، والشرج لا يركب في الظهر، والقرآن يأخذ بفكر الإنسان ليقف به على معالم هذا الإبداع الغريب، وليصله من وراء ذلك بالمبدع العظيم، فالله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

وأثناء نمو المضغة لا تختلف مضغة الإنسان عن مضغة الزواحف والطيور، بل حتى الخنازير، ولكن لا يكاد يكتمل الشهر الثاني حتى يبدأ

تخلق الإنسان لينشأ إنشاء جديدًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد وجد أنّ المضغة البشرية يكون طولها ٥ مليمتر في اليوم الخامس والثلاثين، ثم تزيد بمعدل مليمتر واحد يوميًا، فتصبح ٣٠ مليمتر أو ٣ سم عندما يكون عمرها شهرين، وفي نهاية الشهر الثالث يتم تكون الأعضاء التناسلية الخارجية، فيتحدد الجنس ذكرًا أو أنثى.

ويكون ذلك بحسب الصبغيات التي في الحيوانات المنوية، وذلك يدل على أن الذكر به يحدد جنس الجنين، بحسب الحيوانات المنوية المتغايرة الصبغة، وهو ما أشار إليه القرآن كما كشف عنه العلم الحديث، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٩].

يمر الجنين بهذه المراحل وعناية الله تعالى تصحبه، فتقيه الأخطار التي تتهدده، وهو في أعماق الرحم حيث لا تصل عين أحد من الخلق، ولا تمتد يد من أحد وإنما رعاية الله تعالى ووقايته تكتنفانه، إذ كل زيادة شيء أو نقصانه يسببان خطرًا بما يكون منهما من الخلل في تكون الإنسان، منها **تناذر كلاين فلتر**، الذي يكون مع زيادة صبغي واحد فقط، بحيث تكون الصبغيات ٤٧ بدلًا من ٤٦، **وتناذر تورنر**؛ وهو يكون بنقص صبغي واحد فتكون ٤٥ بدلًا من ٤٦، فتناذر كلاين فلتر يظهر أثره في المصاب به بالقصور في الجانب العقلي، مع انعدام الحيوانات المنوية، وظهور الأثداء كالمرأة، بالإضافة إلى أمراض خطيرة كالسكري وانتفاخ الرئة، **وكذلك تناذر المرض المنغولي**؛ حيث يشبه المريض بسحنته سحنة المنغوليين، وهو ناتج عن زيادة صبغي واحد، كالذي مرّ، وأبشع مظاهر هذا المرض هو القصور العقلي الشديد، حيث لا يستفاد ممن ابتلي به إلا التخريب والإزعاج، وكل هذا من أجل زيادة صبغي واحد في البناء الكروموسومي الذي يناط به تصميم الإنسان وتركيبه.

وبعد اكتمال تكون الإنسان ورسم خريطته بشكل إجمالي في الشهرين الأولين ينتقل إلى مرحلة الجنين الكامل، إذ تتكامل أعضاؤه وتتميز بأخذها الشكل النهائي، ويبدأ في شهره الثالث نموًا جديدًا، لأن الزغابات ـ التي كانت تقضم خلايا الرحم، فتفجر بركا من الدم للتغذية، والتي كانت تحيط بالعلقة من كل جهة ـ تستحيل من جميع الأماكن إلا مكانًا واحدًا، حيث تتكون المشيمة للحاجة إليها، كما أنّ السائل الأمنوسي يتكون في هذا الشهر فيحيط بالجنين، حتى يكون كالسابح به ليقيه من الرضوض التي يتلقاها الرحم خاصة، والرحم غائر في البطن، وهو أيضًا يسهل حركة الجنين وهو أمر مهم، وكذلك يحفظ نظامية وضعيته عند الولادة، لتكون طبيعية، بحيث لا يأتي منكوسًا رأسه إلى أسفل، فتطبق المنطقة الخلفية لجمجمته على فوهة الرحم ـ وهو ما يسميه المولدون بالمجيء القمي ـ فتتعسر الولادة، وتتعرض حياة الأم والطفل معًا للخطر.

ولكن يخفف خطورة هذا الأمر هذا السائل الأمنوسي، فهو يسهل حركة الجنين ليأخذ وضعه المناسب، كما يوزع الضغط بشكل متساوٍ عليه في حالة الرض أو ضغط الرحم أثناء المخاض حسب مبدأ باسكال في ضغط السوائل، كما أنه يوسع فوهة عنق الرحم وذلك عندما يكون ما يعرف بجيب المياه، وهو يتكون في أسفل الرحم عند فوهة العنق من ضغط السائل الأمنوسي باستمرار على أغشية الجنين، وعندما ينبثق هنا الجيب ـ وهو ما يعرف عند عامة الناس بانفجار ماء الرأس ـ فإنّ هذا السائل فيه هرمون خاص يحرض المخاض، وينبه عمليات تقلص الرحم، وهو من أسرار الله العجيبة، التي أودعها هذا السائل الذي هو في شكل الماء حتى يقوم بهذه الوظائف كلها.

وأما المشيمة فهي المصفاة الأمينة، والمغذية السخية، والمديرة المتقنة لشؤن حياة الجنين، فهي تمتص الدم من رحم الأم، وتدفعه إلى دوران

الجنين، كما أنها تهضم الطعام مثل آحيات، فتجعلها بسيطة مستساغة، ثم تبعث بها إلى الجنين، حتى لا يتضايق منها، لا سيما أنّ الكبد لا تقوم بعملها إلا في زمن متأخر، وهي التي تدخل الغازات والماء والأملاح المعدنية والسكريات إلى الجنين، فلولاها لما عاش لحظة واحدة، وإذا مرت جسوم ثقيلة بعثت بخمائرها حتى تحيلها إلى صابون دسمي يمكن إمراره إلى دم الجنين، ثم تفكك بعد ذلك حتى يستفيد منها، كما أن السكر إذا فاض عن الحاجة تنقلب خلايا المشيمة إلى مستودعات لتخزين مولد السكر؛ ليحلل بعد ذلك في الوقت المناسب الذي يحتاج إليه الجنين، وتفرز الخلايا الأمامية من المشيمة العديد من الهرمونات التي تكفل للجنين أن يتابع حياته، كما تحافظ على الاستقرار والاتزان في أخلاط جسم الجنين ومفرزاته، وفي هذا كله ما يدعو إلى الاعتبار والاستذكار ليعرف الإنسان من أين جاء وكيف شملته رعاية الله تعالى، وأحاطت به نعمته.

وقد جعل الله تعالى للجنين مستقرًا آمنًا في أعماق الرحم، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، فما أعجب ذلك القرار، فجلد البطن وعضلاته مع الأحشاء بالإضافة إلى سماكة الرحم، كل ذلك واق له، وهو مع ذلك يحاط بثلاثة أغشية وهي الساقط والكوريولني والأمنوسي، وانظر كيف عبر القرآن عنها بظلمات ثلاث عندما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]، ويحتمل أن تكون الظلمات هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة الأغشية، ولكن الأقرب إلى التصور الصحيح أنّ الآية تشير إلى أنّ هذه الظلمات هي جميعًا داخل البطن، وهذا يؤكد أنّ المراد بها هذه الأغشية.

وما أعجب ظهور هذه الحقائق كما عبر عنها القرآن الكريم قبل اكتشافها بقرون متطاولة من الزمن، وفي الشهر الثالث يبلغ طول الجنين ٣ سم ووزنه

١١ غم، ويكون رأسه كبيرًا مخيفًا يقارب حجمه ثلث حجم الجنين، وتكون أحشاؤه بارزة مع الكبد في حالة فتق، حيث لا يوجد جرّاح قط يمكنه رتق هذا الفتق، وإنما الإرادة الحكيمة هي الكفيلة بما يعجز عنه كل مخلوق، ويلاحظ أيضًا ظهور العينين والأذنين والأطراف، كجذمور صغير، وفي نهاية الشهر الثالث يمتد طوله ١٠ سم، ويصبح وزنه ٥٥ غم، معنى ذلك أن طوله يكون ٣ أضعاف طوله قبل شهر من هذا، فيتضاعف وزنه إلى ٥ أضعاف، ثم لا يلبث ذلك الفتق أن يزول فترجع الأحشاء مع الكبد إلى الداخل، فيتكون موضوع السرة، وفي نهاية الشهر الرابع يصبح طوله ٢٠ سم، ووزنه ١٧٠ غم، ومعنى ذلك أنه تضاعف في خلال شهرين ٧ مرات، وتضاعف وزنه ١٧ مرة، ويتشكل الجهاز الهضمي وتبدأ الكبد بالعمل، ولكن الجنين في هذا يبدو أحمر اللون أصلع، كما يبدو بشع المنظر متجعد الجلد إلا أنّ ذلك سرعان ما يختفي، وفي نهاية الشهر الخامس يصبح طوله ٣٠ سم ووزنه ٦٥٠ غم، كما يظهر شعر الرأس وتبدأ غدد الجلد في العمل، وتبدو عليه معالم الجمال، ولكن تكون أجفانه لا تزال مطبقة، يلتصق بعضها ببعض، وليست له أظافر، وجلده لا يزال أحمر، ولا تزال تجعداته ظاهره، وخصيتاه في ظهره، ولكن ما إن يصل إلى الشهر الثامن حتى يكون طوله ٤٥ سم، ووزنه ٢٥٠٠ غم، وتنفصل أجفانه ويخفى شحمه تحت جلده التجعدات، ويصبح لونه أبيض ورديًا جميلًا، وتنتقل خصيتاه من ظهره إلى الصفن، وفي نهاية الشهر التاسع يكون طوله ٥٠ سم، أي تضاعف ما يقرب من ١٧ مرة، ويصبح وزنه ٣٢٥٠ غم، أي تضاعف ٣٢٥ مرة، وتصبح أجهزته كاملة، إذ تم تخلقه، فأصبح لا ينقصه شيء، فكيف تم هذا وهو في أعماق تلك الظلمات حيث لا تبصره عين، ولا تلمسه يد؟ إنما هو تدبير عزيز حكيم، لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه أمر.

ويصبح قد آن له الأوان أن يغادر ضيق الرحم وظلماته، إلى فضاء الأرض، وما يشرق عليها من أضواء نيرات، وبهذا يخرج من عالم الغيب إلى

عالم الشهادة ليواجه الحياة بحلوها ومرها، ولينوء بتكاليفها، ويخوض معاركها، ويشتار شهدها وعلقمها، ويغدو وزن قلبه ٢٠ غم، ووزن رئته ٣٠ غم، ووزن كليته ١٢ غم، ووزن دماغه ٣٥٠ غرامًا، ووزن كبده ١٢٥ غم، ووزن الدرق والمعثكلة ٣ غم، ووزن نخامة ملكة الغدد ٠,٥ غم، وتكون المشيمة ٥٠٠ غم لأنها تشكل جميع أعضائه وأجهزته العاملة، فهي تغذيه وتحميه، وتهيئ له كل ما يحتاجه لنموه واستقراره واتزانه كالأم الحانية الرؤوم.

وفي هذه الحالة يتأرجح متعلقًا بالحبل السري ـ وطوله ٥٠ سم ـ لاعبًا مسرورًا، يخبط برجليه ويديه جدار الرحم، منتظرًا ساعة خروجه، وهذا الحبل يحوي مواسير الدم الذي يتدفق إليه من المشيمة، إذ فيه وريد ضخم وشريانان يقومان بإيصال الدم ورجعه، وإذا كان هذا الحبل من الأهمية بمكان، وهو مقدر تقديرًا، إذ لو كان أقصر لأدى إلى شدة الضغط على المشيمة حتى تنفك، وتكون حياة الجنين عرضة للخطر لعدم اكتفائه بالدم الذي يروى به، ولو كان أطول لأدى إلى انسداده والتفافه على عنق الجنين، فيترتب عليه ما يشبه الشنق، وذلك يؤدي إلى قطع ورود الدم إلى الدماغ ثم إلى الهلاك.

وما أعجب حال الرحم الذي يتسع لذلك كله، فوضع رحم الفتاة العذراء لا يتعدى ٣,٢ سم، ولكنه يتضاعف في أواخر الحمل إلى ألفين وخمسمائة ضعف تقريبًا، وقد يكون أكثر من ذلك في بعض الحالات، فكيف يكون هذا التمطط بهذه الكيفية، وإلى هذا المقدار؟! ولكن بعد وضع الحمل لا يلبث أن يعود إلى ما كان عليه، فمن أين جاءته هذه الزيادة؟! تلك هي من أسرار الخلق، التي عميت عين الطب عن اكتشافها، وخرست لسانه عن بيانها.

ولولا أنّ الحمل من الأمور التي اعتادها الناس بتكرره المستمر لكان من أكثر الأمور التي تدهش الألباب، وتحير البصائر، فكم يحدث للمرأة من انقلاب في جسمها بسبب حملها، وكم يطرأ عليها تغيير في أحوالها، ثم يعود

كل شـــيء إلى طبيعته، علـــى أن الانقلاب الـــذي يحصل لها أثنـــاء حملها ووضعها يشمل جميع أجهزة البدن من أجل سلامة واستقرار الجنين، ثم من أجل خروجه ســـالمًا بعد اســـتقراره آمنًا بين تلك الظلمات، فتســـتعد لهذا الحدث الأعصـــاب والغـــدد والأخلاط والعضـــلات والمفاصـــل والعظام، فمفاصل الحوض تتلقى الأوامر الهرمونية لترتخي، وتهيئ الطريق ولا تضايق المرور، وذلك عن طريق هرمون الرولاكسين الذي يقوم بهذه العملية خاصة، ومع ما تقوم بـــه خلايا المشـــيمة الأمامية من امتصاصها للـــدم تؤدي مهمة أخرى، وهي إفراز هرمونات تعين على اســـتقرار الجنين تسمى بالبرولونات (أ) و(ب) A. B بالإضافـــة إلى الجريبين واللوتئين، وهـــذه الهرمونات ذات صلة بالنخامـــة تطمئنها في كل لحظة بصحة الجنيـــن ونموه، وتقدمه ونموه الخلوي والجهازي والعضوي على وجه العموم، وعندما تحين ساعة الصفر تتوقف هذه الهرمونات المفرزة وخاصة الجريبين دفعة واحدة تكون مفاجأة عجيبة، وهي انقطاع الهرمونـــات التي كانت تحفظ اســـتقرار الجنين داخل الرحم، كأنما هنالـــك تفاهم بين الغدد والأعضـــاء، فيتزعزع وجود الجنين، ليبدأ المخاض الشـــاق، ويكون مـــرور الجنين من الأعضاء التناســـلية إلى الخارج، وتتهيأ لذلك أسبابه، ففوهة العنق تكون مغلقة تمامًا بسدادة ليفينية، والمضيق العلوي فيه فتحـــة عظيمة قدرها في حدود ١٢ ســـم، فكيف يكون مرور الجنين من هذه الفتحة؟!.

تبدأ ملكة الغدد النشـــيطة في إرســـال أوامرها من الفص الخلفي بشكل منظم إلى عضلات الرحم، وهذا الهرمون يفرز خلايا خاصة، هذه مهمتها وفي هذا القســـم يفرز هرمون آخر مهمته المضادة لإدرار البول، وماذا عســـى أن يحصل لو حصل خطأ بســـيط، وكانت الأوامر للخلايا الثانية لا الأولى ذلك ما لم يكن قط ولا في امرأة واحدة.!! وهكذا يكون سير هذا الناموس البديع بهذه الطريقة المحكمة.

يبدأ هرمون الفص الخلفي للنخامة بإفرازاته المنظمة التي تقلص عضلات الرحم، فتدفع تقلصاته الجنين إلى الأسفل، فتبدأ آلام المخاض عند الحامل، ومع تكرر هذا الأمر ينفتح العنق إلى حد أن يتساوى مع جدران الرحم، ثم ينبثق جيب المياه فيبدأ رأس الجنين في محاولة أن يتطابق مع الفوهة التي سيمر بها، وذلك بإطباق ذقنه مع صدره والتقدم بمؤخرة رأسه فينتقل إلى أسفل، في حين ما تكون الأم غارقة في آلامها المريرة، ولكنها تنسى معاناتها عندما ترى المولود بجنبها، وترى هذه الثمرة العزيزة الغالية التي ارتقبت حصادها.

وتتجلى هنا معجزة أخرى تدل على قدرة الخالق العظيم، وذلك بما يحدث للرحم وما تركه الجنين فيه من فراغ، وما يصحب انسلاخ المشيمة من تدفق الدم الذي كان يتغذى به الجنين، وهي جميعًا من ألطاف الله تعالى، فهو الذي حفظ هذا الكائن في جميع مراحله، ولولا لطفه الغامر لكانت كل ولادة موتًا محتومًا للأم، فبحكمته تعالى يمتنع تدفق الدم السائل من أفواه تلك البرك، فما تكاد المشيمة تنزل حتى ينقبض الرحم بشكل عجيب، فيكون في شدة الحجر، حتى أن من يضع يده على بطن الوالدة يشعر أنها على كتلة قاسية، وهي أحسن دلالة على انقباض الرحم الذي يطمئن له قلب الطبيب ويثق أن الوضع على ما يرام، وأنه لا خوف على الأم التي وضعت.

ولا تكاد تتوارى هذه الآية الباهرة بوضع الجنين حتى تتجلى آية أخرى من آيات الله تعالى، فهو بحاجة إلى غذاء مستمر لتستمر حياته ويتوالى نموه، وقد تخلت عنه المشيمة التي كانت تغذيه بالطعام المهضوم، فبأي شيء يتغذى؟.

إنّ عناية الله تعالى تصحبه في هذه المرحلة الجديدة من وجوده كما صحبته من قبل، فقد هيأ الله له ما يعوضه عما كان يتغذى به، وذلك مما يدره

ثدي أمه من أطيب الغذاء، وأحسنه وأنفعه، وأنسبه لحالته، فيقوم الثدي بأداء هذه المهمة فور ولادته، بعد أن يتهيأ لذلك إبان الحمل لما يتكاثر من الغدد التي تفرز هذا الغذاء، بما يتوجه إليها من الأوامر فتتهيأ ٢٥ فصًا من الفصوص العذبة لذلك، وتتلقى غدد الثدي أوامر النخامة بالإفراز، فيكون إدرار اللبن الذي تحول بعناية الله تعالى من دم إلى لبن طيب يفيد الطفل.

وما ذلك إلا بطريقة عجيبة معجزة، فإنّ طريقة وصول المواد الدسمة وغيرها لمكونات اللبن من قبيل الإفراز العائد للخلية، ومعنى ذلك أن الخلية الغددية تمتلئ بكرات الدسم، فلا تستطيع عبور الغشاء الخلوي فتنجرف مقدمة الخلية مع كرات الدسم، ثم تعود الخلية مرة أخرى فيتجدد الغشاء الخلوي وما ذهب منها، وهكذا.

واللبن يحتوي على كافة المواد، التي يحتاجها الجسم، وتركيز المواد فيه يختلف مع تطور عمر الطفل، وهو معقم بطبيعته لا تصله الجراثيم، بالإضافة إلى أنّ أجسام المناعة تمر من خلاله، فتعطي الطفل مناعة مهمة ضد الأمراض، وذلك من دم والدته.

وكم لحليب الأم من مزايا على باقي أنواع الحليب، سواء ما كان محلوبًا من الحيوانات طريًا، أو ما كان مارًا بمرحلة التجفيف، وما هذا إلا من رحمة الله وعنايته بالطفل الناشيء الضعيف، الذي لا يملك لنفسه أن يحتال من أجل نفعها بأي شيء، فقد هيأ الله له هذا الغذاء الذي به قوام بنيته، ونماء جسمه من جسم أمه ممزوجًا بحنانها الدافق وعطفها الخالص ورحمتها الشاملة، فتشتد بذلك علاقتهما الروحية العاطفية، بجانب هذه المنفعة الجسمية التي تعود على الطفل بالقوة والنشاط والراحة والسكينة في حاضره ومستقبله[1].

---

(١) ينظر؛ جلبي: **الطب محراب الإيمان**، ٥٩/١ ـ ٨٨.

العبر والآيات في كل خطوة من مراحل الخلق:

كم هي آيات الله تعالى الدالة عليه وعلى لطفه الغامر، وحكمته البالغة، وعلمه المحيط، في كل جزئية من مراحل الخلق؛ منذ استخلاص الإنسان من التراب الذي لا يعدو أن يكون جمادًا، فليت شعري؛ كيف تهيأ لأن يكون هذا الجماد هو العنصر الأول لوجود الإنسان؟! وكيف اجتمعت العناصر الترابية في الإنسان، كل شيء منها بمقدار؟! فمن الماء الذي جعله الله العنصر الأول للحياة إلى العناصر المعدنية من الحديد والكبريت والكالسيوم، وكيف تركبت هذه المواد فالتأم بعضها ببعض؟! من أبسط ذرات الخلية إلى أعقد التركيبات الحيوية، فكيف كان لاجتماع ذرات معينة من عناصر التربة بالدقة المتناهية والتقدير المتقن هذا الأثر في إيجاد المركبات العضوية المعقدة، مع أنّ أي اختلاف ـ ولو كان بسيطًا ـ في تركيبها يؤدي إلى حصول مغايرة تامة في المركب في خواصه وصفاته.

ناهيك من ذلك الأثر العجيب لمادة الكولسترول وتنوع آثاره على رغم وحدة البناء الكيماوي بسبب تغير بعض ذرات البناء، فيفضي تارة إلى طبع جسم بخصائص الذكورة وتارة بخصائص الأنوثة، فضلًا عما يقوم به من امتصاصه الكالسيوم من الأمعاء، وترسيبه على العظام، وبناء العظام وتنميتها، إلى غير ذلك من آثاره الجمّة.

وحسبك توليد الحيوانات المنوية والنطف بتركيبها الدقيق من الخصية بحسب ما طبعت عليه من دقة متناهية في تكوين تلك الأنابيب المنوية، وكيف تتهيأ الأسباب المقدرة تقديرًا في إعداد هذا الكم الهائل من الحيوانات المنوية، وما طبعت عليه من خصائص التوريث، وما تكون عليه بادئ ذي بدئ في مكان مصون من الجسم، وهو قرب الكلية في الظهر؛ لأجل ملاءمة ذلك لتخليقها، حتى تنزل إلى الصفن لتكون أنسب مع حاجة النطف التي تحتاج من الحرارة دون ما يحتاجه عمق الجسم.

وكيف تتم استثارة حمية النطف لتنمو وتتقدم وتمر بمراحل حتى تكون متهيئة للإلقاح، في حين تلقي بعض المراكز الخلوية المندسة بين النطف رسالة لإفراز هرمون جنسي يقوم بإعطاء الخواص الجنسية للذكر ـ كما تقدم ـ فكيف يتم ذلك كله إلا بتقدير من عليم حكيم، وكيف أعطي الهرمون الجنسي المذكر تلك القوة التي تطبع الذكر بطابع الذكورة من شدة الجسم وغلظ الصوت، وانتشار بصلات الشعر في جسم الذكر دون الأنثى، مع تهيئة العضلات لادخار البروتينات حتى تشتد وتقسو، وكيف تنفتح عظام الصدر ومفاصله عند الذكر وتضيق عظام الحوض ومفاصله؟.

ومن الذي أعطى هذا الهرمون هذه القوة في التأثير على العظام والمفاصل والعضلات، وحبال الصوت وغضاريف الحنجرة؟.

وكذلك اجتياز الحيوان المنوي هذا العباب المتلاطم بالمفرزات والأخلاط والماء الكدر، فكيف تم حفظه وحسن توجيهه حتى أنَّه لم يصطدم بالجدران مع ما أوتيه من الأمان ـ لو وقع الاصطدام ـ بالقلنسوة التي تغطي رأسه لئلا يتأثر، كيف يتم هذا السباق بين هذه النطفة ـ التي قدر لها النجاح في الوصول إلى هذه الغاية من بين ذلك الجيش العرمرم من النطف التي تبلغ الملايين ـ ويمر هذا الحيوان في هذا النفق المظلم الذي يضيق تارة ويتسع أخرى حتى يصل إلى المستودع العام، وهو الحويصل المنوي لانتظار مناسبة خروج هذه النطف في موعدها المحدد، كيف تم تخزينها في هذا المستودع الآمن حتى لا تتدفق إلى الإحليل ثم القضيب؟.

وليس من الأمر اليسير وصول ذلك الحيوان بأمان إلى مقره من الرحم بين المخاطر التي تهدده، وكيف اجتمعت الأسباب المتعددة من شتى الجهات العصبية والعضوية المختلفة بحسب ما جعل الله لها من تأثير منظم دقيق، لتفضي إلى الغاية المطلوبة من حصول ذلك اللقاء الميمون الذي

يترتب عليه هذا الحدث السعيد، وهو خلق الإنسان لتستمر الحياة؟ ثم كيف تتوالى الأطوار بعد ما يتم اللقاح ليتم إعداد هذا الكائن إعدادًا متقنًا لينقلب إلى بشر سوي، يجمع الخصائص البشرية العامة التي هي في الجنس البشري كله، والخصائص الخاصة التي تختص بها أسرته لا سيما أبواه؟.

وكيف يتهيأ له الغذاء المناسب لطبيعته وهو في أعماق الرحم وراء تلك الظلمات، حيث لا تصل عين فتحرسه، ولا يد فتخدمه، وإنما هي عناية لا يمكن إلا أن تكون ممن فطر السماوات والأرض، وفي كل لحظة تمر به في أعماق تلك الظلمات تحوطه تلك العناية بما تعجز جميع الأقلام عن تسطيره، وجميع الأفهام عن تصوره، فيا ترى هل يمكن للطبيعة الميتة الجاهلة العمياء الصماء أن تقوم بهذه المهمة كلها، يا للغفلة والجهل والمكابرة، وضلال العقول، وانحراف الأفكار؟؟!.

وبعد اجتياز هذه الأطوار وملاءمة الأحوال لمغادرته ذلك القرار الضيق إلى المقر الرحب حيث يتنفس عبق الحياة، ويتمتع بمناظرها، ويشتار خيراتها، وينافس في مضمارها، يتهيأ الإعداد لخروجه من طوايا الرحم إلى زوايا الأرض بما رحبت بوسائل متقنة محكمة، لو جمعت عقول العالمين في كائن بعينه لعجزت عن تصورها، فضلًا عن إعدادها، فهل يتصور ذو نهية أن يتم هذا كله مصادفة من غير تدبير ممن يعلم السر في السماوات والأرض، فكيف تواءمت الأحوال، وترتبت الأسباب، فأخذ بعضها بحجزة بعض في جميع المراحل، قبل اللقاح وبعده، ولم يكن بينها نشاز ولا اضطراب، حتى أدت إلى هذه الغاية؟! وكيف تهيأ لهذا الغائر في أعماق الرحم أن يغادر ذلك الغور السحيق، ويجد السبيل للخروج منه عبر مضيق لم يكن من المتصور اجتياز مثله له، وقد يسره الله له، فكيف تم ذلك كله لولا تدبير من قاهر حكيم، لا يعجزه شيء؟!.

ولا يكاد يصل إلى فضاء الأرض، ويلامس مهادها ويستنشق هواءها حتى يجد المناخ الملائم والظروف المواتية، والـرزق المدرار، بدءًا مما يدره ثدي أمه من أطيب الغذاء وأنفعه وأنسـبه لطبعه إلى ما يأتيـه من بعد من ضروب الطيبات التي ينمو بها جسمه، ويقوى بها ضعفه وتتفتح به مداركه مع مروره بمراحل من الضعف لا يملك فيها أن يجر لنفسـه منفعـة، ولا أن يدفع عنها ضررًا، بل لا يتصور فيها شيئًا مما يحيط به، وإنما عناية الله تعالى تصحبه في جميع هذه الأوقات، أويجدر به بعد هذا كله أن يجحد ربه الذي خلقه، وبسط له من رزقه، مع أنه لا يسـتغني في أقـل من لحظة عن أي شـيء من عنايته الواسعة، ورعايته الغامرة، وآلائه المتواترة؟!. ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٣٢].

فليت شعري؛ لو أمسك الله شـيئًا من هذا الخير المدرار، من الذي كان يرسـله إليه، فلو طبع الله هذا الجو الذي يحيط به على غير ما هو عليه، فلم يوجد فيه عنصر الأكسـجين، كيف يمكنه العيش في الجـو الخانق الضيق؟ وكيف يمكنه أن يردد أنفاسـه ويطلقها؟ ولو أمسك الله قطر سمائه فأصبحت الأرض قفرًا يبابًا، أي يد يمكنها أن تطلق ما أمسـكه، وأن تبسط ما قبضه؟! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملـك: ٣٠]. ولـو جعل الله كل قطرة ماء سواء ما ينزل من السماء أو يتفجر من الأرض ملحًا أجاجًا، من الذي كان بإمكانه أن يجعله عذبًا فراتًا؟!. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

ولو أمسـك الله نبات أرضه، وقبض خزائن رزقه، كيف كان يتسـنى لهذا الإنسان أن يعيش في هذه الحياة، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝

لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧]، فمن الذي جعل في الماء النازل من السماء خاصية الإنبات عندما يلامس الأرض، وجعل في طبيعة الأرض خاصية تتناسب مع طبيعة الماء ليتم الإنبات باجتماع هاتين الخاصيتين، فتنمو الزروع، وتبسق الأشجار، وتؤتي ـ بعناية الله تعالى ـ ثمارها، فمن الذي أوجد هذه الأسباب كلها ورتبها ترتيبًا، وواءم بينها فتجاوبت حتى انتهت إلى هذه الغاية المحمودة؟!.

وكم من سبب ينسجم مع سائر الأسباب فتنتظم مترتبة كما تنتظم حبات الجمان في عقدها؛ لتؤدي إلى نشوء السحاب وانهمار الغيث منه، وهي حلقات متسلسلة من وجود البحار والأنهار وتبخر المياه منها بوهج الشمس والتفاعلات التي تحدث عندما يلتقي هذا البخار بطبقات الجو ببردها ووهجها، حتى يفيض السحاب بهذا القطر المدرار، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠].

وحسبنا ما جعل الله تعالى في طبائع الرياح من تلقيح السحاب، ليفيض ودقه في هذه الأرض، ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وكم لله تعالى من يد يغمرنا بسطها بما نشتاره من نعمة الماء في الأرض، وإسكانه فيها، وما جعله الله تعالى في طبيعة الأرض من قدرة على حفظ هذه النعمة، حتى لا تغور في أعماقها، فلا نجد سبيلًا إليها، ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨ ـ ١٩]، فلو شاء الله تعالى لجفف ينابيع الماء، فتحولت الجنان

الغلب إلى قفار قاحلة، سواء كان ذلك بتصدع الأرض، وغور المياه إلى حيث يتعذر أن تمتد إليها أيدي البشر، أو بقوة الحرارة إلى حد أن تبخر آخر قطرة ماء في سطح الأرض أو في أعماقها، ولكن الله حفظ للعباد أرزاقهم لأنه الكفيل بحفظها.

أولا تكفي هذه العبر لرد الملحدين عن إيغالهم في الضلال، وإغراقهم في العناد، ومكابرتهم الحس والعقل، وتكذيبهم نداء الفطرة الذي يجلجل من أعماق نفوسهم، وتتجاوب معه كل ذرة في الكون، سمائه وأرضه، ظاهره وباطنه، معلنة جميعًا أن الوجود كله ما هو إلا أثر لواجب الوجود لذاته، الذي لا يحد وجوده ببداية ولا نهاية، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

أولم تفكر أيها الإنسان في بداية نشأتك، وكيف بدأت من نطفة مهينة، وانتهت إلى بشر سوي؟ أوتي من الملكات ما يدهش جميع العقول، وهيئ له من الأسباب المتفاعلة لأجل مصالحه ما لا تتصوره الألباب، فهل كان ذلك بقدرتك وعلمك وتقديرك؟ وكيف أمكنك في حال مواتك أن تحيا؟ وبأي قوة طورت نفسك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، وأنت في أعماق الرحم وموحشات الظلمات، لا يسمع لك صوت إن استجرت فتجار، ولا تلحظك عين فتتبين على أي حالة أنت من السراء أو الضراء، ولا تمتد إليك يد فتنتشلك من أي ضياع؟! أفتصدق ما أوحاه إليك شيطانك، وما أزجاه إليك قرناء السوء دعاة الفساد والضلال؛ مما زينوه لعقلك التائه الشارد من أنّ هذا كله كان بفعل الطبيعة!! وأنه لا إله لك فتعبده، ولا معاد لك فتخشاه، أولم تبق لك ذبالة تشع من نور عقل تهديك إلى رشدك، وتبصرك بحال نفسك، وتسمعك صوت فطرتك، فتهتدي إلى مصلحتك، فتأنس بالحق بعدما أوحشتك ضلالتك، وأنستك ربك الذي خلقك؟!.

يا أيها الإنسان؛ أولم تشهد الدلائل والعبر، وتستوقفك البشائر والنذر، فكيف تمضي في سبيل غيك غير لاوٍ على شيء من ذلك، ولا مفكر في بدئك ومآلك؟؟!.

أولا تبصر يد الله تعالى تنشر وتطوي، وقدره ينفذ في كل شيء فيوجد ويعدم، ويرفع ويخفض ويبسط ويقبض، فكيف تجيب عن هذا كله عندما تسأل عنه، حين تنشر بعد أن تطوى؟؟!.

يا أيها الإنسان أما آن لك أن تفيق بعد هذا النوم العميق، وتنتبه بعد هذه الغفلة المردية، وتعود إلى ربك الذي خلقك في أحسن تقويم، وأسبغ عليك من النعم ما لو كانت جزيئات جسمك وذرات جميع الكون من حولك ألسنة ناطقة لعجزت عن إحصائها، وشرح قدر أقل نعمة منها؟.

المبحث الثاني

في الآيات التي يسطع نورها من طبيعة الإنسان

كم في خلق الإنسان من عجائب لا يحصيها العد، ولا يتصورها الذهن، يقف العقل أمامها حائرًا لا يبدئ ولا يعيد، وهو كما قلنا متحف رباني يتنقل العقل في زواياه، ليجد في كل زاوية كتابًا منشورًا، تتلى فيه آيات الله سبحانه، فتزيد المؤمنين إيمانًا، وتزيد الملحدين عتوًا وكفورًا، ونحن نذكر في هذا المبحث قبسات يسيرة من هذا النور، الذي يشع فتعجز البصائر والأبصار عن متابعة شعاعه الوهاج واستكشاف طاقته المدهشة، لأنها لم تؤت من الطاقة ما يمكنها من تمليه وتأمله حتى تتمكن من تصور كنهه.

١ ـ عجائب آيات الله فيما جعل في الإنسان من النمو والنطق والحركة والغذاء والنوم:

طبع الله تعالى الإنسان بطابع التكيف في هذه الحياة وفق مقتضياتها، وما يتطلبه وضعه فيها، ليشق طريقه إلى الأمام، حتى يجتاز مرحلة البقاء فيها، وفي كل خطوة يخطوها تتجلى آيات الله العظمى، التي تدهش الإنسان بعظمة الخالق العظيم، وعجيب صنعه، وواسع حكمته، وإذا كان في كل خطوة يخطوها ـ عندما كان جنينًا في أغوار الرحم ـ من آيات الله تعالى ما لو كان الوجود دواوين لضاقت عن شرحها، فإنّ اجتيازه قنطرة هذه الحياة إلى مصيره الأبدي فيه من الآيات ما لا يقل عن تلك الآيات التي صاحبت أطوار نشأته

عندما كان جنينًا، وحسبك من ذلك نمو جسمه المطرد، وتصاعد ملكاته وطاقاته، فبأي قدرة يتم ذلك، وبأي إرادة يتكيف، وبأي خطة يتحقق؟؟!.

من الذي يرسم خطة ذلك، ومن الذي يبدعه حتى يكون سنة معهودة في حياته، فقد خلق الله الإنسان ضعيفًا لا يقوى على شيء، بل هو أضعف مما يكون عليه الحيوان، فإنّ الحيوان عندما يولد يكون أسرع نموًا، وأسرع تدرجًا في مراتب القوة، والإنسان يبقى في ضعفه وافتقاره إلى رعاية أمه أو من يربيه برهة من الوقت، لأنه عاجز عن التصرف بنفسه، ولكنه يتحول من هذا الضعف إلى قوة تشترك فيها طاقاته العقلية والعاطفية والحسية بجانب قواه البدنية، ولو وقف الإنسان قليلًا وفكر في قوة بصره وما يعتمل في عينه من آلات ظاهرة وباطنة، من أجل التقاط الصور ونقلها إلى الدماغ، والتمييز بينها لرأى من ذلك أمرًا عجبًا، ومثل ذلك حاسة السمع والذوق واللمس، فكل منها تحار العقول، وتنقطع الألسنة، وينضب البيان دون الوصول إلى شرح شيء منها، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وأما النطق؛ فهو البحر الزاخر بالعجائب، فمن الذي علّم الإنسان هذا البيان المتدفق ببديع المباني، التي تفيض بزاخر المعاني، الآخذة بمجامع الألباب، فيستمد بذلك الإنسان فنون المعارف وينشرها، ويقيم علاقاته ببني جنسه، وينظم شؤون حياته، ويترجم به ما في أعماق نفسه، فيفضي به إلى غيره، ويتصور ما يلقيه الغير إليه فيدرك غايته ومبتغاه؟!.

و«تمثل اللغة فرقًا جوهريًا بين الإنسان وغيره من الكائنات، فهي تضع داخل المخ مقابلًا للوجود، فتمكن الإنسان من أن يكون له تأريخ، وأن يعيش الحاضر، وأن يخطط للمستقبل، كما تعتبر اللغة وسيلة أساسية للتفكير، خصوصًا فيما يتعلق بالمفاهيم المجردة، ذلك بالإضافة ـ طبعًا ـ إلى دورها

كأهم وسائل الاتصال، ومن ثَمَّ فإنّ تخلف لغة أمة ما عن مواكبة العصر يؤدي إلى تخلف مواز في الفكر والحضارة.

وينبغي أنّ نميز بين مفهوم التواصل بصفة عامة وبين اللغة بصفة خاصة، إنّ التواصل هو نقل المعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات أو السلوك، وتستطيع الحيوانات التواصل مع أفراد جنسها، بوسائل مختلفة كرقصات النحل، وروائح الحيوانات وغيرها... أما اللغة فهي مهارة أو فعل أو القدرة على التعبير عن الأفكار والمشاعر والمدركات، وكذلك التواصل مع الآخرين عن طريق نطق أو كتابة الكلمات، أو عن طريق الإشارات»[1].

ولأجل هذه الأهمية للغة في المجتمعات البشرية أصبحت لكل مجتمع لغته التي هيأها الله ﷻ له، فتعددت اللغات، وقد جعل الله تعالى ذلك من آياته في الخلق كتعدد الألوان، إذ قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، على أنّ كل فئة من البشر يمكنها أن لا تنحصر في لغتها، فقد يسر الله للإنسان في أي مجتمع، ومن أي جنس كان أن يتعلم لغات المجتمعات الأخرى، ليتيسر له الاتصال بهذه المجتمعات، وليتم تبادل المصالح فيما بينه وبينها.

وقد تهيأت له الأسباب وتيسرت من غير عناء للقيام بهذه المهمة، فهو يتبادل أنواع الحديث، ويتجاذب أطراف القول في جميع أحواله، في سرائه وضرائه، وفرحه وحزنه، ورضاه وغضبه، من غير أن يفكر في آلات النطق التي سخرت له، فصارت تتفاعل من غير أن يلقي إليها بالًا.

وكل أحد يعبر بلسانه عما في قرارة نفسه من غير تعقيد ولا مشكلة، مع أنّ عملية النطق ليست بالأمر السهل، فهي عملية تشترك فيها جهات شتى،

---

(١) د. عمرو شريف: **خرافة الإلحاد**، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

وتتفاعل بانتظام، إذ هي مصحوبة بمشاعر ظاهرة وباطنة، توحيها دوافع النطق، ويستلهم البيان من المركز العصبي دائرة التفكير ومصدر الإلهام، وهو الذي يوحي إلى آلات النطق العضوية أن تتفاعل بسرعة فائقة، وفي نظام رتيب، حتى تمر خلالها الأحرف منتظمة في كلماتها، والكلمات منتظمة في جملها، بحسب المعاني التي تؤديها، وتكون بأصوات منخفضة تارة، ومرتفعة أخرى، بحسب رغبة المتكلم، وبأنغام مختلفة، وأحوال متباينة من الشدة واللين، والهمس والجهر، والامتداد والانقطاع، ولكل من ذلك أثر في تصوير المعاني التي يوحيها البيان، ويصورها في النفوس حسبما تتلقاه الأسماع.

وفي هذه العملية تشترك الرئتان والشعب والقصبة الهوائية والحنجرة والحلق واللهاة واللسان والحنك والأسنان والشفتان، فما أعقد النطق في حقيقته، وما أيسر أداءه عندما يحتاج الإنسان إليه، فلا يخطر بباله ما تمر به هذه العملية من مراحل، وما يستوجبه أداؤها من تفاعل بين جهات شتى، وما يشترك فيها من آلات عضوية ومراكز فكرية، وطاقات ذهنية، وترى الخطيب أو المحاور يتدفق بيانهما ـ بحسب رغبتهما من غير انقطاع ولا تعقد ـ بأداء يلذ للأسماع، ويؤنس النفوس، ويسوغ للأفكار، فمن أين جاء هذا البيان، وبأي وسيلة تيسر للإنسان، ومن أي مصدر تلقاه، ومن الذي علّمه إياه؟؟!.

لا يشك عاقل أنّ ذلك كله من عند الله ﷻ، وحسبك من هذا امتنانه تعالى على الإنسان بهذه النعمة نعمة البيان، كما في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، فقد عَلِم الله تعالى حاجة الإنسان إلى البيان، لأنه كائن اجتماعي، ولا يمكن أن تقضى مآربه بمجرد إشارات أو أصوات عشوائية، فلذلك علمه البيان من بداية خلقه كما تؤذن به هذه الآيات، وهو نص صريح في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ

لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣]، فقد علّم الإنسان البيان منذ وجوده في هذه الحياة، إذ علمه أبا البشر وأصل الجنس الإنساني، وهو آدم عليه السلام، فأوحى إليه بأسماء الكائنات ليستطيع التمييز بين أنواعها، والاستفادة منها، كيف وهي قد سخرت له جميعًا، فكل بني جنسه هم بحاجة إلى أن يتعاملوا معها، وهم مع ذلك بحاجة إلى أن يتعاونوا فيما بينهم في قضاء مآربهم منها، فمن الضرورة بالنسبة إليهم التمييز بينها، وهم في ذلك يختلفون عن الملائكة فبهذا ظهرت ميزة الإنسان الذي استخلف في الأرض، وسخرت له منافعها ومنافع الكون كله، وبنجاحه في هذا الاختبار ظهرت حكمة الله تعالى للملائكة في اختيار هذا الجنس للخلافة في الأرض، وترتب على ذلك من تأكيد الأمر الذي خوطبوا به من أول إيذانهم بأنّ الله سيستخلف هذا الإنسان في هذه الأرض، وهو أن يسجدوا له اعترافًا بفضله، وإذعانا لأمره سبحانه.

وفيما قاله السلف في تفصيل هذه الآيات التنصيص على أنه تعالى علمه أسماء جميع الكائنات، كما ذكره الطبري عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

«وتعليم الله تعالى آدم الأسماء إما بطريقة التلقين بعرض المسمى عليه فإذا أراه لقن اسمه بصوت مخلوق يسمعه فيعلم أنّ ذلك اللفظ دال على تلك الذات بعلم ضروري، أو يكون التعليم بإلقاء علم ضروري في نفس آدم بحيث يخطر في ذهنه اسم شيء عند ما يعرض عليه فيضع له اسمًا بأن ألهمه وضع الأسماء للأشياء ليمكنه أن يفيدها غيره وذلك بأن خلق قوة النطق فيه وجعله قادرًا على وضع اللغة كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣ ـ ٤]، وجميع ذلك تعليم إذ التعليم مصدر علّمه إذا جعله ذا علم مثل أدّبه فلا ينحصر في التلقين وإن تبادر فيه عرفًا. وأيًا ما كانت كيفية

التعليم فقد كان سببًا لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما في الضمير. وكان ذلك أيضًا سببًا لتفاضل أفراد الإنسان بعضهم على بعض بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم وهو مبدأ العلوم، فالإنسان لما خلق ناطقًا معبرًا عما في ضميره فقد خلق مدركًا أي عالمًا وقد خلق معلمًا.

وهذا أصل نشأة العلوم والقوانين وتفاريعها لأنك إذا نظرت إلى المعارف كلها وجدتها وضع أسماء لمسميات وتعريف معاني تلك الأسماء وتحديدها لتسهيل إيصال ما يحصل في الذهن إلى ذهن الغير. وكلا الأمرين قد حرمه بقية أنواع الحيوان، فلذلك لم تتفاضل أفراده إلا تفاضلًا ضعيفًا بحسن الصورة أو قوة المنفعة أو قلة العجمة بله بقية الأجناس كالنبات والمعدن.

وبهذا تعلم أنّ العبرة في تعليم الله تعالى آدم الأسماء حاصلة سواء كان الذي علمه إياه أسماء الموجودات يومئذ أو أسماء كل ما سيوجد، وسواء كان ذلك بلغة واحدة هي التي ابتدأ بها نطق البشر منذ ذلك التعليم أم كان بجميع اللغات التي ستنطق بها ذرياته من الأمم، وسواء كانت الأسماء أسماء الذوات فقط أو أسماء المعاني والصفات، وسواء كان المراد من الأسماء الألفاظ الدالة على المعاني أو كل دال على شيء لفظًا كان أو غيره من خصائص الأشياء وصفاتها وأفعالها»[1].

ومهما يكن من اختلاف علماء الأمة في هذا التعليم الذي كان لآدم أبي البشر من قبل الله تعالى، فإنه دليل قاطع على أنّ الإنسان منذ وجد على هذه الأرض، كان متميزًا بالبيان وقدرته على أدائه، وملكته في فهمه عندما يأتيه من غيره، فهو من بداية عهده بالحياة كائن ناطق لم يكن بحاجة في وقت من الأوقات إلى استخدام وسيلة أخرى للتعبير أو تبادل المصالح المشتركة مع بني جنسه.

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، سورة البقرة (الآية ٣١)، ٣٩٦/١.

وإذا كانت الحيوانات لها وسائلها الخاصة في التفاهم فيما بينها كالنحل والنمل، وسائر الطير والدواب، فإنّ البيان هو أعظم وسيلة لتفاهم الجنس البشري، وهو أنجح من تلك الوسائل جميعًا، على أنّ البيان له تأثير نفسي في قائله وسامعه، فكم من إنسان ثبته في المواقف الحرجة التي تتزعزع فيها الأقدام، وتتزلزل فيها الأركان قول سمعه أو قاله، أو وجده مأثورًا عمن قبله، وكم لبلاغة القول وفصاحة التعبير من تأثير على مواقف الناس، حتى ينقلبوا من النقيض إلى النقيض، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ بالسحر عندما قال: «**إن من البيان لسحرًا**»[1]، وجاء بلفظ: «**إن من البيان لسحرًا وإن من الشعر لحكمًا**»[2]، وبهذا يتبين ثبوت ما قيل من أن التفنن في بلاغة القول بما يتلاءم مع عمق التأثير على السامعين أو القارئين له صلة بعلم النفس.

---

(١) رواه الربيع من حديث ابن عمر؛ **الجامع الصحيح**، باب (٥) في طلب العلم لغير الله ﷻ وعلماء السوء، (رقم: ٣٧، ص ١٦).

(٢) روي من حديث ابن عباس: أخرجه الطيالسي؛ **مسند أبي داود الطيالسي**، (رقم: ٢٦٧٠، ص ٣٤٨)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٢٧٦١، ٢٢٨/٣)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٤٠) الأدب، باب (٨٧) ما جاء في الشعر، (رقم: ٥٠١١، ص ١٥٩٠)، والطبراني؛ **المعجم الكبير**، (٧٧٣) عبد الله بن عباس، (رقم: ١١٧٥٨، مج (٦) ٢٠١/١١)، وأخرجه أيضًا: أبو يعلى؛ **مسند أبي يعلى**، (رقم: ٢٣٣٢، ٢٢٠/٤)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٤٤) الحظر والإباحة، باب (١٦) الشعر والسجع، (رقم: ٥٧٨٠، ٩٦/١٣).

ومن حديث أبي هريرة: أخرجه الخطيب البغدادي؛ **تاريخ بغداد**، ترجمة: عبيدالله بن سهل المدائني، (رقم الترجمة: ٥٤٩٢)، (٣٤٩/١٠).

ومن حديث أبي بكرة: أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد، (الهيثمي: **مجمع الزوائد**، ١١٦/٨)، وأخرجه أيضًا: في الأوسط؛ **المعجم الأوسط**، باب من اسمه محمد، (رقم: ٧٦٧١، ٣٩١/٧).

ومن حديث علي: أخرجه ابن عساكر؛ **تاريخ دمشق**، ترجمة: صعصعة بن صوحان بن حجر، (رقم الترجمة: ٢٨٨٠)، (٨٢/٢٤)، والقضاعي؛ **مسند الشهاب**، (رقم: ٩٦١، ٩٨/٢)، والضياء المقدسي؛ **الأحاديث المختارة**، (رقم: ٤٩٣، ١٢٠/٢).

وإذا كان كل جنس من الحيوان له وسائله الخاصة في التواصل مع بني جنسه تتلقاها الأخلاف منها عن الأسلاف، فإنّ الجنس البشري ورث البيان كابرًا عن كابر منذ عهد الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وقد كانت معرفته بأجناس الأشياء وأسمائها وما يتبع ذلك من معرفة خصائصها سببًا لتفضيله على الملأ الأعلى حتى أمر الله سبحانه ملائكته بالسجود له اعترافًا بهذه الميزة التي فضلته.

وإذا كانت هذه الميزة أوصلت الإنسان إلى ذلك القدر العالي، بحيث فضّل على الملأ الأعلى ـ باعتبار بعض الجوانب منها، وهي المعرفة الدقيقة بأسماء الأجناس ـ فلا ريب أنّ هذه من خصوصيات الإنسان، لا يمكن أن يزاحمه فيها مزاحم، مما يشاركه الحياة والبقاء في هذه الأرض، ولذلك تتعذر المقارنة بين الجنس البشري وبين أجناس الحيوانات الأخرى، وإن اشتركت في بعض الخصائص المتعلقة بحياتها، وفي هذا يقول د. عمرو شريف: «وقد ثبت دجل كل الادعاءات بتعلم بعض الحيوانات مهارات تحتاج للتواصل اللغوي مع الإنسان، وهي الادعاءات التي استغلها الدراونة لترويج أن الفوارق بين ذكاء الإنسان وغيره من الكائنات فوارق كمية، يمكن التقليل منها بالتدريب.

وإذا كان للشمبانزي (وغيره من الكائنات) آلياته للتواصل، ومنها إصدار الأصوات التي قد تتشابه مع الأصوات التي يصدرها أطفالنا من صراخ وضحك ومناغاة، فإنّ استعمال القردة للرموز الصوتية يختلف عن اللغة الإنسانية في عدة تباينات نوعية جوهرية:

• اللغة الإنسانية ليست أداة للتواصل وحسب، بل هي أيضًا أداة للتفكير، ففي أغلب المواقف يفكر الإنسان باستخدام اللغة، كذلك تستخدم اللغة الإنسانية آليات الفهم بثراء مذهل.

• تتميز لغات الإنسان بثراء شديد في المفردات، وكلماتها عبارة عن رموز عقلية تجريدية؛ فكلمة طعام مثلًا لا علاقة لرسمها أو نطقها بالطعام؛ أما القرد إذا أراد أن يعبر عن الطعام حرك فمه بصوت كأنه يأكل، كما أن رموزه الصوتية قليلة جدًا، ولا يجمع أكثر من رمزين سويًا.

• رموز الحيوانات مجرد منعكسات استثارية تدل على الأشياء أو أحداث حقيقية حاضرة ليس للخيال فيها نصيب، أما الإنسان فلغته قادرة على التعبير عن الماضي والمستقبل أو عن معنى افتراضي تخيلي.

• الرموز (الكلمات) التي يستخدمها الإنسان تحكمها قواعد، ويعتبر معظم اللغويين هذه السمة أهم مميزات اللغات الإنسانية.

• تستخدم اللغة الإنسانية المجاز والاستعارة والتشبيه بشكل شديد التركيب، أما مجاز الحيوانات فهو بدائي وبديهي، كأن يشير القرد الذكر إلى عضوه التناسلي أمام ذكر آخر قاصدًا إهانته.

• تتفرد لغات الإنسان بوجود كلمات وظيفية (function words) لا قيمة لها خارج الجملة، مثل (ثم) و(عندما) و(And) و(If).

• يمكن إدراك اللغة الإنسانية بثلاث حواس (السمع ـ البصر ـ اللمس) أما الببغاء ـ مثلًا ـ إذا فقد صوته فقد لغته.

من كل ذلك تثبت استحالة أن تكون اللغات الإنسانية تطورًا عشوائيًا لأي من وسائل التواصل بين الرئيسيات، بل إنها ظاهرة جديدة تمامًا ظهرت عند الإنسان.

نعم؛ لقد كانت انفجارًا لغويًا أعظم، لا نجد له تفسيرًا مقبولًا إلا القول بالتصميم الذكي»[1].

---

(١) د. عمرو شريف: خرافة الإلحاد، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

وإذا كانت هذه المواهب الفطرية التي اختص بها الإنسان، فتميز بها عن سائر الكائنات هي هبات من عند الله تعالى الذي خلق فسوى، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فلا ريب أنّ المسلم الذي آمن بالقرآن الذي أنزله الله؛ يأبى أن يتقبل ما يلقى إليه من النظريات المخالفة لهدي القرآن، فحسبه أن يؤمن بفاتحة سورة الرحمن وبقصة آدم المذكورة في سورة البقرة، ليحل هذا اللغز، وليتبين الحقيقة الغامضة في هذا الأمر، وبهذا يتبين أن الذين وقعوا تحت تأثير نظرية النشوء والتطور التي جاء بها داروين في تفسير البيان الذي علمه الإنسان تفسيرًا ينسجم مع مقتضيات هذه النظرية قد جانبهم الصواب، ولم يصيبوا من الحق هدفًا، ناهيك أن يتعاموا عما نادى به القرآن من تعليم الله تعالى الإنسان للبيان مع التنصيص على أنّ ذلك كان لأول إنسان، وهو آدم أبو البشر عليه السلام، وأنه بذلك ظهرت ميزته وتعينت فضيلته، فأمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود له، فيدعوا هذا البيان الإلهي ويتيهوا بين نظريات زائغة، كيف كانت بداية تكلم الإنسان ومعرفته باللغات؛ حتى يصل بهم الذهول عن الحقيقة إلى الدعوى بأنه: «بدأ الإنسان التواصل مع الآخرين عن طريق الإشارة باليد والوجه، وقد يصحبها إصدار بعض الأصوات، ثم تلت ذلك مرحلة الكلام التي تتطلب ـ إلى جانب مراكز المخ ـ موقعًا معينًا للحنجرة يتمثل في انخفاض مستواها في العنق، مما يسمح بفراغ كافٍ أعلى منها لنطق مختلف حروف اللغة، وقد توصل الباحثون ـ فيما زعموا ـ إلى أنّ هذا الموضع المنخفض للحنجرة موجود في الإنسان الحديث فقط، ولم يكن موجودًا في الإنسان السابق عليه (إنسان نياندرتال)، مما يعني أنّ المقدرة على إخراج الكلام لم يكتمل تشكلها إلا بظهور الإنسان الحديث»[1] إلى غير ذلك مما جاءوا به، مما لم يقم عليه شاهد من الخلق، ولا دليل من العلم، ولا بيان من الوحي.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٩.

وقد علمت ما نص عليه القرآن، من أنّ الله سبحانه الذي خلق الإنسان هو الذي علمه البيان، وكان ذلك لأول إنسان وهو آدم عليه السلام، فلا مجال لمن آمن بهذا حق الإيمان أن يتردد في البحث عن حل هـذا اللغز، إذ لم يبق لغزًا مع حله بنص القرآن، الهادي إلى التي هي أقوم، وإنما العجب مع هذا ممن يؤثر الهيام في المتاهـات المظلمة، بدلًا من أن يتبع هـذا النور الهادي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم؟!.

هذا؛ وإذا تبين لك أنّ قدرة الإنسـان على البيان ـ وإن استهان بها ـ هي ملكة جاءته من عند من خلقه فسواه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؛ لم يبق في نفسك أي ريب أنّ هذه الموهبة هي من أعظم آيات الله البينات الدالة على انفراده بالخلق والتقدير، ولذلك ذكره الله تعالى في سلسـلة آياته الدالة عليه، كما في سـورة الروم، وهي من أكبر الحجج وأظهر البراهين الدالة على الله، وعلى بطلان ما يزعمه الذين عموا عن هذا النور وتصاموا عن هذه الحجج، فآثروا الإلحاد على الإيمان، وادعوا أن هذه الملكات كأصل خلق الإنسان هي منح من الطبيعة!!.

وليت شـعري؛ كيف يمكن أن تكـون الطبيعة البكماء الصمـاء العمياء الغافلة الجهـول الميتة هي التي علمت الإنسـان هذا البيـان، وأفاضته عليه وساقته إليه من حيث لا يعلم، ويسرت له أسبابه المعقدة المستعصية، وهيأتها له في هذا النظام الرتيب العجيب؟؟!.

أيستساغ هذا في العقول أم هي المكابرة والمعاندة، والجهل والتجاهل، وإنكار البدهيات، ومعاندة الحس والفطرة؟!.

أترى أخي القارئ الكريم؛ أنّ من ذهب هذا المذهب بقيت في نفسه بقية من عقل، أو صبابة من فكر أو روية؛ أيتقبـل أن تكون الطبيعة الميتة الخائرة الحائرة هي التي فعلت ذلـك كله، ويرفض أن يكـون رب العالمين ـ الذي

تشهد كل ذرة في الوجود بوجوده، وتسبح بحمده، وتقدسه في جلاله وكماله، الذي يعلم السر في السماوات والأرض، ويرى ما غمرته البحار في أعماقها، وما اشتملت عليه الأطواد في أوعارها، وما انطوت عليه السماوات والأرض في طبقاتها، وما تخفيه الصدور وتختانه الأعين ـ هو الذي هيأ للإنسان هذا البيان وعلمه إياه وشرفه به، ويتصامم عن بيان الحق تعالى لذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]؟؟!.

وكم في حركات الإنسان الاضطرارية والاختيارية من آيات تتجلى في كل جزئية منها؟ فكم في تنفسه من آيات تضيق الدفاتر وتجف المحابر دون شرحها؟ وكيف هيأ الله ﷻ للإنسان هذا النفس ليكرر به عنصر الحياة في جسمه، فيجتلب ما ينفع ويدفع ما يضر، فهو بتنفسه يستمد الأكسجين النقي، وبزفيره يفرز ثاني أكسيد الكربون، لينعم الجسم بالحياة، وهي عملية عفوية تتم في النوم واليقظة، والذكر والغفلة، والسرور والحزن، والأمن والخوف، وقد هيأ الله ﷻ لها أسبابها، فكم هي الحلقات التي تمر بها سواء من داخل الجسم أو من خارجه؟؟ وقد يسّر الله تعالى المواءمة بين طبيعة الجسم وطبيعة المناخ والبيئة، فلا البيئة تشح بهذا العنصر النقي النافع، ولا الجسم تأبى طبيعته تقبله، فمن أين تهيأ للإنسان هذا كله، أترى أنّ الطبيعة ـ في مواتها، وصممها، وعماها، وجهلها، وغفلتها ـ هي التي منحت الإنسان أسباب استمرار الحياة هذه، أم أنّ ذلك من رب كريم رحمن رحيم عليم حكيم، وسع كل شيء قدرة، وأحاط بكل شيء علمًا؟.

ولا تسأل عن الدورة الدموية، ونظامها الرتيب، وأثرها الحميد في الجسم كله، وكذلك خلجات الجسم جميعًا ونبضاته الدالة على استمرار الحياة، ولها إيحاءاتها الخاصة التي تنم عن حال الإنسان في صحته وسقمه، وهي أمور يراها الإنسان عفوية لألفته إياها، ولكنها ما أعقدها وما أكثر حلقاتها، وأغرب

أسبابها ومسبباتها، ولو شرحت ملابساتها لغصت المكتبات الضخمة بمجلدات شرحها، أولا يدل كل ذلك على الإتقان والإحكام، وسعة العلم والقدرة، ممن أوجد هذا النظام؟!.

أما الحركات الاختيارية الناشئة عن رغبة الإنسان فيها لقضاء مآربه وانطلاقه في مجالات الحياة، وسعيه الدؤب فيها، فهي لا تسعها الأذهان ولو رحبت، ولا الخيالات ولو اتسعت، وكيف تتيسر للإنسان حسب إرادته التي يوحيها الجهاز العصبي إلى أي عضو من أعضاء الجسم، فتتفاعل الأعضاء متجاوبة متناسقة من غير تلكؤ ولا بطء.

وما أدراك ما للغذاء من أهمية في حياة الإنسان؛ فإنّه قوام الجسم، ومدد الحياة، وسبب النمو، وفيه من لذة للجسم ما يفوق التصور، وقد هيأه الله ﷻ للإنسان عندما كان جنينًا في أعماق الرحم بحسب ما يلائمه في كل طور من أطواره، وعندما غادر الرحم إلى قراره في هذه الحياة وافاه رزقه بكل يسر كما تقدم ذكره، وهو يعبر مراحل ويجتاز حلقات من الأسباب، حتى يتهيأ له كما شرحته فيما تقدم.

وكما يأتيه مدرارًا من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، فإنه يسيغه ويستمرئه وتتوالى به ألطاف الله تعالى التي لا يملك من أسبابها أقل شيء منها، فكم في جسم الإنسان من آلات تشترك في تناول ما يرزقه من غذاء، وقضمه وهضمه، حتى يتحول إلى ما يلائم طبيعة الجسم، ويلبي مطالبه، ويسد حاجة كل خلية من خلاياه التي تقدر بملايين الملايين، فما من واحدة منها إلا ويصل إليها منه ما يكون مددًا لحياتها، وهو يتواءم مع طبيعتها وحاجتها، وذلك كله من طيبات عناصر الغذاء، وما زاد عن حاجة الجسم يفرز عبر آلات متعددة إلى خارجه، ليستبقي الجسم منافع الغذاء، ويبعد عنه مضاره.

وكم من آية تتجلى للإنسان في هذا المدد؛ الذي يحتاج إليه الجسم لقوامه، وكيف تفاوت في يسره بحسب حاجة الجسم وضرورته إليه، فالهواء أهم ما يحتاج إليه الجسم، وهو ضرورة ملحة في جميع الأحوال والأوقات، بحيث لا يستغني عنه في أي لحظة من عمره، وقد يسره الله تعالى له بدون عناء ولا مشقة ولا مغرم، فهو يأتيه في جميع أحواله كما تقدم، وتلي ذلك ضرورته إلى الماء وهو في يسره قد يحتاج جلبه واستعماله إلى شيء من العناء، وقد يتوقف أيضًا على عوض من المال، ولكنه ميسر في كل بقعة من الأرض، كما يمكن تزوده في الأسفار، وتلي ذلك ضرورته إلى الطعام، وهو ميسر ـ أيضًا ـ بقدر الحاجة، فإنّ خزائن الأرض تدفع بخيراتها إلى الناس، ليجد كل أحد رزقه، ولكنه يتوقف على سعي وعمل يبذل فيه جهد النفس، كما يتوقف على بذل المال، ثم تأتي الحاجة إلى الدواء، وهو أقل مما قبله في الضرورة والاحتياج، لأجل ذلك كان أقل يسرًا مما قبله وإن كان بفضل الله تعالى ميسرًا.

وفي كل جزئية من جزئيات هذه الفيوض المغدقة من نعم الله تعالى آيات لا يحصيها إلا الله ﷻ وحده، وبكل جزئية ـ ولو دقت ـ تقوم حجة العزيز العليم على الجاحد المعاند، والملحد الأفاك.

ولله تعالى فيما طبع عليه الإنسان وما يشاركه الحياة في هذه الأرض من النوم آيات عظمى، فهو يريح الجسم وينعش الروح، ويجدد لهما نشاطهما، فتتوسع قوى الجسم، وتنمو طاقات العقل، وهو من الضرورات التي لا تقل عن ضرورة الطعام والشراب والغريزة الجنسية، وقد يسره الله تعالى بكيفية تدعو إلى النظر والاعتبار، ولا يزال في حقيقته سرًا من أسرار الله تعالى في خلقه، وما قيل في شرح ماهيته لا يعدو أن يكون من النظريات والافتراضات التي لا يمكن القطع بها، لأن البحث العلمي فيها لم يرس على مرفأ اليقين.

فقد قيل بأنّ حالة اليقظة تولد مواد سامة مترقية تؤثر على الجهاز العصبي تدعوه إلى النـــوم، وقيل بأنّ ثم هرمونًا خاصًا للنـــوم، وذكر أيضًا أن انفصال الوحدات العصبية عـــن بعضها في مـــكان التمفصل وانقطاع مرور الســـيالة العصبية يدخل الجهاز العصبي في حالة النوم والراحة، غير أنّ هذه النظريات والافتراضات أخذت تتهـــاوى الواحدة تلو الأخرى، عندما اســـتمرت جهود العلماء متسارعة في طريق البحث عن هذه الحقيقة الغامضة.

وعبر هذه البحوث المتواصلة اكتشـــف وجود بعض المناطق التي تسيطر على النوم واليقظة، فتبين أنّ نمو بعـــض الأورام في هذه المناطق يؤدي إلى نوب الوسن والنوم، كما أن حالة التهاب الدماغ النوبي تدل على أنّ تخريب بعض المناطق يؤدي بالمريض إلى فقد حالـــة اليقظة، ودخوله في حالة عدم الوعي أو النوم المطرد.

ومهمـــا يكن فإنّ أهميـــة النوم للكائن الحـــي بالغة الغايـــة القصوى في ضرورات الإنسان فبدونها لا يستطيع الإنســـان أن يتابع سير الحياة مضطلعًا بتكاليفها، وأن يمارس وظائفها مراعيًا تراتيبها، إذ الإنسان العادي لا يستطيع أن يبقى بـــلا نوم أكثر مـــن أيام معـــدودة، لأن الحرمان منه يعـــد من الآلام المضنية، وهو من المشـــقة بمكان بحيث لا يطاق عذابه، وقد جربت بعض التجارب على الجنود بحرمانهم من النوم، فكانت النتيجة صعوبة ضبط الأمر إذ لا بد للإنسان ولو من غفوة بسيطة تريحه من نكد الحياة.

وقـــد تبين أن الجســـيمات العصبيـــة داخل الخليـــة العصبيـــة المعروفة بجسيمات نيسل لها علاقة بالتعب والراحة، فهي تنقص وتجنح إلى الاختفاء في التعب والمجهود الفكري، وإنما يعيدها النوم والاسترخاء كما كانت[1].

---

(١) ينظر؛ د. خالص جلبي: **الطب محراب الإيمان**، ١٤٥/١ ـ ١٤٦.

وإذا كانت العضلات تعود بالراحة والنـــوم إلى طبيعتها فإنّ راحة الجهاز العصبي هي النوم، لأنـــه يعمل بمجرد الاســـتيقاظ، ولا يعـــرف طريقه إلى الراحة، إذ هو يتلقى ملايين من الأخبار من الأجهزة الحسية عن طريق الجلد، والحواســـية عن طريق الحواس، والحس النباتي أي أخبار الأجهزة الداخلية، وذلك في كل لحظة باســـتمرار، وأي خلل في هذه العناصر يستدعي أن يقوم الدماغ بعمل إضافي، غير أنه مع هذا في حالة راحة الجســـم المطلقة يعمل، حتى على أرقى المستويات، كما في العمليات الذهنية الراقية، ويستمر الدماغ في العمل في حالة النوم المطلقة، وذلك بما يقـــوم به حراس المناوبة الذين لا يقفون عن العمل وذلك عبـــارة عما تقوم به الأجهزة التـــي نيط بها عمل القلب وتنظيم ســـرعة التنفس وتعديلها بما يناســـب صرف الحرارة اللازمة، حتى يبقى البدن في حرارته المعهودة، وهي في حدود ٣٧° درجة مئوية.

والأمعاء تتلقى الأوامر باستغلال فرصة راحة البدن لتقوم بتفتيت الطعام وامتصاصه وتخزينه، أو إحراقه بحسب حاجة البدن، وكذلك تتلقى عضلات المستقيم والمثانة الأوامر بالارتخاء لأجل استيعاب مخلفات الاحتراق، وهي فضلات الطعام والشراب، وحفظها مكانها لئلا تخرج منه وتنفلت إلى الخارج في حال غياب وعي الإنسان في نومه، وذلك بما أودع الله في تلك العضلات من طبيعة تضبط المســـتقيم والمثانة من الخارج، وهـــي فوهات الخروج، أو ما يعرف بالمصرات الخارجية، فيشتد تقلصها وتحبس تلك النفايات المتخلفة من إحراقات الجسم وبقاياه.

وأما العين فإنها توحي إلى الفتحة التي تتلقى النور لتنقبض، وذلك لعدم الحاجة إلـــى العمل، فيغلـــق محل التصويـــر منها بانقبـــاض الحدقة وصغر حجمها[١].

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ١٤٧/١.

فانظر أيها الإنسان في هذه الآيات العجيبة وأمعن فيها فكرك، وأجهد فيها رويتك، أتراها كانت بترتيب الطبيعة التي لا تملك أن تقدم أو تؤخر، ولا تدري قبيلها من دبيرها، فكيف يمكنها أن تدرك ضرورتك إلى النوم، فتهيئ له أسبابه، وتعد له وسائله بهذا النظام الرتيب، وهذه الدقة المتناهية، وهذه الإحاطة الشاملة التي لا تدع ثغرة إلا سدتها؟!.

ما بالك أيها الإنسان تتعامى عما تدل عليه هذه الآيات من الإرادة النافذة والتدبير المحكم ممن يعلم السر وأخفى فتتنكر لفضله وتنكر وجوده رأسًا، أولا يكفيك هذا الإتقان في ربط الأسباب بعضها ببعض حتى يكون كل سبب آخذًا بحجزة أخيه إلى أن تؤدي جميعًا غايتها؟؟!.

على أنّ الله سبحانه لم يجعل نومك مطردًا في جميع أوقاتك، وإنما هو بقدر ما تقضي وطرك من الاسترخاء والراحة، وتريح جسمك من عناء العمل ومشاقه، وقد هيأ الله تعالى من أوقاتك ما يتلاءم مع النوم لتنام، وما يتلاءم مع اليقظة فتستيقظ؛ لأجل الاضطلاع بمسئوليتك والقيام بتكاليف الحياة وضروراتها وحاجياتها، وقد يسّر الله لك الليل الساجي ليكون أنسب لراحتك ونومك، وأدعى إلى سكونك واستقرارك، كما يسر لك النهار لتضرب فيه في أنحاء الأرض، وتكافح من أجل معاشك، فانظر لو جعل الله تعالى وقتك كله ليلًا من أين كان يأتيك النهار، ولو جعله جميعًا نهارًا من أين كان يأتيك الليل، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣]، فما بالك أيها الإنسان تنفي هذه النعم عن واهبها ﷻ، الذي

وسع كل شيء علمًا، وتثبتها للميت العاجز الجهول الذي لا يقدم ولا يؤخر إلا بمشيئة الله، الذي أوجد الطبيعة وطبعها لتكون لخلقه وسيلة إلى مبتغاهم في الحيـاة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]؟.

فليت شـعري؛ ألم يأن لهؤلاء أن يصحوا من سكرتهم، فيذعنوا للحقيقة التي جحدوها، وينقادوا للحق الذي كابروه؟!.

٢ ـ آيات الله في حركة الأوعية الدموية:

كم في حركات الإنسان الفطرية الاضطرارية أو الكسبية الاختيارية من آية باهرة ومعجزة قاهرة، لا سيما تلك الحركات التي لا دخل له في تنظيمها ولا قدرة له على تصريفها، كحركة الأوعية الدموية، وهي ترتبط بما يدعى بالجذع الدماغي أو ما تحت السـرير وهو أسـفل الدماغ، فهذا الجهاز الصغير الذي لا يعدو بضع سـنتيمترات يقوم بوظائف متعددة في الجسـم، كتنظيم حركة الأوعية الدموية، فالأنابيب التـي يمر فيها الدم هي من الكثافة والانتشـار، بحيث تبلغ حدًا لا يكاد يصدق، فمن حيث طولها تقـدر بما يزيد على مائة ألف ميل يحتويها جسم الإنسـان المحدود، حيث تتغلغل في جميع أنسجة الجسم إلى العظم الكثيف، وتروي جميع المناطق التي تصل إليها، وهي أشد مرونة من المطاط بسـبب ما فيها من الألياف العضلية المرنـة على طول جدرانها، فاسترخاء هذه العضلات الصغيرة يؤدي إلى توسع الأنابيب، وذلك يؤدي إلى هبوط الضغط الدموي، كما أنّ تقلصها يؤدي إلى ارتفاع التوتر، بما يسببه من ضيق سعة الأنابيب التي يمر فيها الدم.

وإن عجبت فاعجب أنها في حالة معتدلة مـن التقلص والارتخاء، ففي حالتها الطبيعية تكون متقلصة مرتخية في آن واحد بشـكل متناسق، بحيث

تحفظ للوعاء الدموي قطره المناسب، وهذه الحالة المعتدلة من التوتر تعد مقوية لجدران هذه الأوعية، وهذا القانون يسري على كل عضلات الجسم، فالعضلات الملساء التي تغلف جدران الأوعية، أو تشترك في تأليفها، تكون في حالة معتدلة من التوتر، بحيث تحفظ للعضو أو الجهاز طبيعة وضعه، كما هو الشأن في الأوعية الدموية أو في الجدار الرحمي، أو جدار المعدة، أو المثانة، فمثلًا تعتبر حركات التقلص في المعدة حين فراغها من الطعام إنذارًا بالجوع، كما أنّ امتلاء المثانة والمستقيم بنفايات الجسم تدعو إلى زيادة التقلص العضلي في الجدران، وتتبعها الآلام الخفيفة المنبثة التي يعتادها الجسم، وهي تخبر بدورها النهايات العصبية الحسية، التي تنقل الأخبار بسرعة هائلة، حاملة الأوامر إلى المصرات الخارجية لكي تنفتح، فتلقي ببقايا الاحتراق وفضلات الغذاء.

والسيطرة على حركة الأوعية تعتبر حركة منسقة، وهي في غاية الإبداع، لأنها تعمل في تقلب الظروف الداخلية أو الخارجية بحسب ما تستدعيه من العمل الفوري، وزيادة أو نقص سعة الوعاء بما يناسب تلك الحالة، فلو حصل نزيف في أية مكان من الجسم فإنّ الأوعية تتلقى فورًا أوامر لكي تتقلص حتى يكون تدفق الدم أقل مما يمكن من الخارج، ومع ذلك ترسل صيحات الاستغاثة والإشارات الحمراء إلى الصفيحات الدموية ومولد ليفين والفيتامين (ك) والكلس والعامل السابع والخامس وغيرها لتشكل الخثرة الدموية، التي تعتبر سدادة في فوهة التمزق، ويتلقى كل من الطحال ـ الذي يعد مقبرة الكريات الحمر ـ والكبد حيث يتوفر الدم في خزائن هذه المستودعات لترسل كميات الدم الاحتياطية على الفور.

وهكذا يتعاون الجسم كله لإنقاذ جهاز الدوران مما حل به من أزمة، وهو مما يعكس البلاغة النبوية في المثل الذي ضربه النبي ﷺ للمؤمنين عندما

قال: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[١]، وبعكس ذلك تكون الحالة في النوم أو في الصدمة، بحيث تزداد سعة الأوعية الدموية فيهبط الضغط الدموي، إذا ازداد هذا الأمر ويكون الإغماء.

وهذا الاتزان في سعة الأوعية ومدى انفتاحها هو مهم للغاية، فإنّ أي زيادة أو نقص في قطر الوعاء يؤدي إلى كوارث لأن زيادة الضغط الدموي تؤدي إلى بطء الدوران في المنطقة، وذلك لما يؤدي إليه من نقص قطر الوعاء وزيادة تقلصه، وهو أشبه بمرور السيارات في طرقها، فبقدر ما تكون الطريق واسعة يسهل جريها، وعندما تزدحم بكثرة السيارات تضيق بها وبالمارة، فيؤدي ذلك إلى الإبطاء في الجري، وهكذا تؤدي زيادة تقلص الأوعية إلى بطء مرور الدم، وبذلك يكون التخثر، كما إن اجتمعت السيارات الكثيرة مع الازدحام من قبل المشاة والعربات والأطفال والأغراض التي تعرض على الرصيف أمام الحوانيت، فهو يؤدي إلى الصدام والحوادث.

فعندما ترتص عناصر الدم بعضها على بعض تكون الخثرة، وهي أشد خطرًا عندما تكون في شرايين الدماغ، على أنّ هذه الشرايين انتهائية ليس فيها مفاغرات جانبية، فانسداد أي شريان يغذي بقعة هي من أكثر البقاع رقيًا ونبلًا وأهمية وحيوية في الجسم، إما أن تكون نتيجته فالجا يشمل نصف الجسم بما فيه الوجه، فترتخي أطرافه، وينسدل الجفن، ويلتوي الفك، وينحرف اللسان، ويضطرب الصوت، وتخرج المفرزات من الفم، وإما أن تكون نتيجته نقص الحس أو انعدامه في الجسم، حتى لا يشعر ولو وخز بالإبر، كما لا يشعر إذا قطع جلده، وهذا بحسب الأماكن التي يكون فيها الانسداد، ولا يدرك مدى هذا الأمر إلا من رزئ به، فقد يتمنى أن يسيغ شربة ماء فلا يقوى

---

(١) سبق تخريجه.

على ذلك، بل لا يزال يقذفها مرة بعد أخرى من فيه عندما يعم الشلل شراع الحنك الذي يساعده على البلع، كما جاء في المثل الذي ضربه الله في الذين كفروا عندما قال: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤].

وكذلك لزيادة اتساع الأوعية نتائج سلبية، فسعة قطرها يؤدي إلى نقص دفع الدم إلى أعلى، فيرتد إلى أسفل وإلى أعماق الأجهزة ومستودعات التخزين، ويقل وروده إلى الدماغ، فلا تخفى أهمية الدم عندما يجري في الجسم مجراه الطبيعي، فهو يحمل الأكسجين الباعث للحياة، وعندما يقل وروده إلى الدماغ يصاب المبتلى بذلك بفقر دم موضعي، وهو مما يعلل به الإغماء الذي يحصل، فلذلك تتعين مكافحته برافعات الضغط من الأدوية المعروفة، ورفع القدمين والساقين إلى أعلى حتى يتدفق الدم إلى أسفل، فتزداد تروية الدماغ وينتعش.

هذا التوازن الخفي في أخلاط الجسم وأعضائه يشكل بناء محكمًا أتقن الله صنعه، وتتجلى فيه مظاهر الربوبية العظيمة، والألوهية المطلقة التي تصرف كل شيء[1].

فانظر أيها الإنسان إلى هذه الآيات العظيمة التي تتجلى في حركة هذه الأوعية الدموية التي تمارس مهمتها، وتقوم بدورها في حياتك وأنت لا تعلم، فسواء كنت في يقظة ووعي أو كنت غارقًا في نومك سادرًا في غفلتك، لا تتوقف عن أداء مهمتها، ولا تتباطأ عن القيام بوظيفتها للحفاظ على حياتك وسلامتك وإلا حلت بك الكارثة، ونزلت بك الطامة، فكيف تجحد من هيأ لك هذه الأسباب لامتداد حياتك واستمرار سلامتك، أويجدر بك وقد آتاك هذه النعم، وشملك بهذه الرعاية أن تتنكر له وتجحد هذه النعمة التي أنعمها عليك، بإنكار أن تكون وافتك من قبله، وتجعلها من هبات

(١) ينظر: المرجع السابق، ١/١٥٠ ـ ١٥٤.

ما لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا، وليس له سمع ولا بصر، بل هو في نفسه ميت لا يتحرك إلا أن يحرك؟!.

أما آن لك أيها الإنسان أن تقرأ سجل خلقك، فتعرف من هو خالقك، وتصغي إلى ما يناديك من ألسنة أحوال فطرتك ليردك إلى من فطرك ورعاك أحسن رعاية منذ بداية نشأتك، فكيف تسلبه الاعتراف له بفضله، وتعزوه إلى غيره؟! إن هذا لهو الضلال البعيد والكفران المبين.

٣ ـ في آيات الله تعالى في التنظيم الحراري في الجسم:

كم لله تعالى من آية بينة في التنظيم الحراري في جسمك أيها الإنسان، ناهيك بهذا الاتزان والإبداع لكيفية تنظيم الحرارة والتعرق الكامنة فيما تحت السرير، أي مراكز أسفل الدماغ، فقد اكتشف أنّ ثم بقعتين تقوم كل واحدة بعمل يخالف عمل الأخرى، فإحداهما تسرع والأخرى تبطئ حتى يحصل التوازن، مهمة أولاهما زيادة الخسارة الحرارية، ومهمة الأخرى نقصها، فالأولى تقاوم الحر، والثانية تقاوم البرد، وكل هذا من طريق الجلد، الذي فيه منابع الحرارة في الجسم تتوزع في كل أجزائه التي تقوم بفعل آلي أو إفرازي أو أي نشاط، ولكن المنبع الأول للحرارة فيه هو العضلات، حيث يشكل عملها طاقة حرارية تعادل ٤٠٪ من حرارة البدن العامة، وقد ترتفع في أثناء الجهود الرياضية الشديدة إلى ٨٠٪، ونصيب القلب من ذلك (٧/١) الحرارة العامة، وأقل العناصر في توليد الحرارة هو الدماغ، فإنه يعطى أقل من جزء من ثلاثين مما تولده العضلات، وإذا ازدادت الحرارة فهناك مراكز معدلة تخفضها بسرعة في الدماغ لاشتداد تأثرها بها.

وأما الغدد العرقية فهي مراكز التهوية الخفيفة في الجسم، بالإضافة إلى مراكزها الكائنة عن طريق الزفير.

وفي جلد الشخص العادي ثلاثة ملايين (٣,٠٠٠,٠٠٠) غدة عرقية تتوزع في أماكن متفاوتة، وهي تحت الإبط وحول الثدي أكثر وفي ظهر اليد أو الوجه أقل، وهي تشكل بمجموعها جهازًا كلويًا جديدًا، والغدة العرقية تتألف من أنبوب ملتوٍ يفرز العرق، وهذه الأنابيب تقدر بما يزيد على ٤ كيلومترات، وتشارك كذلك في الاستقلاب الحراري غدة مهمة وهي غدة الدرق بمفرزها المشهور التروكسين، حيث وجد أن صرف مليغرام من التروكسين يرفع الاستقلاب الأساسي ألف كالوري، وتتدخل غدة الكظر في الاستقلاب ونشر الحرارة بمادة الأدرينالين التي يفرزها لب الكظر، وتقوم ملكة الغدد ـ النخامة ـ بالسيطرة على توازنات هذه الغدد ذات الإفرازات الداخلية.

وإذا بحثنا عن التفصيل في التنظيم الحراري بعد هذه الصورة المجملة وجدنا أن حرارة الجسم تستقر حول رقم معين لا تتجاوزه، هي في الإنسان سبع وثلاثون (٣٧°) وفي الحيوانات الثديية تسع وثلاثون (٣٩°) وفي الطيور إحدى وأربعون (٤١°) فيستقر هذا الرقم بحيث لا ينزل ولا يصعد إلا في الحالات المرضية، لا سيما التي تسببها الحمى.

هذا؛ مع كون درجة الحرارة في سيبيريا قد تنزل إلى اثنتين وستين (-٦٢°) كما قد ترتفع إلى فوق الستين (٦٠°) في بلاد الطوارق في الصحراء الكبرى بشمال إفريقيا، ويحدث هذا أحيانًا في بعض صحاري الجزيرة العربية، وقد تتجاوز هذا القدر، ومع ذلك يبقى البدن ـ مع هذا الاضطراب في الحرارة الخارجية محتفظًا بحرارته في درجة معينة لا تزيد ولا تنقص، إذ لو انخفضت درجة الحرارة إلى حد معين أو ارتفعت إلى (٤٣° ـ ٤٥°) لحلت بالجسم كارثة، لأن الكريات البيض تموت تحت الدرجة (٢٥°) وفوق الدرجة (٤٣°) وهو مما يؤدي إلى انتهاء حياة الإنسان، لأن مناعته تتركز في الكريات البيض، فكيف يكون هذا الاتزان مع تباين المناخ الذي يحله الإنسان حرارة وبرودة؟!.

إنّ درجة الحرارة المحيطة بالإنسان عندما تبلغ أربعين (٤٠°) تبعث الجسيمات الحسية المتوزعة تحت الجلد المختصة بالحرارة ـ وهي تبلغ أكثر من مائتي (٢٠٠) ألف جهاز، وكل جهاز يحتاج وحده إلى شرح طويل ـ تبعث هذه الجسيمات أخبارًا عبر أسلاك البرق المتشعبة في الجسم إلى كل نقطة ـ وهي الألياف العصبية ـ فتصل أخبارها إلى المقسم الأول في تلقي الأخبار، وهو النخاع، حيث تدخل من الجهة الخلفية مع آلاف الأخبار الأخرى، ومن خلال القرون الخلفية للنخاع المختصة بالحس يتم فهم ما حدث، فتندهش الخلايا، وتسارع إلى إرسال هذه الأخبار إلى المركز العام وفق نظم دقيقة وسنن محكمة، وتصل إلى مركز القيادة العامة بعد أن تمر في جهات شتى، وتنعرج في منعطفات عجيبة، فتتولى القيادة العامة في هذه الحالة الطارئة إرسالها إلى أعصاب الجلد، فتقوم هذه الأعصاب بدورها في إرسال التنبيهات إلى العروق الدموية التي تروي السطح الخارجي، فيزداد ضخ الدم.

وبهذه الزيادة في توارد الدم يبدأ إشعاع الحرارة وتبدأ تحولات جديدة في توجيه الأوامر إلى الغدد العرقية لتزيد في إفرازها للعرق، والعرق في حد ذاته يحتوي على كمية كبيرة من الماء، ويمتص كمية كبيرة من الحرارة، وبانسيابه يتم تحويل التهوية الجلدية، وتتوازن الحرارة خارج الجسم وداخله.

وأما التيروكسين والإدرينالين ـ وهما مفرزا الغدة الدرقية، وغدة لب الكظر ـ فإنّ إفرازهما يتناسق مع حاجة البدن في هذه الحالة، ويتوالى دور نفس الزفير الذي يُحَمَّل ببخار الماء الذي يمتص أيضًا كمية كبيرة من الحرارة، وهذا هو الذي يعوض الكلاب عما تفرزه الغدد العرقية، لأن تلك الغدد فيها قليلة وهي في أخمص القدم فقط، وهذا هو سر اللهاث فيها، كما وصف الله ﷻ الكلب في قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦][1].

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ١٥٤/١ ـ ١٥٧.

وما أعجب هذه العناية الربانية بهذا الإنسان الضعيف، وبغيره من أنواع الحيوانات التي أبدع الله خلقها وأحسن صنعها، وأفاض عليها صنوف النعم، وفي مقدمتها هذه الرعاية التي تشمل تقلبات أحوالها، وقد بوأ الإنسان من بينها ما لم يبوئها من مراتب التكريم، ومناصب التشريف وقد جعلها الله تعالى بفطرتها تتجاوب مع سننه في خلقه وتسبيح أرجاء الوجود بحمده، وقد يتمرد على ذلك الإنسان الذي لا يقف تمرده عند حد، بل يصل إلى التنكر لهذه النعم، وإنكار من أنعم بها، فما أشد كفرانك أيها الإنسان!

أولا تكفيك هذه الرعاية الربانية التي تتغلغل في أعماق جسمك فتجنبك المخاطر التي تهجم عليك من كل جانب، ومن بينها قسوة الطبيعة في الصيف والشتاء، فقد هيأ الله لك من طبيعة جسمك ما يجنبك هذه الشرور، ويدفع عنك هذه الأخطار، بطريقة تدعوك إلى كثرة الاعتبار، فقد أدركت مما مضى كيف تتفاعل جوانب شتى من بدنك ـ لا تحيط بها علمًا، ولا تتصور كيف تفاعلها ـ من أجل درء الأخطار التي تحيط بك، فما بالك أيها الإنسان تجحد من أنعم عليك بهذا كله، وهو يحوطك في جميع أحوالك برعايته الشاملة، وعنايته البالغة، كل ذلك بقدرته الواسعة، وعلمه الذي لا يفوته شيء مما يجري في أعماق الوجود، وتنسب ذلك إلى طبيعة ميتة لا تعلم شيئًا من أحوالك ولا تقدر أن تدفع عنك ضرًا أو تجلب إليك نفعًا؟؟!.

أين عقلك وتفكيرك عن إمعان نظرك في هذه الحقائق، وتدبرك لفعل الله تعالى بك من غير أن يكون محتاجًا إليك، بل أنت المفتقر إليه في سرك وجهرك، وسرائك وضرائك، ومحياك ومماتك، وقوتك وضعفك، ويسرك وعسرك، ومكرهك ومنشطك؟!.

فما أضل سعيك إن ظللت سادرًا في غيك غارقًا في عماك وغفلتك، تستجيب لداعي شيطانك الذي لا هم له إلا أن يضلك ويرديك في

الجحيم، وتستهويك نغمات دعوات شياطين الإنس، الملاحدة الأفاكين، الذين دأبوا على الاهتمام بتكثير حزب الشيطان، الذي يسارع إلى جهنم وبئس المصير، ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، ولا تلوي على شيء من نداء الفطرة، ونداء القرآن ودعوات المصلحين الذين يسعون إلى إنقاذك من العذاب والضلال؟.

٤ ـ آيات الله في تنظيم السكر في الدم:

إنّ سنن الله في الخلق كلها عجب، فكل شيء عنده تعالى بمقدار، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وما الإنسان إلا نموذج لبديع خلق الله تعالى وعجيب صنعه، فكل شيء في الإنسان مرتب بقدر معين، وفي ذلك من آيات الله تعالى ما يدعو الإنسان إلى الوقوف طويلًا عند كل آية من هذه الآيات؛ ليشهد عجيب صنع الله، وما يحوط الله ﷻ به حياة الإنسان من لطف غامر، ونعمة شاملة وعناية بالغة، ناهيك بتنظيم السكر في الدم، ولا يخفى ما للسكر من أثر بالغ في حياة الإنسان إن زاد أو نقص، إذ تكون حياته عرضة للخطر بكلا الأمرين، ولكن عناية الله تعالى جعلت في تنظيم السكر في الدم ما يدفع هذا الخطر أو يقلله، فإنّ نسبة السكر يجب أن تكون في الدم لا تتعدى ـ قلة أو كثرة ـ حدودًا ثابتة، وهي وسطيًا غرام واحد من كل لتر في الدم، وذلك بأن يكون مجموع ما هو موجود في الدم ٥ ـ ٦ غرامات لا أكثر، وهذه الكمية يستنفذها البدن في مدى ربع ساعة لا أكثر، ومعنى ذلك أنّ الجسم بحاجة إلى تغذية وإمداد بطاقة الاحتراق مع ما للسكر من أهمية بالنسبة إلى خلايا الجملة العصبية التي لا تأخذ سواه.

وهذا يعني أنّ الجسم لا يستغني بحال عن هذا المدد، ولكنه هو عرضة لأثر هذه المادة إن زادت أو نقصت، فكيف يكون هذا التنظيم؟.

هناك عوامل تتعاون في نظام رتيب لأداء هذه المهمة وهي الأنسلين الذي يفرز من المعثكلة، والجلوكاجون الذي يفرز أيضًا منها، والتيروكسين الذي يفرز من غدة الدرق، والإدرينالين الذي يفرز من غدة الكظر، وهرمون النمو الذي يفرز من الفص الأمامي للغدة النخامية، مع عامل آخر يفرز من قشرة غدة الكظر، وهو يحمل ذرة الأكسجين في النافذة الحادية عشرة من بنائه الذري، فتلك خمسة عوامل تتعامل بينها على خطة واحدة، ويقوم الأنسلين وحده بخطة، وبجانب ذلك فإنّ الكبد تحوي أكبر المستودعات لتخزين السكر بشكل مكثف، وهو ما يسمى بالنشأ الحيواني مع المستودعات الاحتياطية في حال زيادة الوارد من السكر، وهي العضلات والأنسجة بشكل عام، مع العصب الودي ومساعده، وهو نظير الودي.

ولها جميعًا عمل مؤتلف عجيب فالأنسلين مهمته إحراق السكر، وإدخاله إلى الخلية للاستفادة منه وزيادة ادخاره ولسائر العوامل مهمة مخالفة لذلك، وهي زيادة حل السكر وإيجاده في الدم، والعصب الودي يساعدها بقيامه بتثبيط عمل الأنسلين، كما يقوم نظير الودي بزيادة عمل الأنسلين وبهذا يكون الشد والجذب من كل جانب حتى يستقيم التوازن، كأنه على حد السيف.

ولهذا التوازن أهميته الكبرى لأن زيادته تعني مرض السكري الذي قد يؤدي إذا زادت نسبة السكر في الدم إلى الغيبوبة والسبات وفقد الوعي، وقد يصل إلى التسبب بالموت، كما أنّ نقصه تنتج عنه نتائج سلبية مماثلة، ولكن هذا الميزان هو الذي يزن بالقسط أدق العيارات، كيف وهذه الهرمونات التي تحدث التوازن والاستقرار تؤثر بأجزاء صغيرة تقدر بواحد من مليون، والغدة النخامية تزن نصف غرام، بما في ذلك من هرمونات وخلايا وأخلاط ودم وأجزاء[1].

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ١/١٥٧ ـ ١٥٩.

وقد جعل الله كل شيء من ذلك بمقدار كما هي سنته في كل شيء، فكيف تصدق أيها الإنسان حزب الشيطان الذي يدعوك إلى إنكار الله تعالى وجحد هذه الآيات البينات في صنعه بك، واعتقاد أن كل هذا يعود إلى الطبيعة الجاهلة العاجزة الصماء البكماء العمياء، أليس في هذا مكابرة للعقل وإنكار للحس؟؟! فاربأ بنفسك أيها الإنسان عن هذا، وفكر بعقلك في هذا الأمر تردك بصيرتك إلى الحق، وتهدك إلى صراط مستقيم.

٥ ـ آيات الله في انبثاق الأعصاب الرأسية من عناصر الجهاز العصبي:

الجهاز العصبي هو مركز التحكم في حواس الجسم وحركاته، فهو الذي يوجه أعضاءه ويمد حواسه، وتنبثق الأعصاب الرأسية المؤثرة في البدن من عناصره، فالجذع الدماغي وهو المكان الأسفل من الدماغ، تنبجس منه عيون عصبية، وهي تشكل اثني عشر زوجًا، وتتوزع في باقي الجسم إلى واحد وثلاثين، وهذه الأعصاب جميعًا تقوم بمهمات شتى، فهي تستمد الحس من الرأس، وترسل إليه الأوامر الحركية، فإذا بالعضلات تتقلص وترتخي بكيفية معينة، فتنشأ عنه مظاهر الخوف أو المحبة، أو الضحك أو التبسم، أو الكره أو الحقد، أو الدهشة أو الاستغراب، لتظهر آثارها على محيا الوجه، فيرتسم فيه ما يكنه الدماغ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

وستة أعصاب من أصل أربعة وعشرين عصبًا تختص بحركات العين بتحكمها في عضلاتها، وهي تبلغ سبع عضلات في كل عين، وبما تتلقاه من الأوامر العصبية تدير كرة العين إلى كافة الجوانب، فيتصرف الناظر كما يريد، فتارة يرفعها إلى أعلى، وأخرى يصوبها إلى أسفل، ومرة يحرفها إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، بشكل دائري منحرف، ومن بينها عضلة تختص برفع الجفن العلوي وخفضه، وكأنه الخيط الذي يسحب الستار أمام العين لتبصر

المرئيات، والأعصاب في كل جهة تتزن مع الأعصاب في الجهة الأخرى بشكل متناسق، لذلك كان الإنسان يرى بعينيه منظرًا واحدًا، وهو مما ييسر له الرؤية المتكاملة للشيء الواحد، فيراه جيدًا، ولولا ذلك لتراءت له مضاعفة أو مضطربة.

ولهذا كان أي خلل في الجهاز الذي ينسق ويوازن بينها يحدث الزعزعة المعروفة وهي اهتزاز كرة العين، وعدم التمكن من تثبيت النظر تمامًا، والخلل ـ ولو كان بسيطًا ـ في الجهاز المعصب لهذه الأشرطة العضلية الصغيرة الصلبة يحدث هبوط الجفن العلوي وانسدال الستارة أو الحول للجهة اليمنى أو الجهة اليُسْرى، ولكل عين ثلاثة أعصاب يختص كل واحد منها بعضلات معينة، فأحدها يختص بتحريك كرة العين إلى أسفل والوحشي[1] فقط، وثانيها اختصاصه أن يدير العين إلى الوحشي فقط، وثالثها أن يديرها إلى أعلى وأسفل وإنسي، وإلى الأعلى والوحشي، ولا يتجاوز شيء منها ما هو مختص به إلى اختصاص غيره، ولا تنفرد الثلاثة بعملها، بل تتعاون مع الثلاثة في الطرف الآخر على تركيز العينين في مرئي بعينه، وذلك من ناحية تحريك عضلات العين.

وهناك العصب البصري، وله اختصاص معقد جدًا، فهو ينقل الصور المرئية والألوان المشاهدة من خلال نصف مليون ليف عصبي وكأنها (٥٠٠) ألف جهاز تلفاز ملون، وهذا يعني أنّ ثمانية أعصاب تختص بالعين اثنان للإبصار وستة لحركات عضلات العين، ومعنى ذلك أن ثلث الأعصاب القحفية الرأسية مختصة بالعينين.

---

(١) الوحشي والأنسي هما بالنسبة إلى نقطة ما، فالقريب أنسي من الأنس والقرب، والبعيد وحشي من البعد والتوحش، ولذلك فإنّ الأنف على الوجه إذا أخذنا بالنسبة إليه شيئين، فالقريب منه أنسي والبعيد وحشي.

وفي قاع الصندوق العظمي الـذي يحوي الدماغ توجد البصلة الشـمية بجانب الخط المتوسط على كل جانب، وهذه الكتلة التي تشبه البصلة يأتيها العصب الشمي من أعلى المنخر، ثم يسـير في خط متعرج معقد يتوزع إلى عدة أقسـام، لينتهي إلى المركز الشـمي الكائن في الأخدود العميق ما بين نصفي الكرة المخية، وإصابة هذا العصب تؤدي إلى فقد الشم.

وللأعصاب القحفية ميزات تختلف عن الأعصاب الشـوكية التي تتحكم في الجسم، فالأعصاب الشوكية هي دائمًا مختلطة أي تجمع الحس والحركة، أما الأعصاب القحفية فهي إما أن تكون مختصة بالحس مثل العصب الشمي أو مختصة بالحركة كما في العصب المحرك المشترك والاشتياقي والمحرك الوحشـي، وهي الأعصاب التي تحرك عضلات العين، وإما مختلطة حسـية حركية، ومنها العصب المسمى بمثلث التوائم، لأنه له ثلاثة فروع، كأنها توائم وهو ينقل الحس بثلاثة فروع، من الفك والفك العلوي والفك السـفلي، كما أنه يحرك العضلات الماضغة، وهـي أربع في كل جانب، وإصابته تؤدي إلى آلام مبرحة لا يتصورها إلا من جربها، وهو يعرف بألم المثلث التوائم.

وأما العصـب الوجهي الذي يعـد عمله معجزة مـن المعجزات، فهو يسـيطر على مجموعات مختلفة من العضلات فـي الوجه تبلغ ٤٦ عضلة، موزعة في الجانبين، منها ما هو موزع حول الشفتين وهي تختص بالنطق، وتعابير الوجه، فبعض الحروف لها مخارج بإطباق الشـفتين كالباء، وهذه العضلات نوعان موسع للشفتين وهي ٢٢ عضلة ومضيق لهما وهي ٤ موزعة حول فوهة الفم، وبهذا تكون العضلات المتوزعة حول الشفتين ٢٦ عضلة، ويقوم العصبان الوجهيان في الساحة الوجهية بالمساعدة في النطق، وذلك بإرخاء وتقليص العضلات حسـب ما تكون الحاجة، وبهـذا تظهر تعابير الوجه عن الفرح والحزن، والسـعادة والشـقاء، واللـذة والألم، والحب

والكره، والخوف والرجاء، والضيق والانشراح، كما قال تعالى في السعداء: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

ومن حكمة الله تعالى أن يسر للإنسان الانبساط والابتسام أكثر مما يسر له العبوس وتقطيب الجبين، فقد جعل البسمة بتأثير عضلات أقل من التي تؤثر ضدها.

والعصب الثامن هو العصب السمعي، يحوي مجموعتين من الألياف العصبية إحداهما خاصة بالسمع، والثانية بالتوازن، فإنّ هذا العصب ينقل المسموعات بعد أن تصل إلى ما يزيد على (١٠٠) ألف خلية عصبية سمعية، والأذن تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أحدها في باطنها، ويسمى الأذن الباطنة فيه مكان يسمى التيه، لكثرة ما يتيه الداخل فيه، بسبب تعدد الدهاليز والتعاريج والمداخل والأبواب والأقنية والمجلات[1]، وهذه الأعصاب المذكورة لها مناطق خاصة تعد المنطلقات الأولى للعصب أو النواة الأولى التي تشكل العصب، وهي موجودة في الجذع الدماغي خاصة، وتشكل ستة أعمدة في كل جانب حيث تنطلق منها الألياف أو تصل إليها حسب اختصاص العصب.

والعصب التاسع: مختلط حسي حركي، ويختص بمنطقتي البلعوم واللسان خاصة في المنطقة التي يقف عندها شرطي المرور، وهي تقاطع الطرق التنفسية حيث يدخل الهواء، والهضمية حيث تدخل السوائل والأطعمة، ولذلك كانت مهمته أن يشرف على أعلى البلعوم والقسم الخلفي للسان، فينقل الحس ويرسل الأوامر الحركية، وفيها حساسية خاصة للغثيان إذا ما دغدغ، وإصابته تؤدي إلى آلام مبرحة قد تكون مثل عصب التوائم

---

(١) المجلات هو انفتاح آخر القناة على آخر قناة أخرى بفتحة واحدة، كما في مجل واتر الذي يجمع بين آخر القناة الكبدية، وآخر القناة المعثكلية، والمجل في الأقنية نصف الدائرية في الأذن، حيث ينفتح آخر القناة على آخر قناة ثانية بفتحة واحدة.

وانعدام منعكس الغثيان (الميل للقيء) حتى لو دغدغ المكان الخلفي من اللسان وأول البلعوم.

والعصب العاشر: فيه غموض ولذلك يسمى بالعصب المبهم، ووظائفه محيرة إلى حد ما ولذلك يسمى بالعصب الحائر، وهو يختص بحركة وحس الأعضاء الحشوية الداخلية أي الرئتين والقلب والمريء والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والرغامي، وهو جزء من جهاز كامل يتكون من نواة مبعثرة في النخاع والجملة العصبية العلوية التي سبق ذكرها الودي ونظير الودي، فمهمة هذا العصب الداخلية الهدوء والبطء، فهو يمثل الكابح في حركة القلب كما يقوم بدور الجهاز العاصب للقصبات ولذلك إذا اشتد نشاطه أحدث تشنجًا قصبيًا وضيقًا في التنفس.

أما في المعدة والأمعاء فهو يمثل المسرع بحيث يزداد إفراز المعدة وحركة الأمعاء، وهذه الحركات كلها لا علاقة لها بوعي الإنسان وإرادته، فهي الأجهزة المنظمة الخفية الداخلية، وأما في المثانة فيقوم بزيادة ارتخائها مع شدة تحرك الحالبين حتى يطرح البول إلى الخارج، وعلى مستوى غدد اللعاب يزيد من إفرازها ولأجل ذلك يزداد اللعاب في حين الميل إلى القيء في الفم، وهو ينذر بفرط نشاط العصب المبهم أو الحائر، وكذلك يميل إلى نقص سكر الدم، وهذه العلامات تشكل بمجموعها خطًا عريضًا للتفاؤل الداخلي الهادي عندما يكون الجسم في حالة راحة أو نوم، وأما الودي فإنه يقوم بعكس هذا تمامًا[1].

فما أعجب هذا الإبداع في خلق الإنسان، وما أغرب هذا التنظيم بين الجوانب المتعددة لتؤدي جميعًا إلى غايات منتظمة متوائمة ليس بينها نشاز ولا شقاق، فيا ترى؛ كيف يصدق عقل بأنّ هذا كله كان بفعل الطبيعة التي

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ١/١٥٩ ـ ١٦٤.

لا تسمع ولا تبصر، ولا تعلم ولا تدرك، كيف يتسنى لهذه الطبيعة في وضعها هذا أن تراعي هذه الجوانب كلها وأن تنظم هذه الحركات لتتواءم نتائجها؟.

أولا يكفيك ذلك ـ أيها الإنسان ـ آية بيّنة تدفعك إلى الاعتبار والادكار وانفتاح وعيك على الغيب المقدس لترى حكمة العزيز العليم، وقدرة الخالق القهار الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، كيف تجحده وآياته في نفسك تدعوك إلى الإيمان به والإذعان لحكمه، والانقياد لأمره، أما بهرتك هذه المعجزات التي تتمثل في خلقك، وتهيئة الأسباب التي لم يكن لعقلك أن يتصورها، ولا لخيالك أن يحوم حولها لولا أنّه أوجدها فيك، فأصبحت حقيقة ماثلة لا يماري فيها مؤمن منقاد، ولا جاحد معاند، لأنها تتفاعل في جسمك في جميع أحوالك في نومك ويقظتك، ووعيك وغفلتك، لأجل مصالحك التي لا يحيط بها عقلك ولا يحصيها وعيك، أما آن لك أيها الإنسان أن تلوي على هذه الآيات وترتضيها قائدة إلى رشدك لتعود بك إلى الله؟؟!.

يا أيها الإنسان الحائر المتسكع في الظلمات ما بالك تهيم في هذا الظلام الدامس، وشمس الحقيقة ساطعة تمزق كل ما يجلل فضاء العقول من أردية سود قاتمة نسجتها الأوهام وحبكتها الضلالات، فكيف ترضى لنفسك أن تظل حائرًا تائها مع هذه الدلائل التي تبصرك بالحق مما اشتملت عليه نفسك من آيات الله تعالى فضلًا عما هو في الأرض التي هي مستقرك وسائر الكون، الذي تتمتع بمشاهدة بديع صنعه وعظيم جماله، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

وبالإضافة إلى ما سبق فإنّ هذا العصب يتفرع منه ما يسمى بالعصب المنعكس، وهو مهم يعصم الحنجرة وشراع الحنك، ويشرف على الصوت ونغمته وعلى البلع، ولذلك فإنّ إصابته تؤدي إلى بحة في الصوت وإلى الصوت المضعف، وتؤدي إلى عدم القدرة على البلع، وقذف السوائل

المبتلعة عن طريق الأنف، بسبب عجز شـــراع الحنك عن الإطباق عند البلع على الحفر الأنفية الخلفية، أو ما يســـمى بالبلعوم الأنفي لأن تقاطع الطرق الذي سبقت الإشارة إليه في منتهى الأهمية، فاللقمة عندما تصل إلى مؤخرة اللســـان، أمامها أحد طرق ثلاثة، الحفر الأنفية الخلفية، والرغامي أول طريق الرئتين والمريء، وهو الطريق الذي يجب أن تســـلكه ليتم إدخال هذه اللقمة البسيطة إلى مأمنها الوحيد.

وتشترك في ذلك عدة أعضاء، فشـــراع الحنك يغلق الفوهتين الخلفيتين (وهما امتـــداد الحفر الأنفية) ويقوم شـــرطي المرور ـ وهو لســـان المزمار ـ بإغلاق الفوهة التنفســـية من الأعلى، ويتحرك اللســـان كأنه اللوح الخشـــبي الطويل للفران، فيقذف باللقمة بطريقة فنية إلى مقدمة المريء ومؤخرة البلعوم وتتلقفها عضـــلات البلعوم، ثم لا تلبث أن تنقبض عضـــلات البلعوم الأولى وترتخي العضلات التي تحتها مباشرة فتنزلق اللقمة الطعامية إلى أسفله، وإذا العضلات التي ارتخت قبل لحظات تنقبض على اللقمة الطعامية ويســـترخي ما تحتها من العضلات مباشـــرة، وتتقدم اللقمـــة الطعامية خطوة أخرى حتى تصل إلى المعدة، ويتبين بهذا أنّ إصابة الفرع المنعكس من العصب المبهم يؤدي إلى قـــذف الســـوائل المبتلعة من الأنـــف لأن شـــراع الحنك لا يغلق الفوهتين الأنفيتين الخلفيتين أو ما يســـمى بالبلعوم الأنفي، فيقذف اللســـان بالأطعمة والســـوائل إلى الطريق الأول بدلًا من الطريق الثالث، كما يحدث للسائق الغريب عندما يمر في بلدة ما ولا يجد الإشارة التي تدله على طريقه، فيضل ويسلك طريقًا آخر يخالف ما عزم عليه[1].

فانظر أيها الإنســـان إلى هذه الآيات التي أوجدها الله فيك، وكل آية منها تدلك على ربك الذي خلقك، وعلى سعة قدرته وإحاطة علمه وبالغ حكمته،

---

(١) ينظر؛ المرجع الســـابق، ١٦٤/١ ـ ١٦٥.

وعلى حسن رعايته لك، وجميل عنايته بسلامتك، فليت شعري؛ لو لم تكن منه هذه الرعاية البالغة والعناية الفائقة أكنت تستطيع أن تسيغ شيئًا من الطعام والشراب، فكيف أتاح لك هذه الوسائل ليسهل عليك ابتلاع رزقك، الذي به قوام بدنك واستمرار حياتك، وبقاء عافيتك، فكم في اليوم تسيغ من هذا الطريق الوعر من لقمة هنيئة من الطعام، وجرعة لذيذة من الشراب، من غير أن تلتفت إلى ما يكتنف ذلك من وسائل شتى لا تحيط بها علمًا هيأها لك الله سبحانه، وجعلها منتظمة في أدائها، منسجمة في أدوارها، فكيف تتعامى عن هذا كله، وتدعي زورًا أن الطبيعة التي لا تدرك شيئًا ولا تعي أمرًا هي التي تقوم بهذا؟!!.

ليت شعري؛ أي عقل يستسيغ ذلك اللهم إلا أن يكون من عقول أرذل الحمقى وأردأ المجانين؟!.

هذا؛ وأما العصب الحادي عشر، وهو يختص بتقويم الرقبة وانعطافها بفعل عضلتين في كل جانب تسمى بالعضلة القصية الترقوية الخشائية لأنها تتثبت على ثلاث مناطق حيث تتقوم الرقبة تمامًا، وتنعطف بإضافة إلى مساعدة العضلات في المنطقة، وارتكازها على عظم القص في منتصف الصدر وعظم الترقوة ـ وهو يمتد أفقيًا ما بين الكتف وعظم القص ـ وفي الأعلى الخشاء ـ وهو قطعة من العظم الصدري حيث ترقد الأذن ـ وأما العضلة الثانية فهي العضلة شبه المنحرفة الممتدة ما بين الرقبة والظهر من الخلف، وأي خلل يصيب هذا العصب يؤدي إلى انحراف الرقبة وعلو كتف على آخر.

ويأتي العصب الثاني عشر في نهاية الأعصاب القحفية، وهو العصب تحت اللسان الكبير واختصاصه بحركة عضلات اللسان، وتعتبر حركات اللسان من أبدع الحركات البهلوانية وهو يحتوي على سبع عشرة عضلة ثمان منها مزدوجة وواحدة مفردة، وهذه العضلات هي التي تمكن الإنسان من

التحرك إلى كافة الجهات، لذلك كان يقوم بـأدوار مختلفة، وهو يتدخل في عملية المضغ والبلع والتصويت والذوق، وهي أربعة أدوار، والعصب تحت اللسان الكبير يشرف على تحركه كيف ما كانت الحالة.

وأما الحس فتختص به ثلاثـة أعصاب تنقله من اللسـان وهي العصب البلعومي اللسـاني من الخلف، والعصب اللسـاني من الأمام (وهو فرع من العصب الفكي السفلي أحد الشعب الثلاثة من عصب مثلث التوائم) والعصب الرئوي المعـدي (المبهم أو الحائـر) الذي نقله الحس مـن بعض المناطق العميقة، ومما يجدر ذكره أن الذوق الذي يتمتع به اللسان، وينقل عن طريق الحس يتوزع في عدد من النتوءات الدرقية تبلغ (٩٠٠٠) نتوء درقي.

وإن عجبت فاعجب أن هذه الانبثاقات العجيبة للأعصاب الرأسـية التي تبلغ ٢٤ عصبًا كلها تخرج مـن منطقة لا تتجاوز بضعة سـنتيمترات مربعة، فالعصب الشمي والبصري يخرجان من الدماغ مباشرة (أي المخ)، والعصب المحرك المشترك (الثالث) يخرج من السـاق المخية بالإضافة إلى العصب الاشتياقي (وهو الرابع)، ويخرج من الحدبة عصب واحد وهو مثلث التوائم (الفكي السفلي والفكي العلوي والعيني)، وفي الثلم الذي يقع ما بين الحدبة والبصلة تخرج سـتة أعصاب، ثلاثة من كل جانب، وهـي العصب المحرك الوحشي (السادس) الذي يعصب عضلة العين المستقيمة الوحشي، والعصب السـابع الوجهي وهو يعصب عضلات الوجه وهي ثلاث وعشـرون عضلة، والعصب الثامن السـمعي وهو ينقل السـمع والتـوازن والأعصاب الأربعة الأخيرة، تخـرج من البصلة وهـي العصب البلعومي اللسـاني (التاسـع)، والعصب المبهم (العاشـر)، والعصب الشـوكي (الحادي عشر)، والعصب تحت اللسان الكبير (الثاني عشـر)، وانتظام أعمال هذه الأعصاب المزدوجة يحافظ على سحنة الوجهة ويرتب الوظائف ويعطي تعابير الوجه اللازمة.

وما أدراك كيف تكون فداحة الكارثة التي تقع بشلل أي واحد من هذه الأعصاب التي مر ذكرها، فإنّ ذلك أمر لا يتصـــوره إلا من رزئ به، وبهذا تعلم مدى الدقـــة العظيمة في عمل هذه الأعصاب فإصابة العصب الشـــمي تجعل الإنسان لا يفرق بين رائحة العطر الفواح ورائحة اللحم المحترق أو الأنتان، وإصابة العصـــب البصري تحدث نتائج متنوعـــة تختلف باختلاف المكان المصاب، فقـــد تؤدي إلى فقدان بصر عين واحـــدة أو فقدان الرؤية الصدغية في الجانبين، أو فقدان الرؤية الأنفية في الجانبين، أو فقدان الرؤية الصدغية في عين، بالإضافة إلى فقد الرؤية الأنفية في العين الأخرى، وقد تفقد الرؤيـــة في الربع العلـــوي من كل عين فـــي الجهة اليمنـــى أو الربع الســـفلي، وقد تكون نتيجة ذلك العمى كاملًا بحيث لا يرى المصاب شيئًا غير السواد المطبق.

وأهم الأمراض التي تنشأ عن التهاب العصب البصري الإنتاني سببه الداء الفرنجي الذي يســـببه الفجور ـ والعياذ بالله ـ ومثله الداء المعروف بالتابس، حيث تبقى حدة البصر كما هي ولكن تضيق ساحة الرؤية، وإصابة الأعصاب المحركة لعضلات العين تحدث الحول وانسداد الجفن.

وإصابة العصب مثلث التوائم تحدث ارتخاء الفك السفلي وانحرافه فيما إذا فتح المريض فاه، كما تحدث اضطراب الحـــس في الوجه، فيكون بعضه يحس وبعضه فوقه لا يحس بشكل قوس خلف قوس، وهو ما يعرف بعلامة قشر البصل، فتحس قشـــرة ولا تحس أخرى، كما تسبب اضطراب الذوق في اللســـان خصوصًا في الجهة الأمامية منه، حيث لا يميز بين الملح والســـكر والفلفل الأحمر، ولا بين العسل والعلقم، كما أن إمرار شعرة من على بلورة العين من الأمام لا تبدي معه العين أي حركة، مع أنها سرعان ما تنغلق عندما تكون في حالتها الطبيعية.

وإصابة العصب الوجهي هي أدهى وأمر، فهي منشأ التشوه والعجز الوظيفي بحيث إذا ضحك المصاب انحرف وجهه، كما لو كان يبكي، وإذا أراد إغلاق عينيه بقيت المنطقة المصابة مفتوحة، وإذا صفَّر انفتح خد وبقي الآخر كما هو، وإذا كشر عن أسنانه مال الوجه إلى الجهة السليمة، وهي كارثة لا يحسها إلا من حلت به، ولكن الله ألطف بخلقه؛ فقد وجد أن ٨٠ ـ ٩٠٪ من هذه المصائب تشفى شفاء نهائيًا.

وإصابة العصب السمعي تحدث اختلال السمع والتوازن والمشي، فيغدو المصاب كأنه يتطوح، وإصابة العصب المبهم تحدث بحة في الصوت والصوت المضاعف؛ لأنه العصب الذي ينظم حركة الحبال الصوتية، فإذا أصيب ارتخت فلا يخرج الصوت إلا ببحة، كما أنّ عدم انسجام حركة الحبلين الصوتيين يؤدي إلى تضاعف الصوت بالإضافة إلى الغصّ في بلع السوائل والأطعمة إلى درجة انحراف قذفها من الأنف.

وإصابة العصب الشوكي تحدث انحراف الرقبة وارتفاع كتف على أخرى، وإصابة عصب اللسان تحدث انحراف اللسان وعدم تناسقه في حركة المضغ أو البلع أو التصويت، فتحدث رتة في الكلام، وهكذا كانت حكمة الله تعالى فيما اختص به كل عصب من هذه الأعصاب من أثر بالغ في حفظ توازن الإنسان، لتتيسر أعماله وتنتظم حركاته الاختيارية والاضطرارية[1].

فتأمل أيها الإنسان هذه الآيات في بديع صنعك وعجيب خلقك، أترى من الممكن أن تكون أتتك مما هو دونك في الخصائص والملكات، وهو الطبيعة التي لا تعقل كعقلك ولا تبصر كبصرك، أو تسمع كسمعك، أو تتمتع بما تتمتع به من الحياة، فكيف تكون هي التي آتتك هذا كله ـ حسب دعاوى الأفاكين الذين يهرفون بما لا يعرفون ـ ولا يكون الواهب الذي منحك إياها

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ١/١٦٥ ـ ١٦٩.

هو السميع البصير العليم القدير، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟! ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٧ ـ ١٨].

فكيف تجحد أيها الإنسان أن يكون الله هو الذي خلقك واختصك بهذه المواهب العظيمة وأسبغ عليك هذه الآلاء، ومنحك هذه المزايا، وكل شيء مما هو في كيانك أو فيما حولك من هذا العالم الفسيح، يناديك بلسان حاله محتجًا عليك ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١]؟.

أولا تخشى أيها الإنسان أن تخاصمك كل خلية من خلايا جسمك وكل ذراتها وما اشتملت عليه مسفهة لأحلامك مبددة لشبهاتك، فهي جميعًا بفطرتها تتفاعل مع نظام الكون، وتسبح مع الكون كله بحمد الله تعالى من حيث تدري ولا تدري، فكيف ترضى أن يكون هذا النشاز والافتراق بين ما طبعت عليه وما اخترته لنفسك، فإنّ هذا بطبيعة الحال هو منشأ اضطراب النفس وتبلبل البال فاربأ بنفسك ولا ترض أن تكون أسوأ حالًا من البهائم العجم التي تشارك الوجود بفطرتها في تسبيح الله تعالى وحمده والسجود لجلاله.

واعلم أنّ هذا الخصام بينك وبين كل جزيئة في جسمك لا ينحصر في دنياك هذه، بل تكون أشد خصامًا لك يوم تبعث وتحاسب واقفًا أمام الله الذي خلقك فأحسن خلقك، وبسط لك رزقك وغمرك بنواله، ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٣].

٦ ـ آيات الله في الذاكرة وعجيب أسرارها:

كم هي آيات الله تعالى في خلق الإنسان سواء ما علمه الإنسان أو ما خفي عليه، وما علمه لا يساوي قطرة من عباب محيط لا ساحل له ولا قعر مما جهله، على أنّ ما وصل إليه الواصلون ممن بحثوا هذا الأمر وحاولوا أن يصلوا في اكتشافه إلى أبعد الحدود لشتُ على مقدرة على الإتيان منه إلا بالشيء النزر اليسير، فلو أخذت في البحث ودراسة ما جاؤا به لتضاعف هذا السفر إلى أضعاف لستُ أحيط بها علمًا، ناهيك ما شرحوه من أجهزة الدماغ المتوسط وأثرها على التنبيهات العصبية القادمة من قشر المخ عندما تمر بها، وما يترتب على خلل هذه الأجهزة من كوارث لا يحيط بها إلا الله.

وكذلك الغدة الصنوبرية ووظيفتها في الحياة وما فيها من شواهد عظام على صنع الله تعالى وعظمته، وإحاطته بكل شيء علمًا، ولا تزال البحوث العلمية في هذا يمتد رواقها ساعة إثر ساعة، ولا تكاد لحظة تمر إلا ويكتشف من ذلك ما تضيق به مكتبات العلم، وبإمكان من أراد التوسع في هذا أن يطلب ذلك من مظانه في دراسات مختصة؛ ليجد ما يزيد إيمانه رسوخًا، ويفيض على نفسه الطمأنينة، وينزل في قلبه السكينة، ويجلو عن مرآة نفسه صدأ ظلمات الشبهات التي يوحيها الشيطان وأولياؤه الملحدون، وحزبه الخاسرون، وقد أردت في هذه العجالة أن أنتقل بك ـ أيها القارئ الكريم ـ إلى أحد أسرار الله العظيمة التي استودعها الإنسان، وهو مما تتوقف عليه حياة الإنسان وتنتظم به علاقاته مع بني جنسه، وتصله بكل ما في الكون، ذلكم السر العظيم، هو ذاكرته التي تختزن معلوماته ليستعرضها متى أراد.

وإذا كان الناس يتباينون في الذكاء حتى يعد فرد منهم بأمة، أو تكون أمة أقل من فرد، فهم يتباينون كذلك في قوة الذاكرة وذلك من سنن الله تعالى في خلقه، التي جعلها في البشر أظهر منها في سائر الخلق، غير أنّ من الناس من

يرى أنّ جماهير الناس هم سواء أو متقاربون في قوة الذاكرة، ومقدار الذكاء، والقلة النادرة هي التي يمنحها الله العبقريات الفذة، فتغدوا نجومًا لامعة في سماء العلم والحكمة، بما منحها الله سبحانه من زيادة فائقة في قوة الذاكرة وسعة الفهم والإدراك، ومن الباحثين من يشكك حتى في هذا، بناء على أنّ الرقي الذهني إنما هو نتيجة الجهد المبذول واستعمال هذا الجهاز الذي لا يعرف الكلل أو الملل ـ وهو الدماغ الذي يتعب الجسم باستخدامه دونه ـ وبناء على هذا فقد تكونت مواهب العباقرة والفلاسفة وعظماء المبتكرين في العلوم باستغلال هذه القدرات الدفينة والطاقات الكامنة.

ولكني أرى أنّ التفاوت بين الناس في كل المواهب الفطرية والكسبية والحسية والمعنوية ليست محصورة في تفاوت أحوالهم وتباينها، بين الجد والكسل، وإنما أصل ذلك يرجع إلى تفاوتهم فيما طبعوا عليه وما آتاهم الله سبحانه من فيض آلائه ونعمه، وهو مما يندرج في قول الله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، وهذا مما يبدو بداهة لمن تأمل أحوال الناس، فكم يجد الإنسان من عبقري فذ لم يجتهد في طلب العلم إلا قليلًا، وآخر يواصل ليله بنهاره في الطلب والبحث ولكنه لا يؤتى منه إلا نزرًا يسيرًا.

كم قد رأينا من فتى مجتهد ... وهو بباب منه لما يسعد
وآخر لم يقر إلا البعضا ... وهو يفض المشكلات فضا[1]

وهذه حظوظ مقسومة بين الناس كمثل حظوظهم في كسب المال، فكم من مجتهد يسعى إلى كسبه بوسائله فلا يؤتى منه إلا شيئًا يسيرًا، ويكون غيره

---

(١) نور الدين السالمي: **جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام**، السنن والآداب، باب العلم، ٢/٢٨٠، علق عليه: أبو إسحاق أطفيش وإبراهيم العبري، مكتبة الإمام السالمي ـ السيب، ط ١٤: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

بعكسه، ولكن حظه من المال أضعاف حظ المجتهد، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

ومهما يكن تفاوت الناس في قوة الذاكرة واستيعابها للمعارف الإنسانية، فإنّ في ذلك من آيات الله تعالى ما يبصر كل أحد بطريقه إلى الله، إلا من انحرفت به سابقة الشقاء ـ والعياذ بالله ـ، وقد جعل الله سبحانه في الذاكرة من آياته العظيمة ما يبهر العقول، فهي وعاء المعارف الإنسانية جميعًا كما تقدم، وأين تقع، وكيف تظل محافظة على ما استودعته من هذه المعارف كلها؟!

لا ريب أنّ كل ما في جسم الإنسان يتغير ويتجدد باطراد إلا شيئًا واحدًا، وهو الخلايا العصبية، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى، وهي الحفاظ على مستودعات الذاكرة، فإنّ ثبات الخلايا العصبية هو الذي جعلها تزيد من المعلومات المختزنة في الذاكرة لحظة بعد أخرى، ولو تغيرت هذه الخلايا كسائر خلايا الجسم لاقتضى الأمر أن يبدأ الإنسان ـ في كل ستة أشهر ـ مرحلة جديدة في تعلمه كل ما تعلمه حتى النطق وغيره مما اعتاده في حياته، فإنّ خلايا سائر الجسم تذهب لتستبدل بأخرى كما سبق أنّ في الثانية الواحدة يفنى من كل إنسان من الخلايا مائة وخمسة وعشرون مليون خلية، لتحل محلها أخرى، والخلايا العصبية هي بخلاف ذلك، بل تظل ثابتة لتموت بموت صاحبها.

وما أبلغ حيرة الإنسان من أمر الذاكرة وما أكثر الأسئلة التي تكتنف هذا الأمر، وترد على خاطر من يفكر فيه، فما هو المقدار الذي يمكن أن تختزنه ذاكرة الإنسان العادي؟ وما هي أنواع الذاكرة؟ وأين توجد هذه المخازن التي تتسع لاختزان هذه المعلومات جميعًا؟ وما هو أثر الذاكرة بتكوين شخصية الإنسان؟ وكيف تستخرج المعلومات ولو كانت بسيطة من بين هذه الأكوام

المتراكمة بتراكم الذكريات الهائلة؟ وهل يحتفظ الإنسان بكل ذكرياته؟ أو أنه ينساها وإنما تبقى المعلومات التي يكررها دائمًا؟ وكيف تحصل آلية الذاكرة بالذات؟ وما هي علاقتها بملكات العقل السامية؟.

إنّ الصورة التي يراها الإنسان بعينه تنطبع في مؤخرة كرة العين على منطقة حساسة للنور، وهي الشبكية، وفيها طائفتان من العناصر الحساسة للنور، الأولى هي العصيات، وهي حساسة للنور الضعيف العادي، وتتوسع في محيط الشبكية، والثانية هي المخاريط، وهي في المركز، وهي حساسة للنور المركزي القوي، وللألوان، وجميع المخاريط والعصيات تشكل طبقة من عشر طبقات من الشبكية، ويقدر عدد العصيات في العين الواحدة بـ (١٤٠) مليون عصاة، ويقدر عدد المخاريط في العين الواحدة بـ (٦ ـ ٧) مليون مخروط، ومعنى ذلك أنّ مجموع الأعضاء المستقبلة للنور في العينين يبلغ نحو (٣٠٠) مليون عنصر تستقبل الضوء ثم تنتقل الصورة بعد انطباعها على الشبكية بشكل مقلوب مارة بالعصب البصري، فتنتقل الصورة في العينين من خلال ما يشبه مليون جهاز تلفاز ملون حتى تصل إلى نقطة أولى تقع فوق الغدة النخامية، وهناك يتصالب العصبان البصريان بنصفيهما حيث يندمج كل نصف مع النصف المقابل، وبعد ذلك يسير كل عصب في كل جهة بحيث يشكل مزيجًا من النصف الأول، وهو من الطرف والعين الموافقة، والنصف الثاني من العين الأخرى، وأهمية ذلك أن الصور ترى مجسمة بهذه الطريقة.

ويمكن لأي أحد أن يجرب هذا بإغماض إحدى عينيه وفتح الأخرى، وتقريب سبابة اليد اليمنى إلى سبابة اليد اليسرى، وهو ينظر بعين واحدة، مع الإسراع في تقاربهما، فإنه سيرى أن السبابتين لا تلتقيان، ولكنه إذا نظر بكلتا عينيه وهما مفتوحتان، فإنه يمكن أن يقارب السبابتين بكل راحة، وهذا هو السر في امتزاج ألياف العصبين البصريين حتى تمكن رؤية الأشياء بشكل

مجسم، وهذه الألياف تندفع إلى السرير البصري، ومنه بشكل أشعة إلى مركز الرؤية العام، حيث تنطبع الصورة، ثم تفهم، ثم ترسل إلى مستودعات الذاكرة، وهذه الكيفية المذكورة بغاية الاختصار هي اختزال لصورة واحدة في مستودعات الذاكرة، والإنسان العادي يستودع في كل يوم مليون صورة في هذه المستودعات الواسعة، ومعنى ذلك أن ما يقرب من (١٠) مليارات صورة تخزن في مستودعات الذاكرة في متوسط حياة الإنسان العادي، وذلك كله لا يعدل المرئيات فضلًا عن المسموعات، وما يدرك بسائر الحواس كالشم والذوق واللمس، مع أن الحواس ليست خمسة فقط كما هو المتصور، بل تصل إلى عشرين حاسة حسب تقدير صاحب كتاب **(العقل البشري) جون فيفر.**

أما كمية المعلومات التي تختزل في الذاكرة، فهي أمر لا يكاد يصدق، فلو أراد أحد أن يسجل ذكرياته فإنّ حياته كلها لا تكفي لذلك، بل لو اشتغل من بعده أبناؤه وحفدته فلن يستطيعوا إلى هذا سبيلًا، ولاحتاجوا إلى الوقت والجهد والمال، وقد قدر بعضهم أن مخزون الذاكرة يتسع لنحو (٩٠) مليون مجلد، كلها مليئة بالمعلومات.

والذاكرة هي معقدة بأنواعها، ولا يكفي تصور أنها مجرد تلك الأشياء التي تقرأ وتسمع ثم تسجل في قائمة الذكريات، فإنّ أبسط أنواع الذاكرة تلك التي تحدث معنا بشكل عادي ثم نتذكرها فيما بعد، فمن الذكريات ما هو مختص بالمرئيات فيتذكر الإنسان الصور، ومنها المسموعات ويتذكر الأصوات، وما تدل عليه، وقد يكون خليطًا من اثنين أو أكثر، وبذلك تختلف نسبة الخلط في الذكريات.

ثم إنّ نفس الذكريات قد تكون من النوع الخاطف، فقد يركب أحد سيارة تجري به بسرعة فيقع بصره على مناظر شتى فيلتقطها فورًا فتنطبع في الذاكرة وتضاف إلى الأكوام الهائلة من مخزوناتها ويمكن استرجاعها فيما بعد، على

أنّ الرقم المذكور من قبل وهو (١٠) مليارات تندرج ضمنه هذه المشاهد، وهناك ذاكرة تتعلق بإتقان العمل والمهارة كالمشي، وركوب الدراجة، والركض، وقيادة المركبات، أو تقليب صفحات كتاب أو الكتابة وتدخل في ذلك الأعمال الغريزية المختلفة، فالدماغ يقوم أولًا بفهمها وتعلمها ثم يرسل أوامره إلى العضلات المناسبة لتقوم بها، وعندما يزداد التمرس والإتقان ترسل نسخة من هذه الذكريات إلى النوبات القاعدية في الدماغ، لينتظم هذا الأمر بشكل آلي، فلو ركز السابح على الأفعال التي يقوم بها قد يغرق ولو ركز انتباهه إلى كيفية البلع لشرق، ولو ركز انتباهه على الكلام أثناء الخطابة أو النقاش لتلعثم.

وأما ذكريات الطفولة أو الأحداث القريبة الأجل، فالإنسان العادي ينسى ما فعل منذ ساعات قليلة، ولكن الذاكرة الفتية في طور الطفولة تطبع حتى أبسط الحوادث العادية، ويتذكرها الإنسان فيما بعد بشكل واضح يدعو إلى الدهشة والاستغراب، وقد يحار الإنسان حيرة بالغة إذا فكر في الأماكن التي تختزن هذه الذكريات كلها، أين تقع؟! فلو قدر أن اختزان كل جزيء يتم في خلية عصبية واحدة، فإنّ جميع خلايا الدماغ لا تكفي إلا لاختزال جزء يسير من الذكريات، لأن مجموع الخلايا العصبية في المخ هو (٩) مليارات خلية، والجهاز العصبي بكامله هو (١٤) مليار خلية، فكيف تختزل إذا هذه الذكريات كلها؟! وقد أعيى التفكير في ذلك العلماء النابهين ولم يجدوا سبيلًا إلى تفسير واضح قطعي مؤكد يجلو هذه الغمة، فهل هناك مكان بعينه من الدماغ هو المسؤل عن الذاكرة؟.

فمن الوجهة التشريحية لم يعثر العلماء على مكان بعينه يختص بذلك، بحيث يؤدي خرابه إلى فقدان الذاكرة جميعًا، وإنما ذلك من الأسرار العظيمة في تركيب الجهاز العصبي للإنسان، إذ لو كان الأمر كذلك لكان معنى هذا

أنّ خراب بقعة في الدماغ تؤدي إلى خسارة لا تضاهيها خسارة في حياة الإنسان، بخراب جزء من ذاكرته.

وهذا يعني أنّ الذاكرة هي أغلى من أن تؤتمن عليها مجموعة خاصة من الخلايا العصبية، وقد وجد أن تخريب ٩٠٪ من منطقة تتعلق بالذاكرة البصرية عند بعض الحيوانات لم يؤد إلى فقدان الذاكرة، وكذلك استئصال نصف الدماغ تمامًا عند بعض المرضى لم يفقدهم ذاكرتهم، فهل هذا لأن هناك نسخة مضاعفة للذاكرة في كل من نصفي الكرة المخية؟!.

ومن البحوث المهمة التي أجريت على منطقة الفصوص الصدغية في الدماغ وجد أنّ إصابة هذه المنطقة يؤدي إلى اضطراب الذاكرة، ومن خلال آخر التحريات في مضمار هذه المنطقة بالذات استطاع العلماء أن يسلطوا ضوءًا خافتًا على موضوع الذاكرة، فهذه المنطقة تتدخل على ما يبدو في صناعة الذكريات واستحضارها، كما يبدو أنها تتدخل في تكوين ذكريات وهمية، وقد يشعر الإنسان أحيانًا عندما يسمع كلام أحد ما في موضوع ما في زمن ما أنه سبق له أن سمع مثله، وهو ما يعرف برؤية الشيء من قبل.

ولكن هل الفص الصدغي هو المسؤل تشريحيًا عن الذاكرة؟ لا، فما هو مكان الذاكرة إذا؟ في الدماغ أو في غير الدماغ؟ الذي يبدو أن نفس الخلايا العصبية بمجموعها العام تشترك في تكوين الذاكرة بوساطة الجزيئات البروتينية الموجودة داخل الخلايا العصبية، فوجود (٣٠) ألف موروثة في الخلية الواحدة وإمكانية تشكل قرابة (٣٠) ألف حمض أميني مختلف يجعلنا نفكر في هذه التعقيدات الذرية، هل هي التي تشترك في موضوع الذاكرة؟ خصوصًا أنّ هذه التعقيدات تبلغ (١٠٠٠) مليار مليار جزيء في الدماغ، فهل تحمل هذه الجزيئات آثار الذاكرة، كما يحدث في الصفيحة المعدنية التي تحمل آثار طرق الحداد بالمطرقة عليها، أو تتوزع

الصورة في هذه الجزيئات الذرية ثم يعاد تشكيلها مرة أخرى؟ كل ذلك سر حارت فيه ألباب العلماء المتخصصين.

وقد تراءى لبعض العلماء أنّ المرئيات أو المسموعات تنطبع في الدماغ كما تنطبع الصورة على جزيئات الفضة في لوحة الفوتوغراف الحساسة، ومن هذا التفرق للصورة والبعثرة للذكرى بحيث تزدحم الذكريات في خلايا الدماغ كالفسيفساء، فبقدرة القادر على كل شيء تجتمع هذه الجزيئات المتفرقة لتعيد تشكيل المنظر الذي رآه الإنسان، ولكن من خلال هذه الأكوام الهائلة من مخزونات الذاكرة يبدأ العقل في إيجاد صورة جديدة، فقد يتخيل الجن على صورة معينة كما يتخيل الجنة على صورة معينة، هكذا تبرز خاصية جديدة من خصائص الجهاز العقلي العظيم، وهي خاصية التخيل، ويتعقد الأمر أكثر عندما تستطيع إثارة التخيل عند من يسمع إليك بتحريك أكوام الذاكرة عنده، فإذا به يجمع الجزيئات فيكونها، ويتخيل ما أنت تتخيله، ثم يتعقد الأمر إلى درجة تجعل الرأس يدور عندما يفكر على هذا النحو، وهو استخلاص العلاقات من بين الأشياء الواردة إلى الذهن، فما الذي يجمع مثلًا بين العجلة وقطعة النقود والقمر والشجرة؟! هل هي الاستدارة؟ ولكن ماذا تقول عندما استطاع العلماء أن يكتشفوا من سنن الكون، فأرخميدس اكتشف قانون دفع السوائل، وأينشتاين اكتشف النظرية النسبية، ونيوتن اكتشف قانون الجاذبية، وابن الهيثم اكتشف أسرارًا في عالم البصريات، وهكذا، وعلى قدر مزج هذه الذكريات والخروج بالنتائج الجديدة تسمو شخصية الإنسان.

إنّ (٢٧) حرفًا يستخرج منها آلاف آلاف الكلمات، فما هي الأفكار والآراء التي يمكن استخراجها من مليارات المليارات من معلومات الذاكرة؟ حقًا إنه شيء مدهش! فما أتعس الإنسان الذي يبلد ذهنه ويعطل عقله وينهمك

في شهواته لاهيًا عن هذه الآيات كلها، وهي تدعوه إلى التأمل والاعتبار، فما أخسر تجارة الذين قال الله فيهم: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ [مريم: ٥٩].

ذلك لأن شخصية الإنسان هي مجموع لحظات الجهد الواعي كما قال جون فيفر، إننا نمثل في أي لحظة حاصل جميع ذكرياتنا وجميع الانطباعات التي تركت آثارها على أجهزتنا العصبية.

وقد ينظر الناظر إلى مكتبة عامة تضم آلاف الآلاف من الكتب على رفوف أنيقة، وقد يسحب بعضها بين حين وآخر من مكانه، لاستخراج كلمة أو جملة ثم يرده إليه، وبين حين وآخر ترد كتب جديدة ونشرات حديثة تضم إلى مجموعة الكتب الموجودة فيها، وهذا الناظر يجد خليطًا عجيبًا بشتى المعلومات والأرقام والإحصائيات والأسماء والأشياء، وقد يصل في نهاية المطاف إلى قاعات كبيرة جدًا تراكمت فيها أكداس مختلفة من الكتب، بعضها فوق بعض، قد جللها الغبار، ولا تمتد إليها يد للنظر والمطالعة.

إن ذاكرة الإنسان هي أشبه ما تكون بهذه المكتبة، ففيها معلومات تستعمل باستمرار كما تضاف إليها باستمرار معلومات أخرى، وكذلك تنطوي على أكداس هائلة من المعلومات التي أضيعت بإهمالها، فتبعثرت في زوايا النسيان.

وقد يتساءل الإنسان: هل كل ما فعله أو سمعه أو رآه يكون محفوظًا في هذا السجل؟ هو سؤال مهم بحثه العلماء، فانتهوا إلى أنه لا يضيع شيء، ومن أدلة ذلك أنه جربت طريقة التنويم المغناطيسي على بناء ماهر، يشتغل في بناء المباني ذات الهندسة الفنية الرائعة، ثم طرح عليه سؤال عن طوبة موجودة في جدار ما من بناء ما كان هو الذي بناه في زمن ما، فأجاب أن هذه الطوبة قد أحرقت في الأتون أكثر من اللازم، وأنها تحوي في الزاوية السفلى حصاة

أرجوانية، وفي الزاوية العليا نتوءا يشبه الانخفاض الموجود في الطوبة التي فوقها، وأخذ يصفها وصفًا مطابقًا لما هي عليه في ذلك الجدار، مع أنه كان قد بنى ألفي طوبة في ذلك اليوم، وكان ذلك قبل عشر سنوات! وإذا كان هذا مما يدخل في ذاكرة الإنسان فما بالك بالحافظين الكرام الكاتبين؟! وما هذه الطاقة العجيبة الهائلة التي أودعها الله في الإنسان المستخلف في الأرض الذي بوأه الله مكان التكريم في الكون إلا شاهد صدق على عظيم خلق الله سبحانه، ولو فكر الإنسان في آثارها لحار علقه من عجيب أمرها، ولو نظر في منشئها لطار لبه من هول ما يطلع عليه من تعقيد آلاتها، وقد مضى أنّ كل خلية عصبية تتصل بما يقارب من (٥٠) خلية عصبية أخرى، وقد يتجاوز ذلك إلى نحو (١٠٠٠) خلية عصبية، وهي بهذا تشكل شبكة كثيفة مخيفة من الاتصالات، وما أدراك ما هي الممرات التي تتشكل بعد هذه الاتصالات الكثيرة؟! وحسبك أن تدرك أن الكلمات والأفكار وجميع المهارات لها ممرات جديدة وسرعة إعادة ما سبق علمه، يدل على أنّ الطريق معبد لمرور النبضات الكهربية عبر هذه الممرات العديدة والدهاليز المرعبة والتعرجات التي لا تحصى.

وكل ما سبق عن الذاكرة لا يعدو أن يكون معلومات سطحية لم تصل بنا إلى عمق أسرارها، وإلا فكيفية عمل العقل وتمام التفكير، ومبعث الإرادة ومكمن الوعي وعدمه، والشعور وفقدانه، وكيفية فهم المسموعات والمبصرات وتحويلها من صور إلى معاني، وكيفية استنباط الأفكار المجردة من مشاهدة المحسوسات، وحقيقة الذكاء وكيفية تحقق التخيل والابتكار، وحصول الإحساس الجمالي وتمام الإحساس الخلقي، ونمو الجرعة الأدبية، وحقيقة الرؤى والأحلام، واكتشاف المستقبل من طريق الرؤى، وعلاقة الأعضاء بالنفس، وكيفية تأثير كل واحد على الآخر إلى ما وراء ذلك من الحقائق التي أسدل عليها الغموض ستاره، فلم يجد العلم إلى الآن طريقًا

لحل عويصها وإبراز حقيقتها، كل هذه الأمور لا تزال سرًا من أسرار الألوهية في الخلق، ومظهرًا من مظاهر الربوبية القاهرة وعظمتها[١].

تلك هي بعض عجائب الذاكرة التي تحفظ للإنسان معارفه، وتقيد ذكرياته، وتهيئه للتعامل مع بني جنسه، ومع المنظومة الكونية كلها، فبدون الذاكرة يغدو الإنسان كالجماد الميت بسبب فقدانه الوعي والإدراك، وعجزه عن بناء الحاضر على الماضي، وأخذ العبرة من ماضيه لإصلاح حاضره ومستقبله؛ بتفادي الأخطاء واستدراك ما فاته من الصواب.

وأنت أيها الإنسان تدرك أنك لو لم يسخر الله لك هذه الذاكرة بخزائنها الواسعة التي تستوعب معلوماتك، وتعرفك برشدك وغيك، وتحفظ لك صوابك وخطأك لعشت تتخبط في ظلمات من الجهل والحيرة، وتهيم في متاهات لا تجد منها مخرجًا، فيا ترى كيف يمكن أن تكون الطبيعة الجاهلة ـ التي لا تدرك سرًا من أسرار الحياة، ولم تذق طعمها، ولم تحظ بما حَظِيتَ به من الحس والفهم، ولم تتمتع بما تتمتع به من الفكر والوجدان ـ هي التي هيأت لك الذاكرة بما فيها من وسائل وأسباب لاختزان هذه المعلومات التي يفوت حصرها؟؟!.

فأنت أيها الإنسان ـ مع ما أوتيت من عقل وإدراك وفهم، وما تتمتع به من مزايا الحياة ـ أيمكنك أن تهب ذاكرة لمن حُرِمَها حتى يغدو مثلك في إدراكك ووعيك، واستيعابك للمعارف، وترتيبها في سجلات الذاكرة؟ فإذا كنت أنت ـ مع ما أكرمت به من أسباب الحياة ومزاياها، وما أوتيته من القوى العقلية، وأسباب الفهم ـ تعجز حتى عن تجديد فتوة الذاكرة في من شاخت ذاكرته وضعف استيعابها، فكيف تتصور مما هو فاقد للذاكرة ولجميع أسبابها، من حياة وسمع وبصر وعقل وإدراك، وجميع الحواس الظاهرة

---

(١) ينظر؛ د. خالص جلبي: الطب محراب الإيمان، ١/١٧٦ ـ ١٨٦.

والباطنة أن يمنح الذاكرة لغيره، ويعدها هذا الإعداد المعجز الغريب الذي لو تضافرت عقول البشـــر باجتماعها جميعًا على تصور أسباب ذلك لكلت دون أن تبلغ من ذلك غاية، وأن تحقق أي إنجاز فيه؟؟!.

فراجع نفسك أيها الإنســـان واخرج من هذه المتاهات المظلمة الحائرة، إلى حيث تجد النور والرشـــد، وابن قناعاتك على أســـس ثابتـــة من العلم والعقل، لا على خيالات يفرزها الجهل والطيش.

وراجع باستمرار هذا السجل الحافل بآيات الله تعالى في خلقك منذ كنت لا حقيقة لـــك إلا أنك ذرات من تـــراب الأرض إلى أن صـــرت خلية مهينة لا تعد شيئًا، ثم تعاقبت عليك الأطوار إلى أن غدوت بشرًا سويًا، وصحبتك العناية الربانية فـــي أطوار النمو، الذي تحقق لبدنك وعقلك وقواك الحســـية والمعنوية، وما يصحب ذلك كله من هذه النعم الغامرة المحيطة بكل جزئية في جسمك، وأمعن دراســـة هذا السجل بكل ما اشـــتمل عليه من معجزات لا تتصورها العقول، وعجائب لا تتخيلها الأوهـــام، لتعود بالفتح المبين من الحق اليقين، وترفع عن صدرك ما جثم عليك من كوابيس الشكوك، وتزيح عن بصـــرك وبصيرتك ما تراكم عليهمـــا من ظلمات العمـــى والجهل، التي حالت دون إدراكك لهذا الحق اليقين بإنكارك لحســـك، ومكابرتك لعقلك، فإنك مسؤل عن ذلك كله، ومحاسب به، ومجزي عليه، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

هذا؛ وإذا كانت الذاكرة بهـــذا القدر من الأهمية في حياة الإنســـان، فإنّ ما أوتيه من ملـــكات الفكر التـــي تســـتخدم ما تحتويه خزائـــن الذاكرة من المعلومات في مجالات الحياة، وتستنتج منها الحقائق الغامضة التي لم تكن تدور من قبل بخلد أحد هي لا تقل عجبًا عن الذاكرة نفسها وآثارها الشاهدة

على وجود الله تعالى، وهي تجتث شبهات الملحدين الذين يردون كل شيء إلى صنع الطبيعة العمياء الجهول، ولا يلتفتون إلى آيات الله الذي خلق فسوى وقدر فهدى وتدكدك نظريات التطوريين الذين يردون كل شيء من ذلك إلى الانتقاء الطبيعي أو الطفرات العشوائية.

وقد بهرت هذه الآيات العظيمة ألباب الملاحدة أنفسهم، فلم يجدوا إلا أن ينحنوا ويركعوا أمامها، ويعترفوا بأن مشاهد هذه الحقائق هي أعظم من أن تفسر بحسب تصورات البشر القاصرة المحدودة.

فهذا الملحد اللاأدري **مايكل دنتون** يسجل هذه الحقائق بقلمه، ويبيّن عجز نظريات التطوريين عن تفسيرها، ويحكي عن غيره من أصحاب الفكر المادي نظير ما اعترف به، فهو يقول: «تبدو هذه القدرات الفكرية أقوى بشكل مفرط من أي انتفاع متصور للصيادين وجامعي النباتات في حقول السافانا القديمة، وبالتالي فهي بعيدة عن أي تفسير وظائفي.

ويؤكد **والاس** في بحثه المعنون **حدود الانتقاء الطبيعي عند تطبيقه على الإنسان** على أنّ الانتقاء الطبيعي لا يمكنه أن يثمر أي تكيف إلا إذا كان جيدًا للكائن الذي يتغير، فيسأل **والاس**: فكيف ظهرت القدرات الفكرية الفائضة عن الاستخدام فوق حاجة الإنسان القديم عبر الانتقاء الطبيعي؟ كيف يمكن أن يمنح الانتقاء الطبيعي الإنسان قدرات رياضية كالتي عند آينشتاين وقدرات موسيقية كالتي عند موزارت، وهي مواهب متفردة بقيت كامنة لفترات طويلة من الزمن لتظهر بعد ذلك في الأزمنة الحديثة؟. وبكلمات **والاس**: (من الواضح... أن الكتلة الصافية من الدماغ ليست بالضرورة أقل بكثير عند الإنسان المتوحش منها عند الإنسان المتحضر.. لكن الشيء الأكثر غرابة أن البقايا القليلة التي لدينا عن إنسان قبل التاريخ لا تبدي أي نقصان مادي في حجم جمجمة الدماغ).

فنحن... (مدفوعون إلى استنتاج مفاده أنه في دماغه الكبير المتطور جدًا يملك عضوًا غير متناسب أبدًا مع متطلباته الحقيقية، ويبدو أنه عضو أعد للمستقبل ليستخدم بأكمله أثناء تقدمه في طريق الحضارة)، وكما يقول نعوم تشومسكي مؤخرًا: (لقد أدرك والاس أنّ القدرات الرياضية ـ على سبيل المثال ـ لا يمكن أن تتطور بالانتقاء الطبيعي، فهذا مستحيل، لأن كل إنسان يملكها ولم يستخدمها أحد على الإطلاق، إلا عدد قليل جدًا من البشر في الأزمنة المتأخرة. لقد تطورت ببساطة عبر طرق أخرى).

إنّ بقاء القدرة الفكرية للبشر كامنة لآلاف السنين أمر غامض بالتأكيد فقد كانت متطورة بشكل كامل عند الإنسان البدائي في حقول السافانا، ومستعدة لرحلتها الفكرية التالية، مجهزة بكل التبصرات اللغوية والإدراكية التي يشاركه فيها الإنسان المعاصر. ورسمت الرسوم الجدارية العظيمة في لاسكوس (Lascaux) وفي كومباري (Combarelles) وألتاميرا (Altamira)، قبل ٣٠٠٠٠ سنة فقط، بعد حقب من ترك أسلافهم موطنهم إفريقية. وفقط قبل ٥٠٠٠ عام كتبت الرموز اللغوية لأول مرة برموز مسمارية وهيروغليفية، وبدأ الناس أخيرًا باستعمال قدراتهم الفكرية خلال ٥٠٠ سنة الأخيرة لكشف قوانين الطبيعة وأسرار السماوات وقياس أقطار المجرات وسبر باطن الذرة، لكن الكمون البيولوجي لهذه الإنجازات كان موجودًا منذ فترة طويلة، ومن جهة نظر تطورية فإنّ منشأ القدرات الفكرية العليا للإنسان هو أكبر الألغاز التي يلزم تفسيرها بين جميع الوقائع. يبدو بالتأكيد أنه على ضوء هذه الملاحظات الأولية لا بد من ضلوع عوامل مسببة لمنشأ وتطور قوانا العقلية، خارج نطاق الانتقاء الطبيعي»[1].

---

(١) د. مايكل دنتون: **التطور ما تزال نظرية في أزمة**، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩، ترجمة: د. محمد القاضي، د. زيد الهبري وآخرين، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ط١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

وهذا يعني أنّ الإنسان لم يمنح القوى الفطرية والملكات الفكرية بتأثير التطور ونشوء حاجته إلى تلك القوى والملكات، بسبب تطور تعامله مع الحياة، وإنما تلك مواهب كانت راسخة في فطرته كاملة غير منقوصة، ولكن عطلها الإهمال وعدم دراية الإنسان بكيفية استعمالها، حتى إذا انفتحت أمامه السبل وانكشفت لبصيرته آفاق الحياة عاد إلى ما انطوت عليه فطرته من القوى والملكات، فوجد فيها ما يسد حاجته، ويمكنه من التعامل مع طبيعة الحياة، وهذا ما يؤذن به القرآن، فقد بيّن الله تعالى فيه أنه هيأ الإنسان منذ بداية خلقه ليكون في الأرض متميزًا بالتمكين فيها، وتسخير جميع منافعها له، بل ومنافع ما حولها من هذا الكون الفسيح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

ويعزز ذلك ما في القرآن من نصوص الامتنان على الإنسان بما أوتي من المواهب، وما سخر له من المنافع، فقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فإنّ هذه النصوص جميعًا تدل على أنّ الإنسان وجد من أول الأمر سوي الطبع مستجمعًا لكل ما يحتاج إليه في حياته، من أسباب تمكنه من الانتفاع بكل المخلوقات فيها، لأنه ـ دونها ـ خليفة الله في الأرض، وهذه صفة يشترك فيها الناس جميعًا، وإنما يتفاوتون في التوفيق لاستخدام هذه المواهب، والانتفاع بهذه المسخرات، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الثالث

في البراهين
التي في خلق الحيوان

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: فيما يشترك فيه الإنسان والحيوان وما يختلفان فيه.
- المبحث الثاني: في آيات الله تعالى في طبيعة الحيوانات الطائرة.
- المبحث الثالث: في آيات الله فيما خلق من الكائنات البحرية والبرية.

فيما يشترك فيه الإنسان والحيوان وما يختلفان فيه

لا يخفى على متأمل أنّ في خلق الحيوان من آيات الله تعالى، ما هو شاهد على وجوده سبحانه، وإحاطته بكل شيء، وتدبيره لكل أمر، وتصريفه لكل مخلوق، فخلق الحيوان فيه من الإعجاز ما هو في خلق الإنسان، بل بيّن الله ﷻ أن ما هو من أقل الحيوانات قدرًا وأعدمها نفعًا وأسوئها حالًا لو اجتمعت جهود البشر على خلقه لعجزت وخارت دونه، بل لو اجتمعت على استرداد ما سلبه لما حققت مرادها، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقد تحقق ما ذكره الله تعالى من عجز البشر عن استرداد ما يسلبه الذباب مما أثبتته البحوث العلمية تقول د. نادية طيارة: «لقد أثبت العلم الحديث أنّ الذباب يملك غددًا لعابية طويلة، فبمجرد أن يأخذ الذباب شيئًا من الطعام فإنّه يفرز عليه كمية كبيرة من اللعاب تحوله فورًا إلى مادة أخرى، لذلك فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يسترد من الذباب ما أخذه منه، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، إنّ هذه الدقة في التفاصيل لم تكتشف إلا حديثًا»[1].

---

(١) طيارة؛ نادية: موسوعة الإعجاز القرآني في العلوم والطب والفلك، ٢٧٧/٢ مكتبة الصفاء/ اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ـ أبو ظبي، ط٢: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

على أنّ في خلق الذباب من عجائب صنع الله تعالى ما تحار منه العقول، وفي هذا تقول د. نادية طيـــارة: «إنّ ذبابة واحدة تنقل أكثـــر من ٣٠ نوعًا من الجراثيم، وتحمل معها حوالي ٥ ملايين جرثومة، كما أنّ ذبابة واحدة تبيض أكثر من ١٠٠ بيضة في اليوم دفعة واحدة، وتبيـــض مثلها كل ١٠ أيام، فلو قدر للذبابة أنّ تعيش عدة أعوام بدلًا من أسابيع، لانتشر الذباب في الأرض وأفنى الحياة عليها».

وتواصل قائلة: «إنّ هذه الذبابة التي نحتقرها لديها أجهزة دقيقة لا يستطيع الإنسان أن يحصل عليها بالرغم من تقدمه العلمي، فهي تملك قرون استشعار يوجد فيها مستقبلات كيميائية تستقبل الروائح، كما أنها تبني حركاتها وبحثها عن رزقها وفق هذه المعطيات التي تقدمها هذه المستقبلات الكيميائية»[1].

وبعد اســـتطرادها في ذكر خصائص الذباب، قالت: «أما الشيء الذي لا يكاد يصدق فهو أنّ جملتها العصبية تشبه الجملة العصبية عند الإنسان، وعين الذبابة غاية في القـــوة، وغاية في قوة الإبصـــار، ولها إدراك عالي المستوى، وقد تتصرف بغضب شـــديد إذا ما لاح لها خطر، فهي تغضب وتتعلم وتحس بالألم، ووزن دماغها واحد من مليون جزء من الغرام وهو يعمل بأعلى كفـــاءة، وفي الذباب جملـــة من الغدد، ولها ذاكرة تســـتمر دقيقتين.

والذباب أنواع منوعة تزيد على مئات ألوف، منـــه ذباب مفترس، ونوع كالنحلة يمتـــص الرحيق، ونوع يخمـــر الفاكهة، ونوع ينافـــس الطائرات في مناورتها وسرعتها، وتستطيع أن تضلل مطاردها وتسخر منه»[2].

---

(١) المرجع السابق، ٢/٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، ٢/٢٧٨.

واستطردت بعد ذلك في ذكر ما ينطوي عليه خلق الذباب من حكم ربانية عالية، فبجانب المضار الكثيرة التي يفرزها الذباب جعل الله في خلقه منافع متعددة منها دواء لأمراض شتى[1].

وإذا كان هذا في الذباب الذي يضرب مثلًا في الحقارة، فكيف بالحيوانات الضخمة من حيتان البحر ووحوش الغاب؟ ولا يخفى أنّ في تركيب أبدانها، وترتيب أحوالها من الآيات ما يدل على الله ﷻ وهي متفاوتة فيما آتاها الله تعالى من قوى، وقد لفت انتباه عباده إلى أحوالها ليأخذوا منها العبر، ناهيك بأرزاقها المتفاوتة التي هيأها الله تعالى لها وإحاطته بأحوالها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وهي متفاوتة فيما تتغذى به، وما كان نباتيًا يتغذى بأنواع النباتات التي كفلها الله تعالى لها، وما كان من جنس الحيوانات المفترسة هيأ الله تعالى لها ما يكفل أرزاقها من جنس الحيوانات الأخرى، ومع ذلك يحصي الله ﷻ كل دقيقة وجليلة من أحوالها، وإليه تعود كما أنّ مبدأها منه، وقد نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وهي متباينة الأحوال فمنها الإنسي الأليف، ومنها الوحشي النافر، ومنها ما يدب على الأرض، ومنها ما يسبح في البحار، ومنها ما يطير في الأجواء، وفي كل من ذلك من الآيات العظمى ما لا تقف العقول إلا على بعضه، وكفى به شاهدًا على عظمة الله تعالى، وقد نبه القرآن العقول على بعض هذه الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ٢/٢٧٨ ـ ٢٨٤.

بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢١]، وقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

ومع تفاوتها واختلافها تلتقي مع الموفقين من البشر على التسبيح والخضوع لله بالسجود لجلاله، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨].

ومع اشتراك الإنسان مع أنواع الحيوان في مظاهر الخلق الدالة على الله ﷻ، فلكل ميزته، فقد ميّز الله تعالى الإنسان على جميع أنواع الحيوان بما آتاه من عقل بوأه مقامات التشريف، وكبله بأنكال التكليف، ليكون هو الخليفة في الأرض، والقطب الذي تدور عليه رحى الكون، وليتهيأ له أن تسخر له أنواع الحيوانات كلها، وأن تكون يده مطلقة في الانتفاع بمنافع الوجود، إذ الأرض وما فيها مخلوقة له، وهي والسماوات جميعًا وما فيهما مسخرة له، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣]، وكل حيوان ينتفع انتفاعًا محدودًا بحسب بيئته وطبيعته، أما الإنسان فينتفع انتفاعًا مطلقًا بكل ما في الكون، فلذلك كان من طبعه التطور الذي يترقى به في مدارج المدنية والتحضر، كما هو مشاهد فيما منحه الله من العقل وآتاه من الملكات تمكن بسببهما من تسخير الطبيعة لمصالحه، باستخراج ما في أعماق الأرض، واستغلال الطاقات المتنوعة، لتطوير وسائل تنقله وتواصله، حتى غدت الأرض اليوم بأبعادها المترامية كأنها قرية صغيرة تترامى إلى الإنسان أخبارها من شواسع أقطارها، وتتراءى له صور مشاهدها من آفاقها الواسعة، وأصبح يطوي مسافاتها الشاسعة، فيقطع في ساعات ما كان يقطعه في أعوام، ولم تكن لجنس الحيوانات هذه المزايا لأنها لم تحظ بهذه الملكات، ولم تؤت هذا التفكير ولو كان منها ما يفوق الإنسان أضعافًا مضاعفة في الحجم والوزن والقوى الجسدية.

هذا؛ وقد ميّز الله ﷻ كل جنس من هذه الحيوانات عما سواه بما آتاه من القوى الطبيعية وما هيأه له من الأسباب التي تتكيف مع بيئته وتتلاءم مع طبعه وهذا ما سوف تجده إن شاء الله في المباحث الآتية.

في آيات الله تعالى في طبيعة الحيوانات الطائرة

كم فيما يطير من أنواع الخلق من آيات تدل على الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، ناهيك بتلك الغرائز التي منحها الله ﷻ أنواعًا من الطير، فهي تتصرف وفق غرائزها بطريقة أدهشت العلماء المفكرين، حتى أنّ داروين نفسه قال: «إنّ كثيرًا من الغرائز قد بلغت حدًا من الروعة، بحيث يُشَكِّل لغز تطويرها سببًا كافيًا لرفض نظريتي بشكل كامل، وهنا لا يسعني إلا أن أقول: إنّ ما قمت به لمعرفة القوى الذهنية والعقلية ليس بأكثر مما فعلته لمعرفة أصل الحياة نفسها»[1]، وهذا ما يتجلى في هجرة الطيور المهاجرة، فكيف تعرف إلى أين تهاجر؟! وكيف تعود إلى المكان الذي أتت منه في السنة الماضية دون أي نسبة من الخطأ؟!.

وقبل الدخول في تفاصيل هذا الأمر ينبغي تعريف الغريزة؛ لأجل تصورها، فهي لغة بمعنى الطبيعة، قال الخليل: «والغَريزةُ: الطَّبيعةُ من خلق صالح أو رديء»[2]، وقال ابن دريد: «والغريزة: الطبيعة، وَالْجمع غرائز، فلاَن كريم الغريزة والطبيعة والنحيتة والنحيرة والخليقة والسليقة، كل ذَلِك وَاحِد»[3].

---

(١) ينظر؛ تشارلز داروين: **أصل الأنواع نظرية النشوء والارتقاء**، ص٣٠٣، ترجمة: إسماعيل مظهر، دار التنوير ـ بيروت، ط ٤: ٢٠١٦م، وروبرت: **خرافة التطور**، ص١٢٥.

(٢) الخليل بن أحمد: **العين**، باب الغين والزاي والراء معها، ٣٨٢/٤.

(٣) الأزدي، ابن دريد؛ محمد بن الحسن: **جمهرة اللغة**، حرف الراء في الثلاثي الصحيح، باب =

وقال في اللسان: «والغريزة: الطبيعة والقريحة والسجية من خير أو شر؛ وقال اللحياني: هي الأصل والطبيعة؛ قال الشاعر:

إنّ الشجاعة في الفتى والجود من كرم الغرائز

وفي حديث عمر ﷺ: (الجبن والجرأة غرائز)، أي أخلاق وطبائع صالحة أو رديئة، واحدتها غريزة»[1]، وعرفها أبو البقاء بأنها: «ملكة تصدر عنها صفات ذاتية، ويقرب منها الخُلُق إلا أنّ للاعتياد مدخلًا في الخُلُق دونها»[2].

وهي في المصطلح العلمي المعاصر كما قال الدكتور هشام عزمي: «يمكن تعريف الغريزة بأنها هي الميل الفطري الذي يدفع الكائن الحي إلى العمل باتجاه معين تحت ضغط حاجاته الحيوية».

ثم قال: «والأمثلة عليها كثيرة جدًا، تفوق الحصر في الحشرات والطيور والحيوانات المختلفة، مثل بناء العش أو الخلية عند الزنابير والنحل والنمل، وسبل التمويه والتخفي من الأعداء عند دودة القز مثلًا، وهجرات الفراشات والجراد والطيور، والأسماك والزواحف، والثدييات من أوطانها، في مسارات ثابتة محددة، ثم العودة، وفي الإنسان هناك غرائز الجوع والعطش والجنس، وحب البقاء، والأبوة والأمومة، وغيرها، حتى قال أحدهم: إنّ الإنسان لو لم ير الماء قط لبحث عنه، لأن غريزة العطش داخله تهفو إلى الماء وتهدي إليه،

= الراء والزاي مع ما بعدهما من الحروف، ٧٠٦/٢، حققه وقدم له: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط١: ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ومثله عند القزويني، ابن فارس؛ أحمد بن فارس بن زكرياء: مجمل اللغة، كتاب الغين، باب الغين والراء وما يثلثهما، مج (٢) ٦٩٣/٣، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (غرز)، ٣٥/١١.

(٢) أبو البقاء: الكليات، فصل الغين، ص٥٦٦.

وتعتبر الغرائز من المسائل المستعصية على الطبيعيين (Naturalists) أتباع الفلسفة الإلحادية، وأنصار نظرية التطور، لأن عددًا منها موجود في كائنات ذات جهاز عصبي محدود ليس لديه القدرة على بناء خطط وتكتيكات معقدة للتمويه وخداع الأعداء، كذلك عدد من هذه الغرائز غير قابل للانتقال وراثيًا، لكونه في أفراد عقيمين مثل شغالات النحل أو النمل، لهذا فإنّ وجود الغرائز في الكائنات المختلفة يدل على أنّ هناك من غرزها فيها، وفيها دلالة بارزة على وجود الله وخالقيته وعلمه وحكمته»[1].

تجلي قوة الغرائز في هجرة الطيور:

من أغرب ما يشاهد من آثار الغرائز ما يكون في هجرة الطيور كالطائر المعروف بـ (الخرشنة) وهو طائر قطبي يقطع سنويًا ما يعادل ٣٣ ألف كيلو متر، وفي الصيف يكون في القطب الشمالي حتى إذا اقترب الشتاء عبر الأرض من أقصاها لأقصاها، ليمضي شتاءه قرب القطب الجنوبي، لأن المناطق القطبية هي التي تحتوي على مصادر وفيرة من الطعام المناسب لهذا الطير، وكذلك المناخ المناسب، وإنما حار العلماء في كيفية علم هذا الطير بوجود الغذاء المناسب له وبكميات وفيرة على هذا البعد الشاسع، ولم يجد التطوريون جوابًا عندهم ليردوا على هذا التساؤل[2].

وكذلك هجرة أحد أنواع طائر (السنونو) في أمريكا الشمالية، فهي لا تقل غرابة عن ذلك، فإنّ هذا الطائر هو من صغره لا يصل وزنه إلى ثلاثة أرباع الأونصة، وهو يهاجر كل خريف من ألاسكا من أمريكا الشمالية ليقطع القارة الأمريكية عرضًا حتى يصل إلى الشواطئ الشرقية من كندا، وهناك يمكث فترة

---

(١) د. هشام عزمي: **الإلحاد للمبتدئين**، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) ينظر؛ روبرت: **خرافة التطور**، ص ١٢٧، وينظر كذلك؛ الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ١٦٥.

يتزود فيها بالطعام، فيزداد وزنه قليـلًا، وينتظر وصول موجة هوائية باردة ليطير معها في الطريق إلى محطته النهائية في أمريكا الجنوبية، ولكن ذلك بخط غير مستقيم، والأمر المدهش الذي يذهـل العقول أنه يطيـر أولًا باتجاه الجنوب الشـرقي، وكأنه مهاجر إلى إفريقيا ثم في نقطة ما من المحيط الأطلسي وعلى ارتفاع ٣٠ كم فوق سطح البحر يلتقي بتيارات هوائية متهجة إلى أمريكا الجنوبية فيتوجه مع هبوبها لتجعل طيرانه سهلًا سريعًا ميسـرًا إلى أن يصل إلى محطته النهائية، وتكون أمريكا الجنوبية في ذلك الوقت تتمتع بفصل الصيف المنعش.

وما أكثر الأسئلة التي تطرحها هذه الرحلة، فمن أين له أن يعرف أنّ عليه أن ينتظر في كندا إلى وصول تلـك الموجة الهوائية البـاردة؟ ولماذا يكون طيرانه علـى ارتفاع ٣٠ كم ـ وهـو يفوق ارتفـاع الطائـرات بكثير ـ حيث الأكسجين يقل بنسبة ٥٠٪ عن سطح الأرض؟ ثم كيف يتجه نحو إفريقيا حتى يلتقي بالرياح التي تواتيه لتوصله إلى وجهته النهائية، وهي مختلفة عن وجهته السـابقة؟ وكيف يحدد هذا الارتفاع بالذات وفي ذلك المكان بالذات، وفي ذلك التوقيت المعين من العام؟ فمن أيـن أن يعلم بأن هناك في ذلك الوقت رياحًا مواتية لمواصلة رحلته بسـهولة إلى أمريكا الجنوبيـة؟! وبأي طريقة يحدد هذه الاتجاهات؟.

إنّ ما يقوم به هذا الطائر في تلك الرحلة العجيبة يقوم به دون إدراك منه بما هو فاعل، وإنمـا هو بدافع غريزي بحت، فمن أين اكتسـب ذلك الدافع الغريزي إلا ممن خلقه؟ وهل يمكن للطبيعة أن تكون هي التي منحته ذلك؟ فإنه لا يتأتى كون هذا الأمر يعود إلى اكتساب هذا الطائر خبرته هذه عن طريق الدراسة أو التعلم، أو طريق الوراثة، بحيث يقوم كل جيل من جنسه بما كان يقوم به سـابقه، إلا أن يكون غريزة ثابتة في تكوينه منذ كان موجودًا، وليس هناك من طريقة يمكن أن يتقبلهـا العقل والمنطق والعلـم لوجود مثل هذه

الغرائز إلا أن تكون وضعًا إلهيًا، تم إيـداع برمجته في تكوين هذا الطائر من قبل خالق سـميع بصير عليم خبير حكيم ذي قوة وسلطان، وهو الذي صمم وخلق هذه الطيور، وأودع فيها هذه الغرائز[١].

وكذلك طائر (**الوقواق**) الذي يهاجر من جزر تقع وسـط المحيط الهادي ليضع بيضه في نيوزلندا، ثم يعود إلى الجزر التي جاء منها، وبعد أن تفقس البيوض وتخرج الفراخ، وتقوى على الطيران، تهاجر مسـافة (٦٠٠) كلم إلى الجزر التي جاءت منها أصولها، فتلتقي هناك بأصولها التي لم تعهدها، إذ لم تكن عندما وضعتها إلا بيوضًا، فكيف تعرف موطنها الأصلي فتعود إليه وراء أصولها، ومن الذي يدلها على هذه الأماكن الشاسعة، فوق بحر خال من أي معالم يهتدى بهـا[٢]، فإنّ هذا لا يمكن أن يوجد له تفسـير إلا أنّ هذه غريزة خلقها الله في هذه الطيور قبل ولادتها.

وهناك طائر آخر يعيش في **ويلز** جنوب بريطانيا، ويهاجر منها إلى البرازيل تاركًا فراخه خلفه لتلحق به عندما تكبر، وتصبح قادرة على الطيران، في رحلة تستغرق ١٦ يومًا، بسرعة تقارب (٧٠٠) كيلو متر يوميًا، لتتبع أصولها، وقد قام العلماء لإجراء تجربة مثيرة ليختبروا مدى قوة غريزة هذه الطيور، فاكتشـفوا العجب العجاب، حين أخذوا أحد هذه الطيور من **ويلز** إلى **بوستن** في شرق الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تبعد عن مكان هجرتها (٤٨٠٠) كلم، وطار كل هذه المسافة وعاد إلى أعشاشه، ولم يستغرق ذلك أكثر من ١٢ يومًا.

والعجيب في ذلـك ما أثبتته التجـارب أنّ هذه الملاحـة العجيبة عبر الأجواء تعتمد فيه الطيور على الشـمس ومواقع النجوم في تحديد اتجاهها،

---

(١) ينظر؛ روبـرت: **خرافة التطـور**، ص ١٢٧ ـ ١٢٩، والجنـدي: **العلم يؤكد شـكوك داروين**، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) ينظر؛ روبرت: **خرافة التطور**، ص ١٢٩، والجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ١٦٧.

وبما أنّ النجوم والشمس تختلف مواقعها باختلاف الفصول، وتتغير باستمرار، فقد استدل العلماء من ذلك على أنّ الطيور مزودة بساعات داخلية تعين على التغلب على هذه المعضلة[1].

فهل ترى أيها القارئ الكريم أنّ هذه الغريزة الحية في طبيعة هذه الطيور يمكن أنّ تكون هبة من الطبيعة الميتة، وكيف توجه هذه الطبيعة هذه الطيور إلى هذه الوجهات المتعددة، تابعة فراخُها أمّاتِها بحسب اختلاف أجناسها وتعدد وجهاتها؟! وكيف يمكن أن تكون مكتسبة بتطور أو طفرات أو تجربة، أوَتصدق ذلك ولا تصدق أن يكون ذلك تصميمًا وتدبيرًا ممن يعلم السر في السماوات والأرض، الذي بيده ناصية كل دابة ولجلاله يعنو كل شيء؟؟!.

فليت شعري؛ أين عقول الملحدين الذين يكابرون بدهيات الأمور، ويدَّعون ما لا يتصوره عقل ولا يخطر ببال ذي لب فرارًا من الواضح إلى المشكل، ومن الحقيقة إلى الوهم؟!.

وإذا كانت عقول البشر إلى الآن لم تستطع أن تخترع نظام تحديد المواقع، فكيف يمكن للطبيعة التي لا تعي ولا تعقل أن تخترع ذلك من تلقاء نفسها؟! فإنّ هذا النظام موجود في الطيور قبل أن يكتشفه إنسان بقرون لا تحصى، على أنّ الغريزة في هجرة الطيور لا تنحصر في تحديد جهتها التي تهاجر إليها فحسب بل تدخل حتى في تشكيل أسرابها، فطائر الإوز مثلًا عندما يهاجر يطير بأسراب لها تشكيل هندسي مدروس بعناية، فهو على شكل هذا الرسم (V) رأسه في الأمام، وهو تشكيل له فائدتان:

الأولى: أنه يتيح لجميع الطيور أن تكون لها رؤية واضحة، لانكشاف الجو أمامها، بحيث لا يحجب طائر الرؤية عن غيره من الطيور.

---

(١) ينظر؛ روبرت: **خرافة التطور**، ص١٣٠، والجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص١٦٧.

الثانية: أنه يجعل الطيران أسهل بالنسبة إلى الطيور في الخلف بسبب التيارات الهوائية التي تتولد من الطيور المتقدمة، وتتمكن أيضًا أن تتبادل مواقعها باستمرار، فإن الطائر المقدم يبذل الجهد الأكبر، فإن تعب حل محله طائر آخر من الطيور المؤخرة، التي تبذل جهدًا أقل، فيا ترى من أين تعلمت هذه الطيور هذه الدقائق كلها فأتقنتها هذا الإتقان تطبيقًا وعملًا؟ فإنّ ذلك ليس هو نتيجة تجربة سابقة إذ لم تتقدم هجرة تعلمت منها الطيور ذلك، وإنما هي غريزة أودعها الله سبحانه فيها منذ ولادتها، أو بالأحرى أنها ولدت بها[1].

ظهور أثر الغريزة في بناء الطيور أعشاشها:

على أنّ هذه الغريزة العجيبة في أنواع من الطير لا تنحصر في الهجرة فحسب، فإنّ بناء أعشاشها هو مثال آخر مذهل يدل على ما أودعها الله ﷻ من سر هذه الغريزة التي تهتدي بها إلى مصالحها، كما قال الكاتب العلمي (ج. ر. تايلور): «لا يوجد أي دليل يثبت أنّ الجينات لها أي دور مهما كان ضئيلًا في الأنماط الغريزية المعروفة مثال على ذلك، تلك العملية المتسلسلة المتقنة التي تقوم بها الطيور لبناء أعشاشها»[2].

ودونك أمثلة من ذلك:

١ ـ الطائر ذو المنقار الضخم:

«إنّ قصة بناء عش هذا الطائر عجيبة تبدأ بها الأنثى حين تبحث عن تجويف مناسب في إحدى الأشجار، ثم تأتي ببعض الطين وتسد فتحة التجويف، إلا ثغرة بقدر مرورها إلى داخله، فإذا استقرت داخله جاء الذكر

---

(١) ينظر؛ روبرت: **خرافة التطور**، ص ١٣٠ ـ ١٣١، والجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ١٦٨.

(٢) روبرت: **خرافة التطور**، ص ١٣١، وينظر؛ الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ١٦٨، نقلا: عن كتاب **سر التطور العظيم** لغريغوري ر. تايلور، ص ٢٢١.

وأغلق بالطين أيضًا ما بقي من الفتحة إلا ثقبًا صغيرًا يكفي لإدخال الطعام إليها، وتحتضن الأنثى البيوض حتى تفقس، وفي تلك الفترة يأتيها الذكر بالطعام من ذلك الثقب، ويستمر في ذلك حتى تفقس البيوض، فيستمر الذكر في جلب الطعام للأنثى ولفراخها، وبعد أن تكبر الفراخ قليلًا تخرق الأم الفتحة وتخرج منها، وثمَّ يحدث أمر عجيب جدًا، وهو أنّ الفراخ نفسها تقوم بإصلاح الخرق الذي قامت به الأم، بعد ذلك يستمر الذكر والأنثى يتعاونان في جلب الطعام للفراخ، حتى إذا اشتد عودها وأصبحت قادرة على الطيران؛ تقوم بخرق فتحة التجويف من جديد، فتخرج من عشها لتبدأ حياتها الجديدة»[1].

٢ ـ طائر السمامة:

«ولا تقل قصة أعشاش هذا الطائر غرابة عن سابقتها، فهو يقوم ببناء العش من لعابه، وقبل أن يحل موسم التكاثر تتضخم الغدد اللعابية لهذا الطائر، وتفرز سائلًا مخاطيًا لزجًا، فيقوم بانتقاء مكان مناسب على صخرة مستوية، فيضع شيئًا من هذا السائل على المكان الذي اختاره ليشكل طبقة أولى، وكلما تصلبت طبقة يضع طبقة جديدة، ولا يكون ذلك عشوائيًا، بل بشكل هندسي متقن، والنتيجة النهائية لهذا العمل العجيب عش جميل على شكل فنجان تضع فيه الأنثى بيوضها، فكيف تعلم هذا الطائر أن يستخدم لعابه لبناء عشه بهذه الطريقة العجيبة؟!»[2].

٣ ـ الطائر الخياط:

«واسم هذا الطائر الذي يعيش في جنوب آسيا مشتق من طريقة بنائه لعشه، فهو يقوم حرفيًا بخياطة عشه، إذ يعمد إلى ورقتين كبيرتين من أوراق

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص١٣٢، «بتصرف» وينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص١٦٩.

(٢) روبرت: خرافة التطور، ص١٣٢، «بتصرف» وينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص١٧٠.

الشجر، فيثقب أطرافها بمنقاره، ثم يقوم بصنع خيوط مما تيسر له من مواد الطبيعة حولـــه، من قطن أو لحاء أو حتى من بعـــض بيوت العنكبوت، ثم يســـتخدم منقاره كإبره، ثم يقوم بخياطة الورقتين بواســـطة تلك الخيوط، حتى يصنع من ورقتي الشجر الكبيرتين عشًـــا على شكل فنجان، فكم في هذا من عجب»[1].

٤ ـ طائر الغرة:

«ويســـمى بالأقرن الأبله، وهذا الطائر تتميز طريقة بناء عشـــه من حيث المكان الذي يختاره، فهو طائر مائي يبني عشه على جزيرته الخاصة، وبعد أن يحدد المكان الذي يريد أن يبني فيه الجزيرة ـ ويكون عادة على شاطئ البحر في مكان يتراوح عمقه ما بيـــن متر إلى متر ونصف ـ يبـــدأ بجمع الأحجار بمنقاره ويلقيها في المكان المطلوب ويســـتمر في ذلـــك حتى تظهر الجزيرة فوق الماء، ويعلم المهندس أن الجزيرة يجب أن تبدأ بقاعدة واســـعة في قاع الماء، ثم تضيق صعودًا حتى تبلغ مســـاحتها مســـاحة العش المطلوب فوق ســـطح الماء، وهذا ما يحدث بالضبط، إذ قد تبلغ مساحة القاعدة أربعة أمتار مربعة، وقد يبلغ وزن الأحجار التي يستخدمها هذا الطائر لبناء عشه أكثر من طن، حتى إذا ظهرت الجزيرة واســـتوت يبدأ بجمع المواد المطلوبة من قش وأغصان وغيرها، ويبني عشه في جزيرته الخاصة»[2].

وكل هذه الطرق العجيبة التي تستخدمها الطيور في بناء أعشاشها، والتي تم عرض بعضها، لم تعرف الطيور الشابة بتعلمها من أصولها، ولكن جاءتها

---

(١) روبرت: **خرافة التطور**، ص ١٣٣، «بتصرف» وينظر؛ الجندي: **العلم يؤكد شـــكوك داروين**، ص ١٧٠.

(٢) روبرت: **خرافة التطور**، ص ١٣٣، «بتصرف» وينظر؛ الجندي: **العلم يؤكد شـــكوك داروين**، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

من طريق الفطرة والغريزة، ولا يمكن بحال أن تكون هذه الطرق ناشئة عن التطور، لأنها لا علاقة لها بالوراثة ولا بالجينات، ولكنها غرائز موجودة في الكائنات منذ وجدت تلك الكائنات، وكل ما سبق ذكره من معرفة هذه الطيور بخرائط استودعت رؤسها وألهمت القدرة على قراءتها، لتحديد مواقعها وطرق هجرتها، فإنّ كل ذلك لا يمكن إلا أن يكون صادرًا من قوة علياء خارقة، قوة عليم خبير، هو بكل شيء بصير وعلى كل شيء قدير، وإلا فكيف يفسر ذلك؟!.

عجائب أخرى في أنواع من الطيور وغيرها من الحيوانات:

هذا؛ وكم في أنواع من الطير وسائر الحيوان من عجائب لا تحصى يرتد دونها عقل الإنسان خاسئًا حسيرًا، فإذا كان الإنسان استطاع أن يخترع قبل ثلاثة قرون أو أكثر ميزان الحرارة، وأخذ يطوره، حتى وصل الآن إلى ما انتهى إليه، فكم من أنواع الحيوان سبق الإنسان إلى ذلك بمراحل، حتى أنّ الجهاز الذي اخترعه الإنسان يعد بدائيًا إذا ما قورن ببعض الموازين الموجودة في الطبيعة الحيوانية، فمناقير بعض الطيور تستطيع تحسس الفرق في الحرارة إذا بلغت درجة واحدة، بمقياس فهرنهايت، وحسبك أن قرون الاستشعار في البعوض الذي هو من أدق الحيوانات الطائرة حجمًا، وأخفها وزنًا، تستطيع تمييز الفرق إذا بلغ ٣٠٠/١ من الدرجة، ولعل أعجب الغرائب في هذا المجال هو نوع من الأفاعي يسمى (أفعى الجلجلة أو ذات الأجراس)، فعلى جانب من رأسها توجد بقعة صغيرة يمكنها أن تتحسس فرقًا في الحرارة يبلغ ٦٠٠/١ فهرنهايت.

ولا تسأل عما أوتيت حيوانات من قوة الإبصار التي لم تكن في الإنسان، فإنّ هذه القوة تبلغ عند الطيور حدًا معجزًا، ذلك لأن الأنسجة التي تغلف عيونها من الداخل تحتوي على خلايا بصرية تفوق مثيلاتها في الكائنات الأخرى أضعافًا مضاعفة، ذلك أنّ قدرة العين على رؤية الأجسام

الصغيرة والبعيدة تتعلق بشكل كبير، بكثافة الخلايا البصرية التي تتألف منها الطبقة الداخلية، لشبكية العين، ففي الإنسان مثلًا تبلغ هذه الكثافة (٢٠٠,٠٠٠) خلية بصرية في الملمتر المربع الواحد، ولكنها في بعض الطيور تبلغ هذه الخلايا نحو مليون خلية في هذا المقدار نفسه، بالإضافة إلى ذلك فإنّ مرونة عدسة العين في الطير عالية جدًا، وهي أضعاف مرونة عين إنسان، ولأجل ذلك تتمكن من تغيير بؤرة النظر، ومسافة الوضوح بشكل سريع جدًا، وهو ما مكنها من الطيران في الغابات وبين الأشجار، وأن ترى بوضوح كل ما تقع عينها عليه، سواء كان قريبًا أو بعيدًا، على أنّ بعض أنواع الطيور تحتوي كل عين من عينيها على بقعتين تتمتعان بتركيز شديد في الخلايا البصرية، يفوق بقية أجزاء الشبكية، وهو مما مكن لها من رؤية يمكن أن نعتبرها بمقاييسنا خارقة.

وإذا كان الأمر كذلك أفلا يكون العلم والعقل والمنطق كلها متضافرة تدل على أنّ عيون الطير ليست وليدة مصادفة عمياء، وإنما هي من صنع عليم خبير، علم ﷻ حاجة الطير في طيرانه إلى هذه القوة في الإبصار، فأعطاه من قوة النظر ما يفوق به غيره.

على أنّ أي عين لا يمكن أن تصلح للاستخدام لو نقص من الأجزاء التي تكونها أي جزء ـ مهما كان صغيرًا ـ فجزء من العين لا يستطيع الإبصار إطلاقًا، وكيف يمكن للتطوريين مع هذا أن يثبتوا تطور العين المزعومة؟ حتى أنّ داروين نفسه وقف حائرًا مشدوها أما هذه المعجزة الربانية، وصرح بهذا في كتابه **أصل الأنواع** قائلًا: «اعترف بصراحة أنّ افتراض تطور العين بواسطة الاصطفاء الطبيعي أمر مناف للعقل إلى أقصى الحدود، نظرًا إلى ما تتمتع به العين من قدرة فذة على ضبط الرؤية، وتوضيحها، مهما اختلفت المسافات عن طريق التحكم بالطور البؤري لسقوط الضوء، وقدرة العين المدهشة على التحكم بكمية الضوء

التي تدخل إلى العين»[1]، ولكنه مع اعترافه الصريح هذا ناقض نفسه من أجل الخروج من هذا المأزق عندما سوغ أن يكون تطور العين حدث تدريجيًا بطفرات متراكمة على مدى أزمان بعيدة، وهو افتراض لا دليل عليه ولا يقبله العقل، فلا يوجد أحد يستطيع الإبصار بنصف عين أو بعين ينقصها جزء أو عضو[2].

مكابرة داروين لما بهره من معجزة العين بأوهام يحاول بها طمس الحقائق:

لقد علمت مما تقدم كيف وقف داروين أمام معجزة العين مبهورًا حائرًا، إذ لم يجد ما يجيب به على إشكال افتراض تطورها بواسطة الاصطفاء الطبيعي، بل اعترف أنّ ذلك أمر مناقض للعقل إلى أقصى الحدود، غير أنّ المكابرة أبت عليه أن يقبل الحقيقة ويخضع لها وينقاد، وإنما حاول أن يسوغ باطله بدعوى «أنّ وجود حيوانات مختلفة على الأرض لها عيون مختلفة منها بسيطة ومنها معقدة يجعل صعوبة الاعتقاد بإمكانية تطور العين حتى تصل إلى ما هي عليه من التعقيد والكمال، وإن كان يستعصي على التخيل أمرًا ممكنًا»، والتناقض في كلامه هذا بيّن واضح، فكيف يكون تطور العين مستعصيًا على التخيل مع إمكانه في نفس الوقت؟! على أنه ذكر في كلامه السابق بأن افتراض تطورها بواسطة الاصطفاء الطبيعي أمر مناف للعقل إلى أقصى الحدود، وكيف يكون ما هو مناف للعقل إلى أقصى الحدود أمرًا ممكنا؟!.

على أنّ داروين نفسه أشار إلى القصور الشديد في نظريته عند تعرضها للعين، فيما كتبه ردًا على رسالة جاءته من البروفيسور **آسا غراي** حيث قال: أتفق معك على أنّ العين نقطة ضعف في نظريتي، وما زالت حتى اليوم تصيبني ما يشبه قشعريرة باردة كلما خطرت لي، ولكنني أتغلب عليها.

---

(١) ينظر؛ داروين: **أصل الأنواع**، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) ينظر؛ روبرت: **خرافة التطور**، ص١٢٠ ـ ١٢١.

ولا يخفى أنّ هذا إقرار واضح من داروين بـأنّ العين طامة كبرى مقلقة بالنسبة له، وأنّ تعقيدها وكمالها لا يمكن تسويغه بنظرية التطور، أما ما يزعم من تغلبه على ما يصيبه من قلق وقشعريرة فهو فرار إلى طريقة بعيدة كل البعد عن العلم والمنهج العلمي، حين يحاول إقناع نفسه وقرائه بأنّ وجود أنواع مختلفة من العيون لكائنات تعيش على الأرض متفاوتة في تعقيدها هو برأيه دليل على أنّ العين من الممكن أن تكون ناتجة عن تراكم الطفرات، مع الاصطفاء الطبيعي عبر الزمن الطويل، ولا يخفى أنّ هذه الطريقة في البرهان بعيدة كل البعد عن المنهج العلمي الذي يعتمد على التجربة والبرهان والدليل لا على الإنشاء والتوقع والتخيل، وخاصة أنّ داروين يتكلم عن العين المعروفة في زمانه لا في زماننا.

على أنّ العين في زماننا ليست عينًا أخرى غير العيون السابقة وإنما هي نفسها، ولكن ما نعرفه عنها اليوم مختلف جدًا، ذلك أنّ الكمال والتعقيد الذي أذهل داروين وأقلقه كان على المستوى التشريحي للعين، لا على مستوى الجزيئي ولا الذري، إذ أقصى ما كان ممكنًا الوصول إليه بالوسائل والمجاهر المتوفرة في زمانه لا يتجاوز الخلية، فشبكية العين بالنسبة له نسيج رقيق لا يتجاوز سمكه نصف ميليمتر، والعصب البصري خيط رفيع سمكه أقل من ميلتمترين ولم يكن يعرف أن كلًا من هذين العضوين عالم معقد قائم بذاته، وإنّ ما يجري في خلاياهما من عمليات معقدة وما فيها من معلومات وبرمجيات وما تحتويه من أنزيمات وأحماض نووية ومورثات وجينات وسوائل كل ذلك كان غير معروف في زمان داروين، وكانت الخلية بمثابة الصندوق الأسود مليء بالأسرار كما يقول العالم **مايكل بيهي** في كتابه **صندوق داروين الأسود**[1].

---

(١) ينظر؛ الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

ولنسمع إلى صوت العلم والحكمة في تبديد أوهام داروين وذلك فيما ذكره الأستاذ المهندس فداء ياسر الجندي، حيث قال: «فإذا كان داروين يصاب بالقشعريرة ويعترف بضعف نظريته الشديد أمام تعقيد وكمال العين، مع أنّ كل ما اكتشف من تعقيد العين وكمالها ليس إلا نقطة صغيرة في بحر عرمرم مما اكتشفه العلم عنها منذ عصره حتى اليوم، ماذا كان داروين سيقول لو كان بيننا اليوم، واطلع على ما كشفه العلم من تعقيد مذهل وإتقان وظيفي للعين لا يمكن وصفه إلا بالكمال؟!.

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من أن نأخذ قراءنا في جولة ممتعة داخل العين لنطلع على طرف يسير جدًا من خصائصها وصفاتها وطريقة عملها، أقول يسير جدًا لأن الكلام عن العين ووظائفها وطريقة عملها لا تكفي لتغطيته المجلدات والموسوعات.

ماذا كان داروين سيقول لو علم أنّ شبكية العين تحتوي على أكثر من مائة مليون خلية بصرية؟ وماذا لو علم أن هذه الخلايا أنواع؟! النوع الأول: منها هو الخلايا المخروطية الشكل وعددها يقدر بسبعة ملايين، وهي مختصة بتمييز الألوان وتوضيح الرؤية وتصفيتها في الإضاءة العادية والعالية، ومنها الخلايا القضيبية الشكل، ويقدر عددها بمائة مليون خلية، وهي مختصة بالرؤية في الإضاءة الخافتة، وكلا النوعين متوضع في الشبكية بطريقة معينة محددة دقيقة، لو اختلت أدنى اختلال لأصيب الإنسان بخلل في بصره، وهناك نوع ثالث اكتشفه العلماء حديثًا، ويسمى الخلايا العقدية الحساسة للضوء، وهذه لا علاقة لها بعملية الإبصار، ولكنها تتحسس ضوء الشمس، وتتفاعل مع شروقها وغروبها وسقوطها، وتتواصل مباشرة مع مراكز معينة في الدماغ البشري، لتتحكم بما يعرف بالساعة البيولوجية للإنسان، وبنمط ونظام نومه، وما زالت الأبحاث قائمة حول هذه الخلايا، لأنها اكتشفت حديثًا جدًا.

وماذا لو علم داروين كيف تتعامل العين مع الضوء؟ هل علم داروين أنه فور وقوع الضوء على الشبكية تقوم الفوتونات التي يحملها شعاع الضوء بالتفاعل مع نوع من الجزيئات يسمى الواحد منها ريدوبيسين فيتغير تركيب هذه الجزيئات لتقوم بسلسلة من التفاعل الكيميائية المعقدة، ينتج عنها أن يتم إرسال نبضات كهربائية عبر العصب البصري إلى مقر الإبصار في مؤخرة الدماغ؟ ثم تعود تلك الجزيئات إلى حالتها قبل تفاعلها مع الفوتونات، لتستقبل شعاعًا ضوئيًا جديدًا وفوتونات جديدة؟ ثم تقوم بتفاعلات جديدة وترسل نبضات جديدة؟ وأنّ هذه الدورة من التفاعلات لا تستغرق أكثر من بيكوثانية وهي وحدة لقياس الزمن تعادل جزءًا من تريليون جزء من الثانية؟.

وهل كان داروين يعلم أنّ العصب البصري الذي ينقل تلك النبضات والذي لا يزيد قطره على ١,٨ مليمتر فقط، يتألف من حزمة تضم أكثر من مليون ومائتي ألف من الألياف العصبية البصرية؟ ولنا أن نتخيل ما هو قطر كل ليف منها!! وهل كان يعلم أنّ الألياف التي تشكل هذه الحزمة المذهلة ليست نوعًا واحدًا بل أنواعًا متعددة؟ وأن كل نوع منها يختص بنقل نوع محدد من الصورة؟.

وهل كان يعلم أنّ مقر الإبصار في الدماغ يقوم بمعالجة النبضات الكهربائية الواصلة إليه ليحولها إلى صورة، وذلك عبر سلسلة غاية في التعقيد من التفاعلات الكيميائية والعمليات العصبية التي ما زال العلم يكشف المزيد عنها حتى اليوم.

إذا كانت المعلومات البدائية التي عرفها داروين عن العين جعلته يقر بأن افتراض تطورها أمر مناف للعقل والمنطق إلى أبعد الحدود، فماذا نتوقع منه لو أنّ العلم في زمانه توصل إلى ما يعرفه العلم اليوم عن العين وطريقة عملها المذهلة المدهشة؟!.

لقد أكد العلم الحديث وبشكل قاطع، أنّ قلق داروين الشديد من تأثير تركيب العين وطريقة قيامه بوظيفتها في الإبصار على نظريته كان في محله تمامًا، وأثبت بما لا يدع مجالًا للشك أنّ الكلام عن تطور العين ضرب من الخيال لا يؤيده علم ولا عقل ولا منطق، ومن يكابر ويشكك في هذا الأمر، فإنّ العقل يتحداه في أن يفسر لنا كيف يمكن للطفرات والاصطفاء الطبيعي أن ينتج عنها مثل هذا العضو الخارق، نريد ذلك ببراهين علمية قاطعة ملموسة.

إن كانت العين قد تطورت كما يدعون، فما هو مسار تطورها؟ هل كانت عيون أسلافنا خارج الجمجمة ثم حصلت طفرات نتج عنها كائنات بجماجم لها تجويف مناسب للعين، ثم قام الاصطفاء الطبيعي بإبادة التي لا تجاويف عينية لها والإبقاء على تلك التي لها تجاويف؟ هل كان الضوء يدخل العين بشكل عشوائي، فيقع بعضه أمام الشبكية وبعضه خلفها وبعضها عليها، فحصلت طفرة أو طفرات نتج عنها كائنات بعدسات مرنة تتكيف مع الضوء ويتغير بعدها البؤري مع تغير بعد الأجسام عن العين، ثم قام الاصطفاء الطبيعي بإبادة تلك التي لا عدسة مرنة لها، وأبقى على الكائنات ذات العدسات المرنة؟.

والشبكية؟ وما أدراك ما الشبكية، كيف كانت حالتها الأولى قبل أن تتطور؟ وكيف تطورت حتى ترتبت خلاياها التي يزيد عددها على المائة مليون بهذا الشكل العجيب، وتركز كل نوع منها في مكانه حتى تعطي الإنسان هذه الرؤية، بجميع الألوان وفي كل الأحوال: في الضوء الساطع والخافت، وللأجسام البعيدة والقريبة.

وتلك العمليات المعقدة الخارقة التي تنقل شعاع الضوء عبر العصب البصري؟ كيف كانت تجري في أسلافنا، وكيف تطورت حتى وصلت إلى

ما هي عليه؟ وكيف تعلمت الشبكية قوانين الضوء ومكونات أشعته، وخصائص الفوتونات وأطوال أمواج كل لون وطريقة تفاعل أشعته مع مختلف الجزيئات، ثم كيف قامت تلك الخلايا بتصنيع الجزيئات الخاصة المناسبة للتفاعل مع الفوتونات وتحويلها إلى جزيئات كيمائية ثم إلى نبضات كهربائية ثم إرسالها عبر العصب البصري للدماغ ليحولها مرة أخرى إلى جزيئات كيمائية ثم إلى صورة بصرية، كما رأينا آنفًا.

هل يستطيع التطوريون أن يثبتوا كيف تطورت شبكية العين حتى قامت بكل هذه الأمور ووصلت إلى ما هي عليه من دقة وروعة وإتقان وإعجاز؟ هل كان لنا أسلاف بشبكيات لا تتقن هذه الأعمال، فنشأت طفرات نتج عنها كائنات بشبكيات متطورة ثم حدث الاصطفاء فانقرضت الكائنات ذوات الشبكيات المتخلفة وبقيت ذوات الشبكيات المتطورة؟ أليس هذا ما تزعمه نظرية داروين؟ أرونا الأدلة على ذلك حتى نصدقها.

والعصب البصري العجيب، أرونا متى حدث ذاك الثقب في الجمجمة الذي يسمح بمروره للدماغ، وكيف تطور حتى تمكن من نقل النبضات الكهربائية العصبية من الشبكية إلى الدماغ ليحولها مرة أخرى إلى جزيئات كيميائية ثم إلى صورة بصرية؟ وكيف كان العصب البصري في أسلافنا المزعومين؟ أرونا دليلًا على وجود بشر بعصب بصري بدائي، ثم أرونا دليلًا على حدوث طفرات نتج عنها كائنات بعصب بصري أكثر تطورًا، فانقرض الجنس البدائي وبقي الجنس المتطور.

هل كان أسلافنا المزعومون مصابين بالحول، لأنهم كانوا يبصرون بعينين اثنتين، تنقلان لدماغهم صورتين، فتطوروا حتى أصبح الدماغ يدمج صورتي العينين في صورة واحدة بعملية غاية في التعقيد والإعجاز يسميها العلماء (المطابقة)؟.

وهل... وهـل... وكيـف... وكيف... لقد سـطر العلماء الموسـوعات والمجلدات في خصائص العين البشـرية وطريقة عملها وتعاملها مع الضوء، ولو قارنا العين التي عرفها داروين فأذهلته وأمرضته وشككته، مع العين التي نعرفها اليوم فكأننا نقارن لعبة أطفال على شكل سفينة فضاء، مع سفينة فضاء حقيقية بكل أجهزتها وبرمجياتها ومعلوماتها وخصائصها ووسائل اتصالها.

لقد تجاهل داروين، وكذلك يفعل كل من يتبنى نظريته حتى اليوم، ثلاثة أمور حول العين، لا يتحدثون عنها إطلاقًا عند الحديث عن نظرية التطور.

الأول: هو كيف ومتى نشأت العين الأولى على سطح الأرض؟.

والثاني: هو كيف تتعامل العين مع الضوء فتحوله إلى صورة مرئية؟.

والثالث: هو كيف تطـورت العين البدائية المزعومـة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

ابحثوا في كتبهم ومراجعهم فلن تجدوا عن هذه الأمور شـيئًا، وإن وجد شيء فهو كلام إنشائي لا يمكن قبوله بأي مقياس من مقاييس العلم والبحث العلمي والتجربة والدليل والبرهان، ومن ذلك مثلًا ما يقوله **ريتشارد داوكينز** في كتابه **صانع السـاعات الأعمى** حيث يتجاهل كل هـذه الحقائق المذهلة المدهشة، ولا يجد ما يبرر عجزه عن تبريرها بشكل علمي إلا أن يقول: (ليس صحيحا أن كل جزء (من أي نظام) ضروري لكي ينجح النظام في العمل، إن نصف عين أو أذن أو نظامًا بدائيًا للسـمع والبصر، هو بلا شـك أفضل من لا شيء، لا يستطيع الكائن أن يبصر بلا عيون، ولكن لو كان لديه نصف عين فإنّه يستطيع أن يستدل على اتجاه فريسـته وحركتها، حتى لو لم يتمكن من رسم صورة واضحة لها).

بهذه العبارة فقط يريدنا **داوكنز** أنْ نغـض الطرف عن كل الحقائق المتعلقة بالعين، ونقول له ولمن يرى رأيه: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]،

أجيبوا عن أسئلتنا السابقة عن تطور العين بالبرهان والدليل والإثبات والحقائق والتاريخ العلمي.

نستطيع أن نقول بناء على ما سبق إنّ داروين كان محقًا تمامًا في قلقه وشكوكه حول العين، وإنّ العلم الحديث لم يبدد هذه الشكوك، بل حولها إلى يقين قاطع، وأنّ العين وحدها واستحالة تطورها هما بلا شك أحد المعاول القاضية التي تهدم نظرية داروين من أساسها» اهـ[1].

وإن عجبت فاعجب أن يجادل المكابرون، ويرتاب الشكاك مع وضوح هذه الصورة وتجلي هذه الحقائق التي لا تدع مجالًا لقبول هذه النظرية الفاشلة، والإخلاد إليها، وهم مع ذلك عاجزون عن الإجابة عن أي تساؤل من هذه التساؤلات الكثيرة، فضلًا عما وراءها من سلسلة التساؤلات التي لا تنتهي، فإلى متى يظلون في ضلالهم يعمهون؟!، وقد وضح الصبح لذي عينين وأطلت الحقيقة بوجهها السافر المشرق، وحجتها الناصعة، وبرهانها اليقين.

آية الله الكبرى في استغناء الخفاش بقوة السمع عن البصر:

هذا؛ وإذا كانت الطيور أوتيت تلك القوة في الإبصار فتهيأ لها أن تؤدي أدوارها في حياتها بكل سهولة ويسر من طيران وغيره، فإنّ مما يطير ما هو بخلاف ذلك، وهو الخفافيش التي لم تؤت من الإبصار إلا مقدارًا ضئيلًا، حتى أنها تكاد تعد عمياء، ولكن الله سبحانه عوضها عن البصر بالسمع، فدقة السمع عندها عجيبة حتى أنّ بعض الباحثين قالوا بأنها تبصر بآذانها، فهي قادرة أن تسمع وقع خطوات الحشرة الصغيرة، وأن تصطادها في الظلام الدامس، وذلك بما أوتيت من القدرة على تحديد مكانها عن طريق السمع،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥ ـ ١٦٠.

وعن طريق الـرادار الذي تتمتع به، فالخفاش مزود بالـرادار قبل أن يخترعه الحلفاء في الحرب العالمية بملايين السنين.

فهو ـ مع كونه ضعيف البصـر، ويعيش في الكهـوف المظلمة ـ يعرف طريقه بواسطة آلية مذهلة، وهاك ما يقوله الخبراء في ذلك، يقول البروفيسور هـ. س. هوغيس: «دعونا نتخيل أكثر أنظمة الرادار تطورًا، وهي التي تزود بها بعض الغواصات والطائرات، ودعونـا نتخيل أنّ هذا النظـام كله تم ضغطه وتصغيره ووضعه في أذن خفاش، فماذا ستكون النتيجة؟ نعم؛ إن نظام الرادار الذي يحمله الخفاش في أذنه معـادل لهذا النظام، فهو مزود بآلية لإرسـال الأمواج فوق الصوتية، وبآلية لالتقاطها بعد أن ترتد إليه عقب اصطدامها بأي شيء، ثم بحواسيب تحسب له اعتمادًا على هذا الارتداد حجم هذه الأجسام، وبعدها عنه، وسرعة حركتها، بدقة شديدة.

بحيث يتمكن في الظلام الدامس من اصطياد أصغر الحشـرات بسـرعة وكفاءة عالية».

وقد أجرى العلمـاء تجربة على قدرات الخفاش، فمدوا حبالًا وأسـلاكًا داخل كهف تعيش فيـه الخفافيش، فكانت تطير بينهـا داخل الكهف بحرية مطلقة دون أن تصطدم بأي حبل أو أي سلك، رغم أنّ الحبال والأسلاك كانت تنتشـر في جميع أنحاء الكهف، وتقطعه طولًا وعرضًا، ومما يجدر ذكره أن الدلافين لديها أيضًا تقنية مشابهة ولكن في الماء لا في الهواء.

وكفاءة نظام الرادار عند الخفاش لا تتوقف عند هذا الحد، وإنما الأعجب والأغرب الأمـر الذي لا زال يحيـر العلماء، وهو أنّ كل خفـاش يميز بدقة متناهية أمواجه الخاصة التي ترتد عنه، فالخفافيش تعيش على شكل جماعات في كهوف مظلمة وقد تبلغ تعـداد جماعة مئات منها، وكلها ترسـل أمواجًا صوتية لترتـد إليها، ورغم اختـلاط الأمواج التـي تطلقهـا كل الخفافيش

لا يختلط علـــى أي منها مهما عاد إليه من أمواج، ويميـــز أمواجه الخاصة به وبذلك يحسب منها بعد الأجسام وحجمها وســـرعتها، فأنى يفسر ذلك بأنه نتيجة مصادفات عشوائية، وطفرات متراكمة؟!"[1].

والجهاز الإلكتروني الذي زودت بـــه أذن الخفاش عجيب جدًا فهو يصدر أصواتًا حادة لا يســـمعها البشر وهي التي تســـمى بالتعبير العلمي أمواجًا فوق صوتية، تخرج منه لتنتشـــر فوق محيطـــه، فإذا اصطدمت بأي جســـم أو عائق ارتدت عنه لتعود إلى أذني الخفاش مرة أخرى، وأذناه تتمتعان بحساسية مرهفة بالغة تضاهي أدق الأجهزة الإلكترونية الحديثة، فتلتقط الموجات المرتدة، ثم تمر بها إلى دماغه، حيث توجد أجهزة إلكترونية أخرى غاية في التعقيد والدقة، تقوم بإجراء معالجة للمعلومات الواردة عبر الأذنين، فتحســـب بكفاءة مدهشة الزمن الذي اســـتغرقته الأمـــواج فوق الصوتيـــة منذ انطلاقها وحتـــى عودتها لمصدرها بعد ارتدادها، وتســـتنتج من ذلك المســـافة التي تفصلها عن الجسم الذي ارتدت عنه، وموقعها منه بالضبط وحجمه وشكله، ومعنى ذلك أنه يمكن أن يقال بأنّ الخفافيش ترســـم في أدمغتها صورة صوتية عن الجسم لا تختلف كثيرًا عن الصورة البصرية التي ترســـمها المخلوقات المبصرة للأشكال بمنأى عن الأشعة الضوئية التي تلتقطها شـــبكية العين، فتحولها إلى نبضات كهربائية يوصلها العصب البصري إلى الدماغ ليصنع منها صورة، والفرق أنّ الصورة في دماغ الإنســـان مصدرها أمواج ضوئية، وفي دماغ الخفاش أمواج صوتية، وأنّ الصورة في دماغ الخفاش لا يعرف غيره كيف تبدو، إذ لم يلج أحد إلى دماغه، ولكن الذي نعرفه أنها كافية تمامًا لتكوين تصور دقيق عن الوسط المحيط به، ولذلك أشبهت الصورة البصرية، وبسبب ذلك قالوا أن الخفاش يبصر بأذنيه"[2].

---

(١) ينظر؛ روبرت: خرافة التطور، ص١٢١ ـ ١٢٣.

(٢) ينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

كل ذلك عمل متقن بأسبابه المحكمة ونظامه الدقيق ووسائله المؤدية إلى نتائجه المرادة، ولو كان أمرًا عشوائيًا ليست وراءه حكمة حكيم وقدرة قادر وإرادة بصير بكل شيء عليم بكل ما دق وجل لانعدم منه الإتقان، واختل فيه النظام، وفشلت وسائله فلم تؤد إلى نتيجة، وإنما كل هذا الإتقان والإحكام ودقة النظام ونجاح الوسائل دليل على أنّ ذلك كان بإرادة من يعلم السر في السماوات والأرض، وإن أردت مثالًا مقنعًا يدلك على هذا فانظر كيف يستخدم الخفاش أمواجًا فوق صوتية؟.

فالسبب لذلك أنّ الأمواج تتباعد وتتخامد منذ لحظة انطلاقها بشيء يشبه تباعد وتخامد الدوائر في المياه عند إلقاء حجر فيها، ثم تعود لتتخامد من جديد عند ارتدادها، فإذا لم تكن الأمواج حادة قوية بما فيه الكفاية عند انطلاقها، فإنها ستعود لأذن الخفاش ضعيفة جدًا لا تكفي لتقوم أجهزة الدماغ بعملها المطلوب، وهو إنتاج ورسم تلك الصورة الصوتية لما حوله.

وهنا مثال تساؤل؛ عما إذا كانت أذن الخفاش شديدة الحساسية ـ كما تقدم ـ بحيث تلتقط الأمواج المرتدة بعد تخامدها، فكيف لا تصاب بالصمم عند انطلاق هذه الموجات في البداية، لأنها تكون آنذاك حادة جدًا؟.

والجواب: أنّ هذه الحيرة تنجلي بمعرفة السر الإلهي المعجز في ذلك، فقد زود الله تعالى أذني الخفاش بجهاز لإطلاق الموجات الصوتية بنظام حيث لا يطلقها بشكل مستمر، بل على شكل نبضات لا تقل عن عشر نبضات في الثانية، ومع ذلك زود الله تعالى أذن الخفاش بعضلات خاصة عجيبة تقوم بسد أذنه في اللحظة التي تنطلق فيها الموجات، فتحميها من الأذى والصمم، ثم تفتحها في لحظة السكون التالية، فتتمكن من التقاط الأمواج المرتدة، وإيصالها إلى الدماغ[1].

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٤٨ ـ ١٤٩.

على أنّ هذا النظام يبلـــغ من الدقة حيث يتمكن الخفاش بواســطته من متابعة الأجســـام المتحركة، فقدرته لا تنحصر في إطلاق عشـــر نبضات من الموجات الصوتية فـــي الثانية فعندما تعن له الحاجـــة يمكنه أن يزيدها حتى تصل إلى مائتي نبضة في الثانية، وذلك إذا كان حوله أجسام متحركة، أو إذا كان هو بنفسه يتحرك، وهذا يقتضي أن تكون الحواسيب الموجودة في دماغه على قدر هائل من الدقة والكفاءة، بحيث تسجل كل حركة من حوله من هذه الكميـــة الهائلة من النبضـــات المتتابعة، ولذلك يمكنه أن يطارد الحشـــرات الصغيرة الطائرة ويصطادها بكفاءة كأنه يراها[1].

وإذا كان هذا الإتقان العديد في هذا الجهـــاز ـ الذي يملكه الخفاش مع صغره المتناهي، بحيث يعادل عـــددًا هائلًا من أجهزة الـــرادار المعقدة التي صنعها البشـــر ـ مثار عجب من تأمل في هـــذا، فإنّ هـــذا العجب يتضاعف ويتعمق إذا أدرك الإنســـان أنّ ابتكار الرادار عند البشـــر إنما كان متأخرًا عن وجوده في أذن الخفاش بعشرات الملايين من السنين.

هذه حقائق علمية ـ وليســـت خيالات وهمية ـ أثبتها العلماء المتخصصون في هذه المجالات، وتتبعوها بكل دقة، فهل يمكن مع هذه الحقائق أن يقال بأنّ الطبيعة التي لا تعرف شيئًا من هذه الحقائق هي التي خصت الخفاش بما خصته به من هذه القوة الســـمعية، والإدراك الدقيق، والآلية التي يمكنه بها أن يمارس حياته بكل سهولة ويسر، وأنها هي التي خصته من بين سائر أنواع الطير بنظام الرادار الذي عجز الإنسان مع قدراته الفائقة وتطوره العلمي أن يصل إليه؟!.

إنّ مثل هـــذه المقولة لا يمكـــن أن تصدر إلا ممن لا يفـــرق بين الضب والنـــون[2]، ولا بين الذئب والحمـــل، ولا بين الصواب والخطأ، أو الرشـــد

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٤٩.

(٢) هذا مثل يضرب لمن لا يفرق بين الشـــيء وضده، فمن المعلوم أن الضب حيوان صحراوي =

والغي، فكيف يتجاهل هؤلاء الذين يزعمون ذلك أن يكون وراء هذا الإتقان البالغ قدر إلهي، ممن خلق فسوى، وقدر فهدى، الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، الذي لم يَؤُدْه خلق السماوات والأرض وكل ما فيهما، وأحصى كل شيء عددًا، وأحاط بكل كائن علمًا؟!.

وكم ترى في هذا من آية بينة تجتث نظرية داروين التطورية من أساسها، وتوقف الداروينيين في موقف الخزي لا يحيرون جوابًا على سؤال، وأدع المجال في هذا للأستاذ المهندس فداء ياسر الجندي الذي كتب تحت عنوان: **كيف يتحدى الخفاش نظرية داروين**، حيث قال ما نصه: «لقد ذكرنا في الفصل الحادي عشر أنّ علماء التطور لم يعثروا على أحفورة واحدة يمكن اعتبارها سلفا للخفاش، أو حلقة وصل بين الخفاش وبين الحيوان الذي يزعمون أنّ الخفاش تطور منه وهو الفار، ومع أنّ هذا تحد كاف لنقض النظرية إلا أنّ التحدي الأكبر هو هذا التصميم المدهش العجيب، فلم يخبرنا التطوريون كيف تطور هذا التصميم وما هي مراحله وما هي الطفرات التي أدت إليه، هل كان خفاش يملك هذا النظام قبل أن يدخل كهوفًا مظلمة؟ أو أنه دخلها فاضطر لتطوير هذا النظام حتى يتمكن من العيش وافتراس الحشرات؟ إن كان يملك النظام السمعي هذا قبل دخوله الكهوف، فلماذا كان يملكه؟ وما حاجته إليه؟ وإن لم يكن يملكه فكيف تمكن من العيش في ظلام الكهوف قبل تطويره؟ علمًا أن تطوير نظام معقد كهذا يحتاج لآلاف الأجيال، ولملايين السنين، إنّ جهاز السمع كما لاحظنا يتألف من ثلاث وحدات رئيسة، وحدة إرسال الأمواج فوق الصوتية، ووحدة استقبالها ونقلها للدماغ، ووحدة ترجمتها وحساب

= طبيعته لا تتفق مع طبيعة الماء، ولذلك كان في غنى عن الشرب، والنون هو الحوت ولا صبر له عن الماء، ولا يلتبسان إلا على من بلغ منتهى الغباوة.

المسافات وإعطاء التعليمات للخفاش حتى يقوم باللازم، فنسأل التطوريين وعلى رأسهم كبيرهم **ريتشارد داوكنز** أي هذه الوحدات تطورت أولًا؟ هل تطورت كلها دفعة واحدة؟ أو على دفعات؟ لا شك أنّ الأذن تطورت قبل جهاز بث الأمواج لأنه موجود فيها، وأنتم تقولون إن التطور يحدث على شكل طفرات عشوائية على مستوى الجينات، فكيف علمت جينات الخفاش وحمضه النووي أنّ الخفاش بحاجة لجهاز بث، ولجهاز استقبال، ولجهاز معالجة وحساب؟ وكم من الطفرات العشوائية وكم من الوقت لزمها لتطور كل ذلك؟ وكيف كانت الخفافيش المسكينة تقتات خلال فترة التطور هذه؟.

لقد اختصصنا **داوكنز** بأسئلتنا هذه لأنه في الفصل الثاني من كتابه **صانع الساعات الأعمى**[1] يتكلم بإسهاب عن جهاز السمع عند الخفاش، ثم بعد ذلك لا يجيب على أي سؤال من هذه الأسئلة، بل يدعي أن ما نشاهده من تصميم يستحق الإعجاب ليس هو تصميمًا تم بواسطة مصمم لإرادة واعية، بل هو عمل عشوائي قامت به الطبيعة، كما يقوم شخص أعمى بتصميم ساعة! ولكن هذا العلم يبدو من صنع مصمم يعرف سلفًا ماذا يفعل.

وهنا نتساءل أهذا هو العلم الذي يدعونه؟ أين الدليل والبرهان والمنطق؟ يكفي أن يقول **ريتشارد داوكنز** إنّ جهاز السمع عند الخفاش يبدو أنه من صنع مصمم، ولكنه نتيجة تطور عشوائي حتى نصدقه ونعتبر كلامه علمًا!! ونرمي بكل الأدلة والبراهين العلمية الحقيقية على التصميم في البحر ونعتبرها ليست علمًا، لأنها تفضي إلى الاعتراف بالمصمم العليم القدير الخبير، وهذا بزعمهم دين وليس علمًا!!»[2].

---

(١) ينظر؛ رتشارد داوكنز: **صانع الساعات الأعمى**، ص٤٥ ـ ٧١.

(٢) الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص١٥٠ ـ ١٥٢.

نعم كل هذا الفرار من هـذه الحقيقة الواضحة واللجـوء إلى ذلك الوهم المظلم الدامس هو فـرار عن الدين وإنـكار للحقيقة الإلهية وعداوة سـافرة لله ﷻ، فلذلك كان هذا التخبط، وهـذا التناقض والاضطراب، فيما يتصورونه علما، وأين العلم منهم؟ فإنّ الثريا لا تنالها يد المتطاول، وما هم في هذا العداء السافر للدين إلا امتداد للملحدين الأولين الذين آثروا أن يلجأوا إلى الأباطيل والأوهام فـرارًا من الإيمـان بالإله الواحد، ومـا هـم إلا كإخوانهم ملاحدة الشـيوعيين الذين كانوا يقولون بأنّ الدين أفيون الشعوب، ولم يدروا أنهم هم الذين خدرهم أفيون الضلال فأفقدهم الوعي والإدراك، ولو كانت لهؤلاء بقية عقل لكان لهم معتبر في مصير الشيوعية المخزي بعد بطرها وغلوائها واعتداد المغرورين بها، حتى أنهـم كانوا يرونها رمـز التقدمية، ويصمـون رافضيها بالتخلف والرجعية، فكذلك هذا الذي يزعمونـه من العداء والتباين بين العلم والدين، وعندما يسقط القناع ستتجلى الحقائق وسينكشف التزوير.

في النحل آية باهرة لمن تدبر:

النحل وإن كان مما يطير إلا أنه حشرة من الحشرات، وقد اجتمع في هذه الحشـرة الصغيرة الضعيفة من آيات الله تعالى ما فيه عبـرة لأولي الألباب، ولذلك أشـار الله تعالى إليها في كتابه لما يتجلى في وضعها من آيات بينات تذهب بشكوك المرتابين وشبه الملبسين، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحـل: ٦٨ ـ ٦٩]، نعم إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون، فقد جعل الله سـبحانه في طبيعة النحل خاصية تؤهل هذا الجنس من الحشرات بإلهام الله تعالى لأن يقوم بعمارة هذه الأرض ونفع العباد بطريقة لا يحيط بأبعادها إلا الله الذي خلق فسـوى وقدر فهدى، وإليك هذا البيان مما جاء في **الموسوعة**

العربية العالمية عن النحل وطبيعته: «النَّحْلة حشرة تعيش في جميع أنحاء العالم ماعدا المناطق القريبة من القطبين الشمالي والجنوبي. ويُعد النحل أكثر الحشرات فائدة. ويُنْتِجُ النحل العسل الذي يستعمله الناس غذاءً، كما ينتج شمع العسل الذي يُستعمَل في منتجات عديدة، منها الصمغ والشموع ومستحضرات التجميل. وهناك نحو (٢٠,٠٠٠) نوع من النحل، لكن النوع المعروف بنحل العسل هو النوع الوحيد الذي يصنع العسل والشمع بكميات كبيرة تكفي الناس.

تمد الأزهار النحل بالغذاء. ويجمع النحل حبوب اللقاح الصغيرة وسائلًا حلوًا يُدعى الرحيق من الأزهار المتفتحة التي يحطُّ عليها. ويصنع النحل العسل من الرحيق ويستعمل كلًا من العسل وحبوب اللقاح غذاءً له. ينقل النحل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة أخرى أثناء طيرانه، ويؤدي ذلك إلى حدوث تلقيح أو إخصاب للنباتات التي يحط عليها، مما يساعد النباتات على التكاثر. وتعتمد العديد من المحاصيل الغذائية المهمة بما فيها الفواكه والخضراوات على التلقيح الذي يتم عن طريق النحل.

اعتقد العلماء أنّ النحل، عبر السنين، ساعد على تكوين العديد من أصناف الزهور الموجودة حاليًا في العالم، وذلك عن طريق نشر حبوب اللقاح بين مختلف النباتات»[1].

كم يتلذذ الإنسان بتناول هذا الرحيق الصافي السائغ للشاربين الذي يمجه النحل ويستطيبه الإنسان عندما يشربه أو عندما يتناوله مع طعامه؟ وكم يداوي به عللًا في جسمه تستعصي على الدواء وتحير الأطباء، ولكنه هل يقف مع نفسه ليتساءل كيف جاءه هذا الشراب الذي تختلف ألوانه، وتتعدد مذاقاته، وتتمايز روائحه، وكيف ترتبت أسبابه وانتظمت حلقاتها؟.

---

(١) مجموعة باحثين: الموسوعة العربية العالمية، حرف (ن) ـ النحلة، ٢٦٨/٢٥ ـ ٢٦٩.

فَمِنْ خَلْقِ النحل بطبيعته المتميزة وفطرته الملهمة واستعداده الجسمي والفطري للقيام بمهمته في هذه الأرض، إلى وجود المناخات الملائمة له في السهول والجبال، وبين أنواع الشجر، وزوايا المباني، إلى وجود ما يتغذى به من أنواع الزهور وأصناف الثمار ومختلف أوراق الشجر إلى تضافر أعمال أفراد النحل وانسجام أدائها في تكوين خلاياها وانتظام عملها في إفراز هذا الشراب الهانئ اللذيذ، كل ذلك أمر يستدعي الوقوف معه طويلا، لتدبر حكمة الله تعالى وقدرته على كل شيء، وكيف يجعل من هذه الحشرة الصغيرة كائنًا اجتماعيًا، يعمل من أجل متعة العباد وراحتهم، وهو كله مما أشارت إليه الآيتان السالفتا الذكر، وفي ذلك يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب:

«والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه. وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى.

وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها في الجبال والشجر وما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق. والنص على أنّ العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب شرحًا فنيًا، وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه، وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استنادًا إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله؛ كما أثر عن رسول الله.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجلًا جاء إلى الرسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال له رسول الله ﷺ: «**اسقه عسلًا**» فسقاه عسلًا. ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلًا فما زاده إلا استطلاقًا. قال: «**اذهب فاسقه عسلًا**» فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال:

يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقًا. فقال رسول الله ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلًا**» فذهب فسقاه عسلًا فبرئ[1].

ويروعنا في هذا الأثر يقين الرسول ﷺ أمام ما بدا واقعًا عمليًا من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه، وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية، وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله، مهما بدا في ظاهر الأمر ما يسمى الواقع يخالفها. فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، الذي ينثني في النهاية ليصدقها..»[2].

ولو فكرنا في قيام النحل بهذه المهمة النافعة لوجدنا من ذلك أمرًا عجبًا، فإنّ النحل كالنمل يشكل باجتماعه مملكة منتظمة تنقاد لأمر ملكتها، التي تلتف جحافل النحل حولها وتنفذ أوامرها لينتظم قيامها بعملها، وهي لا تختلف طبيعتها عن سائر المملكات المعهودة في الحاجة إلى قوة دفاعية تصد عنها هجمات ما يقصدها بسوء، وقد جاء هذا مبينًا في **الموسوعة العربية العالمية** وهذا نصه: «تتألف مستعمرة نحل العسل النموذجية من ملِكَة واحدة وآلاف الشغالات وبضع مئات من الذكور، والملكة هي أنثى نحل العسل التي تضع البيض، والشغالات تكون من نسل الملكة، وهن غير قابلات للإخصاب، والذكور هم النسل المذكر.

---

(١) أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١١٨١٠، ٢٩٠/١٠)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٧٦) الطب، باب (٤) الدواء بالعسل، (رقم: ٥٦٨٤، ص٤٨٦)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٣٩) السلام، باب (٣١) التداوي بسقي العسل، (رقم: ٢٢١٧ [٥٧٧٠]، ص١٠٧١)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٢٧) أبواب الفرائض، باب (٣١) ما جاء في التداوي بالعسل، (رقم: ٢٠٨٢، ص١٨٦٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى؛ **السنن الكبرى**، كتاب (٥٩) الطب، باب (٤٥) الدواء بالعسل، (رقم: ٧٧١٦، ٣٧٢/٩).

(٢) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، سورة النحل (الآيات ٥١ ـ ٧٦)، ٢١٨١/٤.

يعيش النحل في قفائر أو (خلايا نحل)، والقفير مكان تخزين يشبه شجرة جوفاء أو صندوقًا يحتوي على قرص العسل، وقرص العسل كتلة من الحجيرات السداسية الشكل تُدْعى الخلايا. وتبني الشغالات قرص العسل من الشمع الذي تنتجه أجسامها. وتجمع أيضًا مادة لاصقة تدعى العكَبر (المادة الراتينجية الشمعية القوام) أو ما يسمى بصمغ النحل من أنواع معينة من الأشجار. وتستعملها لترميم التصدُّعات في القفير.

يستعمل قرص النحل لتربية النحل الصغير وتخزين الغذاء، وتضع الملكة بيضة في كل خلية (حجيرة)، وذلك في جزء من أجزاء قرص العسل، وتوجد الخلايا التي تحتوي على البيض ويرقات النحل، بشكل عام، في وسط القفير، تُدْعى هذه المنطقة عش التفقيس أو الحضانة، ويُخزِّن النحل حبوب اللقاح والعسل فوق عش الحضانة أو حوله. وتُسْتَعْمل الخلايا نفسها خلايا التحضين لأغراض مختلفة، وتستعمل العديد من هذه الخلايا في فصلي الربيع والصيف في تربية النحل الصغير، وتتوقف الحضانة والتفقيس في الخريف ويصبح العديد من هذه الخلايا جاهزًا لتخزين العسل في الشتاء.

يصبح محتوى القفير غنيمة جيدة من الغذاء لحيوانات كثيرة من المستعمرات الأخرى بما فيها النحل؛ لذلك يبقى عدد من الشغالات دائمًا في حراسة مدخل الخلية (القفير) ويمتاز النحل الموجود في كل خلية من الخلايا برائحته الخاصة المميزة، ويستطيع النحل الحارس أن يُمَّيز نحل الخلايا الأخرى من خلال رائحته.

يهاجم النحل الحارس الغرباء سواءً كانوا نحلًا من خارج المستعمرة أم حيوانات أم بشرًا. وعندما يكون التهديد للخلية كبيرًا، كأن يحاول دب زحزحة الخلية، يطلق النحل الحارس مادة كيميائية خاصة تدعى فيرمون،

وتنبه رائحة الفيرمون التي تشبه رائحة الموز، النحل الآخر في الخلية ليأتي لمساعدة النحل الحارس»[1].

فلينظر القارئ الكريم فيما تهيأ للنحل من وسائل ذاتية وخارجية تمكنه من القيام بمهمته التي نيطت به في هذه الحياة، فكيف تنساق جماهير النحل هذا الانسياق في نظام رتيب إلى القيام بمهمتها وأداء وظيفتها؟ وكيف تتمتع بهذا الحس والإدراك الفطريين اللذين يساعدانها على اتخاذ الوسائل المتنوعة لتتمكن من القيام بهذه المهمة؟ وكيف ترعى ملكتها المطاعة، وتتكيف وفق أوامرها كما تتكيف في كل ما تقوم به من أعمال حسب ما تقتضيه مصالحها، وتتهيأ لدرء كل خطر، وصد كل عدوان، بحسب قدر العدوان في قوته وضعفه، أو قوة الجهة التي يأتي منها العدوان، فتقدر كل شيء بقدره، وتعامل كل خطر بحجمه؟ فهل يا ترى أنّ كل ذلك كان إلهامًا من طبيعة لا تدرك شيئًا من ذلك ولا تميز بين قبيله ولا دبيره؟!.

ثم كيف يمكن أن تكون هذه الحشرة جاءت نتيجة تطور واصطفاء طبيعي حتى وصلت إلى ما وصلت إليه؟ وليت شعري؛ ما هو الأصل الذي تطورت منه النحلة؟ وكيف تميزت النحلة على كل ما كان قريبًا منها كالزنابير السامة، والذباب الطائر وغيرها؟.

أوليس في هذا كله ما يدل على أنّ هذا الإعداد، وهذا الإلهام كل ذلك كان بإرادة حكيم خبير، أعطى كل شيء خلقه فهدى وخلق كل شيء فقدره تقديرًا.

هذا؛ وكم تتجلى في النحل من آيات عظمى تذهب بعقول عباقرة الناس، وتدهش بصائر أولي الألباب، فلا تملك العقول ببصائرها إلا أن تنحني أمام

---

(١) مجموعة باحثين: الموسوعة العربية العالمية، حرف (ن) ـ النحلة، ٢٦٩/٢٥.

هذه الآيات العظمى اعترافًا بعظمة الصانع الخبير، الذي أعطى هذه الحشرة الصغيرة هذه المزايا الواسعة للتمكن بها من قضاء أوطارها، وأداء مهماتها، ولتعود جهودها على الناس بالخير العظيم والفضل العميم، فتركيب أعضاء النحل كله آيات بينات تدل على بديع الخلق وإتقان الصنع، ولو تتبع الناس هذه الآيات لملأوا بشرحها مكتبات الأرض، كذلك ما تؤديه هذه الأعضاء من أدوار في أعمال فئات النحل، ودونك هذا البيان المختار مما جاء في **الموسوعة العربية العالمية:**

«لنحلة العسل، كبقية الحشرات، جسم مقسم إلى ثلاثة أجزاء: الرأس والصدر والبطن، ومعدة العسل تقع في البطن، ويُغطَّى جسم النحلة بشعر كثيف وناعم، فعندما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة أخرى، تلتصق حبوب اللقاح بهذا الشعر، ويتدرج النحل في اللون من الأسود إلى البني الخفيف، والذكور أكبر بقليل من الشغالات، والملكات أطول من كل من الشغالات والذكور.

العيون؛ للنحلة خمس عيون، ثلاث عيون صغيرة تشكل مثلثًا في أعلى رأسها، وعين كبيرة مركبة في كل جانب من جانبي رأسها. ولكل عين مركبة آلاف العدسات المتجمعة بالقرب من بعضها.

يُعَدُّ نحل العسل أول الحشرات التي عُرفت بأنها تستطيع أن تُميز الألوان، وللنحل ثلاثة أنواع من خلايا اللون الحساسة في عيونها، هذه الخلايا البصرية حساسة بشكل خاص إلى اللون الأزرق والأصفر والأشعة فوق البنفسجية التي لا يستطيع الإنسان أن يراها. ولا يستطيع النحل على كل حال أن يميز اللون الأحمر. فهو، بالنسبة له يمتزج باللون الأخضر. ويستطيع النحل أن يميز بالإضافة إلى اللون مختلف الأشكال الهندسية، مثل الأشكال المختلفة لأصناف الأزهار.

قرون الاستشعار مجسّات دقيقة متصلة بعضها ببعض ومرتبطة بمقدمة الرأس، تحتوي هذه المجِسّات على أعضاء دقيقة وحساسة تساعد على الشم، ومن المحتمل أن تعمل الشعيرات الدقيقة الموجودة على هذه القرون بمثابة أعضاء لمس.

الفم؛ تستعمل النحلة لسانها لتمتص الماء والرحيق والعسل إلى داخل فمها، واللسان أنبوب مرن خارج رأس النحلة، يمكن تقصيره وإطالته وتحريكه في جميع الاتجاهات، وعلى جانبي اللسان فكّان تستعملهما النحلة أداة لمسك الشمع وحبوب اللقاح.

تُربط الجدران الداخلية للفم بعضلات قوية، وتمتص النحلة الرحيق عبر لسانها، ومن خلال فمها إلى معدتها المخصصة للعسل، وتستطيع النحلة أن تعكس هذه العملية، بحيث تعمل على إعادة الغذاء من معدتها إلى الخارج من خلال الفم، وبهذه الطريقة تضع الشغالات الرحيق في خلايا الشمع أو تعطيه إلى نحلات أخرى.

الأجنحة؛ للنحلة جناحان رقيقان على كل جانب من جوانب الصدر، والجناحان الأماميان أكبر من الجناحين الخلفيين. وعندما تطير النحلة، يرتبط الجناحان الأماميان والجناحان الخلفيان الصغيران بوساطة خطاطيف توجد على طول حافة الأجنحة الأمامية.

تستطيع الأجنحة أن تتحرك إلى أعلى وأسفل، وإلى الأمام والخلف، وتستطيع النحلة أن تطير إلى الأمام وإلى الجوانب والخلف، كما أنها تستطيع أن ترفرف في مكان واحد في الهواء.

الأرجل؛ للنحلة ثلاث أرجل على كل جانب من صدرها، وفي كل رجل خمسة مفاصل رئيسية بالإضافة إلى أجزاء دقيقة تشكّل القدم. وتستعمل

النحلة الشغالة أرجلها في السير وتنظيف الطلع من جسمها، وفي التعامل مع الشمع. وتحمل الطلع والمادة الراتنجية على رجليها الخلفيتين.

ولكل رجل أمامية تركيب سني ثلمي يدعى منظف قرن الاستشعار، تستعمله النحلة لتنظيف الأوساخ من على قرون استشعارها.

وتوجد على كل رجل خلفية من الخارج، في أرجل شغالات النحل منطقة ملساء محاطة بشعر مقوس تدعى سلة حبوب اللقاح، وتستعمل لحمل حبوب اللقاح، تساعد الشعيرات الموجودة داخل الرجلين الخلفيتين على تفريغ حبوب اللقاح في السلة. وعندما تعود النحلة الشغالة إلى القفير (الخلية) تضع رجليها الخلفيتين في الخلية وترفس أو تفرغ حبوب اللقاح، وتقوم شغالة أخرى باستخدام رأسها لتسوية حبوب اللقاح في أسفل الخلية (الحجيرة).

اللَّسْع؛ تعتمد النحلة على إبر اللسع التي تُعَدُّ الوسيلة الوحيدة للدفاع عن مسكنها وحياتها، فتنتج الغدد المتصلة بإبرة اللسع مادة سامة تُدعى فينوم تتألف من مواد كيميائية معقدة.

تكون إبرة لسع النحلة الشغالة مستقيمة وعليها أشواك، وعندما تدفع النحلة بإبرة اللسع في الجسم، فإن الأشواك تتثبت بإحكام، ثم تخرج إبرة اللسع من جسم النحلة، وتستمر عضلات إبرة اللسع في الحركة، فتدفع إبرة اللسع بعمق داخل الجرح، وتعمل هذه العضلات في الوقت نفسه على دفع كثير من السم إلى أسفل إبرة اللسع، ثم تموت النحلة الشغالة بمجرد أن تفقد إبرة اللسع الخاصة بها.

للملكة إبرة لسع ملساء منحنية تستعملها فقط لقتل ملكات أخرى، ولا تفقد الملكات إبر اللسع كما يحدث للشغالات، أما الذكور فليس لها إبر لاسعة»[1].

---

(١) المرجع السابق، حرف (ن) ـ النحلة، ٢٥/٢٦٩ ـ ٢٧١.

وهذا البيان غني عن التعليق، فإنّ النحل لو كانت ـ بما أوتيته من هذه المزايا الخِلْقِية والهبات الفطرية ـ لا تدل على مبدعها وقدرته الواسعة المحيطة بكل شيء، وحكمته الجلى التي بهرت كل عقل، وعلمه الذي وسع ما دق وجل، لما صح في الأذهان شيء.

وأدعك ـ أيها القارئ الكريم ـ لتحكم بنفسك، ولكن على أن لا تكذب حسك، ولا تكابر عقلك، فكم ترى في هذا الكائن الصغير من آيات الله تعالى الشاهدة عليه، فمن أين للطبيعة العمياء أن تعده هذا الإعداد، وتزوده بهذه الطاقات، وتجهزه بهذه الآلات ليتمكن من أداء وظيفته والقيام بمهماته التي أرادها الله له؟ ثم كيف تراه يستلهم من فطرته حركاته في سلمه وحربه وعند صديقه وعدوه، فتأتي وفق ما يقتضيه أمره كله في انسجام تام من غير تناقض ولا اضطراب، فمن الذي أودع في فطرته هذا الإلهام الدقيق ومنحه تلك المزايا في الخلق؟!.

وبجانب ذلك فإنّ في النحل آيات أخرى في محافظته على درجة معينة من الحرارة، وكيف يمكنه أن يتقي برد الشتاء القارس بارتعاشه في فصل الشتاء، كما يدفع لهيب حرارة الصيف بالاستعانة بالماء ونشره في خليته وبالتمكين لتيارات هوائية تمر خلالها، كما جاء ذلك في **الموسوعة العربية العالمية**، وهذا نصه:

«لكي يطير نحل العسل، يجب أن يحافظ على درجة حرارة عضلات الطيران وهي ٣٠°م في الأقل. عندما يكون نحل العسل في حالة الطيران، فإنّ الحرارة المنبعثة من الطاقة التي يستعملها كافية للحفاظ على عضلات الطيران دافئة.

ويرتعش النحل في حالة عدم الطيران لكي يبقى دافئًا، وبخلاف معظم الحشرات الأخرى، فإنّ نحل العسل لا يلجأ إلى السُبات خلال فصل الشتاء،

وبدلًا من ذلك، فإنّ النحل يتجمع بشكل عنقود كثيف في القفير أو الخلية، ويبقى النحل المتجمع في حالة دفء عن طريق الارتعاش والازدحام لمنع فقد الحرارة.

ويستطيع النحل أيضًا مقاومة الحرارة الزائدة في الخلية، ويبقى النحل في الخلية الحارة بشكل أقل ازدحامًا للسماح بمرور تيارات هوائية فيما بينها، كما أنها تجمع الماء وتنشره في الخلية، وعندما يتبخر الماء يعمل على تبريد الخلية»[1].

ونمسك القلم عن الاستطراد في بقية آيات النحل العظيمة في تزاوجها ونسلها واختيار ملكة لها بعد موت الملكة وإعدادها لتبوئها هذا المكان، ووجود ما يرتاد المجاهل منها للبحث عن الغذاء ونوعه إلى غير ذلك مما يرتد دونه العقل حائرًا مشدوها، فلو استطردنا في ذكر ذلك لتجاوز هذا الكتاب حجمه الذي أردناه بكثير، ولكن في قليل الحكمة ما يغني عن كثيرها.

وكم فيما يطير في طبقات الجو القريبة أو البعيدة من عجائب لا تحصى في كل نوع من أنواعها، على أن الجنس الواحد منها قد يحتوي على ألوف من الأنواع، ولكل نوع خصائصه الفطرية، ولا يتسع المقام لبحث ذلك، فمن أراد تتبع الفوائد فليرجع إلى المجاميع العلمية الخاصة بذلك.

---

(١) المرجع السابق، حرف (ن) ـ النحلة، ٢٧١/٢٥.

في آيات الله فيما خلق من الكائنات البحرية والبرية

كم فيما خلق الله تعالى في البر والبحر من آيات لا تستوعبها العقول ولو اجتمعت وتضافرت وتقاسمت الأدوار، بل لا تستوعبها مكتبات العالم، ولو توسعت إلى مليارات الأضعاف، فمن ذا الذي يحصي ما في ترتيب كل كائن من هذه الكائنات التي هي أمم أمثالنا من آيات الله الدالة عليه، فإنّ ذلك مما يندرج في كلمات الله التي لو كانت البحار مدادًا، وتضاعفت إلى ما لا يعمله إلا الله، لقصرت عن إحصاء هذه الآيات، وما يسعنا إلا أن نشير إشارة طفيفة إلى شيء من هذه الآيات، فإنّ البصير تكفيه الإشارة، ولو كانت لمحة.

ناهيك ما يقوم به النمل من عمل عظيم، وما يتحمله من دور كبير بتضافر جهود أفراده والتنسيق بينها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما في النمل من إدراك ووعي عجيبين، في قوله عن سليمان وجنوده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، وهو مما يعني أن للنمل وعيًا بالأخطار، وقوة على تصورها والإنذار بها، وبصيرة بدرئها، وفيما أفاضت فيه الموسوعات العلمية من ذلك ما يقضي العجب، على أنّ جنس النمل يندرج تحته أكثر من (١٠,٠٠٠) نوع من أنواعه، وكل نوع منها هو بحاجة إلى دراسة مستقلة، ومهما كانت دقة بعض هذه الأنواع وصغر أحجامها، فإنّ فيها من آيات الله تعالى ما يذهب بالألباب، وإليك بعض ما قيل في النمل:

«النَّمْلة حشرة تعيش في جماعات منظمة، ولذلك يعرف النمل بالحشرات الاجتماعية، وتشمل الحشرات الاجتماعية الأخرى بعض أنواع النحل، وجميع النمل الأبيض وبعض الزنابير.

وتسمى الجماعة الاجتماعية من الحشرات مستعمرة. وقد تحتوي مستعمرة النمل على ١٢ فردًا أو مئات أو آلافًا أو ملايين الأفراد. ولكل مستعمرة ملكة واحدة أو عدة ملكات. وعمل الملكة الرئيسي وضع البيض، ومعظم أعضاء مستعمرة النمل شغالات (عاملات)، وجميع الشغالات إناث مثل الملكة. وتقوم الشغالات ببناء العش، والبحث عن الغذاء، ورعاية الصغار، ومحاربة الأعداء. وتوجد الذكور في الأعشاش في أوقات معينة، ويكون عملها هو تلقيح الملكات مكتملات النمو، وتموت بعد ذلك مباشرة.

وللنمل عدة طرق للحياة، فالنمل المحارب ـ مثلًا ـ يعيش على صيد حشرات أخرى، وبعض أنواع النمل المحارب تسير في حشود هائلة، فتأكل معظم الحشرات التي تصادفها، أما النمل المستعبد فيغير على أعشاش نمل آخر، يسرق الصغار، ثم يربيها عبيدًا. وهناك النمل الحاصد الذي يجمع البذور ويخزنها في أعشاشه، والنمل الحلاب الذي يربي حشرات معينة لكي تمده بسائل حلو المذاق عند حلبها.

ويعيش النمل في كل مكان على الأرض، عدا المناطق شديدة البرودة من العالم. وهو منتشر بكثرة في المناطق ذات الطقس الدافئ. ويعيش بعض أنواع النمل في أنفاق تحت الأرض، ويعيش بعضه الآخر في تلال ترابية، وتسكن بعض أنواع النمل بداخل الأشجار أو في أجزاء بعض النباتات المجوفة. كما يبني بعض النمل أعشاشه من أوراق الأشجار، لكن بعض أنواع النمل المحارب ليس لها بيوت دائمة.

ويوجد من النمل أكثر من ١٠,٠٠٠ نوع معظمهـا ذات ألوان داكنة، مثل الأسود أو البني، أو بلون الصدأ، ولكن بعضه ذو ألوان زاهية، مثل الأصفر والأخضر والأزرق والأرجواني. ويتفاوت النمل في حجمه، وإن كان معظمه صغير الحجـم، فأكبر النمل حجمًـا لا يزيد طوله على ٢,٥ سـم، وأصغره حوالي ٠,١ سم.

وبالرغم من صغر حجم النمل، فهو قوي لدرجـة عجيبة، فمعظم النمل يستطيع نقل أجسام أثقل من وزنه عشر مرات، بل إنّ بعضه يمكنه رفع أجسام تفوق وزن جسمه خمسين مرة»[1].

وليت شعري؛ كيف يتعامى العقل عن هذه الآيات العظيمة في هذا الكائن الصغير، والحشرة التي تقتحمها العين وتحتقرها النفس، ناهيك بهذا الوضع الاجتماعي وما فيه من نظام دقيق وإحكام متناهٍ، ومـا أوتي هذا الجنس في الخلق من قوة فائقة لا تقاس بحجمه، فإنّ ذلـك لا يتصور أبدًا إلا أن يكون تقديرًا ربانيًا، وإلهامًا ممن أعطى كل شـيء خلقه فهـدى، فكيف ترى أيها القارئ الكريـم أن تكون الطبيعة فـي جمودها وصممهـا وعماها هي التي أوجدت هذه الأنواع من هذا الجنس، وآتـت كل نوع خصائصه ومزاياه، كما آتته من وسـائل الفهم والإدراك ما يحقق به مصالحه، ويدرأ به الأخطار عن نفسه، ويكيف حياته وفق نظام يضمن له النجاح؟!.

وإن عجبت فاعجب أن يكون هذا الكائن الدقيق الحقير، الذي يضرب به المثل في الصغر وعدم الاعتداد به، قد سبق الإنسان بما لا يحصى من القرون إلى حسن إتقان هندسة عمارة مسـاكنه، واختراع وسائل الراحة فيها، التي لم يعرفها الإنسـان إلا في العصر الأخير، وإليك هذه الصورة المحيرة مما ذكره الدكتور روبرت جميس فيما سبق إليه النمل الإنسـان من وسائل الحضارة،

---

(١) المرجع السابق، حرف (ن) ـ النملة، ٥٢٤/٢٥ ـ ٥٢٥.

وتعلم الإنسان منه، فقد قال ما ترجمته: «قبل أن يعرف الإنسان مكيفات الهواء، كان النمل الأبيض ـ ولا يزال ـ يقوم بتكييف مساكنه بطريقة هندسية بديعة، حيث يقوم ببناء مستعمراته على شكل تل مرتفع عما حوله، ثم يجعل فيها منافذ هوائية من أسفلها، تدخل إليها ثم بشكل أفقي، ثم تتفرع لتغطي مساحتها، ثم تصعد الفروع إلى قمة التل فتشكل بذلك نظامًا فريدًا لتكييف الهواء، بحيث يدخل الهواء البارد من أسفل ويخرج الدافئ من أعلى، والعجيب أنّ هذا النوع من النمل أعمى لا يبصر، ومع ذلك يبني مستعمرات بشكل هندسي مدهش، ويزودها بكل ما يلزمها ليعيش فيها، ويضيق المجال عن شرح كل المزايا الهندسية الفريدة لمستعمرات النمل الأبيض، ونظام تكييف الهواء ليس إلا واحدًا منها».

وأتبع ذلك قوله: «كيف تستطيع مجموعة من ملايين النمل التي لا تبصر أن تقوم بمثل هذا العمل الهندسي المتناسق؟!.

يقول عالم البيولوجيا **لويس توماس**: (الحقيقة الناصعة هي أنّ الذكاء الجماعي الذي يدل عليه هذا العمل الهندسي المدهش هو لغز محير).

محير؟ لماذا محير؟ ألا يمكن أن يكون هذا الذكاء أمرًا موجودًا في هذه الكائنات بفعل مصمم عليم خبير»اهـ[1].

نعم؛ الحيرة والدهشة هي نصيب الذين لا يؤمنون بالله، إذ لا يجدون حلًا لهذا اللغز المعمى، وإنما يظلون يدورون معه في حلقة مفرغة، لا يجدون مخرجًا منها، أما الذي آمن بالله فإنه يرد ذلك كله إلى قدرة العليم الخبير، ويزيده ذلك إيمانًا بالله ﷻ كما يزيده إيمانًا بوحي الله تعالى المنزل الذي يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص ١١٥ ـ ١١٦.

مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ويقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، ويقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، ويقول: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

وإذا كان عجب الإنسان من أمر النمل لا يقف عند حد، فهناك كائنات شتى من جنس الحيوان أو النبات ألهمها الله تعالى أن تقوم بأعمال لم يهتد إليها الإنسان إلا في الأزمنة الأخيرة، وإليك هذا النص من كلام الدكتور **روبرت جميس**: «ومن العجائب أنّ بعض الأحياء تستعمل مواد كيميائية مانعة للتجمد شبيهة بتلك التي يستخدمها الإنسان في وقتنا الحاضر، مثل تلك التي توضع في سائل تبريد محركات السيارات، ومن هذه الأحياء نباتات مجهرية تعيش في البحار القطبية المتجمدة، وتحيط نفسها بمثل هذه المواد، وكذلك بعض أنواع الأسماك القطبية، وعندما يغوص البشر تحت الماء يستخدمون عبوات الأكسجين السائل، ويثقلون بها ظهورهم ليستطيعوا أن يبقوا تحت الماء بعض الوقت، ولكن الخنفساء المائية تقوم بذلك بطريقة أسهل، وتتيح لها البقاء في الماء لمدة أطول، فهي تلتقط فقاعة هواء وتحتضنها في بطنها، ثم تغوص بها وتستخدمها في تنفسها».

وأضاف إلى ذلك: «إن كنت تظن عزيزي القارئ أنّ الإنسان هو من اخترع الساعة فصحح معلوماتك، فمثلًا هناك نوع من الطحالب المائية تظهر على الشواطئ الرملية عندما ينحسر المد، والعجيب في أمرها أنّ العلماء عندما وضعوها في تربة بحرية في المختبر كانت تظهر فوق الرمل في أوقات الجزر، ثم تخفي نفسها تحت الرمل في أوقات المد، رغم أنها كانت في تربة لا مد فيها ولا جزر! وهذا يدل على أنّ لديها ساعة ذاتية تعمل باستمرار ومضبوطة على أوقات المد والجزر».

ثم عرج بعد هذا إلى ما سبق ذكره من اعتماد الطيور في ملاحتها الجوية على الشمس والنجوم، وتعوضها عن ذلك عند غياب الشمس والنجوم بسبب الغيوم بساعة ذاتية تمكنها من الملاحة في شتى الظروف والأوقات، وقال بعد هذا:

«ومما سبقتنا به الكائنات الأخرى بأشواط وأزمان، تحلية مياه البحر، فمعلوم أنّ الكثير من البلدان تحصل على مياه الشرب ببناء محطات ضخمة لتحلية مياه البحر، وتخليصها من ملوحتها، ولكن تحلية المياه ليست اختراعًا بشريًا، هناك شجرة استوائية اسمها منغروف[1]، تنبت على حواف شواطئ البحر، وتمتص جذورها ماء البحر المالح، ثم تقوم جذورها بتصفية تلك المياه وطرح الملح والإبقاء على الماء الصافي، كما أنّ هناك العديد من الطيور البحرية التي تشرب من ماء البحر، ثم تقوم بنزع الملح منه بواسطة غدد خاصة موجودة في أجسامها تقوم بهذه الوظيفة.

ومن كان يظن أنّ الكهرباء اختراع بشري، فقد جانب الصواب، ففي أعماق المحيطات يوجد أكثر من ٥٠٠ نوع من الأسماك التي تمتلك بطاريات كهربائية ذاتية... صدق أو لا تصدق، ولكنها الحقيقة.

فسمكة القطة الإفريقية تولد كهرباء بمقدار ٣٥٠ فولت، وهناك سمك يسمى الإنكليس يعيش في أمريكيا الجنوبية تصل قوة الصدمة الكهربائية التي يمكنه إنتاجها إلى ٨٦٠ فولت.

وآخر ما قد يخطر على البال أنّ قوة الدفع النفاث التي تستخدمها الطائرات النفاثة هي أيضًا استخدمتها الحيوانات قبل الإنسان، ومبدأ هذه

---

(١) هذه الشجرة هي المعروفة عندنا بالقرم.

القوة أن يقوم المحـــرك النفاث بامتصاص الهواء من الأمـــام، ثم يدفعه بقوة شـــديدة من الخلف، مولدًا قوة دفع تدفع الطائرة النفاثة، وهذا ما يفعله تمامًا الأخطبوط، فهو يوظف هذه الآلية بحذافيرها قبل أن يخترعها (فرانك ويتل) بآلاف السنين، ولكن باستخدام الماء لا الهواء، حيث يمتص الماء ويخزنه في حجرة داخل جســـمه ثم يســـتخدم عضلاته القويـــة فينفثه بقوة شـــديدة إلى الخلف، فتتولد قوة دفع معاكســـة تدفعه إلى الأمـــام، ولا يقتصر الأمر على الأخطبوط، فهو لا يحتكر هذه الطريقة في الحركة، بل تشـــاركه فيه حيوانات أخرى، مثل الحبار وقنديل البحر وغيرها.

قبل آلاف الســـنين اخترع المصريـــون القدماء الورق، ولكـــن هناك من ســـبقهم إلى هذا الاختراع، وهي بعض أنواع الدبابير، التي تقوم بمضغ نوع معين من لحاء الشـــجر وتعجنه بلعابها ثم تخرجه على شكل صفائح ورقية تضعها على شكل طبقات متراكبة لتشكل طبقة ثخينة تبني بها مساكنها، ليس هذا فقط، بل إنها خلال وضعها لتلك الصفائح وقبل أن تجف، تضعها بحيث تترك بين طبقات الورق فراغات هوائية حتى إذا جفت وتماســـكت أصبحت هذه الفراغات بمثابة عوازل حرارية تقيها برد الشـــتاء وحرارة الصيف، فتقوم بالدور نفسه الذي تقوم به قوالب الطابوق المفرغة التي يستخدمها البشر في البناء، يا لها من هندسة رائعة متميزة!.

أحدث اختراع المحرك الدوراني ضجـــة كبيرة عند ظهوره للمرة الأولى، فقد كان ـ بلا شك ـ فتحًا جديدًا في عالم المحركات، ولكنه لم يكن الأول، فهناك نوع من البكتيريا تملك مثـــل هذا المحرك، وقد شُـــدِه العلماء عندما اكتشفوا أنّ لها ذيلًا عجيبًا يتصل بجسمها بما يشـــبه المفصل، ويأخذ شكلا نابضا، فإذا ما أرادت الحركة يدور هذا الذيل مثل المروحة تمامًا مشكلًا قوة دفع تحركها بســـرعة كبيرة، وهناك عجب فوق العجب، وهو أنّ هذا المحرك

يمكن أن يتحرك بطريقة عكسية فترجع للوراء كما تتقدم للأمام! أما سرعة حركتها فتصل إلى ٦٠ كيلومتر في الساعة.

لقد جعلت هذه الأعجوبة أحد علماء البيولوجيا يقول في دهشة شديدة: (أحد خيالات البيولوجيا أصبحت حقيقة، لقد أنتجت الطبيعة محركًا دورانيًا متكاملًا بمحركه ومفاصله ومحاوره دورانه وقوته الدورانية). هو يقول أنتجته الطبيعة، ونحن نقول أبدعه الخلاق العليم»[1].

نعم أبدعه الخلاق العليم، فما كان للطبيعة ـ وهي لا تتميز بشيء مما يتميز به الأحياء من الخلق من الإحساس والإدراك ـ أن تصنع شيئًا من هذا، وأن تطبع شيئًا من الخلق بطبعه الذي اختص به.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) المرجع السابق، ص١١٦ ـ ١١٩.

الفصل الرابع

في البراهين التي اشتملت عليها الكيمياء الحيوية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: في تأصيل المراد من الكيمياء الحيوية.
- المبحث الثاني: في نسف بحوث الكيمياء الحيوية لشبه الملحدين.

في تأصيل المراد من الكيمياء الحيوية

تطلق الكيمياء في اللغة العربية على الصنعة، ففي **مختار الصحاح** ما نصه: «و(الكيمياء) مثل السيمياء، اسم صنعة وهو عربي»[١]، وفي **تاج العروس** نقلًا عن «مُعرَّب الجَوَالِيقِي: الكِيمِياءُ مَعْروفٌ وَهُوَ مُعَرَّبٌ. وَقَالَ الشِّهابُ أثناءَ القَصَصِ من العِنَايَة: لَفْظٌ يُونَانِيٌّ بِمَعْنَى الجُمْلَة، غَلَبَ على تَحْصِيلِ النَّقْدَيْنِ بِطَرِيقٍ مَخْصُوصٍ»[٢]، وقال الأستاذ محمد عميم الإحسان المجددي البركتي في الكيمياء: «إكسير كانوا يزعمون أنه يُحيل المعادن ويجعلها ذهبًا أو فضة، وعلمُ الكيمياء عند القدماء: هو علم يراد به تحويل بعض المعادن إلى بعض، وعلى الخصوص تحويلها إلى الذهب بواسطة الإكسير وهو حجر الفلاسفة أو استنباط داء[٣] لجميع الأمراض، وعند المتأخرين: هو علمٌ يبحث فيه عن طبائع جميع الأجسام وخواصّها بواسطة الحل والتركيب والنسبةُ إليهما كيميّ وكيمياوي»[٤].

---

(١) الرازي؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: **مختار الصحاح**، مادة (ك م ي)، ص ٢٧٣، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية ـ بيروت، ط ٥: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) الزبيدي: **تاج العروس**، مادة (ك وم)، ٣٣/٢٢٠.

(٣) كذا في الأصل والظاهر أنها (دواء).

(٤) البركتي؛ محمد عميم الإحسان المجددي: **التعريفات الفقهية معجم يشرح الألفاظ المصطلح عليها بين الفقهاء والأصوليين وغيرهم من علماء الدين**، ص١٨٦، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

وفي **الموسوعة العربية العالمية**: «الكيمياء الدراسة العلمية للمواد، ويبحث الكيميائيون في خواص المواد التي يتكون منها الكون. ويدرسون كيف تتفاعل تلك المواد تحت الظروف المختلفة، ويحاولون إيضاح سلوك هذه المواد بناء على بنيتها التركيبية ومكوناتها، كما يحاول الكيميائيون معرفة التغيرات الكيميائية التي تتضمن تعديلات في التركيب الكيميائي للمواد، فاتحاد الحديد مع أكسجين الهواء ليكوّن الصدأ يمثل تغيرًا كيميائيًا، ويمكن للمواد أن تتغير فيزيائيًا دون حدوث تغيير في تركيبها الكيميائي، فالماء مثلًا يتغير فيزيائيًا وليس كيميائيًا عندما يتجمد.

وتستمر التغييرات الكيميائية في الطبيعة وذلك لجعل الحياة ممكنة على وجه الأرض، فأثناء العواصف الرعدية مثلًا، يتسبب البرق في بعض التغيرات الكيميائية، ونتيجة للطاقة الكهربائية والحرارة الناتجة عن الصواعق يتحد بعض النيتروجين والأكسجين في الهواء، وينتج عن ذلك غازات تعرف بأكاسيد النيتروجين، وتذوب هذه الأكاسيد في قطرات المطر أثناء سقوطها إلى سطح الأرض وتتحول كيميائيًا داخل التربة إلى نترات، وهي مواد تعمل كمخصّب (سماد).

كما يحدث التفاعل الكيميائي أيضًا عندما يحترق الخشب ويتحول إلى رماد وغازات، كذلك الطعام الذي نتناوله يمر عبر العديد من التغيرات الكيميائية داخل أجسامنا»[1].

والحيوية لفظ وصفي لها، وهو يدل على تخصيصها بما فيه الحياة، والكيمياء الحيوية عبارة عن علم دقيق واسع، علاقته بجزيئات المخلوقات الحية، كالإنسان والحيوان والنبات، وإليك ما في **الموسوعة العربية العالمية** من بيان حولها:

---

(١) مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (ك) ـ الكيمياء، ٣٧٨/٢٠.

«الكيمياء الحيوية: دراسةُ العمليّات الكيميائية التي تجري في جميع الكائنات الحية، يُجري علماء الكيمياء الحيوية البحث في الجزيئات التي توجد في خلايا الحيوانات والنباتات والكائنات الحية الأخرى، ويُوجَدُ العديدُ من العناصر المألوفة، مثل الهيدروجين والنيتروجين والأكسجين، في مركبات كيميائية داخل أجسام الكائنات الحية، ويحاول العلماءُ تحديد تراكيب مثل هذه المركبات ووظائفها الأحيائية.

تحتوي كل الكائنات الحية على مُركبات تُدعى الكربوهيدرات والدهنيات والحموض النووية والبروتينات، تساعد جزيئات هذه المركبات التراكيب على تكوين البنى المختلفة في الخلية، وتُمكنها من العمل بدقةٍ، وتؤدي بعض المواد غير العضوية مثل المعادن والماء دورًا مهمًا في نمو الخلية وبقائها»[1].

وهذا يعني أنّ البيئة التي تحيط بالكائنات الحية تتفاعل معها بمشيئة الله تعالى تفاعلًا تامًا من أجل تنمية مكونات حياتها فللأغذية المتنوعة وللهواء ومطلق الطبيعة تأثير بمشيئة الله تعالى في استمرار حياة هذه الأجسام إلى الأجل المحتوم الذي كتبه الله لها، وقد أضافت **الموسوعة العربية العالمية** إلى ما تقدم بيانه ما يلي باختصار:

«البحوث الكيميائية الحيوية تغطي مجموعةً متنوعةً من العمليّات، حيث يُجري العلماء مثلًا الدراسات على الجزيئات البروتينية الكبيرة التي تُدْعى الإنزيمات أو الخمائر، التي تُسرع التفاعلات الكيميائية في المادة الحية.

تُعزز الإنزيمات الموجودة في جسم الإنسان التغيّرات الكيميائية الضرورية للوظائف الحيوية كالهضم وتقلّص العضلات، ويعين العلماء

---

(١) المرجع السابق، حرف (ك) ـ الكيمياء الحيوية، ٣٩٠/٢٠.

جزيئات الإنزيم، التي تُنتجها الخلايا ويدرسون الآلية التي تتبعها هذه الجزيئات لتسريع التفاعلات الكيميائية.

وتُعنى بحوث كيميائية حيوية أخرى بالمواد التي تساعد على تنظيم الأيض، وهي العملية التي تحوّل بها الكائناتُ الحيّة الغذاء إلى طاقة وأنسجة جديدة، ويبحث العلماءُ تحديد الدور الدقيق للحمض النووي في الأيض الذي يدعى DNA (الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين)، ويدرسون أيضًا الهرمونات، التي تُنتجها الأجزاء المختلفة للكائن الحي. والهرمونات موادّ كيميائيةٌ تُؤثر على وظائف الجسم المتعددة. ويأملُ الباحثون معرفة كيف تساعد المراسيل الكيميائية في تنظيم الأيض.

وقد ساعدت الكيمياء الحيوية من خلال دراسة الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين، على توضيح القواعد الجزيئية لقوانين علم الوراثة، وتوجد جزيئات الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين في تراكيب خيطية رفيعة تدعى بالصبغيات أو الكروموزومات في نواة الخلية، وتحمل هذه الجزيئاتُ المعلومات الوراثية من جيلٍ من الخلايا إلى آخر، وهكذا تنقل الكائنات الحية الصفات الوراثية إلى نسلها.

استخدم علماء الكيمياء الحيوية ما توصلوا إليه حول الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين في الهندسة الوراثية لإيجاد جزيئات بروتين جديدة، والبدء في إضفاء خصائص جديدة لبعض الكائنات الحية، وساهم بحث آخر في فهم عملية التركيب الضوئي، وقد توصل البحث إلى الإجابة عن العديد من الأسئلة حول هذه العملية المعقدة، التي تُحول فيها النباتاتُ الخضراء الطاقة الإشعاعية للشمس إلى الطاقة الكيميائيّة للكربوهيدرات.

وقد وسّعت بحوث الكيمياء الحيوية المعرفة العلميّة في كثيرٍ من الحقول الأخرى لعلم الأحياء وعلم الطب؛ إذ تساعد معرفة الإنزيمات مثلًا، الأطباء

في تشخيص أمراض معينة للعظام والكبد، كما أسهمت في اكتشاف عدد من المضادات الحيويّة، وتستعمل هذه الأدوية لمعالجة أنواع متعددة من الأمراض؛ لأنها تتمكن من تدمير الجراثيم التي تسبب الالتهاب. ويمكن مستقبلًا أن توفر الكيمياء الحيوية معلومات أفضل عن سبب نمو السرطان. كما يمكن أن تساعد العلماء في إيجاد أدوية أكثر فعالية»[1].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) المرجع السابق، حرف (ك) ـ الكيمياء الحيوية، ٣٩٠/٢٠.

في نسف بحوث الكيمياء الحيوية لشبه الملحدين

كم في الكيمياء الحيوية من آيات الله تعالى الشاهدة بأنه الخالق الحكيم الذي أخرج كل شـــيء من العدم إلى الوجود، ففي كل حل وتركيب في أي جزيئة من جسم الإنسان أو غيره من أنواع الكائنات من الشواهد القاطعة بأنّ الله سبحانه هو منشؤها ومنشئ كل ما في هذا الوجود، من كائنات تتفاعل مع حياة الأحياء ما تعجز العقول عن تصوره، والأقلام عن تســطيره، ومجلدات العلم عن احتوائه، وإنما حام العلماء الباحثون حول ذلك بحسب ما وصلهم من بلل قَذَفَ به تَمَوُّجُ هذا البحر الزاخر، كما جاء فيما ســجّله يراع الباحث الموهوب الأستاذ المهندس فداء ياسر الجندي، إذ قال:

«أدى التطور الهائل لعلــم الكيمياء الحيوية منذ أواســط القرن الماضي وحتى اليوم إلى تغير جــذري في معرفة العلم والطب بما يجري في جســم الإنســان، فقد تبيّن للعلماء وبوضوح قاطع لا لبس فيه أنّ حياة أي حي قائم على عدد يصعب حصــره من الآلات والأجهزة، التي تعمل بشــكل متكامل ومتزامن، لو توقف أي منها عن العمل لكان لها تأثيرات قد تكون مميتة على حياة الكائن الحي، وهذه الآلات ليست مصنوعة من معادن وأخشاب وغيرها من المواد التــي نعرفها، ولكنهــا مصنوعة من جزيئــات كيميائية تقوم بكل ما يخطر وما لا يخطر على بال من أعمال، وتتحكم بكل ما يجري في الكائن الحي من مهمــات، تحمل المــواد وتنقلها ثــم تفرغ حمولتها فــي المكان

المناسب، وتنسخ الخلايا وتعطيها شكلها ولونها، وتنقل صفات الكائن الحي لذريته، وتدافع عنه ضد الأعداء، وتولد التيار الكهربائي، وتنقله وترسله إلى الأماكن المطلوبة، وتقطعه عندما تنتهي مهمته، ولو عددنا لما فرغنا، ولكن باختصار الجزيئات الكيميائية هي آلات تتحكم تمامًا بكل ما يجري في خلايا الكائن الحي من أعمال»[1].

كل هذا يجري في كل ثانية من هذه الحياة في جميع أجسام الكائنات الحية، ويشمل هذا النظام الدقيق جميع جزيئاتها، وتلك الكائنات لا تشعر بهذا التفاعل، بل تظل منهمكة في شئون حياتها، وتفاعلها مع ظروفها وأحوالها، فالإنسان الذي هو سيد هذه الكائنات كم يجري في جزيئات جسمه في كل ثانية من حياته من هذه التفاعلات ما لا يحصيه الباحثون، وهو لا يشعر بذلك، وإنما يظل في أخذٍ وعطاء مع الحياة، فهل يمكن أن تكون هذه التفاعلات المنتظمة بنظامها الدقيق تجري عشوائية من غير أن تكون وراءها حكمة حكيم وتدبير مدبر؟!.

مرت على الإنسان أحقاب وأزمان وهو في غفلة عن هذه الحقائق، إذ لم تكن تدور بخلده أو تطرق فكره، ولكن جاءت بمشيئة الله تعالى ساعة وعد الله لأن يجلي للناس آياته في الأنفس وفي الآفاق حتى يتبين لهم أن ما قاله لهم هو الحق، فقامت بإرادة الله تعالى هذه الشواهد العلمية مصدقة لما جاءت به رسل الله من عنده تعالى، ومسقطة لكل شبهة من شبهات المجادلين، فماذا عسى أن يجديهم جدالهم وآيات الله تعالى التي لا تحصى في أنفسهم وفي كل هذه الكائنات تصرخ الوجود بصوتها الهادر الهادي إلى الله، وهي بكل صيحة من صيحاتها المدوية المتداركة تدكدك معاقل شبهات المكابرين؟!.

---

(١) الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص ١٣٥.

وقد أوضح حقيقة ذلك الأستاذ المهندس فداء ياسر الجندي، فقد أتبع ما سبق نقله عنه قوله: «لقد كان هذا التغير في المعرفة أحد المعاول الكبرى التي اشتركت مع غيرها في هدم نظرية التطور التي وضع أسسها تشارلز داروين، ولكن كيف؟.

ذكرنا في فصول سابقة أنّ نظرية داروين تقوم على أسس ثلاثة، الأول أن الكائنات لها أصل مشترك، والثاني أنّ الاختلاف والتنوع والتعقيد الذي نراه في الكائنات هو نتيجة طفرات عشوائية كانت تحدث للكائنات على مر الملايين من السنين، وأنّ تراكم هذه الطفرات كان يؤدي إلى تغيرات في الكائنات الحية، وهنا يأتي دور الأساس الثالث، وهو الاصطفاء الطبيعي الذي ينتقي من الكائنات ما تؤدي طفراته المتراكمة إلى التحسن في نوعه، فيبقى ويتكاثر، وينقل صفاته المحسنة إلى ذريته، في حين ينقرض الكائن الأضعف أو ذو الصفات الأدنى، وقد كان اكتشاف العمليات البيولوجية المتسلسلة والمعقدة التي لا تحصى والموجودة في الخلايا الحية أهم عوامل انهيار تراكم الطفرات، وبالتالي انهيار النظرية من أساسها».

ثم بيّن بعد ذلك جوانب من العمليات المتسلسلة المعقدة، بدأها بخطوط الإنتاج، قال في ذلك: «إنّ تصنيع أي آلة معقدة مثل السيارة على سبيل المثال يحتاج إلى مصانع متقدمة تحتوي على خطوط إنتاج، تعمل بدقة شديدة وبخطوات متعاقبة، تدخل المواد من أوله، معادن ولدائن وقماشًا وجلدًا وأسلاكًا، وتخرج من آخره سيارة متكاملة جاهزة للعمل، وأهم ما يلاحظه من يتأمل خط الإنتاج هو أنه يتألف من مراحل أو محطات متعددة متوالية، وأنّ كل محطة يتم فيها عمل يعتمد على ما تم في المحطة السابقة، ويعتمد عليه العمل الذي يتم في المحطة اللاحقة، بتعبير آخر، كل مرحلة هي نتيجة لما قبلها، وتوطئة لما بعدها، وأنّ المواد التي تصنع منها السيارة موزعة على

المحطات، كل مادة في المحطة المناسبة، وكل مادة ذات مواصفات دقيقة محددة معروفة سلفًا، فمثلًا في المراحل الأولى للتصنيع نرى على خط الإنتاج هيكل السيارة المعدنية مجردًا، وفي مرحلة لاحقة تتم معالجته فنرى عليه ثقوبًا وفتحات وتفاصيل مجهزة للمراحل اللاحقة، هناك فتحات للأضواء، وثقوب لكل سلك أو أنبوب سيعبر من المحرك إلى مقصورة الركاب، وأماكن مخصصة محفورة بدقة شديدة لكل صمام أو زر أو غير ذلك، وكلما مشت السيارة على خط الإنتاج أخذت أجزاءها بالتكامل حتى يتم التصنيع، وبدهي أنّ هذا لا يتم إلا إذا كان هناك تصميم لكل أجزاء السيارة من أكبر قطعة في هيكلها إلى أصغر دارة كهربائية في محركها، وأنّ هذا التصميم قد تم تجهيزه سلفًا وبدقة شديدة وبشكل كامل قبل إنشاء خط الإنتاج، ومن البدهي أنّ مدير فريق التصميم يعلم تمامًا كيف ستخرج السيارة في نهاية خط الإنتاج قبل أن يبدأ الإنتاج، ولو حصل خلل أو خطأ في خط الإنتاج لما اكتمل التصنيع، فخط الإنتاج يكون عادة مبرمجًا بحيث لا يتحرك إلى أي مرحلة قبل أن تنتهي المرحلة السابقة لها، ولو فرضنا جدلًا أنه تحرك وجاوز إحدى المراحل فستخرج السيارة غير مكتملة أو فيها خلل يمنع من استخدامها.

إنّ خطوط الإنتاج الصناعية هي مثال تقريبي لنوع من العمليات المتسلسلة المعقدة، التي ينعتها العلماء بمصطلح (تعقيد غير قابل للاختزال) أي لا يعمل إلا إذا كان مكتملًا من أوله إلى آخره، ولا يمكن أن نحذف منه أي مرحلة من مراحله، لأن حذف مرحلة واحدة يعطله تمامًا، ويعادل حذفه كله»[1].

وبعد هذا التأصيل لبحث هذا الموضوع بهذا الشاهد المعروف في عالم الصناعات انتقل إلى بيان هذا التسلسل المعقد في عمليات الخلق في الأجسام الحية، فقال تحت عنوان **خطوط الإنتاج الحيوية**: «إنّ جسم الكائن

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٥ ـ ١٣٧.

الحي يحتوي على ما لا يكاد يحصى من خطوط الإنتاج التي تعمل على مدار الساعة، أبطالها هي الجزيئات الكيميائية ومنتجاتها أكثر تعقيدًا وإتقانًا من أكثر السيارات تقدمًا، وتزيد عليها أنّ منتجات الكائنات الحية هي جزء من منظومة لا محدودة من الآلات التي تعمل معًا بتفاعل وتناغم مدهشين، لتحافظ على حياة الكائن الحي، بينما السيارة آلة مفردة مستقلة».

ثم ضرب لذلك مثلًا عملية **تخثر الدم**، فقال: «كلنا يعرف أنّ الدم الذي ينزف من أي جرح يصيب الإنسان ما يلبث أن يتخثر، فيسد الجرح، ولكن الذي لا يعلمه الكثيرون أنّ هذا التخثر يتم عبر سلسلة معقدة من العمليات، أي عبر خط إنتاج محكم دقيق مشابه لخط الإنتاج الصناعي من حيث المبدأ، إذ يمر بمراحل متتالية متسلسلة تؤدي كل منها إلى ما بعدها، حتى يتم الإنتاج على أكمل وجه وبشكل دقيق محكم، ولو حصل أي خلل بسيط في تسلسل هذه العمليات، فإنّ ذلك سيؤدي إلى هلاك الكائن الحي، إما بسبب النزيف حتى الموت، أو بسبب تشكل تخثرات كبيرة تسد مجرى الدم، وهو ينطبق عليها تعريف (تعقيد غير قابل للاختزال)».

ثم أخذ يبسط هذه العمليات المعقدة بتقسيمها إلى مراحل، فبيّن أولًا استجابة الصفائح الدموية للخطر، فقال: «الصفائح الدموية هي جسيمات بروتينية موجودة في السائل الذي يحتوي مكونات الدم ويسمى (بلازما الدم)، جنبًا إلى جنب مع بقية مكوناته الأخرى، مثل الكريات الحمراء والبيضاء وغيرها، وهي تجري في العروق بانسيابية وسلاسة، ولكن عندما يحدث جرح في جسم الإنسان تأتي رسالة استغاثة من جدار الشريان أو الوريد المجروح إلى تلك الصفائح، فتقوم فورًا بإعلان حالة الطوارئ، وهذه الرسالة يحملها بروتين اسمه (كولاجين) collagen وهو موجود خارج الأوعية الدموية وبمجرد أن يحصل الجرح يتم الاتصال بينه وبين الصفائح المجاورة

للجرح، فيقـوم بتحفيزها ويحولها إلى صفائح ذات سـطوح لزجة ثم تندفع نحو المكان المجـروح ويلتصق بعضها ببعض عبر هذه السـطوح اللاصقة، لتشكل ما يمكن اعتباره سدادة مؤقتة أو سـدادة طوارئ تتوضع على الجرح وتسده لتحد من النزيف».

ثم انتقل إلى بيان تقوية الخثرة الأولية بتكوين شـبكة بواسـطة عوامل التخثر، فقال: «إنّ السدادة التي تكونها الصفائح الدموية تكون هشة طرية تقوم بعمل مؤقت وتحتاج لتقوية حتى يكـون وقف النزيف محكمًا، وهذه التقوية تكون بطريقة عجيبة مذهلة، وبالتوازي مـع المرحلة الأولى، وتقوم بتنفيذها بروتينات وأنزيمات تسـمى عوامل التخثر، وظيفتها هي التحكم بتخثر الدم وسـيولته، وكلها موجودة أيضًا في بلازما الدم، وتعمل معًا بطريقة تسلسلية مدهشـة، لتصل في نهاية المطاف إلى الحصول على مادة تسـمى (فايبرين) Fibrin (كلمة Fibrin مشتقة في الإنجليزية من كلمة Fiber وقد عربت المجامع العربية كلمة Fibrin إلى ليفين) وهذه المـادة هي عبارة عن ألياف دقيقة ذات أطراف لزجة أو لاصقة تتدافـع وتتكاثف ناحية الجرح، ثـم يلتصق بعضها ببعض بشكل هندسي متناسق متداخل، لتشـكل شبكة أشبه ما تكون بشبكة الصياد، تحيط بالسدادة الأولية التي شـكلتها الصفائح الدموية حول الجرح وتضغط عليها، وعلى ما يحيط بها من كريات الدم لتشكل مع السدادة الأولى والكريات المحبوسة خثرة دموية قوية تسد الجرح وتوقف النزيف».

ثم أخذ يشرح كيف يحدث ذلك ومن أين تتوفر أسبابه؟ فقال: «إنّ مفتاح هذه العملية كلها مادة موجودة في بلازما الدم اسمها (فايبرينوجين) Fibrinogin وتشـكل هذه المادة ما يتراوح من ٢ ـ ٣٪ في المائة من البلازما، وتكون في الحالة العادية ذائبة في الدم كمـا يذوب الملح في ماء البحـر، ولكن عندما يحدث جرح في الوعاء الدموي يتم إعلان حالة الطوارئ فتندفع مادة تسـمى

(ثرومبين) إلى الجزيئات الفايبرينوجين، الموجـودة في موقع الجرح، وتنزع عنها بعض البروتينات لتتحول مـن فايبرينوجين إلى فايبرين وتندفع جزيئات الفايبرين إلى الجرح وتشـكل الشـبكة التي ذكرناها آنفًا، ولكن من أين جاء مركب الـ (ثرومبين)؟! هل كان موجودًا في الدم أصلًا؟ إذ لو كان في الأصل فعالًا لقام بتحويـل الـ (فايبرينوجين) إلى (ليفين) ولتشـكلت خثرات دموية داخل العروق دون أن يكون هناك جرح فتسـدها فتمنـع جريان الدم فيموت الكائن الحي، والجواب نعم موجود، ولكن بصيغة كامنة غير فاعلة، يسـمى (بروثرومبين) وهي مزيج من مقطعين (بـرو) أي ما قبل وثرومبين أي (مادة ما قبل الثرومبين) وحتى يتحول مركب البروثرومبين إلى ثرومبين يحتاج إلى ما يحفز، والمركب الذي يحفز يحتاج أيضًا إلى ما يحفز، والسؤال هنا أين تبدأ هذه السلسلة من التفاعلات المتتالية التي تنتهي بشكل الفايبرين؟!».

ثم أخذ يبيّن خطوط الإنتاج العجيبة، ليوضح كيف تتسلسـل وتتناسق، ومن خلال ذلـك يكون الجواب عن هذا الإشـكال، و«هـو أنّ انطلاق هذه السلسلة يبدأ بتمزق نسيج الوعاء الدموي، وختامها يتم بالتئام الجرح، وتكون المركبات والبروتينات والأنزيمات المشاركة فيها كامنة في الدم تنتظر الإشارة ليبدأ مسلسل تحفيزها، وهذه الإشارة تنطلق من جدار الوعاء الدموي، الذي تحتوي طبقته الداخلية على مادة تسمى العامل النسـيجي، (Tissue Factor) وهو مركب يوجد في طبقة رقيقة جدًا تبطن الجدار الداخلي للوعاء الدموي، فإذا ما تمزق جدار الوعاء، ينطلق العامل النسيجي معلنًا حالة الطوارئ ومؤذنًا ببداية عمليـة التخثر، فهو الـذي يحفز بدايـة العملية التي تنتهي بتشـكل الثرومبين، الذي يحفز الفايبربنوجين ليتشكل الفايبرين كما سبق وذكرنا آنفًا.

وما بين إطلاق العامل النسـيجي وصولًا إلى تشـكيل الفايبرين، هناك سلسلة معقدة متسلسلة من العمليات...، ولا يهمنا هنا أسماء المركبات، فهي

كأسماء فريق كرة القدم، لا يهم من يمرر الكرة من أول الهجمة لآخرها، ولكن المهم أن يتحقق الهدف وتسكن الكرة الشباك.

وهذه العملية المعقدة، تتم عبر خطين من خطوط الإنتاج:

خط الإنتاج الأول: ويسمى المسار الخارجي، لأنه يبدأ خارج الوعاء الدموي، حيث يقوم العامل النسيجي المذكور أعلاه بتحفيز عامل (بروثرومبين) ليتحول إلى (ثرومبين) بكمية قليلة، ولكنها مؤثرة جدًا، فهي تقوم ـ وبشكل عاجل ـ بتحويل بعض جزيئات الفايبرينوجين الموجودة في بلازما الدم إلى فايبرين، ليقوم بتشكيل شبكة أولية تحيط بالسدادة التي سبق أن شكلتها الصفائح الدموية لتقويتها، ولكن هذه الشبكة أيضًا غير كافية، ولا بد من تقويتها، لأن تشكيل شبكة متينة تعمل كخثرة دموية يحتاج لملايين الجزيئات من الفايبرين، وهنا يأتي دور آخر يقوم به عامل ثرومبين عبر خط إنتاج آخر.

خط الإنتاج الثاني: بالإضافة لما يقوم به عامل ثرومبين عبر الخط الأول، يقوم أيضًا بتحفيز المزيد من عوامل وأنزيمات التخثر الكامنة في الدم، والتي تقوم بدورها بتحفيز المزيد من مركب (البروثرومبين) ليتحول إلى مزيد من مركب ثرومبين، (أي إننا هنا في دائرة مغلقة ثرومبين.. يفعل عوامل تخثر.. فتفعل بروثرومبين.. ثم ثرومبين، وكأن ثرومبين يستعين بأصدقائه من عوامل التخثر لإنتاج المزيد منه!)، وهذا بدوره يقوم بتحويل المزيد من الفايبرينوجين إلى فايبرين، فتتقوى الشبكة ويصبح لدينا خثرة دموية متينة قوية تمنع تسرب الدم خارج الوعاء الدموي، وهذا المسار يسمى المسار الداخلي، لأنه يتم كله داخل الوعاء الدموي، ويلاحظ أنّ المسارين الداخلي والخارجي يلتقيان معًا في مسار مشترك...».

كل هذا كان شرحًا لبداية عملية التخثر وتسلسلها في مراحلها التي تمر بها وبعد ذلك جاء بيان نهايتها وتوقفها في قوله: «يأتي هنا دور ثالث يقوم بها

مركب **ثرومبين**، فهو يقوم أيضًا بتحفيز مادة تسمى **بلاسمينوجين** موجودة في **بلاسما** الدم لتتحول إلى **بلاسمين**، وهذه الأخير هي مادة مثبطة للتخثر دورها إيقاف تشكل المزيد من **الفايبرين** بعد أن تكتمل الشبكة وتقوى، لأن عدم توقف عملية التخثر وتشكل كميات زائدة عن الحاجة من الفيبرين يشكلان خطرًا على حياة الكائن الحي، حيث يمكن أن يؤدي ذلك إلى انسداد الوعاء الدموي، فتقوم مادة **البلاسمين** بتحفيز سلسلة من العمليات تنتج عنها أنزيمات وعوامل مضادة للتخثر، تقوم بتثبيط العملية وإيقافها تمامًا، وبعد ذلك يتم العمل ببطء من أجل إذابة الشبكة والخثرة عن طريق سلسلة أخرى من المحفزات، والأمر المدهش أنّ سرعة إذابة الخثرة وامتصاصها ضمن مجرى الدم تعادل سرعة التئام الجرح، فلا يشعر الجريح إلا وقد التأم الجرح وفي الوقت نفسه تختفي الخثرة التي كانت تسده.

ولتلخيص ما سبق من تعقيد يمكن تقسم عملية تخثر الدم إلى خمس مراحل.

أولًا: تشكيل سدادة من الصفائح الدموية، ويتم إطلاقها أو تحفيزها بواسطة مادة **الكولاجين**.

ثانيًا: تشكيل شبكة أولية تقوي السدادة من مادة **الليفين** الذي ينتج عن تحفيز الثرومبين بواسطة العمل النسيجي.

ثالثًا: تشكيل المزيد من مادة **الثرومبين** ليقوم بإنتاج المزيد من **الفايبرين** من أجل التقوية النهائية للخثرة الدموية.

رابعًا: تشكيل العوامل المضادة للتخثر، والتي تقوم بإيقاف عملية التخثر ببطء فور اكتمالها، حتى لا تتسبب في جلطات مميتة، ويتم تحفيزها بواسطة مادة **البلاسمين**.

خامسًا: الامتصاص البطيء للخثرة الدموية في بلاسما الدم بشكل يتزامن تمامًا مع سرعة التئام الجرح».

وبعد هذا الشرح الواسع لما أودعه الله تعالى في طبيعة الخلق من سريان شفاء الجروح وفق نواميس معينة، أودعها الله سبحانه في طبيعة الدم، انتقل إلى نتيجة ذلك كله وهو إقامة الحجة على الملاحدة والتطوريين، فكتب تحت عنوان **بيت القصيد:**

«الذي يهمنا من ذلك كله هو الطبيعة التسلسلية المحكمة لهذه العملية ومثلها كمثل خط إنتاج السيارة الذي تقدم ذكره ينطبق عليها وصف التعقيد غير القابل للاختزال، فلو حذفنا منها أي مرحلة من مراحلها لما تمت العملية برمتها ولم يتخثر الدم، ذلك أنّ كل مرحلة منها تعتمد تمامًا على التي قبلها، ولا بد من أجل أن تتم كل مرحلة من وجود المركب الذي يقوم بها، ولكن بشكل كامل، ومن وجود المركب الذي يحفزه أيضًا، وأن يتم التحفيز في الوقت المناسب تمامًا، فكيف تطورت هذه العملية عبر الطفرات المتراكمة؟! وكيف اتفق أن توجد كل هذه المركبات في صيغها الكاملة وأن تتفاعل الإنزيمات أو المحفزات اللازمة لعملها في الوقت المناسب والمكان المناسب (علمًا أن هناك أكثر من خمسين مركبًا وبروتينًا وأنزيمًا تشارك في عملية تخثر الدم ولم نذكرها جميعًا للاختصار وعدم الإطالة على القراء الكرام).

إنّ من يزعم أنّ عملية تخثر الدم وأمثالها نشأت نتيجة تراكم الطفرات العشوائية هو كمن يزعم أنّ جماعة مروا بكومة ضخمة من الخردة والمواد المختلفة فعبثوا بها (أقول عبثوا لأن الداروينيين يقولون: إنه لا يوجد تصميم سابق، بل هي طفرات عشوائية) وصفوا وركبوا بعضها ثم مضوا وإذا الذي حصلوا عليه هو الجزء الأول من خط إنتاج سيارة، ثم جاء من بعدهم جماعة أخرى فعبثوا بكمية أخرى من المواد وصفوها إلى جانب سابقتها، ثم مضوا

وإذا بنا نحصل على الجزء الثاني من خـط التصنيع! ثم تتابعت الجماعات، كل جماعة تعبث فتحصل على مرحلة جديـدة! وبعد أزمان ودهور من تتابع الجماعات حصلنا على خط كامل لإنتاج السيارات، يعمل بدقة وإتقان، وينتج سيارات كاملة قابلة للاسـتخدام، علمًا أنّ كل الجماعات التي مرت لم يكن لديها تصميم سابق لما سيكون عليه هذا الخط عندما ينتهي (بشكل عام) ولم تكن تعلم ماذا ستفعل الجماعة التي بعدها.

إن كان هذا الكلام يمكن تصديقه فيمكـن إذًا أنّ نصدق أنّ عملية تخثر الدم وأمثالها نشأت بواسطة التطور الداروينى.

ثم دعونا نسـأل هل كانت عملية تخثر الدم موجـودة مع أول كائن حي لدورة دموية نتج عنه التطور؟! إن كان الجـواب لا، بل قد تطورت تدريجيًا فهذا محال، لأن هذا الكائن لن يستمر في الحياة، وسينقرض قبل أن يتطور، حيث إنّ دمه سـينزف حتى المـوت عند أول جـرح أو خـدش، وإذا كان الجواب: نعم، لقد كانت آلية تخثر الدم موجودة عند أول كائن لدورة دموية، فسنقول إنّ هذا لو حصل يدحض تمامًا نظرية التطور، حيث إنّ الوصول إلى هذا النظام المعقد بشـكل مباشـر وبهذه الدقة لا يمكـن أن يحدث بطفرة واحدة، بل يحتاج (حسب نظرية داروين نفسها) إلى عدد ضخم من الطفرات العشوائية المتراكمة عبر زمن سحيق من الدهور، أو يحتاج إلى أن يكون وراءه مصمم خبير، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ نسألهم جدلًا، وهل كان هذا النظام (لو فرضنا جدلًا أنه نشـأ بطفرة واحدة) يحتـوي أيضًا على طريقـة لإيقاف التخثـر في الوقت المناسب والمكان المناسب والسرعة المناسبة، فإن قالوا: لا، قلنا هذا محال لأن من شـأن ذلك أن ينقرض هذا الكائن، لأن دمه سـيتجلط كله عند أول جرح، وإن قالوا: نعم، سنقول لهم عجبًا لهذه الطفرة الخارقة التي ينتج عنها

دفعة واحدة نظام كامل متكامل معقد دقيق محسوب، وفي الوقت نفسه ينتج عنها نظام معاكس له لا يقل عنه دقة ولا تعقيدًا ولا حسابًا ولا إتقانًا.

لم يتمكن الدراونة حتى الآن من إثبات أنّ عملية تخثر الدم (وكذلك ما لا يكاد يحصى من العمليات الأخرى المشابهة في خلايا الكائنات) ناتجة عن آليات التطور، وكل ما يقولونه هو تلك العبارة التي لا يملون من ترددها دون دليل أو إثبات: إن تراكم الطفرات الجينية على مر عصور طويلة كفيل أن ينتج عنه تطور أي نظام معروف.

نحن يا سادة في عصر العلم، عصر التجربة والبرهان والدليل فعليكم أن تثبتوا لنا بالدليل والبرهان والتجربة العلمية الموثقة كيف تطور نظام تخثر الدم، وأن تثبتوا لنا أن أسلافنا لم يكن لديهم هذا النظام، أو كان لديهم نظام بدائي ثم تطور حتى وصل إلى ما وصل إليه، وسنتبنى نظريتكم إن أثبتم ذلك بالدليل العلمي القاطع.

وهنا سينغضون إليك رؤوسهم ويقولون: هل تريدون أن تقولوا إنّ هذا النظام من صنع وتصميم قوة خارقة عليا؟. أنتم تريدون جرنا إلى الإيمان بالله، وهذا ليس من العلم، وهنا سنقول لهم: دعوكم من هذه الطريقة المعروفة في التهرب من الجواب، لا تقفزوا خطوة للأمام قبل أن تنهوا من الخطوة السابقة، فإن أثبتم أنّ هذا النظام تطور حسب نظرية داروين، فسنؤمن معكم بها، وإلا فدعونا نشطب هذه النظرية من قاموس العلوم، ونبحث معًا عن جواب مقنع ما أوضحه، وما أسهل الوصول إليه، إن تجرد الباحث عن هوى نفسه واتبع المنهج العلمي الصحيح المبني على التجربة والبرهان والدليل القاطع»اهـ[1].

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٧ ـ ١٤٦.

وهذه حجج لا تدفعها الشبه؛ لأنها قائمة على براهين العقل الصحيح، والتجربة العلمية الثابتة، فلا يمكن أن تدحضها نظريات جدلية عقيمة لم تقم على أساس من براهين العقل، ولا تجارب العلم، وإنما كان الدافع إليها ما في النفوس من العقد النفسية من عقائد الدين، وقد تصور هؤلاء الحمقى أنّ الإيمان بالله يتنافى مع حقائق العلم، ولم يصلوا إلى إدراك أنّ كل حقيقة علمية ناشئة عن تجربة صادقة سليمة، هي صيحة إيمانية داعية إلى الإيمان بالله وبما أنزل من الحق، ولكن ماذا عسى أن يقال في قوم نادى نداء الحق بشهادة من برأهم أنهم عطلوا جميع مداركهم، وتجاهلوا كل ما تنطوي عليه فطرهم، فغدوا أحط قدرًا من الأنعام، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وإن تعجب فاعجب من قوم يدعون العلم وهم يجحدون براهينه، ويعطلون نتائجه، فهل يعقل أن تسلسل هذه الحلقات من الأسباب آخذًا بعضها بحجزة بعض في نظام رتيب، من غير نشاز ولا تباين حتى تفضي إلى مسبباتها، من غير أن يكون وراء ذلك من هو خبير بهذه الأسباب أحاط بها علمًا، ورتبها وفق إرادته الحكيمة، وبمقتضى قدرته الواسعة فتسلسلت حتى وصلت إلى نتائجها، وهذا ما نجده في كل ذرة في الكون، وكل حركة في الوجود، فإنها جاءت على قدر، وفق حكمة بالغة، وفي تسلسل متقن لأسبابها، فكيف يصدق أن تكون ناتجة عن طفرات عشوائية، ولا يصدق أن تكون من صنع عليم حكيم، يعلم من خلقه السر وأخفى؟!.



الفصل الخامس

في البراهين
التي في أنحاء الآفاق

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: في المراد بالآفاق.
- المبحث الثاني: في سعة آيات الله تعالى في خلق هذا الكون الدالة عليه.
- المبحث الثالث: في اضطراب عقول الحائرين وزيغهم عن إدراك هذه الحقيقة.
- المبحث الرابع: في إبطال كون العالم أوجد نفسه بنفسه.

في المراد بالآفاق

الآفاق جمع أفق، وهي من كل شيء جوانبه، قال الخليل في **العين**: «وواحد الآفاق: أُفُقٌ، وهي النواحي من الأرض، وكذلك آفاقُ السماء نواحيها. وأُفُقُ البيت من بيوت الأعراب: ما دون سمكه»[١] ومثله قول الأزهري في **التهذيب**[٢].

وفي **لسان العرب**: «الأفْق والأُفُق مثل عُسْر وعُسُر: ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض، وكذلك آفاق السماء نواحيها»[٣].

وفي **الموسوعة العربية العالمية** ما نصه: «الأفق هو ذلك الخط البعيد المنحني الذي تبدو عنده الأرض والسماء كأنهما ملتقيتان، ولا يستطيع معظم الناس قرب الأرض أو على اليابسة رؤية الأفق، لأن المباني والأشجار أو الجبال تحجب عنهم الرؤية. ولكن يستطيع شخص على ظهر سفينة أن يرى الأفق في يوم صحو»[٤].

وعليه؛ فإنّ الآفاق تضيق وتتسع بحسب ما تضاف إليه، فهي تضيق عندما تضاف إلى جرم صغير كالخندق والبيت والسيارة، وتتسع بحسب ما تضاف

---

(١) الخليل بن أحمد: **العين**، باب القاف والطاء و(واي) معهما، ٢٢٧/٥.

(٢) ينظر؛ الأزهري؛ محمد بن أحمد: **تهذيب اللغة**، باب الالقاف والفاء، مادة (أفق)، ٣٤٣/٩، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة، (بدون ط).

(٣) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة (أفق)، ١٢٢/١.

(٤) مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (أ) ـ الأفق، ٣٩٩/٢.

إليه عندما تضاف إلى ما هو أوسع من ذلك كالأرض والفلك والفضاء والسماء، ومرادنا بالآفاق هنا آفاق الكون، وهو المعبر عنه بالعالم الذي يشمل الوجود الحادث كله، سفليه وعلويه، فتندرج فيها الأجرام الفلكية ومداراتها، بل تندرج فيها المجرات وما اشتملت عليه من الأجرام.

ولا يخفى أنّ الناس في كل حين يكتشفون ما لم يكتشفوه من قبل من سعة هذا الكون، وقد جاء في **الموسوعة العربية العالمية** في الكلام عن الكون ما نصه: «الكون مصطلح يستعمل في الفيزياء، وفي الفلك ليشير إلى كل شيء موجود، من أصغر الذرات إلى أكثر الأجرام الفلكية بعدًا، وكان العالم بالنسبة للإغريق يبدو مرتبًا بصورة بالغة الإحكام، وله نظام متناغم يتألف من الأرض والشمس والنجوم والقمر والكواكب الظاهرة. أما اليوم فنحن نعرف أنّ الشمس ليست إلا واحدة من ١٠٠ بليون نجم في مجرة درب التبانة، وهذه المجرة ما هي إلّا مجرة واحدة من ١٠٠ بليون مجرة على الأقل يتألف منها الكون الظاهر لنا»[1].

ونحن نؤمن بأنّ ما يكتشفه البشر من سعة هذا الكون؛ إنما هو لا يتجاوز قدرًا ضئيلًا من حجمه الواسع، وآفاقه المترامية، وسعة محتوياته، وكثرة أنواع الخلق فيه، وإلا فكل ما توصلوا إليه وما سيصلون إليه في المستقبل عبر وسائل الاكتشاف العلمية لا يكاد يساوي شيئًا بجانب آفاقه الواسعة؛ التي لا يحيط بها إلا الله سبحانه، الذي خلقه فأحكم خلقه، ودبره فأحسن تدبيره، ولا تخرج ذرة من ذراته عن مقتضى إرادته سبحانه، فهو مملكة الله تعالى التي لا سلطان لأحد من خلقه فيها، فهو وحده المنفرد بالخلق والتدبير، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) المرجع السابق، حرف (ك) ـ الكون، ٢٨٥/٢٠، وهذا الرقم المذكور هنا تضاعف نحو عشرين مرة بالنسبة إلى الاكتشافات الجديدة.

على أنّ الكون نفسه لم يبق في حجمه الذي كان عليه من قبل، وإنما يتوسع باطراد، وقد كان هذا من قبل مجرد نظرية طرحت للنقاش والجدل، أما اليوم فكادت تصبح حقيقة علمية يسلم بها الكل إلا قليلًا ممن بقي في شك منها، فقد ذكر لي أحد المتخصصين في علم الفلك بأن ٩٥٪ من الفلكيين أصبحوا على يقين بأنّ توسع الكون حقيقة واقعة، ونحن نرى أنّ القرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فإنّ أوسع يكون في اللغة العربية بمعنى وسَع، قال ابن سيده وغيره: «وأوسعه ووسّعه: صيّره واسعًا»[١]، ومثله قول الزمخشري: «ووسّع الله عليه العيش وأوسعه»[٢]، وقول الفيومي: «وَوَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ يَوْسَعُ بِالتَّصْحِيحِ وَسْعًا مِنْ بَابِ نَفَعَ بَسَطَهُ وَكَثَّرَهُ، وَأَوْسَعَهُ وَوَسَّعَهُ بِالْأَلِفِ وَالتَّشْدِيدِ مِثْلُهُ»[٣].

وإذا كان المفسرون عندما تأولوا الآية الكريمة ذكروا معنى الإيساع بحسب ما انكشف لهم كما في قول الرازي: «فيه وجوه **أحدها**: أنه من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة، والبناء الواسع الفضاء عجيب، فإنّ القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون، لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها، ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض.

---

(١) المرسي، ابن سيده؛ علي بن إسماعيل: **المحكم والمحيط الأعظم**، ٣٠٦/٢، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، وينظر؛ ابن منظور: **لسان العرب**، مادة (وسع)، ٢١١/١٥، والزبيدي: **تاج العروس**، فصل الواو مع العين، مادة (وس ع)، ١٧٥/٢٢.

(٢) الزمخشري: **أساس البلاغة**، مادة (وسع)، ص٦٧٥، دار النفائس ـ بيروت، ط١: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٣) الفيومي؛ أحمد بن محمد الحموي: **المصباح المنير**، كتاب الواو، مادة (وسع)، ص٣٩٢، دار الحديث ـ القاهرة، ط: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي لقادرون، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة، ويحتمل أن يقال بأنّ ذلك حينئذ إشارة إلى المقصود الآخر وهو الحشر، كأنه يقول: بنينا السماء، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، **ثالثها:** إنا لموسعون الرزق على الخلق»[1].

فإنا لا يسعنا أن نغمض العين عما انكشف للعالم من هذه الحقيقة الكونية التي كانت غامضة من قبل، حتى كادت الآن تصل إلى درجة اليقين، ونبعدها عن دلالة الآية الكريمة، إذ لا ريب أنّ الله سبحانه وعد في كتابه بكشف آياته في الأنفس وفي الآفاق حتى يوقن المرتابون بأنه لا يمكن إلا أن يكون من عند الله، وذلك بما يكون من انطباق آيات الله في تنزيله على الحقائق المكتشفة من آياته في هذا الوجود الواسع المترامي، ولعله مما يؤكد دلالة الآية الكريمة على هذه الحقيقة الكونية التعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وهو يدل على استمرار هذا الوصف وبقائه، ومعنى ذلك أنّ هذا الإيساع سيطرد بمشيئة الله تعالى إلى أن يأذن الله تعالى بنهاية هذا الكون.

ويحكي د. **ماهر الصوفي** عن **موجز تاريخ الكون** لمؤلفه د. **هاني رزق** أنّ نظرية توسع الكون قبل أن تصبح حقيقة واقعة «ترجع إلى الرياضي الفيزيائي الروسي **ألكسندر فريدمان** الذي وضع نماذجه الرياضية بناء على قراءة صحيحة للنسبية العامة، ووضع حلولًا تنبثق عن هذه القراءة، وبرهن بوساطتها على وجود بداية لهذا الكون حدث فيها الانفجار الأعظم، وعلى أنّ هذا الكون يتوسع باستمرار، وكما يمكن الاستنتاج من قراءة الأبعد لنماذج

---

(١) الرازي: **مفاتيح الغيب**، سورة الذاريات (الآية ٤٧)، مج (١٤) ٢٢٧/٢٨.

فريدمان أنّ الكون ربما لا يعاني ارتصاصًا أعظم بل قد يبقى بتوسع دائم إما بمعدل ثابت متوازن، أو بمعدل متسارع»[1].

وقد أذهل علماء الكون المتابعين لاكتشاف أبعاده وأحواله ما اكتشفوه من توسعه وامتداده، وهذا بعض ما سجل من تقاريرهم في ذلك: «يتّسع الكون بسرعة أكبر من قياس أي شخصٍ لمعدل الاتساع أو التمدد على المُستوى النظري. هذا الاكتشاف، يمكن أن يتسبب في وضع جزء من نظرية ألبرت أينشتاين في النسبية ـ أحد أعمدة علم الكونيات التي صمدت أمام التحديات لمدة قرن ـ في موضع اختبار مرة أخرى.

وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، ووكالة الفضاء الأوروبية، أعلنتا أنّ الكون يتوسع بشكل أسرع بنسبة ٥٪ إلى ٩٪ مما كان متوقعًا من قبل، هذا الاكتشاف وصل إليه العلماء باستخدام تليسكوب هابل الفضائي عبر قياس المسافة بين النجوم في ١٩ مجرة من المجرات الموجودة خارج حدود مجرة درب التبانة. المذهل أنّ معدل التوسع هذا لا يتطابق مع التوقعات التي استند فيها العلماء إلى قياسات الإشعاع التي خلفها الانفجار الكبير، وهو الانفجار الذي أدى إلى نشأة الكون المعروف منذ حوالي ١٣,٨ مليار سنة.

وقد قال الفيزيائي والباحث الرئيسي وراء هذه الدراسة غير المتوقعة، آدم ريس: (أنت تبدأ مع نهايتين معينتين، وتتوقع أنّ الالتقاء سيحدث في منتصف الطريق، وذلك إذا ما كان جميع الرسومات الخاصة بك صحيحة، والقياسات الخاصة بك على حق. ولكن الآن فهذه النهايات لا تجتمع تمامًا في الوسط، ونريد أن نعرف لماذا)، وذلك في محاولة منه لتقريب الفكرة للأذهان.

---

(١) الصوفي؛ ماهر أحمد: الموسوعة الكونية الكبرى، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة، ١٣٦/٢، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت، ط: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، نقلًا عن الدكتور هاني رزق في موجز تاريخ الكون، ص٣٨.

وقد توصل الباحثون إلى أنّ معدل توسع الكون الجديد أصبح الآن ٧٣,٢ كيلومتر لكل ثانية لكل ميغابارسيك. والميغابارسيك هي وحدة قياس تساوي ٣,٢٦ مليون سنة ضوئية. ونتيجة لهذا التعديل، الذي يصل إلى سرعة لا يمكن تخيلها خلال مسافات غير قابلة للاستيعاب، هي أنّ المسافة الحالية بين الأجسام الكونية ستتضاعف بعد ٩,٨ مليار سنة أخرى.

وتكمن المشكلة في أن مثل هذه السرعات لا تطابق التوقعات السابقة لمعدل التوسع، خلال النتائج السابقة التي أعلنتها وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) عبر النتائج التي لاحظتها مركبة الفضاء (ويلكنسون)، أو تلك التي لاحظها القمر الصناعي (بلانك) التابع لوكالة الفضاء الأوروبية. كلا هاتين المركبتين الفضائيتين تم إطلاقهما إلى مداراتهما لدراسة منطقة الشفق الناجمة عن الانفجار الكبير، وهي تلك المنطقة التي نشأ فيها كل من الزمان والمكان والمادة، وكانت كلا المركبتين قد أعطت أرقامًا مختلفة عن الرقم الجديد الخاص بالتمدد الكوني، فالمركبة الأولى أعطت رقمًا أقل بنسبة ٥٪، والثانية بنسبة ٩٪.

وقد أثار هذا الاكتشاف ضجةً كبيرةً فيما يتعلق بنظريات تتحدث عما يملأ ٩٥٪ من الكون، والذي يتميز بأنه لا يشع ضوءًا أو أي إشعاع، طبقًا لما ذكره الباحثون. نحن نتحدث هنا عن المادة المظلمة التي تشكل غالبية الكون، وعما تحتويه من طاقة تسمى الطاقة المظلمة»[1].

وكم من الملاحدة من اعترف بالانقلاب التام للرؤية العلمية حول ثبات الكون كما كان ذلك من الفيزيائي الملحد **كراوس** في كتابه **كون من لا شيء** إذ قال: «يعرف الجميع الآن ـ باستثناء المشرفين على بعض المدارس في

---

(١) علاء الدين السيد: الكون المنظور أكبر مما نتوقع بـ ٢٠ ضعفًا.. أرقام مذهلة لا يمكن تخيلها، ينظر: https://www.sasapost.com/two-trillion-galaxies/.

الولايات المتحدة ـ أنّ الكون ليس مستقرًا، وإنما هو يتمدد، وأنّ هذا التمدد قد بدأ في انفجار كبير، حار جدًا وكثيف منذ قرابة ١٣,٧٢ بليون سنة»[1].

وهو يشير بما استثناه من المشـــرفين على بعض المدارس في الولايات المتحدة إلى المتعصبين للكتاب المقدس من النصارى الذين يتصاممون عن أصوات العلم، ويتمســكون بما في الكتاب المقدس ولو تعارض مع حقائق الوجود التي يكشفها العلم، فهم ـ بلا ريب ـ يؤمنون أنّ للكون بداية، ولكنها بداية قريبة جدًا لا تتجاوز بضعة آلاف من السنين.

ويعلق على هذا د. ســامي عامري فيقول: «يجمــع الفيزيائيون الملاحدة اليوم أن لكوننا بداية بعد الكشف عن تمدد الكون».

ثم يتبع ذلك قوله: «لم يكن الانتقال من التصور الإســتاتيكي للكون إلى القول أنه يتمدد ســهلًا كما قد يظن بعضهم اليوم، إذ إنّ الكون الثابت أبرز مواريــث الحضــارات القديمة، ولذلك لمــا طور **أينشــتاين** نظريته للجاذبية ضمن النظرية النسبية العامة، وانتهت معادلاته لتقود إلى نفي ثبات الكون، اضطر إلى أنّ يغير حســاباته بإضافة الثابــت الكوني ليعود للكون اســتقراره قبل أن يتراجع بصورة كلية عن فرضية الكــون الثابت، وقد بدأ الكشف عن توسع الكون بأبحاث **ألكسندر فريدمان** الذي أثبت أنّ الكون في ضوء نظرية النســبية العامة لا يمكن أن يكون ثابتًا مســتقرًا، وإنما هو متحرك ضرورة، إما بالتوسع أو بالتقلص، وأثبت بعده عالم الفلك **جورج لوميتر** اعتمادًا على كشف **فيستو ســيلفر** لظاهرة الانزياح نحو الأحمر سنة ١٩١٢م أنّ الكون يتوسع.

---

(١) د. سامي عامري: براهين وجود الله، ص٣٩٢، نقلاً عن: ـ

Lawrence M. Krauss, A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing (New York: Free Press, 2012) , p.3.

وكانت أبحاث إدوين هابل الأبرز في الدلالة على تأكيد القول بتمدد الكون، فقد كشف في العشرينيات من القرن الماضي بعد عمله الرصدي بتلسكوب جبل ويلسون وحساباته الرياضية أنّ الكون يتمدد بقيمة ثابتة.

والأمر ليس مجرد اجتهاد نظري بل تشهد له الرؤية البصرية نفسها، فقد أثبته الرصد الفلكي، إذ مكننا مرصد هابل الفضائي رؤية الكون بعد ميلاده برصد صورة أقدم مجرات من الممكن رؤيتها مضى عليها ١٣,٢ بليون سنة.

وقد اتفق علماء الكوسمولوجيا[١] أنّ لفظ الكون للثبات وتمدده علامة على أنه كان أكثر انكماشًا في تاريخه القديم، وكلما عدنا إلى الوراء كانت أجزاؤه أكثر تقاربًا حتى لحظة البداية، حيث كان الكون منكمشًا في نقطة صفرية قبل أن ينفجر»[٢].

هذا؛ ولا يخفى على اللبيب أن ما يذكر من الانفجار الكوني الكبير إنما يراد به بداية ظهور هذا الكون عندما أذن الله تعالى بوجوده، ولم يكن انفجارًا عشوائيًا، وإنما كان خلقًا وتقديرًا، كل شيء منه بحساب، كما أثبتت ذلك الحقائق العلمية، إذ لو لم يكن كذلك لأدى الأمر إلى تلاشي الوجود، وقد عبّر القرآن الكريم عما يسمونه انفجارًا بالفتق، فقد بيّن أنّ الكون كله بجميع أجرامه وأجزائه كان كتلة واحدة، فتوجهت الإرادة الربانية إلى فتقه لتتشكل وحداته وأجرامه، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وهذه الآية هي أحد مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وقد استمر هذا الفتق بما حصل من أنواع الكائنات وتوسع فضاء هذا الكون إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وسيعود مرة أخرى إلى التقلص كما يؤذن به

---

(١) هو: علم الكون.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٢ ـ ٣٩٣.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فقد ظهر أنّ التمدد بعد هذا الفتق ـ أو ما يسمونه بالانفجار العظيم ـ بدأ بنسبة أقل مما هي عليه الآن، فقد دلت البحوث العلمية إلى أنّ سرعته تزداد باستمرار حتى تصل سرعة المجرة في تزايدها إلى أن تكون كسرعة الضوء.!!.

ونقل صاحب **الموسوعة الكونية الكبرى** عن مؤلف كتاب **القرآن الكريم والعلم الحديث** ـ د. منصور **محمد حسب النبي** ـ أنه قال: «توسع أو تمدد الكون أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث، ولقد أصبح هذا التوسع مفهومًا ثابتًا، وحقيقة لا جدال فيها، لدرجة أنّ المناقشات العلمية تدور فقط حول الطريقة التي يتم بها هذا التوسع أو التمدد».

ويضيف إلى ذلك: «لقد تنبأت النظرية النسبية العامة **لاينشتاين** بهذه الظاهرة وأجريت قياسات عملية كثيرة على **أطباق المجرات**، ولقد استخدمت **ظاهرة دوبلر** بالإزاحة الطبقية لتدعيم هذه النظرية، وتنشأ **ظاهرة دوبلر** عندما تتغير المسافة بين المصدر الضوئي والراصد، وإذا زادت المسافة بينهما عندما يتحرك أحدهما أو كلاهما، فإنّ الطيف الضوئي الصادر تحدث له إزاحة معينة نحو الطول الْمَوْجِيّ الأكبر، بحيث تتناسب الإزاحة الطبقية طرديًا مع سرعة التحرك، وتدعى في هذه الحالة بالإزاحة الحمراء.

... ولقد درس **دوين هابل** خطوط طيف الامتصاص للمجرات، فتبيّن له أنّ جميع المجرات خارج مجموعتنا المجرية **درب التبانة** التي تتبع لها مجموعتنا الشمسية وكوكبنا الأرضي، تعطي إزاحة حمراء، وبهذا استنتج **هابل** أنّ معظم المجرات تتباعد عنا، وكلما ابتعدت المجرات ازدادت سرعة ارتدادها أو تراجعها عنا، ولقد تبيّن أنّ سرعة التراجع تزداد بمقدار ١٧ كم/ ثانية لكل مسافة قدرها مليون سنة ضوئية.

ما معنى هـذا؟ معناه أنّ المجرة التـي تبعد عنّا ١٠٠ مليون سـنة ضوئية تتراجع أو ترتد عنا بسرعة قدرها ١٠٠ط ١٧ = ١٧٠٠ كلم/في الثانية الواحدة، ومثل آخر أنّ عنقود كوما وهو تجمع مجري يبعد عنا ٣٥٠ مليون سنة ضوئية، فإنّه يتراجع عنا بسرعة ١٧ ط ٣٥٠ = ٥٩٥٠ كم في الثانية الواحدة، وهكذا.

فالمجرة التي تبعد عنا مليار سنة ضوئية تتراجع عنا بسرعة ١٧٠٠٠ كم/في الثانية الواحدة، وثابت التناسـب هنا وقدره ١٧ كم لكل مليون سـنة ضوئية، ويعرف هذا الاكتشاف بثابت هابل.

وقانون هابل هذا ظاهرة تسـتدعي الانتباه.. فكل المجـرات تتباعد عنا وكلما ابتعدت المجرات ازدادت سـرعة تمددها وارتدادهـا، وهذه الظاهرة تدعى ظاهرة تمدد الكون...

ومما يدل على دقة خلق الكـون منذ الانفجار الكبير أن توسـع الكون الناتج عنه وعلى مدى ١٣,٥ مليار سنة هو بمنتهى العلم والحساب الدقيق»[1].

وقد عبر العلماء الطبيعيون عن بداية الوجود واتساعه ـ بحكمة الله تعالى وأمره ـ بالانفجار الكبير، وليس يعني هذا الانفجار إلا التمدد والتوسع الذي وقع في هذا الوجـود وفق نواميس الحكمة الربانية، وتكـون النهاية برد هذا الوجود إلى منهج عكسـي حتى يتلاشـى، كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وأعود إلى مصطلح الانفجار العظيم الذي شـاع في الأوساط العلمية حتى أصبح له دوي بين الناس جميعًا، فإنّ هذه العبارة ليسـت دقيقة في التعبير عن بداية الكون، وكان أول من أطلق هذا الاصطلاح هـو الفلكي الإنجليزي فريد هويل وكان ذلك منه عفويًا في برنامج مذاع عبر البي بي سي، فتلقفته الأسماع،

---

(١) الصوفي: الموسوعة الكونية الكبرى، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة، ١٣٦/٢ ـ ١٣٨.

وتردد في الألسنة، ومع ذلك لقي انتقادًا حتى من قبل بعض الملاحدة، وفي هذا يقول **ديفيد بيرلنسكي** في كتابه **وهم الشيطان**: «إنّ الكون كما يعتقد علماء الكونيات التقليديون قد خرج إلى الوجود نتيجة انفجار ـ ما يدعى اليوم بالانفجار العظيم ـ إنّ لفظ **انفجار** رمز تخذلنا فيه الكلمات كما تفعل غالبًا؛ لأنها توحي بحدث يتيح نفسه للفهم البشري ـ انفجار ضخم أو ثوران هائل ـ، إنّ هذا سخيف لم يحدث الانفجار في زمان أو مكان، لقد وجد الزمان والمكان بفعل الانفجار العظيم، بمعنى أنّ القياس جاء مع المقيس.

إنّ صورة الانفجار المعتاد غير وافية بالنسبة للانفجار العظيم، بل إنّ الكلمات نفسها ـ الانفجار العظيم ـ مشتملة على قوة مزعجة، إنها توحي بأقدم حدس بشري، حدس الاتصال بين الطاقة الجنسية والكونية، ربما اختيرت الكلمات بسبب نزوة، ولكنها لم تختر اعتباطًا، أيًا كان اسم هذا الحدث، فإنّ الانفجار العظيم بالقدر الذي يهم معظم الفيزيائيين أصبح الآن جزءًا من البنية المستقرة للفيزياء الحديثة، نعم؛ صحيح أنّ مجلات الفيزياء الفلكية تصرح من حين لآخر بفشل المشاهدات المؤكدة للتصميم الأعظم، ولكن هذا لا يكاد يهم، إنّ الفيزيائيين لم يقنعوا أنفسهم فحسب بمحاسن كونيات الانفجار العظيم، وإنما ظفروا بإقناع كل من عداهم ـ أيضًا ـ عمليًا، بات يرمز الانفجار العظيم لأصل عقدي شامل، حتى أنّ الرجال والنساء الذين لا يفقهون شيئًا في الكونيات مقتنعون بأنّ دمدمة عملية الخلق في متناول ذاكرتهم الجمعية. لئن كان الانفجار العظيم يشرح فكرة جديدة في الفيزياء فإنّه يقترح فكرة قديمة في الفكر.. في البدء؛ خلق الله السماوات والأرض.

إنّ هذا التجاور غير المرحب به بين الفيزياء والأفكار التوراتية هو ما أقنع الفيزيائي الفلكي **فريد هويل** ـ وهو ملحد متقد ـ لرفض اصطلاح الانفجار العظيم بعد أن أطلقه، لم يكن وحيدًا، لقد وجد العديد من الفيزيائيين فكرة

أنّ للكون بداية مثيرة للرعب، (**طالما أن للكون بداية**)، يقول **ستيفين هوكنج**: (**فبإمكاننا افتراض أن له خالقًا**)، لا سمح الله![1]. ومع ذلك توجد صلة طبيعية جدًا بين حقيقة أنّ للكون بداية وفرضية أنّ لهـا خالقًا، وهي صلة جلية جدًا بلغت من التوهج مبلغًا مؤذنا برؤيتها في وسـط الظلام، ورغم الأسئلة التي يمكن أن تثار حول ما تدل عليه، إلا أنه لا يمكن تجاهل الصلة ذاتها»[2].

وقد علق ـ أيضًا ـ **بيل برايسـون** على اصطلاح الانفجـار العظيم قائلًا: «رغم أنّ الجميع يسمونه الانفجار العظيم؛ إلا أنّ العديد من المراجع تحذرنا من التفكر فيه كانفجار بالمعنى المعهود. لقد كان بالأحرى اتساعًا مفاجئًا في غاية الضخامة»[3].

وقد ذكر الفيزيائي المسـلم أ. د. محمد باسل الطائي عن كثير من علماء الكون اعتراضهم على التعبير بالانفجار الكبير، وذكر لهم بدائل طرحوها عن هذا الانفجار، وكنت اطلعت على ما قاله في هذا بعد فترة من تحريري لهذا الكلام، وما ذكرته من أنّ الكون يتسع بمشيئة الله تعالى بعد الفتق الذي ذكره الله سبحانه، وكان بسببه انفصال هذه الأجرام بعضها عن بعض، وما تبع ذلك من التوسع المذكور الذي شـمل أنحاء الوجود، وما ذكرته أيضًا من أنّ هذا الكون سيعود مرة أخرى إلى الانطواء بعد الانتشار، ووجدته أطال النفس في حديثه عن هذا الطي، وكان مما قاله في ذلك: «يقـرر القرآن أنّ الكون بمداه الواسع سوف يتعرض إلى طي أي أنه سيجمع بعضه على بعض، وذلك لقوله

---

(١) يظهر أنّ هذه الجملة هي سخرية من **ستيفين هوكنج** الذي اعترف بأنّ يمكن أن يفترض أنّ لهذا الكون خالقًا، فإنّ هذا بطبيعة الحال يعد من المصائب عند الملاحدة، و**ستيفين هوكنج** هو من ضمنهم، فهذا أمر يشق عليه، وينظر هل هي مما قاله المؤلف **بيرلنسكي** أو مما أضافه المترجم الشهري، فإنّ كل ذلك محتمل.

(٢) ديفيد بيرلنكسي: **وهم الشيطان**، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٤، تعليق رقم (١).

تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقد ورد تعبير الطي في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

والطي المشار إليه في آية الأنبياء تم تشبيهه بطي السجل للكتب أي طيها على نفسها كما تطوى الصحيفة، ومن مدلول هذه الآية أنّ فعل الطي سابق ليوم القيامة، إذ إنّ السماوات بعد طيها تكون في يمين الله تعالى يوم القيامة، كما أنّ الآية دالة على أنّ القيامة حدث كوني، رغم أنّ الأرض ربما تكون قد صارت في قبضة الله، أي: قبض جميع من فيها قبل يوم القيامة.

وقد يظن أنّ تقرير القرآن لطي السماوات يعني بالضرورة أن يكون الكون هو نموذجًا مغلقًا، ولكن التعمق العميق في المسألة يبيّن لنا أنّ هذا الإلزام غير ضروري، خاصة وأنّ الله تعالى قال: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ ﴾ ولم يقل يوم نكور السماء مثلًا، فلو قال بتكوير السماء لكان لزامًا أن يكون الكون مغلقًا ليتفق حاله مع ما يقرره القرآن، إلا أنّ فعل الطي قد ذكره القرآن بصفة التشبيه مع حالة طي السجل للكتب، أي بطي الصحيفة على ما فيها، كما قال ابن عباس ومجاهد، بذلك يمكن قبول حالة الكون المنبسط كما تقوله الأرصاد الحالية، ولكن لا بد لهذا الكون المنبسط من أن يطوى على نفسه بحسب الرؤية الإسلامية خلافًا للرؤية العلمية السائدة حاليًا».

وبعد هذا عرج على هذه القضية من ناحية أخرى فقال: «وهنا نقف أمام قضية علمية وقرآنية في الوقت نفسه، هذه القضية تتعلق بتنبؤ علمي للقرآن نفسه، يمكننا نحن الباحثين المتخصصين في علوم الكونيات أنّ ندرسها، وهذه المسألة هي احتمال طي الكون المنبسط، وتكمن أهمية دراسة هذه المسألة في أنّ النموذج القياسي لفريدمان لا يقر بطي الكون المنبسط، بل إنّ

الكون المنبسط مصنف حسب **فريدمان** هو من النوع المفتوح الذي يستمر بالاتساع دون نهاية، لكن علينا أيضًا أن نتذكر أنّ نموذج **فريدمان** للكون المنبسط ليس هو بالضرورة نهاية المطاف كما قلنا، بل يمكن أن يجرى عليه تعديل يشتمل احتمالية أن تتصاعد الكثافة فتحوله إلى كون مغلق، ينطوي على نفسه بعملية تكوير، أو أن يكون الطي بالضبط كما أخبر به الباري ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفي هذه الحالة سنكون أمام فيزيائية جديدة للكون، يكون بموجبه في حال انبساط دائم ثم يجري طيه ليصبح كونًا أسطوانيًا يؤول إلى خط.

ولهذا الغرض كلفت تلميذي **منير فالح درادكة** بالقيام بتقصي إمكانية طي كون منبسط، اقترحت أن يكون سطحًا اسطوانيًا ثلاثي الأبعاد في فضاء رباعي الأبعاد، فقام منير بتقصي الموضوع مستخدمًا معادلات **فريدمان** المعدلة، التي أضفنا إليها ثابتًا كونيًا معتمدًا على الزمن، وهذا الذي قمنا به مقبول علميًا بكل تأكيد، نظرًا لأن الأرصاد تخص الخلفية الكونية الميكروية، قد أقر وجود الثابت الكوني، وكانت النتيجة المدهشة أنّ هذا السطح الاسطواني يمكن أن ينطوي بانكماش الاسطوانة على نفسها في عملية انكفاء للصحيفة الكونية، كما تلف الورقة على نفسها، حتى تغدو خيطًا رفيعًا، وهكذا يمكن أن يؤول الكون إلى سطح أسطواني ذي قطر صغير جدًا، لكننا وجدنا أيضًا أن مثل هذا النموذج الكوني يمكن أن يتوسع من جديد ليبدأ دورة خلق جديدة، ربما يكون هذا معنى قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والله أعلم.

إذًا ففي حين أنّ أحدًا يمكن أن يدعي أنّ مكتشفات العلم تعارض النص الصريح للقرآن، فإنّ إعادة النظر في العلم نفسه تصحح الموقف ويظهر بجلاء أنّ الكون قابل للطي، حتى وإن كان منبسطًا... والحق أنّ آية الطي تنبئ أنّ الكون منبسط لتكون عملية طيه تتم كطي السجل (الورقة) المكتوب عليها

للكتب، إذ عندما يكتب على الورقة فإنها تصبح كتابًا حقًا، فتطوى كما هو معهود وتختم»[١].

ومن الجلي أنه لا يتصور استمرار الاتساع بدون نهاية، كيف وللكون كله في نشأته الأولى نهاية ينتهي إليها، فما ذكره من استمرار اتساعه بدون نهاية إنما هو حسب نظرية فريدمان المشار إليها، ولا يخفى أنّ ما ذكر في آيتي الأنبياء والزمر يدل سياقهما على أنّ ذلك يوم القيامة، إذ القيامة تبدأ بنفخة الصعق، وهي النفخة الأولى، إلى أن يستقر الناس في معادهم حسب ما كتب لهم أو عليهم من سعادة أو شقاء، وهذا يعني أنّ الكون عندما يطوى حسب إرادة الله تعالى لا يعاد إلى النشر والبسط في هذه النشأة الأولى، وإنما يكون ذلك بإنشائه نشأة أخرى هي نشأة الخلود والأبد، وما ذكر من الطي وإعادة الخلق بعده هو الذي يترتب عليه التبديل الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وإليك ما قاله المفسرون في الطي والسجل والكتب، قال الإمام ابن عاشور: «والطي: رد بعض أجزاء الجسم اللين المطلوق على بعضه الآخر، وضده النشر. والسجل: بكسر السين وكسر الجيم هنا، وفيه لغات. يطلق على الورقة التي يكتب فيها، ويطلق على كاتب الصحيفة، ولعله تسمية على تقدير مضاف محذوف، أي صاحب السجل، وقيل سجل: اسم ملك في السماء ترفع إليه صحائف أعمال العباد فيحفظها.

ولا يحسن حمله هنا على معنى الصحيفة لأنه لا يلائم إضافة الطي إليه ولا إردافه لقوله (للكتاب) أو (للكتب)، ولا حمله على معنى الملك الموكل بصحائف الأعمال، لأنه لم يكن مشهورًا فكيف يشبه بفعله؟ فالوجه: أن يراد

---

(١) الطائي: أوهام الإلحاد العلمي، ص ١٧٢ ـ ١٧٥.

بالسجل الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها، وذلك عمل معروف. فالتشبيه بعمله رشيق.

وقرأ الجمهور (للكتاب) بصيغة الإفراد، وقرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف (للكتب) ـ بضم الكاف وضم التاء ـ بصيغة الجمع. ولما كان تعريف السجل وتعريف الكتاب تعريف جنس استوى في المعرف الإفراد والجمع. فأما قراءتهما بصيغة الإفراد ففيها محسن مراعاة النظير في الصيغة، وأما قراءة الكتب بصيغة الجمع مع كون السجل مفردًا ففيها حسن التفنن بالتضاد»[1].

هذا؛ ولا يخفى أنّ ما وصل إليه العلم من إقرار بداية حركة الكون من نقطة الصفر واطراد توسعه مما يقصم الإلحاد، ويصيبه في مقتله، فكم في ذلك من آية دالة على خلق الله تعالى لهذا الوجود كله، وأنّ كل حركة فيه إنما تجري وفق نظام رباني لا يصدر إلا ممن أحاط بكل شيء علمًا، وفي هذا يقول د. سامي عامري: «ودلالة التوسع ليس ـ فقط ـ حجة على أنّ لكوننا بداية، بل هي حجة أيضًا أننا حتى لو افترضنا أنّ كوننا مسبوق بأكوان أخرى، وكان المجموع يتمدد لزم أنّ يكون لهذه الأكوان بداية أولى، ولم يكن قبلها للوجود المادي وجود، وهو ما أكده الفيزيائي الكبير اللا أدري **ألكسندر فلنكن** أحد أكبر علماء كوسمولوجيا اليوم إذ كتب سنة ٢٠٠٧م مؤكدًا (أنّ كل نظرية تقرر توسع الكون بقيمة لا تنزل تحت الصفر مهما كانت ضآلة هذا التوسع يجب أن تؤول إلى الإقرار ببداية هذا الكون أو هذه الأكوان المتعاقبة، دون حاجة للدخول في أي تفاصيل أخرى للأكوان التي تفترضها هذه النظريات، بما في ذلك أمر الجاذبية وغيرها).

---

(١) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، سورة الأنبياء (الآية ١٠٤)، ١١٦/١٧ ـ ١١٧.

وقد قضى بما انتهى إليه الفيزيائي ألكسندر فلنكن على آمال جل النماذج المطروحة لأكوان قبل كوننا، إذ هي تقوم على زعم تمدد كل الأكوان السابقة لنا، ويعسر بجد أن تجد نموذجًا لا يقوم على افتراض توسع كوني»[1].

وفي هذا ما يقطع دابر شبهات الذين زعموا بأنّ العالم قديم بنفسه أو بنوعه، حتى من الإسلاميين كابن رشد المنتصر لمقولة الفلاسفة، وابن تيمية الذي نحا منحاهم في كثير من مؤلفاته، فإنّه مهما كان من افتراض ذلك فالأمر يؤدي طبعًا إلى أن ينتهي الكون في تقادمه إلى نقطة البداية، سواء كان كونًا واحدًا تندرج فيه جميع الكائنات ـ كما هو الحق المؤيد بالشرع والعلم ـ أو كان أكوانًا متعاقبة كما يزعمون، ففترة البداية لا محيص عنها.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) د. سامي عامري: براهين وجود الله، ص٣٩٤.

في سعة آيات الله تعالى في خلق هذا الكون الدالة عليه

ما أعظم آيات الله تعالى الدالة عليه، الشاهدة بوحدانيته، المدهشة لألباب خلقه في كل ما أوجده، فإذا كانت آياته في أقل ما خلق من مخلوقاته تذهب بالألباب كل مذهب، وتدهش العقول حتى تبقى حائرة أمام هذه المعجزة الكبرى، كما في خلق الجزيئة وما تشتمل عليه من برمجة مخططة محكمة تضيق عن شرحها مجلدات العلم وخزائن المكتبات، فما أدراك ما قدر آياته سبحانه في هذا الوجود الواسع، الذي تعجز الأفهام عن تصور حدوده والأوهام عن تخيلها، فمن أدق الذرات إلى أوسع المجرات آيات لو كان الوجود صفحات لضاقت عن شرحها، ناهيك أنّ الله سبحانه أنبأنا عن عظم هذا الأمر وسعة قدرته فيه، وضيق أفهامنا عن تصوره عندما قال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

في اضطراب عقول الحائرين وزيغهم عن إدراك هذه الحقيقة

إنّ الذين عموا عن الحقيقة العظمى التي تدل عليها كل جزيئة في الوجود ـ وهي أنّ هذا الكون بذاته لم يكن أزليًا، ولم يكن وجوده إلا بموجد أخرجه من العدم إلى الوجود ـ هاموا في متاهات شتى، وجاؤا شيئًا إدًا، حتى بلغ الأمر ببعضهم ـ وهو السير جميس جينز العالم الفلكي البريطاني ـ أن يدعي بأنّ الكون كله خيال، وقد فند مقالته هذه الدكتور فرانك ألن عالم الطبيعة الجيولوجية في مقاله الذي نشر تحت عنوان **نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟**[1]، إذ سوى بين قوله هذا وبين قول من قال بأن العالم نشأة صدفة، وهو حري بذلك فإنّ دعوى أنّ العالم كله خيال مما يتبادر لأي أحد بطلانه من غير أن يعتني بالنظر والتأمل، إذ لو كان العالم خيالًا فمن هو الذي يتخيله إذ لا وجود للمتخيل نفسه! وهو يستلزم أن يكون كل ما يزخر به هذا الوجود من أنواع الكائنات وأفرادها لا وجود له، وكل ما يجري بين جنباته من حياة وموت، وإقبال وإدبار، وعز وذل، وقوة وضعف، وانتصار وهزيمة، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وظهور واختفاء، لا يعدو أن يكون نفسه خيالًا، كما يترتب عليه أن تكون الشمس المشرقة، والقمر المنير، والنجوم الساطعة،

---

(١) ينظر؛ نخبة من العلماء الإمريكيين: **الله يتجلى في عصر العلم**، نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟، ص١١ ـ ١٦.

والكواكب السيارة، والمجرات الواسعة، وكل ما نشاهده في الأرض ـ من بحار زاخرة، وأنهار مطردة، ورياح متقلبة، وأمطار نازلة، وأجواء متعاقبة، بين حر وبرد، وشدة ولطف ـ لا تعدو أن تكون خيالًا.

وكذلك ما يقع بين الناس من سلم وحرب، ووفاق وشقاق، وحب وبغض، وطاعة وعصيان، ورضى وكره، وما يعتريهم من علو وخفض، وأفراح وأحزان، ورغد وضيق، ليس لشيء من ذلك حقيقة.

ومثل ذلك؛ ما يتحقق على أيديهم من الاكتشافات العلمية والانجازات العملية، وما ينشرونه من مؤلفات في فنون العلم المختلفة، وما يقومون به من دراسة وبحث في جميع المجالات، وما يكون في المحيط البشري من اختلاف الأحوال بين رقي وانحطاط، وتقدم وتأخر، وحضارة وبدائية، لا وجود لشيء من ذلك، وإنما هو مجرد وهم وخيال!.

وليت شعري؛ هل يكون الخيال إلا من متخيل، أو الوهم إلا من واهم؟! وهل الخيال إلا نتيجة إجالة الإدراك الحسي بين المحسوسات لترتسم صورها في لوحة ذهن المتخيل؟! فإن كان كل ذلك خيالًا فأين هذا الإدراك، وأين هذا الإحساس، وأين المتخيل نفسه؟! وإنما هذه نتيجة شرود الذهن، وتبلبل البال، وعدم استقرارهما ورسوّهما على عين الحقيقة.

وإذا كان وجود هذا الكون حقيقة يفرضها الواقع، وإدراكها أمرا غريزيا ضروريا لا يحتاج إلى أي عناء أو بحث، فإنّه لا بد من أن يقع في الذهن، هل هو أزلي أو أنه حادث؟ ولا ريب أنه مما ينساق إلى العقل السليم تلقائيًا أنه لا يمكن أن يكون أزليًا، فإن كل ما فيه من الأمور المتعاقبة والأحداث المتباينة، والمشاهد المختلفة، والأحوال المتناقضة، دليل وشاهد على أنه كان بعد أن لم يكن، وحسب الإنسان أن يتأمل أفراد الكائنات وما يطرأ عليها من فقدان الموجود، ووجود المعدوم، بل كل إنسان يدرك بنفسه أنه بذاته لم يكن

له وجود من قبل، فابن الثلاثين لم يكن له قبلها وجود، وكذلك من كان عمره أدنى من ذلك أو أكثر فإنه من قبل لم يكن شـيئًا يذكر، فليس لأي واحد من الناس قبل حمله وولادته أي أثر في هذا الوجود.

وبجانب ذلك فإنّ ما كان موجودًا كما كانت لـه بداية في طريق الحياة، فإنّ له نهاية ينتهي إليهـا، وينقلب من الوجود إلى العدم، فالناس ينشـرون ويطوون وكذلك الأجناس الأخرى، وكما قيل دوام الحال من المحال.

وهذا ـ بلا ريب ـ يـدل على أنّ جميع هذه الكائنـات حدثت من عدم، وتنتهي إلى عدم، فهـي لها بداية وتنتهـي إلى غاية، لا فـرق في ذلك بين الأجناس والأنواع، وبين أفرادها، والكون إنما يتكون من كائناته، والكائنات كلها غير ثابتة على حال وهو مما يؤذن بزوالها، وإمكان زوالها يعني استحالة أزليتها، فكل ما ثبت قدمه يستحيل عدمه.

ولكن مع هـذا كابر كثير ممن انطمسـت بصائرهم وزاغـت أبصارهم؛ فادعوا قدم العالم، وقد درج على هذا الفلاسـفة الأقدمون، فزعموا أنّ العالم أزلي أبدي، وإن اتصفت أفراد كائناته بالحدوث وطرأ عليها العدم، فإنّ تلك حالة تعود إلـى الأفراد، لا إلى الأجنـاس والأنواع، ولا إلـى حقيقة العالم المنطوي على هذه الأجناس والأنـواع، ومعظم هؤلاء اعتقـدوا أنّ حدوث ما يحدث في هذا الوجود هو أمر تلقائي تقتضيه الطبيعة، ولا دخل لأي أحد في ذلك، وقليل منهم هدتهم عقولهم إلى أنّ الحادثات لا بد لها من محدث، ولكنهم لم يهتد منهم إلى الإيمان بالمنقلب والمعاد إلا الشاذ النادر.

وقد تأثر بالفلاسفة القدماء كثير ممن يدعون بالفلاسفة الإسلاميين، كما كان ذلـك من ابن رشـد الذي أصر بشـدة على قـدم العالم رغـم اعترافه بالخلق..! وإنما كان يعيد الخلق إلى تعاقب أفراد أنواع المخلوقات وخروج بعضها من بعض، وأنّ هذه سـنة الكون منذ الأزل. وقـد اضطر في هذا إلى

مجادلات عقيمة تعقب بها الإمام الغزالي، الذي أنكر على الفلاسفة دعواهم **قدم العالم**، وبدد شبههم بدوامغ الحجج والبراهين في كتابه **تهافت الفلاسفة**.

وقد ساء هذا ابن رشد فتعقبه بكتابه **تهافت التهافت**، وقد أوسعت هذه القضية بحثًا في كتابي **برهان الحق**[١]، وكذلك ادعى ابن تيمية في العديد من كتبه أنّ العالم قديم بالنوع، وأنّ الله تعالى منذ الأزل كان يخلق، وقد تعقبته أيضًا في **برهان الحق**[٢].

هذا؛ وقد درج على اعتقاد قدم العالم كثير من علماء الطبيعة في العصر الحديث، بل ساد هذا القول الفلسفة الغربية منذ أمد بعيد، نتيجة وراثتها للفلسفة اليونانية، فقد انطوت القرون قرنًا بعد قرن في العالم الغربي، وجماهير الناس تعتقد قدم العالم، وإنْ وُجِدَ من بين هذا الركام الفلسفي من كان ينادي باستحالة أن يكون الكون أزليًا في عدم إمكان تسلسل الأحداث إلى ما لا نهاية، وإذا انتفى إمكان أزلية الزمان، لزم القول بأنّ المكان مخلوق أيضًا بعد عدم لتلازم الزمان والمكان وجودًا وعدمًا، وهذا ما نادى به جماعة من الفلاسفة منذ زمن **يوحنا فلوبونوس**، الذي عاش في القرن السادس الميلادي، وكان فيلسوفا أرسطيًا ولاهوتيًا نصرانيًا[٣].

ولكن كانت هذه الأصوات خافتة لم تتجاوز نطاق الهمس بين ضجيج صوت الإلحاد الهادر، فقد ظلت الثقافة العلمية السائدة في الغرب تكاد تجمع على أزلية العالم لأنهم تصوروا أنّ هذا هو منتهى الرأي الفلسفي والجهد العلمي، ولكن منذ ما يزيد على قرن من الزمن بدأت هنالك تلوح في الآفاق آراء عن ميلاد الكون في ميقات حدوثه المعلوم عند الله تعالى، وهذا الذي

---

(١) ينظر؛ الخليلي: برهان الحق، ١٥٨/٢ ـ ٢٩٠.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ٢٩١/٢ ـ ٣٠٧.

(٣) ينظر؛ د. سامي عامري: براهين وجود الله، ص٣٧٥.

أدى إلى أن ينقلب الرأي العلمي رأسًا على عقب، وقد وقعت مناظرة كبرى حول هذا الأمر بمدينة لندن في عام ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م بين اثنين من كبار الفلاسفة أحدهما ملحد وهو برتراند راسل والآخر نصراني وهو فردريك س. كوبلستون، وقد انتصر الفيلسوف أليستر ماكاجراث الذي حكى الحدث للموقف الإلحادي الذي كان من راسل وعززه بأنّ هذا الإجماع العلمي أكثر من كاف لينهي قضية الله برمتها إلى الأبد، فالكون موجود وحسب، وليس هناك أي سبب وجيه يدعو للتفكير فيما أتى به إلى الوجود، وهذا يعود إلى ثقافته الإلحادية وتحيزه إلى ما كان سائدًا من دعوى تغلغل أثرها في الفكر الغربي آنذاك[1]، ولكن شاء الله سبحانه أن تسقط هذه الدعوى ويزهق هذا الباطل بالحقيقة العلمية الثابتة، وهي أنّ الحرارة الديناميكية في هذا العالم تتناقص باستمرار، ولن يقف هذا التناقص حتى تنتهي إلى درجة الصفر المطلق، وهنا تكون نهاية هذا الوجود، وهذا مما يحتم أنّ لوجوده بداية، وإلا لانتهى قبل الآن بدهور لا تحصى، لأنه لو كان أزليًا لم تبق هذه الدرجة الحرارية إلا بقدر ما يمكن بقاؤها وانتهى العالم بانتهائها.

وفي هذا يقول الدكتور فرانك ألن: «والذي يذهب إلى أنّ هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية، إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد من الأزلية، وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق، وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أنّ مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا، وأنها سائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة،

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٨٥.

ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت.

أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أنّ أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذًا حدث من الأحداث»[1].

وقد أدى بروز الحقيقة في هذا إلى انقلاب الموقف حتى عند الفيلسوف **اليستر ماكجراث** نفسه فقد عاد إلى الاعتراف بأنّ كل شيء تغير منذ ذلك التأريخ، بحيث أصبح واضحًا أنّ الكون له بداية، وهو ما عرف باسم **الانفجار العظيم**، وأضاف إلى ذلك «وإذا تكررت المناظرة بين راسل وخصمه **كوبلستون** اليوم فستختلف نتيجتها تمامًا في هذه النقطة، بل إنّ هذه المناظرة أعيدت بالفعل سنة ١٩٩٨م احتفالًا بذكراها الخمسين بين اثنين من كبار الفلاسفة وهما **ويليام لين كريج** ونظيره **أنتوني فلو** الذي كان ملحدا آنذاك، **كريج** الذي يعتبره الكثيرون الوريث الشرعي للفيلسوف **كوبلستون** قدم الحجة التالية:

المقدمة الكبرى: كل ما يظهر إلى الوجود له سبب.

المقدمة الصغرى: العالم ظهر إلى الوجود.

النتيجة: إذن العالم له سبب.

وعلى غير العادة، نلاحظ في هذه الحجة أن المقدمة الصغرى تعادل المقدمة الكبرى في أهميتها، وقد تَفُوقها في ذلك. وهذه المقدمة الصغرى التي استخدمها **كريج** والمقبولة اليوم من كل العلماء تقريبًا، كانت سترفض منهم جميعًا سنة ١٩٤٨. وقد واجه **فلو** صعوبة كبيرة أمام هذه النقطة، ولم

---

(١) نخبة من العلماء الإمريكيين: الله يتجلى في عصر العلم، نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟، ص١٢.

يتمكن من استخدام الاستراتيجيات التي استخدمها أسلافه من المدافعين الملحدين استخدامًا مناسبًا، ومنذ هذه المناظرة تخلى **فلو** عن الإلحاد».

ويعلق على هذا د. سامي عامري بقوله: «السرد السابق **لماجراث** يوضح حقيقة يغفل عنها الكثيرون ممن يعيشون عصر الكشف عن الانفجار العظيم، وهي أنه منذ عقود ـ لا قرون ـ مضت كان العلماء على اتفاق أن الكون أزلي، ولذلك فانتقاض هذا الإجماع بإجماع مقابل على أنّ كوننا له بداية من الأمور التي تستحق التدبر، والنظر في لوازمها الفلسفية برؤية جديدة عند الملاحدة.

لقد تكاثرت الأدلة العلمية على حقيقة مخلوقية كوننا وتعاضدت حتى قال **هاوكنج** في بداية محاضرة له بعنوان **بداية الزمان**: (يبدو أنّ كل الأدلة تشير إلى أنّ الكون لم يكن موجودًا من الأزل، وإنما كانت له بداية منذ قرابة ١٥ بليون سنة مضت).

وإذا كان عالم الفلك الكبير اللاأدري **جاسترو** يقول: (بإمكاننا الآن أن نرى كيف تقود الحجة الفلكية إلى النظرة الكتابية[1] حول أصل العالم، تختلف التفاصيل لكن العناصر الأساسية لقصص علم الفلك والكتاب المقدس في سفر التكوين هي نفسها: سلسلة الأحداث التي قادت إلى ظهور الإنسان بدأت بصورة مفاجئة وحادة في لحظة محددة في الزمان...)

فنحن نقول ـ في المقابل ـ: إنّ القرآن يطابق كشوف العصر في علم الفلك في الأصول والتفاصيل»[2].

وقد تعرض **ديفيد بيرلنسكي** لما أدى إليه اكتشاف بداية للكون من اضطراب كبير عند الفيزيائيين الملاحدة، بما يؤدي إليه من دحر دعاواهم

---

(١) يعني بها: ما هو موجود في الكتب المقدسة عندهم.

(٢) د. سامي عامري: براهين وجود الله، ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

الإلحاديـــة في عدم احتياج الكـــون إلى مكون، وفي ذلك يقـــول: «قد تكون النشـــأة الكونية غامضة، ولكن الكون متنـــاه في الزمان، لقد ظـــل هذا أمرًا مجهولًا حتى القرن العشـــرين، وأذهل المجتمع الفيزيائـــي ـ وكل الآخرين أيضًا ـ حيث أصبح معلومًا، حســـبنا أنّ حقائق كونيات الانفجار العظيم تشير إلى أنّ أحد الاعتراضات على الحجة التي قدمها توما الأكويني لا يستند إلى أساس تجريبي: علل الطبيعة لها نهاية بالفعل. إن كان العلم قد دلل على عدم وجود الله، فإنـــه لم يفعل ذلك بالرجـــوع إلى كونيات الانفجـــار العظيم، إنّ فرضية وجود الله وحقائق علم الكونيات المعاصر أمران متسقان.

لقد قادت الشـــكوك حول نشـــأة الكون بعض الكتاب إلـــى العثور على ســـلوى في صحبة الأكويني لم يكونوا ليحلموا بها لولا تلك الشـــكوك. في سياق كتابته عن العلة الأولى التي اســـتند إليها الأكويني، والتي وصفها بأنها الله، جادل **ريتشارد دوكنز** بأنه (ســـيكون الأمر اقتصاديًا أكثر لو استحضرت، لنقل مفردة انفجار عظيم أو مفهومًا فيزيائيًا مجهولًا حتى اللحظة)، لتفســـير وجود الكون. لا معنى لكلمة (اقتصادي) في هذا الســـياق: أيا كانت دلالتها، كيف يمكن قياسها؟ ولكن (اســـتحضرت) هي الفعل الصحيح، إذ تنبئ معًا عن غفلة وتضليل. من جهة التضليل، لا تمثل مفردة الانفجار العظيم مفهومًا فيزيائيًا لأنه لا يمكن استيعابها من قبل نظرية فيزيائية. إنها نقطة تنهار عندها النظريات الفيزيائية، ومن جهة الغفلة، لا يخلـــو المفهوم الذي وثق به **دوكنز** من أن يكون شيئًا لا نهائيًا أو لا يدرك غوره، أو بالأحرى شيئًا مجهولًا. لقد وصل أناس إلى الإيمان على أساس أدنى من هذا بكثير. هذا فيما أظن ليس مفاجأة. فرغم إلحاده يعتقد **دوكنز** أنه (شخص ذو تدين عميق).

إنه باختصار يفضل نظامًا دينيًا مغايرًا. يقول الفيزيائي الفلكي **كريستوفر إشام**: (لعل أفضل حجة لمصلحة الأطروحة القائلة بأنّ الانفجار العظيم يدعم

المعتقد الألوهي هو القلق الواضح الذي استقبلت به من لدن بعض الملاحدة الفيزيائيين، لقد أدى هذا أحيانًا إلى أفكار علمية، كفكرة الخلق المستمر والكون المتأرجح، وهي تطرح بعناد يتخطى قيمتها الفعلية لدرجة أنّ المرء لا يملك إلا أن يشتبه في اعتمال قوى نفسية دفينة أعمق بكثير من مجرد الرغبة المعهودة للمنظر الأكاديمي في دعم نظريته)»[1].

ولا يخفى أنّ الرجوع ـ إلى الاعتراف بحدوث الكون بعد الإصرار على أزليته ـ يعد انتصارًا للإيمان على الإلحاد، وما كان هذا التراجع عما كانوا مصرين عليه إلا بسبب ما بهرهم من آيات الله تعالى الدالة على خلقه لهذا الوجود، وإنما ظل من ظل مكابرًا لحسه ومنكرًا لعقله بإصراره على أنّ الكون حدث من تلقاء نفسه من غير أن يكون له مكون، وهي مكابرة ستتحطم بمشيئة الله تعالى باصطدامها بصخرة الحقيقة الثابتة، وهي استحالة حدث بدون محدث، وأثر بدون مؤثر.

ومما يتبادر أنّ مراده بالعلماء الذين كانوا مجمعين على أزلية الكون إنما هم العلماء الماديون، الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ولم تتسع مداركهم لمعرفة الله تعالى، الذي يتجلى شهوده في كل شيء ويشع نور حجته في كل كائن، ولكن آيات الله تعالى الباهرة أدهشتهم فرجعوا إلى الاعتراف بنشأة الكون الدالة عليه سبحانه، بعدما ظلوا ردحًا من الزمن يكابرون في ذلك لتوجسهم خيفة من الإيمان بالله الذي تضيق منه صدروهم، وقد كان اعترافهم بهذا نصرًا مبينًا للحق الذي كابروه رغم أنوفهم.

هذا؛ وتعرض الدكتور **إدوارد لوثر كيل** في مقاله المعنون **فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز** لذلك بشيء من التفصيل والبيان، فقال بعد ما بين أثر العلوم المعاصرة في تعميق الإيمان بالله في النفوس: «وطبيعي أنّ البحوث

---

(١) ديفيد بيرلنكي: **وهم الشيطان**، ص ١١٤ ـ ١١٦.

العلمية التي أدت إلى هذه الأدلـة لم يكن يقصد مـن إجرائها إثبات وجود الخالق، فغاية العلوم هـي البحث عن خبايا الطبيعة واسـتغلال قواها، وهي لا تدخل في البحث عن مشكلة النشأة الأولى؛ فهذه من المشكلات الفلسفية، والعلوم لا تهتم إلا بمعرفة كيف تؤدي الأشياء وظائفها، وهي لا تهتم بمعرفة من الذي جعلها تعمل أن تؤدي هذه الوظائف، ولكن كل إنسان ـ حتى أولئك الذين يشـتغلون بالعلوم الطبيعية ـ لديه ميل أو نزعة نحو العلوم الفلسـفية، ومما يؤسف له أنّ المرموقين من العلماء ليسوا دائمًا من الفلاسفة الممتازين، فقليل منهم هم الذين يفكرون في أمور النشأة الأولى، وقد يعتقد بعضهم أنّ هذا الكون هو خالق نفسه، على حين يرى البعض الآخر أنّ الاعتقاد في أزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد في وجود إله أزلي.

ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي الأخير، فالعلوم تثبت بكل وضوح أنّ هذا الكـون لا يمكن أن يكون أزليًا، فهنالك انتقال حراري مستمر من الأجسـام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسـام الحارة، ومعنى ذلك أنّ الكون يتجه إلى درجة تتساوي فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذ لن تكون هنالك عمليات كيموية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون، ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير في طريقها، فإننا نستطيع أن نسـتنتج أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود، وهكذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ إلى أنّ لهذا الكون بداية»[1].

(١) نخبة من العلماء الإمريكيين: الله يتجلى في عصر العلم، فلننظـر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز، ص ٣٢ ـ ٣٣.

وبهذه الحقيقة العلمية الشاخصة تساقط القول بقدم العالم، وثبت بالقطع أنّ له بداية في وجوده، وهو سائر إلى نهاية محتومة يطوى فيها وجوده كما نشر أول مرة.

وهذا؛ الذي اهتدت إليه العقول السليمة وأدركه أولو الألباب بفطرتهم الهَادية قبل اطلاعهم على حقائق الغيب التي تنزل بها الوحي، كما كان ذلك من حكيم العرب وخطيبها المشهور قس بن ساعدة في قوله:

مَنَعَ البَقاءَ تَقَلُّبُ الشَمسِ ... وَطُلوعُها مِن حَيثُ لا تُمسي
وَطُلوعُها حَمراءَ صافِيَةً ... وَغُروبُها صَفراءَ كَالوَرسِ
تَجري عَلى كَبِدِ السَماءِ كَما ... يَجري حِمامُ المَوتِ في النَفسِ

وبعد انتشار كتاب الكون بحقائقه الثابتة وآياته الباهرة؛ أصبح من المسلمات عند الكل ما تكشف للناس من قانون الديناميكا الحرارية الذي أدى إلى القطع بأنّ لهذا الكون بداية، وهو كما قال **بول ديفيس**: «القانون الثاني للديناميكا الحرارية ليس قاصرًا في عمله على الأمور الهندسية، إنه قانون أساسي للطبيعة، لا يوجد سبيل للفرار منه»[1]، ولأجل هذا أصبح مسلمًا عند جميع العلماء أنّ هذا القانون للديناميكا الحرارية هو واحد من أعظم قوانين الكون، بل هو أعظم قوانينه، حتى قال عالم الكوسمولوجيا **إدنجتون** إنه القانون الأول لكل العلوم، وأن أي نظرية علمية تتعارض مع هذا القانون لا تملك أملًا في البقاء، وإنها ستنهار ضرورة[2].

---

(١) د. سامي عامري: **براهين وجود الله**، ص ٣٨٩، نقلاً عن:
Paul Davis, The fifth Miracle: The Seaech for the Origin and Meaning of Life (Orion productions, 1991).

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص ٣٨٨، نقلاً عن:
Arthur Eddington, The Nature of the Physical World (New York: Macmillan, 1928) p.74.

والقانون الثاني للديناميكا الحرارية مرتبط بالطاقة والفوضى والمعلومات، ولأجل ذلك فإنه يمكن التعبير عنه بصيغ مختلفة تدل بمجموعها عليه، وعلى مظهر عمله في الكون، وهي كما يلي:

- الطاقة المستهلكة تنحو إلى النفاد.
- الحرارة تنحو إلى التبرُّد.
- المعلومات تنحو إلى التشوش.
- النظام ينحو إلى الفوضى.
- الخليط العشوائي لا ينظم نفسه.

ولما لهذا القانون من تأثير في الكون بصورة مطلقة سمي **سهم الوقت** لأنه دال على اتجاه الزمن من الماضي إلى الحاضر، فهو يدل على أنّ النظام والفوضى إن وجدا فالفوضى تعقب ضرورة النظام، ووجود الحرارة والبرودة في التأريخ لا بد أن يرتب بتأخير فقد الحرارة على اكتسابها[1].

وهو يدل ـ بلا ريب ـ على أنّ هذه النشأة الكونية أرادها الله تعالى أن تكون نشأة موقوتة بفترة من الزمن، فلذلك جعل ما فيها من الترابط يسير نحو التفكك، وما فيها من النظام يؤدي إلى التشوش والفوضى، وما فيها من حرارة الحياة يسير نحو برودة الفناء، وكذلك حركتها تنتهي إلى السكون، فإنّ الحياة تستوجب طاقة تملأ جوانب ما تسري فيه بالحركة والنمو والقوة والحرارة، فإذا زالت انقلبت إلى أضدادها وتوقفت الحياة.

وقد علمت أنّ هذه الطاقة هي كسائر الكائنات الموقوتة تنتهي بانتهاء أمدها، وعليه، فلو كان الكون أزليًا مع تناقص طاقته باطراد لتوقفت هذه الطاقة قبل أمد لا يعلمه إلا الله، ووجه دلالة هذا على أنّ للكون بداية أنه ـ مع

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص ٣٨٨.

كونه يشكل منظومة مغلقة على نفسها ـ لم يبلغ إلى اليوم مرحلة التموت الحراري، ولم يعدم من النظام، بل مستوى الفوضى فيه لا يزال منخفضًا، وهو مما يدل على أنّ للكون لحظة بدأ منها الرصيد الحراري والنظام في التحول، ولو كان أزليًا لذهبت هذه الطاقة منذ الأزل، وتلاشى بذهابها الكون.

ويمكن أن يتلخص هذا في النقاط الآتية:

١ ـ أنّ المنظومة المادية تحتاج إلى نظام داخلها لتتمكن من العمل.

٢ ـ أنّ كل مرة تعمل فيها المنظومة المادية تفقد جزءًا صغيرًا من نظامها، وهو يعني أنها تصير غير قادرة على إتمام مستوى العمل نفسه الذي أدته فيما سبق ويسمى التحول من النظام إلى اللانظام أنتروبي.

٣ ـ أنّ التحول من النظام إلى عكس له اتجاه واحد على المستوى البعيد وهو ظهور طفرات في الاتجاه المعاكس، فيؤدي ذلك إلى أن لا يستمر طويلًا.

٤ ـ أنّ الكون منظومة مغلقة لا تتواصل ماديًا مع وجود مادي آخر، ولذلك كان اتجاهه من النظام إلى عكسه أمرًا حتميًا.

٥ ـ أنّ القول بأزلية الكون يقتضي أن يكون قد بلغ نهاية الفوضى والتموت الحراري منذ زمن لا نهائي، وذلك مخالف لما هو معروف عن هذا الكون الذي لا يزال منضبطًا في نظامه وطاقته الحرارية الظاهرة في التفاعلات الفيزيائية المتواصلة فيه[1].

وجميع هذه الحقائق التي يجليها العلم ويسندها البحث إنما هي من آيات الله تعالى المخبوءة في تضاعيف هذا الوجود، وقد وعد سبحانه أن يكشفها للناس حتى يتبين لهم صدق ما أخبرهم به من أنه هو الذي خلق هذا الوجود

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ نقلاً:

Robert Spitzer, The Souls Upward Yearning: Clues to Our Transcendent Nature from Experience and Reason (San Francisco. California Ignatius Press. 2015) p.301.

وأودع فيه من النظام والطاقة التي تسيره بمشيئته إلى أن يأذن الله تعالى بانتهائه، لأن هذه النشأة لم يكتب الله تعالى لها الخلود، فذلك مما يدخل قطعًا فيما وعد الله به في قوله الصادق: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإنّ المجادلات الباطلة بأزلية الكون وأبديته أخرسها صوت العلم، إذ أصبح العلماء الماديون يرفعون عقيرتهم، ليسجلوا شهادتهم بالحق مع كونهم لم يستصبحوا بنور الوحي، ولم يسيروا على بصيرة من دلالة الشرع، بل هم في ضلالهم يعمهون، ولكن جاءت شهادتهم لتنير طريق السالكين كما كان ذلك من عالم الفيزياء النظرية بول ديفيس فإنه مع كونه من فئة اللاأدري الحائرة أعلن شهادته في قوله: «إذا كان للكون مخزون محدود من النظام، وهو يتغير دون رجعة نحو الاضطراب ـ ليبلغ في نهاية المطاف التوازن الترموديناميكي ـ فيلزم من ذلك مباشرة أمران، أنّ الكون سوف يموت في نهاية المطاف، هذا هو المعروف بين علماء الفيزياء باسم الموت الحراري للكون، والثاني أنّ الكون لا يمكن أن يكون موجودًا من الأزل، إذ لو لم يكن كذلك لبلغ توازنه الترموديناميكي النهائي منذ زمن لا متناهي في الماضي، الخلاصة أنّ الكون لم يوجد منذ الأزل»[1].

ومثله قول الفيزيائي **باري باركر**: «يشير القانون الثاني للديناميكا الحرارية إلى أنّ للكون وللزمان بداية، ولو كان الكون أو الزمان أزليًا لكان التبادل الحراري قد تم وتوقف في تلك الأحقاب الطويلة الممتدة، وإذا لا تصبح في الكون أجسام حارة كالشمس وبقية النجوم، وأخرى باردة كالكواكب والأقمار وغيرها، أي لبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع، وانتهى كل شيء في الكون»[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٠ نقلاً عن: Paul Davies, God and the New Physics, p:11.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩٠ نقلاً عن:

باري باكر: السفر في الزمان الكوني، ص ١٦٣ ـ ١٦٤، تعريب: مصطفى محمود سليمان القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

ويعلق على هذا د. سامي عامري فيقول: «إنّ الكون في حاجته إلى الطاقة للعمل وتفادي الموت الحراري أشبه بالسيارة وحاجتها إلى البنزين لتستمر في الحركة، ونحن إذا رأينا سيارة تجري أدركنا أن خزانها قد ملئ منذ زمن غير بعيد، لأنها كانت بصدد استهلاك البنزين طوال عملها، وإذا كان لا يزال فيها طاقة إلى العمل إلى الآن فذلك دليل بداية استهلاكها لما كان في الخزان منذ مدة قصيرة إذا كانت تعمل دون توقف، وكذلك هو حال الكون؛ فإنّ وجود طاقة حرارية عالية في كوننا ـ في النجوم ـ إلى اليوم دليل على أنه كون محدود العمر، أو الأمر شبيه بطعام يوضع أمامنا، والبخار الحار يصعد منه علامة على سخونته، لنا هنا أن نقول إنّ هذا الطعام لم يطبخ أو يسخن إلا منذ زمن محدود قصير لأن طول الزمن سيؤدي إلى برودة الأكل»[1].

ولا يخفى أنّ الإقرار بوجود بداية للكون كان زلزالًا هز أركان الإلحاد الذي كانت فلسفته تقوم على إنكار وجود الخالق باعتباره أنّ الكون ليس بحاجة إلى مكون لأنه بذاته أزلي الوجود، وهذه هي الفلسفة التي كانت سائدة تتحكم في أفكار فلاسفة اليونان ومن بعدهم، حتى برزت حقائق الخلق من شهود بداية الكون، وذلك بما أظهره الله تعالى للناس من آياته العظمى في الأنفس وفي الآفاق، وفي هذا يقول د. سامي عامري: «كان اعتقاد أزلية الكون منذ اليونان حتى بداية القرن العشرين سببًا لعدم اهتمام جل الفلاسفة ببيان وجود الله انطلاقًا من الأصل المادي للكون، كما أنّ الملاحدة كانوا يقرون أنّ في خلق الكون من عَدَمٍ حجة لوجود الله، اطمئنانًا منهم إلى أنّ العلم يدل على أزلية الكون، لكن دلالة العلم الحديث على خلق العالم أفسدت سعي الملاحدة، واضطرتهم إلى

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

محاولة تشتيت الحوار بالاعتراض على برهان الحدوث بعدد من المعترضات:

١ ـ إنكار بداهة حاجة العالم إلى خالق للخروج من العدم.

٢ ـ التشكيك في مبدأ السببية.

٣ ـ إنكار دلالة البرهان على وجود الله سبحانه»[١].

وهم في كل هذه الاعتراضات فاشلون، فإنكار بداهة حاجة العالم إلى خالق هي مكابرة للعقل والحس، وإنكار لدلائل العلم والواقع ـ كما سيأتي في المبحث الآتي إن شاء الله ـ والتشكيك في مبدأ السببية إنما هو تشكيك فيما هو أبرز بدهيات العقول، فإنّ كل ذي عقل يدرك أنّ المسبب لا بد له من سبب، والفعل لا بد له من فاعل، والأثر لا بد له من مؤثر، إذ الأمور لا تأتي تلقائيًا، وإنما تسوقها أسبابها.

وأما إنكار برهان وجود الله تعالى فهو جحود للحس، ومصادمة للعقل، ومشاكسة للضرورة، ولا تقل سفسطائية ذلك عن سفسطائية من يزعم أنّ الكون مجرد خيال، فإنّ الكون بالمكون، فإنّ لم يكن مكون فلا كون.

فليس «الاعتراض على مبدأ السببية إلا علامة على يأس العقل الإلحادي، إذ اختار إلغاء مبدأ السببية الذي لا يوجد العقل بغيره، ويمتنع العلم بأي شيء دونه طلبًا لنفي الإله»[٢].

وقد اشتهر بإنكار السببية **هيوم**، غير أنه درأ هذه التهمة عن نفسه في رسالة أرسلها إلى **جون ستيوارت** سنة ١٧٥٤م جاء فيها: «ولكن اسمح لي أن أقول لك إنني لم أقرر البتة ذاك الادعاء السخيف أن شيئًا ما يمكن أن ينشأ

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٩.

بدون سبب، أنا لم أقرر إلا أن يقيننا في خطأ تلك الدعوة لم ينجم عن حدس ولا برهان، وإنما عن مصدر آخر»[١].

ولعل مصدر هذا التوهم ما قدمه هيوم من تعزيز إمكان تصور ظهور شيء دون تصور سبب معه، مع أنّ هذا لا يثبت شيئًا في نقض مبدأ السببية، «لأسباب منها:

• الخيال التصوري قد يتفلت من قوانين الواقع، فالواقع محكوم بقوانين المنطق، والخيال مجال رحب للممكن والمحال، ولذلك فالخيال ليس حجة على الواقع. وللمرء أن يتصور ما يشاء، ولو كان غير ممكن.

• تصور ظهور الشيء مع عدم تصور سببه لا يعني عدم وجود سبب له؛ فأن أتصور ظهور باقة ورد في محراب المسجد دون تصور سبب ذلك لا يعني تصوري ظهور باقة ورد دون سبب؛ إذ إنّ عدم تصور السبب لا يلغي البتة السبب نفسه في الخيال والواقع؛ إذ قد يتصور الخيال إنسانًا دون تصور طوله، ولا يعني ذلك إمكان وجود إنسان دون طول، فتصور ظهور الشيء دون تصور سببه لا يعني تصور ظهور الشيء غير مسبب.

• تصور ظهور هذه الباقة دون سبب سببه أنّ الخيال قد تصور صاحبه يقف أمام المحراب، ثم هو يفاجأ بظهور الباقة دون سبب يراه بعينه، وهنا علينا أن نفترض سببًا خارقيًا لا أن ننفي السبب، والخارقة سبب، وإن كانت سببًا غير طبيعي»[٢].

ويتبع هذا د. سامي عامري بقوله: «من ينكر السببية ينكر كل شيء ضرورة، لا السببية فقط، ولا بد أن يسقط في الشكوكية الشاملة والقاتلة، إذ

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢٠ نقلاً عن:
Grieg, ed., The Letters of David Hume (Oxford:Claren Press, 1932) , 1/187.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

عليه أن يمتنع عن الأكل طلبًا للشبع، وعن الشـرب طلبًا للري، وعن الدواء طلبًا للعافية... إنه عليه أن يتوقف عن الدفاع عن إنكاره للسـببية؛ لأنه يقيم مذهبه على ترتيب سببي للمقدمات والنتائج.. إنه عليه أن يتوقف عن التفكير لأن التفكيـر قائم بصورة كلية على مبدأ السـببية.. بل عليـه أن يتوقف عن الشك؛ لأن الشك نشاط عقلي سـببي.. فإنكار السـببية ـ في خاتمة الأمر ـ محال لأنه مذهب منتقض ذاتيًا؛ فهـو ينكر أمرًا يقوم هو عليه: الاسـتدلال العقلي أو العلمي السببي لإنكار السببية.

وإذا كان عامة الملاحدة اليوم يـرون العلم الطبيعي طريـق المعرفة؛ فإن إنكارهم للسببية يؤول ضرورة إلى إبطال إمكان العلم بالعلم؛ لأن العلم سببيٌ في ربطه الظواهـر بعضها ببعض، والأشـياء في تتالي حالاتهـا؛ ولذلك قال الفيلسوف و. ت. ستاس عن قانون السببية: (كل دارس للمنطق يعلم أنّ هذا هو أعظم قوانين العلوم، وأساسـها كلها. إذا لم نكن نؤمن بحقيقة السببية وأنّ كل ما له بداية فله سبب... فستنهار جميع العلوم في وقت واحد لتصير غبارًا)»[1].

وإذا ثبت ارتباط كل مسـبب بسـببه؛ فإنه لا يبقى ريب ـ مع ثبوت حدوث الكون ـ أنـه لا بد له من محـدث أحدثه، وليـس التعبير ـ كمـا علمت ـ عنه بالانفجار العظيم إلا تعبيرًا عن نشأة الكون بأمر الله تعالى؛ نشأة أدت إلى امتداده بسرعة لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقد أدى التفكير في ذلك ببعض الملاحدة إلى نوع من التراجع عن غلوهم في الإلحاد، ومن بين هؤلاء الفيلسوف الملحد وليام رو الذي قال: «لا بد من الاعتراف أن ظهور نظرية الانفجار العظيم المتعلقة بنشأة الكون قد أضافت ثقلًا جديدًا إلى حجة وجود ما يمكن أن يكون خالقًا»[2].

(١) المرجع السابق، ص٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٩، نقلاً عن:

Willliam Rowe, 'Cosmological Arguments', The Blackwell Guide to the Philosophy of Religion, ed. William Mann (Oxford: Blackwell, 2005) , p.115.

ومثل ذلك الشـــهادة التي أدلى بها الفلكي روبرت جاسترو وهو من فئة اللاأدري حين ذكر في كتابه الله والفلكيون ما يلي: «من جهة يبدو لي أنّ علم الفلك أن قد أثبـــت أنّ هناك قوى تعمل في العالم، تتجـــاوز المقدرة الحالية للوصف العلمي، وهـــي حرفيًا قوى فـــوق طبيعية، لأنها تقـــع خارج مجال القانون الطبيعي، ومن جهة أخرى قراءاتي في أدبيات العلم قادتني إلى اعتناق الفلسفة الاعتزالية ومذهب المادية العلمية، وهي رؤية تقرر أن الكل ليس أكبر من مجموع أفراده، ولا توجد قوة للخلق ولا حقيقة للحياة بعيدًا عن جزيئات الجسد، ولا عقلًا بعيدًا عن الخلايا العصبية للدماغ ومجالاته»[1].

وهو كما تراه صدمته أدلة وجود الله تعالى في مشاهد الوجود، ولكنه لم يستوعبها، فلذلك عبر عما وراء هذا الكون بـ (قوى تعمل في العالم تتجاوز المقدرة الحالية للوصف العلمي) ووصفها بأنها (قوى فوق طبيعية، لأنها تقع خارج مجال القانون الطبيعي)، ولكنه لم يســتطع الانفلات من شكوكه التي أسرته، فلذلك هام في هذا الأمر وظل يفسر الحياة بكل مشاهدها تفسيرًا ماديًا كما هو واضح من آخر كلامه، غير أنه مع ذلك دل كلامه على الصدمة العنيفة التي واجهها فيما اطلع عليه من حقائق الوجود الدالة على الله سبحانه.

وهذه الحقائق هي التي أدت بأحد مشـــاهير الملحدين المتشـــددين إلى الاعتراف الصريح بوجود الله ﷻ، وهو سير أنتوني فلو (Sir Antony Flew) أســـتاذ الفلســـفة البريطاني الذي ذاع صيته فـــي مجالات الفكر والفلســـفة والإلحاد، وقد قاد الحملة الإلحادية في الغرب مدة نصف قرن من الزمن كان فيها من أعتى الملاحدة الذين يرون أنّ التدين هـــو أبغض خصومهم إليهم، وأنّ اعتقاد وجود الله سبحانه هو أسخف خرافة تنتشر بين الناس، ولكن ما إن

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠٠، نقلاً عن:
Roy Abraham Varghese, eds. Intellectuals Speak out about God (Chicago, Ill.:Regnery Gateway, 1984) pp19-20.

جاوز عمره ثمانين عامًا حتى فاجأ العالم باعترافه أنّ لهذا الكون خالقًا، وذلك في يوم ٢٦ شـــوال ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤/١٢/٩م) وكان إعلانه ذلك صاعقة نزلت على رؤس الملاحدة، فانبـــروا يحقرونه وينبزونه بالحمق والجنـــون، بعدما كانوا يمجدونه أعظم تمجيد، وقد تناول رفيق دربه في الإلحاد **ريتشارد دوكنز** قصة اعترافه بالإله بعد حربه الضروس؛ التي دارت رحاها أكثر من نصف قرن من الزمن ضد عقيدة الألوهية ومن يعتقدها، ومع ما شنه عليه من حملته الشعواء ـ في محاضرته التي خصصها لهذا الحـــدث ـ على هذا التحول المفاجئ منه كان ممتنًا لسابقته في الإلحاد ودفاعه المستميت عنه، وكان مما قاله في ذلك: «كان بطل الإلحاد لمدة طويلة» وأضاف إلى ذلك «كان فيلسوفًا عميقًا».

وبجانب هـــذا الموقف الســـلبي ـ مـــن رفاق **فلـــو** وتلامذتـــه ومريديه الملحدين ـ من هذا التحول الذي تحوله وتســـفيههم لـــه، واعتبار ذلك من الخرف الذي يحدث للإنســـان في شـــيخوخته، أو أنه جنون الشيخوخة، فإنّ الذين أعجبوا بتحوله هذا نســـبوه إلى الاســـتبصار بعد العمـــى، والعقل بعد الجنـــون، كما كان ذلك مـــن د. عمرو شـــريف في كتابه **رحلـــة عقل**، الذي خصصه لبيان هذا الحدث وملابســـاته، وما يســـتنتج منه حيث قال: «أصاب الخبر الملاحدة من زملاء **أنتوني فلو** وتلاميذه بهســـتيريا عارمة، حتى امتلأ إعلام العالم الغربي الحر بسخريتهم وازردائهم لهذا التحول.

وقد طلب من **أنتوني فلو** مرارًا أن يصدر كتابًا يعرض فيه رحلته، من صبي مؤمن إلى رجل ملحد إلى شيخ في الثمانين يؤمن بوجود الإله، وأخيرًا صدر عام ٢٠٠٧ الكتاب المنتظر (**هناك إله: كيف عدل أشرس ملحد عن الإلحاد**)».

ثم أتبع ذلك قوله: «ونقوم في كتابنا هذا **رحلة عقل** بعرض لكتاب **أنتوني فلو** (**هناك إله**)، ثم طرح العلاقة بين الدين والعقل والعلم للتحليل»[1].

---

(١) د. عمر شريف: **رحلة عقل**، ص ١٥ ـ ١٦، نيوبوك للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط ١٢: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

وقد صرح أنتوني فلو بالأسباب التي جعلته ينتقل عن محاربته لعقيدة الإيمان بوجود الله إلى الاعتراف بها وإعلانها، في مواضع مما جاء في كتابه المشار إليه، ومن ذلك قوله: «لا شك أنّ من أشهر البراهين وأبسطها وأدلها على وجود الله الخالق هو ما يعرف ببرهان التصميم (Design Argument) أو البرهان الكوني (Cosmic Argument) ويعني ببساطة أنّ دقة بناء الكون وما عليه الطبيعة من نظام وانتظام يشير إلى وجود مصمم ذكي.

وبالرغم من أنني كنت من قبل من المعترضين بشدة على أنّ دقة التصميم تشير إلى وجود الإله، فإنّ إعادة النظر في البرهان، وفي أسلوب الاستدلال الفلسفي به، أوصلني إلى الإقرار بوجود إله حكيم خالق.

ولا شك أنّ ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة في مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية، قد أمد هذا البرهان بالكثير من الأدلة (المقدمات) التي أعانتني كثيرًا في الوصول إلى هذا (الاستنتاج)»[1].

وقد كانت هذه خطوة أولى من فلو حيث انتقل من إلحاد الجحود لوجود الله إلى الصنف الآخر الذي يعترف بربوبيته تعالى، حيث قال بنفسه في فاتحة كتابه المذكور: «مذ أُعْلِن تحولي للربوبية طلب مني في العديد من المناسبات توضيح الأسباب التي دفعتني لتغيير رأيي»[2]، ونحن نأمل أن تتبع هذه الخطوة خطوات ليصل إلى اتباع الدين الحق، فإنه من الممكن إن بذل جهدًا في البحث أن يتمكن من معرفته بسطوع براهينه ووضوح منهجه، على الرغم من كون الصورة التي وصلته عن الإسلام صورة مشوهة، وفي هذا ما يضاعف

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) أنتوني فلو مع روي إبراهام فارجيس: هناك إله، ص ٣٣.

المسئولية على المسلمين أن يبلغوا دين الله الحق، ويوضحوا للناس، منهجه الرشيد، لا سيما الغربيين الذين هم في عمى عن هذا.

وقد أجادت في التنبيه على هذا مترجمة الكتاب جنات جمال، حيث قالت في مقدمة ترجمتها: «سؤالي للمسلمين هنا: من السبب وراء استمرار انتشار هذا الكم الكبير من المعلومات المغلوطة عن الإسلام في الغرب؟. دين الإسلام كما نعرفه لا يحضر على طاولة الحوار الفكري في الغرب إلا نادرًا، وفلو ليس استثناء كما سنرى خصص فلو الملحق الثاني من الكتاب لطرح حوار مطول بينه وبين الأسقف رايت، وقد وصف طرح رايت عن المسيحية بأفضل طرح ديني رآه؛ إله كان مرعوبًا من فكرة إنه الإله، وكان يشك في ألوهيته، ويظن أنه ربما أخطأ في الأمر برمته، وعقيدة لا تجد ما يثبتها من نصوصها المقدسة، ونص مقدس لم تثبت قدسيته... هذا هو أفضل طرح ديني! ترى مشكلة من تلك؟!»[1].

إنّ فلو لم يجد أمامه طرحًا دينيًا يأخذ بمجامع عقله، ويصل منه إلى مركز الإقناع، فلذلك اقتنع بهذا الطرح المضطرب الذي ينبو عنه الفكر، وتأباه الفطرة، وقد كان جديرًا أن يزاحم هذا الأسقف في طرحه الدعاة المسلمون، الذين بأيديهم من الرصيد العقدي والفكري ما ينور البصائر، ويمتلك الألباب، ولا يخفى أنّ فلو قد سئم مكابرة العقل والفطرة بإلحاده العنيد، وقد بهره ما قرأه في سطور الكون من الشواهد البينة على أنه مفتقر إلى مكونه، فلذلك خطا هذه الخطوة، وكان حريًا به مع جرأته على الخطو أن يكون أيضًا جريئًا في بحثه عن الحقيقة، ونرجو أن تكون مثل هذه الأحداث ملهمة لأمة الإسلام، وموقظة لضميرها، لتدرك مسئوليتها.

---

(١) المرجع السابق، ص١١.

هذا؛ وقد أدى ـ أيضًا ـ وضوح الحقيقة وبرهان الحق في مشاهد الوجود إلى أن يعلن آلن ساندبغ الفلكي المعروف بأنّ الانفجار العظيم يقود إلى أن ينتهي الفلكيون إلى التفسير اللاهوتي لوجود الكون، وذلك في قوله إنّ الانفجار: «يضع توسع الكون ـ مع عواقبه فيما يتعلق باحتمالية قيام علماء الفلك لتحديد حدث الخلق ـ علم الكون الفلكي قريبًا من اللاهوت الطبيعي للعصور الوسطى الذي حاول أن يجد الله عن طريق تحديد السبب الأول».

وأضاف إلى ذلك ـ بعدما ذكر عجز العلوم الفلكية عن الوصول إلى الحقيقة الإلهية ـ: «لذلك يجب على المرء أن يتحول إلى الكتب المقدسة»[1].

وأمثال هؤلاء كثير.

وترى أنّ هؤلاء رأوا أخيرًا أن يلجأوا إلى الكتب المقدسة لاستلهام الحقائق الغامضة التي خفيت على عين العلم أن تراها، وذلك على رغم الثغرات الكثيرة التي عثروا عليها في تلك الكتب، فجعلتهم يرفضونها على الإطلاق، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من هذا، ولكنهم لو رجعوا في هذا إلى القرآن الكريم لوجدوا التطابق الدقيق بين ما عرضه القرآن وما كشف عنه العلم من حقائق الكون الغامضة، وقد وفق لهذا بعض الذين لم يكونوا من قبل على دراية بالقرآن أو الإسلام، ففوجئوا بما بهرهم من هذه الآيات التي شاء الله تعالى أن تظهر في مواقيتها التي أرادها سبحانه تصديقًا لقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢ ـ ٥٣]، وهذا الذي ألجأ المنصفين منهم إلى تسجيل هذه الحقيقة بأبرز حروفها الدالة عليها، ومن أبرز هؤلاء الدكتور

---

(١) د. سامي عامري: براهين وجود الله، ص٤٠١، نقلاً عن: أسئلة وأجوبة مع ساندبغ.

الفرنسي موريس بوكاي الذي كان جراحًا مشهورًا، وقد عني بدراسة القرآن الكريم بجانب دراسته للتوراة والإنجيل، وعرض الحقائق العلمية على ما فيهما، وقد فوجئ بالتناقض الكبير بين ما وجده في التوراة والإنجيل وما هو ثابت بالبراهين العلمية المعاصرة، ولكن المفاجأة كانت أكبر عندما وجد التطابق العجيب بين هذه الحقائق العلمية الثابتة وما اطلع عليه في القرآن الكريم، على رغم قلة تعرض التوارة والإنجيل لها، وكثرة ذكرها في سياق الآيات القرآنية، وهذا الذي دعاه أن يسجل هذه الحقائق في كتابه القيم **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**، وقد كان هذا منه من غير أن يكون قد أعلن إسلامه، ثم تبع ذلك تأليفه كتابًا آخر بعنوان **الإنسان في القرآن**.

وهذا يعني أنه لم يجد في كتاب ديني ضالته المنشودة إلا في القرآن وحده، وكان مما تعرض له التفاوت الكبير في موقف الدين من العلم، بين ما كان في الغرب إبان تصدي الكنيسة للحركة العلمية وآراء علماء الكون وما كان عند المسلمين إبان استهدائهم بالقرآن الكريم، ومما جاء في ذلك قوله: «لم تكن العلاقات بين الأديان والعلوم متماثلة في كل الأماكن، وعبر مختلف الأزمنة، الأمر الذي لا جدال فيه هو أنه ليس هناك أية إدانة للعلم في أي كتاب مقدس من كتب أديان التوحيد، ولكن علميًا علينا أن نعترف بأنّ العلماء قد لاقوا مصاعب جمة من السلطات الدينية لبعض الأديان، ففي الوسط المسيحي بادرت سلطات مسئولة ـ ودون الاعتماد على أي نصوص حقيقية للكتب المقدسة ـ بمعارضة تطور العلوم، واتخذت هذه السلطات ضد العلماء ـ الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم ـ الإجراءات التي نعرفها، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافيًا للموت حرقًا أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو، وفي هذا الشأن تذكر دائمًا قصة جاليليو

الذي حوكم لأنه استأنف مكتشـفات قوبرنيق الخاصة بدوران الأرض، ولقد أدين جاليليو بسبب تفسير خاطئ للتوراة، لأنه ليس هناك نص مقدس يمكن الاستشهاد به بشكل له قيمة ضد جاليليو.

أما في الإسلام فعمومًا كان الموقف إزاء العلم مختلفًا، إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي يقول: «**اطلبوا العلم ولو بالصين**»(١)، أو ذلك الحديث الآخر الذي يقول: «**طلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة**»(٢)، وهناك أمر رئيسي؛ القرآن ـ كما سنرى فيما بعد في هذا الجزء من الكتاب إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشـتغال بالعلم ـ فإنـه يحتوي أيضًا على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية، وبتفاصيل توضيحية، تتفق تمامًا مع معطيات العلم الحديث، وليس هناك ما يعادل ذلك في التوراة والإنجيل».

---

(١) رواه الربيع بن حبيـب قال: «حدثني أبو عبيـدة عن جابر بن زيد عـن أنس بن مالك عن النبي ﷺ ...» وذكره؛ **الجامع الصحيح**، باب (٤) في العلم وطلبه وفضله، (رقم: ١٨، ص١٢)، وثبوته عند الربيع رحمه الله بهذا السـند العالي من رواية أنس رضي الله عنه كاف في إثبات، وإن صحة الحديث كان لم يرو عند غير الربيع إلا بطرق غير صحيحة، على أنه يعتضد بما في القرآن الكريم من حض على طلب العلم في آيات متعددة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

(٢) الحديث مروي بلفظ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أخرجه الخطيب البغدادي؛ **تاريخ بغداد**، ترجمة: عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري (ابن بطة)، (رقم الترجمة: ٥٥٣٦)، ٣٧٥/١٠. والحديث أخرجه أيضًا ابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، أبواب السنة، باب (١٧) فضل العلماء والحث على طلب العلم، (رقم: ٢٢٤، ص٢٤٩١). وأبو يعلى؛ **مسند أبي يعلى**، (رقم: ٢٨٣٧، ٢٢٣/٥). والطبراني؛ **المعجم الكبير**، (٧٧٢) عبد الله بن مسـعود، (رقم: ١٠٤٣٩، مج (٥) ١٦٦/١٠). والبيهقي مثله؛ **الجامع لشعب الإيمان**، الشعبة (١٧) من شعب الإيمان وهو باب في طلب العلم، (رقم: ١٥٤٤ ـ ١٥٤٧، ٥٠٩/٣ ـ ٥١٢)، وابن عسـاكر؛ **تاريخ دمشق**، ترجمة: محمد بن الحسـين بن أبي الدرداء، (رقم الترجمة: ٦٢٥١)، (٣٤١/٥٢)، وقد ضعفوه، ولكنه يعضد بالقرآن الحاض على طلب العلم، ولا ريب أن لفظ المسلم يندرج في معناه الذكر والأنثى، وكل منهما مطالب بطلب العلم.

ثم أشار إلى ما أصاب المسلمين في فترات من التأريخ من الجمود الذي جعل منهم من يقف موقفًا سلبيًا من العلوم وتطورها، فقال في هذا: «ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد بأنه لم يكن هناك في أي عصر من تأريخ الإسلام مسلمون اتخذوا موقفًا آخر إزاء العلم، فمن الثابت أنه قد أسيء في بعض العصور فهم واجب التعليم وتعليم الآخرين، وأن في العالم الإسلامي كما في العوالم الأخرى حاول البعض إيقاف التطور العلمي، ولكن علينا أن نتذكر أن في عصر عظمة الإسلام أي بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية»[1].

وعرج بعد هذا على فترة ازدهار العلم في العواصم الإسلامية، لا سيما قرطبة التي كانت حاضرة علمية يؤمها الأوربيون ليقتبسوا من نور العلم الذي كان يتلألأ في مؤسسات التعليم فيها، بينما كانت أوروبا في أحلك أيامها المظلمة بالجهل والتخلف.

وبعد أن قطع شوطًا في بيان سبق القرآن بإشاراته الواضحة إلى الحقائق العلمية التي وضحت بتقدم حركة البحوث العلمية المعاصرة، أو هي في طريقها إلى الوضوح من خلال هذه الحركة، مع بيان التفاوت بينه وبين التوراة والإنجيل في ذلك قال ما يلي: «إنّ المقابلة بين الكتب المقدسة والعلم تستعين بمعلومات تتصل بالحقيقة العلمية، وذلك بالنسبة إلى التوراة والإنجيل والقرآن، وحتى تكون هذه المقابلة ذات قيمة يجب أن تكون الحجة العلمية المعتمد عليها ثابتة تمامًا، وأن لا تكون محل جدال، إنّ الذين يتذمرون ويماطلون في قبول تدخل العلم في عملية تقييم الكتب المقدسة

(١) بوكاي؛ موريس: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دارسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤٦ ـ ١٤٧، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، ط ٢: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

ينكرون أن العلم يستطيع أن يشكل مقياسًا في مقارنة ذات قيمة (سواء كان المعني التوراة والإنجيل اللذين لا يحتملان المقارنة بلا خسارة ـ وقد رأينا دواعي هذا ـ أو القرآن الذي لا يخشى عليه منها) فالعلم كما يزعمون متغير مع الزمن، وما يمكن قبوله اليوم يرفض غدًا.

هذا الرأي يتطلب التعديل: يجب التفريق بين النظرية العلمية وبين الفعل موضوع الملاحظة، والذي يمكن رصده بالشكل المطلوب. فغاية النظرية أن تشرح ظاهرة أو مجموعة من الظاهرات عسيرة الفهم، النظرية تتغير في كثير من الأحوال، هي قابلة للتعديل أو لأن تحل نظرية أخرى محلها عندما يسمح التقدم العلمي بتحليل أحسن للأمور، وبتصور شرح آخر أكثر قيمة، أما الفعل موضوع الملاحظة فهو على عكس ذلك، إذ إنه غير قابل للتعديل.. قد يمكن تعريف سماته بشكل أحسن، ولكنه يظل على ما كان من قبل، فإثبات أنّ الأرض تدور حول الشمس، والقمر حول الأرض، فهذا ما لن يرجع فيه أبدًا، وقد يمكن في المستقبل تحديد المدارات بشكل أحسن.

إنّ تبصري بالطابع المتغير للنظريات هو الذي جعلني أستبعد على سبيل المثال آية قرآنية، ظن أحد علماء الفيزياء المسلمين أنها تعلن عن مفهوم (ضد المادة Antimatiere) وتلك نظرية مثار الجدال حاليًا، وعلى عكس هذا يمكن ـ وعن حق ـ منح كل الانتباه لآية قرآنية تذكر الأصل المائي للحياة، وتلك ظاهرة وإن كنا لن نقدر أبدًا على التحقق منها، فهناك برغم ذلك عدة حجج تدخل في صالحها.. أما فيما يتعلق بالأمور التي يمكن أن تخضع للملاحظة مثل تطور الجنين البشري، فيمكن تمامًا مقابلة المراحل الموصوفة في القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديث، لنكتشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم.

ولقد اكتملت هذه المقابلة بين القرآن والعلم بمقارنتين أخريين، فمن ناحية هناك المواجهة بين المعارف الحديثة ومعطيات التوراة والإنجيل

المنصبة على نفس الموضوعات، ومـــن ناحية أخرى هناك المقارنة بين نفس وجهة النظر العلمية لمعطيات القرآن ـ الكتاب الذي أنزله الله على النبي ﷺ ـ ومعطيات الأحاديث، أي كتـــب أخبار وأقوال النبي ﷺ، وهي مســـتقلة عن الكتاب المنزل.

وســـيجد القارئ بالتفصيل في نهاية هذا الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة روايات التوراة بروايات القرآن، فيما يتعلق بحدث واحد، وقد خضع الكل للنقـــد العلمي، وعلى ســـبيل المثال فقد تـــم اختيار مســـألتي الخلق والطوفان، واتضح بالنســـبة لكل منهما عدم اتفاق العلم مـــع أقوال التوراة، ولكن سنرى اتفاقًا كاملًا بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث، ومن ذلك يمكن ملاحظة الفروق التي تجعـــل بالدقة أحد النصين مقبولًا علميًا في العصر الحديث، على حين تجعل الآخر غير مقبول»[1].

وقد أجـــاد د. موريس بوكاي فـــي تفرقته بين ما هو حقيقـــة علمية ثابتة لا تقبل الجـــدل، ككروية الأرض؛ التي أصبحت الآن فـــي أذهان الناس أمرًا لا جدل فيه يعرفه الصغير والكبيـــر، والغبي والفطن، وتشـــير إليه آيات من القرآن الكريم إشـــارات تكاد تكون نصًا صريحًا، كما في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحـــج: ٦١]، فإنه يدل على أنّ كل واحد منهما يلج في الآخر فيحل محله في هذا الفضاء الذي يجلل الكرة الأرضية، ومثله قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمـــر: ٥]، وبيـــن ما هـــو نظري قابل للتعديل والتبديـــل، وهذا بخلاف تســـرع كثير من المســـلمين فـــي العصر الحديث، الذين حاولوا أن يوجدوا لكل نظرية سندًا من القرآن؛ فاندفعوا إلى تفسير آيات من القرآن بنظريات دون ثبوتها خرط القتاد..!.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

فلا يخفى أنّ كثيرًا من الحقائق العلمية التي لم تعد محلًا للجدل، وجد في نصوص القرآن ما يدل عليها، بغير أي ارتياب، كالآيات التي تتحدث عن مراحل خلق الجنين، وكذلك ما يدل على أنّ الجنين يتكون من عنصر الأب والأم معًا، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، فالأمشاج جمع مشيج، وهو الخليط، وقد فسر حتى عند القدامى من المفسرين بأنّ المراد بذلك اختلاط ماء الرجل والمرأة، قال الفراء: «الأمشاج: الأخلاط؛ ماء الرجل وماء المرأة»[١].

وقد ظلت هذه الحقيقة غامضة لم يصل إليها العلم إلا فيما قبل أقل من قرنين من الزمن، وقد خفيت على الفلاسفة والمفكرين عبر القرون الماضية، إذ كانوا يتصورون أنّ الجنين لا يكون إلا من عنصر الرجل فحسب، وما المرأة إلا كالأرض التي تلقى فيها البذرة، فتنبت فيها وتنمو بما يغذيها من العناصر الموجودة فيها، وإنما أصل الجنين من عنصر أبيه فحسب[٢].

ثم بين د. **موريس بوكاي** ما يتردد عند غير المسلمين من أنّ النبي ﷺ كان محاكيًا لما في التوراة عندما جاء بالقرآن، وأنّ ذلك منقوض بهذا التفاوت الكبير بين القرآن والتوراة؛ من حيث تطابق القرآن مع الحقائق العلمية المعاصرة وتناقض التوراة معها، فقال في هذا: «هذه الملاحظة البينة ذات أهمية من الدرجة الأولى، ذلك أنّ اليهود والمسيحيين والملحدين في البلاد الغربية يجمعون على الزعم ـ وذلك دون أدنى دليل ـ بأنّ محمدًا ﷺ كتب أو استكتب القرآن محاكيًا التوراة، ويزعم البعض أنّ هناك أقوالًا قرآنية في التاريخ الديني تعيد أقوال التوارة والإنجيل، مثل هذا الموقف لا يقل

---

(١) الفراء؛ يحيى بن زياد: **معاني القرآن**، سورة الإنسان (الآية ٢)، ٣/٢١٤، عالم الكتب ـ بيروت، ط ٣: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٢) ينظر؛ البار: **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، ص ١٨٣ ـ ١٩٠.

استخفافًا عن ذلك الذي يقود إلى القول بأن المسيح أيضًا قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم في أثناء تبشيره، فكل إنجيل متى ـ كما رأينا ـ يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم. أي مفسر هذا الذي تعن له فكرة أن ينزع عن المسيح صفته كرسول الله لذلك السبب...؟.

ومع ذلك فهكذا في الغرب يحكم على محمد ﷺ في غالب الأحيان يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل، وذلك حكم بلا محاكمة، لا يضع مطلقًا في اعتباره أنّ القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطي عن نفس الحدث روايات مختلفة، لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات، ثم يعلنون أنها متماثلة، وبالتالي يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية»[1].

وبعد هذا عرج على الأحاديث الشريفة التي جاء كثير منها متطابقًا مع الحقائق العلمية الثابتة في العصر الحديث، وذلك ـ بلا ريب ـ يدل على ثبوت تلك الأحاديث في إسنادها إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه، بينما هناك روايات أخرى تعزى إليه صلوات الله وسلامه عليه وهي بخلاف ذلك، وهذا مما يدل على عدم ثبوتها عنه، ولا غرو في ذلك فإن الأحاديث المنسوبة إليه ليست على درجة واحدة من الصحة، ولذلك عني علماء الحديث من المسلمين بنقدها حسب المعايير التي اصطلحوا عليها، وعرج بعد ذلك على القرآن فقال بأنه: «لا يحتوي على أي دعوى علمية غير مقبولة، وكما سنرى فالفرق مذهل حقًا».

ثم أتبع ذلك قوله: «إنّ هذه الملاحظة الأخير تدحض فرض هؤلاء الذين يرون في محمد ﷺ مؤلفًا للقرآن، كيف يمكن للإنسان ـ كان في بداية أمره أميًا ثم أصبح فضلًا عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق ـ أنّ يصرح بحقائق ذات طابع علمي، لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة.

---

(١) د. موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص١٥٦.

إنّ الاعتبارات التي ستتناول بالتفصيل في هذه الدراسة من وجهة النظر العلمية فقط ستقود إلى الحكم بعدم معقولية أن إنسانًا يعيش في القرن السابع من العصر المسيحي، قد استطاع أن يصدر عبر القرآن ـ وفيما يتعلق في موضوعات متعددة ـ أفكارًا لا تنتمي إلى أفكار عصره، وتتفق مع ما أمكن إثباته بعد ذلك بقرون عديدة؟! في رأيي ليس هناك تفسير وضعي للقرآن»[1].

وقد تتبع في أثناء كتابه كثيرًا من النصوص القرآنية التي لم تتضح مفاهيمها حسبما كانت مقصودة حتى جاء العلم الحديث فأبرزها كما هي، وهذا يعني أنّ الذين يدخلون في متاهات بين الحقائق العلمية المعاصرة وبين ما تقتضيه الكتب المقدسة عليهم أن ينحوا منحى د. موريس بوكاي في دراسة القرآن بموضوعية، وسيجدون ـ إن شاء الله ـ ضالتهم المنشودة في المطابقة بين العلم والدين.

ولا يخفى على كل من يرجع إلى القرآن، ويطلع على ما في التوراة والإنجيل ما يجد بينها من التفاوت العجيب، فالقرآن فيما يتعلق بالله ﷻ لا يخرج قط عن دائرة التنزيه المطلق لذاته وصفاته، عن أي نقص لا يليق حسب ما تمليه العقول السليمة بمقام فاطر السماوات والأرض، بل فيه التنزيه المطلق له ﷻ عن أي تشابه بينه وبين أي شيء سواه في الذات أو الصفات، وكم تجد في التوراة والإنجيل من وصف الله تعالى بالنقائص، كالذي سبق ذكره في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب، وهذا الذي جعل العلماء المتجردين ـ الذين استدلوا على الله سبحانه بحقائق الوجود، ونواميس العلوم ـ لا يعولون عليهما في معرفة الله تعالى، كما جاء فيما لخصه ماكس جامر أحد أصدقاء أينشتين في كتابه أينشتين والدين، وذلك في قوله: «يرفض أينشتين فكرة الإله المتشخص (كأنه إنسان لكن بغير جسم، وإن كان يتفوق

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

على الإنسان في صفاته كيفيًا وكميًا) الذي تنسبه كل ديانة لنفسها، وتعتبره شيخًا لقبيلتها، ولكنه يؤمن بوجود إله غير مادي، يظهر نفسه في قوانين الطبيعة.

ويؤمن أينشتين بأنّ من يفهم الطبيعة يعرف الإله، ليس لأن الطبيعة هي الإله ـ كما يقول الفيلسوف أسبينوزا ـ لكن لأن ما في الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها، وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته.

إذن يؤمن أينشتين بخالق مطلق العلم، مطلق القدرة، لا يحده الزمان ولا المكان»[1].

ولا يخفى أنّ ما ذكره من صفات الله كونه لا تحده حدود الزمان والمكان، وكذلك صفاته العليا لا حد لها في كمالها، فعلمه لا يقف عند حد، وكذلك قدرته، وسائر صفاته، وأنه لا تشابه قط بينه وبين غيره، كل ذلك مما دل عليه القرآن في وصفه تعالى، فهؤلاء لو وجدوا القرآن لعرفوا كيف يقتبسون من أنواره ما يبددون به ظلمات الشك واللبس، ليصلوا إلى عين اليقين، وما أحوج العالم كله إلى ذلك لو انبرى المسلمون لإبلاغ رسالة القرآن إلى الناس، وتعريفهم بطواياه العظيمة بعد معرفتهم بها.

---

(١) د. عمر شريف: رحلة عقل، ص٩٦.

في إبطال كون العالم أوجد نفسه بنفسه

إنّ من أجلى الحقائق وضوحًا وأبلغها حجة وبرهانًا أنه يستحيل أن يوجد معدوم نفسه ليبرز من طوايا العدم إلى ساحة الوجود، ولذلك كانت حجة الرسل على أقوامهم عتاة الكفر، وأوتاد الجاهلية، عندما كانوا يدعونهم إلى الإيمان تتمثل في إحالتهم إلى النظر في أبعاد هذا الوجود، ليتبيّن لهم أنه لا يمكن أن يكون هو نفسه الذي خلق نفسه، فخرج من غيب العدم إلى شهود الوجود، فقد حكى الله تعالى عن طائفة منهم قولهم لأقوامهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فإنّ كل من ألقى نظرة إلى هذا الوجود المترامي الأطراف، الواسع الأرجاء تبيّن له بلا ريب أنه يستحيل أن يكون بنفسه كوّن نفسه، فخرج بذلك إلى الشهود، وكيف يتأتى هذا مع أنّ أي أحد لا يصدق بحال إن قيل له بأنّ أي صنعة تكونت تلقائيًا من غير أن يدخل في صنعها أحد، كما سبق ذلك فيما حكيناه من الشاهد في صنع سيارة، مع أنّ السيارة بنفسها لم تكن موادها عديمة من قبل، فكل موادها كانت موجودة مشهودة، ولكن هل يتقبل أحد أنّ هذه المواد اجتمعت تلقائيًا فتركب بعضها مع بعض حتى تكونت كما هي؟.

وكذلك لو أنّ أحدًا ادعى أنّ بناء معينًا اجتمعت مواده المتفرقة من طين وماء وحجارة وأخشاب وحديد وغيرها، فتركبت واتحدت من غير أن تسبقها هندسة وتخطيط، ومن غير أن تتدخل يد عامل، فتجمعها من شتاتها، وتركب

بعضها إلى بعض، هل يمكـــن أن يصدق بين الناس في دعـــواه هذه، أو أنه ينادى عليه بين الناس بأنه انتهى به الجنون والحماقة والهذيان إلى أن أصبح بعيدًا عن مراتب العقلاء؟!.

وإذا كان هذا فيما كانت مواده موجودة وأجزاؤه مشهودة؛ فكيف يمكن أن يكون ذلك في هذا الوجود المترامي الأطراف، الذي لـــم تكن له مادة أزلية انبثق منها، وإنما كان من قبل عدمًا محضًا؟! مع أنّ الكون يتألف من كائنات مختلفة أجناسها، متعددة أنواعها، متباينة طبائعها، وهي في اختلافها وتعددها تشـــكل جميعًا مجموعة واحدة كالجســـم الواحد الذي يشـــتمل على أعضاء وأجهزة متنوعة، وطبائع متباينة، ولكنه جرم واحد يسري على كل جزيئة فيه ما يسري على ما سواها، سواء كان ذلك في الألم أو في الراحة.

وقد ثبت بالدلائـــل العلمية أنّ هـــذا الكون ينتظم جميـــع مكوناته نظام واحد، فهي مؤتلفة في اختلافها، متناسقة في تنوعها، متحدة في نظامها، ولا يعني ذلك أنّ هذا النظام هو في وحدة معينة من الكون دون ما سواها، وإنما هو نظام يشمل ما ظهر وما خفي من هذا الوجود، فمع تقدم البحوث العلمية تقدمًا هائلًا قلب الحقائق رأسًا على عقب، حتى غدا ما كان تتصور استحالته أمرًا ممكنًا، فإنها جميعًا ترتد خاســـئة حســـيرة دون الوصـــول إلى أبعاد هذا الكون، ولذلك في كل فترة من الزمن تكتشف أجزاء منه لم تكن معلومة من قبل، فمنذ نصف قرن مـــن الزمن وإلى الآن ما زلت فـــي كل حين أجد فيما اكتشـــفه علماء الكون أرقامًا تتوسع حينًا بعد آخر في ســـعة ما اكتشف منه، فكان أول ما اطلعت عليـــه أنّ أبعد مجرة عن الأرض اكتشـــفت، بينها وبين الأرض خمســـمائة مليون ســـنة ضوئية، ولا زال الرقم يصعد حتى كان آخر ما اطلعت عليه قبل نحو عقد من السنين في **الموســـوعة الكونية الكبرى** أنّ إحدى مجموعات الفلك الدوليين حققت خطوة قياســـية جديدة عبر اكتشاف

المجرة المعروفة بكونهـا الأكثر بعدًا في هذا الكون، يقـدر بعدها بنحو ١٣ مليار سنة ضوئية.

وقد تم تحديد المجرة البدائية عبر اسـتخدام **تلسـكوب هابل الفضائي**، التابع لوكالة الفضاء الأمريكية، ووكالة الفضاء الأوروبية **وتلسكوب كيك كارا** في مناكي بهاواي، ويرجـح أن تكون المجرة التي تم اكتشـافها حديثًا مجرة حديثة التكوين ظهر ألقها في أواخر ما يعـرف بالعصور المظلمة، وهي عبارة عن حقبة من التاريخ الكوني، انتهت بظهور المجرات والأجرام الأولى، التي حولت جزيئات الهيدروجين غير الشفافة إلى كون شفاف مؤين كما نراه اليوم.

وقد تم رصد المجرة الجديدة بواسطة تراكم مجموعة المجرات المجاورة، وهي مجموعة أبيل ٢٢١٨[1]، وتم التقاط صور بواسـطة كاميرا المسح المتطورة على متن تلسكوب هابل الفضائي، وهذه المجموعة ضخمة جدًا بحيث إنّ ضوء الأجسـام البعيدة الذي يمر عبرها ينحرف ويتوسـع بنسـبة أكبر مما يفعل عبر الزجاج المكبر، الذي يحرف ويكبر الأجسام المرئية عبره، وإنّ أجهزة التلسكوب الانجذابية الطبيعية المماثلة تسمح لعلماء الفلك برؤية الأجسام البعيدة والباهتة مهما بلغ بعدها، كما تشكل الوسيلة الوحيدة لرؤية هذه الأجسام، ولون المجرة باهت جدًا وموقعها بعيـد للغاية، وضوؤها المرئي قد امتد وانقسـم إلى أطوال موجية تحت الحمراء، وذلك ما زاد من صعوبة عمليات الرصد بشكل كبير.

يقول عالـم الفلك **جان بـول نيب من مرصـد ميجي بيرينيـه** ومعهد كالفورنيا للتكنلوجيا ـ وهو كاتب مقال حول تقرير الاكتشـاف ـ: «بينما كنا

---

(١) هو فهرس فلكي يحتوي على «العناقيـد الكبيرة من المجرات»، يسـجل ٤٠٧٣ من عناقيد المجرات الغنية بالمجرات في كل السماء، وهي ذات انزياح أحمر $z \geq 0,2$ =، ويعتبر تكملة لفهرس أبل الأصلي الذي سجله «جورج أبل» في عام ١٩٥٨ عن «المسح السماوي الشمالي»، وكان يحتوي على ٢٧١٢ من عناقيد المجرات.

نبحث عن المجرات البعيدة التي تم تضخيمها بواسطة أبيل ٢٢١٨ قمنا برصد زوج من الصور التي تتشابه بشكل متضارب، ويشير ترتيبها ولونها إلى وجود جسم بعيد للغاية».

ويشير تحليل سلسلة من صور هابل إلى أنّ معدل الإزاحة نحو الأحمر الخاص بهذا الجسم يتراوح بين ٦,٦ و١,٧ وفي أي حال إنّ العروض الطويلة في الحقول البصرية تحت الحمراء التي تمت بواسطة مرسمات الطيف على تلسكوب كيك ذات العشرة أمتار تشير إلى أنّ الجسم يمتلك معدل إزاحة نحو اللون الأحمر يكاد يبلغ أقصى السلسلة، ومعدل الإزاحة نحو اللون الأحمر عبارة عن قياس كيفية زيادة أطوال الضوء الموجية، وكلما كانت الزيادة باتجاه المناطق الشديدة الاحمرار في الطيف زاد بعد الجسم.

وفي هذا السياق يقول دنيب إنّ المجرة التي اكتشفناها باهتة إلى حد بعيد، وقد شكلت عملية التأكد من مسافة بعدها مغامرة مفعمة بالتحدي، وبدون التضخيم الذي وفرته المجموعة الأمامية ـ وهو يبلغ خمسًا وعشرين مرة ـ لما تم تحديد هذا الاسم الحديث أو دراسته بأي تفصيل، كان على الرغم من توفر التلسكوب الحالية وحتى بواسطة عدسات الانجذاب الكوني، إنّ الاكتشاف لم يصبح ممكنًا إلا بعد الزيادة القصوى لقدرات مراصدنا الحالية[1].

وهو رقم تقريبي فيما يبدو، لأنه بعد ذلك جاء في نفس المصدر رقم آخر وهو ١٥ مليار سنة ضوئية بدلًا من الرقم المذكور أولًا، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن علماء الكون كلما تقدموا في البحث بهرتهم الحقائق الكونية التي يكتشفونها، وحاروا في سعة هذا الكون الذي لم يكتشفوا منه إلا

---

(١) ينظر؛ الصوفي: الموسوعة الكونية الكبرى، آيات العلوم الكونية وفق أحدث الدراسات الفلكية وأحدث النظريات العلمية، ١٦٧/١ ـ ١٦٩، نقلا عن: مركز هارفرد سيمبشو نيان للفيزياء الفضائية، الولايات المتحدة الأمريكية نيسان ـ أبريل/ ٢٠٠٥، نيتشر العلمية.

زاوية صغيرة، بجانب الزوايا الكثيرة التي لم يصلوا إليها، فهم لا يتعدون طبيعة البشر التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، والله سبحانه يشد انتباهنا إلى سعة هذا الوجود وما يشتمل عليه بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ولا تزال الاكتشافات تتوالى حينًا بعد آخر، وفي كل حين تتبين أنّ المساحة المكتشفة من قبل لا تساوي شيئًا بجانب ما اكتشف بعدها، فقد تبيّن لي ـ بعدما سجلت ما تقدم ـ من خلال الشبكة العنكبوتية للمعلومات أنّ ما ذكره د. **ماهر الصوفي** في موسوعته لا يساوي شيئًا بجانب ما ذكر من بعده من اكتشافات هائلة تفوت أرقامها الخيال، وإليك ملخصًا لبعض ما ذكر في ذلك.

اكتشف أخيرًا أنّ المجرات التي يشتمل عليها الكون هي أكثر بكثير مما كانوا يتصورون من قبل، فقد أعلن علماء الفضاء يوم الخميس ١٢ محرم ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٦/١٠/١٣م أنّ في طوايا هذا الكون أكثر من تريليوني مجرة، ومعنى هذا أنّ الكون المنظور هو أكبر مما كان يعتقد بـ ١٠ إلى ٢٠ ضعفا، وهذا الاكتشاف مثير للدهشة جرى التوصل إليه على أساس نموذج ثلاثي الأبعاد جرى إنشاؤه للصور التي جرى جمعها على مدى عشرين عامًا من قبل تلسكوب هابل الفضائي، وقد نشرت في المجلة الفلكية، وكان العلماء في السابق يتصورون أنّ عدد المجرات في الكون يساوي ١٠٠ ـ ٢٠٠ مليار مجرة.

وإذا أخذ عدد النجوم التقريبي الموجود في مجرتنا **درب التبانة** ـ وهي مجرة متوسطة، وتبلغ نجومها مائة مليار نجم ـ فإنّ ذلك يعني أنه يوجد في الكون نحو ٢٠ تريليون تريليون نجم، وهو بالأرقام ٢ وأمامه ٢٥ صفرًا، وذلك يعني وجود ٢٠ تريليون تريليون مجموعة سيارة شبيهة بمجموعتنا الشمسية.

وقد تعرض العلمـــاء للكثير مـــن الحيـــرة والارتباك فيمـــا يتعلق بعدد المجرات الذي يحتويها الكـــون، خصوصًا منذ أن أظهـــر الفلكي الأمريكي إدوين هابل في عام ١٩٢٤م أنّ اندروميدا (المرأة المسلسلة) هي مجرة مجاورة ليســـت جزءًا من مجرتنـــا درب التبانة، ولكـــن حتى في عصـــر علم الفلك الحديث على الرغم مـــن التكنولوجيا المتقدمة التي توصـــل إليها العلم كان العلمـــاء لا يزالون يعانون من صعوبـــة كبيرة في التثبـــت والتحقق من العدد الفعلي للمجرات الموجودة في الكون.

ولا بد مـــن العلم أنه لا يوجد ســـوى جزء من الكون يمكـــن أن ينبعث الضوء من الأجسام البعيدة فيه حتى يمكن وصوله إلى كوكب الأرض، وبهذا يمكن القيام برصد المجرات التي تنتج هذا الضوء، لكن بقية الكون لا يزال بعيدًا عن متناولنا لعـــدم وجود طريقة لرصد تلك البقيـــة الهائلة من أضوائه، وحتى في هذا الكـــون المرئي فإنّ التكنولوجيا الحاليـــة يمكننا بها أن نعرف لمحة ١٠٪ مما يحدث في هذا الكون المرئي فقط وفقًا لنتائج جديدة!.

وعلق كريستوفر كونسيليتشـــي من جامعة نتنغهام الذي قاد فريق البحث في هذه الدراسة أنّ أكثر من ٩٠٪ من المجرات في هذا الكون لم تتم دراستها بعد..! وأضاف إلى ذلك: «من يدري ما هي الخصائص المثيرة للاهتمام التي سوف نجدها عندما نشاهد هذه المجرات مع الجيل القادم من التلسكوبات».

وباستخدام الصور التي التقطها التلسكوب الفضائي الشهير هابل لأعماق الكون؛ تمكن كونسيليتشي وفريقه من تحويلها بشق الأنفس ـ حسب وصف صحيفة الغارديان البريطانية ـ إلى صور ثلاثية الأبعاد في نموذج يهدف لقياس عدد المجرات في أوقات مختلفة في تاريـــخ الكون، وتمكن هذا التحليل من الوصول إلى أكثر من ١٣ مليار سنة ماضية في فترة قريبة جدًا من الوقت الذي حدث فيه الانفجار الكبير، الذي يعتقد أنه بداية نشـــأة هـــذا الكون، وتوصل

العلماء إلى أنه عندما كان الكون يبلغ من العمر بضعة مليارات من السنين، كان هناك عشرة أضعاف عدد المجرات في حجم معين من الفضاء مقارنة بعدد المجرات الموجودة حاليًا في نفس الحجم، وهذا بدوره يشير إلى أنّ تطورًا كبيرًا حدث ليتسبب في خفض عدد المجرات من خلال عمليات دمج واسعة.

هذا؛ وقد أخذت تتنامى الأرقام في تقدير سعة هذا الكون منذ اكتشاف الرقم المذكور في **الموسوعة الكونية الكبرى** الذي كان ١٣ مليار سنة ضوئية ووصل أخيرًا بعد تناميه المطرد إلى ١٨٠ مليار سنة ضوئية[١].

والسنة الضوئية تقدر بـ (٩,٤٦١) تريليون كيلومتر أو (٥,٨٧٨) تريليون ميل، فالضوء في الثانية الواحدة يقطع مائة وستة وثمانين ألف ميل وثلاثمائة ميل، أي ما يعادل ثلاثمائة ألف كيلومتر، وهذا يعني أنّ المسافة بين الشمس والأرض ـ وهي ثلاثة وتسعون مليون ميل ـ يقطعها الضوء في سبع دقائق، وأما بين القمر والأرض فتكفي ثانية ونصف لقطعها بسرعة الضوء، وبإمكان الضوء أن يدور بقطر الكرة الأرضية في المناطق الاستوائية سبع مرات في الثانية الواحدة.

وهذا يعني أنّ اكتشاف أرجاء الكون لم يتوقف عند حد معين، فلا يزال علماء البشر في كل حين من الدهر يصلون إلى حقائق لم يصلوا إليها من قبل، وقد نصت الآيات القرآنية على أنّ السماوات سبع، والسماء كل ما علا، فقد نص اللغويون على أنّ «السماء سقف كل شيء»[٢]، وعليه فإنّ ما أحاط

---

(١) ينظر؛ مقال بعنوان (Universe Might be Bigger and Older than Expected) لـ (Ker Than): https://www.space.com/2707-universe-bigger-older-expected.html.

(٢) الخليل بن أحمد: **العين**، باب السين والميم و(واي) معهما، ٣١٩/٧، وينظر؛ الأزهري: **تهذيب اللغة**، باب السين والميم، مادة (سما)، ١١٧/١٣، وابن منظور: **لسان العرب**، مادة (سما)، ٢٦٦/٧.

بالأرض يعد سماء بدءًا من الغلاف الهوائي إلى ما لا يعلمه إلا الله من الفضاء الهائل، الذي يشتمل على المجرات الواسعة، وما وراء ذلك مما لم يصل إليه علم البشر وقد أحاط الله به علمًا.

وإذا كانت السماوات التي أخبرنا الله بها سبعًا، فهل هذه المجرات بأجرامها متوزعة على السماوات السبع، أو أنها جميعًا في السماء الأولى؟ ليس لدينا ما يمكن أن نستند إليه حتى نصل إلى حد اليقين في ذلك، فالآيات القرآنية لم تكشف ذلك بنصوص قاطعة، والاكتشافات العلمية ترتد دون ذلك خاسئة حسيرة، وإنما يمكننا أن نستظهر مما جاء في القرآن الكريم أنّ هذه الأجرام المضيئة كلها في السماء الدنيا، وهذا يعني فوقها سماوات لا نعلم وضعها، ولا ندرك طبيعتها وإنما نكل ذلك إلى علم الله تعالى، والذي يستند إليه من القرآن في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، فقد تدل الآيتان على أنّ هذه الأجرام التي تبعث الأضواء تعود جميعًا إلى السماء الدنيا، ويؤكد ذلك ويعززه ما تقدم ذكره عن الباحثين من أن الجانب المضيء من السماء لا يتعدى ٥٪ وأن الجوانب المظلمة هي ٩٥٪[1]، فلعل الجانب المضيء كله غير خارج عن السماء الدنيا كما يفهم من الآيتين المذكورتين آنفًا، والجانب المظلم هو من ورائها، غير أنه يحتمل أن تكون المجرات متوزعة بين السماوات السبع، لأنها عُبر عنها بـ«الطرئق» في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وهي جمع «طريقة»، فهي توحي بأن السماوات جميعا هي أفلاك تجري فيها الأجرام الفلكية والعلم عند الله.

---

(١) علاء الدين السيد: الكون المنظور أكبر مما نتوقع بـ ٢٠ ضعفًا.. أرقام مذهلة لا يمكن تخيلها، ينظر: https://www.sasapost.com/two-trillion-galaxies/.

وبعد هذا الاستطراد في بيان سعة هذا الكون وعظمته، وما يشتمل عليه من الأجرام الهائلة حسبما توصل إليه الباحثون نعود إلى بيت القصيد، وهو دلالته على الله ﷻ، فقد علمت أنّ كل الدلائل شاهدة على استحالة أن يكون هذا الكون أزليًا، كما أنها شاهدة على استحالة أنه وجد تلقائيًا من غير أن تتدخل قدرة أحد في خلقه وتدبيره، فكل ذرة في هذا الكون الواسع فيها من آيات الله تعالى ما لو شرح لملأ مكتبات واسعة، فما بالك بما زاد على هذه الذرة من العناصر والمركبات، بل ما بالك بهذا العالم الواسع الأرجاء المترامي الأطراف، هل يمكن بحال أن يكون أوجد نفسه بنفسه؛ فأخرج ذراته الهائلة وعناصرها ومركباتها وجميع هذه الأجرام المدهشة التي تكونت منها من العدم؟! وكيف يتصور أن يكون للمعدوم تأثير حتى يقوى على إخراج نفسه من العدم إلى الوجود.

على أنّ الذرة وحدها تحير الألباب وتدهش العقول، في ترتيبها المحير، وطبيعتها المعجبة، وإذا كانت الذرة وحدها فيها من آيات الله تعالى ما يذهب بكل لب، ويحير كل عقل، فما بالك بما زاد عليها؟ بل ما بالك بهذا الكون الواسع الذي يعد جميعًا وحدة متكاملة في تناسق مكوناته وانتظام محتوياته وتعادل أرجائه، وتجاوب بعضه مع بعض، بحيث لا يوجد بينه مع ترامي أنحائه السحيقة أي نشاز أو اضطراب، فهو جميعًا بمثابة الجسم الواحد في وحدة أجزائه وانتظامها ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فهل يمكن أن يصدّق ذو عقل أنّ وجوده كان عشوائيًا من غير أن يحكم إعداده، ويتقن تصميمه ممن وسع كل شيء علمًا، وأحاطت قدرته بكل شيء؟!.

وإذا كان كل أحد من الناس لو قيل له بأنّ غرفة ضيقة وجدت تلقائيًا من غير أن يصممها أحد ومن غير أن يتولى أحد تنفيذ تصميمها بجمع مواد بنائها وتركيبها، لبح صوته بما يصدر عنه من استنكار لذلك وتكذيب لقائله وتسفيه لأحلامه وتضليل لتصوره وفكره، فكيف مع ذلك يصدق أن يكون هذا الكون

الهائل بمجراته العظمى وأجرامه الكبرى تكـون تلقائيًا مع عدم وجود حتى المادة الذي تركب منها من قبل؟! أولا يكون مـن يزعم ذلك من الناس هو أولى بالتسفيه والتضليل واستنكار مقالته وتكذيبها.

وإذا كان الكون بسعته وعظمته آية عظمى لا يمكن أن تتصورها الألباب أو تتخيلها الأوهـام لو لم يكن حقيقة واقعة، فإنه مـن حيث نظامه المدهش ليس بأقل عجبًا، فإنّ إعداده بهذه الكيفية التي تضمن له السلامة والانسجام والاستمرار إلى انتهاء أجله؛ هو أيضًا مما يستدعي الوقوف معه طويلًا لإمعان النظر في حكمة الله تعالـى البالغة وعلمه المحيط بكل شـيء، ولطفه الذي لا يدرك كنهه حتى لا يملك من تأمل ذلك إلا أن ينسـجم مع أولي الألباب القائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وإذا كان خلق هذا الكون عجبًا كله يشـهد بعظمة خالقـه؛ فإنّ آياته في تصريفـه وتدبيره لا تقل عن خلقه فـي الدلالة على عظمـة الخالق العظيم، المصرف لهذا الوجود كله، فقد وسـع هذا الكون كله حكمـة وعلمًا وقدرة ولطفًا في تصريفـه وتدبيره، يتجلى ذلك في انتظـام جميع أجزاء الكون في حركاتها وتناسقها، فهل تستسـيغ نهية أحد أن يكون الكون هو الذي يصرف نفسه بنفسه؟ لو لم يكن مصرفًا من قبل خالقه، ناهيك أنّ هذه الأجرام الفلكية مع كثرتها الكاثرة التي تخرج عن أرقام الحساب لا يند منها شيء فيخرج عن موضعه، أو يتعدى خط سـيره المقـدر له في فلكه، أو يتجـاوز أي حد من حدوده، بل هو منضبط أشـد الانضباط، ولذلك بقي الكون في سـلامة من تصادم الأجرام الفلكية، ولو وقع تصادم بين جرمين منها لوقعت كارثة تفوق جميع الكوارث في آثارها الناجمة عن هذا الصدام.

ونحن نرى في عالم البشر أن أناسًا أولي عقول وروية يقودون المركبات بعد تدرب ومهارة في قيادتهـا، ومع ذلك تتصادم مركباتهـم التي يقودونها

تصادمًا كثيرًا ما يودي بحياتهم وحياة أعداد لا تحصى من ركابها، أو المشاة في طرقها، فكيف لـم تغنهم عقولهم شـيئًا، ولم تفهم هـذه الأخطار، ولم تجنبهم عواقبها؟! فكيف يصـدق مع ذلك أن تكون هـذه الأجرام العظمى ـ وهي من جنس الجماد الذي لا يبصر ولا يسمع ولا يعي ولا يدرك ـ تجنب نفسها بنفسها هذا الصدام وعواقبه المرة؟!.

وكم درس الخبراء الماهرون أسـباب السلامة ووسـائل توقي الأخطار، فأعدت الآلات إعدادًا فائقًا من حيث حسـن الابتكار من هذه الناحية، ولكن مع ذلك يأتي القدر ليخيب آمالهم ويدمـر خططهم؛ فيقع المحذور الذي لم يدر لهم على بال، كالذي وقع في الثالث / الرابع من فبراير ٢٠٠٨م من صدام بين غواصتين نوويتين بريطانية «hms فانغارد» وفرنسية «لوتربونفان» بأعماق المحيط الأطلسي مع أنّ كل غواصة منهما مجهزة بطاقم من الخبراء فضلًا عن تجهيزهما بما يؤمنهما من كل خطر يتصـوره العقل أو يخطر في الوهم حتى ظنوا أنّ احتمال التصادم بينهما لا يساوي إلا واحدًا في المليون (٠,٠٠٠٠٠١).

ولا تسأل عن أحداث المركبات الجوية المروعة التي توافينا باستمرار مما يتناقل من الأخبـار، ولكن مع ذلك كله يظل النظـام الكوني الذي أبدعه الله تعالى ورعاه بعيدًا عن أي حدث مما يشبه هذه الأحداث، لأن الله العليم بكل شـيء المحيط بكل أمر وراء ذلك كله، وقد امتنّ بهذا على العباد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، ويقـول تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

ومعنى ذلك أنّ الله تعالى حفظ الأرض بإمساكه الأجرام السماوية أن يقع شيء منها عليها، وإلا لسـحقتها وتناثرت ذراتها هباء منبثًا، وعندما يأذن الله سـبحانه بانحلال نظام هذا الكون وفنائه تتهاوى أجرامـه فيقع بعضها على

بعض، ويصيب الأرض من ذلك ما يدكها دكًا دكًا، ويومئذ يزول كل شيء عن موقعه، ويخرج عن خط سيره، فيعجز كل من في الكون عن إمساك شيء من ذلك ومنعه من الاصطدام بغيره، وهذا ما وعد الله ﷻ به وذكر به عباده في العديد من الآيات، كقوله سبحانه: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٢]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٥]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

وما أروع وأبلغ ما قاله د. ماهر أحمد الصوفي فيما أردفه من البيان بعد ذكر قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، حيث قال: «هنا تعبير من إله قادر عليم بما في السماء، وعليم أنّ احتمال ارتطام أي نجم أو كوكب أو نيزك أو قمر أو شهاب بالأرض وارد، والمراد بـ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي يمسك أحد نجومها أو كواكبها أو أقمارها، لأنه فيما لو ارتطم أحدها بالأرض لانتهت الحياة على الأرض، وعندئذ لا داعي لنجم آخر أو كوكب آخر أن يرتطم بالأرض لأن الحياة على الأرض تكون قد انتهت، فالمقصود إذا في الآية الكريمة ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ شيء من السماء أن يقع على الأرض، وهذا ليس مستحيلًا، فالذي وضع قانون الجاذبية التي تضع النجوم والكواكب في مداراتها ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ولا تسبق الشمس القمر، ولا القمر الشمس ولا الأرض، ولكن إذا أراد وأذن لحدث فالذي وضع قانون الجاذبية يرفعه ويلغيه، فيصطدم ما شاء بما شاء، ولكنه ﷻ طمأننا وقال: ﴿وَيُمْسِكُ﴾، والأمر عند الله ﷻ سهل وهين، فهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويكفي أن يلغي جاذبية القمر من هذه السماء، فيتقدم نحو الأرض، ثم تجذبه الأرض إليه بقوة جاذبيتها، وينتهي كل شيء.

ولقد ختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وفعلًا جاء ختام الآية من الله العليم، فلولا أنّ الله ﷻ بالناس رءوف رحيم لجعل السماء تسقط على الأرض، ولأنهى الحياة على الأرض، ولكنه بالناس رءوف رحيم، فلو يؤاخذهم بما كسبوا لفعل، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، ويقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]»[1].

هذا؛ وإنّ من آيات الله تعالى العظمى في نظام هذا الكون أن جعل الأجرام الفلكية كلا منها مقدرًا تقديرًا في أحجامها وأوزانها وطاقاتها وسيرها لتتعادل في نظامها، وليكون تأثير جاذبيتها محدودًا بحدود مقدرة تقديرًا، وإلا لأدى أي خلل فيها إلى كارثة لا يعلم غير الله مداها وقد بيّن الله ذلك في آياته المحكمات كما في قوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

على أنّ هذا التقدير ليس محصورًا في هذه الأجرام ومقاييسها وطبائعها وحركاتها، وإنما هو يشمل ما دق وما جل، فيشمل كل ذرة وما في تضاعيفها من نواة وما يحيط بها، ويمتد ذلك حتى يشمل الكون كله في توسعه وتمدده، فإنّ كل ذلك مقدر تقديرًا، وقد ذكر في ذلك صاحب الموسوعة الكونية الكبرى ما قاله العديد من الباحثين، ونحن نورد من كلامه ما يعنينا في بحثنا هذا، ومن ذلك ما حكاه عن العالم البريطاني المعروف بول ديفز أنه قال: «لقد دلّت الحسابات أنّ سرعة توسع الكون تسير في مجال حرج للغاية، فلو توسع الكون بشكل أبطأ بقليل جدًا عن السرعة الحالية لتوجه إلى الانهيار

---

(١) الصوفي: الموسوعة الكونية الكبرى، آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة، ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧.

الداخلي بسبب قوة الجاذبية، ولو كانت هذه السرعة أكثر بقليل عن السرعة الحالية لتأثرت مادة الكون، وتشتت الكون، ولو كانت سرعة الانفجار تختلف عن السرعة الحالية بمقدار جزء من مليار مليار جزء لكان هذا كافيًا للإخلال بالتوازن الضروري، لذا فالانفجار الكبير ليس انفجارًا اعتياديًا، بل عملية محسوبة جيدًا من جميع الأوجه، وعملية منظمة جدًا».

ثم يتبع ذلك قوله: «وماذا نستنتج من كل هذه الشواهد والمعلومات العلمية؟.

يشرح بول ديفز النتيجة الحتمية لهذه الدلائل التي لا تقبل النقاش فيقول: (من الصعب جدًا إنكار أنّ قوة عاقلة ومدركة قامت بإنشاء هذا الكون المستندة إلى حسابات حساسة جدًا، إنّ التغييرات الرقمية الحساسة جدًا الموجودة في أسس الموازنات في الكون دليل قوي جدًا على وجود تصميم على نطاق الكون).

أما العالم الفيزيائي المشهور ستيفن هوفكن فهو يتناول في كتابه **التاريخ المختصر للزمن** الدقة المذهلة الموجودة لسرعة توسع الكون في الثانية الأولى الحرجة من الانفجار الكبير، فيقول: (إنّ سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدًا إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من الانفجار أقل من جزء واحد من مليون × مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي).

إذا هذا هو مبلغ الدقة المذهلة في تنظيم هذا الانفجار الكبير في تصميم سرعته.

والنتيجة الحتمية التي يصل إليها عالم الفلك الأمريكي **جورج كرنشتاين** في كتابه **الكون التكافلي** هي: (كلما دققنا الأدلة واجهتنا على الدوام الحقيقة نفسها، وهو أنّ هناك قوة عاقلة فوق الطبيعة تدخلت في نشوء الكون)»[1].

---

(١) المرجع السابق، ١٣٨/٢ ـ ١٣٩.

وأنت تعلم أنّ الأمر ليس مجرد تدخل، وإنما هو تقدير وتنفيذ من عليم حكيم قادر عزيز، خلق السماوات والأرض بقدرته، ودبرهما بحكمته، ولا تخرج ذرة من الكون عن إرادته، ولا تفوت علمه الواسع، أو قدرته المحيطة بكل شيء.

وحسب اللبيب من آيات الله تعالى التي تنتظم هذا الكون كله من أقل دقائقه إلى أوسع جلائله، ذلك النظام الذي جعله الله ﷻ سببًا لحفظه هذه المنظومة الكونية بأسرها، وهو نظام الجاذبية الذي يبدأ من أدق الجزيئات وينتهي إلى أوسع المجرات ـ حسبما وصل إليه علمنا ـ فإنّه نظام مدهش حقًا، وما هو إلا مظهر من مظاهر قوة الله ﷻ التي تسيطر على كل ما في الوجود، وكم فيما صرح به علماء الكون من اعتراف بعجزهم عن اكتناه سر هذه الظاهرة المدهشة، كما في تعبير د. مارتن ريس أستاذ علوم الفيزياء وفلكي المملكة البريطانية، حيث قال: «لو كان بإمكاننا التحاور مع كائنات ذكية على كوكب آخر، لكان من الطبيعي أن نبدأ بالحديث عن الجاذبية، تلك القوة التي تمسك بالكواكب في مداراتها، وتحافظ على تماسك النجوم، أما على المستوى الأبعد فإنّ مجرات كاملة ـ حشد من مليارات النجوم ـ محكومة بالجاذبية، وما من مادة ولا جزيء يفلت من قبضة الجاذبية، ولا حتى الضوء نفسه، إنها تتحكم في تمدد الكون بأكمله، وربما أيضًا في مصيره النهائي.

لا تزال الجاذبية تمثل لغزًا عميقًا، وهي أكثر إرباكًا[1] من كل القوى الأساسية الأخرى في الطبيعة، ولكنها أول قوة توصف بطريقة رياضية، أخبرنا السير إسحاق نيوتن في القرن السابع عشر أن التجاذب بين أي شيئين يتبع

---

(١) جرى المعربون وفق ما هو شائع على ألسنة الناس اليوم من استعمال لفظة إرباك بدلاً من زَبْك، وإلا فإنّ الفصيح من كلام العرب أن يقال ربكته أزْبُكه ربكا فارتبك، وقد أبقيت اللفظة كما جاءت في التعريب.

(قانون التربيع العكسي Inverse Square Law) حيث تضعف القوة بمقدار يتناسب مع مربع المسافة بين الكتلتين، فلو أبعدت شيئين عن بعضهما ضعف المسافة سيقل التجاذب بينهما بمقدار أربع مرات.

أدرك نيوتن أنّ القوة التي تجعل التفاح يسقط، وتتحكم في مسار قذيفة المدفع هي التي تمسك القمر في مداره حول الأرض، وأثبت أنّ قانونه يفسر المدارات البيضاوية التي تدور فيها الكواكب، إنه مثال قوي على قدرة الرياضيات على التنبؤ بـ (انتظام الساعة) في العالم الطبيعي»[1].

وليست الجاذبية ـ مع أهميتها الكبرى في تماسك الذرات فما فوقها إلى الأجرام الهائلة والمجرات الواسعة ـ هي الطاقة الأقوى المؤثرة في الطبيعة، فهناك من القوى المؤثرة ما يفوق قوة الجاذبية بأضعاف مضاعفة، وإنما جاءت أهمية الجاذبية بما لها من خاصية في الجذب، وقد عرج على هذا د. مارتن ريس في قوله: «على الرغم من أهمية الجاذبية بالنسبة لنا ولغلافنا الحيوي ولكوننا فإنّ الجاذبية في الحقيقة ضعيفة لدرجة مذهلة بالمقارنة مع القوى الأخرى التي تؤثر على الذرات، إنّ شحنات الكهربية ذات (الإشارات) المتضادة تجذب بعضها بعضًا، فذرة الهيدروجين تتكون من بروتين ذي شحنة موجبة وإلكترون واحد (سالب) محبوس في مدار حول البروتون، وطبقًا لقوانين نيوتن فإنّ أي بروتونين سيشدان بعضهما بالجاذبية، وفي نفس الوقت سيبذل كل واحد منهما قوة تنافر كهربي على الآخر، وتعتمد هاتان القوتان على المسافة بنفس الطريقة ـ كلاهما يتبعان قانون التربيع العكسي ـ وهكذا تقاس قوتهما النسبية برقم مهم هو (N) وهو ثابت

---

(١) د. مارتن ريس: فقط ستة أرقام (القوى العظمى التي تشكل الكون)، ص٤٣، ترجمة: جنات جمال ـ مهند التومي وآخرين، تقديم: د. محمد العوضي، رواسخ ـ الكويت، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

مهما كانت المسافة بين البروتونين، عندما ترتبط ذرتا هيدروجينين معًا في جزيء ما، يلاشي الإلكترونان القوة الكهربية بين البروتونين، والجاذبية بين البروتونين أضعف بستة وثلاثين أسًا للرقم عشرة من القوى الكهربية بينهما، وهي ـ الجاذبية ـ صعبة القياس، لذا يستطيع الكيميائيون في دراستهم لكيفية ارتباط مجموعات الذرات ببعضها ـ لتشكل الجزيئات ـ أن يتجاهلوا الجاذبية وهم مطمئنون.

كيف إذًا للجاذبية أن تكون ـ برغم هذا ـ سائدة وتثبتنا على الأرض، وتمسك القمر والكواكب في مساراتها؟ هذا؛ لأن الجاذبية تعمل دومًا على الجذب، فلو ضاعفت الكتلة ستضاعف الشد التجاذبي الذي ينتج عنها، أما الشحنات الكهربية فيمكنها أن تتنافر مع بعضها مثل ما تتجاذب، وقد تكون موجبة أو سالبة، لن تبذل شحنتان ضعف القوة التي تبذلها شحنة واحدة إلا إذا كان لهما نفس (الإشارة) لكن الأشياء في حياتنا اليومية تتكون من أعداد هائلة من الذرات التي تتكون من نواة موجبة الشحنة، محاطة بالإلكترونات السالبة، حيث تلاشي الشحنات الموجبة والسالبة بعضها بعضًا بالضبط تقريبًا، حتى عندما نُشْحَنَ ـ الصعق بالكهرباء ـ لدرجة أن ينتصب شعرنا يكون انعدام التوازن بمقدار أقل من شحنة واحدة على مليار مليار شحنة، لكن كل الأشياء لها نفس إشارة (الشحنة التجاذبية) وهكذا (تزداد) الجاذبية ـ مقارنة بالقوى الكهربية ـ في الأشياء الكبيرة يختل توازن القوى الكهربية قليلا فقط عندما يضغط الجسم الصلب أو يتمدد، ولا تسقط التفاحة إلا عندما يتغلب مجموع الجاذبية لكل ذرات كوكب الأرض على الضغوط الكهربية الموجودة في السويقة الصغيرة التي تثبتها على الشجرة، الجاذبية مهمة لنا لأننا نعيش على الأرض الثقيلة»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٦ ـ ٤٧.

على أنّ تأثر الكون بعدم التوازن الدقيق بين مكوناته لا يقف عند حدود ذراته فما فوق فحسب، بل هو مما يقع لو حصل الخلل ولو في الدقائق التي اشـــتملت عليها أدنى ذرة من الذرات، كما أوضح ذلـــك د. هيثم طلعت في مناظرته للملحد سمير سامي التي جاء فيها: «فالكون منذ اللحظة الأولى معد بعناية فائقة؛ فمثلًا: إذا كانت نسبة الكتلة بين البروتون والإلكترون أقل قليلًا مما هي عليه لما اســـتقرت الشـــمس، ولما ظهرت الحياة، ولـــو كانت كتلة البروتون أثقل مما هي عليه الآن بـ ٠,٢٪ فقط، فإنه سينحل إلى نيوترونات، وبالتالي سيعجز عن الإمساك بالإلكترونات التي تدور حول النواة، وسينهار النموذج الذري، ولو كانت النسبة بين كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون أقل قليلًا مما هي عليه الآن، فلن تظهر نجوم مستقرة، ولو كانت أعلى قليلًا مما هي عليه الآن، فلن تظهر الأنظمة التشفيرية في خلايا الكائنات الحية.

وعندما تلتحم ذرتان مـــن الهيدروجين فإنّ ٠,٧٪ مـــن كتلة الهيدروجين تتحول إلى طاقة، لو كانت هذه الكتلة هي ٠,٦٪ بدلًا من ٠,٧٪ فإنّ البروتون لن يلتحم بالنيوترون، ولظل الكون مجرد هيدروجين فحســـب، ولما ظهرت باقي العناصر، ولو كانت الكتلـــة المتحولة إلى طاقة هي ٠,٨٪ بدلًا من ٠,٧٪ لأصبح الالتحام ســـريعًا للغاية، الأمر الذي ســـيؤدي إلى اختفاء الهيدروجين فورًا من الكون، فتستحيل معه الحياة، فالرقم يلزم أن يكون بين ٠,٦٪ و ٠,٨٪.

هـــذه الثوابت الفيزيائية بـــالآلاف، وكل ثابت منها يمثل معجـــزة بحد ذاته، وأروع هـــذه الثوابت هـــو الثابـــت الكونـــي (Cosmological constant) الذي لو اختلفت قيمته بأقل من جزء من صفر يليه ١٢٣ صفر ثم ١ من الواحد لانهار الكون بأكمله، وغيرها من الثوابت الشيء الكثير مثل نســـبة القوى الجاذبية إلى القوى النووية القوية، ومثل درجة غليان الماء، ومثل كتلة البروتون، ومثل حجم النواة، ومثل حجم الذرة و...، إنها معايرة دقيقة وضبط بعناية، وإلا ما ظهر الكون.

إذن الخلق لا بد أن يستتبعه إعداد بعناية (fine tuning of the universe) وهذه الكلمة (fine tuning of the universe) دخلت إلى الفيزياء عن طريق الفيزياء، وليس عن طريق الدين»[1].

كل هذه الحقائق المبثوثة في أرجاء هذا الكون الواسع ـ فيما دق منه أو جل ـ هي دليل على أنّ كل شيء محكم إحكامًا، يسمو فوق جميع مدارك العقل وأبعاد التخيل، ولم يكن هذا الإحكام البالغ إلا أثرًا لحكمة حكيم، وسع علمه كل شيء، وأحاطت قدرته بكل ما دق وجل، فأنت ترى أنّ هذه القوى المتزاحمة في تنظيم شأن الكون هي في حالتي انسجامها وتنافرها لا تؤدي إلا إلى انضباط كل شيء بحسب سننه، وقد جعل الله تعالى كل شيء منها بمقدار محدد لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

ولا يخفى على عاقل أنّ إنكار ضوء الشمس في رابعة النهار من غير أن يحجبه قتر أو سحاب هو أهون من دعوى أنّ الطبيعة وحدها هي التي رتبت هذه الدقائق في دقائق الكون حتى شمل النظام الرتيب دقائقه وجلائله فَعَمّه الانسجام من أدنى ما يتصور في تركيبه ونظامه إلى أوسع شيء فيه، فأنى يمكن لهذا النظام الدقيق الذي لو كانت وحدات الكون جميعًا ـ وأضعاف أضعافها بأرقام خيالية ـ صحائف لما وسعت شرح هذه المعجزات الهائلة، أن يكون ذلك كله حصل تلقائيًا، من غير أن يكون وراءه خبير قدير وسع كل شيء قدرة، وأحاط بكل شيء علمًا ودقت حكمته في كل شيء؟!.

وإذا كانت هذه هي آيات الله العظيمة في مجمل الكون وما اشتمل عليه، فإنّ النظر إلى كل جرم من أجرامه وما اشتمل عليه خلقه من عجيب الإتقان

---

(١) د. هيثم طلعت: مناظرة الملحدين، ص ١٨ ـ ١٩.

وبديع الإحكام يحير الألباب أيما حيرة، ولكن أنى يتسع لأحد أن يدرس وضع كل جرم من هذه الأجرام، وإنما حسبنا أن ننظر إلى ما لنا صلة مباشرة به، فنبدأ بالأرض ثم المجموعة الشمسية، ونتوسع بعد ذلك بقدر الإمكان ونلخص ذلك في ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: في الأرض

إنّ الأرض لجديرة أن تكون هي أول ما نمعن فيه أنظارنا، ونسخر في اكتشاف أسراره عقولنا، فقد جعلها الله لنا قرارًا، وهي منبتنا قبل ذلك ومستودعنا بعد ذلك إلى أن يقوم الحساب، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، وقد جعلها الله لنا فراشًا وفيرًا، نتمتع فيه بالراحة والاستقرار، وقد امتنّ الله تعالى علينا بذلك وأمرنا أن نمعن التدبر في خلقها، وفيما جهزت به من أسباب الراحة ودواعي الاستقرار، وقرن ذلك بامتنانه علينا بخلقنا وخلق أصولنا، وما أسبغ علينا من النعم، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، ودعانا إلى الاعتبار بخلقها، والتدبر في آياتها كما في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وحقًا إنها آيات تستدعي الوقوف عندها طويلًا، وحسن الاعتبار بها، حسبنا أنها اتسعت لهذه الأعداد الهائلة من سكانها سواء في ذلك البشر أو غيرهم من أنواع الكائنات، التي منّ الله عليها بالحياة، وأعد فيها رزق كل ما خلق عليها، فالناس والدواب والطير كل منها يتمتع فيها بما آتاه الله من رزق، وما هيأ له من أسباب الطمأنينة والاستقرار النفسي والبدني، وهي يتدفق باستمرار خيرها على جميع سكانها، فكل منهم يأتيه فيها رزقه رغدًا

بكرة وعشيًا، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

ومع هذه الأعداد الهائلة من سكان الأرض لا تنفد مواردها، ولا تنقطع أرزاقها سواء مما ينبت عليها، أو يخرج من أعماقها، أو ينسكب عليها من أعلاها، وكل ذلك مقدر تقديرًا ممن يعلم السر في السماوات والأرض، والإنسان يرتع في جنباتها ويقطع مسافاتها جيئة وذهابًا في أنحائها، وهو غير مفكر في أحوالها، ولا لاوٍ على شيء من عبرها، فهو في غالب حاله مشغول بما يتمتع به من خيرها الدفاق، وراحتها الهانئة، مع أنّ كل شيء من ذلك لو لم تتوفر أسبابه لكان أبعد من مناط الثريا، فلو أنه فكر في ذلك وتدبر لامتلأ قلبه خشوعًا وارتجف جسمه خضوعًا لمن خلقها، وأعدها إعدادًا تامًا لأن تسع من عليها وما عليها سكينة وراحة ورزقًا هانئًا.

وهذا؛ يعود إلى أسباب شتى لو لم يهيئها الله تعالى بتقدير محكم لم تكن لتتوفر فيها، وقد جعل الله تعالى كل ما طبعت عليه الأرض يتلاءم مع هذه الغاية التي خلقت من أجلها، سواء ما يعود إليها بنفسها أو ما تشترك فيه مع سائر المجموعة الشمسية التي تنتسب إليها، فحجم الأرض مقدر تقديرًا بما يلائم طبيعة الحياة عليها، إذ لو كانت أقل من حجمها المعهود أو أكثر منه لاستحالت الحياة عليها، فلو تضاءلت حتى تعود في حجم القمر، وذلك بأن يكون قطرها ربع قطرها المعهود لانخفضت جاذبيتها إلى سدس ما هي عليه الآن، وتعذر بسبب ذلك أن تمسك الماء أو الهواء من حولها، كما هو الشأن في القمر، إذ لا يوجد فيه ماء ولا يجلله غلاف هوائي، لضعف قوة جاذبيته.

وانخفاض جاذبية الأرض إلى مستوى جاذبية القمر يترتب عليه أن تشتد برودتها بالليل حتى يتجمد كل ما فيها، وحرارتها بالنهار حتى يحترق كل ما عليها، أما عكس ذلك، وهو ازدياد قطرها إلى ضعف ما هو عليه؛ فإنه

يترتب عليه تضاعف جاذبيتها الحالية فينكمش بذلك غلافها الجوي الذي يحيط بها من جميع جوانبها على بعد ٥٠٠ ميل، فيقل عن هذا المقدار ويترتب عليه أن يتضاعف الضغط الجوي عليها حتى تحمل كل بوصة مربعة ٣٠ رطلًا من الضغط الجوي، بدلًا من ١٥ رطلًا كما هو حالها الآن.

ولو زاد حجمها حتى تكون كالشمس مثلًا لتضاعفت جاذبيتها إلى ١٥٠ مرة! وأدى ذلك إلى اقتراب غلافها الهوائي حتى يصير على بعد ٤ أميال فقط بدلًا من ٥٠٠ ميل، وازداد الضغط الجوي حتى تحمل كل بوصة مربعة منه ما يعادل طنًا واحدًا بدلًا من ١٥ رطلًا، وذلك مما يؤدي إلى استحالة نشأة الأجسام الحية، وهو يؤدي من الناحية النظرية إلى أن يصير وزن الحيوان ـ الذي يزن رطلًا واحدًا تحت الكثافة الهوائية الحالية ـ ٥٠٠ رطل، ويتحول حجم الإنسان من قدره المعهود إلى أن يكون في حجم فأر كبير! وترتب عليه أن يستحيل وجود العقل في الإنسان، إذ لا بد للعقل من أنسجة عصبية كثيرة في الجسم، وهو مما يتعذر إن لم يكن الإنسان في حجمه المعهود المقدر له.

والأرض كسائر الأجرام الفلكية هي سابحة في هذا الفضاء مع ما يسبح فيه من تلكم الأجرام، ويقدر دورانها بسرعة مقدارها ألف ميل في الساعة، وذلك يجعل وضعنا عليها أشبه بحصاة التصقت بمحيط عجلة تدور بسرعة لا تلبث أن تقذف بها في الفضاء، فما الذي جعل الأرض تمسك ما عليها فلا تتقاذف الأجسام المستقرة فيها منها إلى الفضاء من حولها؟.

إنّ حكمة الله تعالى هي التي اقتضت ذلك، بتأثير الجاذبية التي قدرت فيها تقديرًا، ولا يعني ذلك أنها تمسك البشر والحيوان وأنواع النبات والجمادات التي هي منفصلة عنها فحسب، ولكنها أيضًا تمسك جميع ذراتها بتأثير هذه الجاذبية كما تمسك ما في الذرات من الجزيئات، وكذلك لضبط الهواء الذي يلف الأرض أثر في هذا الإمساك، وقد سبق أنّ كل بوصة مربعة

من الأرض عليها من الضغط الهوائي ما قدره ١٥ رطلًا، وهذا يعني أنّ الإنسان يحمل من هذا الضغط ما مقداره ٢٢٨٤٠ رطلًا، ولكنه لا يحس بذلك بسبب إحاطة الهواء به من كل جانب، كما أنه لا يحس بثقل الماء فوقه لو أنه نزل في قعر عباب، والهواء بطبيعته المركبة من عناصر معينة وبنسب محددة له فوائد كثيرة لا يمكن حصرها في كتاب[1].

وحسبك من هذه الفوائد أنه يقي الأرض ومن عليها وما عليها ما يتقاذف إليها من الشهب المترامية في هذا الفضاء، فقد جعل الله تعالى هذا السقف الهوائي واقيًا للأرض بصد هذه الشهب التي لولا هذه الوقاية المحكمة من عند الله لأصاب الأرض ومن عليها منها شر مستطير، وكذلك ترتد الأهوية الساخنة التي تنبعث من شتى الأنحاء دون الأرض عندما ترتطم بهذا السقف الأثيري أو تتكيف معه فتتحول إلى طبيعته.

ولو كان هذا الغلاف الهوائي ألطف مما هو عليه لاخترقته النيازك كل يوم ورأيناها مضيئة في جنح الليل، ولسقطت على كل بقعة من الأرض فأحرقتها، وهي في سرعتها تقطع ٤٠ ميلًا في الثانية الواحدة، وبهذه السرعة يمكن أن تأتي على كل ما في الأرض فتحرقه إحراقًا، ويؤدي ذلك إلى أن تتحول الأرض بارتطامها بها إلى غربال، وهذه السرعة تفوق سرعة طلقة البندقية ٩٠ مرة، فكيف وهي مع ذلك تلتهب التهابا، ويقي أيضًا هذا الغلاف من الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية، فإنه يمتنع عليها أن تخترقه إلا بالقدر الذي يكفي لحياة النبات وإيجاد الفيتامينات والقضاء على الجراثيم الضارة، ونحو ذلك من المنافع.

---

(١) ينظر: وحيد الدين خان: **الإسلام يتحدى** (مدخل علمي إلى الإيمان)، ص ٦٥ ـ ٦٦، تعريب: د. ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط: ١٤٠١هـ/١٩٨١م، والصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**، ٤٩٢/٢ ـ ٤٩٤.

وكما سبق فإنّ هذا الغلاف الهوائي مركب من العديد من العناصر بنسب محدودة مقدرة تقديرًا، وهي ستة غازات ٧٨٪ من النيتروجين و٢١٪ من الأكسجين وسائر الغازات توجد بنسب قليلة.

وكما سبق فإنّ هذا الهواء يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلًا في البوصة المربعة، ونسبة الأكسجين في هذا الضغط هي ٣ أرطال في كل بوصة مربعة، والمقادير الأخرى للأكسجين الموجود تنجذب إلى الأرض، وهي تمثل ٠,٨ من الماء الموجود على سطح الأرض، وتلك هي الوسيلة الوحيدة لتنفس جميع حيوانات الأرض، ولا طريق إلى ذلك من غير الفضاء.

وهذه الغازات الشديدة الحركة تحتفظ بمقاديرها المتناسبة التي لا بد منها للحياة في الفضاء، ولو كانت نسبة الأكسجين مرتفعة إلى قدر ٥٠٪ فصاعدًا بدلًا من ٢١٪ لازدادت قابلية الاحتراق بما يساوي ارتفاع هذه النسبة، فيكون محتومًا أن تحترق غابة بأسرها في لحظات بسبب احتراق شجرة واحدة منها، ولو أنّ هذه النسبة انخفضت فأصبحت ١٠٪ لكان على مدى القرون ممن الممكن أن تعتاد الحيوانات الحياة مع هذا الانخفاض، ولكن بجانب ذلك يستحيل أن تزدهر الحضارة الإنسانية كما هي عليه في الظروف الحالية، لأن أعضاء الأجسام البشرية على فرض وجودها في هذه الحالة يتعذر أن تواصل عملها حسبما هو المعتاد في هذه الظروف الطبيعية، وذلك يعود إلى استحالة وجود الأنسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة، لأنه كلما قل الأكسجين يقل معه النشاط الجسماني والعقلي.

ولو أنّ الأكسجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأكسجين الذي انجذب قبل ذلك في الأرض لاستحال أن تكون حياة لحيوان على هذه الأرض.

إنّ الأكسجين والهيدروجين وثاني أكسيد الكربون وغازات الكربون الأخرى ـ على اختلافها ـ تتركب معًا فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة

الحيوانية وللأسس التي تقوم عليها الحياة الإنسانية وبناء على ذلك لا يوجد احتمال (١/١٠,٠٠٠٠٠٠) أن تجتمع هذه الغازات في تناسبها المطلوب بجميع خصائصها اللازمة للحياة على كوكب معين بطريق الصدفة، ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة[١]: «إنّ العلم لا يملك أي تفسير للحقائق، والقول أنها حدثت اتفاقًا إنما يعتبر تحديًا وتصادمًا مع الرياضيات»[٢].

كل هذه الحقائق العظيمة والآيات الكبرى المودعة في خلق الأرض يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠]، والإنسان يولد وينشأ ويشب ويترعرع على هذه الأرض يشتار خيراتها، ويتمتع بطيب الحياة فيها، من غير أن يلتفت إلى هذا التسخير الذي سخره الله تعالى له في حياته هذه على الأرض، حتى تمكن من الاستقرار بها، من غير منغصات تكدر هناء عيشه فيها، وهو لا يحس بهذه النعمة جميعًا، بل بلغ به البطر وضلال الفكر أن يجحد الذي خلقها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، ويسر فيها أسباب العيش، ووطأ أكنافها؛ لتكون فراشًا وثيرًا لحياته عليها، وكم في هذه الأرض من آيات تدهش الألباب نمر عليها ونحن في غفلة عنها، وهي حرية بأن نقف معها طويلًا لنمعن فيها النظر، ونستوحي منها العبر، ولنزداد بها إيمانًا ويقينًا بأنّ الله تعالى أحاط علمه بكل شيء، ووسعت حكمته كل تدبير في الخلق.

وبعد ما ذكرته هنا اطلعت على كلام نفيس قاله في هذا د. روبرت جميس غالغي اشتمل على الفوائد المذكورة وعلى مزيد شرح وبيان لها، ولحرصي على إفادة القارئ الكريم رأيت أن أنقله بحذافيره من غير خرم شيء منه، وإليكه بنصه:

---

(١) هو الفيزيائي مورتين وايت (Morton White).

(٢) ينظر؛ وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ص٦٦ ـ ٦٧.

«يقول العلماء أنّ قطر الأرض محسوب بدقة شديدة ليكون مناسبًا للحياة على سطحها، فمثلًا لو كان قطر الأرض أكبر قليلًا لازدادت قوة الجاذبية التي جمعت الغازات الخفيفة مثل الهيدروجين على سطحها، ولاستحالت الحياة عليها، ولو كان قطر الأرض أصغر من طوله الحالي لصغر حجم الأرض، ولنقصت قوى الجاذبية ما يؤدي إلى عدم قدرة الأرض على الاحتفاظ بجزيئات الأكسجين وإلى تبخر المياه الموجودة في الأرض، وكلا الأمرين تستحيل الحياة معه.

نأتي إلى حركة الأرض لنجد أنّ دوران الأرض حول الشمس هو مثال آخر مدهش عن الدقة التي يتمتع بها كل ما يتعلق بكوكبنا من عوامل ومتغيرات، فالمدة التي تلزم كوكب الأرض للدوران حول الشمس مع دوران الأرض أيضًا حول محورها دورة واحدة كل يوم يجعل الحرارة على الأرض في مختلف الفصول ضمن الحدود التي تسمح بالحياة، أما لو أخذنا كوكب الزهرة مثلًا فسنجد أنه يدور حول نفسه مرة كل ٢٤٣ يومًا، وهي المدة نفسها التي يستغرقها للدوران حول الشمس، وهذا معناه أنّ نصف الكوكب يواجه الشمس بشكل دائم، والنصف الآخر لا يواجه الشمس أبدًا، فأحد النصفين حرارته عالية جدًا، والأخر بارد جدًا، فكلاهما لا يصلح للحياة، ولو كانت الأرض تدور بالطريقة نفسها لما أمكن وجود حياة عليها.

ليس هذا فقط بل إنّ موقع النظام الشمسي كله بعيدًا عن مركز مجرتنا درب التبانة هو أمر محسوم ودقيق، إذ لو كانت المجموعة الشمسية أقرب إلى مركز المجرة من وضعها الحالي لتعرضت لتأثير جاذبية ذلك المركز، ولاضطربت مدارات كواكب المجموعة، وتفكك النظام الشمسي كله.

وهناك رقم آخر في غاية الأهمية، وهو سرعة دوران الأرض حول الشمس وهذه السرعة تقارب ١٢٦٠٠٠ كلم في الساعة، وهي السرعة المناسبة تمامًا وبدقة

شديدة لتحفظ الأرض في مدارها حول الشمس، لأنها تحافظ على قوة نابذة تقيد الأرض في مدارها، فلو نقصت هذه السرعة لقلت القوة النابذة ولانجذبت الأرض نحو الشمس، ولأصبحت غير صالحة للحياة، كحال كوكب الزهرة، ولو ازدادت هذه السرعة لازدادت القوة النابذة، ولابتعدت الأرض عن الشمس، ولأصبح كوكبنا المليء بالحياة كوكبًا متجمدًا مثل كوكب بلوتو.

وأمر آخر مثير للدهشة ولن تنتهي دهشتنا من دقة تصميم الأرض، وهي أنّ الأرض هي الكوكب الوحيد في المجموعة الشمسية الذي يميل محور دوارنه حول نفسه بمقدار ٢٣ درجة ونصف الدرجة بالنسبة لمداره حول الشمس، وهذا الميل هو الذي يؤدي إلى وجود الفصول الأربعة على سطح الأرض، وإلى تغير المناخ من فصل لآخر، ولولا ذلك لكان الطقس ثابتًا تقريبًا في كل بقعة من بقاع الأرض، ولاختلف تنوع الحياة وأشكالها على الأرض اختلافًا شديدًا عما هو عليه.

ولعل أكثر ما يميز كوكبنا الجميل عن كل ما يعرفه الفلكيون من كواكب ونجوم هو ذلك الغلاف الجوي الفريد العجيب، الذي لا تقوم الحياة بدونه، والذي بسبب عدم وجوده في الفضاء يضطر رواد الفضاء إلى لباس خاص يضمن لهم ظروفًا مشابهة لما يقدمه الغلاف الجوي، فيستطيعون بذلك التنفس والحياة خارج غلاف الأرض الجوي.

إنّ هذا الغلاف السحري يحتوي على تركيبة خاصة وتوليفة مناسبة محسوبة بغاية الدقة لتقوم الحياة، والعجيب أنّ بعض الغازات التي يحتويها هي غازات مميتة بمفردها، ولكنها مع تلك الخلطة العجيبة تصبح مفيدة بل وضرورية لقيام الحياة.

لا شك أنّ معظم القراء يعرفون التركيبة الأساسية للغلاف الجوي، وأن نحو خُمسَه يتألف من غاز الأكسجين الضروري للحياة الذي لا يستطيع

الإنسان أن يعيش من دونه ولو لدقائق معدودة، ولكن هذا الغاز لو تنفسه الإنسان بنسبة عالية لمدة طويلة فإنّه يتحول إلى غاز سام، من جهة أخرى لو زادت نسبته في الطبيعة عن هذه النسبة المحسوبة فإنّ المواد القابلة للاحتراق ستحترق بسهولة كبيرة وسنرى ألسنة اللهب تلتهم كل ما يمكن احتراقه على الأرض، ولأصبحت الحياة عليها مستحيلة.

ولحسن حظنا فإنّ الأكسجين الموجود في الغلاف الجوي مخفف بما يقارب أربعة أضعاف حجمه من غاز النيتروجين، أي إنّ نحو ٧٨٪ من الهواء الذي نتنفسه هو غاز النيتروجين، وهي النسبة المناسبة تمامًا لنستطيع أن نتنفس ونعيش، ولنمنع احتراق المواد القابلة للاشتعال بشكل غير مسيطر عليه.

وهناك غاز آخر يحتويه الغلاف الجوي بنسبة تعادل ١٪ فقط ولكن لا تقوم الحياة بدونه، وهو غاز ثاني أوكسيد الكربون، (علمًا أنّ استنشاقه وحده يؤدي للاختناق)، فبدون هذه الكمية الضئيلة تموت كل النباتات لأنها تعتمد عليه في عملية التركيب الضوئي، وهاهنا مثال آخر على التناسق العجيب والتناغم المدهش بين عناصر الغلاف الجوي وبين الأحياء على الأرض، ذلك أنّ الحيوانات والإنسان تستهلك غاز الأكسجين وتنتج غاز ثاني أكسيد الكربون، في حين أنّ النباتات بعملية التركيب الضوء تستهلك غاز ثاني أوكسيد الكربون وتطلق الأكسجين مما يحفظ للغلاف الجوي توازنًا محسوبًا بغاية الدقة، وبدون هذا التوازن لم تكن للحياة أن تنشأ على الأرض ولا أن تستمر إلى يومنا هذا.

وهناك دور آخر غاية في الأهمية يقوم به الغلاف الجوي لحفظ الحياة على الأرض، ولا يتعلق هذا الدور بمكوناته فقط، بل بسماكته أيضًا التي تبلغ نحو ٢٤ كلم، فهو يشكل قبة واقية حول كوكب الأرض تحميه من أمرين، الأول هو الأشعة المؤذية التي قد تصله من الشمس، فهو يسمح للأشعة المفيدة بالمرور عبره والوصول إلى الأرض، ويمنع الأشعة المؤذية، والثاني

هو الشهب والنيازك التي تتساقط باستمرار من الفضاء الخارجي ولكنها تحترق لدى احتكاكها بالغلاف الجوي، ولولا حماية الغلاف الجوي لاستقبلت الأرض عبر الزمن ملايين من تلك الشهب والنيازك الكفيلة بأن تجعل الأرض كتلة من الدمار.

بالإضافة إلى كل ما سبق فإنّ الغلاف الجوي يحفظ الحرارة التي تصل إلى الأرض من الشمس، ويمنع تسربها إلى الفضاء الخارجي، كل ما ذكرناه حول الغلاف الجوي هو أمور ضرورية للحياة، لا تقوم بدونها، وهناك أمر آخر لا يتعلق بالحياة بل بجمال الطبيعة، فلولا الغلاف الجوي لما كانت السماء زرقاء ولما شاهد الألوان الساحرة عند الشروق وعند الغروب، ولما شاهدنا في الأفق والسماء إلا اللون الأسود، ويلخص أحد الكتاب الأثر الجمالي للغلاف الجوي بقوله:

(إنّ الغلاف الجوي إنجاز معجز يقوم بدوره المطلوب منه للمحافظة على الحياة والأحياء، يضفي على الأرض والسماء جمالًا في غاية الإبداع، ولا أظن أنّ أحدا يستطيع أن يفكر في أن يقوم بتحسين أو تغيير مظهر السماء، اللهم إلا بنقل الغيوم من مكان لآخر).

نعم؛ قد صدق هذا الكاتب فالغلاف الجوي معجزة عجيبة، يقوم بكل المهمات التي تم تصميمه من أجلها».

ثم يخلص د. روبرت جميس من ذلك إلى قوله: «والآن ما رأيك عزيزي القارئ بكل ما قرأته حول الدقة المدهشة التي نلاحظها في موضع الأرض من النظام الشمسي، وفي المسافة الدقيقة التي تفصلها عن الشمس، وفي السرعة المحسوبة لدورانها وفي الميل الدقيق لمحورها وفي الكمية الدقيقة المضبوطة للأوكسجين في الهواء وكذلك النيتروجين وثاني أوكسيد الكربون، ألا تتعجب بكل هذه الدقة والإتقان؟!.

هل من العقل والمنطق أن نقول إنّ كل ذلك قد حدث بالصدفة البحتة؟! أليس المنطق العلمي يحتم علينا أن نعتقد أنه يوجد خلف هذه الدقة المذهلة قوة خارقة؟! قوة لها من الخبرة والحكمة والمقدرة ما يمكنها من إبداع كل ذلك؟! الحكم لك عزيزي القارئ»اهـ[1].

لا ريب أنّ كل قارئ منصف من نفسه مسرح لعقله غير كابح له بهواه عندما يطلع على هذه الحقائق لا يملك إلا أن يقول، كما قال أولو الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويدرك من أعماق نفسه أنّ هذه كلها آيات بينات قاطعة لدابر الشقاق، ومستأصلة لشأفة الإلحاد والعناد، تفضح كل مكابر، وتنادي على كل جاحد بالسخف والغباء.

فليت شعري؛ كيف يتصور أن يكون هذا الضبط الدقيق بين هذه الجوانب المتعددة والأشياء المتضادة، حتى تلتئم وتنسجم فتؤدي إلى نتيجة واحدة هي استقرار الإنسان وسائر الأحياء على هذا الكوكب المظلم، وإمكان الحياة عليه، وتهيئ الأرزاق فيه، فهل يمكن للطفرات العشوائية وتراكمات الصدف أن تبدع هذا الإبداع؟! كلا؛ وإنما هو انحراف الإنسان الكفار العنيد، لا يقف عند حد عندما يهوي في مهاوي الضلال والعياذ بالله.

وبجانب ما تقدم ذكره فإنّ الله سبحانه حفظ الأرض أن تؤثر عليها الأجرام الفلكية الأخرى التي تفوقها حجمًا، وتفوتها قوة، إذ جعل الله سبحانه المسافة التي تفصل بينها وبينها مقدرة تقديرًا حتى لا تؤثر عليها فتهلكها ومن فيها وما عليها، ومن ذلك المسافة التي بينها وبين الشمس، وهي بمقدار ٩٣ مليون ميل ـ كما سبق ـ وفي هذا يقول د. روبرت جميس: «لنأخذ على سبيل المثال المسافة الوسطية بين الأرض والشمس ماذا لو كانت الأرض أقرب للشمس مما هي عليه؟.

---

(١) روبرت: **خرافة التطور**، ص٩٨ ـ ١٠٢. «بتصرف يسير»

يجيب عن هذا السؤال البروفيسور ديفيد بلوك فيقول: (لو أنّ الأرض أقرب للشمس بنسبة ٥٪ فقط من بعدها الحالي فستكون نتيجة ذلك أن تتعرض الأرض للاحتباس الحراري قبل أربعة آلاف مليون سنة من الآن، ولما قامت عليها حياة، ولو أنها كانت أبعد من الشمس بمقدار ١٪ من بعدها الحالي، لدخلت في عصر جليدي دائم قبل ألفي مليون سنة من الآن)»[1].

هذا وقد علمت مما تقدم أنّ دوران الأرض حول محورها تقدر سرعته بألف ميل في الساعة، وهي سرعة تتلاءم مع طبيعة الحياة، ومنافع الأحياء ليست عشوائية، ولكنها مقدرة تقديرًا ممن يعلم السر في السماوات والأرض، فلو انخفضت إلى مائتي ميل لتضاعف الليل والنهار إلى عشر مرات، وكانت نتيجة طول كل واحد منهما في تعاقبهما أن تحرق الشمس بحرارتها الملتهبة كل ما على الأرض في النهار، وإن بقي شيء من مخلفات هذا الاحتراق فستتكفل بالقضاء عليه البرودة الزائدة لليل الطويل.

ومن المعلوم أنّ هذه الأرض التي تدور في الفضاء تؤدي عملها بزاوية ٣٣° وبذلك تنشأ المواسم، وعليه تترتب صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لملأ الظلام القطبين طول السنة، وسار بخار البحار شمالًا وجنوبًا، ولم يبق على الأرض غير جبال الثلج وفيافي الصحاري، فتتعذر الحياة على ظهرها.

وقشرة الأرض مقدرة تقديرًا فلو كانت سمكها أكبر مما هو عليه بمقدار عشرة أقدام لما وجد الأكسجين لأنها تمتصه بسماكتها، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية وكذلك لو كانت البحار أعمق ببضعة أقدام من قاعها الحالي

---

(١) المرجع السابق، ص٩٧ ـ ٩٨.

لانجذب ثاني أوكسيد الكربون والأكسجين، ولاستحال وجود النباتات على الأرض كاستحالة مطلق الحياة[١].

ولما كانت الأرض قرارًا للإنسان وما يشاركه الحياة فيها هيء مناخها لتتلاءم طبيعة الحياة فيها مع ما جعله الله في الأرض من طبائع متنوعة تتكامل فيما بينها، فقد جهزت الأرض بمنافع شتى تعود إلى الإنسان عودًا مباشرًا، أو بواسطة غيره من الكائنات التي تؤول منافعها إليه، ومما جهزت به الماء الذي هو قوام الحياة، فقد جعل الله سبحانه في الأرض من الماء ما يكفي لحاجة الإنسان المباشرة وغير المباشرة، وقد أنزله الله تعالى بقدر، وحفظه من الذهاب، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، فلولا حفظ الله تعالى لهذا الماء لغار في أعماقها، وعادت الأرض قفرًا يبابًا لا يجد الإنسان فيه ولا غيره مستنقعًا من الماء، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]، وقد جعل الله سبحانه طبيعة الأرض تستبقي الماء في أعماقها وعلى ظهرها، فلو شاء سبحانه لجعل في صخورها مناسم واسعة لتسرب الماء حتى يغور في أعماق الأرض القاصية، التي لا يجد الإنسان سبيلًا إلى استخراجه منها، وفي نزوله بقدرٍ ضمانٌ لعموم نفعه والوقاية من ضرره.

أما ماء البحر فإنّه يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وهو مسخر تسخيرًا لمصالح البشر؛ تمخره سفنهم ليتسنى بينهم التواصل من أطراف متنائية، حتى يتم قضاء مصالحهم المشتركة، ومع ذلك فهو يزخر بخيرات شتى، ففي صيده غذاء هنيئ طيب تتقوم به الأبدان، وتشبع منه الأمعاء وتقوى به الأعضاء، ومن منافعه ما يستخرج منه من أنواع الحلية الفاخرة، وفيها زينة وبهجة، وقد

---

(١) ينظر؛ وحيد الدين خان: **الإسلام يتحدى**، ص٦٤ ـ ٦٥.

جعل الله سبحانه اتساعه يتلاءم مع الحكمة التي أرادها، وهي أن يكون طهارة للأرض من أدرانها.

وفي ملوحته أكثر من حكمة، فكم للملح من أثر في الحفاظ على سلامة الأشياء من التعفن والفساد، وهو مما يطيب الأطعمة، فلذلك صار من ضرورات الحياة، على أن ملوحة البحر تقي البحر نفسه من الأسن.

وبقدرته تعالى يتحول ماء البحر الملح الأجاج إلى عذب فرات سائغ للشاربين عندما يتبخر بتأثير الطبيعة التي خلقها الله تعالى فيتكون منه الغيث الذي تحيا به الأرض بعد موتها، وقد علمت مما سبق أنّ للبحر وقدر عمقه تأثيرًا في نسبة الأكسجين الذي تحيا به الأجسام وتنتعش به الحياة.

هذا؛ «ومن الخصائص المهمة التي توجد في الماء أنّ كثافة الثلج تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء فالماء إذًا مادة معلومة تقل كثافتها بعد التجمد ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة إذ يترتب على هذه الخاصية أنّ الثلج يطفو على سطح الماء ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار ولولا ذلك لكان الماء كله قد تجمد في البحار والأنهار والخزانات المائية، إنّ الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذي تحته كما تبقى حرارته دون درجة التجمد فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ولولا خاصة الثلج هذه لعانى سكان الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب الناجمة عن عدم ذوبان الثلج»[1].

هذا؛ وبقاء الماء على الأرض لا تنحصر أسبابه فيما سبق ذكره من حجم الأرض الذي يتفق مع مقدار الجاذبية التي تمسك الماء فحسب، فإنّ لذلك أسبابًا أخرى من خارج الكرة الأرضية، فللقمر ودورانه حول الأرض أثر بارز

---

(١) المرجع السابق، ص٦٧.

في ذلك بما أودعه الله في طبعه، من خاصية التأثير على حركتي الجزر والمد، وهذه الخاصية ترجع إلى حجمه وحركته والمسافة التي بينه وبين الأرض، فهو يبعد عن الأرض مقدار ٢٤٠,٠٠٠ ميل، ويدور حولها فتكمل دورته في مدة ٢٩ يومًا ونصف يوم، ولو اختل هذا النظام لأدى ذلك إلى الخلل في نسبة الماء إلى الأرض.

وقد جعل الله تعالى تناسقًا وانسجامًا بين حركتي الأرض والقمر ليستفيد سكان الأرض من سير القمر المنظم وحركته الدقيقة، فهو «يعد تقويمًا واضحًا وحيًا وطبيعيًا للغاية، تسهل قراءته على العالم والجاهل، فيتسنى لأي أحد أن ينظم برامج حياته على أساسه، ولو أمعنا التفكير لوجدنا أن مسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط أيما ارتباط بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي حيث يتكفل القمر والشمس ودوران الأرض المنظم حول نفسها وحول الشمس بإنجاز هذا الدور وأنّ التقاويم الحالية التي نظمت استنادًا إلى الفلك، ومهارات الفلكيين لا تنفع إلا الذين هم قادرون على فهمها، وإنما التقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي، الذي يتوفر لكل أحد من حركة القمر منذ مرحلة الهلال حتى يتحول إلى بدر ثم ينقلب إلى المحاق، لو تفحص الإنسان قليلا لاستطاع أن يحدد ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم القمر لأنه لا يستقر على حال واحدة في السماء على مدة ليلتين أبدا ولعل تنظيم العبادات الإسلامية وفقا للأشهر القمرية نابع من هذا الأمر»[1].

على أنّ هذه الاستفادة لأهل الأرض ليست محصورة في دوران القمر وحده، فإنّ جميع الأجرام الفلكية الظاهرة للعيان تبعث فوائدها إلى سكان

---

(١) الشيرازي؛ ناصر مكارم، ومعرفة؛ محمد هادي: تفكروا في عظمة خلق الله ـ للإنسان ـ الحيوان ـ الأرض ـ الكون ـ الحياة، ص ١٥٥، جمعه واعتنى به: محسن عقيل، دار المحجة البيضاء ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. «بتصرف يسير»

الأرض، فحركتها وطلوعها وغروبها مما ينعكس على أهل الأرض بكثير من الخبرة، فكم يستفيدون منها توقيتًا يوميًا وسنويًا في زراعاتهم الموسمية، وتنقلاتهم البرية والبحرية، فهي تهديهم السبيل وتقوم مقام الدليل الخريت الماهر في تبصيرهم بمسالكهم في الذهاب والإياب. كما تحدد لهم المناخ، ومن بينها الشمس، فإنّ منافعها للأرض وسكانها متنوعة، فبجانب كونها تحدد مواقيت الليل والنهار إقبالًا وإدبارًا، ومواعيد العبادات، ولها أكبر الأثر في التدفئة والإنارة هي مع ذلك لها نصيب وافر في نمو النباتات وحياة الحيوانات كما سبق ذكره، وكثير مما يقع في الأرض من منافع شتى ومن فيض البركات التي جعلها الله تعالى في ضوء الشمس، كحركة الرياح والغيوم، وأمواج البحار وانبجاس العيون، فهي من أهم الأسباب في تبخر المياه من البحار والمحيطات، وتكوُّن السحاب منها وسوقه إلى أماكن الحاجة إليه، لترتوي منه الأرض ومن عليها وما عليها، وذلك ما امتنه الله ﷻ في قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠].

وبالجملة؛ فإنّ حركات الناس والحيوان مرتبطة بضوء الشمس، فلو انطمس هذا الضوء وانقطعت أشعته التي تمتد خيوطها منها إلى الأرض لجلل الظلام الأرض، وملأت الوحشة جميع أنحائها، وسادها السكون والخفوت، وفقدت منها الحياة[1].

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٥٤.

المطلب الثاني: في المجموعة الشمسية

بما أنّ الأرض هي أحد الكواكب التابعة للمجموعة الشمسية، فإنّ ارتباطها بهذه المجموعة أقوى من ارتباطها بسائر المجموعات التي تنتسب إلى مجرتنا درب التبانة، فإنّ انتسابها إلى المجموعات الأخرى إنما هو بواسطة هذه المجموعة التي تنتسب إليها، وكذلك ارتباطها بما وراء هذه المجرة من الأجرام الفلكية في المجرات الأخرى، ومع ذلك كله فهي بمثابة اللبنة في بناء هذا الكون المحكم بناؤه، المتقن ربط بعضه ببعض، فما من شيء في هذا الكون إلا وهو مرتبط بهذه المنظومة الكونية بأسرها، وذلك يرجع إلى التقدير الدقيق لما في الوجود بحسب حجمه ووزنه وحركته وطاقته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وينص عليه قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ولو رجعنا إلى المجموعة الشمسية نفسها وما بينها من الترابط العجيب، لوجدنا من ذلك ما يحير الألباب من التناسق المدهش والتآخي العجيب بين هذه الأجرام كلها وترتيب حركاتها ودورانها، وتقدير كل جرم منها تقديرًا محكمًا لتتفاعل جميعًا، فيتولد من تفاعلها النظام الذي يجنب هذه المجموعة وغيرها أي خلل، ويقيها من كل خطر، فالشمس مثلًا هي أكبر من الأرض بقدر ١,٢٠٠,٠٠٠ مرة، وقطرها ٨٦٥,٠٠٠ ميل، والأرض تدور في محورها بسرعة ١٠٠٠ ميل في الساعة ـ كما سبق ـ في دائرة ١٩٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل، وتستكمل هذه الدورة مرة في سنة كاملة.

والمجموعة الشمسية هي تسعة كواكب مع الأرض، تدور جميعًا حول الشمس بسرعة فائقة، ولكنها مقدرة تقديرًا، ومحكمة في نظام دقيق، وأبعد هذه المجموعة كلها بلوتو الذي يدور في دائرة ٧,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ حول الشمس،

ويدور حول هـذه الكواكب ٣١ قمرًا آخر، وتوجد معهـا حلقة من النجيمات تقدر بـ ٣٠ ألفًا، ومعها آلاف من المذنبات، وشهب لا حصر لها، وكلها تدور حول محورها (الشمس).

والشمس أيضًا ليست بثابتة في مكان ما، وإنما هي تدور بكل توابعها في هذا النظام الرائع بسرعة ٦٠٠,٠٠٠ ميل في الساعة.

كل ذلك يخرس ألسنة الملحدين لو فقهوا، فليت شـعري أي قوة تسيطر على هذه الأجرام العظيمة وتنسق هذه الحركات المتعددة، وتقي الكائنات خطر صدامها لو شـذت عن نظامها، أليس في ذلـك كله ما يدل على قـوة القادر الحكيم الذي يمسـك السـماوات والأرض أن تزولا، والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، الذي لا تخرج ذرة أو ما دونها مما في الكون عن إحصائه وتدبيره، ذلكم الله الواحد القهار، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

المطلب الثالث: فيما وراء المجموعة الشمسية من أبعاد الكون:

إنّ المجموعة الشمسـية ـ كما سـبق ـ ليسـت إلا واحدة من المجاميع العظيمة التي تنتسب إلى مجرتنا درب التبانة، وهذه المجرة ليست إلا واحدة من العديـد من المجرات المتآخيـة المنتظمة في حركاتهـا، ووراء ذلك من المجرات الأخرى ما يصل إلى تريليوني مجرة ـ كما سبق ذكره ـ وقد تعرض لهذه المجرات د. روبرت جميس بعدما ذكر المجموعة الشمسـية وارتباطها بالمجاميع الأخرى في هـذه المجرة، وقد كان حديثه حسـب ما وصل إليه الاكتشـاف عندما حرر كلامه هذا، ولكن بعد ذلك حصلت اكتشافات هائلة كما أسلفنا، ولأجل ما في كلامه من فوائد متعددة أنقله إلى القراء الكرام، فقد قال: «إنّ نظامنا الشمسـي ـ كما هو معلوم ـ هو جـزء من مجرة تدعى درب

التبانة، ولو تأملنا في المسافات الموجودة في هذا النظام وحده يمكننا أن نتصور سعة هذه المجرة، فعلى سبيل المثال تبلغ المسافة الوسطية بين كوكب بلوتو وبين الشمس ٥,٩١٤,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر، وهو أبعد كواكب مجموعتنا الشمسية عن الشمس، أي ما يقارب ستة بلايين كيلو متر، ولو تصورنا أنّ لدينا سفينة فضاء تسير بسرعة خمسة وعشرين ألف كيلومتر في الساعة، فإنها تحتاج لقطع هذه المسافة إلى اثنتي عشرة سنة.

وهذا النظام الشمسي كله بالنسبة لمجرتنا ليس إلا بضع نقاط صغيرة منثورة في أحد أطرافها، فأبعاد مجرتنا شاسعة يصعب تخيلها، إذ يقدر العلماء قطرها بأكثر من مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، أي إنّ شعاع الضوء يحتاج إلى مئة وخمسين ألف سنة ليسافر عبر المجرة من أقصاها إلى أقصاها، فإذا علمنا أنّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر أدركنا أن عقولنا يصعب عليها تخيل مثل هذه المسافات.

ولكن مجرتنا ليست وحيدة في السماء، ويقدر الفلكيون أنّ هناك أكثر من أربعمائة بليون مجرة[1] منتشرة عبر الفضاء، وكل منها تحتوي على مئات البلايين من النجوم، وقد تصل إلى خمسمائة بليون نجم في المجرة الواحدة، وهذه المجرات ليست متناثرة في الفضاء بشكل عشوائي، بل هي مرتبة في مجموعات منتظمة تسمى عناقيد المجرات، وقد تمكن العلماء من مشاهدة وتصوير آلاف من تلك العناقيد، واكتشفوا أمرا مذهلًا لم يجدوا له تفسيرًا، وهو أنّ جميع المجرات تدور حول نفسها في اتجاه واحد!.

---

(١) هذا بالنسبة إلى ما اكتشف عندما حرر هذا الكلام، وإلا فقد بلغت المجرات المكتشفة إلى الآن تريليوني مجرة ـ كما سبق ذكره ـ وفي كل مجرة ما يقدر بتريليون نجم، ومعنى ذلك أن المجموعات الموجودة فيها تقدر بتريليوني تريليون مجموعة ذات نظام كنظام المجموعة الشمسية، فسبحان من أحاطت قدرته بكل شيء، ووسع علمه كل ما في الوجود.

نعود إلى مجرتنا درب التبانة، يخبرنا الفلكيون أنّ مجرتنا ليست إلا حبة في عنقود يتألف من عشـــرين مجرة، وبمقاييس الفلكييـــن فإنّ العنقود الذي تنتمي إليه مجرتنا هو من الحجم الصغير، فهناك عناقيد تضم آلاف المجرات، بل إنّ أحدها يحتوي على عشـــرة آلاف مجرة، والمسافة بين المجرات داخل العنقود الواحد قد تصل في المتوسط إلى مليون سنة ضوئية، ليس هذا فقط، بل إن بعض الفلكيين يقولون إنّ كل عنقود من عناقيد المجرات، هو حبة في عنقود عملاق، حباته هي عناقيد مجرات!.

يا له من كون عظيم!.

يقول أحد كبار كتاب مجلة **ســـايانتيفيك أميريكان**: (كلما أمعنا النظر في عظمة الكون الذي نعيش فيه، وما نعرفه عنه من تفاصيل مذهلة، صعب علينا بشكل كبير أن نفسر كيف صار إلى ما هو عليه، لا توجد نظرية تفسر ذلك).

هذه المعضلة تواجه كل من يعتقد أنّ الكون قد وجد فجأة بنفسه وبدون أي تأثير خارج عنه، كيف نفســـر إذن هذا القدر المذهـــل من الترتيب والدقة (وبكلمة واحدة: التصميم) التي نراها فـــي كل ذرة منه؟. حتى أنّ واحدًا من أعظـــم العلماء الذين عرفتهـــم الأرض، وهو **ألبرت أينشـــتاين** قال بعد تأمل لسنوات طويلة في الكون: (لا بد أنّ وراءه قوة خارقة).

إنّ مجرد التفكيـــر في الدقة الرياضيـــة التي يتطلبها جريـــان البلايين من النجوم حول مداراتها وداخل مجراتها على مدى البلايين من السنين، دون أن تحيد شعرة عن النظام الموضوع لها، ودون أن تصطدم مثلًا ببعضها، إنّ مجرد التفكير في هذا خليق بأن يدلنا أن وراء هذا كله قوة عليمة خبيرة جبارة خارقة.

وفوق كل هذا؛ فقد اكتشف الفلكيون أنّ الكون ليس له حجم ثابت، بل هو يتوسع باستمرار وبسرعة هائلة، والمقصود بتوسعه أنّ المجرات والأجرام تتباعد عن بعضها، وعلى سبيل المثال، نشرت مجلة نيو ساينتيست عام ١٩٩٥

بحثًا موثقًا أجراه علماء الفلك على أبعد نجم كانوا يستطيعون رؤيته آنذاك، واسمه عندهم (SN1995k) فلاحظوا أنّ هذا النجم البراق يبهت نوره بالتدريج، بعد أن كان شديد التوهج، ولاحظوا بوسائلهم الخاصة أنّ سبب هذا هو ابتعاد النجم بسرعة تعادل نصف سرعة الضوء، فكان هذا من الأدلة على أنّ الكون يتوسع والمجرات تتباعد.

لقد أثبتت هذه الحقيقة، أنّ الكون له بداية، وأنه ليس أزليًا، وأنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن موجودًا، يومها لم يكن هناك أي مادة في الكون، بل كان هناك طاقة فقط، وهذا يتفق مع نظرية آينشتاين التي تقول إنّ الطاقة يمكن أن تتحول إلى مادة، والمادة يمكن أن تتحول إلى طاقة.

وهذا يقودنا إلى سؤال هام: من أين جاءت هذه الطاقة؟ ذلك أنّ الطاقة بنفسها لا جدوى من وجودها إن لم تكن موجهة بطريقة ما، بحيث تتحول إلى مادة، وينشأ منها هذا الكون، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج أنّ هناك من قام بتوجيه هذه الطاقة لتتحول إلى مادة، وأنّ من قام بهذا لا بد أن تكون له قوة خارقة تستطيع أن تتحكم وتوجه الجاذبية الهائلة الناتجة عن أجرام الكون كله.

إنّ تمدد الكون ليس موضوع طاقة هائلة فحسب، بل إنّ هناك أدلة قاطعة تدل على أنّ الكون تتحكم فيه قوة عليمة خبيرة ذات حكمة، ذلك أنّ سرعة هذا التمدد محسوبة بدقة شديدة، يقول العالم **سير برنارد لوفيل**: (لو أنّ الكون يتوسع بسرعة أكبر من سرعته الحالية، لانهار الكون منذ المليار الأول من عمره، ولما كان هناك نجوم ولما كان هناك حياة).

إنّ هذه الدقة المذهلة تشير بلا شك إلى خبرة مذهلة وحكمة بالغة، ويشير إلى ذلك العالم **روبرت جاسترو** ـ وهو بروفيسور في علم الفلك يحاضر في جامعة كولومبيا الأمريكية ـ: (إنّ البراهين الفلكية على وجود

بداية للكون تضع العلماء [أي الملحدين] في موقف حرج لا يحسدون عليه، ذلك أن العلماء هم من يعتقدون ويؤكدون دائمًا أن لكل سبب مسببًا).

وحتى نتمكن من فهم دقة تنظيم الكون وعظمته، سنلقي نظرة على أربع قوى أساسية تؤثر في أجرام الكون كلها من أكبر نجم إلى أصغر ذرة، وهذه القوى هي: قوة الجاذبية والقوى الكهرومغناطيسية[1] والقوى الذرية العظمى والقوى الذرية الصغرى.

أما الجاذبية؛ فهي تلك القوة المذهلة المؤثرة التي تشد الأجسام والكواكب والنجوم بل والمجرات إلى بعضها، فتثبتها في مداراتها وتحفظ المسافات فيما بينها، وكلنا يشعر بالجاذبية، ونشعر كيف تشدنا الأرض إليها عندما نتحرك أو نقفز، والذي قد لا ندركه هو أنّ مقدار الجاذبية الأرضية محسوب بدقة شديدة، بحيث تضمن بقاء الحياة على سطح الأرض، كلنا شاهدنا أفلامًا وثائقية تعرض تحرك رواد الفضاء في سفنهم عندما لا يكون عندهم جاذبية، وكيف خطى الإنسان على سطح القمر، فكانت خطواته أقرب إلى القفز بسبب ضعف جاذبية القمر، فالجاذبية تختلف من كوكب إلى آخر ومن نجم لآخر، ولكنها في كل الأحوال محسوبة بغاية الدقة.

والقوة الكهرومغناطيسية لا تقل أهميتها عن الجاذبية في استقرار الكون، فلو أنّ هذه القوة كانت أضعف مما هي عليه، لما استطاعت نوى الذرات أن تحتفظ بالإلكترونات في مداراتها، وهذا معناه استحالة أن يتم أي تفاعل كيميائي، وبالتالي نهاية الحياة.

---

(١) القوة الكهرومغناطيسية: هي التي تؤثر على الجسيمات ذات الشحنة الكهربية، مثل الإلكترون والبروتون وجسيمات ألفا والأيونات، وهي القوة التي تربط الإلكترونات في الذرات، كما تربط الذرات في الجزيئات.

ومن التأثيرات الأخرى الهامة للقوى الكهرومغناطيسية، تأثيرها على الشمس، فلو اختلف مقدارها عما هي عليه، لتبدل الضوء الذي يصلنا منها، ولأصبح من الصعب جدًا إن لم يكن من المستحيل أن تقوم النباتات بعملية التمثيل الضوئي، ولتبدلت خصائص الماء، ولما أمكن نشوء أي حياة على سطح الأرض.

وتشير دراسات العلماء إلى أنّ النسبة بين قوة الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية محسوبة بدقة شديدة، فكلاهما يؤثر على الذرات والأجرام، وأي اختلاف في النسبة بينهما له تأثيرات جوهرية على الكون، وقد حسب بعض العلماء هذه النسبة، فتبيّن لهم أنّ القوة الكهرومغناطيسية تعادل الرقم عشرة مرفوعًا للقوى ٤٠ من قوة الجاذبية، أي عشرة وإلى يمينها أربعون صفرًا، ولو أضفنا إليها صفرًا واحدًا فهذا يعني انخفاض طفيف في قوة الجاذبية، وهذا الانخفاض سيؤدي كما يقول الدكتور رينهارد بريور إلى أن لا تتمكن الشمس من إرسال أشعتها لأن ضغط الجاذبية لن يكون كافيًا لرفع حرارتها الداخلية، بحيث تتم التفاعلات النووية اللازمة لإنتاج الأشعة، ولما كانت هناك حياة على الأرض، أما لو نقص هذا الرقم صفرًا واحدًا، أي أصبحت الأصفار الأربعون تسعة وثلاثين، فهذا سيؤدي إلى أن ينخفض عمر الشمس انخفاضًا حادًا، ولربما كانت أشعتها انتهت قبل أن تظهر الحياة على الأرض.

إن ما سبق من حقائق حول الجاذبية يدل على أنّ هناك دقة شديدة محسوبة في جنبات هذا الكون الذي نعيش فيه.

وماذا عن القوى النووية الكبرى والصغرى؟.

أما الكبرى فهي تلك القوة التي تمسك البروتونات والنيترونات في نواة الذرة، وبسبب هذا التماسك تنشأ العناصر الحديد والذهب واليورانيوم وغيرها، والعناصر تقسم إلى عناصر خفيفة مثل الهيدروجين والهليوم،

وعناصر ثقيلة مثل الذهب والرصاص، ولو أنّ القوة النووية الكبرى كانت أقل بما يعادل ٢٪ فقط، لما وجدنا في الكون إلا العناصر الخفيفة مثل الهيدروجين، ولو أنها كانت أكثر بما يعادل ٢٪ من قيمتها الحالية لما وجدنا في الكون غير العناصر الثقيلة، ولم يكن هناك هيدروجين، وهذا يؤدي إلى افتقار الشمس للوقود الذي تحتاجه لتصنع أشعتها، وفي كلتا الحالتين لم يكن من الممكن وجود حياة على الأرض.

وأخيرًا فإنّ القوة النووية الصغرى، وهي تتحكم بالاضمحلال الإشعاعي، وكذلك بالتفاعلات النووية الحرارية التي تحصل في الشمس، فهل يشكل زيادة قيمة هذه القوة أي فرق في الكون؟.

الجواب: هو نعم، حسب عالم الفيزياء **فريمان دايسون** الذي يقول: (إنّ القوة النووية الصغرى هي أصغر بمليون مرة من الكبرى، لكن مقدارها هو المقدار المناسب تمامًا ليحترق الهيدروجين في الشمس ببطء وثبات، ولو أنها أقوى أو أضعف لما أمكن قيام أي نوع من الحياة التي تعتمد على أشعة الشمس، أي لما وجدت حياة على الأرض).

دعونا الآن نفكر في هذه القوى الأربعة، التي يعتمد عليها وجود الكون والحياة، والتي يؤدي أي تغير في واحد منها أو في نسبته للقوى الأخرى إلى اختلال وفوضى يضطرب معهما هذا التناسق العجيب الذي نراه في الكون، ولا يمكن معه أن يوجد على أرضنا أي نوع من الحياة.

ألا يدل كل ذلك أننا أمام تصميم خارق دقيق وراءه مصمم خبير ذو علم وحكمة وعظمة؟.

الحكم لك عزيزي القارئ»اهـ[1].

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص٨٩ ـ ٩٥.

إنّ القارئ المنصف لا يجد إلا أن يطأطئ رأسه ويحني ظهره أمام هذه الحقائق، التي تشده إلى الإيمان بمن خلق هذا الوجود، فأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ونظمه هذا التنظيم الدقيق فانتظمت جميع ذراته، وجميع مركباته، وجميع أجرامه، وجميع مجراته، فلم يقع بينها صدام، ولم يحصل فيها نشاز، بل أصبح الكون بهذه الأطراف المترامية وحدة واحدة متكاملة الأرجاء منسجمة في حركاتها جميعًا، فهل يبقى مع هذا شك في كونه أخرجته إلى الوجود إرادة واحدة، وهي التي تتولى تصريفه، وتدبير كل ذرة منه.

وإذا كانت الأمور يُحَكَّم فيها القياس، ويعول فيها على الاستقراء، فحسب كل أحد أن يتأمل البيت الذي يعيش فيه ليرى أبوابًا وعتبات وجدرانًا وسقفًا وخزائن وبلاطًا، كما يرى غرفًا ومجلسًا للاستقبال، وقاعة للطعام ومطبخًا، ويرى كذلك الحنفيات التي يأتي منها الماء والمصابيح الكهربائية التي تضيء أرجاء البيت وغير ذلك من عناصر المبنى ومحتوياته، غير أنه لا يرى أنابيب الماء والتمديدات الصحية الموجودة تحت الأرض وداخل الجدران التي تأتي بالماء النظيف للمنزل وتصرف عنه الماء المستخدم، ولا أسلاك التمديدات الكهربائية التي تمر الطاقة الكهربائية عبرها، فتضيء المصابيح وتهيئ الأدوات الأخرى لاستخدامها في المنزل، ولكنه يعلم يقينًا أنّ هذه التمديدات كلها موجودة، على رغم عدم رؤيته لها، كما يعلم علم اليقين أنّ ثم مهندسًا جلس يومًا في مكتبه، وقام برسم تصميم المنزل بأبعاده وأحجامه وتفاصيله كلها، كما يعلم أنّ عدة فرق من العمال قامت بتنفيذ هذا التصميم كل حسب اختصاصه، منهم من قام بالبناء وآخرين بالتمديدات، وغيرهم بالتشطيبات، وهكذا. كل ذلك حسب التصميم الذي قام به المهندس المصمم، وهذه طريقة متبعة نعلمها جميعًا إذا ما رأينا أي مبنى من المباني، سواء كان مسكنًا أو مدرسة أو مقرًا لإدارة الأعمال، أو مسجدًا أو أي معبد آخر، ولا يمكن أن

نشـــهد أي مبنى يخطر ببالنا ولو لحظة يســـيرة أنه تم بناؤه بالمصادفة، ولم يسبقه تصميم من أحد، ولم تتدخل يد عامل في إنشاء هذا البناء[1].

وإذا كانت هذه حقيقة مسلمة عند جميع العقلاء لا يماري فيها أحد عندما تقع عينه على أي مبنى يراه، فكيف تند عن العقول عندما يفتح العاقل بصره على هذا الكون؛ فيراه بهذه الحالة التي تدهـــش العقول وتحير الألباب، من عجيب الصنع وبديـــع الإتقان، مع العلم اليقين بأنـــه كان عدمًا ثم خرج من العدم إلى الوجود.

وإذا كانت العقول جميعًا تأبى وترفض أن تكون خيمة من شـــعر أو وبر انتصب عمودها فاجتمعت إليه أجزاؤها، وقامت عليه إلى أنّ انتظم بناؤها من غير أن تتدخل إرادة أحد أو تقوم بهذا العمل يـــد، فكيف يمكنها تصديق أنّ هذا الكون بنفسه خرج من العدم إلى الوجود، من غير أن تسبق ذلك إرادة أو تصرفه قوة، وهل هذا إلا تخبط يتصادم مع العلم والعقل ومع الواقع المشاهد في تصاريف الحياة؟؟!.

وإذا كانت مادة الكون هي في الأصل طاقة؛ فإنّ الطاقة نفســـها لا يمكن أن تخرج نفســـها من العدم، كما لا يمكـــن أن تكـــون أزلية الوجود، فـــإنّ الأزلي لا يتحول عن وضعه، ولا ينتقل عن حاله بذاته ولا بتأثير غيره، فإنّ تبدل الأحوال دليل قطعي على الحدوث، ولا يمكن لأي معدوم أن يشـــق حجب العدم، فيبرز بنفسه في ساحة الوجود، وبهذا يتضح أنّ كل ما في هذا الوجود طارئ وجوده بعد أن كان في طوايا العدم ما عدا الموجد لكل شيء، الذي هو واجب الوجود لذاته.

وهذا ما تعبر عنه جميع الموجودات بألســـنة حالها، فمن أجزاء الذرات وما تحتويه من مركباتها إلى الكون الفســـيح بكل أبعاده وجميع مجراته وما

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٨٨.

تحتويه مما دق أو جل هي شاهدة على وجود الله، ودعوى خلاف ذلك مكابرة للعقل والعلم، ولنسمع إلى ما يقوله في ذلك أحد كبار علماء الكيمياء والرياضة، وهو **الدكتور جون كليفلاند كوثران** ـ المتخصص في تحضير النترازول، وفي تنقية التنجستين ـ في مقاله المعنون بـ **النتيجة الحتمية**: «وقد أثبت اكتشاف تركيب الذرة أنّ التفاعلات الكيموية التي نشاهدها والخواص التي نلاحظها ترجع إلى وجود قوانين خاصة، وليست محض مصادفة عمياء.

انظر إلى العناصر الكيموية المعروفة التي يبلغ عددها اثنين بعد المائة، ولاحظ ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف العجيبة، فمنها الملون وغير الملون، وبعضها غاز يصعب تحويله إلى سائل أو صلب، وبعضها سائل والآخر صلب يصعب تحويله إلى سائل أو غاز، وبعضها هش والآخر شديد الصلابة، وبعضها خفيف والآخر ثقيل، وبعضها موصل جيد والآخر ردي التوصيل، وبعضها مغناطيسي والآخر غير مغناطيسي، وبعضها نشيط والآخر خامل، وبعضها يكوّن أحماضًا والآخر يكوّن قواعد، وبعضها معمر والآخر لا يبقى إلا لفترة محدودة من الزمان، ومع ذلك فإنها جميعًا تخضع لقانون واحد وهو القانون الدوري الذي أشرنا إليه.

ومع ما يبدو من التعقيد في تركيب كل ذرة من ذرات العناصر العديدة، فإنها تتكون جميعًا من نفس الأنواع الثلاثة من الجزيئات الكهربية، وهي البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة، والنيترونات التي يعتبر كل منها ناشئًا من اتحاد بروتون واحد مع إلكترون واحد، وجميع البروتونات والنيترونات التي بالذرة الواحدة تقع في نواة مركزية، أما الإلكترونات فإنها تدور حول محاورها في مدارات مختلفة حول النواة، وعلى أبعاد شاسعة منها مكونة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة، وعلى ذلك فإنّ معظم حجم الذرة يعتبر فراغًا كما هي الحال في المجموعة الشمسية.

ونستطيع أن نبسّط الأمر فنقول: إنّ الفرق بين ذرة عنصر معين وعنصر آخر يرجع إلى الفرق في عدد البروتونات والنيترونات التي بالنواة إلى عدد وطريقة تنظيم الإلكترونات التي في خارج النواة، وعلى ذلك فإنّ ملايين الأنواع من المواد المختلفة سواء أكانت عناصر أم مركبات، تتألف من جزيئات كهربية ليست في الواقع إلا مجرد صور أو مظاهر من الطاقة، والمادة بوصفها تتكون من مجموعات من الجزيئات والذرات، والجزيئات والذرات ذاتها والإلكترونات والنيترونات التي تتألف منها الذرات والكهرباء والطاقة ذاتها؛ إنما تخضع جميعًا لقوانين معينة، وليست وليدة المصادفة، بحيث يكفي عدد قليل جدًا من ذرات أي عنصر للكشف عنه ومعرفة خواصه.

وعلى ذلك؛ فإنّ الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط.

فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أنّ المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟ لا شك أنّ الجواب سوف يكون سلبيًا، بل إنّ المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإنّ كل ذلك يتم طبقًا لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها.

وتدلنا الكيمياء على أنّ بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإنّ المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضًا أنها ليست أزلية، إذ إنّ لها بداية، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنّ بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد، وعلى ذلك فإنّ هذا العالم المادي لا بد من أن يكون

مخلوقًا، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادي عاجزًا عن أن يخلق نفسه، أو يحدد القوانين التي يخضع لها، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، وتدل الشواهد جميعًا على أنّ هذا الخالق لا بد أن يكون متصفًا بالعقل والحكمة، إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي كما في ممارسة الطب والعلاج السيكولوجي دون أن يكون هناك إرادة، ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجودًا وجودًا ذاتيًا، وعلى ذلك فإنّ النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أنّ لهذا الكون خالقًا فحسب، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيمًا عليمًا قادرًا على كل شيء، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان، وعلى ذلك فإنّه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه، كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا المقال.

إنّ التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام **لورد كيلفن** يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل من أننا إذا فكرنا تفكيرًا عميقًا فإنّ العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله». اهـ[1]

هذا ما يوحي به النظر السليم، ويقتضيه العقل، ويفرضه العلم، وكل مكابرة في هذا هي تحد للعقل والعلم، وتكذيب للحقائق التي يمليها النظر وصدود عن الحق الذي تشهد به كل ذرة في الوجود.

---

(١) نخبة من العلماء الإمريكيين: **الله يتجلى في عصر العلم**، التتيجة الحتمية، ص٢٩ ـ ٣١.





الفصل السادس

في البراهين
التي في خلق الذرة

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: في تعريف الذرة.
- المبحث الثاني: في دلالة الذرة على وجود الله تعالى.

في تعريف الذرة

درج السابقون على تفسير الذرة بالهباءة، وهو الشيء المنبث الذي تراه في ضوء الشمس، ولم يتوسعوا في بيان المراد بالذرة مع أنّ القرآن تحدث عن الذرة في أكثر من موضع، وأشار إلى إمكان انقسامها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وكان معظم العلماء السابقين يرون أنّ الذرة هي أقل شيء في الوجود، وأنها جزء واحد لكل العناصر، ولذلك يتعذر انقسامها، وكانت تسمى باللغة الأجنبية (Atom) ولكن جاءت الدراسات الحديثة المبنية على التجربة البشرية في تفجير الذرة مؤكدة ما أشار إليه القرآن من إمكان انقسامها، فأصبح انقسامها حقيقة واقعة.

وقد أوسع الباحثون المتأخرون الذرة شرحًا وبيانًا، ومن ذلك ما جاء في **الموسوعة العربية العالمية**، ونصه: «**الذرة**: إحدى الوحدات الأساسية لبناء المادة. فكل شيء حولنا مكون من ذرَّات. والذرَّة الواحدة بالغة الصِّغر، فهي لا تتعدى واحدًا على مليون من سُمْك شعرة، وتحتوي أصغر عيِّنة يمكن رؤيتها بمجهر عادي على ما يزيد على عشرة بلايين ذرة.

وتكوّن الذرات القوالب البنائية لأبسط المواد، وهي العناصر الكيميائية، وتشمل العناصر الشائعة: الهيدروجين والأكسجين والحديد والرصاص.

ويتكون كل عنصر كيميائي من نوع أساسي واحد من الذرّات. أما المركّبات الكيميائية، فهي مواد أكثر تعقيدًا من حيث تركيبها الكيميائي؛ إذ تتألف من نوعين أو أكثر من الذرّات مرتبط بعضها ببعض في وحدات تُسمَّى الجزيئات، فالماء على سبيل المثال مركب يتكون كل جزيء منه من ذرتين من الهيدروجين مرتبطتين بذرة واحدة من الأكسجين.

وتتفاوت الذرات كثيرًا في الوزن، ولكنها جميعًا تتساوى تقريبًا في الحجم، فذرّة اليورانيوم على سبيل المثال ـ وهي أثقل الذرّات الموجودة في الطبيعة ـ يبلغ وزنها مائتي ضعف وزن ذرّة الهيدروجين الذي يُعدُّ أخف العناصر المعروفة حتى الآن. ومع ذلك فإنّ قطر ذرّة اليورانيوم لا يتعدى ثلاثة أمثال قطر ذرّة الهيدروجين تقريبًا.

وبالرغم من أنّ الذرّات تُعدُّ من أدق الأشياء في العالم إلا أنها تُعدُّ أيضًا من أعظمها قوة، فبداخلها كمية هائلة من الطاقة الكامنة. وقد استطاع العلماء تسخير هذه الطاقة في إنتاج أسلحة الدمار البالغة التأثير كما استطاعوا أيضًا الاستفادة منها في توليد الكهرباء»[1].

---

(١) مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (ذ) ـ الذرّة، ١٠/٦٤٠ ـ ٦٤١.

المبحث الثاني

في دلالة الذرة على وجود الله تعالى

إذا كان الكون الفسيح بمجراته الواسعة، وما تشتمل عليه من أجرام هائلة كله يعد شاهدًا ودليلًا على وجود الله سبحانه، ويستحيل على عقول البشر ـ ولو قدرنا اجتماعها جميعًا منذ خلق الله الإنسان وإلى أن ينطوي عندما ينطوي هذا الوجود بأسره، وتضافرها على دراسة ما في طوايا هذا الكون من آيات الله البينات ـ أن يمكنها استقصاؤها، فإنّ ما في الذرة وحدها من إبداع الصنع وغريب الترتيب وباهر الآيات البينات ما يملأ مجلدات العلم بآيات الله البينات أن لو توفرت دراسة ذلك من الذين يتفرغون لهذا الأمر، فالذرة كما قلت ـ مع دقتها المتناهية مركبة تركيبًا محكمًا، فيها من بديع الصنع ما يحير الألباب، وإليك بعض ما اكتشف من هذه الحقائق فيما دون في **الموسوعة العربية العالمية**: «بالرغم من ضآلة الذرّة إلا أنها تتكون من جُسيمات أكثر صغرًا منها، والجسيمات الثلاثة الأساسية هي: البُروتونات، والنيوترونات، والإلكترونات، ولكل ذرة عدد محدد من هذه الجُسيمات تحت الذرية.

تزدحم البروتونات والنيوترونات داخل النواة، وهي منطقة بالغة الصغر في مركز الذرة، فلو كان قطر ذرة الهيدروجين ستة كيلومترات، على سبيل المثال، فإنّ النواة لا يتعدى حجمها حجم كرة المضرب العادية، وما يتبقى من حجم الذرة خارج النواة هو في أغلبه فضاء فارغ، وفي هذا الفضاء، تدور

الإلكترونات حول النواة بسرعة بالغة تقطع بها بلايين الرحلات في كل جزء من المليون جزء من الثانية.

وبسبب سرعة الإلكترونات البالغة، تبدو الذرّة وكأنها جامدة، وذلك بنفس المبدأ الذي يمنع مرور قلم رصاص خلال أنصال مروحة تدور بسرعة عالية.

وكثيرًا ما تقارَن الذرّات بالنظام الشمسي، فتُعتبر النواة مناظرة للشمس، والإلكترونات مناظرة للكواكب التي تدور حولها. لكن هذه المقارنة ليست صحيحة على إطلاقها. فعلى عكس الكواكب، لا تتبع الإلكترونات مسارات منتظمة مرتبة. بالإضافة إلى أنّ البروتونات دائمة التحرك عشوائيًا داخل النواة.

النواة: تشكّل النواة تقريبًا كل كتلة الذرة، والكتلة هي كمية المادة في ذرة. وتبلغ كتلة البروتون ١,٨٣٦ ضعف كتلة الإلكترون. وكذلك من ١,٨٣٩ إلكترونًا نحصل على كتلة النيوترون. ويحمل كل بروتون وحدة واحدة من وحدات الشحنة الموجبة، بينما يحمل الإلكترون وحدة واحدة من وحدات الشحنة السالبة. أما النيوترونات فهي غير مشحونة. وتحتوي الذرّة في أغلب الأحوال على نفس العدد من البروتونات والإلكترونات، وبالتالي فالذرّة متعادلة كهربائيًا.

البروتونات والنيوترونات أصغر بـ ١٠٠,٠٠٠ مرة تقريبًا مقارنة بوزن الذرة، ولكنها تتألف بدورها من جُسيمات أكثر صغرًا يسمى كل منها كوارك، ويتكون كل بروتون وكل نيوترون من ثلاثة من جسيمات الكوارك، ويستطيع العلماء في المختبر جعل جسيمات الكوارك تتجمع وتكوّن أنواعًا أخرى من الجسيمات تحت الذرية بجانب البروتونات والنيوترونات. ولكن كل هذه الجسيمات الأخرى تتفكك وتتحول إلى جُسيمات عادية في غضون ثانية واحدة. ولهذا فلا يوجد أي منها في الذرات العادية. وقد عرف العلماء أن البروتونات

والنيوترونات تتكون من جسيمات الكوارك من خلال دراستهم للجسيمات تحت الذرية. وللحصول على معلومات عن الجسيمات تحت الذرية الأخرى.

الإلكترونات على عكس البروتونات والنيوترونات، فإنّ الإلكترونات لا تحتوي على جُسيمات أصغر، وكتلة الإلكترون بالغة الصغر، وتُكتب قيمة هذه الكتلة بالجرامات، بوضع علامة عشرية يتبعها ٢٧ صفرًا ثم رقم ٩.

ونظرًا لأن الشحنات المتضادة تتجاذب، فإنّ النواة الموجبة الشحنة تعمل بقوة جذب على الإلكترونات السالبة الشحنة، مما يؤدي إلى بقاء هذه الإلكترونات داخل الذرة. لكن لكل إلكترون طاقة تمكنه من مقاومة جذب النواة. وكلما ازدادت طاقة الإلكترون ازداد بُعده عن النواة. وهكذا تنتظم الإلكترونات في مدارات على مسافات مختلفة من النواة حسب مقدار طاقة كل منها. فتوجد الإلكترونات الأقل طاقة في المدارات الداخلية، بينما توجد الإلكترونات الأكثر طاقة في المدارات الخارجية.

ويعطي العلماء لكل مدار إلكتروني رقمًا خاصًا به. فالمدار الأقرب إلى النواة يُسمَّى بالمدار رقم (١)، وترقم المدارات الأخرى (٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧) حسب الترتيب التصاعدي لبعدها عن النواة. ويشار إلى المدارات في بعض الأحيان بالحروف الهجائية، ويوجد على كل مدار عدد محدود من الإلكترونات، فلا يستطيع المدار الأول الاحتفاظ بأكثر من إلكترونين. ويستطيع المدار الثاني الاحتفاظ بثمانية إلكترونات والثالث بثمانية عشر إلكترونًا، والرابع باثنين وثلاثين إلكترونًا، والخامس بخمسين إلكترونًا، والسادس باثنين وسبعين إلكترونًا، والسابع بثمانية وتسعين إلكترونًا، غير أنّ هذه المدارات الخارجية لا يكتمل بها عدد الإلكترونات مطلقًا»[1].

---

(١) المرجع السابق، حرف (ذ) ـ الذرّة، ٦٤١/١٠ ـ ٦٤٢.

كم في تضاعيف هذه الحقائق من آيات بينات تصدع بشهادة الحق أنّ الله وحده هو الذي خلق هذه الذرة، فأبدع خلقها وركبها فأحسن تركيبها، ناهيك أن هذه الذرة مع صغر حجمها المتناهي ـ بحيث لا تتعدى واحدًا على مليون من سمك شعرة، وتحتوي أصغر عينة يمكن رؤيتها بمجهر عادي على ما يزيد على عشرة بلايين ذرة ـ جعلها الله تعالى منتظمة بنفس النظام الموجود في المجموعة الشمسية؛ فالنواة هي بمثابة الشمس، وما يدور حولها بمثابة المجموعة التي تدور حول الشمس، ومعنى ذلك أنّ هذا النظام يبدأ من الذرة الدقيقة وهو يصعد حتى يرقى إلى المجاميع الكبرى التي في المجرات كلها، فإذا كانت الإلكترونات تدور حول النواة بسرعة بالغة تقطع بها بلايين الرحلات في كل جزء من المليون جزء من الثانية، فإنّ هذا الدوران كله مقدر تقديرًا بحكمة الله تعالى، كما قدر دوران المجموعة الشمسية حول الشمس، ودوران الشمس بكل توابعها في هذا النظام الرائع بسرعة ٦٠٠,٠٠٠ ميل في الساعة، وليس هذا فحسب فإنّ مجرتنا درب التبانة تدور بكل ما فيها من الأجرام بسرعة تقدر مليونين و ٣٠٠ ألف كيلومتر في الساعة الواحدة، فكل ذلك يدل على إبداع بالغ في الخلق، وإحاطة شاملة في التدبير، وقدرة مطلقة في الخلق والأمر.

وكل شيء من ذلك مقدر تقديرًا، سواء حركات هذه الكائنات أو تركيبها الدقيق من عناصرها وجزيئاتها وذراتها كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فلا عشوائية في شيء من ذلك وإن تساهل الكاتبون فعبروا عن بعض الحركات بأنها عشوائية، كما تقدم أنّ البروتونات دائمة التحرك عشوائيًا داخل النواة، فإنّ ذلك إنما يرجع إلى ما يفهمه الناس، أما هو في حقيقته فقد أحصاه الله إحصاء دقيقًا وأعده إعدادًا متقنًا، وقدره تقديرًا محكمًا، ولا يخلو شيء من ذلك عن حكمة الله تعالى التي وسعت هذا الوجود بأسره،

فالإلكترونات ذات الشحنات السلبية ـ التي تتوزع في المدارات الخارجية ـ دورانها حول النواة أمر محير للغاية حتى أنّ هيلز نبرغ العالم الألماني قال: «إنّ معلوماتنا في لحظة معينة عن مكان أي جسم مادي صغير وحركته ليست دقيقة تمامًا، ومعنى ذلك أنّ هناك شكًا في صحتها يزداد كلما كان الجسم أصغر، وهذا الشك جزء من طبيعة الأشياء، ولا علاقة له بتاتًا بخواص الجهاز المستعمل للفحص أو القياس، فلا توجد أي واسطة للتخلص منه، وهو موجود في جميع القياسات، وإنما يصبح واضحًا ويجب أخذه بعين الاعتبار فقط في حالة الأجسام الصغيرة جدًا»[1].

ومعنى ذلك أنّه يمكن أن يقال بأن الإلكترون ليس له اتجاه محدد في حركته حول النواة، ولكنه يتحرك في كل الفراغ المحيط بالنواة، وكل ما تمكن معرفته احتمال وجود الإلكترون في أي مكان في أي لحظة، ولذلك قيل بأنّ تحرك الإلكترون يعين كتابع احتمال باللغة الرياضية، ومما يثير العجب كون سرعة دوران الإلكترون حول النواة لا تعادلها سرعة سوى سرعة الضوء!! وهي محيرة لا تتصور ولكن تعقل، فمع كون قطر الذرة جزءًا من مائة مليون جزء من السنتيمتر، فإنّ سرعة هذا الدوران ١٠٠/١ من سرعة الضوء، كما سبق أنها سرعة بالغة تقطع بها بلايين الرحلات في كل جزء من المليون جزء من الثانية، ولا عشوائية في شيء من ذلك، وإنما كل ذلك مقدر تقديرًا بحكمة الله تعالى، فالذي قدر سرعة المجموعة الشمسية حول الشمس كل واحد منها على حياله، وقدر سرعة الشمس بمجموعتها، وقدر سرعة المجرات في تمددها هو الذي قدر سرعة هذه الإلكترونات حول نواة الذرة، ولو خرج شيء من ذلك عن نظامه الرتيب لأدى طبعًا إلى فساد نظام هذا الكون.

---

(١) د. خالص جلبي: **الطب محراب الإيمان**، ٢٧/١ ـ ٢٨. نقلاً عن: كتاب الكيمياء العامة واللاعضوية للدكتور موفق شخاشيرو.

وما على الإنسان إلا أن يقف خاشعًا أمام هذه الآيات التي يكتشفها في الكون الكبير أو فيما هو أدق شيء فيه، وهو الذرة ومحتوياتها كما سبق نقله مما جاء في مناظرة هيثم طلعت للملحد سمير سامي.

فوا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد

وقد علمت أنّ كل ما في الذرة مقدر تقديرًا، فالذرة نفسها تشبه شكلًا كرويًا مع ضآلتها ـ كما تقدم ـ وإن عجبت فاعجب أنّ قطر النواة هو من رتبة ١٠-١٢ سم، أي أصغر من قطر الذرة بعشرة آلاف مرة، بحيث لو تضاعفت ذرة الهيدروجين مليار مرة لكان قطر كرة الذرة مقدار قدمين، ولكن الكتلة الذرية ـ أي ما تحويه الذرة من النواة ـ بروتونات ونيوترونات تكون ـ وهي مجتمعة ـ بشكل حبة رمل في مركز الكرة، وذلك يرجع إلى الفراغ الهائل في تكوين الذرة ما بين البروتونات والإلكترونات، وذلك ـ كما سبق ـ ينوف عشرة آلاف مرة، وهو مثار الدهشة والحيرة في أسرار الذرة وألغازها.

وقد سبق أنّ أبسط الذرات هو الهيدروجين، لأن نواته تحمل بروتونًا واحدًا، والمدار الخارجي منه إلكترونًا واحدًا، ويتدرج بناء الذرات بشكل عجيب حيث يزداد بروتونًا بروتونًا، وكذلك الهيليوم حيث يوجد في نواته بروتونان، ويليه اللتيوم ففي نواته ثلاثة، ثم برليوم الذي تحوي نواته أربعة، وبعده البور فيه خمسة، ثم الفحم ستة، ثم الآزوت سبعة، ثم الأكسجين ثمانية، ثم الفلور تسعة، ثم النيون ١٠، ثم الصوديوم ١١، ثم المغنيسيوم ١٢، وهكذا تتدرج حتى يصل إلى معدن اللانتلنيوم، وله سلسلة خاصة (٥٧ ـ ٧١) أي سبعة وخمسين بروتين، وبإضافة واحد ثم واحد تدريجيًا إلى معدن ٧١

بروتون، ثم يتدرج أيضًا حتى يصل إلى رقم ٨٩ في عنصر الأكتانيوم، ولهذا سلسلة خاصة تمتد (٨٩ ـ ١٠٣).

كل هذه الأرقام مقدرة تقديرًا، ويترتب عليها إحكام المركبات التي تتكون من هذه العناصر حتى تكون وفق مقاديرها التي هي عليها، وهذا الترتيب العجيب هو الذي هيأ للعالم الكيماوي الروسي مندلييف أن يكتشف الجدول الدوري للعناصر الموجودة في الطبيعة، وكان نقطة تحول في فهم العناصر وترتيبها، فهي موجودة وفق قانون محكم، وليست ناشئة عن الصدفة العمياء، أو عن طفرات عشوائية كما يحلو ذلك للذين فقدوا نعمة الإيمان، وبإتقان النظر في هذه الذرات وترتيبها ـ بحيث يضاف إلى كل ذرة سابقة بروتون جديد وعدد معين من النيترونات، فإذا هو عنصر جديد بأوصافه المتميزة وخواصه العجيبة ـ يتحقق كل ناظر أنّ هذا الترتيب يستحيل أن يكون ناشئًا إلا عن صنع خبير حكيم يعلم السر في السماوات والأرض، فالهيليوم ـ كما سبق ـ فيه بروتونان، وهو عنصر غازي من الغازات الخاملة، ويأتي بعده في الترتيب اللتيوم وهو عنصر معدني يعد من المعادن النشيطة، وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة بالغة تبوئ كل شيء مبوأه، وتنزل كل دقيق وجليل منزله في نظام رتيب محكم.

وللنيترونات دور مهم في إعطاء كل ذرة من كل عنصر وزنها، فالهيدروجين الذي فيه بروتون واحد وزنه الذري واحد، والهيليوم وزنه الذري أربعة لأن فيه بروتونين ونيترونين، واللتيوم وزنه الذري ستة لأن فيه ثلاثة بروتونات وثلاثة نيترونات، وأما البوليوم وزنه الذري تسعة لأنه فيه أربعة بروتونات وخمسة نيترونات، وهكذا... إلخ.

وهذا التصنيف الدوري الذي اكتشفه مندلييف مكن من تحديد عناصر ما كانت مكتشفة من قبل لأن ترتيب الجدول الذري يجعل هناك نوعًا من

القفزات أو الفجوة ما بين عنصر وعنصر في الوزن الذري وعدد البروتونات، وهو الذي دعا مندلييف إلى تصور أنّ هذا القانون يحتم وجود عناصر جديدة لم تكتشف بعد، وقد تم اكتشافها بعد ذلك، وهي الكانديوم والجرمانيوم والفاليوم وتكنتيوم والاستاتين والفرنسيوم والبرومنيوم وهو دليل على الدقة والروعة في بناء الكون وتدرجه وإحكام عناصره.

وعلينا أن نعرف كيف تتوزع الإلكترونات في المدار الخارجي الذي يحيط بالنواة، وإذا أدركنا أنّ عدد الإلكترونات يجب أن يساوي عدد البروتونات الموجودة في النواة حتى تزن الذرة كهربيًا لتتعادل الشحنات الكهربية، فلا تؤثر النيترونات على هذا التوازن باعتبارها حيادية، وإن كانت تؤثر في الوزن الذري للجوهر، فإنّ الإلكترونات لا تتوزع في مدار واحد، وقد رمز لها بأحرف (ك. ل. م. ن) (K. L. M. N).

وهناك قانونان يحكمان توزع الإلكترونات في المدارات الخارجية: ـ

أولهما: النظام الثماني: وذلك أنّ تكون الذرة يلزم لاستقرارها الخارجي أن تكون في المدار الأخير ثمانية إلكترونات، فإذا لم يوجد هذا العدد عمدت إما إلى طرح الإلكترونات الخارجية وإما إلى أخذ الإلكترونات حتى يكتمل الاتزان الخارجي، ومثال ذلك الفلور وهو غاز فالنواة فيها ٩ بروتونات و ١٠ نيوترونات وعليه فالوزن الذري ١٩، في المدار الخارجي في الطبقة الأولى K يوجد إلكترونان، وفي الطبقة الثانية يوجد ٧ إلكترونات ومجموع الإلكترونات ٩ وهي تعادل عدد البروتونات الموجودة في النواة، وبهذا يحصل اتزان الذرة من الناحية الكهربائية، ولكن كما سبق من ناحية النظام الثماني يوجد في المدار الأخير ٧ إلكترونات لذلك تحتاج إلى إلكترون جديد حتى يتزن العنصر من ناحية التعامل الخارجي، ولهذا يأخذ إلكترونًا، وتصبح شحنة هذا الغاز سلبية، وذلك لأن عدد الإلكترونات أصبح ١٠ بينما

البروتونات ٩ فرجحت كفة الإلكترونات بواحد، وبهذا أصبحت شحنة هذا الغاز سلبية بمقدار شحنة واحدة، وهكذا الشأن في كل الذرات.

ثانيهما: أنّ عدد الإلكترونات في كل طبقة من المدارات تتوزع وفق القانون (٢ن^{٢} ـ $2N^2$)، حيث يرمز N رقم الطبقة، وهكذا نجد أنّ الطبقة الأولى فيها إلكترونان ٢ = ٢×١^{٢} والطبقة الثانية فيها ثمانية إلكترونات ٨ = ٢×٢^{٢} والطبقة الثالثة فيها ١٨ (١٨ = ٢×٣^{٢}) والرابعة ٣٢ (٣٢ = ٢ × ٤^{٢})، وهكذا سير هذا القانون الذي يحكم نظام الذرة، ويتبين بهذا أنّ بناء الذرة بناء فذ مدهش يتدرج من الهيدروجين حتى اللورانسيوم فيكون المجموع العام للعناصر الموجدات في الكون ١٠٣، منه المعادن وأشباه المعادن والغازات والعناصر المشعة وغير المشعة، وهي تتدرج بشكل عجيب بإضافة بروتون إلى الذي يسبقه، وعدد من النيترونات جديد، فيتشكل عنصر جديد يختلف عن الذي يسبقه اختلافًا جوهريًا، من ناحية التفاعلات والخواص، مع الوحدة الأساسية للبناء، وهي البروتون والنيترون والإلكترون في كل العناصر الموجودة في الكون.

فلو أخذ عنصر النيون مثلًا لوجد فيه من البروتونات ١٠ والنيترونات ١٠، فيكون الوزن الذري ٢٠، ويليه عنصر الصوديوم؛ وعدد البروتونات فيه ١١ والنيترونات ١٢، فيكون الوزن الذري ٢٣، ولكن ـ مع هذا الفرق البسيط بين الأول والثاني ـ يختلفان، فالأول غاز والثاني معدن، والأول خامل والثاني نشيط، فما الذي باين بينهما حتى يفترقا، مع أنه يليه مباشرة ولا يتميز عنه إلا ببروتون واحد فقط ونيترونين اثنين؟!.

هذا ما لم يجد العلم له تفسيرًا إلا رد ذلك إلى من يعلم الغيب في السماوات والأرض[١].

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٢٥ ـ ٣٣.

كل هذه الحقائق تثبت ـ بلا ريب ـ أنّ الذرة ـ ولو تناهت في الصغر ـ هي بذاتها سفر حافل بآيات الله تعالى الشاهدة عليه، القاطعة بوحدانيته، فإنّ جهود البشر ولو تضافرت جميعًا على أن توجد من العدم ذرة واحدة لباءت بالفشل الذريع، ولذلك تحدى الله سبحانه الذين يدعون من دونه آلهة أخرى أن يثبتوا أنّ لمن يدعون مثقال ذرة مما في هذا الوجود، وذلك في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وأنى يملكون مثقال ذرة وهم لا يحيطون علمًا بما تحويه أي ذرة من ذرات الوجود من عجيب الصنع وبديع الإتقان، مما جعل جميع الذرات على اختلاف عناصرها تتوحد وتجتمع وتأتلف في إيجاد مركباتها، حتى تكون باجتماعها شيئًا واحدًا لا نشاز فيه ولا اضطراب، لأن ذرات كل عنصر من العناصر التي جاوزت التسعين مركبة فيه بمقدار معين، بحيث لا تزيد ذرة ولا تنقص، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وهذا ما جعل الدكتور روبرت جميس يقول: «ربما يكون أكثر الأمثلة عن الدقة والنظام، الذي يمكن أن نجده في الكون هو بنية وتركيب العناصر في الطبيعة، وأذكر أننا عندما كنا طلابًا في المدرسة تعلمنا في حصة العلوم أنّ لكل عنصر من عناصر المادة في الطبيعة رقمًا محددًا يتميز به يسمى الرقم الذري، وكنا نتساءل كيف توصل العلماء إلى تحديد الرقم الخاص لكل عنصر، وما أهمية اختلاف هذه الأرقام، وربما أخبرنا أساتذتنا بذلك ولكنني لم ألق له بالا آنذاك، ولم أهتم بالتحقيق منه إلى أن مرت عقود من عمري اكتشفت بعدها سر تلك الأرقام»[1].

فيا ترى كيف يمكن أن تكون جميع هذه الأرقام المقدرة تقديرًا دقيقًا أفرزتها صدف عمياء نتيجة خبط عشوائي، فإذا كان صنع إبرة خياطة من أحد

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص ١٠٣.

المعادن لا يمكن أن يكون إلا بتصميم مهندس وتنفيذ عامل، ويستحيل أن يفرزها معدنها تلقائيًا على وجه الصدفة، فكيف يمكن أن تكون الذرة التي هي اللبنة الأولى في بناء هذا الكون الواسع وجدت تلقائيًا، من غير أن تكون وراءها إرادة مصرفة، وقدرة مبدعة، وإحاطة بكل شيء علمًا؟! بل كيف يمكن أن يعطى كل عنصر من العناصر التي تعود إليها الذرات رقمه الخاص الدال عليه، الذي لا يتجاوزه إلى غيره؟ أم كيف يمكن للمُرَكَّبَات الكونية أن تأتلف العناصر الموجودة فيها بمقاديرها الدقيقة المحددة بحسب أعداد ذراتها المضبوطة، لو لم يكن وراء ذلك من أحصاها عددًا، ووسعها علمًا، وأحاط بها قدرة وحكمًا، على أنّ في تركيب كل ذرة نواة ودائرة حكمة بالغة في تقدير كل جزء بحسبه، وترتيب كل شيء بقدره، وقد علمت أنّ الذرة تمثل المجموعة الشمسية وسائر المجاميع في نظامها، بحيث يدور غلافها في فضائها دورانًا سريعًا لا يفوق سرعته إلا سرعة الضوء، بحيث تبلغ في السرعة ثلاثة آلاف كيلومتر في الثانية الواحدة، فمن الذي قدر ذلك وضبطه بهذا الإتقان، لو لم يكن ذلك راجعًا إلى العليم الحكيم، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟!.

وقد كان لاكتشاف علماء الكون هذه الأسرار في البناء الذري تبصير لهم وفتح لمداركهم في إدراك أنّ وراء العناصر التي اكتشفوها عناصر أخرى لم تكتشف من قبل، ففي العصور السابقة كان أرسطو عام ٣٣٠ قبل الميلاد يعتبر العناصر أربعة عناصر فقط، وهي الأرض والهواء والنار والماء، «وقبل ثلاثة قرون من الزمن أو ما يزيد على ذلك قليلًا ما كانت العناصر المعروفة آنذاك تتجاوز ١٢ عنصرًا، منها الكربون والزئبق والنحاس والحديد والكبريت والفضة ثم اكتشفوا بقية العناصر مع تقدم الزمن، حتى بلغ عددها ٩٢ عنصرًا، وقد لاحظوا أنّ العناصر إبان اكتشافهم تتبع ترتيبًا معينًا، له علاقة ببنية الذرة في كل منها، وأنهم عند ترتيبهم العناصر بالتسلسل حسب هذه البنية تبدو لهم

فجوات في ترتيبها، وقد توقع أولئك العلماء ـ وفي مقدمتهم العالم الروسي الشهير مندلييف، الذي هو أول من تنبه لتسلسل الأرقام الذرية بحسب عناصرها، ووضع أول جدول لأوزانها ـ قبل أن يكتشفوا جميع العناصر المعروفة الآن، أن تكون وراءها عناصر أخرى مجهولة لم تكن مكتشفة بعد، وهي تملأ تلك الفجوات، وقد توقعوا أنّ هذه العناصر سيتحقق اكتشافها يومًا ما، وتصوروا مواصفاتها وخصائصها، بحسب ما فهموه من ذلك الترتيب الدقيق في بنية كل ذرة مما اكتشفوه.

وقد تحقق اكتشاف هذه العناصر؛ التي ملأت الفجوات في جدول الأرقام الذرية، ويرجع إدراكهم لهذا إلى كون العناصر الموجودة في الطبيعة تتبع ـ كما تقدم ـ نظامًا دقيقًا، وترتيبًا مضبوطًا، يتعلق ببنية ذراتها، وقد أثبت ذلك العلم بشكل قاطع لا لبس فيه.

ومنذ فترة سبقت كانت كتب الكيمياء ـ التي تدرس في المدارس ـ مشتملة على جدول تصطف فيها العناصر بأعمدة وسطور منتظمة حسب رقمها الذري، وبيان ذلك أنّ ذرة كل عنصر من عناصر الطبيعة تتألف من نواة مركزية ثابتة تدور حولها جسيمات تسمى إلكترونات، والنواة تتألف من نوعين من الجسيمات هما البروتونات والنيترونات ـ كما تقدم ذكر ذلك ـ وقد تمكن العلماء من معرفة عدد البروتونات التي يحتويها كل عنصر، وهذا العدد هو الذي يميز كل عنصر عن غيره، وهو المعبر عنه بالعدد الذري، فالهيدروجين نواة ذرته تشتمل على بروتون واحد فقط، وعليه فإنّ عدده الذري رقم (١) أما اليورانيوم ـ الذي هو أثقل العناصر على الإطلاق ـ فنواة ذرته تحتوي على (٩٢) بروتونًا، ولذلك كان عدده الذري (٩٢)، ومعنى ذلك أنّ العدد الذري للعناصر الموجودة في الطبيعة (٩٢) وهذه الأعداد تبدأ من (١) إلى (٩٢) بالترتيب.

وبهـذا؛ تمكنوا من ترتيب العناصر في جدولها بالتسلسل حسب رقمها الذري، وكان توقعهم أن يكتشفوا ما تم اكتشافه من بعد، مبنيًا على يقينهم بأنّ ترتيب العناصر ليس عشوائيًا، وأنّ جدول الأرقام الذرية مصمم بدقة متناهية، وقد تم ما توقعوه حتى اكتمل الجدول وسدت جميع الفجوات، ومن أمثلة هذه التوقعات ما كان للعالم الروسي **ديمتري مندلييف** عندما فقد العنصر ذا الرقم الذري (٣٢) فتوقع اكتشافه بناء على ما ذكر، وسماه **الغيرمانيوم**، وقد تصور قبل اكتشافه خصائصه الفيزيائية والكيميائية الدقيقة، مثل درجة انصهاره وكثافته وغير ذلك، وقد تحقق كل ذلك حسبما كان يتصور، وبالعدد الذري نفسه بعد عقود من وفاته، وتتابعت من بعده الاكتشافات حتى سدت جميع الفراغات في الجدول الذري»[1].

وتحتوي عناصر المجموعة الواحدة على العدد نفسه من إلكترونات التكافؤ: «وهي الإلكترونات الموجودة في الغلاف الخارجي، وتتشابه عناصر المجموعة الواحدة في الخصائص العامة، ويزداد عدد هذه الإلكترونات كلما انتقلنا نحو اليمين في الجدول الدوري، وتحتوي عناصر الدورة الواحدة من الجدول الدوري على العدد ذاته من الأغلفة التي تحتلها الإلكترونات عند التوزيع الالكتروني.

تقع العناصر المعدنية يسار الجدول الدوري الحديث ـ وهي عبارة عن عناصر صلبة في معظمها عدا الزئبق ـ على درجات الحرارة العادية، بالإضافة إلى تمتعها بالبريق المعدني، وقابليتها العالية للطرق والسحب، وتوصيلها الجيد للكهرباء والحرارة، وتقع العناصر اللامعدنية يمين الجدول الدوري، وهي عبارة عن عناصر درجات انصهارها منخفضة، وضعيفة

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٠٣ ـ ١٠٥. «بتصرف»

التوصيل الكهربائي والحراري، وهي تتنوع في طبيعتها بين الطبيعة الغازية والسائلة والصلبة»[1].

لا يخفى مع هذا أنّ كل ذي بصر وبصيرة لا يبقى في نفسه أي ريب ـ عندما تطالعه هذه الحقائق ببراهينها القاطعة وحججها الدامغة ـ أنّ هذا كله راجع إلى حكمة حكيم، وقدرة قدير، وعلم عليم، لا يمكن أن يفوته أي شيء مما في الوجود، إحصاء له، وخبرة بحاله، وإدراكًا لما يترتب على وجوده أو عدمه من النتائج الإيجابية أو السلبية، فلذلك أحكم بناء الذرة فما فوقها، وشمل ذلك هذا الوجود بأسره، ولا يتجاهل هذه البراهين والحجج إلا من أعمى الله بصيرته فأفقده هداه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وبعد عرض الدكتور روبرت جميس غالغي لمجموعة من هذه الحقائق ـ كما ذكرت ذلك فيما سلف أتبعها بهذا السؤال: «هل يمكن أن يكون هذا الترتيب الدقيق المحكم لعناصر الطبيعة قد تم بالصدفة؟.

لن نجيب؛ نترك الجواب لك عزيز القارئ، دع عنك ما سبق ولنفكر في التنوع الهائل المذهل لعناصر الطبيعة، الذي نتج عن اختلاف بسيط جدًا في تركيب ذرات العنصر، فعلى سبيل المثال هناك فرق كبير بين الذهب والزئبق، الذهب معدن جميل براق أصفر، في حين أن الزئبق سائل أبيض ذو بنية لا يشابهه فيها أي عنصر آخر، فهو يستعصي على من يريد أن يمسكه لدرجة أنّ بنيته تسمى زئبقية، والشخص الذي يجيد الهرب يسمى زئبقيًا، والمفاجأة أن الرقم الذري للذهب هو (٧٩)، والرقم الذري للزئبق هو (٨٠)، أي أنّ الفرق بين بنية الذهب وبنية الزئبق هي بروتون واحد فقط!، وهذا البروتون كان كافيًا لهذا الاختلاف الجذري في خصائص كل منهما!، أليس في هذا

(١) ينظر موقع موضوع/الكيمياء/عدد العناصر في الجدول الدوري:
https://mawdoo3.com/

الأمر دليل على وجود تصميم وخبرة وحكمة وراء هذه العناصر؟!. الحكم لك عزيزي القارئ.

وهناك أمر يتعلق بهذا الجدول المعروف بجدول مندلييف، وهو أنّ العناصر التي تنتمي إلى عمود واحد منه تتمتع بخصائص متشابهة، فالعمود الأخير مثلًا يحتوي على غازات تتميز كلها بأنها تتوهج لدى تعرضها لشرارة كهربائية، ومنها غاز النيون المعروف الذي نستفيد منه هذه الخاصية فيه باستخدامه في الإضاءة.

فهل يا ترى يمكن أن ننسب هذا الترتيب والدقة في العناصر التي تحتويها الطبيعة إلى الصدفة أو العشوائية؟! أم إلى فعل مقصود موجه حكيم؟.

دعنا نأخذ رأي بعض العلماء المختصين، في هذا الأمر، يقول الكاتب العلمي ل. أ. بينيت: (إنّ الإيمان بأنّ خالقًا حكيمًا أبدع الكون من العدم وسيره لبلوغ غاية واضحة وهدف محدد هو أمر يقبله العقل بسهولة، ولكن الذي لا يقبله العقل هو الإيمان بأنّ كل ما يراه في هذا الكون ليس إلا تراكمًا لمجموعة لا نهائية من الصدف العمياء). ويقول العالم الرياضي والفلكي ديفيد بلوك: (إننا نعيش في كون كل ما فيه دقيق ومحسوب، ليكون بيتًا لنا، وأومن أنّ من ورائه يد الله).

هذا رأي بعض العلماء، فما رأيك عزيزي القارئ؟»[1].

وكم نجد فيما حرره علماء الطبيعة من اعتراف بهذه الحقائق التي لا تقبل الشك، كما نجد ذلك في كلام جون **كليفلاند كوثران**: «إننا لنرى أنّ التطورات المهمة التي تمت في جميع العلوم الطبيعية خلال المائة السنة الأخيرة، بما في ذلك الكيمياء، قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادة

---

(١) روبرت: **خرافة التطور**، ص١٠٥ ـ ١٠٧.

والطاقة، وعند استخدام هذه الطريقة تبذل كل الجهود للتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة التي تجعل النتيجة التي نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة، وقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بصورة ثبتت في الماضي ولا تزال ثابتة في الحاضر أنّ سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضاءل حجمه، لا يمكن أن يكون سلوكًا عشوائيًا، بل إنه على نقيض ذلك يخضع لقوانين طبيعية محددة. وفي كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة طويلة من الزمن، ولكن بمجرد معرفة القانون وتحديد الظروف التي يعمل في ظلها، يثق الكيمويون فيه كل الثقة، ويظل القانون عاملًا ومؤديًا إلى نفس النتائج، وليس من المعقول أن يكون لدى الكيمويين كل هذه الثقة في القوانين الطبيعية لو أنّ سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائي الذي تتحكم فيه المصادفة، وعندما يتم أخيرًا إدراك الأسباب التي تجعل هذا القانون الطبيعي عاملًا وتفسر لنا حقيقته، فإنّ أي أثر لفكرة العشوائية أو المصادفة في سلوك المادة أو الطاقة سوف يندثر اندثارًا تامًا.

ومنذ مائة سنة تقريبًا رتب العالم الروسي **ماندالييف** العناصر الكيموية تبعًا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبًا دوريًا، وقد وجد أن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة ويكون لها خواص متشابهة، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد المصادفة؟ وكذلك تمكن العلماء بفضل هذا التركيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد، بل أمكن التنبؤ بخواص هذه العناصر المجهولة وتحديدها تحديدًا دقيقًا، ثم صدقت نبوءاتهم في جميع الحالات، فاكتشفت العناصر المجهولة، وجاءت صفاتها مطابقة كل المطابقة للصفات التي توقعوها.

فهل يبقى بعد ذلك مكان للاعتقاد في أن أمور الكون تجري على أساس المصادفة؟.

إن اكتشاف **ماندالييف** لا يطلق عليه اسم المصادفة الدورية، ولكنه يسمى (القانون الدوري)!

وهل يمكن أن نفسر على أساس المصادفة ما وصفه وتوصل إليه العلماء السابقون من تفاعل ذرات عنصر (أ) مع ذرات عنصر (ب)، وعدم تفاعلها مع عنصر (ج)؟ كلا؛ إنهم قد فسروا ذلك على أساس أن هناك نوعًا من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات عنصر (أ) وجميع ذرات عنصر (ب)، ولكن هذا الميل أو الجاذبية منعدمة بين ذرات عنصر (أ) وذرات عنصر (ج).

وقد عرف العلماء كذلك أن سرعة التفاعل بين ذرات المعادن القلوية والماء مثلًا تزداد بزيادة أوزانها الذرية، بينما تسلك عناصر الفصيلة الهالوجينية سلوكًا مناقضًا لهذا السلوك كل المناقضة، ولا يعرف أحد سبب هذا التناقض، ومع ذلك فإن أحدًا لم يرجع ذلك إلى محض المصادفة، أو يظن أنه ربما يتعدل سلوك هذه العناصر بعد شهر أو شهرين، أو تبعًا لاختلاف الزمان أو المكان، أو يخطر بباله أن هذه الذرات ربما لا تتفاعل بنفس الطريقة، أو بطريقة عكسية، أو طريقة عشوائية.

وقد أثبت اكتشاف تركيب الذرة أن التفاعلات الكيموية التي نشاهدها والخواص التي نلاحظها ترجع إلى وجود قوانين خاصة، وليست محض مصادفة عمياء»[1].

وكذلك قول د. **واين أولت** المتخصص في الكيمياء الجيولوجية في مقاله **التوافق بين العلوم**: «ولا شك أنّ اعتقاد وجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيرًا بسيطًا سليمًا واضحًا عن النشأة والإبداع والغرض أو الحكمة، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر، أما النظريات التي ترمي

---

(١) نخبة من العلماء الإمريكيين: **الله يتجلى في عصر العلم**، النتيجة الحتمية، ص ٢٧ ـ ٢٩.

إلى تفسير الكون تفسيرًا آليا فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة، فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد إكمال الصورة والبعد بها عن التشويه، ولكن ـ حتى بغض النظر عن الاعتبارات الدينية عامة ـ نجد أنّ فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شك، بل إنّ ذلك النظام البديع الذي يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء.

ولقد رفض كثير من المشتغلين بالعلوم فكرة ما وراء الطبيعة أو ما فوقها، ومع ذلك فإنّ كثيرًا ممن رفضوا هذه الفكرة يتحدثون في الوقت ذاته عن الظواهر الطبيعية التي لا يعلمون عن كنهها شيئًا، وإنّ مجرد تسمية هذه الظواهر طبيعية يدل على أنها ظواهر متكررة، ولكن ذلك لا يعتبر شرحًا لهذه الظواهر، وعلى ذلك فإنّ تسليم الإنسان في وقت من الأوقات بحدوث بعض الظواهر سواء أكانت طبيعية أم من وراء الطبيعية يعتبر نوعًا من التسليم أو الإيمان بها، وقد نستطيع في ضوء خبرتنا العلمية أن نتقدم بالسؤال التالي: هل تم اختراع جهاز الرادار نتيجة للمصادفة أم عن طريق التصميم والاختراع؟ ثم هل تم تكوين جهاز الرادار الموجود بجسم الوطواط والذي لا يحتاج من الحيوان إلى انتباه ولا يتطلب منه إصلاحًا، والذي يستطيع أن يورثه لذريته عبر الأجيال ـ نقول هل تم كل ذلك ـ عن طريق المصادفة أم عن طريق التصميم والإبداع؟ إنّ الخبرة العلمية للإنسان تقوم على التصميم وعلى إدراك الأسباب، وعلى ذلك فإنّ المشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم تسليمًا منطقيًا بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه أو قدرته موجود في كل مكان، يحيط مخلوقاته برعايته، سواء في ذلك الكون المتسع أو كل ذرة أو جزيئة من جزيئات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة.

هنالك ظواهر أخرى عديدة غير التي أشرنا إليها، مما لا يمكن تفسيره أو إدراك معناه إلا إذا سلمنا بوجود الله، ومن ذلك مثلًا هذا الفراغ اللانهائي، وما يسبح فيه من النجوم والكواكب التي لا يحصيها عد ولا حصر، ومن ذلك قابلية المادة للانقسام إلى جزيئات أساسية بالغة الصغر مهما كانت طبيعتها، ومن ذلك التشابه الذي نشاهده بين جميع الكائنات الحية التي نعرفها، مع اتصاف كل فرد، بل كل بنان بل كل ورقة من أوراق الأشجار، وقطرة من قطرات الماء، بصفات خاصة تميزها عن غيرها. وهنالك أيضًا تلك الهوة العميقة التي تفصل بين الإنسان وسائر الكائنات الأرضية الأخرى، وتجعله ممتازًا عليها بعقله ومهارته اليدوية»[١].

ومثله قول د. **إدوارد لوثر كيل**: «إنّ دراسة العلوم بعقل متفتح تجعل الإنسان يسلم بضرورة وجود الله والإيمان به»[٢].

وقول **لورد كلفن** ـ وهو من كبار علماء الطبيعة البارزين في العالم ـ: «إذا فكرت تفكيرًا عميقًا فإنّ العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله» وقد أورد كلامه هذا **جون كليفلاند كوثران** في مقال له **النتيجة الحتمية** وأتبعه قوله: «ولا بد أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة»[٣].

ثم قال بعد ذلك: «إنّ التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل من أننا إذا فكرنا تفكيرًا عميقًا فإنّ العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله»[٤].

---

(١) المرجع السابق، التوافق بين العلوم، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

(٢) المرجع السابق، فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز، ص ٣٦.

(٣) ينظر؛ المرجع السابق، النتيجة الحتمية، ص ٢٧.

(٤) ينظر؛ المرجع السابق، النتيجة الحتمية، ص ٣١.

وقال **بول كليرانس ابرسولد في مقاله الأدلة الطبيعية على وجود الله**: «إنّ العلم والعقل الإنساني وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا وجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة؟ والإنسان بما أوتي من قدرة رائعة. وبرغم أنّ العلوم تستطيع أن تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولد المجرات والنجوم والذرات وغيرها من العوالم الأخرى، فإنها لا تستطيع أن تبيّن لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء هذا الكون، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي، والحق أنّ التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله».

وقال أيضًا: «إنّ الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة، هو أنّ الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشآ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إنّ لهما بداية، ولا بد لكل بداية من مبدئ، كما أننا نعرف أنّ هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أنّ وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان. إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم»[1].

وقال **توماس دافيز باركس في مقاله الماء يروي لك القصة**: «وإنني أجد شخصيًا أنّ تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله حكيم خبير وتصميم خالق علوي، يعدّ تفسيرًا مرضيًا للنفوس ومقنعًا للعقول.

إنني أرى في كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة، إنني ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم»[2].

---

(١) المرجع السابق، الأدلة الطبيعية على وجود الله، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) المرجع السابق، الماء يروي لك القصة، ص٥١.

وقال **جون وليم كلوتوس في مقاله الله والكون المعقد**: «إنّ هذا العالم الذي نعيش فيه، قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة، إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مدبر، والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى، ولا شك أنّ العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة، وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده»[1].

وقال **ايرفنج وليام في مقاله المادية وحدها لا تكفي**: «إنّ العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عدّ، وهي التي تتكون منها جميع المواد، كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة، ولا شك أنّ النظرية التي تدعي أنّ جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن، نقول إنّ هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم، فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع».

وقال: «والعلوم بحكم طبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله بطرقها المادية أو أن تدرك كنه ذاته تعالى، ولكن ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيرًا من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لا بد أن يكون لهذا الكون باتساعه الفسيح ونظامه المعجز، مدبر لا نراه، ولا نستطيع أن ندرك كنهه».

وقال أيضًا: «إنني أعتقد في وجوده سبحانه لأنني لا أستطيع أن أتصور أنّ المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الإلكترونات والبروتونات الأولى أو الذرات الأولى أو الأحماض الأمينية الأولى أو البروتوبلازم الأول

---

(١) المرجع السابق، الله والكون المعقد، ص٥٢.

أو البذرة الأولى أو العقل الأول، إنني أعتقد في وجود الله لأن وجوده القدسي هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها»[١].

وقال لورنس كولتون ووكر في مقاله **حقائق من سجل الغابات** نقلًا عن كارل هايم في كتابه **المسيحية والعلوم الطبيعية**: «إنّ عجائب الكون لا تسمح بالإيمان فحسب، بل تدعو الناس إلى هذا الإيمان، وإنّ الاستدلال بالكون على وجود الله قد عاد إلى الظهور من جديد في عصر النهضة والتفكير بسبب انهيار النظرية الآلية في تفسير الكون بعد أن كادت هذه النظرية تقضي على هذا النوع من الاستدلال»[٢].

ونقل عن فيليبس في تعليقه على كلام الفيلسوف بول «إنّ قدرة الله تتجلى في كل شيء وكل شيء يقوم بقدرة الله» أنه قال: «لقد ظهر الحق؛ فمنذ بدأ الله هذا الكون تتجلى آياته، وقوته الخالدة في كل ما يقع عليه الحس أو يحيط به العقل»[٣].

وقال رسل تشارلز آرتست في مقاله **الخلايا الحية تؤدي رسالتها**: «لقد وضعت نظريات عديدة، لكي تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البورتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أنّ هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات، ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية، قد باءت بخذلان وفشل ذريعين.

---

(١) المرجع السابق، المادية وحدها لا تكفي، ص٥٨ ـ ٦٠.

(٢) المرجع السابق، حقائق من سجل الغابات، ص٦٦.

(٣) المرجع السابق، حقائق من سجل الغابات، ص٧٣.

ومع ذلك فإنّ من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أنّ مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات عن طرق المصادفة، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده، ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق هذه الأشياء ودبرها.

إنني أعتقد أنّ كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها، وأنّ ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق، ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيمانًا راسخًا»[١].

وقال **دونالد روبرت كار** في مقاله **موجهات جيولوجية**: «إنّ الكيمياء الجيولوجية التي أدرسها تعلمنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة واسعة، وأن نفكر في الزمان على أساس بلايين السنين، وإلى المكان نظرة تشمل الكون بأسره، وإلى العمليات المختلفة بحيث تشمل دوراتها الكون كله. إن مثل هذه النظرة إلى الأمور تجعلنا نزداد تقديرًا لعظمة الله وجلاله، أما غير المؤمنين فسوف يمتثلون رهبة ورعبًا، وقد يضطرون آخر الأمر أن يسلموا بأنّ السماوات تشهد بعظمة الله وأنّ إحكامها يدل على بديع صنعته»[٢].

ويقول **كلودم هاتا واي** في مقاله **المبدع الأعظم**: «ليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم، وبرغم استقلال بعضها عن بعض، فإنها متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيدًا في كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكتروني الذي صنعته، فإذا كان هذا الجهاز يحتاج

---

(١) المرجع السابق، الخلايا الحية تؤدي رسالتها، ص ٨٣.

(٢) المرجع السابق، موجهات جيولوجية، ص ٩٢ ـ ٩٣.

إلى تصميم أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمى البيولوجي الذي هو جسمي، والذي ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه، إلى مبدع يبدعه؟».

وقال: «إنّ هذا الكون ليس إلا كتلة هائلة تخضع لنظام معين، ولا بد له إذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادي في طبيعته، إنه هو الله اللطيف الخبير الذي لا تدركه الأبصار»[1].

وقال **أدوين فاست في مقاله نظرة إلى ما وراء القوانين الطبيعية**: «عندما تحاول العلوم أن تفسر لنا منشأ الكون، نجدها تبيّن لنا ـ في ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة ـ كيف تتفاعل الجزيئات الأساسية لكي تكون لنا جميع العناصر المعروفة، فجميع العناصر التي يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة، وقوة جاذبة تجعلها تنضم بعضها إلى بعض، أما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات، فإنّ ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحًا أو بيانًا.

ومهما بالغنا في تحليل الأشياء وردها إلى أصولها الأولى فلا بد أن نصل في نهاية المطاف إلى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون، ويعد ذلك في ذاته دليلًا على وجود إله قادر مدبر، هو الذي قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير في طريقها المرسوم، وقد خلق الله الإلكترونات والبروتونات والنيترونات وجعل لها خواصها المعينة، فرسم لها بذلك سلوكها وأقدارها.

وعندما تحاول عقولنا المحدودة أن ترتد إلى الوراء، وتبحث عن ساعة الصفر في تاريخ هذا الكون، نجدها تسلم ضمنًا بأنّ لهذا الكون بداية ولحظة

---

(١) المرجع السابق، المبدع الأعظم، ص ٩٥ ـ ٩٧.

معينة نشأت فيها الذرات الدقيقة التي تتألف منها مادة هذا الكون، ولا بد أن تكون خواص هذه الجزيئات التي تحدد سلوكها، قد ظهرت معها في نفس الوقت، ومن المنطق السليم أن يكون السبب الأول الذي أوجد هذه الجزيئات هو الذي أودع فيها صفاتها التي تحدد سلوكها. ولا بد أن نسلم بأنّ قدرة الخالق وتدبيره وإحكامه تفوق قدرة وتدبير الإنسان، بل البشر جميعًا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. وإن أذكى العلماء لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأنّ الإنسان لا يزال حتى اليوم في مهد معرفته بأسرار هذا الكون وظواهره.

فإذا انتقلنا إلى العالم العضوي، فإننا نلاحظ أنّ سلوكه يزداد تعقيدًا، وعلى ذلك فإنّ احتمال تفسير هذا السلوك على أساس المصادفة المحض يتضاءل إلى حد لا نهائي، فالمواد الأساسية التي تدخل في بناء المواد العضوية هي الأيدروجين والأكسجين والكربون مع كميات قليلة من النيتروجين والعناصر الأخرى، ولا بد أن تجتمع ملايين من هذه الذرات حتى تتكون أبسط الكائنات الحية، فإذا نظرنا إلى الأنواع الأخرى التي هي أكبر حجمًا، وأشد تعقيدًا، فإنّ احتمال تآلف ذراتها على أساس المصادفة المحض يقل إلى درجة لا يتصورها العقل.

وإذا نظرنا إلى الكائنات الحية الراقية، فإننا نرى أن من بينها ما لديه من الذكاء ما يجعله قادرًا على التخطيط والابتكار والقيام بأعمال تقرب من حد الإعجاز، وتحاول أن تتغلب على القوانين الطبيعية، فإذا تصورنا أن كل ذلك يتم بمحض المصادفة التي تجعل الجزيئات تجتمع بصورة معينة لكي تكوّن ذرات يتآلف بعضها مع بعض لكي تكون أجسامًا تقوم بدورها بالتكاثر، وأداء سائر وظائف الحياة، ويكون لها عقل وتفكير، دون أن يكون وراء كل ذلك إله مدبر هو الذي خلق فصور فأبدع، فإنّ ذلك ما لا يقبله عقل أو يتصوره فكر، وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرض مستحيل من الوجهة العملية،

وطرحنا وراء ظهورنا فرضًا منطقيًا بسيطًا ألا وهو وجود الله الذي أنشأ هذا الكون وبدأه بقدرته، فالله هو المبدئ، كلمات بسيطة ولكنها بساطة تتسم بالجلال، إنه جلال الحق وقدسيته»[1].

وقال **جون أزولف بوهلر في مقاله الله والقوانين الكيماوية**: «إنّ الإنسان يشاهد التنظيم والإبداع حيثما ولى وجهه في نواحي هذا الكون، ويبدو أنّ هذا الكون يسير نحو هدف معين، كما يدل على ذلك النظام الذي نشاهده في الذرات، فهنالك نظام معين تتبعه الذرات جميعًا من الأيدروجين إلى اليورانيوم، وما بعد اليورانيوم، وكلما ازداد علمنا بالقوانين التي تتحكم في توزيع البروتونات والإلكترونات لإنتاج العناصر المختلفة، ازداد إيماننا بما يسود عالم المادة من توافق ونظام، وقد يجيء اليوم الذي ينكشف لنا فيه كيف تتجمع الطاقة لكي تُكوِّن تلك الكتل من المادة، ولقد كان آينشتاين أول من أظهر العلاقة الموجودة بين المادة والطاقة، ولا يزال الإنسان في بداية الطريق لكشف أسرار الطاقة الذرية، وقد نستطيع في يوم من الأيام أن نحول الطاقة إلى مادة.

وتدل الشواهد على وحدة الكون من الوجهة الكيماوية، ولدينا من الطرق والوسائل ما يمكننا من اختبار كثير من العناصر الموجودة في الكواكب الأخرى، ومعرفة أنها هي نفس العناصر التي توجد على الأرض، وحتى النجوم البعيدة عنا، فإنها تشتمل على عناصر مشابهة لعناصر الأرض، ويعتقد العلماء أنّ القوانين الطبيعية التي تتحكم في هذا الكوكب هي عينها القوانين التي تخضع لها النجوم والكواكب الأخرى في أفلاكها النائية المترامية في الفضاء، فحيثما اتجهنا نجد الإبداع والنظام والتوافق، حتى لم يبق هنالك ظل من شك عندي في أن إلهًا قادرًا قد أبدع هذا الكون وبناه، وحدد وجهته وغايته»[2].

---

(١) المرجع السابق، نظرة إلى ما وراء القوانين الطبيعية، ص٩٩ ـ ١٠١.

(٢) المرجع السابق، الله والقوانين الكيموية، ص١٠٧ ـ ١٠٨.

وقال **ايرل تشستر ريكس في مقاله الكون تحت سيطرة مركزية**: «إنني أجد بوصفي من المشتغلين بالعلوم أنّ النتائج التي وصلت إليها بدراستي العلمية عن الله والكون تتفق كل الاتفاق مع الكتب المقدسة الدينية، التي أؤمن بها وأعتقد في صدق ما جاءت به عن نشأة الكون وتوجيه الله له، وقد يرجع ما نشاهده أحيانًا إلى التعارض بين ما توصّلت إليه العلوم، وبين ما جاء في هذه الكتب المقدسة إلى نقص في معلوماتنا، فقد أشار الإنجيل مثلًا إلى أن قدماء المصريين، كانوا يستخدمون القش في صناعة الطوب، وهو رأي لم تؤيده دراسة الحفريات المصرية، ولكن علماء الآثار ما لبثوا أن اكتشفوا أن القش كان يعطن أولًا في المخامر، ثم يؤخذ بعد ذلك فيخلط بالطين، ويدخل في صناعة الطوب ليزيد من صلابته، فعلينا إذن أن نتريث عندما نجد بعض التعارض بين ما تحدثنا عنه العلوم وبين ما يحدثنا عنه الدين حتى تتبين لنا الحقيقة.

والنظريات الحديثة التي تفسر نشأة الكون والسيطرة عليه بصورة تخالف ما جاء في الكتب السماوية، تعجز عن تفسير جميع الحقائق وتزج بنفسها في ظلمات اللبس والغموض، وإنني شخصيًا أؤمن بوجود الله وأعتقد في سيطرته على هذا الكون»[1].

وقال **ديل سوارتزن دروبر في مقاله عجائب التربة**: «فمما لا شك فيه أنّ هنالك حكمة وتصميمًا وراء كل شيء سواء في السماء التي فوقنا أو الأرض التي من تحتنا، إنّ إنكار وجود المصمم والمبدع الأعظم يشبه في تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الإنسان حقلًا يموج بنباتات القمح الصفراء الجميلة ثم ينكر في نفس الوقت وجود الفلاح الذي زرع والذي يسكن في البيت الذي يقوم بجوار الحقل»[2].

---

(١) المرجع السابق، الكون تحت سيطرة مركزية، ص١١٦.

(٢) المرجع السابق، عجائب التربة، ص١٢٦.

وقال لسترجون زمرمان في مقاله التربة والنباتات: «كلما ازددت دراسة وتعمقًا في دراسة طبيعة التربة والنباتات، ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجابًا وتقديسًا»[1].

وقال سيسل هامان في مقاله الزهر وطيور بالتيمور: «أينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم، رأيت الأدلة على التصميم والإبداع، على القانون والنظام، على وجود الخالق الأعلى.

سر في طريق مشمس وتأمل بدائع تركيب الأزهار، واستمع إلى تغريد الطيور، وانظر إلى عجائب الأعشاش، فهل كان محض مصادفة أن تنتج الأزهار ذلك الرحيق الحلو الذي يجتذب الحشرات فتلقح الأزهار وتؤدي إلى زيادة المحصول في العام التالي؟ وهل هو محض مصادفة أن تهبط حبوب اللقاح الرقيقة على ميسم الزهرة فتنبت وتسير في القلم حتى تصل إلى المبيض فيتم التلقيح وتتكون البذور؟ أفليس من المنطق أن نعتقد بأنّ يد الله التي لا نراها هي التي رتبت ونظمت هذه الأشياء تبعًا لقوانين ما زلنا في بداية الطريق نحو معرفتها والكشف عنها؟ وهل من الممكن أن يغرد الطير، لا لأن له أليفًا فحسب، بل لأن الله يحب تغريده ويعلم أننا نطرب بتغريده.

وكما أنّ هنالك ما لا يحصى من أغاريد الثناء التي تشدوها الطيور كل يوم، والتي لا تصل إلى آذاننا القاصرة الفانية، فإنّ هنالك ما لا يحصى من نعم الله وأفضاله يسبغها على عباده، وهي تنتظر من الإنسان أن يفتح عينيه لكي يراها.

وماذا عن عش طائر بالتيمور؟ من الذي علّم هذا الطير ذلك الفن الرفيع؟ ولماذا تتشابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع؟ إذا قلت

---

(١) المرجع السابق، التربة والنباتات، ص١٣١.

الغريزة فإنّ ذلك قد يعد مخرجًا من السؤال ولكنه إجابة قاصرة، فما هي الغرائز؟ يقول البعض: إنها السلوك الذي لا يتعلمه الحيوان، أليس من المنطق أن نرى قدرة الله تتجلى في هذه الكائنات التي خلقها فسواها تبعًا لقوانين خاصة لا نكاد ندري عن كنهها شيئا؟.

نعم إنني أعتقد بوجود الله، وأعتقد أنه هو القدير الذي خلق الكون وحفظه، وليس ذلك فحسب بل هو الذي يرعى درة خلقه وهو الإنسان»[1].

وقال أيضًا: «عندما نذهب إلى المعمل ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون: فتلك الأميبا تتحرك في بطء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به داخلها، وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق، بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر، فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانًا جديدًا كاملًا، تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلى آلاف الخلايا أو ملايينها، لا شك أنّ صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة.

ولقد كشفت قوانين الكيمياء الحيوية من أسرار الحياة وظواهرها ما لم تكشفه القوانين في أي ميدان آخر من ميادين الدراسات العلمية، لقد كان الناس ينظرون إلى خفايا عمليات الهضم والامتصاص، ويستدلون بها على وجود التدبير المقدس، أما في الوقت الحاضر فقد أمكن شرح هذه العمليات ومعرفة التفاعلات الكيموية التي تنطوي عليها والخميرة التي تقوم بكل

---

(١) المرجع السابق، الزهر وطيور بالتيمور، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

تفاعل، ولكن هل يدل ذلك على أنه لم يعد لله مكان في كونه؟ فمن إذن الذي دبر لهذه التفاعلات أن تسير؟ وأن تسيطر عليها الأنزيمات تلك السيطرة الدقيقة المحكمة؟ إنّ نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التي تبيّن التفاعلات الدائرية العديدة وما يدور بين كل منها والآخر من تفاعلات أخرى؛ كفيلة بأن تقنع الإنسان بأنّ مثل هذه العلاقات لا يمكن أن تتم بمحض المصادفة، ولعل هذا الميدان يهيئ للإنسان من العلم ما لا يهيئه أي ميدان آخر بأنّ الله يسيّر هذا الكون تبعًا لسنن رسمها ودبرها عندما خلق الحياة.

فإذا رفعنا أعيننا نحو السماء، فلا بد أن يستولي علينا العجب من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها، والتي تتبع نظامًا دقيقًا لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالي وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون، إنها تدور في أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة، فهل يظن أحد بعد ذلك أنّ هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى في الفضاء؟ وإذا لم يكن لها نظام ثابت ولم تكن تتبع قوانين معينة فهل كان من الممكن أن يثق الإنسان بها ويهتدي بهديها في خضم البحار السبعة، وفي متاهات الطرق الجوية التي تتبعها الطائرات؟ قد لا يسلم بعض الناس بوجود الله سبحانه وبقدرته، ومع ذلك فإنهم يسلمون بأنّ هذه الأجرام السماوية تخضع لقوانين خاصة وتتبع نظامًا معينًا وأنها ليست حرة تتخبط في السماء كيف تشاء.

الحق أنه من قطرة الماء التي رأيناها تحت المجهر إلى تلك النجوم التي شاهدناها خلال المنظار المكبر، لا يسع الإنسان إلا أن يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التي تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه. ولولا ثقة الإنسان في أنّ هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها، لما أضاع الناس

أعمارهم بحثًا عنها، فبدون هذا الاعتقاد وتلك الثقة في نظام الكون يصير البحث عبثًا ليس وراءه طائل، ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة، فأي تقدم كان من الممكن أن يحققه الإنسان؟ لا بد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى، فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادي قائلًا: (إنّ الله هو خالقي وليس الإنسان إلا مستكشفًا).

إنّ وجود الله في حياتي اليومية حقيقة لا مراء فيها، حقيقة أقوى من الحقائق العلمية التي لا يتسرب إليها الشك، ومع ذلك فإننا بينما نستطيع أن نصف النجوم ونخطط مداراتها في السماء، أو نثبت الأميبا على شريحة من الزجاج ثم نصورها، نجد أننا لا نستطيع أن نحصل على مثل هذا الدليل المادي حول وجود الله، فالإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يعرفه حتى يتجه إليه اتجاهًا شخصيًا، وتكون له خبرة به، فإذا رفض شخص أن ينظر خلال المجهر أو يتطلع إلى صورة الأميبا فإنه يستطيع أن يجادل حول عدم وجودها فيطيل الجدال، ولكنه ما إن يراها أو يرى صورتها حتى تنهار حجته، وكذلك الحال بالنسبة لوجود الله.

قد يستطيع الإنسان أن يجادل طويلًا في الله، وما إن يلمحه الجاحد حتى تنهار حجته ويسلم بوجوده تسليمًا، ولكن لا بد أن تكون الخبرة شخصية، فإذا رفض الإنسان أن يرفع رأسه ويبحث عنه فإنّ جداله قد يطول دون طائل، فالله لا يشرق إلا في قلوب الباحثين عنه.

نعم، إنني أؤمن بالله رب هذا الكون وربي، كما أنني أراه في نفسي وفي كل ما هو حولي»[1].

---

(١) المرجع السابق، الزهر وطيور بالتيمور، ص١٤٦ ـ ١٤٩.

وقال أندرو كونواي إيغي العالم الفسيولوجي في مقاله وجود الله حقيقة مطلقة:

«إنّ الاعتقاد بوجود الله هو الوسيلة الفكرية الكاملة الوحيدة التي تجعل لهذا الوجود معنى، وهذا الاعتقاد هو الذي يجعل لوجود الإنسان معنى أكثر من أنه مجرد كتلة من المادة أو الطاقة، والاعتقاد بوجود الله هو المنبع لأسمى فكرة إنسانية حول المحبة، والقاعدة التي تقوم عليها الأخوة بين البشر بسبب اجتماعهم على محبة الله وطاعته، وهو مصدر إحساسنا بالحقوق والواجبات، لأننا لا نتساوى إلا في نظر الحب والعدالة والرحمة المطلقة، والاعتقاد بوجود الله هو الحصن الذي يعصمنا من الشرور، وهو بعد ذلك الأساس المتين الذي يقوم عليه الإيمان، وتدوم بسببه القيم الروحية التي يعتبر وجودها رهينًا بوجوده تعالى»[1].

وقال أيضًا: «إنّ أحدًا لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول: (إنّ الله موجود)، كما أنّ أحدًا لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول: (إنّ الله غير موجود)، وقد ينكر منكر وجود الله، ولكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل، وأحيانًا يشك الإنسان في وجود شيء من الأشياء، ولا بد في هذه الحالة أن يستند شكه إلى أساس فكري ولكنني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلًا عقليًا واحدًا على عدم وجوده تعالى، وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجوده، كما لمست بنفسي بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين، وما يخلفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين.

والبرهان الذي يتطلبه الملحدون لإثبات وجود الله هو نفس البرهان الذي يطلب كما لو كان الله تعالى شبيهًا بالإنسان أو شيئًا ماديًا، أو حتى تمثالًا من التماثيل أو صنمًا من الأصنام، ولو كان لله مثل هذا الوجود المادي لما وجد

---

(١) المرجع السابق، وجود الله حقيقة مطلقة، ص١٥٠.

هنالك مجال للشك في وجوده، ولكن الله أراد ضمن ما أراد أن يختبر عقولنا حول الإيمان به، فترك لنا حرية الاختيار لكي يؤمن به من يؤمن، وينكره من ينكر؛ فالإنسان يستطيع إذا شاء ـ بخداع نفسه ـ أن ينكر وجود الله، وعليه أن يتحمل النتائج، ومعظم الملحدين والمارقين من الأديان ينظرون إلى الله كما لو كان بشرًا يمكن التعامل معه تعامل الأنداد فيقولون مثلًا: سوف أعتقد في وجود الله إذا شفاني من مرضي، أو إذا أنزل المطر أو إذا قضى حاجتي أو إذا أوقف الفيضان أو إذا محا الشر والظلم من الكون... إلخ. وقد يقول بعضهم: إذا كان هنالك إله عادل ما أصابني وجع في أسناني، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنني أؤمن بالله إذا بنى الكون أو عدله تبعًا لخطتي الخاصة التي تقوم على الأنانية وتبعًا لصالحي الشخصي.

ولا مناص من الوصول إلى الله، ولكي يفكر الإنسان فيه تفكيرًا مستقيمًا لا عوج فيه، ولا نفور، عليه أن يحرر عقله من الأنانية ومن الأحقاد ومن كل ما يعوق التفكير الصافي السليم حتى يتسنى له أن يصل إلى الله ويحبه، وبذلك يسهم في محاربة الشرور والظلم الذي يتحدث عنه من يشكون في أمره ووجوده تعالى، فلقد اقتضت حكمة الله أن يستخدم الإنسان عقله وإرادته وحريته في اتخاذ القرارات اللازمة لمحاربة هذه الشرور حتى يصير حكم الله في الأرض مثل حكمه في السماء»[1].

وقال كذلك: «عندما كان عمري ثلاث سنوات ـ كسائر الأطفال بين الثالثة والخامسة ـ سألت أبي وأمي: من الذي صنعني؟ ومن الذي صنع الطيور؟ ومن الذي صنع بقرتنا؟ ومن الذي صنع الدنيا؟.

لقد تفاعلت حقائق الحياة أو خبرتي الحسية مع عقلي حين تكوينه بحيث جعلتني أصل إلى أنه لا يمكن أن تكون هنالك آلة دون صانع، ثم تحرك

---

(١) المرجع السابق، وجود الله حقيقة مطلقة، ص١٥١ ـ ١٥٢.

ذكائي وعقلي إلى ما وراء الحقائق المباشرة، إلى ما وراء ذاتي والطير والبقرة، ووصل إلى أنه لا يمكن أن أكون (أنا) أو يكون الطير، أو تكون البقرة، دون أن يكون هنالك سبب لوجودها أو صانع لها.

لقد توصل عقلي البسيط البريء غير المتحيز أو المختلط، غير المكبوت أو المضطرب، إلى مبدأ يعتبر من أرسخ المبادئ الفلسفية والعلمية التي توصل إليها العقل البشري حول الوجود والفكر.

لقد تفاعل عقلي مع خبرتي الحسية تفاعلًا يكفي لإنتاج قدر من التفكير يعين على الإحساس بالوجود، فأنا أدرك أن هذا أنا أو تلك ذاتي، كما أنني وصلت في نفس الوقت إلى مبدأ عدم الوجود، فأنا لست طائرًا أو بقرة أو الدنيا، وبعبارة أخرى توصل عقلي إلى مبدأ الوجود وعدمه ومبدأ الجزء والكل وإلى أن الكل أكبر من الجزء.

وما إن يتكون لدى الطفل هذا الإحساس بالوجود وعدمه حتى يكون قد ألم بالمبدأ الأول من مبادئ الفكر وهو: (أننا لا نستطيع أن نثبت وجود شيء وننكره في نفس الوقت)، فالطفل الصغير يقول أنا توم وهذه أختي ماري، وقد وصل الطفل إلى درجة من التفكير تمنعه من أن يخلط بين نفسه وبين أخته فيقول أنا ماري وأختي توم إلا على سبيل الفكاهة، ثم يعرف الطفل بعد قليل أنه من الخطأ أن نقول إن المربع مستدير، هو يدرك أن المربع لديه من الأسباب ما يكفي لجعله مربعًا، وهذه الأسباب تجعله مربعًا، وتجعل ذلك أمرًا واضحًا بالنسبة له.

هذه المعلومات من جانب الطفل وسؤاله من الذي صنعني؟ ومن الذي صنع الدنيا؟ توضح لنا أن الطفل قد اكتشف مبدأ السببية أو قانون السببية الذي ينص على أنه.. (لا تأثير بغير مؤثر)، ومعناه أنه لا بد لكل آلة من صانع ولكل تغيير من محدث، ثم يسير التفكير في سلسلة من المسببات تبدأ بوجودي ووجود الدنيا وتنتهي إلى وجود الله، بوصفه السبب الأول أو تبدأ

من وجود الحركة وتنتهي إلى المحرك الأول، ويمكننا أن نعبر عن ذلك كله بطريقة أخرى وهي أنه إذا كان هنالك تصميم فلا بد أن يكون من ورائه مصمم، ولا بد أن تكون لذلك المصمم الكوني صفات لا نهائية، ذلك الخالق البارع هو الله، ويبلغ قانون السببية درجة من الشدة تجعل الطفل ما بين الثالثة والخامسة يتحقق من أنه لا بد أن يكون هنالك إله.

ولقد كرست حياتي بحكم اشتغالي بالعلوم للبحث عن الأسباب التي تقع وراء الحقائق الواضحة المعروفة، إنّ عقلي بحكم اهتمامه بالخبرات الحسية وما يترتب عليها، يصر على أن ينظر إلى ما وراء الحقائق المباشرة عن الحياة التي تكشف حقائق جديدة لها قيمتها حول النواحي المادية والروحية للوجود، وقد دفعني هذا البحث إلى القراءة والدراسة في ميدان العلوم الطبيعية أو (العالم كما هو قائم فعلًا)، وفي ميدان الأخلاق والدين أو (العالم كما ينبغي أن يكون) وقد وجدت أنّ كثيرًا من الكتاب الممتازين، ومن أولئك الذين يسمون الفلاسفة، ومن غيرهم من صفوة المفكرين، إما أنهم وقعوا في أخطاء جسيمة واضحة تثير الغبار، وإما أنهم أقاموا أمام أنفسهم حاجزًا يحول بينهم وبين النظر إلى ما وراء الحقائق مباشرة، وإما أنهم تجاهلوا الحقائق المباشرة الواضحة.

ورجل العلوم الذي يفعل ذلك يضع حائلًا بين نفسه وبين التقدم، فبمعرفة الحقائق الواضحة، وبالنظر إلى ما وراءها في معمل القيم المادية والروحية والقانون والنظام، وبالبحث عن أسباب القوانين الطبيعية بحثًا تحدوه الثقة والأمل، نقول بكل ذلك يتحقق التقدم»[1].

وقال عالم النبات المشهور آساجراي في محاضراته التي ألقاها في جامعة ييل سنة ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ): «إنّ ما تنقله العلوم من عالم المجهول إلى عالم

---

(١) المرجع السابق، وجود الله حقيقة مطلقة، ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

الطبيعة لا ينال من الإيمان أو يتعارض معه، فالعلوم تسير في نفس الاتجاه الذي تسير فيه الطبيعة، وعلى ذلك فإنّ وظيفة العلوم هي العمل على أن ترد ظواهر الكون في نشأتها الأولى إلى قدرة الله وجلاله»[١].

وقال د. ستيفن ماير في كتابه **التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية**: «إنّ نظرية التصميم الذكي هي نظرية عملية مبنية على الأدلة، تناقش أصل الحياة، وتتحدى بشكل واضح الرؤية المادية للتطور، فبحسب علماء الأحياء التطوريين ـ كريتشارد دوكينز من جامعة أكسفورد ـ فإنّ الأنظمة الحية تبدو وكأنها مصممة لغاية معينة.

ولكن وفقًا للداروينيين فإنّ المظهر الذي يوحي بالتصميم هو مجرد وهم؛ ولماذا؟ تفترض الداروينية الجديدة بأنّ عمليات ليست موجهة أبدًا مثل الانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية قادرة تمامًا على إنتاج أنظمة حية ذات كيانات شديدة التعقيد توحي بالتصميم، فيرون أنّ الانتخاب الطبيعي يستطيع محاكاة قوى ذات قدرات تصميمية عالية الذكاء بدون أن يكون هو نفسه موجهًا بأي شكل من أشكال الذكاء.

في المقابل فإنّ نظرية التصميم الذكي ترى أنّ هناك العديد من الظواهر الطبيعية ذات الخصائص الدالة على الذكاء في الأنظمة الحية والكون ككل، على سبيل المثال: خواص المعلومات المشفرة في الدنا، والآلات والدوائر المجهرية في الخلايا، والضبط الدقيق في قوانين وثوابت الفيزياء؛ يمكن تفسيرها بشكل أفضل بعزوها إلى مسبب ذكي بدلًا من العمليات المادية غير الموجهة»[٢].

---

(١) المرجع السابق، حقائق من سجل الغابات، ص٧١.

(٢) د. ستيفن ماير: **التصميم الذكي (فلسفة وتاريخ النظرية)**، ص١٣، ترجمة: محمد طه ـ عبد الله أبو لوز، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ط١: ٢٠١٦م.

والخلاصة؛ أن ما ذكرته هنا ـ من شـهادات العلماء المتخصصين في شتى المجالات العلمية بأنّ وراء هذا الكون مكونًا، قديرًا على كل شيء، خبيرًا بكل أمـر، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] ـ هو بعض من كل مما دونته أقلامهم، ولفظته ألسـنتهم، وهذا يعني ـ بلا ريب ـ أنّ الحقائق العلمية جميعًا تصب في مصب الإيمان، وتعزز صلة الإنسان بالله تعالى، وتنادي بالسفه والضلالة على من يجحد هـذه الحقيقة ويكابرهـا، فهم ـ بـلا ريب ـ يتجاهلـون فطرهم، ويتصاممون عن ندائها الذي يصخ الوجود بصوته الهادر الملح بأنّ كل ذرة في الكون أو ما دونها هي شاهد ودليل على الله تعالى، الذي يسبح بحمده الوجود، ويخضع لجلاله، ويسـجد لكبريائه، وذلك كما يقول إسـحق واطسن في هذا المعنى: «إنّ الطبيعة تحمل كتابها المفتوح»، «وتسبح بحمد الله وجلاله».

ومهما يكن في عبارات هؤلاء العلماء الباحثيـن من كلمات نراها بعيدة عن الدقة المطلوبة في تنزيه الله تعالى ـ كوصفه تعالى بالاهتمام بعباده أو أنه متصف بالـذكاء ـ فإنّ ذلـك لا يحول بيننا وبين الاسـتفادة ممـا جاؤا به، وتوظيف ذلـك في الرد على الملاحدة وتبديد شـبههم بقـوة البراهين على وجود الله تعالى.

وبهذا تدرك أخي القارئ الكريم أنّ كل مكابرة فـي وجود الله تعالى إنما هي إنكار للحس، وشذوذ عن الفطرة وطمس للعقل، وليست الدعوى الشائعة ـ عند الجهلة الذي حرموا نعمة الإيمـان ـ أنّ بين العلم والإيمان بونًا وتناقضًا إلا فريـة على العلـم، فالعلماء المتخصصون كمـا ترى في شـهاداتهم البينة يسجلون هذه الحقيقة ملء أفواههم وبصريح عباراتهم، فليس وراء هذه الحقيقة إلا الوهم، ولا يدافـع هذا الحق إلا الباطل، ولا يكابر في هذا إلا المسـتهتر، الذي ينكر وجود نفسه، إذ لولا الخالق الله سبحانه لما كان له وجود.

ولا يشـــك لبيب أنّ هذه المكابرة المتعنتة ما هي إلا ناشـــئة عن مرض نفســـاني، فإنّ الملاحدة مرضى داؤهم عضال مستعص على العلاج إلا علاج الإيمان، وأنى يأتيهـــم الإيمان مع هذا اللدد فـــي الخصومة معه، وجحد كل برهان، وتعام عن كل حجـــة؛ فرارًا مـــن الإيمان، الذي يتصورونه ـ لســـوء حظهم ـ خصمًا لدودًا، وشبحًا مخيفًا، وخطرًا رهيبًا، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].



الباب الرابع

في استحالة أن تكون الصدفة هي أساس وجود الكون

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفيه مقدمة وفصلان:

- المقدمة: فيما يراد بالصدفة.
- الفصل الأول: في تخبط القائلين بأن وجود الكون صدفة.
- الفصل الثاني: في البراهين الشاهدة بأن الكون كان بخلق من خلاق عليم.



المقدمة

فيما يراد بالصدفة

شاع عند المعاصرين إطلاق الصدفة على وقوع الشيء بعفوية من غير أن يقصد ويخطط له، وقد استعمل الملاحدة هذه العبارة في التعبير عن معتقدهم الضال الخاسر بأنّ وجود الإنسان وكل ما هو موجود في الكون، بل وجود الكون كله حصل بدون إرادة وقصد، وتصميم وفعل من أي أحد كان، وإنما كان ذلك بعمل الطبيعة وحدها، من غير أن يكون وراءها مكوّن لهذا الكون أو لأي شيء مما احتواه.

وقد أخذوها من المصادفة، وهي التلاقي، وأصلها من صدف يصدف بمعنى مال، فكأن الجانبين عندما يلتقيان بغير قصد، قد صدف كل منهما عن الآخر، لأن لقاءه به لم يكون مقصودًا، ولهذا اشتهر كون المصادفة تلاقيًا من غير تخطيط وقصد، ولم تعتن العرب بأمر الصدفة، ولذلك كانت هذه العبارة عزيزة الورود في كلامهم، بل لم ترد قطعًا بذاتها، وإنما وردت مشتقاتها وقد جمع شتيت ما ذكره علماء العربية في ذلك ابن منظور حيث قال: «الأَصمعي: الصدفُ كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ عَظِيمٍ كالهدَف وَالْحَائِطِ وَالْجَبَلِ. والصُّدَفُ والصُّدَفَةُ: الجانِبُ والناحِيةُ. والصَّدَفُ والصُّدُفُ: مُنْقَطَعُ الْجَبَلِ المرتفِع. ابْنُ سِيدَهْ: والصَّدَفُ جَانِبُ الْجَبَلِ، وَقِيلَ الصَّدَفُ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، والصُّدُفُ لُغَةٌ فِيهِ؛ عَنْ

كُرَاعٍ. وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: الصُّدُفَانِ، بِضَمِّ الدَّالِّ، ناحِيتا الشِّعْب أَو الْوَادِي كالصُّدَيْنِ. وَيُقَالُ لِجَانِبَيِ الْجَبَلِ إِذَا تَحاذيا: صُدُفَانِ وصَدَفَانِ لتَصادُفِهما أي تَلاقِيهما وتَحاذي هَذَا الجانِبِ الجانِبَ الَّذِي يُلاقيه، وَمَا بَيْنَهُمَا فَجٌّ أَو شِعْب أَو وادٍ، وَمِنْ هَذَا يُقَالُ: صَادَفْتُ فُلَانًا أَي لاقَيْتُه ووجَدْتُه. والصَّدَفانِ والصُّدُفانِ: جَبَلَانِ مُتلاقِيانِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ يأجوجَ ومأجوجَ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦]»[1].

وذكر بعض الكتاب في ذلك ما نصه: «شاع في أساليبنا استعمال لفظة (صدفة) على غير الأسلوب الفصيح، وعثرت عليه بطريق الصدفة... وما إلى ذلك فنحن هنا نحمل لفظة (صدفة) معنى المصدر (المصادفة) وهو ما ليس في معناها كما نجترئ على اشتقاق لفظي ليس في الأصول اللغوية.

نعرف أنّ مصادر الأفعال الثلاثية في لغتنا العربية هي سماعية لم تخضع لقياس وزني محدد كما هي مصادر الأفعال المزيدة والفعل الثلاثي (صدف) له مصدران سماعيان هما: الصدف والصدوف وليس في كتب اللغة مصدر: «صدفة» هذا من جهة القياس اللغوي.

ومن جهة المعنى فالفعل «صدف» لا يفيد معنى المصادفة أي: المقابلة على غير توقع كما نحمله إياه في أساليبنا المتداولة، فالفعل «صدف» يحمل معنى انصرف ومال وأعرض وصدَّ، نقول: «صدفت عن القراءة» بمعنى: رجعت عنها، أما الفعل المزيد «صادف» فيأخذ معنى اللقاء على غير توقع، ومصدره قياسي يخضع لقاعدة نحوية ثابتة هو المصادفة، وكذلك صيغ الأفعال المزيدة الأخرى، فلكل منها حالة معينة تختص بها في إفادة المعنى، «أصدف» يفيد الإعراض والصدود، نقول: «أصدفته عن الكسل» بمعنى: صرفته عنه، «تصادفنا» بمعنى المقابلة على غير توقع، وهكذا.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (صدف)، ٢١٤/٨.

فالأسلوب الفصيح أن نستعمل المصدر «المصادفة» في مثل هذه العبارات ونقول: «قابلته مصادفة» أما «الصدفة»: من الصدوف، فهي بمعنى الإعراض والانصراف عن الشيء»[١].

وقد تعرض المستشرق الهولندي رينهارت بيتر آن دُوزِي للصدفة بتفصيل لم أجده عند غيره، إذ قال ناقلًا عمن سبقه من المستشرقين: «صِدفَة وجمعها صِدَف: اسم من المصادفة للقاء اتفاقًا من دون قصد أو انتظار، أو هي مولّدة، ويقال أيضًا: صَدفة عارض ملائم، وصُدفة وجمعها صُدَف: مصادفة، اتفاق، وبالصُدْفة: صدفةً، اتفاقًا»[٢].

ولما كانت كلمة الصدفة تدل على معنى شائع بين الناس في وقتنا هذا، وهو ما ذكرته من وقوع أمر أو تحقق مطلب بدون أن تتقدمه أسبابه، واستخدم بعد ذلك فيما يرمي إليه الملحدون من أنّ هذا الكون وجد من غير أن تسبقه إرادة مكون، وعمل بحسب ما تقتضيه إرادته في تكوينه وخلقه، استخدمها العلماء في الرد على هؤلاء الملحدين وإبطال شبههم التي نسجتها أفكارهم المأفونة ليواروا بها حسب زعمهم حجة الحق الدامغة وبينته الساطعة التي تفرض على العقول الإيمان بالله خالق الخلق ومصرف الأمر، ولهذا لا أجد ما يمنع من استعمال هذه العبارة في مناقشة هذه القضية لأجل الوصول إلى إقناع الناس بالحق وتعريفهم بالرشد، وإن لم أجد لها ما يعضدها في الاستعمال في كلام العرب، أو نقول أهل العربية لها، ولهذا ستجد هذه الكلمة واردة متكررة في هذا الباب كما سبق ورودها في الأبواب الخالية، وما ذلك إلا من باب الأخذ بالحكمة القائلة: (**خطأ مشهور خير من صواب**

---

(١) ينظر؛ شلاش ظاهر: **صحيفة العروبة**، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ـ حمص، العدد ١٤٨٢٠، الثلاثاء ١٤ آذار ٢٠١٧م.

(٢) دُوزِي؛ رينهارت بيتر آن: **تكملة المعاجم العربية**، ٤٣٠/٦، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية، ط١: ٢٠٠٠م.

مهجور)، إذ ربما لو حرصت على تفاديها واستبدال عبارة صحيحة بها حسب ما هو مأثور عن العرب لأدى ذلك إلى صعوبة الوصول إلى الغرض المطلوب من نصرة الحق وإزهاق الباطل.

وقبل الدخول في معمعة هذا الأمر لا بد من بيان ما قيل فيها وكيف جرى استعمالها عند الناس، ولعل ما جرى على قلم د. **عدنان فقيه** في مقاله **الصدفة المزعومة.. أين هي؟** هو أوفى ما قيل في ذلك، فبعد أن ذكر بأنّ الذين انتصروا لما يعبرون عنه بالصدفة ـ وهم الملاحدة المنكرون لوجود الله ـ لم يعرفوا الصدفة بشيء تطرق إلى تعريفها مستوحيًا ذلك مما جرى على ألسنة الناس من استعمالها، وقال في ذلك: «ولقد تصفحت عشرات الكتب والمقالات التي تدافع عن نظرية الصدفة هذه وتعمدت أن أبحث فيها عن تعريفٍ لكلمة (صدفة) فلم أعثر على ذلك إلا في أقل القليل منها وكانت تلك التعريفات تظهر على استحياء وبشكل سطحي وغير دقيق، وأزعم أنّ هذا الأمر مقصود حيث إن الخوض في تعريف كلمة (صدفة) يُعرّي قضية هؤلاء من الهدف الذي من أجله أُقحمت تلك الكلمة وهو كما أشرت سابقًا إحالة القارئ إلى معنى مألوف لديه يستخدمه في حياته العادية ليكون بديلًا عن الحقيقة الفطرية والأكثر ألفة لديه والتي تستشعر الحاجة إلى وجود خالق لهذا الكون.

الصدفة في حياتنا اليومية:

وما دام الأمر كذلك فلنبحث إذًا عن ذلك المعنى المألوف لكلمة الصدفة في حياتنا اليومية والذي يحاول الملحدون أن يستدعوه من ذاكرتنا للهروب من الاعتراف الصريح بما تنطوي عليه مقولتهم من خلق العدم للوجود، لنرى إذا كان ذلك المعنى المألوف يسمح باستخدامه وتوظيفه بالطريقة التي يريدون ولو تتبعنا استخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية لوجدنا أنّ هذه الكلمة لا تستخدم في حياتنا اليومية إلا للتعبير عن واحد من ثلاثة مفاهيم:

١ ـ للتعبير عن عدم القصد من وراء الفعل مع إمكانية فعل الفعل بقصد، كأن تلتقي بصديق في محل تجاري من غير موعد فتقول لقيته صدفة أي بغير قصد مني أن ألقاه.

٢ ـ للتعبير عن وجود القصد لإحداث الفعل مع عدم توفر القدرة على فعله، كأن يرمي رجل لا يعرف فنون الرماية هدفًا فيصيبه من أول رمية فيقال: إنّ إصابته للهدف كان من قبيل الصدفة أي ليست عن استحقاق ومهارة لديه.

٣ ـ للتعبير عن عدم وجود رابط بين حدثين متزامنين أو متلاحقين أي انتفاء ما يسمى برابط السببية بينهما سواء كان هذا الرابط مباشرًا باعتبار أحدهما (سببًا) والآخر (نتيجة)، أو غير مباشر باعتبار أنّ كليهما نتيجة مشتركة لسبب ثالث غير ظاهر، والأمثلة على ذلك كثيرة منها موت إنسان ما وصراخ امرأة تقطن المنزل المجاور له لسبب آخر فنقول: إن تزامن صراخ المرأة مع موت الرجل أو حدوثه بعد الموت مباشرة كان من قبيل الصدفة وليس بسبب حدث الموت.

وقبل أن نشرع في النظر في علاقة استخدامنا اليومي لكلمة (صدفة) مع استخدامها في الحديث عن نشأة الكون لا بد أن نشير إلى أنّ هناك استخدامًا يوميًا لكلمة (صدفة) يندرج في حقيقته تحت النوع الثاني المشار إليه آنفًا، وإن كان يبدو للوهلة الأولى أنه يمثل صنفًا رابعًا مستقلًا عن الاستخدامات التي حصرناها، ولنأخذ المثال التالي لتوضيح هذا الأمر:

بينما كان طفل صغير يعبث بعود خشبي في الرمل الموجود على شاطئ البحر إذ به يعثر على خاتم مدفون في الرمل، فيسارع به إلى أمه التي يتبيّن لها بعد فحصه أنه ذات الخاتم الذي فقدته في رحلة سابقة لأسرتها إلى شاطئ البحر، وإذ بها تتذكر كيف أمضت وقتًا طويلًا في محاولات العثور عليه من غير جدوى، لو أننا تأمّلنا في هذا المشهد فإننا سوف نتصور إمكانية أن

نستخدم كلمة صدفة قائلين: إن الطفل وجد الخاتم عن طريق (الصدفة)، وهذه الحالة من استخدام كلمة صدفة لا تندرج ـ في الظاهر ـ مع أي من الحالات السابقة؛ فالطفل لم يكن يقصد العثور على الخاتم، بل ربما لم يكن يعلم بفقده في المقام الأول، كما أنه لم يكن يملك القدرة ـ لو علم بفقده ـ على العثور عليه، إذ إنه لم يكن يعرف مكانه، فهل يمكن أن نعد هذه حالة رابعة لاستخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية بحيث يعبر هذا الاستخدام عن عدم وجود القصد لفعل الحدث وعدم وجود القدرة على فعله؟ قبل أن نسارع لنقول بصحة هذا التصور يجب أن نتنبه إلى أننا لم نكن لنستخدم كلمة (صدفة) لو أن هذا الطفل وجد غطاءً لزجاجة أحد المشروبات الغازية مدفونًا في رمل الشاطئ بدلًا من الخاتم المفقود! مما يعني أن هناك خصوصية للعثور على الخاتم لا يوجد نظير لها في حالة غطاء المشروب الغازي؛ جعلت استخدام كلمة الصدفة سائغًا هنا وغير سائغ هناك، فما هي هذه الخصوصية؟ لا شك أن هذه الخصوصية تكمن في كون الخاتم مهمًّا بالنسبة لأم الطفل على خلاف الغطاء، وهذه الأهمية يمكن ترجمتها في وجود (قصد) من ناحية الأم إلى الحصول على هذا الخاتم أو العثور عليه، الأمر الذي يعيدنا إلى النوع الثاني من استخدامات كلمة صدفة في حياتنا اليومية، والذي بيّنا أنه يدل على وجود القصد لإحداث الفعل مع عدم وجود القدرة على إحداثه، والفرق هنا أن (القصد) لم يكن في ذهن الفاعل (الطفل) إنما كان في ذهن شخص آخر (الأم) ولذلك فإنّ الخاتم لو كان من النوع الرخيص ووجده رجل لا يعرف قيمته لدى أصحابه لم يكن ليستخدم كلمة صدفة لوصف حدث عثوره عليه إذ سيكون لا فرق كبيرًا عنده بين العثور على الخاتم وبين العثور على غطاء زجاجة المشروب الغازي، وكذلك الشأن لو أن رجلًا وجد قطعة ذهبية في شاطئ البحر لساغ له أن يقول: إنه وجدها عن طريق الصدفة ويكون هذا الاستخدام أيضًا من قبيل النوع الثاني من استخدامات كلمة صدفة

مع ملاحظة أن (القصد) هنا لا يعود إلى رغبة العثور على تلك القطعة الذهبية بالتحديد في ذلك المكان والزمان ولكن يعود إلى كون الحصول على أي شيء من الذهب أمرًا (مقصودًا) ـ في العادة ـ بغض النظر عن الزمان والمكان، وبعبارة أخرى فكأننا نقول: إنّ (الحصول على الذهب) رغبة موجودة لدى كل إنسان وهي بذلك تعبر عن (قصد) كامن يتجلى في صورة الانفعال الذي يحدث له عند تحقق هذه الرغبة»[1].

وما ذكره يدل ـ بلا ريب ـ على أنّ كلمة الصدفة نفسها لا توصلهم إلى الغرض الذي يهدفون إليه باستعمالها، فمع كونها ليس لها أصل في الاستعمال العربي، وإنما ترجموا بها كلمة أجنبية وهي (Chance) فإنّ استعمالها فيما تعارف عليه الناس لا يؤدي إلى ذلك الغرض، وهذا ما توصل إليه د. **عدنان الفقيه** حيث قال تحت عنوان **الصدفة بين الاستعمال اليومي ومسألة نشأة الكون**: «يمكننا أن نرى بوضوح ـ من خلال الاستخدامات اليومية لكلمة (صدفة) ـ أنه لا علاقة لمفهوم الصدفة الذي نستخدمه مع ما يحاول هؤلاء الملحدون أن يوهمونا به، ففي الحالتين الأوليين كان استخدام كلمة (صدفة) يقتصر على التعبير عن عدم القصد أو عدم القدرة، لكنه لا يتحدث أبدًا عن عدم وجود فاعل أصلًا ولا يمت إلى هذه الفرضية بأية صلة! فكونك التقيت بصديقك في المحل التجاري صدفة لا يعني أن هذا اللقاء تم بدون أن يكون هناك فاعل له، والفاعل هنا ـ كما هو واضح ـ هو أنت وصديقك فكلاكما قام بعمل من أجل إحداث هذا اللقاء، كالمشي من المنزل إلى المحل التجاري مثلًا، وغاية الأمر أنكما لم تقصدا إحداث اللقاء، وكذلك الشأن في الاستخدام الثاني لكلمة الصدفة، فكون الرمية التي رماها المبتدئ في الرماية أصابت

---

(١) فقيه؛ عدنان: **الصدفة المزعومة أين هي؟**، رابطة العالم الإسلامي، ينظر:
https://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/68-Issue-XI/594-The-alleged-accident

الهدف (صدفةً) لا يعني أن ذلك حدث دون الحاجة إلى فاعل وهو الرامي في هذه الحالة، فإطلاق كلمة صدفة على هاتين الحالتين لا يعني مطلقًا عدم الحاجة إلى وجود فاعل للأحداث، وإنما يعني أحد أمرين: ـ

إما عدم القصد لإحداث الفعل.

وإما إحداث الفعل مع وجود القصد، ولكن دون وجود القدرة على إحداثه.

وفي كلتا الحالتين فإنّ الفاعل موجود وهو ما يريد المشككون نفيه، فأي حجة لهم في استخدام كلمة صدفة سوى تضليل الناس وإيهامهم بوجود بديل معقول لمسألة الخلق؟ وعلى ذلك فإنّ استخدامهم لكلمة (صدفة) بأحد هذين المعنيين في إطار مسألة نشأة الكون هو في الحقيقة مكافئ لأن يقولوا: إنّ للكون خالقًا ولكنه خلقه من غير قصد منه، وكان بالرغم من ذلك بهذا الإتقان والعظمة، أو أن يقولوا: إنه قُصد خلقه بهذا الإتقان والعظمة لكن خالقه لم يكن يملك القدرة على ذلك، وإنما حدث له ذلك عن طريق الصدفة، فهل يقول بهذا الكلام عاقل؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا وبالرغم من ظهور فساد هاتين المقولتين، إلا أنّ الأمر الأهم هو كون المنكرين إنما يريدون أصلًا من وراء فكرة الصدفة نفي الحاجة إلى وجود الخالق، الأمر الذي لا يتيحه لهم استخدام كلمة (الصدفة) بأحد هذين المعنيين، أما الاستخدام الثالث لكلمة صدفة فيقتضي أن يكون هناك حدثان كما ذكرنا متزامنين[1] أو متلاحقين والبحث حينئذٍ يكون في علاقة أحدهما بالآخر هل هي صدفية أم سببية وهم ـ أي المتعلقون بنظرية الصدفة ـ إنما يتحدثون عن حدث واحد، وهو نشأة هذا الكون، فما هو الحدث الآخر الذي يستخدمون

---

(١) كذا في الأصل المنقول منه، ويبدو أن الصواب متزامنان لأنه وصف لـ (حدثان) لأن الحال لا تكون من النكرة، بل من المعرفة، إلا إن تقدمت الحال عن صاحبها كما في قول الشاعر:

«لمية موحشا طلل.....»

الصدفة للتعبير عن العلاقة بينه وبين نشأة الكون؟ ليس هناك جواب إلا أن يقال: إنه وجود الحق ﷻ مع اعتراضنا على تسمية ذلك حدثًا ـ وحينئذٍ لا حاجة للمناقشة معهم إذ أثبتوا وجود الخالق وهو الأمر الذي يريدون نفي الحاجة إليه، أو أن يقولوا بوجود حدث آخر قبله وهي فرضية لا دليل عليها وتستلزم التسلسل أو الدور وكلاهما باطل.

وخلاصة القول: أن استخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية لا يطلق على إيجاد شيء من لا شيء، وبذلك لا يصح استخدامها كبديل لمقولة الخلق والتي تطلق على هذا المعنى ولو أن إنسانًا أبصر وهو يسير في الطريق بيتًا يظهر فجأة في الخلاء وأراد أن يصف هذا الحدث المذهل لربما قال: إنّ ظهور البيت كان من قبيل المعجزة أو الخارقة لكنه قطعًا لن يقول: إن ظهور البيت كان من قبيل الصدفة، فمن أين تسلل هذا الاستخدام لكلمة صدفة ليحل محل كلمة الخلق؟!»[1].

وإذا كانت الصدفة خطأ في اللفظ وفي المعنى الذي استخدمت فيه، فإنّ الغاية التي أريدت باستعمالها هي في حقيقتها باطلة يشهد ببطلانها الحس والعقل، فضلًا عن الحق الذي نزل من عند الله تعالى بإبطالها.

ولعل من أحسن الأمثلة مناسبة لهذا التخبط الذي يتخبطونه ما جاء في قول ابن القيم: «فسل المعطل الجاحد: ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللًا في مادته ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة من يقوم بأمرها ولمّ شعثها، ويحسن مراعاتها وتعهدها، والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها، ثم يقسّمها قيّمها عند

---

(١) المرجع السابق.

الجذاذ على سائر المحاويج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام.

أترى هذا اتفاقًا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟! بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك اتفاقًا من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر!

أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان؟! وما الذي يفتيك به؟! وما الذي يرشدك إليه؟!

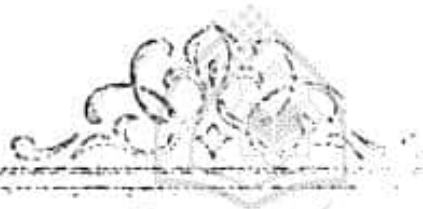
ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبًا عميًا لا بصائر لها، فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية، كما خلق أعينًا لا أبصار لها، والشمس والقمر والنجوم بادية وهي لا تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها؟! فهي تقول في ضوء النهار: هذا ليل، ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئًا، ولقد أحسن القائل:

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء»[1]

ومهما كانت رؤية الحيوانات البهيمية دون رؤية البشر عادة من حيث التمييز والتقدير، إلا أنّ رؤيتها هي أصح من رؤية هؤلاء وأفضل بكل الاعتبارات، لأن رؤيتها لم تفض بها إلى إنكار الحقائق، وتكذيب الحق وتسفيهه، بل هي ـ مع قصورها ـ تشترك مع المبصرين من البشر أسوياء العقول والفكر في التعلق بالله تعالى والتسبيح بحمده والسجود لجلاله، كما تؤذن بذلك نصوص القرآن التي سبق ذكرها.

---

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ٢/٦٠٨ ـ ٦١٠، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة قطر، ط: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.



الفصل الأول

في تخبط القائلين
بأن وجود الكون صدفة



سلك القائلون بأنّ وجود الكون صدفة ـ أي بدون صانع صنعه وأخرجه من العدم إلى الوجود ـ طرائق قددًا، لا تعود عليهم بطائل، وإنما تنادي جميعًا عليهم بأنهم هائمون في متاهة لا ينتهون فيها إلى غاية، ولا يجدون في أرجائها ظلًا يقيهم هجيرها، أو معلمًا يمكنهم أن يسترشدوا به بل هم متسكعون في ظلمات أطبقت عليهم من كل جانب، فلا يأملون أن يصلوا إلى مخرج منها، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ناهيك أن كل ضجيج يثيرونه حول الدين ويكابرون به حقائق الإيمان لم يأت بأي دليل على أنّ فعلًا يمكن أن يكون من غير فاعل، أو أنّ أثرًا يحدث من غير أن يكون وراءه مؤثر، فهم لم يقووا قط على أن يخترعوا دليلًا واحدًا يستندون إليه في كون هذا الكون تَكوَّن من قبل نفسه ولم يحدث بإرادة موجد أخرجه من العدم إلى الوجود، وإن زعموا ذلك فليأتوا بهذا الدليل، بينما الأدلة على خلاف ذلك شاهدة وقائمة في كل شيء تصدع بحجتها التي تجلجل في جنبات الوجود، فمن أدنى صنعة كإبرة الخياطة إلى أضخم الصنائع كالمحركات الضخمة والبواخر العملاقة والقطارات الواسعة والطائرات المتطورة الهائلة، لا يخطر ببال أحد أنّ شيئًا من ذلك حدث بدون إرادة وتصميم وتنفيذ، ومثل ذلك المنشآت العمرانية فليس في وسع عقل أحد أن يصدق أنّ شيئًا من هذه المباني الشاهقة ـ التي كأنما هي تعانق السحاب، وتناغي النجوم ـ تكوَّن من ذات نفسه بفعل الطبيعة، من غير

تصميم مهندس ولا تنفيذ عامل، ولا فرق في ذلك بين كبار المنشآت وصغارها، فمن صغار الأكواخ إلى الأبراج العملاقة، لا يمكن أن يتصور أحد أنّ شيئًا منها انبنى من ذات نفسه بفعل الطبيعة، ولو قيل ذلك لأحد كبار الملاحدة المعاندين لسارع إلى إنكار ذلك وتكذيبه، فأنى يكون ذلك في هذا الكون الذي تقصر عن أبعاده جميع التصورات، وترتد دون إدراك أسراره وحكمه جميع العقول، مع ما يزخر به من أجناس الخلق وأنواعها، وما يعتمل فيما بين زواياه من الحركات والقوى، وكل ذلك محكوم بنظام دقيق يأتي على ما دقّ وجل، وينتظم ما قرب وما بعد، فمن أدق الذرات وأصغر الجزيئات إلى أكبر الأجرام، وأوسع المجرات، كل ذلك محكوم بهذا النظام، ومشمول بهذه الحكمة، فكيف يتصور أن يكون كل ذلك فلتة عشوائية، من طبيعة عمياء حائرة، عاجزة عن إدراك أقل ما يتصور عن هذا الوجود، قاصرة عن الإحساس بأدنى ما يحدث بين طواياه، في أي جهة من زواياه البعيدة الواسعة، التي تقصر عن تحديدها جميع الملكات والقوى العقلية التي تتمتع بها جميع الكائنات العاقلة في أرجائه؟؟!.

هذا؛ مع البون الساحق والتفاوت الذي لا يحد بين الصنائع والمنشآت ـ التي ضربناها مثلًا ـ وبين هذا الكون الذي نتحدث عنه، فإنّ جميع تلك الصنائع والمنشآت لم تزد عقول مهندسيها وأيدي عُمّالها عن تركيبها من موادها المختلفة، وحسن ترتيبها إلى أن قامت في هياكلها المصممة، وصورها المبدعة، فإنّ جميع المواد التي تكونت منها هي موجودة من قبل، لم تخرج عقول أو خبرات المهندسين ولا مهارات العاملين ذرة منها من العدم إلى الوجود.

بينما الكون كله لم يكن لشيء منه وجود من قبل، ولم يبن من مادة طورت من طور إلى آخر، حتى انتهت في نهاية المطاف إلى أن تكون منها هذا الوجود، وإنما كل ما في الوجود كان عدمًا، ما عدا منشئ الوجود الذي

لم يسبق وجوده عدم، ولا ينتهي بحال إلى العدم. فكيف يتصور وجود الكون وانتظامه ـ بحسب ما يشاهد من صورته المدهشة، وما يعلم من حقيقته المحيرة، وما يجمع شتاته من نظام دقيق ـ لو لم يكن وراءه فعل فاعل خبير بكل أمر، محيط بكل شيء، قدير على ما يشاء، يوجد ما يشاء ويفني ما يشاء، يقول للشيء كن فيكون، تنفعل جميع الكائنات لإرادته، وتخضع جميع الموجودات لحكمه؟! ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ألا ما أعجب أمر الإنسان الذي أخرجه الله من العدم وأسبغ عليه صنوف النعم، وبوأه مبوأ التكريم من بين خلقه، ورفع قدره بما آتاه من الفهم والإدراك، وهيأ له من أسباب التمكين في الأرض، ومراقي السيادة في الكون، كيف لا ينظر إلى حاله، ويتأمل في وجوده؟..

هل يمكن أن يوجد نفسه من العدم من غير أن تتدخل إرادة أحد؟.

ألم يكن نطفة مهينة حقيرة، لا تعدو أن تكون خلية تدق عن الإبصار، فلا ترى إلا بأشعة المجهر، ومع ذلك هيأ الله لها الأسباب حتى التحمت في أعماق الرحم ببييضة الأم بما أودع الله في كل منهما من أسباب التوافق والتواؤم، فدخل بذلك في طور نشأة جديدة، كانت سببًا لما تبعها من الأطوار، وقد تعهدته عناية الله وهو في غياهب الرحم، حيث لا بصر يصله فيبصره، ولا سمع ينفذ إليه فيسمعه، ولا يد تمتد إليه فتنفعه، وإنما كانت عناية الله وحده، الذي أحاطت قدرته بكل شيء، ووسعت كل ما في أرجاء الوجود، هي التي اكتنفته فأحسنت رعايته منذ كان في طوايا العدم، وإلى أن حل في تلك الظلمات، وما تبع ذلك من مراحل نموه، ولم يحل دون هذه الرعاية شيء من الحواجز والحجب لأنها ممن يستوي عنده الغيب والشهادة، والظاهر والخفي، فلا يحجزه شيء عن إبصار كل ما في الكون، وسمع كل ما في الوجود، وظل كذلك يرعاه وراء تلك الظلمات الثلاث حتى برز من عالم الغيب إلى عالم

الشـــهادة، واســـتقبلته العناية مرة أخرى، فتـــدرج في مدارج النمـــو في البدن والحواس والمدارك إلى أن وصل إلى ما صار إليه، وقد تهيأ له المناخ في هذه الأرض للاستقرار فيها، ولم يكن ذلك أمرًا هينًا، وإنما هو ـ كما سبق شرحه ـ مرتبط بطبيعة الأرض التي ترجع إلى كيفية خلقهـــا ومقدار حجمها، والعلاقة بينها وبين غيرهـــا من الشـــمس والقمر وســـائر المجموعة الشمســـية، وبقية المجموعات في مجرتها التي تنتمي إليها، وما ينظمها مع حركات بقية الأجرام في المجـــرات الأخرى، وما يصحب هـــذا كله من طبيعـــة الجاذبيات المقدرة تقديرًا في كل شـــيء، وما هيأ الله له في الأرض من الأكسجين المنعش المقدر بمقدار محدد حسب ما تقتضيه طبيعة الحياة على الأرض، وقد هيأ الله تعالى له فيها رزقه الذي يأتيه رغدًا غدوًا وعشـــيًا، وسخر لمصلحته كل ما في الأرض، بل كل ما فـــي أرجاء الكون، فـــكان الليل والنهار، والصيف والشـــتاء، لأجل مصلحته وخدمته، فما بالـــه مع ذلك يتجاهل هذا كله، أوَكان قادرًا بنفســـه أن يهيئ لنفسه هذه الأسباب، ويبسط لها هذه النعم، ويسخر لها هذه المنافع؟؟!.

وكم في خلقه وتصويـــره من آيات عظام، فقد هيأ الله ســـبحانه لهذا الكم الهائل من البشر من أسباب التعارف ما لا يدخل في الحسبان، فهم مع كونهم جميعًا يرجعون إلى عنصر واحد، وقد خلقوا من مادة واحدة، وحملوا وولدوا ونشأوا وفق طبيعة واحدة، إلا أنهم جميعًا ـ مع كثرتهم الكاثرة ـ يتميز كل فرد منهم بصورته وملامحه عن كل بني جنســـه، فلا يشتبه بعضهم ببعض إلا في حالات نادرة لمن لم يمعن التأمل، حتى في أولئك الذين انفصلوا من صلب واحد، وتكونوا في رحم واحدة وولدوا منها، بل حتى التوائم منهم؛ فإنّ لكل منهم ملامحه وصورته، ولو اتحدت صورهم في كل شيء لتعذر التمييز بينهم.

على أنّ الناس ســـواء تقاربوا أو تباعـــدوا يتفاوتون فـــي ظاهر خلقتهم وباطنها، فهم متفاوتون بين الجمال والدمامة، وبيـــن الفطنة والغباوة، وبين

القوة والضعف، وبين الهمّة والخمـــول، وكل ذلك إنما يرجع إلى قدرة قدير وصنع حكيم، ففي كل شيء من ذلك حكمة بالغة، إذ لو كان الناس على قدر واحد لما تميز بعضهـــم على بعض، ولما احتاج بعضهـــم إلى بعض، وبهذا تنحل العرى فيما بينهم، لو أنّ الطبيعة أفرزتهم جميعًا في حالة واحدة ونظام واحد، ولو كان هذا التفاوت يرجع إلى اختيارهم لما اختار أحد لنفسه إلا أن يكون متفوقًا فـــي جماله، ومتميزًا بقـــوة مداركه العقلية وطاقاته الجســـمية، وجميع ما يميز بعضهم على بعض.

ومثل ذلك يقال في خلق جميع الكائنات، فمن أدق الأشياء إلى أوسعها تطالع الإنسان فيها حكمة الله البالغة، وعلمه الواسع، وقدرته على كل شيء، وأنى يكون ذلك للطبيعة الميتة الجامدة الصمـــاء العمياء الجهول، فكل ذي عقل يدرك «أنّ هـــذا الخلق لم يكن لهوًا وعبثًا، وأنهـــم إنما خلقوا عن علم، وحكمة وتقدير، لأن هذا الخلق ينطق عن حكمة بالغة، وقدرة قادرة على كل شيء، وعلم محيط بكل شـــيء.. ومن كانت تلك صفاته لا يكون منه لهو أو عبث.. ثم إنّ هذا النظـــام الدقيق المحكم، الممســـك بـــكل ذرة من ذرات الوجود، أيدخل عليه شـــيء من اللهو والعبث؟ إنّ اللاهي العابث، لا يتقيد بنظام، ولا يجرى أعماله على توافق وترابط، وانسجام، بل يفعل ما تمليه عليه نزواته، وما تصوره له أهواؤه! وإذن فالناس لم يخلقـــوا عبثًا، ولم تجئ بهم الصّدفة، كمـــا يقول بذلك الماديّـــون والملحدون، وإنما هـــم غراس غارس حكيم، عليم، قادر، مدبر..

هذه قضية.. لا بد من التســـليم بها، وفـــي إنكارها مكابـــرة في الحق، ومجادلة بالباطل..»[1].

---

(١) الخطيب؛ عبد الكريم يونس: التفســـير القرآني للقرآن، سورة المؤمنون (الآية ١١٥)، مج (٥) ١١٨٢/٩، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط: ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

وكيف يمكن أن يكون هذا كله راجعًا إلى الصدفة التي يزعمونها؟!.

هذا؛ وقد راجعت ما كتبه الملحدون في ذلك، فلم أجد لهم قط أي شبهة يمكن أن تكون سائغة في العقل جاءوا بها في ذلك، فكل كلامهم لا يعدو أن يكون تعاميًا عن مشاهد الحق، وتصامممًا عن حجته، ومما راجعته في ذلك ما كتبه رأس ملحدي هذا العصر ريتشارد دوكينز[1] سواء ما ذكره في كتابه الذي سماه ـ قاتله الله ـ **وهم الإله**، أو ما أتى به في كتابه **صانع الساعات الأعمى**، أو في كتابه الآخر المسمى **قسيس الشيطان**، فليس فيما أورده في كتبه كلها ما يمكن أن يتصور بأنه حجة أو حتى ما يمكن أن يرقى إلى أن

---

(١) اشتهر ريتشارد دوكينز بأنه على رأس فريق من أشرس الملاحدة، وأكرههم للتدين وأعنتهم في التجرؤ على الله تعالى بأقبح العبارات، وقد عُرِّف بأنه (**ملحد هاو سيء الأدب**)، كما ذكره د. عمر شريف في **خرافة الإلحاد** (ص٣٥٢)، وهذه الصفات القبيحة فيه هي التي جعلت الملاحدة أنفسهم يستعظمون ما يصدر منه مما يخل بأدب الحوار من بذيء القول، لا سيما في كتابه الوقح البذيء الذي سماه **وهم الإله** ومن بين هؤلاء الفيلسوف الملحد مايكل روس، الذي قال: (لقد جعلني كتاب **وهم الإله** أشعر بتوتر وارتباك، لكوني ملحدًا، فالكتاب الذي يعالج في المقام الأول قضية الأخلاق يتبنى حملة صليبية لا أخلاقية، تتسم بالتكبر والعجرفة، فدوكنز لا يتحدث كفيلسوف يعالج الأدلة يصل إلى استنتاجات منطقية، لكنه كواعظ أصولي يرسم طريق الخلاص، ويهدد بالطرد من الرحمة)، ثم تساءل: إذا كان الإله غير موجود فلم هذا التطرف الشديد ضد الدين؟! ومثله قول الفيلسوف الملحد توماس ناجل: (يهدف دوكنز في كتابه إلى إنكار أنّ الدين هو مصدر آداب السلوك التي تسود الحضارة المعاصرة، وقد أخذ يكرر هذا الإنكار بطريقة كريهة ومقرفة، قدر استطاعته)، وكذلك قال عالم الوراثة التطوري هـ ألين أور: (بالرغم من إعجابي السابق بنشاط دوكنز إلا أنه قد آن الأوان لنفترق، إنّ كتابه **وهم الإله** سيء للغاية، وبرغم أنني وصفت دوكنز قبلًا بأنه ملحد محترف فإنني بعد قراءتي كتابه الأخير أجزم أنه مجرد ملحد هاو، فإنه لم يقدم في الكتاب أي نقد موضوعي للدين، بالرغم من إنفاقه مئات الصفحات في الهجوم على الإله)، ويعلق على هذا د. عمر شريف، فيقول: (هكذا تخلى الكثيرون من أنصار دوكنز عنه بعد أن مارس غروره بتلقائية شديدة، في كتابه الأخير، وملأه ببذاءات كثيرة)، وأورد على ذلك أمثلة من هذه البذاءات التي جاءت في كتابه، (ينظر؛ عمر شريف: **خرافة الإلحاد**، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣).

يكون شـــبهة يلتبس بها أمر الإيمان بالله، وإنما يعول على تقليب الكلام من وجهة إلى أخرى ليلبس على من لا بصيرة له ولا تمييز، حتى يتصور ما يقوله أنه حجة في موضوعه.

ناهيـــك ما جاء في تضاعيـــف كلامه مـــن أنّ كل ما لم يكـــن ماديًا فهو لا شيء، كما نقل ذلك عن جفرسون أنه قال: «الكلام في اللاماديات هو كلام عن لا شيء، القول بأنّ «الروح» الإنسانية «الملائكة»، و«الله» غير ماديين هو القول بأنهم لا شيء، بمعنى أنه ليس هناك روح ولا ملائكة أو إله، لا أستطيع التفكير بغير ذلك بـــدون الغوص في متاهات لا يســـبر غورها، أو في هاوية التخيل، أنا ســـعيد ومكتف؛ بما أشغل نفسي به بدون اللاأشـــياء التي ربما تكون موجودة وليس لدي الدليل على وجودها»[1].

ولا يخفى ما في هذا الكلام ـ الذي أراد بـــه دوكينز أن يعزز إلحاده، ويدكدك صـــرح التدين بالقضـــاء على أسســـه ومقوماته ـ مـــن التناقض العجيب، ففي بدايته حكم علـــى كل ما لم يكن ماديًا بأنه ليس بشـــيء، ومعنى ذلك أنه لا وجود له، ولكنه بعد ذلك رجع إلى أنه سعيد ومكتف بما شغل به نفســـه، بدون الحقائق التي سماها لا أشـــياء، وأنت تدري أن السعادة التي ادعاها لنفســـه هي أيضًا غير مادية، فيلزم على ذلك انتفاؤها أيضًا إن كان كل ما لم يكن ماديًا فهو في حيز النفي، وترى أنه يسارع إلى نفي ما لم يكن لـــه دليل على وجوده، وهذا كلام عجيـــب، فإنه بناء عليه يترتب علينـــا أن ننفي جميع البشـــر الذين لـــم نتوصل إلـــى دليل على وجودهم، فضلًا عن الأحداث وفنون العلـــم وما ألف فيها من مؤلفات لم نتوصل إليها ولم نلم بشـــيء منها، وهل هذه إلا سفسطة لا تصدر إلا من الحمقى، الذين لا يميزون بين الحقيقة والوهم.

---

(١) ريتشارد دوكينز: الكتاب المسمى بـ وهم الإله، ص٤٤.

ويا ترى كم هي الحقائق التي كانت خفيـــة لا تتصورها العقول، ولم تصل إليها الحواس قد خرجت من أعماق خفائها إلى ســـاحات الظهور، فأصبحت متقبلة عند العقلاء مســـجلة في دواوين العلـــم لا يتمارى فيها الباحثون؟ فقبل ردح من الزمن ما كان الناس يعرفون عن المجرات شيئًا، ما عدا مجرتنا درب التبانة، التي تنتمي إليها مجموعتنا الشمســـية، وكم ظهر بعد ذلك من مجرات وصل تعدادها أخيرًا إلى تريليوني مجرة، فليت شـــعري هل كانت هذه المجرات في حال خفائها وجهـــل الناس بها غير موجودة حتى يتسارع إلى القول بأنّ كل ما لم يقم الدليل على وجوده هو ليس بموجود؟!.

دعك من هذه المجرات الواسعة، فإنا لو عدنا إلى مناخ استقرارنا ـ وهو الأرض التي جعلها الله لنا فراشًا ـ أتراها كانت منذ قديم الزمان معروفة بكل حقائقها التي تنطوي عليها، أو أنّ الناس كانوا يعيشـــون ردحًا من الزمن في أوهام تتعلق بهـــا، فكم تصور الفلاســـفة الأقدمون عنها صـــورًا لم تكن من الحقيقة في شيء، وإنما كانوا يعتقدون أنّ الحجج والأدلة تقتضي ما تصوروه، فهل يقال بأنّ ما تكشف من طبيعة الأرض لم يكن من الحقيقة في شيء قبل اكتشافه لأن الناس لم يصلوا إليه؟؟!.

حسبك أنّ الناس في فترة من الفترات كانوا ينكرون بشدة دوران الأرض، ويقولون باســـتقرارها وثباتها حتى عـــد القول بدورانها بدعـــة عوقب عليها بالإعدام إحراقًا، فهل كان دورانها عندما لم يقم عليه دليل ولم تعرف له حجة من جملة الأشياء العدمية التي لا وجود لها؟.

دعك من ذلك كله، وانظر إلى ما اكتشـــف في الإنســـان من أسرار خلقه التي لم تكن تدور ببال أحد من البشـــر، هل يعد قبل اكتشـــافه من الأشـــياء العدمية التي لا وجود لها، ناهيك بالشفرة الوراثية التي لم تكن معروفة عند

الناس قبل ما يربو على قرن من الزمن مـــن الآن، فهل كانت يومئذ لا وجود لها، لأنها لم يقم الدليل عليها؟!.

ويا ترى كم أحدث اكتشافها من دوي علمي هائل كاد يصخ منه الوجود، ولا زالت الاكتشـــافات تتوالى يومًا بعد يوم ســـواء في الوجود الإنساني أو وجود الكائنات الحية الأخرى أو وجود سائر الكائنات، فكيف يقال بأن ما لم يقم عليه دليل هو عدم؟!.

وما هذا إلا من باب مجـــاراة الخصم في دعواه وإلا فإن الكون بأســـره ما من ذرة منه إلا وهي سفر حافل بآيات الله تعالى الدالة عليه، ناهيك بتلك البرمجيات وكلماتهـــا المعبرة عن وجـــوده تعالى، وقد علمت أنها تشـــكل مكتبات ضخمة في كل جزئ من كل خليـــة، ولا عبرة بمجادلة الذين حرموا من نعمة الفهم والإدراك فيها بســـبب إخلادهم إلى هواهم ومكابرتهم للحق وارتكاســـهم في الضلال، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

هذا؛ وقد نقل دوكينز عن جفرنســـون أنه كتب لابن أخته بيتر كارل في عام ١٧٨٧م بأنّ على الإنســـان عدم الخوف من التســـاؤل عن أي شيء مهما كانت العواقب: «لـــو وصلت للإيمان بأنـــه ليس هناك إله فســـتجد في هذه المحاولة على الأقل المتعـــة واللذة العقلية وســـيدفعك ذلك لحب الآخرين والحصول على قسط من الراحة النفسية»[1].

وكم في هذه العبارة من إثبات لغير ما هو مادي، فالإيمان ليس ماديًا بحال لذلك لا يدرك بأي حاسة ظاهرة، فهو ليس له صورة ترى ولا صوت يسمع، ولا جســـم يلمس، ولا رائحة تشـــم، وإنما يدرك بالحس الباطني الـــذي ينفذ إلى

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤.

المعاني دون الأجسام، وكذلك المتعة واللذة، ليستا ماديتين، ولا تتسلط عليهما الحواس الظاهرة، ومثل ذلك العقل، فإنه لا يبصر بالعين، ولا يسمع بالأذن، ولا يلمس باليد، ولا يشم بالأنف، ولا يذاق باللسان، ولكنه نور معنوي في أعماق النفس تنتج عنه أعمـــال وخصال تدرك آثارها ومثل ذلـــك أضداده من الجنون والحماقة والخبل فليس لشيء منها ذات مادية يمكن إدراكها بأي حاسة.

وبناء على إنكار ما لم يكن ماديًا ووضعـــه في دائرة المنفيات يلزم إنكار العقل وأضداده، وإنكار الراحة والتعب، والصحة والسقم، والسرور والحزن، وكذلك الأمن والخوف، بل يترتب على ذلك إنكار الحياة والموت، إذ ليست لهما أو لأحدهما حقيقة مادية مشاهدة، وإنما ترى آثارهما.

وقل مثل ذلك في الفطنة والغباوة، والجود والشـــح، واليســـر والعســـر، والنعيم والبؤس، والإقبال والإدبار، والبلاغة والركاكة، والفصاحة والغموض، والظهور والخفاء، والشـــجاعة والجبن، إذ لا وجود ماديًا لشـــيء من ذلك، فإنكار ما ليس ماديًا يقتضي إنكارها جميعًا.

ثم ألحق ما سبق ذكره نقل رسالة أخرى من جفرسون لابن أخته جاء فيها: «انفض عنك كل المخاوف من الإجحاف المتذلل الذي تزحف تحته الأرواح الضعيفة، ضع الحكمة في مكانها واســـتمع لحكمها في كل الحقائق، واسع للحصول عليها في كل شيء وفي كل رأي وحتى في أسئلة محرجة، كما في حالة وجود الإلـــه، لأنه لو كان موجودًا فإنه ســـيقدر الـــولاء للعقل أكثر من الخوف الأعمى»[1].

وعبارات هذه الرسالة كالتي ســـبقتها في إثبات ما أنكره، فإنّ المخاوف ونفضها والإجحاف المتذلل ليس شـــيء منها ماديًا حتى يقر! إن كان لا يقر

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤.

وجود ما لم يكن ماديًا، وأشد من ذلك قوله: «التي تزحف تحته الأرواح الضعيفة» فأنت تراه يُقر بوجود أرواح مع شدة إنكاره لها من قبل، ومع ذلك يصفها بالضعف وأنى يكون ضعفها ماديًا؟! أولا يرينا إياه إن كان كذلك.

ومثل ذلك أمره أن يضع الحكمة في مكانها!! وهل الحكمة مادية حتى يكون لها وجود؟ وكذلك أين مكانها؟ فليرنا إياه! ومثله أمره الاستماع إلى حكمها في كل الحقائق، والسعي إلى الحصول عليها في كل شيء وكل رأي، فما هي هذه الحقائق التي تكون فيها الحكمة المادية؟! وما هو الشيء القائم الذي تحل فيه الحكمة؟! وكذلك الرأي والحكم؛ أين مكانهما من الماديات، وهل يتصور أن يحللا تحليلًا ماديًا؟!.

ومثله تقديره الولاء للعقل أكثر من الخوف الأعمى؛ إذ لا نعرف للتقدير، ولا للولاء، ولا للعقل، ولا للخوف حقيقة مادية، وهذا كله يدل على منتهى التهافت في احتجاجه، وليس هذا فحسب بل كل ما في كتبه من أولها إلى آخرها تجد مثل هذه التخبطات في العبارات.

وقد تعرض لبعض ترهاته التي لا تحصى الأستاذ رضا البطاوي في مقاله **أخطاء كتاب وهم الإله لريتشارد دوكنز**، فقال: «الكتاب رغم كونه حوالي ٤٠٠ صفحة فهو لم يناقش أدلة وجود الله كلها واكتفى بما سماه قانون باسكال، وهو ليس دليلًا ولكنه مقارنة بين حال الملحدين وحال المؤمنين بالله في حالة وجود الله، ومن ثَمَّ وجود حساب أي ثواب وعقاب بعد الموت فهو يقول إنّ المؤمن أفضل حالًا فهو لن يخسر دنياه بإيمانه وسيكسب بإيمانه أخرته بينما الملحد يكسب دنياه ويخسر أخرته فالقانون وهو شيء غير مرتبط باسم أحد كباسكال معروف من بدايات البشر.

وناقش بعض أدلة **توماس الأكويني** مناقشة سطحية استخدم فيها السخرية أكثر مما استخدم النقد السليم فمثلًا نجد السخرية من حكاية الصانع أي

المصمم في حالة الإله ومع هذا يصدق الرجل وكل الملاحدة بوجود مخترع أي صانع لكل آلة وهو تناقض في المنهج العلمي فإما إثبات صانع لكل شيء وإنما نفى كل الصناع فالإنسان عندهم بلا صانع والساعة لها صانع لأن صانع الساعة وهو إنسان كان محسوسًا مرئيًا بينما صانع الإنسان ليس موجودًا لكونه غير مرئي وغير محسوس.

كما نجد السخرية من قانون الحركة وهو قانون مشابه لقانون الصانع فكل حركة لها محرك إلا حركة الكون الحي مع إيمان الرجل بأنّ الكون لم يأت من العدم وهو كلام جنوني لأن المادة كما في رأيه ورأي غيره لا تفنى ولا تستحدث من عدم.

المهم أنّ الكتاب ليس به نقد سليم لأدلة وجود الله التي لم يناقش منه سوى بعض يسير والآن لنذكر أخطاء الكتاب:

في أول صفحة من المقدمة قال ريتشارد دوكنز:

(عندما كانت زوجتي طفلة صغيرة كرهت المدرسة) ص ٤

وقال (قبل كل شيء أتقدم بالشكر لزوجتي ليلى وارد) ص ١١

الرجل في كتابه ادعى أنّ الله هو وهم ولا وجود له ومع هذا هنا يقر بمقولة غيبية وهي الزوجية فالزواج هو أمر إنتاج الوهم الذي لا وجود له وطبقًا لعلمه فالزواج ليس قانونًا كونيًا لاعتراف الرجل بحقوق المثليين وأيضًا لاعترافه بما يقوله كعالم طبيعة وهو أنّ هناك كائنات لا تتزوج لانقسامها ذاتيًا أو بغير ذلك كالفيروسات والبكتريا ومعظم النباتات وهناك عندهم مثلًا النجوم والكواكب وهي أشياء ليس عندها مقولة التزواج.

الزواج هو فكرة غيبية لكونه عقد بشروط بين طرفين وعالم الطبيعة عالم لا يعترف سوى بالأجسام والزواج فيه جزء غير جسمي إن لم يكن أكثره.

وقال (كتاب المراد به لفت الانتباه لحقيقة أنّ الإلحاد هو تطلع واقعي شجاع ورائع من الممكن أن تكون ملحدًا سعيدًا ومتوازنًا ومقتنعًا فكريًا معنويًا بشكل كامل) ص ٤.

الرجل هنا أنكر الغيب ممثلًا في الإله، ومع هذا يناقض نفسه فيؤمن بالسعادة والشجاعة والاقتناع الفكري وهي أمور غيبية، فهذه أمور ليس عليها دليل من الطبيعة كما أنّ ما يعتبره هو سعادة قد يعتبره غيره تعاسة، وما يعتبره هو شجاعة يعتبره غيره تهورًا فهي أمور ليست مادية والمادة عندما استعملها كاستعمال القوم لأنها عنده مادة مرئية ومادة غير مرئية، وهي تتضمن بالطبع الأرواح أي النفوس وغيرها.

والرجل هنا عندما ينكر الغيب فلا بد أن يعترف بشجاعة كما يقول بأنّ أفكار السعادة والشجاعة وغير ذلك من أمور النفس هي وهم كوهم الإله الذي يزعمه وينفيه لكونها أمورًا غيبية والسؤال الذي يطرح نفسه عليه وعلى أمثاله:

من أين أتتكم تلك المقولات مثل سعادة وشجاعة التي تقولون بها حيث لا مادة تثبتها سوى التفكير وهو نفسه ما يثبت الإله الغيبي فكيف تحللون وجود تلك الأفكار ولا تحللون فكرة الإله؟ المقياس الصحيح وفي حالة الإلحاد لا يوجد أي مقياس ولا أي شيء فكري لكونه وهمًا فلا توجد قوانين ولا أي شيء»[1].

وواقع الملحدين كما ذكر، فهم يؤمنون بأنّ لكل صنعة صانعًا ما عدا الكون فإنهم لا يعترفون بصانعه، بينما أن أحدهم لو أبصر ما هو من أدق الأشياء ـ كإبرة الخياطة كما مثلت من قبل ـ فإنه لا يمكن أن يصدق أنه تَكَوَّنَ من تلقاء نفسه من غير عقل مصمم ولا يد عاملة ولا إرادة ولا قصد، بل لو

---

(١) البطاوي؛ رضا: أخطاء كتاب وهم الإله لريتشارد دوكنز، ينظر:
http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=14590.

قيل له ذلك لسارع إلى الإنكار، وليس هذا فحسب، بل لو قيل لأحدهم بأنّ هناك آلات تتحرك من تلقاء نفسها وتقوم بدورها في الإنتاج من غير تحريك من أحد ولا تخطيط لها لسارع إلى الإنكار، فهب أنّ أحدهم قيل له بأنّ هناك في بقعة من العالم سيارات تتحرك بنفسها جيئة وذهابًا وتحمل الركاب من مكان إلى آخر ثم تعود إلى حيث كانت حاملة معها ركابًا آخرين، من غير أن يقودها أحد أو يحركها محرك أو يخطط لعملها هذا مخطط، هل تراه يصدق ذلك أو يقره مع أنّ السيارة موجودة بآلاتها وتركيبها وطاقاتها قبل أن تقوم بهذا العمل؟!.

وكذلك لو قيل لأحدهم بأنّ في أحد أقطار العالم تتحرك القطارات بنفسها من غير أن يحركها محرك، أو يخطط لها مخطط، أو يرسم لها أحد خط السير الذي تسيره، وهي تتردد ذهابًا وإيابًا وتجتمع وتفترق من غير أن تصطدم، وكل هذا يحصل لها من قبل نفسها من غير أن يكون وراءها من يحركها أو ينظم سيرها، هل كانت عقولهم تقبل ذلك؟! ولو قبلوا ذلك هل كانوا يعدون من العقلاء؟.

وكذلك؛ لو قيل بأنّ طائرات تتردد على المطارات من غير أن يقودها طيارون، ومن غير أن يحركها محرك، أو يوجهها موجه عندما تطير وعندما تحط، وهي تنظم حركاتها بنفسها من غير أن تتصادم، ومن غير أن يضر بعضها ببعض، وإنما تتصرف كما لو كانت عاقلة لبيبة مفكرة، أترى أحدًا من هؤلاء الذين يجادلون في الله ويحرصون على إنكاره يصدق وقوع ذلك؟! كلا؛ وألف كلا، وإنما كل منهم سيبادر إلى تكذيب من يختلق هذه الفرية، وهكذا في جميع محركات الصناعات على اختلاف أنواعها وتعدد منتوجاتها، هل يمكن لأحد أن يصدق أنها تتحرك من قبل نفسها، بدون تخطيط ولا تصميم، وتنتج ما يعتمد عليه الناس في حياتهم الآنية والمستقبلة، أتراهم يصدقون ذلك؟.

وإذا كان جميع العقلاء يدركون بالبديهة أنّ هذه الدعاوى ليس لها نصيب من الحق أو حظ من الدليل، ولا يمكن أن تجد قبولًا عند أي عاقل من العقلاء ـ مع كون هذه الآلات جميعًا قائمة موجودة وقد صنعت بتصميم وتنفيذ محكمين ـ فاعجب ممن يستسيغ ويصدق أنّ هذا الكون الواسع بأبعاده المترامية، ومجراته المتناثية، وأجرامه المتكاثرة، تنتظم حركاته الدقيقة من غير أن يكون وراءه من يصرفه أو يوجهه، ومن غير أن يقع أي خلل في نظامه، ولا تصادم مزعزع بين أجرامه، ولا تداخل فوضوي بين جاذبياتها، ولا تعارض بين طبائعها، وإنما يسير كل في مجراه، ويؤدي دوره الإيجابي في المنظومة الكونية جميعًا، فلا يتضعضع أي جرم منها بتأثير ما يزيد عليه بأضعاف ـ لا تدخل تحت حساب البشر ـ في حجمه وطاقته، ولا يتزعزع بقوة حركته، التي هي أضعاف قوته، وإنما يبقى كل منها سابحًا في فلكه، شاقًا طريقه في دائرته! فهل يمكن أن يكون ذلك كله بحركات عشوائية من هذه الأجرام من غير تدخل من أحد أو تدبير من قدرة قاهرة، وحكمة باهرة، والأعجب من ذلك دعواهم أنّ الكون بذاته أوجد نفسه من العدم، وأعد نفسه هذا الإعداد المحير المدهش، ونظم كل ما فيه من دقائق ما اشتمل عليه إلى جلائلها من ذراته المتناهية في الصغر، التي لا تبصر إلا تحت أشعة المجهر، إلى مجراته الواسعة التي تحار العقول من طولها وعرضها؟.

هذا؛ مع ما هو معلوم أنّ كل ما هو داخل في تضاعيف الكون متفاوت تفاوتًا عجيبًا، فبغض النظر عن الدقائق الجزئية في الكائنات، فإنّ الأجرام الفلكية نفسها متفاوتة في أحجامها تفاوتًا كبيرًا، فكم من الأجرام ما هو أصغر من الأرض بكثير، والأرض نفسها بجانب ما يفوقها من الأجرام لا تساوي شيئًا، فالشمس أكبر منها بأكثر من مليون ضعف، وفي الأجرام النائية ما يفوق الشمس بمثل هذا القدر أو أكثر، على أنّ التفاوت كثيرًا يكون فيما بين أجرام المجرة الواحدة، «حيث تتجلى دقة التقدير، في تنسيق التكوين والحركة، بما

يملأ القلب روعة ودهشة، شعورًا بضخامة هذه الإشـــارة، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار.

إنّ الشمس ليســت هي أكبر ما في الســماء من أجرام، فهنالك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشــر له حــدودًا ملايين الملايين مــن النجوم، منها الكثير أكبر من الشــمس وأشــد حرارة وضوءًا، فالشــعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمســين ضعف نور الشمس، والسماك الرامح حجمه ثمانــون ضعف حجم الشــمس ونوره ثمانيــة آلاف ضعف، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة»[1].

وهي جميعًا تنتظم فيما تشتمل عليه مجرتنا درب التبانة، ولكنها مع هذا التفاوت في أحجامها وقواها تســير في أمان وفق قوانين تتســم بالشــمولية والانســجام الكامل فلا يزعزع كبيرها صغيرهــا ولا يضعضع قويها ضعيفها، فلكل منهــا جاذبيته المحدودة بحدودها، من غير أن تؤثر ســلبا على ســير ما دونها فضلًا عن صهــره وإبادته، فأنــى يتصور أن يكون هــذا كله بخبط عشوائي؟!.

هذا؛ وترى الملحد العنيد ريتشــارد دوكينز مع هذه المجادلة العمياء والمكابرة المتعنتــة يعترف في معمعة جدله بأن للكون أبعادًا واســعة لم يصلوا إليها، وطبائع مجهولة لم يتصوروها، فهو القائل: «نحن الحيوانات أكثر الأشــياء تعقيدًا فيما يعرف من الكون، والكون الذي نعرفه هو شظية دقيقة من الكون الفعلي، ولعل هناك أشــياء أكثر تعقيدًا منا فوق الكواكب الأخرى»[2].

---

(١) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، سورة الرحمن (الآيات ١ ـ ٧٨)، ٦/٣٤٤٧ ـ ٣٤٤٨.

(٢) رتشارد دوكينز: **صانع الساعات الأعمى**، ص٢١.

وهذا يعني ـ بلا ريب ـ أنّ الكون الـذي عرفوه ما هو إلا نقطة في فضاء واسع لا تحد أبعاده، ومع هذا كله فإنهم لم يعرفوا من الكون إلا ظاهره دون باطنه، ومظهره دون سـره، فلذلك عموا عن إدراك قراءة ما في سـطور هذا الكون، من الشهادة بوحدانية الله، والتسبيح بحمده كما قال **إسحق واطسن** في هذا المعنى: «إنّ الطبيعة تحمل كتابها المفتوح»، «وتسبح بحمد الله وجلاله»، فقد أصمّهم الله وأعماهم فلم يسـمعوا لتسـبيح الطبيعة صوتًا، ولم يشهدوا ما في كتابها المفتوح من عبارات التمجيد لمن خلق هذا الكون، ولأجل هذا جاءت هذه العداوة السـافرة بين الطبيعة والملاحدة كمـا يبرز ذلك في ثنايا عباراتهم التي يعبـرون فيها عن قهرهم للطبيعة أو قسـوتها عليهم، لأنهم لم ينالوا حظًا من تسـبيحها بحمد الله، ولم يتجاوبوا معها في إعلان توحيد الله سبحانه، ولذلك كان التوحيد خصمهم اللدود الذي يشنون عليه حروبهم كما جاء في قول **دوكينز** الملحد الأفاك فيما نقلـه عن **غورفيدال** الذي كان يدافع عن الشذوذ الجنسي ويتباهى بأنه متصف به، فقد نقل عنه أنه قال: «أكبر شر يمنع ذكره في قلب حضارتنا هو ديانات التوحيد»[1].

وهكذا عندما تنقلب المفاهيم، فتقلـب معها الحقائق حتى يصور الباطل أنه حق، والحق أنه باطل، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

---

(١) ريتشارد دوكينز: في كتابه المسمى **وهم الإله**، ص٣٩.



الفصل الثاني

في البراهين الشاهدة بأن الكون كان بخلق من خلاق عليم

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: في الخلق.
- المبحث الثاني: في كون الإيمان بالله الخالق لكل ما عداه مطلبًا فطريًا.
- المبحث الثالث: في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها في خلق الإنسان.
- المبحث الرابع: في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها في خلق النبات.
- المبحث الخامس: في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها مما تدل عليه الحقائق الرياضية.

المبحث الأول

في الخلق

الخلق: هو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، سواء كان إخراجًا من العدم المحض كما هو شأن الكون، الذي لم يكن له وجود في الأزل، ولم تكن له مادة أزلية سابقة على وجوده، كما يدل على ذلك العقل والشرع، أو كان بتصريفه من حال إلى حال كما صرف الله تعالى الطين فكان منه الإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، ثم بدأ الله خلق ذريته من بعده من نطفة، وقد طورها طورًا بعد طور حتى خرج منها بشر سوي، ولا يزال سَنَن الخلق في الناس والحيوان مطردًا على هذا النحو.

ويذكرنا الله تعالى بالخلق الأول لآدم عليه السلام كما يذكرنا بخلق أنفسنا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، وكل طور مما ذكر هنا إنما هو خلق جديد، بدليل قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]، وهذا ما أطبق عليه اللغويون، قال في اللسان: «الله تَعَالَى وتقدَّس الخالِقُ والخَلَّاقُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]؛ وَفِيهِ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]؛ وإنما قُدِّم أَوَّل وَهْلة لأنه

مِنْ أَسماء الله جَلَّ وَعَزَّ. الأَزهري: وَمِنْ صِفَاتِ الله تَعَالَى الْخَالِقُ والخلَّاق وَلَا تَجُوزُ هَذِهِ الصِّفَةُ بالأَلف وَاللَّام لِغَيْرِ الله ﷻ، وَهُوَ الَّذِي أَوجد الأَشياء جَمِيعَهَا بَعْدَ أَن لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً، وأَصل الْخَلْقِ التَّقْدِيرُ، فَهُوَ باعْتبار تَقْدِيرِ مَا مِنْهُ وجُودُها وَبِالِاعْتِبَارِ للإِيجادِ عَلَى وَفْقِ التَّقْدِيرِ خالقٌ.

والخَلْقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: ابتِداع الشَّيْءِ عَلَى مِثال لَمْ يُسبق إليه: وَكُلُّ شَيْءٍ خلَقه الله فَهُوَ مُبْتَدِئه عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سُبق إليه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]... ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

قَالَ أَبو بَكْرِ بْنُ الأَنباري: الْخَلْقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحدهما الإِنْشاء عَلَى مِثَالٍ أَبْدعَه، وَالْآخَرُ التَّقْدِيرُ؛ وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، مَعْنَاهُ أَحسن المُقدّرين؛ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ أَي تُقدّرون كَذِبًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩]خَلْقه؛ تَقْدِيرُهُ، وَلَمْ يَرِدْ أَنه يُحدِث مَعْدُومًا. ابْنُ سِيدَهْ: خَلق الله الشَّيْءَ يَخلُقه خَلْقًا أَحدثه بَعْدَ أَن لَمْ يَكُنْ، والخَلْقُ يَكُونُ الْمَصْدَرَ وَيَكُونُ المَخْلُوقَ؛ وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ أَي يخلُقكم نُطَفًا ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مُضَغًا ثُمَّ عِظامًا ثُمَّ يَكسُو العِظام لَحْمًا ثُمَّ يُصوّر ويَنفُخ فِيهِ الرُّوح، فَذَلِكَ مَعْنَى ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ فِي البَطن والرَّحِم والمَشِيمةِ، وَقَدْ قِيلَ فِي الأَصلاب وَالرَّحِمِ وَالْبَطْنِ»[1].

وكيفما فسر الخلق بأنه إنشاء على المثال الذي يختاره الخالق أو أنه التقدير، فإنّ ذلك من خصوصيات الله تعالى بالنظر إلى خلق الكون وما

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (خلق)، ١٣٩/٥.

يندرج فيه من صامت وناطق، فإنّ ذلك كله إنما هو من صنع الله، وهو الذي قدّر صنعه كما أراد، وتولى بنفسه إحكام ما قدره، فأخرجه على مثال لم يسبق، وسواء فسر الخلق بأنه الإيجاد أو التقدير فإنه عندما يسند إلى الله سبحانه لا يكون إلا حقًا، فهو تعالى الحق المبين يحق الحق ويبطل الباطل، فإسناد الخلق إليه تعالى إنما هو كما يليق بجلاله العظيم، وحكمته البالغة، وسلطانه القاهر، وإن أسند ذلك إلى أحد مخلوقاته فإنه يحمل على المعنى الذي يليق بحاله، فقد يكون حقًا كما في قوله تعالى للمسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، وقد يكون باطلًا؛ كما يدل عليه قوله تعالى للمشركين: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

وما من شيء في تضاعيف الكون وطوايا الوجود إلا وهو شاهد على خلق الله تعالى، وبهذا أقام رسل الله تعالى حجته على المشركين المعاندين الذين كابروا في هذه الحقيقة وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فعندما شككوا فيما دعاهم إليه المرسلون من توحيد الله سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي كيف يشك فيه سبحانه مع أنّ هذه السماوات والأرض، وكل ما تنطويان عليه مما دق أو جل هو شاهد ودليل عليه سبحانه وتعالى.

في كون الإيمان بالله الخالق لكل ما عداه مطلبًا فطريًا

الإيمان بالله تعالى أمر فطري لا يجادل فيه إلا من تعنت في الإلحاد وبالغ في المكابرة، فالمشركون على ما كانوا عليه من الضلال والانحراف الفكري، كانوا عندما يجادلون فيما يدعونه من دونه تعالى ويُسْألون عن خلق السماوات والأرض يعترفون بملء أفواههم بأنّ خلق السماوات والأرض إنما هو من الله وحده، ولم يكن لما يدعونه من دونه أي تأثير في ذلك، وهذا ما نصت عليه نصوص القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وكثيرًا ما كان القرآن يتنزل بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي تستأصل كل شبهة يتمسكون بها فيما يدعونه من دونه، كما هو في هذه الآيات: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا

تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

وهذا دليل على أنّ أولئك المشركين مهما كان تعنتهم في الكفر وإيغالهم في الضلال كان عندهم مما يبصرهم بالحقيقة ما لم يكن عند ملاحدة العصر الذين صموا وعموا عن شهادة الكائنات بأنّ الله خالقها ومصرفها شهادة يصخ نداؤها جنبات الوجود، وعن المتحف الإلهي الباهر المعروض في كل زاوية من الكون أرضه وسمائه، فقد تجاهلوا ذلك كله وأصروا واستكبروا استكبارًا، غير لاوين على شيء من صوت الفطرة الذي يجلجل في نفس كل أحد منهم، ولا إلى تجليات الحق سبحانه التي تمتلئ بها مشاهد الوجود، وعندما يسألون عن هذا الإبداع في الخلق والإحكام في التصريف يلجأون إلى ما يستلهمونه من عقلهم المأفون وبصيرتهم المنطمسة أنّ الصدفة التي يزعمونها هي التي فعلت هذا كله..!.

وقد علمت ما في دعواهم هذه من الخطأ التصوري والتعبيري، فالصدفة لا تدل على المعنى الذي يرمون إليه ـ كما تقدم بيانه ـ وإنما نضطر إلى التعبير بها في تفنيد زعمهم الباطل، حتى نتوصل إلى تعرية شبههم، فتتكشف أمام الأبصار كيف تتبخر بإشراق شمس الحقيقة المبددة للأوهام، وذلك باستعمال نفس المصطلح الذي يستعملونه.

ولا يخفى أنّ دعوى خروج هذا الكون بأجناس كائناته وأنواعها من العدم إلى الوجود يتعذر بجميع المقاييس العقلية والعلمية، وجميع البراهين الإيمانية بطريقة الصدفة التي يزعمونها، وما من شيء في هذا الوجود ـ من أي جنس من أجناس المخلوقات ـ إلا وفي كل ذرة منه أو كل جزيئة من

آيات الله تعالى الدالة على أنه هو خالقه ومبدعه ومصرفه ما لو دون لضاقت به المكتبات الواسعة، وفي هذا يقول الدكتور خالص جلبي: «كل ما في الكون ابتداء من بناء الذرة حتى أعقد أشكال الحياة يشير إلى التصميم والقصد في بناء الكون الحياة، ولكن مع هذا فهناك شبهة تدور في ذهن البعض وهي رد كل شيء إلى (الصدفة) والحق يقال أن الصدفة بذاتها أو فكرة المصادفة أو الاحتمالات لها قانون قائم بذاته يدرسه طلاب الجامعات في كلية العلوم وله بحث قائم بذاته فليس هناك مجال لخبط عشواء، والآن ما هي فكرة المصادفة؟.

هناك فرق بين شيئين الأول هو خلق الشيء، والثاني ترتيب الشيء أو تركيبه حيث إنّ فكرة المصادفة لا يمكننا أن ندخلها البحث الأول لأن الموجود لا يحكمه قانون المصادفة بحال من الأحوال، وأما تركيب الأشياء فقد يبقى موضع بحث، كما أنّ حركة الشيء لا يمكن أن ترد إلى المصادفة، وهكذا تجد أنّ قانون المصادفة يبقى مشوهًا مبتورًا منذ الأساس، فإلقاء حجر النرد ذي الوجوه السداسية قد تلعب الصدفة دورها فيتكرر رقم واحد خمس مرات أو ست مرات أو أكثر، ولكن احتمال هذا نادر جدًا كما أن احتمال سحب أوراق مرقمة من ١ ـ ١٠ وموضوعة في كيس واحد بصورة مرتبة متدرجة (بحيث إنّ الرقم (١) يأتي في الأول ثم تتبعه الأرقام التالية بالترتيب) احتمال ضعيف ونادر ولكن أين لقانون المصادفة أن يلعب دوره في الوجود أصلًا أو في حركة المادة من الأساس؟! وهناك فكرة الحياة أو ظاهرة الحياة حيث يبقى قانون المصادفة عاجزًا عند هذه العتبة. فترتيب المواد بكيفية ما قد يوضع في مدار البحث، ولكن انبثاق الحياة من الموات يبقي كل من يريد أن يبحث عاجزًا عن التفسير كليلًا في البحث»[1].

---

(١) د. خالص جلبي: **الطب محراب الإيمان**، ١٣/١ ـ ١٤.

ولا يخفى أنّ الكون خفيه وجليه، غائبه وشاهده، مادته وروحه، لا يتصور بحال من الأحوال أن يتكون بطريقة الصدفة التي يزعمونها، كما سبق شرح جانب من هذا في الباب الماضي، ولولا ذلك لبطلت بحوث العلماء ودراساتهم عن موضوع الكون، لأنها قائمة على قوانين منضبطة تنظم دقائقه الكثيرة مع تنوع أحوالها وتباين طبائعها، حتى غدت في نظامها الكلي تشكل وحدة متكاملة لا يوجد بينها نشاز ولا اضطراب، وسوف نضيف ـ إن شاء الله ـ إلى ما تقدم من البراهين والحجج ما هو أمضى في إزهاق الباطل وإحقاق الحق، وستجد ذلك ـ إن شاء الله ـ في المباحث الآتية.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث

في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها في خلق الإنسان

من المعلـــوم قطعًا أنّ أدنى ذرة فـــي الوجود لو اجتمعت طاقات البشـــر وخبراتهم المترادفة منذ بداية الخلق وإلى نهايته على خلقها وتركيبها لباءت جميعًا بالفشل، فإنها ليس لها أي سبيل للتوصل إلى هذه الغاية، وتحقيق هذا الطموح، وأصعب من خلق الذرة إيجاد ذلك الســـر الغيبي في الخلية ـ وهو الحياة ـ فإنها الأمر الذي حارت فيه الألباب، وخارت أمامه قوى الفكر، لأنه سر استأثر به الله ﷻ وحده، فأنّى للمخلوق الذي لا يعرف قبيله من دبيره أن يجد سبيلًا إلى اكتشـــاف هذا الســـر، وحل هذا اللغز، وقد ســـبق في الباب الماضي ذكر جانب من عجائب الخلية، وإن كان كل ما ذكر وما لم يذكر مما توصل إليه الإنســـان من عجائبها لا يعدو أن يكون قطرة في محيط أسرارها العظيمـــة، التـــي يعلمهـــا الله ﷻ وحـــده، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقد علمت ما يشـــتمل عليه جسم الإنســـان من الخلايا التي تعد بملايين الملايين، وإن كان العلماء المتخصصون لم يستطيعوا أن يقطعوا برقم معين من هذه الأعداد الهائلة لها، ولذلك اختلفوا بين قائل إنها خمســـون تريليون خلية، وقائل بأنها مائة تريليون، وقائل بأنها ألف تريليون، وهذه التقديرات ترجع إلى التخمين في هذا الأمر الهائل، وحســـبك أنّ يكون الإنســـان ـ وهـــو غير دار

بشيء ـ يستهلك جسمه في الثانية الواحدة من هذه الخلايا مائة مليون وخمسة وعشرين مليون خلية، وفي الدقيقة يستهلك سبعة مليارات وخمسمائة مليون خلية، وهي خلايا سائر الجسم من غير الدماغ، لأن خلايا الدماغ تبقى بأمر الله تعالى كما هي لأنها مخازن لذكريات الإنسان ومعارفه، وإذا كان هذا الاستهلاك لهذا الكم منها في الثانية والدقيقة، فما بالك بما يستهلكه الإنسان في الساعة أو في اليوم أو في الأسبوع أو في الشهر أو في العام أو في مدة العمر، إنها أرقام لا تدخل في دائرة الحساب لكثرتها الهائلة، وإنما يحصيها الله تعالى مبدئها ومعيدها الذي يصرفها كيف يشاء، ويوجه كل خلية لأن تقوم بدورها، وقد سبق ذكر ما قاله الملحد الجحود **ريتشارد دوكينز** بأنّ كل خلية تحوي قدرًا من المعلومات المرقومة في شفرة دقيقة ما يساوي الذي يحويه الحاسوب.

وكلامه هذا ـ كما سبق ـ هو ناقض لأساس فكره، فهو كما يقال: «ضرب أم رأسه بفأسه»، ومثل ذلك قوله: «ما يقبع في كل كائن حي، ليس النار أو النفس الدافئ أو (شرارة الحياة) هي المعلومات (الكلمات والتعليمات)، تفكر في بلايين الحروف الرقمية المختلفة.. إن أردت فهم الحياة فكر بالتقنية الرقمية»[1].

وكل ما ذكر يخزن في الأصباغ التي تحويها الخلايا، وقد ذكروا أنّ الصبغيات الموجودة في الخلية هي ٤٦ يتكون كل منها من شريطين مجدولين من المركبات الكيميائية ـ كما سبق ذلك ـ وهذا هو الحمض النووي الوراثي (DNA) وما أدراك ما هي دقة وإبداع هذا الشريط، بحيث لو جمعت هذه الشرائط جميعًا التي توجد في خلايا إنسان واحد فقط، ووصل بعضها ببعض لصارت كافية للتوصيل بين الأرض والشمس ألف مرة، مع أن المسافة التي

---

(١) ينظر؛ لينكس؛ جون: **أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين**، ص٣٧١، جمع وتعليق م. أحمد حسن، مركز دلائل، الدار العربية للطباعة والنشر ـ الرياض، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

بينهما تساوي ١٤٩,٠٠٠,٠٠٠ كلم، وهذا الشريط يعد أفضل وسيط للتخزين حسب ما هو معروف إلى الآن، فالشريط الواحد الذي لا يرى بالعين المجردة توجد في طواياه معلومات تملأ نصف مليون صفحة بحجم صفحات دليل الهاتف، وهو ما يكفي لملء مكتبة تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلد ضخم، وقد استغرق علماء عدة دول كبرى في أواخر القرن الميلادي المنصرم عقدًا كاملًا لتدوين هذه البيانات في مشروع يسمى خريطة الجينوم البشري.

وهذه المعلومات تتألف من أربعة أنواع فقط من المركبات الكيميائية وهي: (أدنين (A) ـ ستوزين (C) ـ ثايمين (T) ـ جوانين (G)) وتنشأ المعلومات من طريقة ترتيب هذه المركبات على شريط الحمض النووي لتعطي شفرات معينة تفهمها الخلية.

وهذا كما أن كل كتاب عربي يقرؤه الإنسان في جميع حياته تتكون حروفه من ٢٨ حرفًا ومنها تتركب الكلمات العربية التي تقدر بنحو ٢,٥ مليون كلمة عربية، ومن هذه الكلمات تتركب جمل لا حصر لها، ومن الجمل تتألف كتب لا تدخل تحت الحصر، وكذلك بالنظر إلى لغة الحاسب التي تتكون من حرفين فقط، فهو يتعامل بنظام العد الثنائي (Binary) حيث تتم به كل الحسابات والعمليات المنطقية، وعليه تم بناء لغات البرمجة، ونظم التشغيل والبرامج، وطرق تخزين البيانات وعرضها... إلخ.

وعليه فإنّ أربعة حروف كيميائية في لغة الشفرة الوراثية هي أكثر من كافية لعمل المعجزات، ومن هذه الحروف الأربعة يتم تكوين كلمات، طول كل كلمة منها ثلاثة حروف، ومعنى هذا أن معجم هذه اللغة يتسع فقط لـ (٤ أس ٣) أي ٦٤ كلمة، ومن هذه الكلمات المحدودة تتكون جمل كثيرة تختلف في أطوالها، فمثلا هذه الجملة (GGU, GGC, GGA) حيثما وجدت مكتوبة في خلية أي كائن حي، فإنها تؤدي إلى بناء الحمض الأميني الجليسين.

فالجملة مكتوبة باللغة الكيميائية هي أحماض أمينية، فلو اعتبرنا كل كلمة في هذا اللغة أمرًا (Command) فيمكن اعتبار الحمض الأميني هو القيمة العائدة (Return Value) من الدوال (Functions) المكتوبة بهذه الأوامر، فيا ترى ما هي البرامج التي يمكن أن تكتب بدوال الأحماض الأمينية.

والخلاصة؛ أنّ لدينا لغة برمجة تتكون من ٤ حروف تبني ٦٤ أمرًا مختلفًا، تدخل في تركيب ٢٠ دالة أساسية (الأحماض الأمينية) يتم استخدامها ما بين ٧ مليارات إلى ٨ مليارات لتكون ما بين مليون إلى مليوني فئة مختلفة تسمى الجينات، وتستخدم هذه الفئات لكتابة ٣٠ ألف برنامج متقدم لصناعة ٣٠ ألف بروتين، ومن هذه البرامج يتم بناء نظام كامل معقد هو جسم الإنسان[1].

وقد تقدم بيان بعض هذه المعلومات، على أن تصنيع سلسلة البروتينات هو نفسه أمر مدهش في دقته وروعة هندسته كما وضح ذلك جون لينكس في قوله:

«خلال تصنيع سلسلة البروتينات فهي تنطوي على نفسها معطية هيئة هندسية دقيقة ثلاثية الأبعاد يعتمد عليها نشاطها الكيميائي الحيوي التالي، وقد افترض سابقًا بأنّ البروتين (يعلم) كيف ينطوي بالشكل الصحيح بمجرد تحديد تتالي الأحماض الأمينية فيه. لكن من المعروف الآن أنّ بعض البروتينات تحتاج لبروتينات (مرافقة chaperone) لمساعدتها على الانطواء بالشكل الصحيح، وفي حال غيابها تبقى غير فعالة كيميائيًا وحيويًا.

فضلًا على ذلك، توجد بروتينات وهي البريونات Prions، وهي خالية من الحمض النووي، وهي تتدخل في أمراض الدماغ التنكسية مثل مرض جنون

---

(١) ينظر؛ م. محمد حمدي غانم: خرافة داروين حينما تتحول الصدفة إلى علم، نسف نظرية داروين باستخدام الرياضيات والبرمجة، ص١٩ ـ ٢٢، (مرقون).

البقـر (Mad cow). حيث أظهـرت الأبحاث أنّ البريون يتسـلل إلى بروتين دماغي طبيعي والذي يعاد طيه بشـكل مماثل للبنية ثلاثيـة الأبعاد للبريون. وتنتج هذه العملية من البروتين معـاد الطي بريونًا آخر، والـذي يعد معديًا جزئيًا ويحدث تفاعلًا تسلسـليًا مميتًا. والآن الأمر الغريـب والمثير جدًا أنّ البريون والبروتين الدماغي الذي يؤثر عليه يمتلكان تتالي الأحماض الأمينية ذاته، ولكن أحدهما خطير و(معدٍ) بينما الآخر طبيعي و(سليم).

يشـير هذا بقوة إلى أنّ البنية المطوية يجب أن تكون مستقلة جزئيًا عن تتالي الأحماض الأمينية. وهذا بالطبع يعني أنه في تقدير محتوى المعلومات للبروتين فالبنية الهندسـية ثلاثية الأبعاد لعملية الطي سـتؤخذ في الاعتبار، وهي مشكلة ذات أحجام مذهلة.

في ضوء حقيقة أنّ كثيرًا من هذا قد عرف من قبل العلماء لفترة من الزمن، فيسأل **كومنر** عن سبب استمرار المسـلمة المركزية. وجوابه هو: (لقدر معين أحيطت النظرية بالحماية من الانتقاد عبر جهـاز اعتدنا رؤيته لدى الدين أكثر منه لدى العلم، حيث صارت المعارضة أو مجرد اكتشـاف حقيقة غير موافقة هي جريمة تستحق العقاب، وهي بدعة قد تفضي بسهولة للنفي المهني. معظم هذا التحيز من الممكن أن يُعْزَى للعطالة المؤسساتية، فشل في الصرامة، لكن هنالك أسباب أخرى أكثر خفاء، لسبب اكتفاء اختصاصيي الوراثيات الجزيئية بالوضع الراهن، فقد أعطتهم المُسَلَّمة المركزية مثل هذا الاكتفاء، وهي تفسير مبسط جذاب للوراثة التي تبدو أنها مدنسة لإشـباع الشكوك. كانت المُسَلَّمة المركزية ببساطة جيدة للغاية لتكون غير صحيحة. يبدو لذلك أنه يوجد المزيد للغاية فيما يعني أن تكون إنسانًا مما هو في الجينات)»[1].

---

(١) د. جون لينكس: **أقوى براهين د. جون لينكس**، ص ٣٨٨ ـ ٣٩٠.

كل هذه الحقائق المذهلة في كل جزيئة مما تنطوي عليه الكينونة البشرية داعية للوقوف أمامها طويلًا من أجل دراسة برمجياتها المذهلة المعبرة بلغاتها البليغة عن كونها آثارا دالة على مؤثرها ﷻ.

ولا يخفى أنّ أي خلية من خلايا جسم الإنسان المعدودة بملايين الملايين هي أجل من كل الأجهزة التي اخترعها الإنسان في تاريخه كله، بما فيها من التعقيدات التي لا تتصور عقول البشر كيف يكون حلها، ويشرح أستاذ الجيولوجيا **مايكل دانتون** في كتابه **التطور نظرية في أزمة** هذا التعقيد بمثال جاء في قوله: «كي نفهم حقيقة الحياة على النحو الذي كشفه علم البيولوجيا الجزيئية علينا أن نكبر الخلية ألف مليون مرة[1]، حتى يبلغ قطرها عشرين كيلومترًا، وتشبه منطادًا عملاقًا، بحيث تستطيع أن تغطي مدينة مثل لندن أو نيويورك ما سنراه ـ عندئذ ـ هو جسم يتسم بالتعقيد، والقدرة على التكيف بشكل غير مسبوق، وسنرى على سطح الخلية ملايين الفتحات مثل الفتحات الجانبية لسفينة فضاء ضخمة تنفتح وتنغلق لتسمح لمجرى متواصل من المواد أن ينساب دخولًا وخروجًا، وإذا تسنى دخول إحدى هذه الفتحات سنجد أنفسنا في عالم من التكنولوجيا المتميزة والتعقيد المحير، تعقيدًا يتعدى طاقتنا الإبداعية نفسها، وهذه حقيقة مضادة لفرضية الصدفة ذاتها، وتتفوق بكل ما في الكلمة من معنى على أي شيء أنتجه عقل الإنسان».

ويضيف م. محمد حمدي غانم إلى كلامه هذا أنّ «المعلومات الوراثية المخزنة على شريط (DNA) هي أبدع نظام تشغيل (Operating system) في العالم، وهو يفوق بمليارات المرات أحدث نظم التشغيل التي أنتجها الإنسان، لتتحكم في أحدث الحواسيب حتى يومنا هذا، كالوينـدوز واللينوكس وغيرها، لأن هذا النظام لا يتحكم في حاسب واحد، بل في عدة منظومات هي أجهزة

---

(١) يلاحظ أنّ هذا الرقم ليس كافيًا لما هو مذكور هنا.

الجسم، التي تحتوي في مجموعها على خمسين مليون مليون حاسب دقيق (خلايا الجسم) موصلة معًا بشبكة عصبية يشغلها نحو ٨٦ مليار حاسب فائق، هي خلايا الأعصاب، ويتحكم فيها خادم مركزي عملاق اسمه المخ، الذي يتكون وحده من حوالي ١٤ مليار حاسب فائق السرعة (الخلايا العصبية) ويحتوي نظام التشغيل الإلهي (DNA) على كل البرامج اللازمة لتشغيل كل هذه المكونات المادية، بالإضافة إلى كل البيانات الأساسية، والبرامج الوظيفية التي تعطي لكل نوع من الكائنات الحية سلوكه الخاص، وسماته المميزة وغرائزه الأساسية، التي تدفعه إلى المحافظة على حياته.

وبجوار كل هذه الإمكانيات المذهلة لنظام التشغيل الإلهي يتفرد هذا النظام بخاصية لا يوجد مثيل لها في أي نظام تشغيل كتبه البشر، فهذا النظام لا يتحكم في سلوك الكائن الحي ووظائف أعضائه وأجهزته فقط، بل إنه يبني جسد الكائن الحي نفسه منذ البداية من مكونات الأرض العادية، أي إنّ هذا النظام قادر على صناعة المكونات المادية (الهاردوير)، ثم كتابة التطبيقات البرمجية (السوفتوير) التي تعمل على هذه المكونات المادية وتستفيد بقدرتها.

ولتتخيل أخي القارئ؛ أنّ كل هذا الإبداع المذهل مخزن بالشفرة الكيميائية على شرائط (DNA) في نواة خلية واحدة فقط من خلايا جسمك!! وإنما هناك نسخة مكررة من هذا المعرف (الكود) موجودة في كل خلية من خلاياك نصف مليون صفحة من المعرف مخزنة في نواة خلية واحدة فقط، ومكررة في خمسين مليون مليون خلية تكون جسمك.

والأمر المدهش؛ أنّ وزن المادة الوراثية في الخلية الواحدة ـ مهما كانت وظيفتها ـ لا يزيد عن ٥ بيكو جرام، أي خمسة أجزاء من تريليون جزء من الجرام، وهو يعني أنّ مجموع أوزان النسخ المكررة للمادة الوراثية في جميع خلايا الجسم هي ٢٥٠ جرام فحسب، من مجموع وزنك..!!، فسبحان الله الخلاق العليم.

والطريف في الأمر؛ أننا لو أخذنا نسخة من المادة الوراثية من كل فرد من سكان الأرض (٦ مليار نسمة) لكان مجموع أوزانها (٠,٠٣ جرام)، فما أعجب قدرة الله سبحانه الذي يبعث الناس يوم القيامة بكامل خصائصهم»[١].

وإذا كان هذا كله مثار دهشة لا تنتهي، فإنّ من أعجب العجب أن يجادل أحد في الله سبحانه بعد قيام هذه البينات من هذه البرمجة العجيبة في جسم الإنسان، التي تعجز عن محاكاتها جميع ملكات الناس في الاختراع، بل ما في خلية واحدة يفوق في إحصائه ودقته ما تستجمعه جميع الحواسيب التي استخدمها البشر، فهب أنّ أحدًا من أولئك المجادلين في هذا قيل له بأنّ حاسوبًا احتوى من تلقاء نفسه على معلومات شتى من غير أن يتولى أحد تخزينها فيه، أتراه كان مصدقًا لهذه الدعوى، أو أنه سيبادر إلى تكذيبها؟ دعك ما لو قيل له بأنّ هذا الحاسوب اخترع نفسه! فتكون بنفسه من غير أن يصممه مهندس أو يصنعه صانع، أيتصور أن يصدق هذه الدعوى؟ فما بالك بدعواهم الآفكة أنّ الإنسان تكون وهو في غياهب الرحم، حيث لا تراه عين ولا تسمعه أذن ولا تلمسه يد، ولا تصل إليه آلة، فأوجد لنفسه هذا النظام المدهش المحير، الذي يشمل كل خلية من خلايا الجسم، فكيف يصدقون هذا وهم لا يصدقون بأنّ حاسوبًا تكون تلقائيًا أو خزن ما فيه من المعارف من غير أن يكون لأي أحد أي دور في ذلك؟!.

على أنّ الخلية التي هي في الدقة كما علمت هي ذاتها مصنع حي ينتج ما يتعذر على غيره إنتاجه، فهو الذي ينتج البروتينات، ومهما حاول الناس بذكائهم وفطنتهم وتجاربهم المتوالية وخبراتهم المتراكمة أن ينتجوا بروتينًا واحدًا، فإنّ كل محاولاتهم في ذلك ستبوء بالفشل، ولن تسعفهم المصانع التي ابتكروها ويبتكرونها لتحقيق هذا المرام، اللهم إلا أن يرجعوا إلى الخلية

---

(١) ينظر؛ م. محمد حمدي غانم: خرافة داروين، ص ٢٣ ـ ٢٥. «بتصرف يسير»

نفسها باستخدام الهندسة الوراثية، ومعنى ذلك أنهم يطلبون من الخلية التي أعدها الله تعالى لذلك أن تؤدي لهم هذا الدور، على أن أي خلية في أي جسم تقوم بدور معين في ترجمة جزء معين من هذا الشفرة الوراثية لتبني البروتينات اللازمة لعضوها الذي توجد فيه، وهذا ما يجعل الكبد كبدًا، والقلب قلبًا، والذراع ذراعًا، فكل خلية تعرف ماذا تبني ومتى تقوم بالبناء، فالأسنان تنمو في عمر معين، وتتوقف عن النمو في عمر معين، وكذلك الشارب واللحية ينبتان للذكر في عمر معين، ومثل ذلك سائر الشعر الذي لا ينبت في الذكر ولا الأنثى إلا عند البلوغ، فيا ترى أتزعم مع هذا كله أن الصدفة المدعاه أو العشوائية المزعومة كانتا سببًا لذلك؟!.

وليت شعري؛ ما الذي كان سيحدث لو أنّ خلايا الفم قررت فجأة أن تترجم الأحماض الهاضمة الموجودة في المعدة، مع أنّ الفم غير مبطن بالأغشية الواقية التي تحميه، كما هو الحال في المعدة، وما نتيجة ذلك إلا أن يكون الإنسان كأنه شرب مادة كاوية.

على أنّ هذه الخلايا مع كثرتها الكاثرة، كل خلية منها تقوم بدورها في الجسم فتؤدي وظيفتها على أكمل وجه، وبينها جميعًا من التناسق ما يدهش العاقل، وثم عمليات معمارية وقف دونها إدراك جميع العلماء المتخصصين، كذلك الشكل الفراغي المميز الخاص بالأنف، ومثل ذلك ما في الأذن والجمجمة، وكل جزء في الإنسان[1].

وإذا كان تشغيل هذه الخلايا في وظائفها المعهودة أمرًا معجزًا، تقف دون تصوره خبرات جميع خبراء العالم، وهو دليل على أنّ وراءها من يلهمها القيام بهذه الوظائف، وأداء هذه الأعمال بتوجيه محكم دقيق، يضع كل شيء منها في موضعه، ويقطع ببراهينه دعاوي الصدفة التي يتشدقون بها، فإنّ

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٢٦.

وجود الخلية نفسها هو أقوى حجة وأبلغ دليلًا، فهو يستأصل كل دعوى بأنّ وجودها كان أمرًا عشوائيًا، لم يكن وراءها من أوجدها، وفي ذلك يقول العالم الرياضي والفلكي الإنجليزي **فريد هويل**: «إنّ ظهور خلية حية للوجود عن طريق الصدفة يشبه ظهور طائرة من طراز (بوينج ٧٤٧) عن طريق الصدفة نتيجة هبوب عاصفة على محلات لأدوات الخردة!!»[1].

وإذا كانت دعوى الصدفة في ظهور خلية واحدة للوجود ـ في نظر هذا الرياضي الفلكي ـ هي كدعوى ظهور هذه الطائرة نتيجة هبوب عاصفة على محلات لأدوات الخردة من غير تدخل أحد في تصميمها وبنائها، فإنّ تشغيل هذه الخلية أيضًا ـ بحيث تؤدي دورها المعهود في إنتاج مادة الحياة بمجرد الصدفة المزعومة ـ هو في استحالته كقيام هذه الطائرة بوظيفتها الحيوية في نقل الركاب بين أقطار الأرض من غير تصميم من أحد ولا عمل، ولكن ذلك بطريق الصدفة كما هو شأنهم فيما يدعونه من أمر الخلية!.

هذا؛ وقد فشلت كل محاولة في تفسير الحياة ونشأتها، فقد وجد الباحثون في هذا أنفسهم أمام زخم من الألغاز التي لا يعرفون لها نهاية، وهي تتحدى كل ما عسى أن يقولوه في كشف هذا السر المعمى، فمنهم من ظل بحيرته يدور في حلقة مفرغة لا يدرك منتهاها، ومنهم من أدى به الأمر أخيرًا إلى الاعتراف بأنه لا بد من القبول أن وراء حياة كل شيء محييًا قديرًا على كل شيء خبيرًا بما دق وما جل، ولنسمع إلى ما قالوه في ذلك، فـ **بول دايفيس** يصرح قائلًا: «في الحقيقة فإنّ الحياة ليست مثالًا على التنظيم الذاتي، بل هي في الحقيقة تنظيم محدد، أي موجهة جينيًا، حيث يتم توجيه الكائنات الحية من خلال البرامج المشفرة في (DNA) أو (RNA) حيث تتشكل خلايا الحمل تلقائيًا بواسطة التنظيم الذاتي، لا يوجد جين لخلية الحمل، فمصدر الترتيب

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

غير موجود في البرنامج الخاص بها، بل يمكن بدلًا من ذلك أن نتعقبه للوصول إلى الظروف الحدية في السوائل... بكلمات أخرى فرض تنظيم خلية الحمل خارجيًا من قبل بيئة النظام، وفي الجهة المقابلة يشتق التنظيم في الخلية الحية من تحكم داخلي... إنّ نظرية التنظيم الذاتي لم تقدم حتى الآن أي لمحة حول كيفية حصول الانتقال من التنظيم العفوي أو المحدث ذاتيًا ـ والذي في أكثر الأمثلة غير الحيوية تفصيلًا يتضمن بنى بسيطة نوعًا ما ـ والكائنات الحية المنظمة جينيًا وعالية التعقيد والمبنية على المعلومات»[١].

ويقول **ستيفن ماير**: «تشرح نظريات التنظيم الذاتي بشكل جيد ما لا نحتاج شرحه، ما نحتاج لشرحه ليس ما هو أصل التنظيم، ولكن ما هو أصل المعلومة»[٢].

ويقول **ليزلي أورغل** ـ وهو أحد أشهر العلماء العاملين في حقل أصل الحياة ـ: «هناك العديد من النظريات التي يمكن الدفاع عنها حول أصل المادة العضوية على الأرض البدائية، لكن لا يتوافر في أي منها دليل داعم ساطع البيان، وبشكل مشابه، فإنّ عديدًا من السيناريوهات البديلة المحسوبة على التنظيم الذاتي للكيانات ذات التضاعيف الذاتية المؤلفة من المواد العضوية ما قبل الحيوية، ولكن جميعها صيغت بشكل جيد بناء على الاصطناعات الكيميائية الافتراضية الإشكالية»[٣].

---

(١) د. جون لينكس: **أقوى براهين د. جون لينكس**، ص٣٦٩، نقلاً عن:
The Fifth Miracle.op.cit.p.122.italics his..

(٢) المرجع السابق، ص٣٦٩ ـ ٣٧٠، نقلا عن:
The Return of the God Hypothesis.Seattle.Discovery Instiute Center for the Renewal of Science and Culture.1998.p.37..

(٣) المرجع السابق، ص٣٧٠، نقلا عن:
The Origin of Life: A Review of Facts and Speculations.Trends in Biochemical Sciences. 1998.23.p.491-500..

وقد استرجع **أورغل** رؤية **كلاوس دوس** ـ وهو عالم شهير في أبحاث أصل الحياة ـ وقد سبق إلى هذه النظرة فقال: «إنّ البحث لمدة تربو على الثلاثين عامًا في مبحث أصل الحياة عبر الكيمياء والبيولوجيا التطورية، قد قادت إلى فهم أفضل لضخامة المعضلة المتعلقة بأصل الحياة، بدلًا من أن تقدم لنا الحلول، وحتى اليوم فإن كل النقاشات حول النظريات الرئيسية والتجارب الميدانية إما أنّ تصطدم بطريق مسدود، أو باعتراف بالجهل»[١].

وعلى الرغم من كون **فرنسيس كريك** كان مشهورًا بعدم التعاطف مع المعجزات، فإنه قال: «إنّ أصل الحياة يبدو وكأنه معجزة، فهناك العديد من الشروط التي كانت عليها أن تكون مستوفاة لكي تبقى مستمرة»[٢].

وبسبب هذه الحيرة في هذه المعضلة قال **ستيوارت كوفمام**: «إن أخبرك أي شخص بأنه يعرف كيف بدأت الحياة من ٣,٤٥ مليار سنة فإما أنه أحمق أو محتال فلا أحد يعرف ذلك»[٣].

وقد تابعه في ذلك **فرنسيس كولينز** إذ أكد في وقت لاحق نفس هذا القول وأتبعه بقوله: «من الحق أن نقول إنه في الوقت الحالي نحن ببساطة لا نعلم، حيث لا توجد أي فرضية تقترب من شرح كيفية ولادة الحياة في غضون ١٥٠ مليون عام من بيئة ما قبل الحيوية التي وجدت على سطح

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٠، نقلا عن:
The Origin of Life: More Questions than Answers.Interdisciplinary Science Reviews. 1988.13.p.348..

(٢) المرجع السابق، ص٣٧١، نقلا عن:
Life Itself. New York. Simon and Schuster.1981.p.88..

(٣) المرجع السابق، ص٣٧١، نقلا عن:
At Home in the Universe. London. Viking.1995. p.31..

الأرض، وهـذا إذا ما لم نـرد القول بأنه لـم توضع فرضيـة معقولة، لكن الاحتمالية الإحصائية لهذه الفرضيات حول تطور الحياة بعيدة المنال»[1].

وما هذا التخبط في تفسير أصل الحياة إلا بسبب التصامم عن نداء الحق، والتعامي عـن برهانه البين الـذي يصدع به قوله تعالـى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٠، نقلا عن:
The Language of God.op.cit.90..

في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها في خلق النبات

ما أعجب سر الحياة الدال على المحيي المبيد الذي يبدئ ويعيد فيما يشاهد في كل ما تنبته الأرض من عشب وزرع وغرس، وفي كل ما يفتح الإنسان عليه عينه من المروج الخضر والغابات الملتفة والحدائق الغناء، فكم في ذلك من آية تسر الناظرين وتدهش بصائرهم، والقرآن الكريم يلفت الانتباه إلى هذه الحقائق التي قد يغفل الإنسان عنها بجهله أو تجاهله لطول ألفته لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

فكم في هذا من آيات بينات ناهيك أنّ البذرة التي تنشأ منها الحياة هي في ذاتها مادة ميتة لا حياة فيها، ويمكن تخزينها لفترات طويلة، ولكن بمجرد وضعها في التربة والماء تدب فيها الحياة بإذن الله، فإذا هي تقوم

بترجمة الشـــفرات المكتوبة فيها لتنفيذ برنامجها المعقد، وتسير في ذلك بخطى دقيقة محسوبة محكمة، وتقوم ببناء مصنع محير اسمه النبات مواده الخام هي الماء والغـــذاء والهواء، فينتج هذا المصنـــع كل ما يروق للعين ويبهج الخاطر، من مناظـــر خلابة يجتلب تأملها الســـرور البالغ، ويذهب بالكروب والأحزان، فتنشـــأ من هذا المصنع الجنات الفاخـــرة والحدائق الساحرة، وتؤتي بحمد الله ثمارها، التي تمد الأحياء بأرزاقهم، تأتيهم رغدًا بمشيئة الله غدوًا وعشيًا.

وتختلف مصانع النباتات عن مصانع البشـــر، فمصانـــع النباتات تحافظ على البيئة بإنتاج الأكســـجين وإنتاج ثاني أكســـيد الكربون، وهي التي تنتج جميع المـــواد الكربوهيدراتية والدهون النباتية والبروتين والخشـــب وعلف الماشية، وكل المنتجات النباتية التي ينتفع بها الإنسان والحيوان، والكائنات الحية الدقيقة، ومع ذلك فإنّ هـــذه المصانع هي أهم مصانـــع تثبيت الطاقة الشمسية على الأرض، فبسببها تكوّن النفط والفحم في الأرض.

وترى أنّ أصل هذا كله مختزن في بذرة واحدة، يمكن للإنسان أن يحمل في قبضة يده مئات أو آلافا منها، وإذا كانت الحضارة المعاصرة الحديثة قامت بالفحم والنفط والكهرباء ـ وهي تتولد بإحراق الفحم وبالنفط ـ فمعنى ذلك أنّ جميع هذه الحضارة التي يفاخر بها أبناء العصر حركتها الشـــفرة الوراثية الموجودة في بذور النباتات، وإن كان أكثر النـــاس لا يعلمون حتى بلغ بهم الغلو في المكابرة إلى الإلحاد ونفي وجود الله تعالى، مع أنّ حضارتهم قائمة على ما صنعته البـــذرة مما خلق الله، وهم كما قـــال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٧ ـ ٨].

وما أشبه النشأتين بعضهما ببعض، فنشأة النبات كنشأة الإنسان، كما أن نشأة الإنسان كنشأة النبات، إذ كل مولود من الجنس البشري ـ بل ومن سائر الأجناس التي تشارك البشر في الحياة ـ يتم بناؤه في البداية من اتحاد المعلومات الموجودة في الحيوان المنوي والبييضة، ليجتمع له ما في نوعه من بنية وسمات، ويكون بسبب ذلك التكاثر، وإعادة إنتاج الحياة، ومن هذه الشفرة الوراثية تم بناء المخ البشري الذي اكتشف هذه العلوم وأبدع هذه التقنية[١].

وما أعجب حال أولئك الذين يردون هذه الآيات العظيمة في خلق الإنسان والحيوان والنبات إلى الصدفة العمياء، ويتجاهلون أن يكون الله سبحانه هو الذي أتقن صنع ذلك بحكمته، ويتعامون عن قراءة ما كتب في صور هذه الشفرات من برمجيات فائقة الدقة، وهي مسئولة عن كل هذه الكائنات والمنتجات والآلات والحاسبات والعلوم والآداب والفنون، ويردون كل ذلك إلى الصدفة العمياء التي يتخيلونها..!! وأنى لما يتخيلونه أن يوجد مثل هذا التصميم الدقيق الذي يكفي أقل خطأ فيه لقتل الكائن أو تشويهه؟! وأي صدفة هذه التي يزعمون أنها صنعت المبدعين والعباقرة والعلماء، وصنعت ما اكتشفوه من علوم حيوية وكيميائية؟![٢].

على أنّ لغة الإيمان التي تقرأ في كل خلية من كائن حي ـ إنسانًا كان أو حيوانًا أو نباتًا ـ في شفراتها البرمجية المعقدة، هي نفسها موجودة في جميع الكائنات التي على سطح هذه الأرض، وهي تقدر أنواعها بأربعة ملايين ونصف، كل كائن منها تضيق المكتبات الهائلة بشرح ما يحتويه وما تعرب عنه سماته وسلوكه وصفاته التي ينفرد ويمتاز بها، وكذلك علاقته بالبيئة

---

(١) ينظر؛ م. محمد حمدي غانم: خرافة داروين، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص ٣٠.

وطرق تكيفه بها، ومعنى ذلك أنّ الكيمياء الحيوية كتبت أربعة ملايين ونصف نظام تشغيل في منتهى التعقيد والتمييز، كل واحد منها يتحكم في بناء أحد هذه الأنواع من الكائنات الحية، ويمنحه صفاته السلوكية وخصائصه التي يتميز بها، أوَيتصور أن تكون الصدفة التي يزعمونها هي التي قامت بهذا كله، مع أنّ علماء الأرض لو اجتمعوا جميعًا في صعيد واحد ليكتبوا من عندهم شفرة وراثية تحرك بعوضة واحدة لعجزوا فضلًا عن كونها تصنع البعوضة، وإذا كان هذا فيما هو من أدق هذه الكائنات وأصغرها، فما بالك بما كان من أضخمها وأكبرها كالفيلة في البر، والحيتان في البحر..!!.

والأمر المعجز ليس هو مجرد تراص بعض المواد الكيماوية معًا، لتكون بعض المركبات الداخلة في جسم الكائن، وإنما الأمر المعجز هو أن تترتب هذه المواد بنظام معقد لتُكَوّن البرامج الوراثية للكائن، بحيث تكفل لكل خلية في جسم الكائن أداء عملها بدقة مع اشتراك جميع خلايا الجسم التي تفوق ملايين الملايين في ذلك، ومع ذلك تهيئ الكائن لأن يتقي ما يضره وأن يتكيف مع بيئته، ويميل كل من نوعيه، ذكرًا أو أنثى إلى الآخر من أجل التكاثر بإعادة إنتاج أجيال جديدة، ويدخل في ضمن الشفرات الوراثية كل شيء حتى الميل الجنسي والعاطفي، وهذا ما جعل جورج وليامز ـ وهو أحد المتحمسين في الدفاع عن نظرية التطور ـ يقول معترفًا في مقال كتبه عام ١٩٩٥م: «لقد فشل الجيولوجيون من مؤيدي التطور في إدراك أنهم يعملون من خلال نطاقين يمكن القول إنهما غير متكافئين أولهما خاص بالمعلومات، والثاني خاص بالمادة، ذلك أنّ الجين هو حزمة من المعلومات وليس (شيئا ما).. هذا الوصف النادر يجعل من المادة والمعلومات نطاقين مختلفين للوجود، ينبغي مناقشة كل منهما على حدة»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢.

وإذا كان الجين حزمة من المعلومات فيا تـــرى من الذي كان يعلمها في حالة نشـــأة الجين، فهل يمكن أن تكون الطبيعة التي لا تدري شـــيئًا، وهي تُصَرَّفُ ولا تتصـــرف، هي التـــي أحاطت بهـــذه المعلومات خبـــرة فرتبتها وبرمجتها في الجين بهذه الكيفية التي تدهش عقول ألباء البشر العباقرة؟!.

كيف يتقبل عقل عاقل ذلك، ويتجاهل أنّ هذا كله شـــاهد ودليل أن هذا الترتيب، وهذه البرمجة لا يمكن إلا أن يكونا ممن أحاط بكل شـــيء علمًا، ذلك الذي خلق الإنسان ومنحه الســـمع والبصر والعقل وفتح له آفاق العلم، ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]؟!.

على أنّ الإنسان الذي شرفه الله سبحانه بمزية العلم، وفضله به على كثير ممن خلق تفضيلًا، هو نفســـه خرج إلـــى هذا الوجود بعـــد أن انتظم وجوده باجتيازه مراحل خلقه وعبوره إبان حمله، ولم يكن عارفًا بقبيله ولا دبيره ولا بصيرًا بمبدئه وغايته، وإنما يفاجأ بالدنيا وهي تستقبله بسرائها وضرائها، فيبدأ مراحل التعلم مما يفـــاض عليه من الإلهام الربانـــي ليتكيف وفق ما تقتضيه حياته الجديدة، ثم يأخذ بعد ذلك يتدرج في صعود درجات العلم حتى يصل إلى حيث يكتـــب الله تعالى له الوصـــول، كما يؤذن به قولـــه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فكيف يتصـــور لجين من جيناته أن يكتب في لوحاته هذه الحروف العلمية الهائلة الشارحة لأسرار خلقه؟!.

وإنما تلك كلمات من لا حد لكلماته الذي أحصى كل شيء عددًا، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، ولكن الملاحدة بمكابرتهم وعنادهم صموا وعموا عن الإصغاء إلى هـــذه الكلمات، وقراءتها القـــراءة الصحيحة المبصرة بحقائق دلالاتها، فكل ما انتهوا إليه هو التفسير المادي لها، وهو كما بينه قائد

قطيعهم ريتشـــارد دوكينز وخلاصته أنّ الحياة ظاهرة مستقلة يمكن أن تدرس نشـــأتها بمعزل عن نشـــأة الخلية الحية، ويعتبرون أن نشـــأة الحياة تتركز في الحصول على جزيء الدنا القابل للانقســـام، ويدعون أن نشأة باقي الخلية أمر هين يستطيع هذا الجزيء توجيهه، مع أنّ الحياة ظاهرة تسري في أجزاء الخلية.

وإذا كان العلـــم الحديث ينظر إلـــى أي موجود من زاويتيـــن، الزاوية الأولى الجانب المـــادي، والزاوية الثانية الجانب المعرفـــي فإنه ينبغي أن تدرس نشأة الخلية الحية من طريق البحث عن مصدر هذين المكونين، أما نشـــأة المكون المادي فإنه يمكن النظر إليه باعتباره مثلثًا أحد أضلاعه هو نشأة البروتينات التي هي الوحدات البنائية لمعظم مكونات الخلية الحية، وضلعها الثاني هو نشأة الدنا وآلية التشـــفير التي يقوم بها، والضلع الثالث هو نشأة غشاء الخلية المعجز.

وقد اختلفوا في نشـــأة الخلية الحية بين من يرى أنّ الجينات هي الناشئة أولًا ومن يرى أنّ الكيمياء هي الأسبق، **فريتشارد دوكينز** يعتمد الرأي الأول ويشـــرحه في كتابه **الجين الأناني** فيقـــول: «في مرحلة معينة بـــزغ بالصدفة (Accident) جزئ الدنا (DNA) الســـحري المتميز الذي له القدرة على إنتاج نسخ متماثلة من نفســـه، هذا الجزيء الذي يحمل المعلومات المطلوبة لبناء البروتينات»[1].

وقد علق د. عمرو شـــريف على كلامه هذا بقوله: «أين هو الساحر الذي مارس هذا السحر، وما مصدر هذه المعلومات؟!

يا سلام..؛ بهذه البساطة، إنها عملية صدفة وسحر، أهذا علم؟!

---

(١) د. عمر شـــريف: خرافة الإلحاد، ١٦٥ ـ ١٦٦، نقلا عن كتـــاب (Selfish gene) الجين الأناني - تأليف ريتشارد دوكنز، ١٩٨٩، Oxford, P. 15.

لا تظن أنني أتجنى على الرجل، فأنت تستطيع أن ترجع إلى مصدر هذا الخبل»[١].

وقد صدق في كون هذا خبلًا، ومما يدعو إلى السخرية منه أن يكون هذا القائل يتجاهل وجود الله وخلقه للكائنات، ولكن مع ذلك يعترف للخيالات والأوهام، فيعزو إلى السحر وقوع أمرٍ تعجز أدمغة عباقرة البشر عن تصور سر وقوعه، وإذا كان مبدأ الإلحاد عند دوكينز وقطيعه يقوم على إنكار جميع الغيبيات، فكيف يصدقون بالسحر وتأثيره في الخلق، وهل يتصور أن يكون سحر إلا من ساحر، فأين إذًا هذا الساحر؟!.

أما من يرى أنّ الكيمياء هي الأسبق فإنه يرى أنّ جزيء البروتين يمكن أن ينشأ تلقائيًا عن طريق مكوناته دون الاحتياج إلى الشفرة التي يحملها الدنا، ويشبهون ذلك بتيارات الحمل الدائرية المنتظمة التي تحدث في الماء قبل غليانه، وهم تجاهلوا أنّ تيارات الحمل تحدث نتيجة لخواص فيزيائية لجزيء ما، فهل من الخواص الفيزيائية وعناصر مكونات البروتين (الكربون والهيدروجين والأكسجين والنيتروجين والفوسفور) أن تنتج جزيء البروتين شديد التعقيد؟! إنّ أحدًا من الفيزيائين لم يقل بهذا[٢].

كل هذا التخبط يحملهم عليه الفرار من قبول الحقيقة والاحتكام إلى براهين العقل ومسلمات التجارب، وهي أنّ كل ما دق وجل لا يمكن أن يتكون إلا بمكون، ولو كان في منتهى البساطة، فما بالك بما فيه تَكَوُّن البروتين من التعقيدات التي حارت منها ألباب مهرة العلماء، على أنّ أولي الألباب لا يعتريهم شيء من الحيرة في ذلك، إذ لم يعطلوا عقولهم ويغشوا أبصارهم، ويختم على أسماعهم حتى لا يجدوا الحقيقة ماثلة أمامهم تملأ عقولهم هدى

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٦.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٦٦.

وبصيرة وفهمًا وإدراكًا، وأبصارهم حجة ودليلًا وأسماعهم دعوة تردهم إلى الله سبحانه، وتعرفهم بعظمته وجلاله، فقد عرفنا الله تعالى كيف تكون حال أولئك الذين نور الله بصائرهم، وهدى أبصارهم وأسماعهم، فأدركوا حجة الله تعالى في كل ما يتراءى لهم من مظاهر الوجود عندما يفتحون أبصارهم على أي مشهد من مشاهد الكون، كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]، ولكن أين هذه البصائر المستهدية بنور الله تعالى من قلوب وأسماع ختم الله عليها وأبصار غشيتها غواشي الضلال فحجبتها عن رؤية مشاهد عظمة الله تعالى في كل تجليات آياته في الأنفس وفي الآفاق؟.

ولأجل هذا الختم على القلوب والأسماع وما غشي الأبصار من موانع الإبصار لجأ أولئك إلى ادعاء أنّ حدوث هذا كله إنما هو نتيجة عملية عشوائية عبروا عنها بالفوضى الخلاقة، والتنظيم الذاتي وتجاهلوا أنّ هذه الدقائق في الصنع والإحكام في البرمجة تخضع لقوانين شديدة في الدقة والتعقيد بحيث لا يمكن للعلماء متابعتها.

وفي هذا يقول د. عمرو شريف: «إنّ أقصى ما يمكن أن تقدمه الفوضى الخلاقة (إذا سلمنا بها جدلًا) هو إيجاد بعض (الانتظام Order) كأن ترسم الرياح خطوطًا على رمال الصحراء (وإن كان هذا لا يخلو من قوانين تنظمها) أما خروج (المنظومات Systems) كبناء قصر من هذه الرمال أو بناء البروتينات من الأحماض الأمينية وبناء الشفرة الوراثية من القواعد النيتروجينية، فتعجز عنها الفوضى الخلاقة بلا شك»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧.

ولا يخفى أنّ كل ما يتصور فوضى فيما يجري في هذا الكون، بل كل ما فيه إنما يتحرك وفق نظام محكم، ومنهج دقيق، فالرياح يرسلها الله تعالى لغايات عظمى متعددة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ومن الواضح بداهة أنّ إمكان أن ينبني قصر من الرمال بتأثير الرياح أمر مستحيل، ولكن أشد من ذلك استحالة أن تنبني بالفوضى الخلاقة المزعومة البروتينات من الأحماض الأمينية أو الشفرة الوراثية من القواعد النيتروجينية.

ولا يمكن للفوضى أن تكون خلاقة، إذ الخلق لا يكون إلا بإحكام وإتقان ممن يعلم الخفايا كالجلايا، والغائب كالشاهد، ولا يخفى عليه شيء مما كان أو يكون في تضاعيف الكون وطوايا الوجود.

وقد هام الذين لم توصلهم الظواهر الكونية إلى إدراك أن وراءها مكونًا خبيرًا عليمًا قديرًا حكيمًا في تفسير هذه الظواهر، ومنها التعقيد المدهش في خلق الخلية، وقد شرح د. عمرو شريف تخبطاتهم هذه في قوله:

«عندما أدرك العلماء التعقيد المذهل للخلية لجأوا إلى تقسيم المشكلة إلى مراحل، أملًا في أن يجدوا حلًا لكل مرحلة على حدة، تبنى هذا الاتجاه العالم الروسي **ألكسندر أوبارين**، فطرح عام ١٩٢٤ فرضية نشأة الخلايا الحية تدريجيًا من المادة غير الحية عبر عدد من التفاعلات الكيميائية، بدأت بتكوين مركبات عضوية بسيطة من الغازات التي كانت موجودة في جو الأرض (الميثان والأمونيا والهيدروجين وبخار الماء) وذلك تحت تأثير الطاقة الشمسية وطاقة البرق، ثم تراصت هذه المركبات وتفاعلت فيما بينها لتنتج مركبات أعقد وأعقد حتى تشكلت البروتينات التي كونت الخلية الحية.

وعندما تمكن **ستانلي ميلر** في تجربته الشهيرة عام ١٩٥٣ من الحصول

على بضعة أحماض أمينية، رأى البعض في ذلك إثباتًا لفرضية العالم الروسي **أوبارين**. ولكن قبل انقضاء القرن العشرين أثبت العلماء خطأ هذه الاستنتاجات، إذ تأكد أنّ جو الأرض يختلف تمامًا من ذلك الذي أجرى فيه ميلر تجربته، فقد كانت الغازات السائدة هي النيتروجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأكسجين كانت كافية لأكسدة وإتلاف المركبات التي تنتج أولًا بأول.

من الهواء إلى الماء:

بعد ذلك جاء دور الخطوة التالية من (تقسيم المشكلة) فانتقل العلماء من الهواء إلى الماء، وطرحوا فرضية اشتهرت باسم الحساء البدئي (Primordial Soup)، والتي تتبنى أنّ مياه المحيطات أصبحت مشبعة بالجزيئات العضوية (كالأحماض الأمينية والأحماض النووية والكربوهيدرات...) وغنية ببعض الأملاح وأهمها الفوسفات. ومن خلال بلايين التفاعلات الكيميائية العشوائية بين هذه المركبات على مدى ملايين السنين تكونت المادة الحية.

وبالرغم مما تبدو عليه فرضية الحساء البدئي من وجاهة، فقد فند العلماء هذه الفرضية. فها هو الجيولوجي الكبير **جيم بروكس** يؤكد في كتابه **Origin of life** (عام ١٩٨٥) أنّ طبقات الأرض المتشكلة من ترسبات مياه المحيطات في العصر ما قبل الكمبري (فترة الإعداد لظهور الحياة) كانت فقيرة في عنصر النيتروجين المكون الأساسي في الأحماض الأمينية والبروتينات، ومن ثَمَّ فهذا الحساء البدئي لا وجود له إلا في عقول من يتحدثون عنه!»[1].

وهذا يعني فشل جميع الأطروحات التي طرحوها من أجل التهرب عن الحقيقة القاهرة، وهي افتقار الكائنات إلى مكونها.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها مما تدل عليه الحقائق الرياضية

إنّ دعوى المصادفة في وجود الكون تعني ـ حسب زعم مدعيها ـ أنّ كل ما يتراءى في هذا الوجود أرضه وسمائه ماديه ومعنويه، ظاهرة وباطنه، أفرزته الطبيعة من غير تصميم لوجوده، ومعنى ذلك أنّ الطبيعة الميتة العمياء الصماء الجهول هـي التي صممت هذه الكائنـات وأبدعتها وصنفتها ونسـقت بين أنواعها وأصنافها، واختصت ما شـاءت منها بالعقل والسمع والبصر والقدرة والعلم والملكات والحكمـة، فمع كونها لا تعقل ولا تعي، ولا تسـمع ولا تبصر ولا تحس ولا تتحرك، حققت هذه الإنجازات بتخبطات عشوائية، على أنّ إنجازها هذا لم ينحصر في نوع من الكائنـات دون غيره ولا في جزء من الكون دون سواه، وإنما الكون كله الذي تعجز العقول عن تقديره، وتحار في أبعاده، تصرفت فيه فأنشـأته من العدم وأوجدت فيه هذا النظام، وساقت إليه هذا الخير، وجادت عليه بهذا العطاء، وأسبغت عليه هذه النعم، وميزت بين مكوناته في خصائصها وأحوالها.

وهذا كما لو قيل بأنّ ما في آلة صماء مـن طبيعة قادر على أن يخلق من تلقاء نفسه أجناسًا من الكائنات يختص كل جنس منها بخصائص لا توجد في الجنس الآخر، ومن بينها خاصية الحياة التي توجد في بعض الأجناس، وما يترتب عليها من السمع والبصر والعقل والتفكر وأنه قادر على المواءمة بينها

وتصريفها جميعًا بكل إتقان مع أنهم ـ بلا ريب ـ لو سمعوا من أحد مثل هذا الحديث لما ترددوا في الحكم عليه بالهذيان، والنداء عليه بالجنون، والأمور يجب أن لا تؤخذ مجازفة، بل لا بد من تحكيم العقول فيها، فإنّ كل حالة للإنسان فيها معتبر، ومن حكمة الشعر قول القائل:

من لم تفده عبرا أيامه كان العمى أولى به من الهدى

فإذا كان العقل يحيل ويرفض أن يتقبل كون الطاقة التي في الآلة الكهربائية مثلًا توجد شيئًا من تلقاء نفسها من غير مادة، ومن غير تصميم، فكيف يتقبل أن تكون الطبيعة ـ مع اتصافها بالموت والجهل والجمود قادرة بنفسها أن تخلق هذا الوجود من العدم.

على أن ممارسة البشر للحياة هي مدرسة تدلهم على الممكن وغير الممكن وتبصرهم في حمل ما لم يعهد على ما هو معهود كما قال الشاعر:

وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

وإذا علمت مما تقدم أنّ الاحتكام إلى حكم الكيمياء أدى بهذه الدعوى إلى الحكم عليها بالبطلان، مما تدل عليه الكيمياء الحيوية في أي خلية، من أي كائن حي، وأنّ الشفرات البرمجية المدونة في خلايا الكائنات الحية ـ ومثلها ما في الذرات المنبثة في أنواع الجمادات ـ كلها شاهدة على استحالة أن يحدث كائن من غير مكون، فإنّ الاحتكام أيضًا إلى نظام الرياضيات شاهد ودليل على هذه الاستحالة، فإنّ حكم الرياضيات في هذا لا يقل صرامة عن حكم الكيمياء الحيوية، ولكنه مع هذه الصرامة قد يبدو في بداية الأمر مرنًا، بحيث يعطي في بعض الجزئيات الأولية جوابًا بوجود نسبة مما يتصورونه مصادفة ـ كما يزعمون ـ ولو كانت نسبة هينة.

وتظهر هـذه الصورة فيما لو أدخلت عشـرة أرقام مرتبـة من الأول إلى العاشـر، وقد أفرد كل رقم منها على حياده ثم خلطت بعد ذلك وجمعت في كيس أو صندوق مخلوطة غير منظمة، ثم سـحبت من الكيس أو الصندوق؛ فهل يتصور أن تخرج مترتبة منتظمة كما أدخلت أول مرة قبل الخلط بينها؟.

لا شـك؛ أن إمكان أن يكون الرقم الذي يظهر أولًا هو الأول بحسـب ترتيبها أمر محتمل ولكن احتمال ذلك لا يتجاوز أن يكون واحدًا من عشرة، لأن كل واحد منها يمكن أن يخرج أولًا، أما أن يتوالى الرقمان الأول والثاني في الخروج، فهو أبعد في الاحتمال عما سبق، لأن احتمال ذلك لا يتجاوز أن يكون واحدًا في المائة، وتوالي ثلاثة أرقام بحيث يكون المسـحوب أولًا هو الأول وثانيًا هو الثاني وثالثًا هو الثالث، فإنّ نسبة احتمال ذلك تكون أبعد، إذ لا تتجاوز أن تكون واحدًا من ألف، وهكذا كلمـا رجوت أن تتوالى الأرقام أكثر مما ذكر في العدد فإنّ نسبة الاحتمال تصبح ضئيلة وإن كانت لا تخرج عن حدود الممكن في العقل، وإن لم تكن ممكنة في العادة.

أما أن تخرج الأرقام كلها متتابعة من الواحد إلى العشرة فإنّ ذلك أمر لو تحقق لكان معجزة حقًا، وليـس احتماله واردًا إلا بمقدار واحد من عشـرة مليارات[1].

وإذا كان هذا في عشرة أرقام، فكيف لو كانت الأرقام عشرات كأن تكون عشرين أو ثلاثين أو أربعين... وهكذا، ومثل ذلك ما لو كتبت حروف الهجاء من الألف إلى الراء متفرقة ثم أدخلت في كيـس أو صندوق وخلطت خلطًا عشوائيًا، ثم سـحبت فإنّ خروج الألف أولًا احتماله بقدر واحد من عشرة، وخروجها مع الباء مترتبتين احتماله بقـدر واحد من مائة..، وهكذا كلما زاد العدد تضاءلت نسـبة احتمـال تتابعها فـي الخروج حتى تصيـر أقرب إلى

---

(١) ينظر؛ د. خالص جلبي: **الطب محراب الإيمان**، ١٥/١.

الاستحالة، إذ خروجها متتابعة على هذا النحو المذكور من الألف إلى الراء نسبة احتماله لا تتجاوز واحدًا من عشرة مليارات.

وإذا كان هذا في عشرة حروف فقط فكيف بحروف المعجم جميعًا من الألف إلى الياء؟! فإنّ تصور خروجها متتابعة من الألف إلى الياء يعد من المستحيلات، وإذا كان هذا في خروج ثمانية وعشرين حرفًا منتظمة حسب ترتيبها، فما بالك لو كررت هذه الحروف في كتابتها تكرارًا عشوائيًا، بحيث يكرر بعضها عشرات المرات، وبعضها مئات المرات، وبعضها آلاف المرات، حتى بلغت بالنظر إلى تكرارها إلى مئات الآلاف، فهل يمكن أن ينتظر عندما تسحب أن تخرج مترتبة منتظمة، بحيث يتألف من خروجها على هذا النحو مقال بليغ أو قصيدة عصماء أو كتاب مفيد في أي فن من فنون العلم، هل يمكن أن يتصور ذلك في حسبان أحد من العقلاء، مع أنّ أي مقال وأي قصيدة وأي مؤلف في أي فن من فنون العلم باللغة العربية لا يتركب إلا من هذه الحروف نفسها، وإنما تركبها يكون بإعداد وتصميم وقصد وحضور ذهن ممن يقوم بذلك، والعاقل لا يمكن أن يتصور بحال أن يتم ذلك بدون إنشاء من أحد مع قصد وتصميم وحضور ذهن عندما يقوم بإنشاء ذلك، هذا مع العلم بأنّ ما يلقى ويكتب من الكلام ولو ملأ مكتبات الدنيا، فإنما يتركب من هذه الحروف الهجائية المعروفة ولكن لا يتصور بحال أن تتكون منها جملة مفيدة بدون قصد وتصميم وإرادة واعية ـ كما سبق ذكر ذلك فيما أوردناه من قصة د. ستيفين ماير في حواره مع طلبته ـ.

ولو أنّ أحدًا ألقى عملة ذات وجهين في أحدهما صورة وفي الآخر كتابة، ثم أخذها بدون نظر منه، فمن المحتمل أن يكون الوجه الذي يقابله منها صورة أو كتابة، فإن كان يبغي أحدهما، فإنّ احتمال نجاحه في ذلك واحد من اثنين (٢/١) أما أن يتتابع ذلك مرتين فإنّ نسبة النجاح في ذلك لا تعدو أن تكون على النصف من نجاحه أولًا، وهكذا كلما تعددت التجربة تضاءلت

نسبة النجاح، أما لو كرر ذلك مائة مرة فإنّ نجاحه فيها جميعًا لا يحتمل بحال، لأنه لا يساوي إلا صفرًا، فما نسبته إلا $١٠/١^{٣٠}$، أي أن يكون عن يمين الرقم ثلاثون صفرًا، ولو تكررت هذه المحاولة في كل ثانية من أجل أن تصل إلى تحقيق مرادك في الحصول على ١٠٠ صورة متتالية فإنّ ذلك يستغرق من الوقت أكثر من ثلاثة مليارات مليون مليون سنة!! وهذا رقم يفوق كل التقديرات التي قدرت لعمر هذا الكون[١].

وإذا كان ما يدعونه من الصدفة يتعذر أن يتحقق به هذا الأمر التافه، فما بالك بأن يتحقق به إخراج هذا الوجود من العدم؟! أولا يكفي أن يتعذر في جميع العقول أن تتولد جملة مفهومة المعنى من سحب عشوائي لحروف متفرقة، فكيف بهذه البرمجيات الهائلة التي توجد في كل جزيئة من جسم الكائن الحي، بحيث تتجاوز نصف مليون صفحة، فهل يتصور أن يتم هذا كله بطريقة عشوائية من غير خبرة خبير، وحكمة حكيم وقدرة قادر، وإرادة من يقول للشيء كن فيكون؟ وكيف يتصور أن تكون ملايين الأنواع من الكائنات الحية التي تمتلئ بها الأرض تخلقت بروتيناتها بدون ذلك، مع أن تكون بروتين واحد مفيد يتوقف على ثلاثة شروط.

الأول: أن تكون جميع الأحماض الأمينية في سلسلة البروتين من النوع الصحيح، وقد تتابعت تتابعًا صحيحًا.

الثاني: أن تكون جميع الأحماض الأمينية عسراء.

الثالث: أن تكون جميع هذه الأحماض متحدة فيما بينها، بحيث يتكون بينها ترابط كيميائي يسمى ترابط الببتايد، وهل يمكن أن تجتمع بمحض الصدفة المدعاة هذه الشروط الأولية في وقت واحد.

---

(١) ينظر؛ م. محمد حمدي غانم: خرافة داروين، ص ٣٣ ـ ٣٤.

وإذا ألقينا نظرة إلى ما يجب أن يتوفر من أجل اجتماع هذه الشروط فإننا نجد أن الأحماض الأمينية المستخدمة في تركيب البروتينات هي عشرون نوعًا، وعليه فإنّ احتمال أن يتم اختيار كل حمض أميني بالشكل الصحيح هو بمقدار ٢٠/١، واحتمال أن يتم اختيار كل الأحماض الخمسمائة بالشكل الصحيح (٢٠/١ ^{٥٠٠}) = (١٠/١ ^{٦٥٠}).

أما احتمال أن يكون الحمض الأميني الواحد أعسر فهو ٢/١، واحتمال أن تكون جميع الأحماض الأمينية عسراء في نفس الوقت (٢/١ ^{٥٠٠}) = (١٠/١ ^{١٥٠})، وأما احتمال اتحاد الأحماض الأمينية بترابط الببتايد، فإنّ الأحماض الأمينية بإمكانها أن تتحد معًا بأنواع مختلفة من الترابطات الكيميائية، ولكي يكون بروتينا مفيدا يتوقف أن تكون كل الأحماض الأمينية في السلسة قد اتحدت بترابط كيميائي خاص، وهو ترابط الببتايد، ويتضح من حساب الاحتمالات أنّ احتمال اتحاد الأحماض الأمينية بترابط كيميائي آخر هو ٢/١، وفيما يتعلق بذلك فإنّ احتمال اتحاد حمضين أمينيين بترابطات ببتايدية هو أيضًا ٢/١، أما اتحاد جميع الأحماض الأمينية بالترابط الببتايدية فهو: (٢/١ ^{٤٩٩}) أو (١٠/١ ^{١٥٠}) والحصيلة النهائية للاحتمال (١٠/١ ^{٦٥٠}) × (١٠/١ ^{١٥٠}) × (١٠/١ ^{١٥٠}) = (١٠/١ ^{٩٥٠}) مع ملاحظة أن (١٠ ^{٩٥٠}) يعني أن هذا الرقم مليار مضروبًا في نفسه ١٠٥ مرات، وهو رقم مذهل ولو استخدمنا مليارات المليارات من الحاسبات لمحاكاة هذه الاحتمالات فلن يكفيها عمر الكون لإنتاج بروتين واحد بالصدفة.

ومهما تصور في تقدير عدد ذرات الكون فإنها جميعًا لا تكفي لصنع الخليط الذي يتم فيه تجربة كل هذه الاحتمالات، ويمكن تصور كيف أنّ هذه الأرقام تتجاوز كل مصطلحات البشر ومعارفهم بالنظر إلى أنّ جهاز الحاسب الذي يحوي مشغلًا دقيقًا يعمل بسرعة ثلاثة مليارات نبضة في الثانية وذاكرة فورية سعتها مليونان، وذاكرة مؤقتة سعتها مليون، يحتاج إلى نحو ١٢٦

تريليون سنة لمجرد العد من ٠ ـ ١٠^٣٠، ولو شئت أن تعرف كم يحتاج للعد إلى (١٠^٩٥٠) فضع على يمين الزمن (١٢٦ تريليون سنة) ٩٢٠ صفرا أخرى!![1].

كل هذه الحقائق العلمية الصادقة التي لا تحتمل الجدل تؤكد أنه يتعذر بكل المقاييس العقلية والتجريبية أن يتسنى لما يسمونه بالصدفة إخراج بروتين واحد من العدم إلى الوجود، من غير أن تكون هناك إرادة واع وخطة حكيم وتنفيذ قادر لإخراج هذا البروتين من العدم إلى الوجود، وإذا تعذر ذلك؛ فكيف يتصور أن تكون الصدفة المزعومة هي التي أوجدت الكائن الحي ورَقَّته في مراقي الأطوار، حتى وصل إلى حده الطبيعي كالإنسان، المتدرج من كونه خلية واحدة، أعدت إعدادًا متقنًا، مرت فيه بمراحل تذهل العقل، حتى تسنى لها أن تجتمع ببييضة في أعماق الرحم، فالتحمت بها بعد مرورهما في رحلتيهما الطويلتين بمسالك وعرة، ومنعرجات خطيرة، في ظلمات موحشة، ولكن العناية هي التي حفتهما، وبعد اتحادهما بدأ الناشيء منهما مرحلة جديدة في غياهب الرحم، اجتاز فيها مراحل الأطوار حتى بلغ أوج نموه، واستجمع خصائص تكوينه، فانتقل من مضيق الرحم إلى فضاء الأرض، ليدخل في منعرج جديد في نهج الحياة، فيا ترى أي عقلية تتقبل أن تكون الصدفة العاجزة عن إنشاء بروتين واحد تقوم بهذا كله، وأن تقوم بجانب ذلك بإبداع صنع هذا الكون وبرمجة نظامه من أدق ذراته إلى أوسع مجراته؟!.

لا ريب أنّ البشر الذين اختصهم الله تعالى بأسنى مواهبه، وفي مقدمتها نور العقل الهادي، ويسر لهم سبل العلم، وفتح لهم آفاق الحكمة، ومهد لهم وسائل التجارب ـ مع ما وصلوا إليه في هذا العصر من تقدم هائل في شتى العلوم، وإنجاز مدهش في الابتكار والاختراع، وانتصار مذهل في شتى التجارب ـ هم عاجزون أن يخلقوا بروتينًا واحدًا من غير أن يعتمدوا على

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٥ ـ ٣٧.

الخلية التي خلقها الله، كما أنهم عاجزون عن ابتكار شفرة وراثية على خلاف ما أعده الله سبحانه.

وما ادعوه من إنتاج أول خلية حية حسبما أعلنه علماء أمريكيون في ٢٠١٠/٤/٢٠م ليس بأكثر من كونهم أخذوا نظام التشغيل الذي خلقه الله في (DNA) من أحد أنواع البكتيريا الصغيرة، ووضعوه على الحاسوب وصنفوا الجينات الموجودة عليه، ثم تصرفوا في ترتيب بعضها بإنتاج شفرة وراثة تختلف بعض الشيء، ونقلوا هذه الشفرة إلى بكتيريا حية بعد تفريغ نواتها من الحمض النووي الأصلي الخاص بها، وبعد تجارب متواصلة ومحاولات مضنية بدأت هذه البكتيريا في التكاثر بإنتاج هذا الكائن الذي غيروا جزءًا من تركيبه.

وقد أكد المهندس البرمجي محمد حمدي غانم من هذه العملية «عدة أمور:

١ ـ أنه لا دور لأي صدفة أو عشوائية هنا، فقد بدأت التجربة بحمض نووي معروف، قام بدراسته وتحليله علماء أفنوا عمرهم في قراءة خلية الجينوم، تحت قيادة رائد الخرائط الجينية البشرية كريغ فنتر واستخدموا الحاسوب في عملهم للوصول إلى ترتيب منطقي للجينات في نقاط فهمه.. وهو يؤكد أن أي تغيير في الحمض النووي يجب أن يكون وراءه عقل واع، وتقنية متقدمة، وسنوات من البحث، وتجربة طويلة مدروسة للتعلم من الأخطاء وتفاديها، وهذا ما لا يمكن أن يتوافر لأي صدفة عمياء.

٢ ـ أنّ الإنسان لم ينتج خلية حية، ولكنه نجح في إنتاج أول صبغ (كرومزوم) شبه صناعي، واستخدم الخلايا الحية في ترجمة شفرته للحصول على نوع شبه جديد.. وهذا يؤكد لنا أنّ الحياة لا تنشأ إلا من الحياة، وأنّ الإنسان ما زال عاجزًا حتى اليوم عن صناعة بروتين واحد ميت بدون الاستعانة بالخلية الحية.

٣ ـ أنّ ما ادعـاه فنتر من كونهـم حصلوا على كائن حـي جديد، والده الحاسوب، يواجه بتسـاؤلات كثيرة عن السـمات المميزة لهذا الكائن الذي حصلوا عليه، حتى صار يختلف عن ٩ مليون نوع من المخلوقات التي يقدر وجودها على ظهر الأرض، هل الاختلاف محدود عـن النوع الأصلي الذي تلاعبوا به، مما يجعل النوع الناتج مجرد فصيلة منه، كما يحدث في التغيرات الوراثية؟ هل النوع الجديد يشبه أيًا من الأنواع المعروفة الموجودة، أو أنه نوع جديد فعلًا متميز عما عداه؟ وما هي قدراته الجديدة؟ هل هو ضار بالنبات أو الحيوان أو الإنسـان؟ هل سـيلتهم اللحم أو البلاسـتيك أو الحديد؟ هذه مخاوف مرعبة تركها لنا كتاب الخيال العلمي تحذيرًا من رواياتهم عبر نصف قرن مضى، وللأسـف يبـدو أن أحدًا لا يسـتمع إلى هذه التحذيـرات، إنّ محاولات فنتر ومن معه لإنتاج الأمصال أو الوقود الحيوي قد تنتج الفيروس الذي يقضي على البشرية، أو يدمر الحضارة، لأنّ فهم البشر لخريطة الجينوم ما زال ناقصًا ومحدودًا حتى اليوم.

٤ ـ أنّ الإنسـان يتعلم من خطة الخلق التي أبدعها الله ﷻ في مخلوقاته وبرمجها على أنظمة تشـغيلها الوراثية، فإنّ أول مهندس وراثي موجود على ظهر الأرض منذ مليارات السنين، هو الفيروس الذي يحقن المادة الوراثية في الخلايا التي يصيبها ليجعلها تعيد إنتاجه، فهي الوسـيلة الوحيدة التي يتكاثر بها، وقد استمد الإنسان خبرته من هذه التقنية في عملية الاستنساخ، ووظفها اليوم مرة أخرى لهندسة صبغيات وراثية وحقنها في البكتيريا، ليجعلها تنتج كائنات أخرى، ويمكن أن يقال اليوم بكل فخر إنّ علم الإنسـان تطور أخيرًا إلى أن نجح في تقليد الفيروسات، ومهما كان فإنّ علماء الأرض أعجز من أن يكتبوا الشـفرة الوراثية التي تحرك جناح بعوضة، وكل ما يعملون في نطاقه إلى الآن هو التلاعب بشفرات موجودة فعلًا، ولمخلوقات حية مجهرية».

ثم أضاف بعد ذلك أنّ «وجود خلية واحدة تقوم بكل العمليات الحيوية التي تقوم بها باقي المخلوقات التي تتركب من تريليونات الخلايا، وتستطيع أن تحافظ على بقاء سلالتها إلى اليوم هو إبداع يثير الذهول، لكن أدعياء نظرية التطور يحقرون من شأن هذه المخلوقات البديعة لكي يوهمونا بتطورهم المزعوم»[1].

إنّ الحقيقة لا تكابر، ومهما حاول معاند إخفاءها فإنها لا بد أن تطل برأسها وتصدع بحجتها، وتقهر كل من يناوئها.

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها ويجهد أن يأتي لها بضريب

وإذا كان من الحقائق ما يمكن أن يكابر فيه مكابر لخفائه، فإنّ خلق الإنسان، وخلق هذا الوجود كله هو حقيقة أكبر من أن تخفى وراء حجب العناد والمجادلة، فكيف يمكن للإنسان أن ينكر نفسه؟ ولكن العناد إن تأصل في النفس أصبح داء عضالًا حتى يتصور المعاند أن بإمكانه أن يخدع العقول، ويطمس الأبصار، ويسلب الأفهام حتى لا تصل إلى ما يسعى إلى إخفائه من الحقائق، ولا يخفى أنّ كل كلمة من كلمات الله تعالى هي برهان ساطع لا يمكن لمكابر أن يطمس نوره، وما أدراك ما كلمات الله، والله سبحانه يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، قد تبينت لك بعض الصور من كلماته تعالى فيما سبق من بيان آثار خلقه، سواء خلق الإنسان وغيره من الأحياء أو خلق سائر الوجود، فإذا كانت الذرة الواحدة مما في تضاعيف هذه الموجودات تعجز جميع العقول، وتخرس جميع الألسن، وتفنى جميع الأقلام، دون ترجمة ما فيها من كلمات الله ﷻ، فما بالك بكلماته تعالى فيما اشتمل عليه هذا الوجود، من برمجيات دقيقة هي في غاية الإتقان ومنتهى الإبداع، لا تجد العقول سبيلًا إلى محاكاتها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٢ ـ ٦٤. «بتصرف»

ويوضح هذا المهندس البرمجي محمـــد حمدي غانم في قوله: «لا داعي للكلام عن كل نعم الله التي لا تحصى، فكر فقـــط في المعلومات الموجودة على شـــريط (DNA) الخاص بالبشـــر، والذي يحوي ما يعادل نصف مليون صفحة مـــن المعلومات، تضـــم ثلاثة بلايين شـــفرة مختلفة، فـــإذا دونا كل المعلومات الموجودة في جزي (د ن أ) على الورق، فســـيمتد هذا الورق من القطب الشمالي إلى خط الاستواء، وهو ما يوازي نحو ١٠,٠٠٠ مجلد صالحة لمكتبة كبيرة، وإذا شرع شخص ما في قراءة شفرة واحد من هذا الجزيء كل ثانية دون توقف طوال اليوم، وكل يوم، فسيستغرق ذلك منه ١٠٠ سنة..!! هذا يؤكد لك طبعًا أنك لن تحصي نعم الله عليك، لأنك سينقضي عمرك قبل أن تنتهي من مجرد قراءتك معلوماتك الوراثية، التـــي تجعلك تحيا وتتميز عن غيرك، ولهذا استغرق مشروع الجينوم البشري ـ الذي اضطلع به أسطول من أساطين العلماء والباحثين من عدة دول متقدمة ـ عشر سنوات كاملة لتدوين هذه البيانات.

وإذا كان هذا في شـــفرات شـــريط واحد؛ فما رأيك في البحث في عدد احتمالات تباديل وتوافيق هذه المعلومات لتكوين أشرطة مختلفة عن بعضها في هذا الجزيء بســـبب تفاوت البشـــر، وكما تقدم هناك نحو ثلاثة مليارات موضع للشـــفرات على هذا الشـــريط، ومنهم من يعدها ثمانية مليارات، وإذا أخذنا الرقـــم الأصغر؛ فإنا نـــرى أنّ كل موضع من هذه المواضع أي شـــفرة محتملة من بين سائر الشفرات التي هي ٦٤ شـــفرة، فمعنى هذا أنّ عدد نسخ هذا الجزيء المختلفة التي يمكن الحصول عليها تساوي رقم ٦٤ على يمينه ٣ مليارات من الأصفـــار، أي ما يعادل رقم ١٠ يســـبقه ٥ مليارات صفر، فكيف تتخيل هذا الرقم، فإنّ مجرد تخيله يتعذر على الأفهام»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥ ـ ٦٦. «بتصرف»

وهذا مما يؤكد أنّ كل أشجار الأرض لو استخدمت أقلامًا، وكل قطرة ماء من البحار والمحيطات كانت لها حبرًا، لا يتصور أن تكفي لكتابة كل أنماط البشر الذين يمكن الحصول عليهم من التغييرات الممكنة في معلومات الحمض النووي.

«وإذا كان كلامنا في البشر فقط، فكيف ٤,٥ مليون نوع من أنواع الكائنات المختلفة على سطح الأرض، وهي تختلف في عدد صبغياتها وأحماضها الوراثية أصلًا؟! ووصولنا إلى هذه النقطة يلفت نظرنا إلى حقيقة مهمة، وهي أنّ عدد البشر المميزيَن والمتفردين بحسب الناتج عن هذه التباديل لن يكون كافيًا له بالضبط ذلك الرقم المدهش الذي حصلنا عليه، لأن بعض الاختلافات لا تجعل الشخص متميزًا، مع أنّ الاحتمالات ليست كلها مقبولة، مع ما يحتمل من كون بعضهم مشوهين وبعضهم معوقين.

فكم يمكن أن يكون عدد النسخ الصحيحة الممكنة من وسط كل هذه الاحتمالات الجمة، ذلك مما يرجع إلى علم الله الذي أحصى كل شيء عددًا، لكن يمكننا أن نقول إنّ عدد البشر عبر التاريخ يقع في نقاط مليون مليار بحيث يقع على يمين الواحد ١٥ صفرًا، هذا الافتراض أنّ التاريخ البشري يمتد إلى مليون عام، وأن هناك مليار شخص يولدون في كل عام، وهو رقم مبالغ فيه إلى أقصى درجة.

بل يفترض أنّ عدد البشر منذ بداية التأريخ في نطاق ٢٠ صفرًا على يمين الواحد، ٣٠ صفرًا... (١٠٠ صفر)، فهل يوجد وجه مقارنة بين عدد يحتوي على ١٠٠ صفر على اليمين، وعدد يحتوي على ٥٠٠ مليار صفر على اليمين.

بهذا تدرك أن نشوء البشر بالصدفة هو أمر مستحيل، فاحتمالات تشوههم أو موتهم نتيجة الترتيب العشوائي المتخبط في المعلومات الوراثية هي احتمالات واسعة للغاية، وكما يقول أحد الأطباء إن كل طفل يولد دون نقص

أو تشـــوه هو معجزة في حد ذاته، ولكن هذه المعجزة تحدث وتتكرر يوميًا آلاف المرات، فأي مكان للصدفة في ذلك؟»[1].

إنّ الجواب المتبادر لكل ذي روية في هـــذا أنّ دعوى كون هذه الأعداد الهائلة من البشر الذين خلقوا أسوياء، وخرجوا إلى هذا الوجود خروجًا طبيعيًا كما اقتضت حكمة الله تعالى، كونتهـــم الصدفة المزعومة من غير إرادة عليمة قديرة دعوى لا مكان لها في الاعتبار، بكل مقاييس العقل ومعايير العلم، فهي دعوى ساقطة من أساســـها، وقد علمت أنّ الوجود الإنساني لا يمثل في هذا الوجود الواســـع إلا نقطة صغيرة، فجميع البشـــر احتوتهم هذه الأرض التي تحتوي ملايين الأجناس من الخلق، والأرض بأســـرها لا تساوي شيئًا بالنظر إلى ســـعة ملكوت الله تعالى المتمثل في هذا الوجود الواسع، وقد بيّن لنا الله سبحانه ســـعة ملكوته وعظم خلقه لهذا الوجود عندما قال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

فأي عقل يتقبل أن يكون هذا الوجود الواسع علويه وسفليه ماديه ومعنويه خرج من العدم من تلقاء نفســـه، وانتظم في نظامه المعجـــز الباهر حتى كان ـ بكل أبعاده التي تفوت جميع الأقيسة، وتضيق جميع العقول عن تصورها ـ وحدة متكاملة لا ترى بينهـــا تفاوتًا، ولا تناقضًا، وإنما هـــي جميعًا متكاملة تكاملًا ينتظم كل دقيق وجليل منه في المنظومة الكونية بأسرها؟!!.

أوليس في هذا كله ما يقطع ألســـنة المكابرين، ويذهب بإلحاد الملحدين، ونحن إذا جئنا إلى مجادلات الملحدين الزاعميـــن أنّ الكون حدث بالمصادفة العمياء، نجدهم لم يســـتندوا قط إلى دليـــل عقلي أو علمي، فـــإنّ المعادلات الرياضية بأســـرها تنقض دعواهم هذه، كما تبين لك، وكذلك نتائج الدراسات

---

(١) المرجع السابق، ص٦٧ ـ ٦٨. «بتصرف»

الكيميائية والفيزيائية تجتث دعاواهم، على أنّ هذه الدراسات لم تأت من منطلق عصبية دينيـــة أو قاعدة عقدية إيمانيـــة، وإنما كانت دراســـة علمية محضة أدت بالدارســـين إلى النتائج التي انتهوا إليها، ولنسمع إلى أحد هؤلاء المتخصصين في الطبيعة البيولوجية، وهو الدكتور **فرانك ألن** وما يقوله في ذلك:

«إنّ نظريـــات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأســـس الرياضية الســـليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع، حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وتطلق هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير الخطأ في هذا الحكم.

ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدمًا كبيرًا حتى أصبحنا قادرين على التنبـــؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول: إنها تحدث بالمصادفة والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل: قذف الزهر في لعبة النرد)، وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يســـتحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان.

ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

إنّ البروتينات من المركبات الأساســـية في جميـــع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر: الكربون، والأيدروجين، والنيتروجين، والأكسجين، والكبريت.

ويبلغ عدد الذرات في جزيء البروتين الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعـــة ٩٢ عنصرًا موزعة كلها توزيعًا عشـــوائيًا، فإنّ احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئًا من جزيئات البروتين يمكن حســـابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مســـتمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفتـــرة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعًا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى ١٠ ^١٦٠، أي بنسبة ١ إلى رقم ١٠ مضروبًا بنفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠^٢٤٣ سنة).

إنّ البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية. فكيف تتآلف ذرات هذه الجزيئات؟.

إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى غير التي تتآلف بها، تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سمومًا، وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب. ليثز (J. B. Leathes) الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠ ^٤٨)، وعلى ذلك؛ فإنّ من المحال عقلًا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئًا بروتينيًا واحدًا.

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئًا»[1].

وإذا كان هذا كله في تكون جزئ بروتيني واحد، فما بالك بما تشتمل عليه الخلية من مكونات وما يسري فيها من سر الحياة الذي لم يصل البشر

---

(١) نخبة من العلماء الإمريكيين: الله يتجلى في عصر العلم، نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد، ص ١٥ ـ ١٦.

مع تقدمهم في مجال العلم والتجربة إلى شيء منه قط، ناهيك بهذه الخلايا التي تتجاوز أرقامها ملايين الملايين في الجسم الواحد، وهي تتجدد باستمرار، فما بالك بهذه الأعداد الهائلة من البشر، وقد علمت أن كل خلية من أي واحد منهم هي عالم بأسره فيما تشتمل عليه وفي نظامها الحيوي، وما بالك فيما وراء ذلك من عوالم الكائنات الحية الأخرى، دعك من هذا الكون الواسع الذي تعد كل ذرة من ذراته مكتبة حافلة بمعارف هائلة؟.

والتجربة التي قام بها الرياضي السويسري **تشارلز يوجين جاي** اختار فيها لدراسته أبسط الذرات من العضويات التي يمكن أن تشترك في تركيب خلية واحدة من خلايا الكائنات العامرة للوجود، وقد اجتهد في تبسيطها، فمع أنّ الوزن الذري لأبسط الآحياء هو (٣٤٥٠٠) اعتبر الذرات ٢٠٠٠ (ألفي ذرة)، وقام بتبسيطٍ آخر فاعتبر أنّ الذرات هي نوعان فقط، بينما هي في الحالة العادية أربعة جواهر على الأقل وهي الفحم والهيدروجين والأكسجين والآزوت، بالإضافة إلى الكبريت والنحاس والفوسفور وغيرها من العناصر، وقام بتبسيط ثالث هو اعتبار الوزن الذري ١٠ وسطية، مع أن الفحم ١٢، والأكسجين ١٦.

ولم تكن دراسته في خلق الذرة ـ أي إخراجها من العدم إلى الوجود ـ وإنما هي في تركب أجزائها؛ هل يمكن أن يكون ذلك بدون تصميم؟! وكان في نتيجة دراسته أنه على تقدير إمكان ذلك، فهو يتوقف على ثلاثة عناصر:

أولها: المادة التي يتوقف عليها نجاح ذلك:

وهي يجب أن تكون كتلة حجم كرتها لا يمكن أن يقطعه الضوء إلا في عدد من السنين رقمه ($١٠^{١٦٤} \times ١$) وهو رقم لا تتوصل إليه العقول ولا تحصيه الرياضيات إلا بمجرد التخيل، لأنه يفوق جميع تصورات البشر، وحساباتهم الخيالية.

ثانيها: الزمن:

فإن ذلك لو قدر لاستغرق من الزمن بلايين السنين (١×١٠ ٢٤٣) وهو فوق ما يتصور من عمر الكون بأضعاف تتجاوز جميع الحسابات.

ثالثها: الطاقة:

بحيث يصل الضخ الحروري في الثانية الواحدة ٥٠٠ مليون تريليون هزة، ومع كل ذلك فإن احتمال هذا الإمكان في تركب هذه الذرة لا يتجاوز (٢/١ × ١٠ ٣٢١)[١].

ويعلق على هذه المعلومة د. خالص جلبي بقوله: «وبهذا نرى أن هذه الفكرة مستحيلة في مستويات بسيطة، كالتي ذكرنا أمثلتها، منها بناء الذرة الآحية البسيطة. هذا مع أنّ الكون يرى الناظر فيه من الأعاجيب وأشكال الحياة المعقدة ما تدهش له العقول، بل إنّ تركيب الخلية بالذات محير مدهش كما سبق، وبهذا نصل إلى تقرير قاعدة أساسية، وهي أنّ كل هذه الدقة والتعقيد والجمال في بناء الكائن الإنساني لا تعدو أن تكون هي إرادة الله ﷻ الذي خلق هذا الإنسان لحكمة بالغة وغاية محددة، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]، ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠]»اهـ[٢].

واعجب مع هذا كله من أولئك الذين يجادلون في الله بعد قيام هذه البينات والبراهين على أنه سبحانه هو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه،

---

(١) ينظر؛ د. خالص جلبي: **الطب محراب الإيمان**، ١٩/١ ـ ٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢١ ـ ٢٢.

ورزق جميع خلقه، ودبر جميع أنواع مخلوقاته، وصرف كل ما اشتمل عليه الوجود تصريفًا متقنًا، لا يطرقه الخلل ولا يطرأ عليه أدنى ما يمكن أن يعاب، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

ولا يخفى أنّ الكون الفسيح ـ بما اشتمل عليه من عجائب الخلق وغرائب الصنع وما يوحد أطرافه جميعًا من نظام واحد ينتظم سفليه وعلويه، ماديه ومعنويه، ويجمع بين الإنسان وسائر الكائنات الحية، بل يشمل أيضًا أنواع الجمادات بأسرها ـ لا يمكن إلا أن يعد متحفًا ربانيًا، يجد كل من يتجول في أي زاوية من زواياه ما يبصره بالحقيقة، ويدله على المنهج الذي يصل مسيره بمصيره، ومحياه بمماته، ومبدأه بمعاده، فإنّ كل ما في هذا المتحف آيات بينات تدل على المبدئ المعيد، الذي له الخلق والأمر، ومنه المبدأ وإليه الرجعى، وبجانب هذه المشاهد العظيمة التي تتجلى في كل ذرة مما اشتمل عليه، هناك أصوات تنبعث من كل كائن في زواياه تتجاوب كلها بتسبيح الخالق العظيم، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلا يشعر المتأمل لهذا المتحف ـ إن استنارت بصيرته وانفض عن قلبه وسمعه ختمهما، وانزاحت عن بصره غشاوته ـ إلا وهو يتفاعل مع هذه الأصوات المسبحة، ويردد تراتيلها، فيعبر عما أفعم به قلبه، وما امتلأ به وجدانه، بما عبر به أولو الألباب من قبله ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].





الباب الخامس

في شبهات الملاحدة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفيه مقدمة وفصلان:

- المقـدمـة: في الشبهة لغة واصطلاحًا.
- الفصل الأول: في شبهات الإلحاد حول الإيمان بوجود الله.
- الفصل الثاني: في شبهات الإلحاد حول الإيمان بسائر الغيوب.





في الشبهة لغة واصطلاحًا

الشبهة على وزن غرفة تجمع على شبهات كغرفات، وأصلها التشابه بين الشيئين فصاعدًا، فإنّ الشيء إذا أشبه غيره اشتبه به أي التبس به، بحيث يظن أنه هو أو لا يميز بينهما كما قال تعالى فيما يحكيه عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، وهذا الذي نصت عليه معاجم اللغة، وقد جمع صاحب اللسان شتات ما جاء فيها، فقال: «الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه. وأشبه الشيء الشيء: ماثله. وفي المثل: من أشبه أباه فما ظلم. وأشبه الرجل أمه: وذلك إذا عجز وضعف؛ عن ابن الأعرابي؛ وأنشد:

أصبح فيه شبه من أمه من عظم الرأس ومن خرطمّه

أراد (من خُرْطُمِه) فشدد للضرورة، وهي لغة في الخرطوم، وبينهما شبه بالتحريك، والجمع مشابه على غير قياس، كما قالوا محاسن ومذاكير. وأشبهت فلانًا وشابهته واشتبه علي وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه. وفي التنزيل: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وشبهه إياه وشبهه به مثله.

والمشتبهات من الأمور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات. وتشبه فلان بكذا. والتشبيه: التمثيل. وفي حديث حذيفة: وذكر فتنة، فقال: تشبه مقبلة وتبين مدبرة؛ قال شمر: معناه أنّ الفتنة إذا أقبلت شبهت على القوم

وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويركبوا منها ما لا يحل، فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها أنه كان على الخطأ. والشبهة: الالتباس. وأمور مشتبهة ومشبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضًا؛ قال:

واعلم بأنك في زما ن مشبهات هن هنه

وبينهم أشباه أي أشياء يتشابهون فيها. وشبّه عليه: خلّط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره»[1].

وفي الاصطلاح: الشبهة ما التبست حقيقته فالتبس حكمه، فإنّ ما التبست حقيقته لم يتضح حكمه، كما لو أهدر دم امرئ من أجل فساده في الأرض، ثم تراءى شخص ظن أنه هو، فهو مشتبه فيه، وعليه فإنّ حكمه ملتبس، إذ لا يجوز الإقدام على سفك دمه قبل أن تتحدد هويته؛ فلعله غيره، فيكون قتله تعديًا لأن الأصل فيه أن يكون معصوم الدم، وكذلك المال قد تلتبس حقيقته بين أن يكون من صنف المباحات أو من صنف المحرمات، فيكون من قبيل المتشابهات، ومن هذا الباب حديث النعمان بن بشير: «**الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[2]، فإن المراد بالمشتبهات فيه ما لم يتبين حكمه، فالتبس حلاله بحرامه.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (شبه)، ١٧/٨.

(٢) أخرجه أحمد عن النعمان بن بشير بلفظ: ألا وإن في الإنسان مضغة؛ مسند أحمد، (رقم ١٨٢٨٨، ١٥٤/١٤). ورواه البخاري عن النعمان بن بشير؛ صحيح البخاري، كتاب (٢) الإيمان، باب (٣٩) فضل من استبرأ لدينه، (رقم ٥٢، ص٦). ومسلم مثله؛ صحيح مسلم، كتاب (٢٢) المساقاة، باب (٢٠) أخذ الحلال وترك الشّبهات، (رقم ١٥٩٩ [٤٠٩٤]، ص ٩٥٥). وابن ماجه =

وقد يكون اللبس بسبب الالتباس في [illegible] ولا ريب أنّ ما يتشبث به المبطلون كـ[illegible] بضعفاء الإيمان إلى تزعزع إيمانهم [illegible] والشبهة إذ هي بعكس الدليل أو الحجة، فإنّ الحجة هي ما [illegible] والشبهة تطمس السبيل وتحجب الحقيقة.

وقد سبق تعريف الإلحاد، والملاحدة هم [illegible] المعاندون المنكرون للألوهية، الذين كانوا ينكرون حدوث الكون، ويزعمون أزليته، ولكن عندما قامت عليهم حجة حدوث الكون بما تكشف من طبيعة الحرارة الديناميكية واطراد تناقصها عجزوا عن مكابرة هذه الحجة القاهرة، فانقلبوا إلى دعوى أنّ الكون حدث بدون مكوّن، وأنّ الطبيعة وحدها هي التي أوجدته بطريقة الطفرات العشوائية كما تقدم. ومنهم من يعترف بأنّ للكون خالقًا، ولكنه في زعمهم لا يتدخل في شيء من شئون الكون سلبًا ولا إيجابًا، وإنما الطبيعة هي التي تصرفه، ومع ذلك أيضًا ينكرون الأديان جميعًا إذ لا يرون ما يوجب اتصال الإنسان بربه من طريق الدين، فهم من هذه الناحية يتفقون مع الملاحدة المعاندين الصرحاء، كما يتفقون معهم في إنكار الغيبيات جميعًا، كالبعث والحساب والثواب والعقاب، وكذلك الرسل والملائكة.

وثم طائفة ثالثة تقف بين الطائفتين، فلا تنكر وجود الخالق، ولا تثبته، وكذلك ما يتعلق باليوم الآخر، وهي المعروفة باللاأدري، ومن هؤلاء شاعر المهجر إيليا أبو ماضي القائل في طلاسمه الحائرة:

= مثله؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١٤) الوقوف عند الشبهات، (رقم ٣٩٨٤، ص ٢٧١٦). والدارمي مثله؛ سنن الدارمي، ومن كتاب (١٨) البيوع، باب (١) في الحلال بيّن والحرام بيّن، (رقم ٢٥٣١، ١٩٧/٢). والبيهقي بلفظ: ألا إن في الجسد؛ السنن الكبرى، كتاب البيوع، باب (٢) طلب الحلال واجتناب الشبهات، (رقم ١٠٤٠٠، ٤٣٣/٥).

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت
وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!
أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود
هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنّى أنّني أدري ولكن...
لست أدري!
وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أأنا السّائر في الدّرب أم الدّرب يسير
أم كلّانا واقف والدّهر يجري؟
لست أدري!

وإذا كانت هذه هي مذاهب الإلحاد الفكرية فـإنّ الملاحدة أيضًا لهم مذاهب متعددة في التوجه السياسي والاقتصادي، وسائر التوجهات، ولكن مع ذلك كله لا تخرج فئة من هذا الفئات المذكورة عن دائرة الإلحاد، ولو كان بعضهم يعترف بوجود الخالق كما هو شأن المعروفين بالربوبيين، إلا أنّ هذا الاعتـراف لا يرتفع بهم عن مداحض الإلحاد، فحسـبك منهم أن يكونوا متعاميـن عما يقتضيه هذا الاعتراف من اعتقاد أنّ الله سـبحانه هو الذي يدبر الكون، ويصرف كل ما فيه، وأنه له حق الطاعة المطلقة والعبادة

الخالصة على جميع العباد، فهم في غاية السلبية، كيف وهم يسلبون الإله الواحد الأحد خصائص الربوبية والألوهية بتجريده ﷻ من صفات الكمال، وسلبه حقه المطلق في تصريف الوجود، وفي وجوب إخلاص عباده عبادتهم وطاعتهم له، فإنهم ـ بلا ريب ـ يعتقدون أنه سبحانه بعد خلقه الخلق تخلى عن كل شيء، فلا صلة بينه وبين خلقه؛ لا في التصريف، ولا في الأمر والنهي..! وهذا مما ترفضه العقول فضلًا عن الشرائع المنزلة.

وأما الفئة الثالثة ـ وهي التائهة في ظلمات الشك ـ فإنها ـ بعدم وصولها إلى الجزم بوجود الله سبحانه، وأنه منه مبدأ الخلق وإليه معاد مخلوقاته ـ ليست متحررة من أسر الإلحاد، كيف وقد تعاموا عن أبرز الحقائق وأصدقها وأثقلها قيمة في موازين العقل والحق..!.

وبهذا تدرك أنّ ما شاع فيما حرره كثير من الكتاب من أنّ الإلحاد ينحصر في الفئة الأولى وحدها، وأنّ من عداهم ليسوا بملحدين، أمر غير مسلم له، على أنّ بعض هؤلاء الكتاب ينفون عن عامة الملحدين أنهم يجحدون وجود الله سبحانه، وذلك بسبب عجزهم عن الإتيان بأي دليل على عدم وجوده تعالى، ولذلك يقتصرون على إثارة الشبهات في قضايا الإيمان؛ لأجل أن يشككوا في وجوده سبحانه، وقد سحب هذا الحكم بعضهم حتى على أشهر ملاحدة العصر، كما نجد ذلك في كلام رشود عمر التميمي الذي، جاء فيه: «ولهذا أنك تجد بعض الملاحدة المتمرسين في الجدال لا يقطعون بعدم وجود الخالق، هروبًا من تحمل عبء الدليل، ومنهم دوكنز، فهم في الحقيقة أقرب إلى اللا أدرية منهم إلى الإلحاد»[1].

---

(١) التميمي؛ رشود عمر: **تأملات في البواعث النفسية للإلحاد**، ص١١، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

ومهما يكن، فإنّ اللاأدريين ليسوا بمنأى عن رجس الإلحاد كما علمت، ويعجب من إلحاقه دوكنز بهذه الفئة! مع ما عرف عنه من الإصرار على تسفيه كل من آمن بالله، أو تمسك بشيء من الدين، واتهامه الأديان جميعًا بالتخلف عن مقتضيات العقول، وأنها منشأ كل ضلالة وفساد في الأرض، مع تجرئه الوقح ببذيء القول في حق الله ﷻ، وذلك مبثوث في مؤلفاته، لا سيما الذي هو أسوؤهن عنوانًا ومحتوى، وهو الذي سماه **وهم الإله** ومهما يكن شكه فيما يعتقده أو يقوله، فإنّ ذلك لا يبرئه عن الإلحاد، ولا يخلصه من تبعاته، إذ لا يلزم من الملحد أن يكون في قرارة نفسه مصدقًا لما يكتبه أو يقوله، كما لا يلزم أن يكون الكافر موقنًا بصدق ما يعتقده أو يقوله، فقد يكون كافرًا بجحوده للحق، ولو كان في قرارة نفسه موقنًا أنه الحق الذي لا ريب فيه، كما قال الله تعالى في وصف فرعون وآله عندما جاءهم موسى عليه السلام بآيات الله البينات: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ومثل ذلك ما أخبر به عن أهل الكتاب في معرفتهم بالنبي ﷺ وجحدهم إياه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فإنّ هذه المعرفة لم تزحزحهم عن حكم الكفر قيد أنملة.

وحسبك من دوكنز أن يكون هو حربة الإلحاد ورأس الملحدين في هذا العصر، ولو كان في قرارة نفسه معتقدًا خلاف ما يقوله، فإنّ تضليله للناس بهذه الشبهات التي تفرزها مكابرته للحق تَدُعُّه في مهاوي الإلحاد، وقد ذكر لي بعض الذين سبروا شأنه مما كتب عنه أن له موقفين:

موقف أمام العامة: الذين يحرص على أن يضلهم ويرديهم فيما تردى فيه بنفسه من الشر الوبيل، فهو عند هؤلاء كما هو في كتبه يحرص على الجحود والإنكار، لكل ما يتصل بالدين من الإيمان بالله أو بغيره ويسفه ذلك أيما تسفيه.

وموقف آخر عند خاصته: الذين يصطفيهم لبثهم أسراره الخاصة، فإنه عند هؤلاء يعترف بشكه في صحة ما يقول لالتباس الحقيقة عليه، ولكنه يبدي لهم إصراره على المضي قدمًا في محاربة الإيمان والتدين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تهوره وعناده وكرهه للحق، ومبالغته في حربه، وهو دليل على أنّ الإلحاد مرض في النفس يثير فيها الحمية ضد الحقائق التي هي أشد بروزًا وجلاء من الشمس في رابعة النهار ليس دونها سحاب ولا قتر.

وهذه هي آفة الإلحاد في نفوس جميع الملحدين، إذ ليس هو إلا داء دفينًا يتحكم فيما يصدر عن الملاحدة من قول أو عمل، وقد ابتلي بهذا الداء بعض الذين هووا في دركات الإلحاد السحيقة، بعد أن نشأوا على الإسلام وعرفوه حقيقة ومظهرًا، كما كان ذلك من الملحد العنيد عبد الله القصيمي، الذي نشأ عربيًا مسلمًا، وكان مغاليًا في تدينه وتمسكه بالفكر الذي آمن به، حتى أنه كان يقارع كبار العلماء، الذين كانوا لا يرضون تطرفه وغلوه، ومن بينهم بعض علماء الأزهر كالعلامة يوسف الدجوي، ولكنه لم يلبث أن انسلخ من كل ما كان عليه، وكفر بكل ما كان مؤمنًا به من حق أو باطل، وهوى إلى الحضيض الأدنى من الجحود والإنكار لكل ما هو غيبي، وبلغت به وقاحة القول وفساد الفطرة أن قال في الله تعالى ما لا نظن أنّ الشيطان يجرؤ أن يقوله، فضلًا عما قاله في النبي ﷺ، وفي القرآن الكريم من السباب القذر، وهو مما يدل على أنه تدرج في مراحل الضلال، حتى وصل إلى قيادة إبليس إلى الشر بعد أن كان هو قائده إليه، كما فاخر بعض الشعراء على أن إبليس أصبح من جنده بعد أن كان هو تابعًا له، والعياذ بالله.

وقد تبرم مما جاء به القصيمي من الضلال المسلمون وغيرهم، فنجد من غير المسلمين من استعظم ما بثه من الفساد كالأديب المفكر ميخائيل نعيمة

الذي علق على كتاب القصيمي العالم ليس عقلًا بخطابه الذي وجهه إليه قائلًا أولًا في وصف الكتاب إنه «كتاب هدم ونفي من الطراز الأول، هدم الآلهة والأخلاق والفضائل والثورات والمثل العليا، لا عجب فأنت في أول فصل تنفي لوجود الإنسان أي معنى، والذي لا يعرف لوجود الإنسان ولعبقريته أي معنى كيف يكون لكلامه أي معنى؟.

إنّ قلمك ليقطر ألمًا ومرارة واشمئزازًا وحقدًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع قنبلة لكانت أشد هولًا من قنبلة هيروشيما».

وإن عجب الإنسان فإنه يعجب أن يكون القصيمي الذي انتقل إلى الإلحاد من عقيدة الإسلام يهوي إلى هذا الحضيض الأدنى من بذاءة القول وقبيح التعبير عن رسول الله ﷺ، وعن القرآن الكريم كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بجانب سوء أدبه فيما قاله في حق الله تعالى، في حينما نجد ملحدًا انتقل إلى الإلحاد من العقيدة النصرانية الكاثوليكية ـ المتعصبة ضد الإسلام وضد القرآن وضد النبي ﷺ ـ يأبى على نفسه أن ينزل في هذا الدرك السافل من بذاءة القول في حق النبي صلوات الله وسلامه عليه وحق القرآن بل يترفع عن ذلك بعيدًا؛ فيصف القرآن بأنه خير ما يهدي إلى الخير، ويصف النبي ﷺ بأنه فاق جميع البشر في رجاحة عقله، وحسن سياسته، وبطولته الفذة، سواء الماضون والحاضرون والآتون، وهو شبلي شميل رائد الإلحاد الجديد في بلاد العرب فيما قاله في شعره ونثره، وقد سبق ذكر شعره في هذا، ألا يعد هذا من المفارقات الغريبة؟!.

هذا؛ وقد أفضى القصيمي إلى ربه، ولم نطلع على أنه رجع إليه بالتوبة والإيمان، بعدما نفر عنه بالإصرار والإلحاد، ولكن يشير د. عمرو شريف إلى أنّ من الناس من يدعي أنه تاب، فقد قال بعد أن بيّن ضلاله

وغلوه في إلحاده، «مـــات القصيمي طريح الفراش في أحد مستشـفيات القاهرة يدعي البعض أنه تاب إلى ربـــه قبل أن يموت. تاب أم لم يتب إنه الآن بين يدي ربه»[1].

وفي هذا ما يدل على أنّ ملاحدة العرب أخذوا بحظ وافر من بذاءة القول وفجور التعبير والاجتراء على الله وحرماته، بل نجد من بينهم من تفوق على كثير من الملاحدة الآخرين في هذه الخصال، كالملحد العنيد سـمير سامي والملحد عادل أحمد والملحدة الربوبية نهى محمود وغيرهم.

وكم وجدنا ممن نشـأوا على الإسـلام، وتربوا في أحضان الإيمان؛ من انتهى بهم الغرور وعدم المبالاة بأنفسـهم؛ أن أصبحوا هم غلاة الملحدين، والعياذ بالله. وهذا كما قيل «المحمى على النار أحمى من النار».

ولما كان الإلحـاد تفرق بأتباعـه ومزقهم عزين؛ كانت لـكل فئة منهم شبهاتهم الخاصة، التي نحاول أن نتعرض لبعض منها، ولو باختصار فقد طال بنا السير في هذا الدرب وأرهقنا الإدلاج فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ كثيرًا من تلك الشُّـبَه جاء الرد عليها ضمن النقاش الذي سـبق في كثير من أبواب هذا الكتاب.

ولما كانت هذه الشـبهات التي يثيرها الملحدون يتعلق بعضها بالإيمان بالله، وأخرى بالإيمان بسائر الغيوب، نقسم القول فيها إلى فصلين:

---

(١) د. عمرو شريف: خرافة الإلحاد، ص ٤٢٨.





الفصل الأول

في شبهات الإلحاد حول الإيمان بوجود الله

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



قد علمت مما تقدم ومن هاجس فطرتك؛ أنّ وجود الله سبحانه حقيقة راسخة في العلم، مقنعة للعقل لا يجادل فيها إلا الأغمار، وأي شيء في الوجود له من الشواهد الدالة على وجوده، كالشواهد الدالة على وجود الله؟ ناهيك أن تكون كل ذرة في الوجود هي كتاب من الله، تتجلى فيه آياته العظيمة التي تنادي على من يجحد وجوده بالسخف والخبل والأفن والهذيان، ولكن مع ذلك لا يزال من بين الناس من يتعامى عن هذه البراهين، ويتصامم عن هذه الأصوات، ويتجاهل هذه الحقيقة، بل يكابر فيها بمحاولته أن ينسج من خياله شبهة تلبسها على العقول.

ومن أشهر هذه الشبه؛ تلك الشبهة الطفولية السخيفة ـ التي يرددها السخفاء المخبلون ـ وهي «**إذا كان الله خلق الخلق، فمن الذي خلقه هو**»؟.

وهذا يعني أنّ هؤلاء لم يصلوا إلى التفرقة بين الوجود الواجب، والوجود الجائز، فإنّ جميع الموجودات ـ ما عداه ـ لا يتعدى وجودها حدود الإمكان إلى الوجوب، ولذلك لم تكن أزلية الوجود، وكان وجودها مكتنفًا بالعلل ومبتدأ بالأسباب، أما وجوده ﷻ فهو وجود واجب، ولذلك لم يسبقه عدم، ولن يتبعه فناء، فهو الأزلي الأبدي، لا تأثير لشيء عليه، وإنما هو يؤثر على كل شيء، وقد توقف عليه وجود كل ما سواه، بينما كل ما عداه لا يتوقف على وجوده وجود غيره، ولو كان يرتبط به برباط السببية، كالوالدية والمولودية، فإنّ الأسباب تتعاقب ولا تتعين، فيمكن أن يوجد الموجود بسبب غير ذلك السبب، بحيث يكون مثلًا له والد آخر، أما الله سبحانه فإنّ وجوده يتوقف عليه وجود

كل موجود غيـــره، إذ وجود غيره هو وجود حـــدوث، فلذلك كان لا بد له من مُحْدِث، والمُحْدِث لا بد من أن يكـــون موصوفًا بصفات، من بينها الوحدانية، لأن الكائنات التي ينطوي عليها الوجود هي حادثة كانت بعد أن لم تكن، وهي ـ كما بينا ـ منظومة واحدة مؤتلفة في اختلافها، منسجمة في تباينها، متحدة في تعددها، وهو مما لا يتصور أن يكون إلا من محدث واحد، لا شـــريك له في الخلق ولا في الأمر، إذ لو كان له شـــريك لأدت الشركة بينهما إلى الاختلاف والتنافر، فينعدم بين المكونات نظامها وانسجامها، ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ ـ ٤٣].

وقد تعرض د. عمرو شريف لهذه الشبهة وتفنيدها، فقال: «وبالرغم من أنّ هـــذا التســـاؤل الصبياني قد قتـــل بحثًا، وحســـم على أيدي علمـــاء الكلام المسلمين منذ ألف سنة، وأيضًا على أيدي رجال اللاهوت في المسيحية، فإنّ الملاحدة في بلادنا وعبر العالم يعتبرونه الحجة المحورية في إلحادهم، ولا يقوم بهذا الطرح الصبيان فقط، بل كثير من الكبار أيضًا، حتى أن ريتشـــارد دوكنز يقيم كتابه **وهم الإله** على هذا التساؤل.

وملخص تفنيد هذه الحجة الإلحادية، أنّ كل موجود حادث لا بد له من موجد (سبب) وإذا تسلسلنا في الأسباب لأعلى، فسنصل حتمًا لـ (سبب أول) وراء كل الحادثات وينبغي أن لا يكون له موجد، ويطلق علماء المنطق على استحالة التسلســـل إلى ما لا نهاية اصطلاح (**التسلسل يمتنع**) ومن ثم يصبح السؤال عن سبب (الســـبب الأول) الذي لا سبب له ســـؤال غبي[1]، وإذا كنا لا نســـتطيع تصور موجود لا وجود لـــه فإنّ هـــذا **الدليل العقلـــي المنطقي** (التسلسل يمتنع) وكذلك (الدليل العلمي) المتمثل في احتياج الكون والحياة والإنسان إلى مصمم ذكي (يحتمان) الإقرار العقلي بالإله كموجد أول.

---

(١) كذا في الأصل، والظاهر أنه سبق قلم، وصوابه سؤالاً غبيًا لأنه خبر يصبح.

إذًا فقضية الإله الأزلي تتعقل وإن كانت لا تتصور، بل إنّ العلم المعاصر يقدم لنا مفاهيم لا يمكن تصورها، ولكن ينبغي تعقلها، إذ يؤكدها البرهان الرياضي، مثال ذلك ما تخبرنا به نظرية الكوانتم من أنّ الجسيم تحت الذري يمكن أن يكون في أكثر من موضع في وقت واحد»[1].

قلت: إنّ هذه الشبهة تناولها الحديث الشريف، قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا، فقد جاء في رواية أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق؛ فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنت بالله ورسله**»[2].

وهو ـ بلا ريب ـ يدعو الناس إلى أن يقطعوا عن أنفسهم هذه الوساوس التي يمليها الشيطان عليهم، ليشككهم في الله ﷻ، والحديث جاء بصيغ متعددة من طرق مختلفة، وهي كلها تتفق في فحواها بأنّ مما يجب على المسلم عندما يتعرض لهذه الشبه من قبل شياطين الجن أو شياطين الإنس أن يلجأ إلى الإيمان بالله، فإنه هو الذي يقطع دابر هذه الوساوس، ويستأصل شأفتها، فإنّ معرفة الله سبحانه بحر لا ساحل له ولا قعر، يعجز عقل الإنسان عن العوم في خضمه الثجاج، فلذلك يجب التسليم للحقائق الغيبية، ومهما كان العلم الذي أوتيه الإنسان، فإنّه محدود بمحدودية مخلوقيته، وما كان للإنسان أن يتطاول فيتعدى حدوده في هذا، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقد قال تعالى في وصف نفسه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، على أنّ البراهين القاطعة قد قامت حجتها على كل عقل بوجود

---

(١) المرجع السابق، ص٤٣١.

(٢) أخرجه الحميدي؛ **مسند الحميدي**، (رقم: ١١٥٣، ٢/٤٨٨)، و**مسلم**؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١) الإيمان، باب (٦٠) بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، (رقم: ١٣٤ [٣٤٣]، ص٧٠٠)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٣٩) السنة، باب (١٨) في الجهمية، (رقم: ٤٧٢١، ص١٥٧٠).

الله سبحانه وأنّ وجوده ليس كوجود غيره، وهو وجود وجوب لا وجود إمكان، إذ هو الأزلي الأبدي، ولا يمكن لمن كان كذلك أن يكون مخلوقًا لغيره، فإنّ المخلوقية تنافي الأزلية، والأولية تنافي الحدوث، وقد تعرض شراح الحديث لمعناه كما في قول القاضي عياض نقلًا عن المازري: «أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها، من غير استدلال ولا نظر في إبطالها.

والذي يقال في هذا المعنى: إنّ الخواطر على قسمين، فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، على هذا يحمل الحديث، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمرًا طارئًا على غير أصل دفع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا باستدلال ونظر في إبطالها»[1].

وأضاف إلى ذلك الحافظ ابن حجر ما نقله عن الطيبي أنه قال: «إنما أمر بالاستعاذة والاشتغال بأمر آخر، ولم يأمر بالتأمل والاحتجاج، لأن العلم باستغناء الله جل وعلا عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة، ولأن الاسترسال في الفكر في ذلك لا يزيد المرء إلا حيرة، ومن هذا حاله فلا علاج له إلا الملجأ إلى الله تعالى والاعتصام به»[2].

هذا؛ ولا عجب في كون الإنسان يقف علمه قاصرًا عن اكتناه حقيقة معينة، فكم قصرت مدارك الإنسان عن تصور حقائق تتعلق بوجود الخلق، فكيف يتصور ما هو من خصوصيات وجود الخالق ﷻ، فالحياة كما ذكرنا أكثر من مرة لغز لم يصل الإنسان إلى حله بمقاييس علمه، ولا حل له إلا

---

(١) اليحصبي، القاضي عياض؛ بن موسى بن عمرون السبتي: إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، ٤٢٩/١، تحقيق: الدكتور يحيَى إسْمَاعِيل، دار الوفاء ـ المنصورة، ط ٣: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٢) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٤٤١/٦، رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام ـ الرياض، ط ٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

برده إلى الله الذي خلق الموت والحياة، الذي جعل من الشجر الأخضر نارًا، وجعل من الجماد حياة، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

دعنا من العالم الروحي، فالعالم المادي نفسه، كم فيه من عجائب لا يجد لها الإنسان تفسيرًا، ناهيك بالطاقة الذرية وتأثيرها، والطاقة الكهربائية وآثارها، فكم في ذلك كله، من حقائق مطوية عن تصور الإنسان مصونة عن مداركه، وحسبنا ما في عمق هذا الأثير من أسرار نشاهد آثارها، وإن عجزنا عن تصورها، فليت شعري بأي قوة تهيأ للناس في هذا العالم أن ينقلوا عبره هذه المشاهد المرئية التي تمثل عبر الشاشات في آفاق الأرض، وكيف أمكن التراثي ما بين متخاطبين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، ونقل هذه الأصوات ليتسامع المتخاطبان ويتوزع البث في أرجاء الأرض، فهل الذين استخدموا هذه الطاقات هم الذين أوجدوها من العدم؟ أو أنهم استغلوا ما كان موجودًا في تضاعيف هذا الخلق منذ وجدت الحياة، ويسر الله لهم ما لم يتيسر لمن كان قبلهم من هذا الاستغلال؟ فلو لم تكن هذه الطاقة موجودة في هذا الأثير بخلق الله تعالى من الذي كان يمكنه أن يأتي بها من عدم؟.

وقد يملي الشيطان بعض الشبه على أوليائه الملاحدة فيما يتعلق بخصوصيات الخالق سبحانه، وسبحاته التي لا يشارك فيها، كما ذكر د. عمرو شريف: «أنّ شابًا ملحدًا وجه إليه سؤالًا أحمقًا هزيلًا: هل يستطيع إلهك أن يخلق إلًها أكبر منه أو أقوى منه، وهل يستطيع أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟!».

وهو سؤال لا يدل على إلا على جهل السائل ورعونته، وعدم انضباطه فيما يقول، فإنّ الله ﷻ الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، والذي يدبر هذا الوجود كله من أدنى دقائقه إلى أوسع جلائله، يستحيل أن يكون له شريك في الملك أو ولي من الذل، ولما كان وجود شريك له داخلًا في الاستحالة، فهو

لا يمكن أن يقع بحال، ومن التناقض البين أن يسأل سائل: هل الله قدير على خلقه؟ أو أنه غير قدير عليه؟، فإنه لو أمكن وجوده لبطلت وحدانية الله تعالى، والوحدانية هي من أبرز صفاته تعالى، ووحدانيته تقتضي أن يكون وحده دون غيره، متصفًا بوجوب الوجود، على أنّ الشريك لو قدر لزم أن يكون أزليًا غير حادث وإلا فما معنى هذه الشركة بين الأزلي والحادث، فيستحيل على من اتصف بالألوهية أن يكون موصوفًا بالمخلوقية، وهذا يعني أن هذا السؤال ساقط من أساسه، بما فيه من التناقض البيّن.

وكذلك لا يتصور أن يعجز الله سبحانه عن حمل أي شيء، فالكون كله محمول بأمره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، فكيف يتصور أن يكون سبحانه عاجزًا عن شيء يخلقه مع أنّ الخلق نفسه شاهد على أن قدرته محيطة بكل شيء، ولكن لا يعني ذلك أن يتحول المستحيل في حقه إلى الإمكان.

وقد رد على ذلك الملحد بما حاصله أن هذا السؤال متعارض مع نفسه، متناقض بين أوله وآخره، لأنه من طلب المستحيلات العقلية، كرسم دائرة مربعة، فكيف يطلب أن يخلق الله إلهًا؟! (سواء كان أكبر وأقوى أو أصغر وأضعف) مع أنّ الإله لا يمكن أن يكون مخلوقًا، وكيف يطالب أحد بأن يخلق الله صخرة لا يستطيع حملها، مع أن كل مخلوق يستمد صفاته من خالقه، ولا يمكن أن يكون الحادث أكبر من محدثه[1].

هذا؛ وبجانب ما تقدم ذكره يحرص الملحدون على ابتكار الشبه التي يلبسون بها على أنفسهم وعلى عامة الناس، الذين فرغت ألبابهم من معرفة الله

---

(١) ينظر؛ د. عمرو شريف: خرافة الإلحاد، ص٤٣٦.

تعالى، ومن بين هذه الشبه ما يخرج مخرج التحدي لإرادة الله تعالى، وهذا هو شأن العناد في كل عصر، كما حكى الله تعالى شأن الذين عاندوا الرسول ﷺ في الإيمان به، فحكى ما كانوا يدلـــون به في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

ومثله ما ذكر الله تعالى عن عتاة قريش الذين رفضوا الإيمان بما أنزل الله، وتعللوا بما حكاه عنهم في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، هو لا يدل إلا على أنّ العناد يعمي ويصم حتى لا يدري الإنسان ما أثر ما يفوه به على نفسه وكيف تكون عاقبته، وقد سلك هذا المسلك عتاة الملاحدة في كل عصر، وهو دليل علـــى أنّ العقلية الإلحادية المظلمـــة، لا تتفاوت بين عصر وآخر، ومن ذلك ما ذكره د. عمرو شـــريف بأنه في إحدى مناظراته مع قطب إلحادي ـ وقد بثتها إحدى الفضائيات ـ «قال الملحد: قتلت بعوضة، وتحديت الإله ـ إن كان موجودًا ـ أن يقبل التحدي»[1].

وهم في هذا يتصورون أنّ الإله المعبود ﷻ كبشر عادي يمكن أن يستفز من قبل العتـــاة المعاندين من عبـــاده فيلجأ إلى خرق ســـنن الحياة من أجل الانتصار في مقابل هذا الاســـتفزاز، ولم يعلموا أنّ الله الـــذي نعبده هو أجل وأعظم من أن يســـتفز من قبل أي أحد من خلقه، وقد جعل في الكون سننًا، لا تخرق بإرادة أحد من خلقه وإنما يخرقها الله تعالى متى شاء، بغير استفزاز من أحـــد، ومـــن غيـــر أن يتحكم فـــي أمره منـــاوئ أو مســـالم كمـــا قال

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٢.

د. عمرو شـــريف: «لو اســـتجاب الله ﷻ لكل تحد يطرحه ملحد لا شك أن الحياة ستصير مهزلة، ويصبح الملحدون هم الآلهة»[١].

وكثيرًا ما يتكرر هذا المنطق الأحمق الجهول من قبل عتاة الملاحدة، فقد اشـــتهر عن أحدهم أنه ســـلط من قبل أحد الأنظمة العســـكرية القاسية التي ابتليت بها هذه الأمة، فكان ينزل بالمسلمين أقسى ما يتصور من العذاب في غياهب السجون، وكان يتحداهم بهذا المنطق الاســـتفزازي فيقول لهم بكل صلف وعتو: «نادوا إلهكم الذي تزعمون ليأتي إليّ، فقد أعددت له زنزانة رقم كذا»، وقد اشتهر أن وفاته كانت بصورة فيها عبرة بالغة لمن اعتبر.

وقد عايشت بنفسي قصة من نوع ذلك بعد تلك الثورة المشئومة التي كانت بزنجبار، فقد ســـلطت الثورة على الجزيرة الخضراء (بيمبا) حكامًا عســـكريين على مناطقها، كلهم شيوعيون نبتوا في أسر إسلامية، ولكنهم غذتهم الشيوعية بأفكارها، وطبعتهم بقسوتها وعنادها، وكان همهم جميعًا أن ينزلوا بالناس أقسى ما يتصور من العذاب، فكانوا يخرجونهم من الســـجون فـــي مواقيت معينة في ساحات عامة، ويؤتى بالأهالي قسرًا من مســـاكنهم ليشهدوا ما ينزل بهؤلاء من العذاب، والويل كل الويل لمن رفض الحضور أو تعلل بعذر، وكان أحد هؤلاء اسم والده عبد الله، وسماه راشـــدًا، تفاؤلًا بأن يكون رشـــيدًا في فكره وعمله، ولكنه ما كان له من اســـمه نصيب، وإنما كان حظه من حياته الغي والضلال..! فكان بســـبب غيه وضلاله قلبه كجلمود صخر، وأخلاقه سعيرًا ملتهبًا يلفح من داناه، وكان مما يقوله لضحاياه على مسمع ومرأى من الناس: «نادوا إلهكم الذي تزعمون، وأنا أتحداه إن كان موجودًا أن يقطع يدي هذه»، وكان يرفع يمناه أمام الجميع مؤكدًا هذا التحدي، وقد أمهله الله ولكن لـــم يهمله، فما هي إلا بضْعُ سنوات حتى شاهد في نفســـه من أمر الله تعالى ما هو أشد مما تحدى به، فقد

---

(١) المرجع السابق، ص٤٣٢.

تقطعت أشلاؤه شيئًا فشيئًا؛ بدءًا من يمينه التي كان يتحدى بقطعها، ووريت الثرى وهو يسمع ويبصر، ثم تلتها شماله، وتبعتها إحدى رجليه ولحقتها الأخرى، وكل واحدة منها توارى وحدها في الثرى، ثم أتى ريب المنون على بقية جثته المقطعة الأوصال، التي كانت في أقصى ما يتصور من العفن والإنتان، وكانت مواراتها في الثرى وحدها؛ فتوزع جسمه إلى خمسة قبور لتكون في ذلك عبرة لمن كان له قلب، وهكذا فقد أعضاءه عضوًا بعد آخر، وهو يشاهد ذلك بعيني رأسه، ولا يملك لذلك دفعًا، ولا يملك أولياؤه الذين دفعوا به في هذا المأزق الفكري الضال أن يدفعوا شيئًا من قدر الله تعالى الذي تحداه، وهذا مما اشتهرت به الأخبار، وتناقله المتحدثون، وقد أكده لي من كان على اطلاع على تفاصيل هذا القصة وهو إمام جامع الشافعية الكبير بويته بالجزيرة الخضراء صديقي وأخي الشيخ جمال بن محمد بن عبيد الجزيري المولد والنشأة التنزاني الجنسية، العربي المحتد اليمني الأصل.

هذا؛ وما من أحد من هؤلاء الملاحدة المعاندين إلا سيحشر يوم القيامة إلى الله فردًا، حيث يلقى جزاء ما قام به من عمل بعد أن تشهد عليه أعضاؤه بسوء ما قدم، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وقد يخيل الشيطان لمن أوقعه في أحبولة الإلحاد أنه فاز بأمنيته في حياته فارتقى مقامًا عليًا فيها، حيث أصبح حرًا لا تقيده طاعة لله، ولا لغيره، وقد تخلص من تبعات الدين ولوازمه، ولربما تباهى بهذه الحرية حتى استخف في مقابلها بكل عذاب يلقاه، أو خطر جلل يرزأ به، أو نعيم لا يقدر بثمن يخسره، كما ذكر عن بعضهم أنه قال: «إني مستعد أن أدخل النار حرًا ولا أدخل الجنة عبدًا للإله»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٣.

وهذا هو أبعد ما يتصور من الغرور والعناد، ولو درى هذا الملحد المعاند الجحود بحاله لنعى نفسه وبكاها حتى يذرف الدموع دمًا، إنّ هذه ليست هي حرية، وإنما هي عبودية لمن تكون العبودية له خزيًا، وعارًا وشرًا مستطيرًا في الدنيا والآخرة، إذ أصبح بذلك عبدًا للشيطان، وهو في الحقيقة أعدى عدو له بحيث كل همه وسعيه أن يرديه في جهنم وبئس المصير، حيث العذاب الأليم الذي لا يطاق، واللعنة الأبدية التي لا ينفك عنها، والذلة والمهانة الدائمتان الأبديتان، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وشتان لعمر الله بين دعاء الله لعباده أن يغفر لهم ويصفح عنهم ويبوئهم مكان الزلفى إن هم آمنوا به واتبعوه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٩]، وبين دعوة الشيطان لأوليائه إلى أن ينقلبوا إلى لعنة الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأن يبوؤا بالخسران فيهما، ثم لا يلبث بعد أن يرديهم في شر المصير أن يبرأ منهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ ـ ١٧]، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن

دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وما أجهل هذا الذي يرجو أن يدخل النار معززًا مكرمًا لأنه تحرر من العبودية لله تعالى؛ فقد جهل أن العبودية لله هي أعظم شرف للعباد، لأنها تحررهم من العبودية لغيره ومن لم يكن عبدًا لله تعالى كان عبدًا لشيطانه أسيرًا لشهواته، تقوده فينقاد، ليست له إرادة تحرره من اتباعها وتخلصه من الانقياد لها.

وقد يخيل الشيطان له أنهم بهذه الحرية التي يزعمونها ينقلبون إلى سعادة في الدنيا لا تضاهيها سعادة أخرى كما كان من شاب تمرد على أبويه فألحد، وقد استعانا بـ د. عمرو شريف على إقناعه بأن يعود إلى الدين، فتعلل في رفضه ذلك بأنه بإلحاده أصبح يشعر بسعادة غامرة، وحياة مستقرة هانئة فلماذا يشغل نفسه بقضية الألوهية والدين في الوقت الذي يشعر بأنه ليس بحاجة إلى الإيمان بها؟ وأجابه الدكتور بما معناه: «ماذا تقول في طالب لا يستذكر دروسه لأنه يشعر أن حياته مستقرة هانئة دون مذاكرتها، وأنه لا حاجة إلى بذله الجهد والمعاناة في ذلك، فهو لا يستحضر عواقب سيئة لحياته السعيدة التي يتصورها، ولكن ألا ينبغي لوالديه ومدرسيه أن يوجهوه إلى ما فيه مصلحته حتى وإن كانت المذاكرة على غير هواه، وكان لا يدرك أهمية ذلك في آنه هذا؟».

وأضاف إلى ذلك: «بأنه لا ينبغي أن يحيا الإنسان تبعًا لما يحقق له السعادة الوهمية في حياته هذه فقط، ولكن ينبغي أن يحيا تبعًا لما يمليه عليه العقل، وينبغي أن يحدد كيف يكون مسيره إلى ما هو أصلح له في مصيره ومآله».

ثم أنهى حديثه قائلا: «إنّ الحياة تبعًا لما يمليه الهوى إنما هي حياة المراهقين، أما حياة الناضجين فإنها تتبع العقل، ولذلك فإنهم لا يقتصرون على النظر في الاستغناء الحالي ليعدوه مسوغًا لعدم الإيمان»[1].

ولم يكن اغتباطهم بالإلحاد وإحساسهم بالراحة النفسية منه؛ إلا لأن الشيطان سد عليهم منافذ التفكير، وحبسهم في مضيق مظلم من هذه الحياة الدنيا، فلم يلتفتوا إلى ما بعدها، ولهذا لا ينظرون إلى ما يسعد به المؤمنون في دنياهم بصلتهم بالله تعالى رب العالمين، وارتباطهم بملكوته الذي يسبح بحمده، ويخضع لكبريائه، وبهذا كانوا بعيدين عن تصور لذة الإيمان، وراحة الاطمئنان به، وهم عما بعد هذه الحياة أعمى وأضل سبيلًا، فلا يتصورون النعيم المقيم الذي يفوز به المؤمنون المتقون، ولا يتصورون أيضًا العقاب الأبدي لمن حرم نعمة الإيمان.

على أنّ ما يتوهمونه من السعادة الدنيوية بإلحادهم لا يلبث أن يتكشف عن شقاء تضيق به صدورهم، وتضطرب به نفوسهم؛ حتى يملوا الحياة ويطلبوا الخلاص منها، ولربما كان لبعضهم ذلك في زهرة عمره وريعان شبابه وتكامل فتوته، كما كان ذلك للمليحد المصري الصغير المنحدر من الأصول التركية إسماعيل أحمد أدهم، الذي نشأ بين أب مسلم وأم نصرانية، ولم يكونا ملتزمين، ولكنه تربى في بيت عمته وزوجها، فحرص زوج العمة على تحفيظه القرآن، وتعويده ممارسة الشعائر التعبدية، ولكنه تمرد على ذلك، وانتهى به المطاف إلى الاتحاد السوفيتي في أوج غليان الفكر الشيوعي فيه في الفترة التي هي بين الحربين العالميتين، وهناك وجد ضالته التي كان يهفو إليها بما طرأ على فطرته من الفساد والتعفن، فأقبل بنهم على الفكر الماركسي الإلحادي الضال، فعب منه حتى ثمل، وبعد تخرجه في عام ١٩٣٣م

---

(١) المرجع السابق، ص٤٣٤.

مجتازًا مراحل الدراسة إلى الدكتوراة[١]؛ عمل مدرسًا للرياضيات بجامعة سان بطرس، ثم انتقل إلى حيث كان الإلحاد مطلًا برأسه إلى تركيا أتاتورك، حيث قام بالتدريس بجامعة أتاتورك، ولكنه ما لبث أن عاد إلى مصر محاولًا بث سموم إلحاده في المجتمع المصري المسلم، ولم يكن يكتم عن أحد إلحاده، بل كان به مفاخرًا، حتى أنه ألّف في ذلك كتابًا صغيرًا بعنوان **لماذا أنا ملحد**، وكانت هذه صراحة لم تكن مألوفة في البلاد العربية آنذاك، وهذا يعني أنه كانت له الريادة في هذا المجال.

وقد كتب عن تأثير دراسته وحياته بالاتحاد السوفيتي، حيث جاء في كتابه ذلك ما نصه: «كانت نتيجة هذه الحياة أني تنكرت للأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده، وبالمنطق العلمي، ولشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالًا وأكثر اطمئنانًا من حالي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقدي الديني»[٢].

هكذا خيل إليه أو أنه خيل لنفسه ذلك لما وقر فيها من كراهة الإيمان وحب الإلحاد، ولكن شواهد الإلحاد كذبته، إذ لم يصل عمره النكد المشئوم ثلاثين عامًا، حتى وجدت جثته الخبيثة طافية على مياه بحر الإسكندرية وفي معطفه خطاب وجهه لرئيس النيابة يبيّن فيه أنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، ويوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين، وأن تحرق بالنار[٣].

فيا ترى أين السعادة التي ادعاها؟ وأين الطمأنينة التي زعمها؟! فقد تبخر كل ذلك، وعجز عن الاستمرار في نهج الحياة، فآثر الموت الزؤام عليها،

---

(١) يرى كثير من الباحثين أن ما ذكر من نبوغ هذا المليحد في مرحلة مبكرة من عمره حتى اجتاز مراحل التعليم دعوى أشاعها الملحدون من أجل الترويج للإلحاد.

(٢) إسماعيل أحمد أدهم: **لماذا أنا ملحد**، ص ١٤، دار النشر الإلكتروني.

(٣) ينظر؛ د. عمرو شريف: **خرافة الإلحاد**، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

وآثر أن يصلى النار في هذه الدنيا بعيد موته برغبته قبل أن يصلاها عندما يبعث مكْرَهًا، وقد دفع بنفسه ثمن حتفه واختاره على الحياة، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

هذا؛ وقد يشتبه على من لم يكن راسخ الإيمان ما يصدر من بعض الملاحدة من اعتراض على الله تعالى في أمر الخلق، كقول بعضهم: لماذا لم يأخذ الإله رأيي قبل أن يخلقني؟ وبأي حق يحاسبني إن لم أعبده، ألست حرًا؟.

وهذا كله يرجع إلى المكابرة والعناد، وإلا فما بال الإنسان الضعيف الناقص الجهول يتطاول على الله القادر القاهر، الذي له الكمال المطلق، وقد أحاط بكل شيء علمًا، فخلق البشر إنما كان لحكمة علمها الله تعالى، وإن كان منهم من يعترض عليه بجهله وعناده، فإنّ السواد الأعظم من الناس قريرة أعينهم، راضية نفوسهم بهذا الخلق، إذ لو لم يخلقوا لما أتيحت لهم معرفة أي شيء، ولم يتمكنوا من الاستمتاع بأي شيء من متع هذه الحياة، ولم يكن الخالق العظيم في شيء من خلقه عابثًا، تعالى الله عن ذلك، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولأن الحياة الدنيا لم تكن مهيأة لأن يستوفي فيها الإنسان جزاء عمله خيرًا كان أو شرًا، لأنها حياة موقوتة، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون أحوال الناس فيها متباينة ـ ولا يعود هذا التباين في الرخاء والشدة والراحة والتعب، والنعيم والبؤس، إلى اختلاف أحوالهم بين البر والفجور، وبين الاستقامة والانحراف ـ لهذا كان استيفاء الجزاء على البر أو الفجور مرهونًا بالانقلاب إلى الله تعالى في الدار الآخرة، ولم يكن التكليف بالعبادة إلا لإتاحة الفرصة للناس أن يشرفوا بالاتصال بالله ﷻ، ويهذبوا بذلك أنفسهم، ويقوموا به اعوجاجهم، لتكون علاقة بعضهم ببعض علاقة بر وإيمان وتعاون على الخير، وتشارك في المسئوليات.

ومن شذ عن النهج السوي؛ فآثر الاعوجاج على الاستقامة، والشر على الخير، فهو يتحمل عاقبة شذوذه هذا، ولا يمكن أن يتساوى في المنقلب مع البررة الصالحين، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

وقد رد د. عمرو شريف على بعض هؤلاء المعترضين بأنك إن لم تعجبك الحياة فبإمكانك أن تتخلص منها بالانتحار، وأنت لا تخشى سوء عاقبة لأنك لا تؤمن بالبعث، وأضاف إلى ذلك: «إنّ عدم إقدامك على الانتحار لهو أكبر دليل على رضاك على خلقه لك، حتى أنك قبل أن تعبر الشارع تنظر يمنة ويسرة عدة مرات حفاظًا على حياتك»، فأفحمته هذه الحجة، ولكنه لجأ إلى القول: «ربما هناك شيء مما تقول، عندها سيعذبني إلهك، إنه يعاملنا كالعبيد!!».

فرد عليه: «أخيرًا وصلت إلى الحقيقة، فصلة الله تعالى بنا هي صلة السيد بالعبيد، وهذا ما تحاول دائمًا التملص منه بادعاء الندية، والعدل يقتضي أن يكون الإله الرحمن الرحيم أيضًا منتقمًا جبارًا مذلًا».

وأضاف إلى ذلك: «أنّ الإسلام يجمع بين وصف الله تعالى بالجمال والجلال، ولا يصف الله تعالى بالمحبة وحدها، كما يعتقد النصارى، ولا بالغضب وحده كما يعتقد اليهود، فلله الأسماء الحسنى جميعًا جمالها وجلالها، ومن لم يعرف ذلك فمعرفته بالإله ناقصة»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٥. «بتصرف يسير»

وليست هذه المجادلات في الله تعالى وشأنه وعظيم سلطانه إلا أثرًا من آثار الجهل المركب، الذي تراكم على العقلية الإلحادية، وكل من تأثر بها، وإلا فمن البادي للعيان أنّ الله تعالى لا يمكن أن يهمل خلقه، بحيث لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يمكن أن يضيع مملكته ـ وهي هذا الكون كله ـ بتركها لفوضى مخلوقاته، وإذا كان الحاكم من البشر لا بد له من نظام يسوس به رعيته، ويضبط به تصرفاتهم، مع اشتمال النظام على ما يردع المجرمين، فما بالك بالله سبحانه كيف يمكن أن يكون في حكمته التسوية بين البررة والفجرة في المآل، وهذا قد سبق بيانه بما فيه الكفاية في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب.

وثَمّ صور من مجادلات الملحدين المثيرة للشبه فيما يتعلق بالإيمان بالله، هي أتفه من أن تحتاج إلى الاعتناء بالرد عليها، لذلك أدعها لعقول أهل البصائر تكشف عوارها، وتنقض عراها عندما تعرض عليها، والله المستعان.

الفصل الثاني

في شبهات الإلحاد حول الإيمان بسائر الغيوب



لا يخفى ما في العقلية الإلحادية من التضييق على أصحابها، ولهذا يتجاهلون الحقائق التي هي أجلى وأظهر للعقول النيرة من الشمس في رابعة النهار، وإذا كانوا يجادلون في الله مع قيام الشواهد العلمية والعقلية كلها على أنه واجب الوجود لذاته؛ لا يمكن بحال وجود أي شيء سواه إلا به، فما بالك بسائر الغيوب؟! فإنّ مداركهم هي أضيق من أن تتسع لها، ولأجل هذا ينكرون كل ما هو غيب مغيب، ويبالغون في إنكاره، ولربما استجابوا لهاجس الفطرة، فتقبلوا عقيدة الإيمان بالله لما يشاهدونه في أنفسهم وفيما حولهم وفي الآفاق كلها من آياته البينات، ولكنهم يرفضون بشدة الإيمان برسالاته، والإيمان بالمعاد إليه، والإيمان بكل ما هو مغيب.

وهؤلاء هم الذين يُسَمَّون أو يسمون أنفسهم بـ (الربوبيين)، فهم وإن آمنوا بضرورة وجود رب الكون، فإنهم يسلبونه ﷻ جميع صفاته، فحسبهم أن يعتقدوا أنه خلق الكون، ولكن يعتقدون أنه بعد خلقه تخلى عن كل شيء منه تصريفًا وأمرًا ونهيًا، فعندهم أنّ الطبيعة هي التي تصرف الكون، وأنّ الخالق العظيم لا يأمر ولا ينهى، وأنه وإن بدأ الخلق لا يعيده، وبناء على هذا فإنهم لا يؤمنون بأنبياء الله ورسله، ولا بشيء من كتبه، ولا بأحد من ملائكته، ولا بقضائه وقدره، ولا يؤمنون بالمنقلب إليه، فلا يعترفون بحساب ولا بثواب ولا بعقاب.

وهذا الذي كان عليه الوثنيون جميعًا، ومنهم مشركو العرب، فقد كانوا يعترفون بوجود الله، كما ذكره الله عنهم في العديد من الآيات، كما في قوله:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ولكنهم كانوا شديدي الجدل في أمر الساعة، كما ذكر الله تعالى عنهم في نحو قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

ومثل ذلك ما تجده في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقد اتخذ هؤلاء الأصنام وسائط بينهم وبين الله، من أجل ما يتصورونه من وصولهم بعبادتهم لها إلى قضاء مآربهم في حياتهم الدنيا، وبهذا يفترقون عن ملاحدة العصر المعروفين بـ (الربوبيين)، فإنّ هؤلاء يباينون أولئك بإنكارهم الدين رأسًا، وبناء على ذلك فإنّ جميع طقوس العبادات عندهم مرفوضة.

هذا؛ ولربما صدق العرب المشركون ببعض الغيوب التي يجحدها هؤلاء، كتصديقهم بالملائكة، ولكنهم كانوا يزعمون أنهم بنات الله سبحانه، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥]، أما هؤلاء الملاحدة المعاصرون فإنهم لا يصدقون بشيء من ذلك.

وقد جمعتني الظروف بأحد هؤلاء بالولايات المتحدة الأمريكية، في مستشفى لونج بيتش (Long Beach) بساحل لوس أنجلوس من ولاية كاليفورنيا، وكان طبيبًا جراحًا حاذقًا، وقد بدأني بالحوار وقال بأنه ظل برهة من الدهر لا يؤمن بوجود الله، ولكنه آمن بعد ذلك بوجوده فحسب، وأنه

خلق الكون غير أنّ الطبيعة هي التي توجهه وتصرفه، وقد استمر الحوار بيني وبينه أيامًا، وكان مما قاله لي: إنّ إيمانـــي بوجود الله كلفني كثيرًا من التفكير ردحًا من الزمن، حتى آمنت بوجوده، وأنت تريدني أن أختصر المسافات في الإيمان بســـائر الغيب في مدة قصيرة، وقلت له: إنّ العمر محدود، وأخشـــى عليك أن يفاجئك ريب المنـــون قبل أن تصل إلى الحق فـــي هذا، وقد أخذ يقترب إلى الحق شيئًا فشيئًا، وقد لقيته مرة أخرى بعد لقائنا الأول الذي كان في ذي الحجة من عام ١٤٠٤هـ، ثم توفي بعـــد ذلك فجأة وأمره إلى الله، فإنه هو العليم كيف كانت عقيدته عندما لقي الله.

هذا؛ ومن الواضح بداهة أنّ جميع الملحدين شبههم في الغيوب الأخرى ما عدا وجود الله سبحانه شـــبه متحدة، وإنما يختلف عنهم اللاأدريون، بأنهم لا يجزمون بالنفي كما يجزمه الآخرون، وإنما يعيشون في ظلمات من الشك في كل ما يدخل ضمن الغيب، فهم جميعًا لا يؤمنون برسالات الله تعالى، ولا بكتبه، ولا بملائكته، ولا باليوم الآخر، فضلًا عن إيمانهم بقضاء الله وقدره.

ولا يخفى أنّ الحوار فيما يتعلق بأي غيب إنما ينبغي أن يبنى على إقامة الحجة بوجود الله تعالى، وقد علمت ممـــا تقدم أن كل عاقل متحرر من ربقة الأهواء لا بد من أن يســـلم بوجود الله، إذ الإيمان بالله تعالى لا يتوقف على مشـــاهدته وإدراكه بالحواس، وإنما هو كما أجاب الأعرابـــي بأنّ البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير، فأجدر أن تدل السماوات والأرض على الصانع الخبير، ولكن غلب على الناس العناد والأمراض النفسية فدعاهم ذلك إلى جحد أعظم البدهيات وأبرز الضروريات، وهو وجود الله ﷻ.

ولما كانت الغيوب الأخرى متوقفًا التصديق بهـــا على التصديق بوجود الله، كان حريًا أن ينصب اهتمام الباحثين ودعوة الداعين في تعريف الناس بالله رب العالمين، وليس ذلك أمرًا صعبًـــا ـ والحمد لله ـ لما أدركته من أنّ ذرات

الوجود كلها هي رسالات الله إلى خلقه، تقوم بها حجته عليهم، وقد مر من عرض أدلة وجوده تعالى ما هو كافٍ لمن كان له قلب.

وإذا جئنا إلى ما يقوله هؤلاء الملاحدة الذين لا يجادلون في نفس وجود الله، وإنما يجادلون فيما عداه من أمر الغيب ألفيناهم يصرون على الموقف السلبي تجاه كل قضية غيبية أخرى كما كان ذلك من الملحدة الربوبية الدكتورة **نهى محمود**، التي بدأت مناظرتها للدكتور **هيثم طلعت** بإنكارها لجبريل مؤكدة ذلك ثلاث مرات، وكانت مما عولت عليه في ذلك أنّ جبريل وصف بأن عنده ستمائة جناح وهي لم تر ريشة من هذه الأجنحة، ثم أتبعت ذلك بأنّ الأديان كلها بشرية، والكتب المقدسة كلها كلام بشر وليست كلام الله، وأنه لا نار ولا جنة، ولا حياة بعد الموت، وأنها اختارت الجزء العقلاني من الأديان كلها، وهو القيم.

وقد رد عليها مناظرها د. **هيثم طلعت** مطالبًا إياها بدليلها على وجود القيمة بعيدًا عن الدين، هل تستطيع التأسيس للقيمة بعيدًا عن الدين؟! وهل تستطيع إثبات وجود معنى للقيمة من خلال الرؤية المادية للوجود؟ وهل للقيمة تشفير ديني مثلًا داخل الجينوم حتى تفرزها معادلات كيميائية؟.

وقد عرج الدكتور في رده عليها بأنّ كتاب الدكتورة المناظرة الذي طالبت بقراءته جاء في آخر عبارة منه قولها: «وأنا الآن أؤكد أنّ الجنة الآن في الدنيا، ولا يوجد غيرها، استمتع بالمتاح لك في الدنيا، وهكذا صنعت جميع الكائنات الحية عبر ملايين السنين»، ومعنى ذلك أنها تطالب بممارسة الجنس وحرية الجنس، كما نادت بذلك من قبل **مادلين موري** زعيمة الملحدين الأمريكيين ما بين عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٩٥م، فقد نادت مادلين بالحرية الجنسية الكاملة، وقالت: «دعونا نصير مثل الأبقار، ونمارس الجنس متى أحببنا»، ويضيف إلى ذلك: كانت **مادلين موراي** أيقونة مجلة البلاي بوي

الجنسية الشهيرة، فهذا غاية ما تنتظره وتتمناه، مجلات الدعارة وبيوت الزنا، ومواخير البغاء.

وأردف ذلك الدكتور طلعت قوله: «إنّ العالم الذي تريده الدكتورة نهى والسيدة مادلين، هو عالم نظيف تمامًا من المطلقات والمرجعية النهائية، فلا مركز ولا هامش، عالم خال من المعنى، عالم نسبي تمامًا، فالمرجعية النهائية هي إنكار المرجعية، والمطلق الثابت الوحيد هو النسبي المتغير، فالزانية ليست أكثر من عاملة جنس! عضو في البروليتاريا الكادحة، تقوم بنشاط اقتصادي منتج، وفي هذه اللحظة يدخل الإنسان القفص الحديدي الذي صنعه لنفسه بيده (على حد تعبير ماكس فيبر) ويصير الإنسان ذئبًا لأخيه الإنسان (على حد تعبير هوبز) وتصير الأخلاق مجرد أخلاق مجتمع مصلحي بحتة (كما أخبر بنتام) ويصير وجودنا كله قائمًا على الصراع (كما أخبر داروين).

فالفلسفة اللادينية التي تجعل من الإنسان مرجعها وقبلتها وهدفها الوحيد، ستضحي أول ما تضحي بالإنسان، وقد اعترف رئيس التشيك فاكيلاف هافل بذلك قائلًا: «حينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى في هذه اللحظة نفسها بدأ العالم يفقد بعده الإنساني».

فاللحظة الجنسية هي اللحظة النماذجية ذات الخصوصية العالية، وعندما تتحول الأنثى إلى مادة استعمالية وتحاول أن تستبعد أية خصوصية أو تركيبية، وتحاول أن تسكت أي تساؤلات أخلاقية تتصل بالخير والشر، وما هو مشروع أو غير مشروع، فَحَتْمًا ساعتها ستموت، لا هي التي ستموت لكن أسمى ما فيها.

ثم نقل عن الدكتور عبد الوهاب المسيري أنه قال في موسوعته الرائعة: «الذي يمارس الجنس العرضي، ولا يجد غضاضة في ذلك هو شخص لا يكترث بالقيم الاجتماعية أو الأخلاقية أو الإنسانية، ولا حتى بالآخر الذي

يصبح موضع شهوته العابرة (تمركز حول الذات)، فالإنسان بممارسته الجنس العرضي يسقط كل القيم التي تعبر عن خصوصيته وتركيبيته وتفرده (أي إنسانيته)، ويتحرك في عالم السطح وحسب، ويتشيأ ويشيؤ الآخر».

وأتبع الدكتور ذلك قوله: «اللادينية هي المذهب الوحيد على وجه الأرض الذي يدعو للسلبية واللامبالاة في مواجهة شهوات النفس، لا توجد فيه مقاومة للنفس، ولا مقاومة للإغراءات، لا أقول أني سأنجح في أن أعف نفسي، لكن فقط يكفيني أني أحاول، أما اللادينية فمجرد المحاولة هي محاولة تأتي ضد الطبيعة الداروينية.. ضد القوانين الحتمية.. ضد المادية التفكيكية....!!.

ولذا أنا دائمًا أقول إنّ اللادينية هي دين الشيطان، تم التأسيس له كمذهب عقلي!!.

فاللادينية هي دين الشيطان، تمت أدلجته وإعادة صياغته والتأسيس له كمذهب عقلي..!! فلا يوجد مذهب على وجه الأرض يقول لك افعل كل الفواحش، فأنت في حل من كل شيء إلا الشيطان، واللاديني والمدمن في لحظة إدمانه..!! لكن المشكلة أنّ الإنسان كائن أقدامه مغروسة في الوحل، وعيونه شاخصة للنجوم، المشكلة أنّ الإنسان كائن ميتافيزيقي يسأل أسئلة نهائية عن معنى الكون، المشكلة أنّ أقصى متعة لا تكفي الإنسان أنه يعلم أنه ولد ليموت، المشكلة أنه بدون وجود إله تفقد كل الكائنات حدودها وحيزها، وتنشأ إشكاليات في النظام المعرفي والأخلاقي، وتفقد الأشياء حدودها وهويتها، ويصعب التمييز بينهما كما تختفي التفرقة بين الخير والشر، وتختفي الإرادة والمقدرة على التجاوز، وتسود الواحدية والحتمية، ويستحيل السؤال ساعتها عن الخطأ والصواب، والقيمي والنقدي، ويصير زنا المحارم كزنا الحيوانات، كالشذوذ مع الأطفال، كالزواج الحلال.

فالدين هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المعطى النهائي، وهو النقطة التي يتطلع إليها الإنسان ويحقق التجاوز من خلالها، وبغيابه يتحول العالم إلى مادة طبيعية صماء خاضعة لقوانين الحركة والصيرورة التي يمكن حصرها والتحكم فيها، ويتحول الإنسان إلى كم مادي يمكن أدلجته وقولبته في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة، وفي هذه اللحظة تموت الروح، ويتبعها موت الإنسان، فالإيمان بالإنسان وقيمته ومركزيته وسموه هو إيمان يتجاوز حركة المادة وديناميكيتها، فعندما يقرر الإنسان أن ينسى الدين في هذه اللحظة بالذات يكون قد نسي نفسه، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

كان هذا هو لب الحوار بينهما وإن كان قد استطرد بعد ذلك، ولكن الدكتورة ـ التي كانت متحمسة للادينية وإنكار المغيبات ـ هوت في النقاش إلى القيعان السفلى من الإسفاف، وحاولت أن تتلافى باعتذارها عندما أحاطت بها الحجة وقهرها الدليل، ولكنها أحست أنها في ورطة فهربت من المناظرة[1].

وقد سبق في الباب الأول من هذا الكتاب إثبات خطورة التخلي عن الدين، والبعد عن القيم على الإنسان جميعًا، فالفرد والأسرة والمجتمع والمنظومة البشرية جميعًا لا يمكن استقرارها النفسي والاجتماعي، ولا انتظام أمرها إلا بالصلة بالله تعالى التي هي إخلاص الدين له، والدينونة له بأنه هو الرب المدبر لكل شيء، وأنه له الطاعة المطلقة، وكذلك الدينونة له بالعبودية المطلقة من قبل العباد، واستمداد حل كل مشكلة منه، وفيما تقدم ذكره ما يغني عن التكرار.

ولا ريب؛ أنّ مفتاح حل هذه المشكلات جميعًا، هو الإيمان برسالات الله تعالى الهادية إلى الحق المجيبة على كل تساؤل الحافزة إلى استقامة الظاهر والباطن، الواصلة بين المسير والمصير وبين العمل والجزاء، وبين الدنيا والآخرة.

---

(١) ينظر؛ د. هيثم طلعت: مناظرة الملحدين، ص ٢٠٣ ـ ٢١٩.

ومع ثبوت أنّ الملك لله تعالى الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، فإنّ الله تعالى يستحيل عليه أن يهمل خلقه، فلا يبصرهم بمعاشهم ومعادهم، وقد أدركت مما تقدم أنّ العقل البشري وحده غير كاف لتبصير الناس بسبب ما يعتريه من المؤثرات الكثيرة، فلذلك كان بحاجة إلى مدد من وحي الله تعالى يبصر من العمى، وينقذ من الردى، ويبوئ كل شيء مكانه، ولم يكن الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته إلى خلقه إلا نموذجًا بشريًا متميزًا بمكارم الأخلاق، متفردًا بمحاسن الطباع، فالأمر كما قيل: (إنّ الرسول عنوان المرسل)، فلذلك كانوا متميزين بملكاتهم الفذة وعقولهم النيرة وبيانهم الباهر، وفضائلهم المدهشة، وفواضلهم الغامرة، يجتذبون القلوب إليهم بما أوتوه من محاسن السجايا وعظائم الأخلاق، فضلًا عن حجتهم البالغة وبيانهم المقنع، وبجانب هذا كله قرن الله سبحانه دعواتهم بمعجزات لا تدع للناس مجالًا للإعراض عنهم إلا بالعناد والمكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وليس المجال الآن متسعًا لبحث هذه المعجزات، فإنّ لذلك مجالًا آخر، وطالما اعتنى بها المعتنون بحثًا وتمحيصًا، وبإمكان كل مستفيد أن يرجع إلى ما دونوه.

وعندما يتحقق صدق الرسالات لا يبقى مجال لإنكار شيء مما جاءت به من الحقائق الغيبية، إذ تلك الحقائق جميعًا لا تنبو عنها العقول، ولكل غائب منها شاهد من عالم الشهادة يدل عليه، وإنّ أعظم حقيقة وأهم كلية إيمانية بعد الإيمان بالله تعالى الإيمان باليوم الآخر، الذي كذب به الملحدون واستبعده الذين هم في ضلالهم يعمهون، وقد رأيت فيما مضى كيف رد الله سبحانه شبهة هؤلاء في إنكارهم النشأة الثانية بعد أن تنطوي هذه النشأة التي نحن فيها، فيما جاءت به خاتمة سورة يس؛ من البراهين الساطعة الشاهدة بأنّ

الجدل في اليوم الآخر إنما هو نتيجة ضيق الأفق، وإظلام الفكر، والحيرة في الحياة، وهو مما تكرر كثيرًا في القرآن كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

وقد أقام الله الحجة على عباده، بأنّ الذي خلق الإنسان من التراب، ودرجه بعد ذلك في مدارج التطور حتى وصل إلى الأوج الذي انتهى إليه، وكان بهذا القدر من العقل والإدراك والفكر، وما أوتيه من الخصائص، وما طبع عليه من المزايا هو قادر على أن ينشئه نشأة أخرى عندما يشاء ذلك، إذ ليست النشأة الثانية بأصعب من الأولى، وكل ذلك هين عند الله، لأنه تعالى على كل شيء قدير.

وكم تكرر هذا الاحتجاج في القرآن الكريم ليقرع مسامع الكفرة المعاندين، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢]، ومثل ذلك قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨ ـ ٩٩]، فالذي خلق هذا الكون كله من عدم

ـ وأبدعه بهذه الصورة، فجعله وحدة واحدة مع اختلاف مُكَوِّنَاته وتفاوتها، وتنافر طبائعها، فاتحد في اختلافه، وانتظم في تنافره، وتناسق في تنوعه ـ هو قادر على أن يعيد الإنسان من عدمه، ويهبه الحياة كما وهبه إياها أول مرة.

فقضية البعث في ذاتها لا تحتمل الجدل، ولا تتسع للمماحكة، ولا مكان فيها للشكوك، لأن البعث لم يكن أمرًا تلقائيًا يحدث من نفسه، وإنما هو أثر لإرادة عزيز حكيم، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يحتاج في أمره وتصريفه إلى أن يتخذ الأسباب وسيلة للوصول إلى ما يريده، فالأسباب والمسببات تجري جميعًا وفق إرادته النافذة، وكما تقتضيه حكمته البالغة.

وكم بين يدي الإنسان من آيات بينات تستأصل شأفة عناده وتقطع أسباب شكوكه، حسبه أن ينظر إلى خلق نفسه، وما طواه من مراحل، وهو في أعماق الرحم بعد طيه العديد من المراحل وتقلبه بين العديد من الأطوار؛ إلى أن وصل به السير إلى حده فاستقر في ذلك القرار المكين، ليبدأ ثم رحلة جديدة في ظلمات الغيب، هنالك إلى أن يصل إلى حده؛ ليغادر ذلك القرار إلى قرار أرحب ومجال أوسع للحركة والنشاط، وهناك يبدأ مرة أخرى في طي المراحل ليتنقل بين الضعف والقوة، وليتحول من الطفولة إلى اليفاع والشباب، ثم إلى الكهولة والشيخوخة، فيبدأ في الانتكاس بعد صعوده إلى أرقى درجات التطور.

فالذي استخلصه من جماد ميت ـ فأعده للنمو والتطور، حتى انتهى إلى ما وصل إليه ـ لا يعجزه بحال أن ينشره بعدما طواه، ويمنحه الحياة من جديد، حيث يجني ثمار ما قدمه في حياته الأولى من خير أو شر، وأنى يعجز منشئه أول مرة أن ينشئه مرة أخرى، وهو لم يعجز عن إنشائه من عدم مطلق؟!.

فحسب الإنسان هذه آية تبصره بهذه الحقيقة إن عزبت عنه أو التبست عليه، فضلًا عما يفتح عليه عينه ويبصره من مشاهد هذا الوجود، الذي هو بأسره خرج من العدم المطلق وتدرج في أطوار الخلق حتى وصل إلى ما انتهى إليه، ولا يزال يتدرج، ويستجد فيه في كل لحظة من المستجدات ما لا يحصى له عدد، ولا يأتي عليه الحصر.

وهذا ما تفيده الآيات المؤكدة للبعث جميعًا؛ وقد عرج الأستاذ الشهيد سيد قطب على هذه الحقائق داعمًا لها بما يؤكده منطق العقل، وتقتضيه سنة الحياة، ففي آيات الحج يقول: «إنّ البعث إعادة لحياة كانت، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة. وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب. فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم، ومنطقهم، وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم كل لحظة، ويمر بهم في كل برهة؛ وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة، والقلب المفتوح، والحس المدرك. ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه.

فما هؤلاء الناس؟ ما هم؟ من أين جاءوا؟ وكيف كانوا؟ وفي أي الأطوار مروا؟ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، والإنسان ابن هذه الأرض. ومن ترابها نشأ، ومن ترابها تكوّن، ومن ترابها عاش. وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمة الأرض. اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه؛ وبه افترق عن عناصر ذلك التراب. ولكنه أصلًا من التراب عنصرًا وهيكلًا وغذاء. وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب.

ولكن أين التراب وأين الإنسان؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخلق السوي المركب، الفاعل المستجيب، المؤثر المتأثر، الذي يضع

قدميه على الأرض ويرف بقلبه إلى السماء؛ ويخلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب.. إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنشأت ذلك الخلق من تراب!.

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج: ٥].

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية، مسافة هائلة، تضمر في طياتها السر الأعظم ـ سر الحياة ـ، السر الذي لم يعرف البشر عنه شيئًا يذكر، بعد ملايين الملايين من السنين، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية في كل لحظة من لحظات تلك الملايين، والذي لا سبيل إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه، مهما طمح الإنسان، وتعلق بأهداب المحال!

ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقة، وتحول العلقة إلى مضغة، وتحول المضغة إلى إنسان! فما تلك النطفة؟ إنها ماء الرجل، والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألوف الحيوانات المنوية، وحيوان واحد منها هو الذي يلقح البويضة من ماء المرأة في الرحم، ويتحد بها فتعلق في جدار الرحم.

وفي هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوي، في هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم بقدرة القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه، في هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل: صفاته الجسدية، وسماته من طول وقصر، وضخامة وضآلة، وقبح ووسامة، وآفة وصحة... كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية: من ميول ونزعات، وطباع واتجاهات، وانحرافات واستعدادات...

فمن يتصور أو يصدق أنّ ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان المعقد المركب، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر، فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان؟!.

ومن العلقة إلى المضغة، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلًا. ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدرًا لها التمام.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فهنا محطة بين المضغة والطفل، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ لنبين لكم دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة. وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن.

ثم يمضي السياق مع أطوار الجنين: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير!

إنها في الزمان تعادل في العادة تسعة أشهر. ولكنها أبعد من ذلك جدًّا في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل، النطفة التي لا ترى بالعين المجردة، وهذا المخلوق البشري المعقد المركب، ذو الأعضاء والجوارح، والسمات والملامح، والصفات والاستعدادات، والميول والنزعات.

إلا أنها المسافة التي لا يعبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعًا أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات، ثم يمضي السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور، ويفارق المكمن الذي تمت فيه تلك الخوارق الضخام، في خفية عن الأنظار!.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ فتستوفوا نموكم العضلي، ونموكم العقلي، ونموكم النفسي.. وكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات في المميزات أبعد من مسافات الزمان! ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التي أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد، وكل الاستعدادات الكامنة التي تتبدى فيه وتتكشف في أوانها، كما أودعت النقطة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل، وهي ماء مهين!.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي، وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة للتدبر ما تزال، فبعد العلم، وبعد الرشد، وبعد الوعي، وبعد الاكتمال إذا هو يرتد طفلًا، طفلًا في عواطفه وانفعالاته، طفلًا في وعيه ومعلوماته، طفلًا في تقديره وتدبيره، طفلًا أقل شيء يرضيه وأقل شيء يبكيه، طفلًا في حافظته فلا تمسك شيئًا، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئًا، طفلًا في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتي على آخرها: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتطاول، وجادل في الله وصفاته بالباطل!.

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، والهمود درجة بين الحياة والموت، وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء.

فإذا نزل عليها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها

الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون، وتنتفض بعد الهمود؟.

وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعًا، فيسلكهم في آية واحدة من آياته. وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة. وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك. في الأرض والنبات والحيوان والإنسان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦ ـ ٧]، ذلك.. أي إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين في مراحل تكونه، وتطور الطفل في مراحل حياته، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود، ذلك متعلق بأنّ الله هو الخالق، فهو من السنن المطردة التي تنشأ من أنّ خالقها هو الحق الذي لا تختل سننه ولا تتخلف، وأنّ اتجاه الحياة هذا الاتجاه في هذه الأطوار ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها. فهناك ارتباط وثيق بين أنّ الله هو الحق، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذي لا يحيد. ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فإحياء الموتى هو إعادة للحياة. والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء، فهذا البعث تقتضيه حكمه الخلق والتدبير.

وإنّ هذه الأطوار التي يمر بها الجنين، يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أنّ الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال. إذ إنّ الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان.

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة.. فهي تدل على البعث من ناحية أنّ القادر على الإنشـــاء قادر على الإعادة، وهـــي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة.. وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر الذي ليس في وجوده جدال..»[1].

ومثل ذلك ما استوحاه من خاتمة ســـورة يس التي تقطع جدل المنكرين للبعث بما يـــدل على أنّ الخالـــق العظيم الذي أوجد الإنســـان، وأوجد هذا الكون بأسره وما اشتمل عليه في تضاعيفه، من كائنات تتجاوز كل ما يتصور من إحصاء المخلوقين، فقد قال في ذلك:

«﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يـــس: ٧٧].. فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب؟ إنها نقطة من ماء مهين، لا قوام ولا قيمة! نقطة من ماء تحوي ألـــوف الخلايا... خلية واحدة من هذه الألـــوف هي التي تصيـــر جنينًا. ثـــم تصير هذا الإنســـان الذي يجـــادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل!

والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين. وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور؟.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

يا للبساطة! ويا لمنطق الفطرة! ومنطق الواقع القريب المنظور!.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، سورة الحج (الآيات ١ ـ ٢٤)، ٤/٢٤٠٩ ـ ٢٤١١.

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنسانًا، وجعله خصيمًا مبينًا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقًا حيًا جديدًا؟، إنّ الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال. فما بال الجدل الطويل؟!، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].. ثم يزيدهم إيضاحًا لطبيعة القدرة الخالقة، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]..

والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة! العجيبة التي يمرون عليها غافلين، عجيبة أنّ هذا الشجر الأخضر الريان بالماء، يحتك بعضه ببعض فيولد نارًا؛ ثم يصير هو وقود النار بعد اللدونة والاخضرار، والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة؛ والتي تولد النار عند الاحتكاك، كما تولد النار عند الاحتراق.. هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزًا في الحس ووضوحًا، والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي»[1].

والأستاذ عندما يجلي هذه الحقائق؛ إنما يستلهمها من آيات الله تعالى التي تقيم الحجة على عباده بإيقاظ مشاعرهم النائمة، وتنبيه أحاسيسهم الغافلة عن مشاهد الوجود الدالة على أنّ الذي أنشأ الخلق من لا شيء، فأخرجه من العدم إلى الوجود، وأبدع تصويره وتنظيمه، فجعل هذا الوجود

---

(١) المرجع السابق، سورة يس (الآيات ٦٩ ـ ٨٣)، ٥/٢٩٧٧.

كله بأبعاده المترامية وحدة واحدة لا يعجزه أن ينشره مرة أخرى بعدما يطويه كطي السجل للكتب، تحقيقًا لوعده أنه كما بدأ أول خلق يعيده، إذ ليس هنالك في مقاييس العلم والعقل ما يمنع من ذلك بحال، فإنّ الشواهد كلها تؤكد قدرة الله تعالى المطلقة، ونفاذ أمره متى أراد شيئًا.

وكان الأستاذ موفقًا في إبراز هذه الحقائق، ولكن مع إعجابنا الشديد بهذا التصوير البليغ لها، وهذه الترجمة الدقيقة لتفاصيلها؛ نتمنى لو كان الأستاذ كان أكثر دقة، وأوسع احتياطًا عندما يتحدث عن الله ﷻ وعن صفاته العظيمة، فكم كنا نتمنى أن يتفادى إضافة الطبيعة إلى الذات الإلهية أو صفاتها المقدسة، كما في قوله فيما مضى: «ثم يزيدهم إيضاحًا لطبيعة القدرة الخالقة»، فإنّ القدرة الإلهية كذاته سبحانه هي أجل من أن يشتمل عليها وصف **الطبيعة**، فإنّ الطبيعة هي الجبلة وهي فعيلة بمعنى مفعولة، فعندما يوصف أي شيء بـ (الطبيعة) فإنّ ذلك لا يكون إلا بمعنى خلقه، إذ المطبوع لا بد له من طابع، والله سبحانه هو الذي طبع الكائنات بحسب ما أراد أن تكون عليه، ولا يمكن أن يكون هو مثلها، فإنه لو كان في ذاته أو في صفاته مطبوعًا على شيء فإما أن يكون طبع نفسه بنفسه على أمر لم يكن متصفًا به من قبل، وذلك عين المحال، إذ صفاته تعالى لا تتبدل، وكمالاته لا تتحول، وإما أن يكون طبع من قبل غيره، وذلك أشد استحالة، إذ لم يكن لغيره تعالى سلطان ولا أثر عليه، وإلا لكان ذلك الغير هو أحق بالألوهية والربوبية منه لنفاذ إرادته فيه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والألفاظ قبل إطلاقها على الله يجب النظر فيها وفي دلالتها اللغوية، وقد دلت اللغة العربية، على أنّ الطبيعة بمعنى الخليقة والسجية والجبلة، ففي **اللسان** ما نصه: «والطبيعة: الخليقة والسجية التي جُبل عليها الإنسان»[1].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (طبع)، ٨٦/٩.

وهي دالة على الصنع سواء أسندت إلى الله تعالى أو أسندت إلى الخلق، كما قال إمام العربية الخليل بن أحمد: «وفلان مطبوع على خلق سيء، وعلى خلق كريم، والطبّاع: الذي يأخذ فيطبعها، يقرضها أو يسوّيها، فيطبع منها سيفًا أو سكينًا، ونحوه، طبعت السيف طبعًا، وصنعته: الطباعة، وما جُعل في الإنسان من طِباع المأكل والمشرب وغيره من الأطبعة التي طُبع عليها، والطبيعة الاسم بمنزلة السجية والخليقة ونحوه، والطبع: الختم على الشيء، وقال الحسن: إنّ بين الله وبين العبد حدًا إذا بلغه طُبع على قلبه، فوفق بعده للخير، والطابع: الخاتم، وطبع الله الخلق: خلقهم»[1].

لأجل هذا كله يجب التنزيه المطلق لله تعالى وصفاته عن مثل هذه العبارات لما تدل عليه من أنه يجري عليه ما يجري على مخلوقاته تعالى الله عن ذلك.

وإنا لنهيب بالكتّاب المسلمين أن يحترزوا في تعبيرهم عندما يذكرون الله تعالى عن كل ما يشي بما ينافي كمال قدسه.

هذا؛ وبما تبيّن لك ـ أيها القارئ الكريم ـ في هذا الفصل من هذه البراهين يتلاشى بين يديك كل ما يتشبث به الملحدون مما يلبسون به على حقائق الغيوب التي أمرنا أن نؤمن بها، وهم يجادلون فيها مستهدفين العقول المتزلزلة من أجل تشكيكها فيها، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨ ـ ١٠].

---

(١) الخليل بن أحمد: العين، باب العين والطاء والباء معهما، ٢٣/٢.



خاتـمة الكتـاب

بعد هذه الجولة التي طالت بنا ـ أخي القـارئ الكريم ـ بين هذه الربوع ـ التي أطلت علينـا في ثناياها هـذه الحقائـق بأدلتها القاطعـة، وبراهينها الساطعة، الدامغة لشـبه الأباطيل، الماحقة بقوة اليقين لما يعتري سلاك هذا المنهج القويم، من محاولات الزيغ بهم عن سـواء الرشد إلى متاهات الغي والضـلال ـ آن الأوان لنلقي عصى الترحـال بعدما أضنانا السـفر وأطلحنا الإدلاج آناء الليل وأطراف النهار، في هذا السفر المبارك الميمون، ولكن قبل أن نمسـك أعنة ركائبنا لا بد لنا من أن نستجمع خلاصة ما استفدناه في هذه الرحلة، وأن نستنتج من ذلك ما يبصرنا بالمنهج السديد في التعامل مع هذه القضايا المطروحة.

فقد وضحت الحقيقة لذي عينين، وتبيّن ما يهدد هـذا العالم من موجات الإلحاد المدمرة التي لا تبقي ولا تذر، وانكشـف لكل راءٍ ما يستهدفه الإلحاد من الإنسـانية في إيمانهـا وعقيدتها وحريتهـا وكرامتها، وأنـه بجميع صوره وبمختلف شـعاراته نار حمراء مضطرمة، تأتي على الأخضر واليابس، وتجتاح الطارف والتليد، وتهلك الحرث والنسل، ولو لم يكن من ضرامها إلا ما قاسته البشرية من ويلات الشـيوعية لكان وحده كافيًا لأن يكون حافزًا لجميع الناس

على اختلاف أحوالهم؛ بأن يأخذوا العدة وأن يجندوا جميعًا قواهم لمواجهة هذا الخطر الداهم؛ الذي يهدد الإنسانية بأسرها، ويبتز منها أعز ما تملك في حياتها، إذ الملحد لا يثنيه شيء عن الشرّ وتدمير الإنسانية، لا فرق في ذلك بين أن يكون إلحاده شيوعيا أو غيره، وقد تبين من الشواهد المتقدمة كيف كانت مقاساة الإنسانية من شرور الملحدين، سواء كانوا شيوعيين أو غير شيوعيين.

وتبيّن من كل ما تقدم أنّ الإلحاد هو الإلحاد، لا فرق فيه بين أن يأتي بوجه مكشوف أو أن يكون متواريًا وراء برقع خادع نسجت خيوطه من شعار آخر لامع براق، كالعلمانية أو العقلانية أو الحداثة، فإنّ العبرة بالحقيقة لا بالشعار، والحكم على المضمون لا على الشكل.

واتضح من الدراسات السابقة أنّ هذا الشر المستطير لا يمكن أن يقابل إلا بضده وهو الإيمان، كما وضح أنّ الدين ـ الذي هو بجميع صوره هدف للإلحاد، يسعى إلى تقويضه، ومسح آثاره ـ هو مطلب فطري للإنسان، فما من أحد إلا ويشعر بخواء روحي وفراغ فكري إن لم يكن مؤمنًا بعقيدة الدين، ولهذا كان الدين في كل الأمم الغابرين إرثًا حضاريًا، وكانت آثاره قائمة في مشاهدهم التأريخية، هذا بغض النظر عن كون ما يدينون به هو دين الحق، أو أنهم جانفوه إلى أهواء غلبت عليهم، فعولوا عليها في ابتكار الدين الذي اعتنقوه.

وتأكد من الدراسات المعاصرة ما يؤكد ما ثبت بالشرع الحنيف أنّ أصل الدين فطرة ربانية يولد عليها الإنسان، حتى يقع عليه الانحراف، إما من آثار تربية والديه، وإما من آثار ما يواجهه في حياته من دعوات الانحراف التي تأتيه من شياطين الإنس والجن، فيضل بعد هداه، ويرتكس بعد استقامته.

واتضح مما تقدم أن أمر الدين في حقيقته لا يمكن أن يعود إلى ما يختاره الناس لأنفسهم من الاعتقاد أو الممارسات، إذ الدين لا يخضع للعقول، التي تعجز عن اكتناه الحقائق وإدراك بواطنها كظواهرها، وغاياتها كمبادئها، وهي مع

ذلك عرضة للتقلب والتحول بما يطرأ عليها من التأثير من المحيط البيئي، أو من أهواء النفوس، وإنما الدين الحق يجب أن يكون مستوحى من عند الله تعالى الذي أحاط بكل شـــيء علمًا، ولا تخفى عليه حقيقة باطنة أو ظاهرة، ويحيط بالغيوب كما يحيط بالشـــهادة، ويدرك الغايات كما يدرك مبادئها، ويعلم من جميع خلقه ما يصلحهم وما يفسدهم، كما يعلم كيف تنتظم حركات الناس الكسبية الاختيارية مع حركاتهم الفطرية الاضطرارية، وكيف تنسجم حياة الإنسان مع طبيعة المنظومة الكونية، وكيف يرتبط المسير بالمصير، والدنيا بالآخرة، والعمل بالجزاء.

وهذا؛ ما لا يمكن أن يتوصل إليه المخلوقون ولو أوتوا من مواهب العقل وملكات الإدراك ما كانوا به ســـامين على غيرهم من الخلق، فلأجل هذا لم يكل الله تعالى الناس في أمر الدين إلى عقولهم القاصرة ونزعاتهم المضطربة ورغباتهم المتقلبة، وإنما جعله تشـــريعًا ربانيًا نزل به أمناؤه في السماء على أمنائه في الأرض، وأقام بما أنـــزل حجته على الناس، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد جـــاء الدين في رســـالات الله جميعًا بعيدًا عن النشـــاز والاضطراب سليمًا من التناقض والاختلاف، متحدة أصوله متعددة فروعه، ليشمل مطالب الناس وحاجاتهم، ولِيَصْلُحَ لعلاج فســـادهم وحل مشـــكلاتهم على اختلاف أزمانهم وظروفهم وبيئاتهم، فلم يكن في رسالات الله تعالى تفاوت في الدين، إذ لم تتفاوت العقائد، ولـــم تكن العبادة إلا لله تعالى وحـــده، وإنما تفاوتت الشرائع بحسب اختلاف الملابسات والأحوال، وهو ما نص عليه في القرآن في أكثر من موضع كما سبق بيانه.

ولم يكن فـــي الدين اختيـــار لأحد بين القبـــول والرفـــض، وإنما الكل مطالبون بأن يؤمنوا بـــه ويتبعوه، ومن أعرض عن ذلـــك فإعراضه يعود عليه بالوبال، فإنه يبوء بسوء العاقبة في الدنيا وفي الآخرة.

وقد وضح للناس ما لانحسار الدين وفقدان الإيمان من أثر خطير على حياتهم؛ إذ كيف أدى ذلك إلى فقدان التوازن، واضطراب الأحوال، وفساد الأخلاق، وانقلاب الموازين، واشتعال الفتن، وشيوع الخوف، وموت الضمير، وانقطاع العلاقات بين الناس، وتأجج الأحقاد والعداوات بينهم، وعدم التفاتهم إلى قيمة للإنسانية، أو إقامة أي اعتبار للعدل والإنصاف بين الناس، وهذا يعني ضرورة أن يعود سلطان الدين إلى الناس، وأن يكون هو معتصمهم في الشدائد، وملاذهم من الشقاق والخلاف بينهم، ومرجعهم في حل مشكلاتهم الفلسفية والأدبية والأخلاقية والتشريعية.

وتأكد بالأدلة القاطعة أنه لا سبيل إلى الاطلاع على الغيب المغيب إلا بوحي الله تعالى وأنّ الوحي هو مصدر الإيمان، والقائد إلى الرشد وإلى مكارم الأخلاق، وأنه في حال الاستهداء به فيما يتعلق بالحقائق الغيبية لا بد من الجمع بينه وبين مدارك العقل السليم، من أجل الاستبصار في فهم غوامض الوحي، فكل منهما مكمل للآخر، وهذا يعني أنّ الحياة لا يستقيم أودها، ولا يقوم معوجها، إلا بالجمع بين هداية الشرع المسموع ودلالة العقل المطبوع، إذ لا يمكن أن يستغنى عن أحدهما ويكتفى بالآخر.

وبناء على ذلك فإنّه يتعذر التوصل إلى الإيمان الصحيح إن أهمل أحدهما فحقائق الغيوب خاطب الله بها العقول السليمة، وبيّن أنّ ما أنزله إنما هو هدى لأولي الألباب، ولا يمكن التوصل إلى تقديس الله تعالى وتنزيهه وأن يقدر حق قدره إلا ببينة من الشرع والعقل معًا، ومهما يكن من سلطان العقل فإنه يجب أن يؤطر في إطاره المحدود، فلا يتجاوز حدوده في استلهام حقائق الغيوب، وقد جاء الشرع مكملًا له ومرشدًا.

وقد تبيّن مما سبق شرحه أنّ الإيمان بالله واليوم الآخر هو صمام الأمان، وأصل الإيمان به تتهذب الأخلاق، وتزكو الطباع، وتسمو النفس، وتتقدس

السرائر، وتزدان الظواهر، لأنه الإيمان بالمبدأ والمعاد، ومع كون العقل هاديًا إلى الإيمان بالله فإنّ الشرع جاء لترسيخ ما دل عليه العقل وتنقيته مما عسى أن يلابسه من وساوس النفس، ونزغات الشيطان، وكلاهما شاهد ودليل على أنه تعالى ليس كمثله شيء وهو الغني عن كل شيء، وكل ما سواه مفتقر إليه، وأنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل، وأنه وحده الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وبيده الأمر في الآخرة والأولى.

ومع كون الإيمان باليوم الآخر أثرًا من آثار الشرع المسموع، فإنّ العقل المطبوع داعم ومعزز لما جاء به الشرع في ذلك، ولذلك احتج الله تعالى على منكري ذلك اليوم بما تبصر به العقول السليمة، وتدل عليه من الحق في ذلك.

وقد جاء الشرع الحنيف مبصرًا بما يدل عليه العقل السليم؛ من كونه تعالى لم يفتقر في خلقه الخلق ـ وإخراج الكون من العدم إلى الوجود ـ إلى محاولة ومزاولة، أو إلى أسباب ووسائل، فإنّ الأسباب والمسببات هي منه تعالى وحده، وقد خلق الإنسان ليكرمه ويجعله خليفة في الأرض، وقطبًا تدور عليه رحى الوجود، فلذلك سخر له ما في السماوات وما في الأرض، وناط به من التكاليف ما لم ينط بأي كائن آخر، وشرفه بأن جعل من جنسه رسله في الأرض، الذين اختارهم الله تعالى لأن يكونوا أوعية لنوره، ومعالم لهداه، وأن يكونوا قدوة لعباده في الخير.

وعليه؛ فالإنسان بهذا جنس مكرم من بين أجناس الخلق، وهو وإن كان يتفق مع الكائنات الحية الأخرى الموجودة على الأرض في كونه خلق مثلها من التراب؛ إلا أنه خلقه متميز على خلقها في المظهر والمخبر، ومستقل عن خلقها، كما دلت على ذلك نصوص الوحي، وأكدته حقائق العلم، وما القول إنه نتيجة لتطورها إلا وهْم تدفعه نصوص الوحي، وتفضحه حقائق العلم، كما سبق ذلك كله مشروحًا.

وقد قامت الشواهد العلمية من أقل ما خلق الله تعالى في الإنسان أو الكائنات الحية الأخرى أو أصناف الوجود في هذا الكون على ثبوت وجود الله تعالى، واتصافه سبحانه بجميع الكمالات، وتنزهه عن جميع النقائص، وانفراده بالخلق والأمر، إذ ما من خلية في جسم الإنسان أو في أجسام الكائنات الأخرى أو ذرة في هذا الوجود إلا وهي مكتبة حافلة بآيات الله تعالى البينات، التي تترجمها كلماته المرقومة فيها، بما تعجز جميع لغات البشر، وجميع وسائلهم عن ترجمتهما وتفسيرهما ـ ولو تظاهروا على ذلك منذ بداية وجودهم على الأرض وإلى أن يطوى هذا الوجود مع امتداد الحياة أضعافًا مضاعفة عما قدر لها، وتضاعف جميع الوسائل إلى حد يخرج عن جميع مدارك العقول ـ فإنها لا يمكن أن تصل إلى شيء من شرح هذه المعلومات العظيمة، كيفما كانت الوسائل التي تتاح لهم، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وقد قامت من هذا أدلة الحق الدالة على الله القاطعة للسان كل جاحد عنيد، سواء من خلق البشر أو خلق الكائنات الحية الأخرى، مما يعوم في البحار أو يطير في الفضاء، أو يدب على الأرض، وكذلك من جميع المنظومة الكونية، بكل ما اشتملت عليه من صنوف آيات الله العظيمة.

وقد بطلت بهذا دعاوى المبطلين؛ أنّ الطفرات الطبيعية الميتة الصماء البكماء هي التي أخرجت هذا الكون من العدم إلى الوجود، وأنه تحقق ذلك بما يزعمونه من الصدفة الباطلة.

ومع انفراد الله تعالى بخلق هذا الوجود هو منفرد بتدبيره وتصريفه، لا دخل لأحد فيه، ولم يكن هذا التصريف بتأثير هذه الطفرات المزعومة، وإنما كان كل شيء منه عن علم وقدر، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ

مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

وما الغفلة عن هذا إلا تجاهل لأبرز الحقائق ظهورًا، وأتمها بيانًا، وتصامم عن كلمات الله تعالى التي تصخ الوجود، وينبعث نداؤها من كل موجود، ونجد أشرس الملاحدة وأعندهم يبدون حيرتهم من هذه الآيات البينات كما سبق بيانه.

لأجل هذا كله فإنه لا بد من استلهام الدروس من كل ما سبق، والوقوف بالمرصاد في وجه الإلحاد العنيد من قبل المؤسسات الشعبية والرسمية، بدءًا من الأسرة والمجتمع كله في مجامعه ومجالسه، وجميع ملتقياته ومنتدياته، وفي دور العبادة، ومرورًا بالمدارس والمؤسسات التربوية من رياض الأطفال، وإلى أعلى مراحل الدراسة.

وهذه الجهود يجب أن تؤطر في عدة أمور:

١ ـ **العناية بالإنسان**: فإنّ الإنسان هو مبعث الخير أو الشر، وموئل الهدى أو الضلال، ومئنة الاستقامة أو الانحراف، لأنه هو الخليفة في الأرض أوجد فيها ليقوم بعمارتها بكلمة الله، ويطبق فيها حكمه تعالى، فإنّ انحرافه عن هذه الوجهة كان سببًا لدمار الأرض وذهاب الخير منها وعموم الشر فيها، وهل كانت مصائب الإنسانية منذ قديم الزمان وما أصاب الأرض من شر ودمار إلا بسبب ما كسبت أيدي الناس؟ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ولأجل هذا كانت هذه العناية في رسالات الله بتوجيه الإنسان إلى سواء الرشد، وبث الخير فيه، ومناط ذلك صلته بالله تعالى بتنوير فكره وإصلاح معتقده، وتقويم سلوكه ليكون نسخة من أمره تعالى في أخذه وعطائه، وقبوله

ورفضه، ومكرهه ومنشطه، وسلمه وحربه، ولأجل هذا أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فإن حجة الحق على الخلق إنما تقوم بما أرسلوا به ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد تعاقبت رسالات الله تعالى بما فيه خير الإنسانية، وخير الأرض، وصلاح الكون، وهي جميعًا ترتكز على الإيمان الحق بالله ﷻ كما نص الله تعالى على ذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا يعني أنّ كل خير للجنس البشري، وصلاح في الأرض وانسجام في الكون موقوف على إيمان الإنسان بالله، فلأجل هذا كانت ضرورة ترسيخ هذا الإيمان، وتربيته في النفوس، وتقويته بدعائم العلم، ونفي اللبس عنه بإشراق البراهين، وذلك إنما يتحقق بالعناية بالإنسان في جميع مراحل الحياة كما نبسطه إن شاء الله فيما يأتي.

أ ـ **حسن تربية الأطفال**: وهو أمر منوط أولًا بآبائهم وأمهاتهم، فإنهم مسئولون عنهم، لأنهم أعز من يرعون، وأغلى ما يحافظون عليه وحسن تربيتهم موقوفة أولًا على استقامتهم بأنفسهم، حتى يكون كل من الأب والأم منهجًا تربويًا متكاملًا، عقيدة وسلوكًا، وعبادة وخلقًا، وقولًا وعملًا، وأن يحرصوا دائمًا على تعظيم أمر الله، ورد كل شيء إليه، والاحتكام في كل دقيقة وجليلة إلى شرعه، والغيرة على حرماته، والغضب والرضى من أجله.

ولا يخفى أنّ الأولاد هم زهرة الحياة، وثمار الأعمار، وبهم يكون امتداد حياة آبائهم وأمهاتهم من بعدهم، فلذلك كانوا من كسبهم، ولا يكاد الإنسان يؤثر حياة أحد على حياته إلا حياة ولده، فلذلك ينزعج كل إنسان بكل ما يؤذي ولده ولو كان أقل ما يتصور، كما قال الشاعر:

وإنـــمـــا أولادُنـــا بـيـنـنـــا أكبادُنا تمشـي علـى الأرض
لو هـبت الريـــح على بعضهم لامتنعـــت عيني عـــن الغمض

وإذا كان الوالد يزعجه في أولاده هبُوب الريح على بعضهم، فإنه أحرى بأن يزعجه انحرافهم عن الحق، وخروجهم عن طاعة الله لما يؤدي إليه ذلك من الشقاء الأبدي والعياذ بالله.

وإذا كان هذا في مطلق الانحراف والعصيان، فما بالك بالإلحاد والمجاهرة بجحود واجـــب الوجود، أو جحـــود ما حتم علينا الإيمان بـــه؟! فإنّ ذلك هو الخسران المبين، إذ به يخسر الإنسان نفســـه، فلأجل ذلك كان من أهم ركائز التربية الســـليمة للأطفال تنشـــئتهم على الإيمان، وترويضهم على الطاعات، وتعويدهم مكارم الأخلاق، ووصلهم بالله ﷻ في كل ما يعرض لهم.

ويأتي بعد ذلك دور المدرسة وهو يبدأ من المراحل الأولى للدراسة في رياض الأطفال، ويســـتمر ذلك إلى آخر مراحل التعليم، وهذا يعني أنه يجب انتقاء المدرسين الصالحين لتنشئة جيل المستقبل والمحافظة على أعظم ثروة للأمة، وصلاحهم مرهون باستقامتهم القائمة على الإيمان الحق بالله، ومراقبته في الســـر والعلانية، وإيثار طاعته على هوى النفوس، ووزن كل أمر بموازينه القسط، والرضى والغضب له، وابتغاء كل ما يقرب إليه ويوصل إلى رضوانه، واتقاء كل ما يباعد عنه ويؤدي إلى سخطه.

وهذا يعني أن يكون كل مدرس ومدرســـة قدوة للناشئة التي تتربى على أيديهم، وتنشأ تحت رعايتهم وأن يقدروا هذه الأمانة حق قدرها، ويولوها كل اهتمامهم، فإنّ ذلك من حســـن الرعاية التي تجب على كل راع لرعيته، كما قال النبي ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مســـئول عن رعيتـــه، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهى مســـئولة عن رعيتهـــا، والخادم راع في مال ســـيده، وهو**

مسئول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه، وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1]، ومن الواضح بداهة أنّ المدرس راع لتلامذته وهو مسئول عن رعيته، فما كان له أنّ يفرط في هذه المسئولية.

واستقامة التربية لا تكون إلا باستقامة المنهج فيجب أن يكون المنهج التربوي إيمانيًا يغذي العقول ببراهين الإيمان، وينورها بحقائقه، ويصفيها من أكدارها، بطهره وهذا ما يجب أن يستمر في جميع مراحل الدراسة، منذ رياض الأطفال وإلى آخر مرحلة يتلقى فيها الطلاب العلم.

ب ـ **العناية بالمجتمع**: وذلك يعني أن يكون جميع أفراد المجتمع معنيين بانتظام أمورهم، وتنسيق جهودهم لأجل النهوض بمجتمعهم، والرقي به فكرًا واعتقادًا وسلوكًا وأخلاقًا، وعلمًا وعملًا، وهذا يعني أن يكون المجتمع متعاونًا على حسن التربية للناشئة، وعلى المحافظة على جميع أفراده لئلا ينحرف بهم السير، وتزيغ بهم الأهواء، فعلى كل فرد من أفراد المجتمع أن يكون حريصًا على القيام بواجبه، لأنه عليه أن يشعر أنه على ثغرة من الثغرات، يخشى أن يؤتى المجتمع من طريقه إن أهمل.

---

(١) أخرجه من طريق ابن عمر أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٤٤٩٥، ٢٨٣/٤)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (١١) الجمعة، باب (١١) الْجُمُعَةِ فِي الْقُرَى وَالْمُدُنِ، (رقم: ٨٩٣، ص٧٠)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٣٣) الإمارة، باب (٥) فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر، (رقم: ١٨٢٩ [٤٧٢٤]، ص١٠٠٦)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (١٩) الخراج، باب (١) ما يلزم الإمام من حق الرعية، (رقم: ٢٩٢٨، ص١٤٤٢)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٢١) أبواب الجهاد، باب (٢٧) ما جاء في الإمام، (رقم: ١٧٠٥، ص١٨٢٦)، وقال: «حسن صحيح».
ومن طريق عائشة أخرجه الخطيب؛ تاريخ بغداد، ترجمة: محمد بن رجاء النيسابوري، (رقم الترجمة: ٢٧٧١)، (٢٧٦/٥).
ومن طريق أبي موسى أخرجه العقيلي؛ الضعفاء الكبير، ترجمة: إبراهيم بن بشار الرمادي، (رقم الترجمة: ٣٥)، (٤٩/١).

وللمسجد في ذلك دوره الفعال؛ الذي يجب أن يقوم به الإمام وأعوانه وجميع أفراد منظومة جماعته، بحيث يكونون جميعًا متعاونين على الإصلاح والبر والتقوى، وكذلك المنتديات والمجالس وجميع المؤسسات الاجتماعية، وعلى المجتمع كله ذكورًا وإناثًا أن يجعل ذلك هم نفسه وشغل باله، وهدفه في الحياة بحيث يتجسد فيه وصف المؤمنين والمؤمنات في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، وهذا هو ثمن ما وعد الله تعالى به المؤمنين والمؤمنات في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

ج ـ تهيئة جميع الوسائل لأن تكون الأحوال مواتية لإعزاز الحق، وترسيخ الإيمان، وإزهاق الباطل، والقضاء على الكفر والإلحاد، بتنسيق الجهود ومضافرتها من أجل تنوير البصائر، وتزكية النفوس، ليظل الناس جميعًا مستمسكين بالحق حريصين على الرشد معظمين لأمر الله، متقين لحرماته متقززين من كل ضلالة رافضين لكل باطل، لا يبغون بالحق بديلًا، ولا يرضون عنه محيصًا، وهذا مما يتوقف على انتشار الوعي بين الناس، بتعميم مكتبات العلم النافعة، ونشر تسجيلاته التي تصل بين العلم والعمل وتربط بين الدنيا والآخرة، وتعرف الناس بحق المبدئ المعيد، الذي منه مبدؤهم وإليه منقلبهم، وتهيئة الدروس العلمية المفيدة سواء ما كان منها مباشرًا، أو ما كان مختزنًا في أشرطة حافظة.

د ـ دفع جميع الشبه الباطلة، وتقويضها بحجج الحق الدامغة، وبراهين العلم الساطعة، ومواجهة جميع تحديات الباطل بعزيمة لا تعرف الفتور، وهمة لا يعتريها الخمول.

٢ ـ نزول جميع المؤسسات الرسمية التوجيهية والرقابية بقوة إلى الميدان، من أجل الأخذ بيد الإنسان إلى الخير، وتبصيره بالحق، ودعوته إلى اتباعه، وتحذيره من الشر، وتعرية جميع المحاولات الرامية إلى الانحراف به، وإبعاده عن الله، فكرًا أو سلوكًا، قولًا أو عملًا، فإنّ هذه هي ضريبة التمكين في الأرض كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

ولا يخفى أنّ الحكومات إنما تقوى وتضعف برجالها وتحيا أو تموت بأحوالها، وتتقدم أو تتأخر بهممها، وهل قامت عبر التأريخ الدول إلا بالتفاف رجالها وتناصرهم، ولا يوجد ما يجمع الشتات ويؤلف القلوب، ويوحد الصفوف، وينهض بالهمم، ويحيي العزائم كالإيمان والاستقامة، فبهما يقوى الضعيف ويتقدم المتأخر، وينهض الخامل، وقد صدق الفاروق رضي الله عنه عندما قال: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزة بغيره»[1].

ويتمثل قيام الجهات الرسمية بواجبها تجاه الإيمان والحق في هذا بما يلي:

أ ـ تكثيف نشاط الدعوة إلى الله في جميع وسائل الإعلام والثقافة، وفي جميع الفعاليات العامة، والعناية بتعرية الإلحاد، وتصوير مخاطره وشره المستطير، لتكون الأجيال كلها واعية بخطورته وجرائمه التي قام بها عبر التاريخ،

---

(١) أخرجه الحاكم؛ المستدرك، كتاب (١) الإيمان، (رقم: ٢٠٨، ١/١٣٠ ـ ١٣١)، وبلفظ قريب أخرجه ابن ابي شيبة؛ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب (٢٩) التاريخ، باب (١٠) في توجيه عمر إلى الشام، (رقم: ٣٣٨٣٦، ٧/٢٨).

سواء ما كان من المؤسسات الإلحادية الشيوعية من آلياتها العسكرية أو غيرها، وبيان أنّ الإنسان لا قيمة له في دعوات الملحدين وفلسفاتهم، وأنه لا يعدو قدره عندهم قدر الآلة الصماء، التي تنبذ وتباد بعدما تستهلك، وأن آلية الدمار عند الملحدين تأتي حتى على أقطاب الإلحاد أنفسهم، كالنار التي يأكل بعضها بعضًا.

ب ـ تعميم الوعي بخطورة الإلحاد وشروره؛ ببث ذلك في وسائل التربية والتعليم في كل المراحل.

ج ـ إقامة المناظرات العلنية مع دعاة الإلحاد من قبل خبراء؛ دارسين لهذا الأمر، وسابرين لجميع أبعاده، ومطلعين على حقائقه، لأجل فضح الإلحاد الذي يدعون إليه، وكشف خفاياهم التي يحاولون سترها عن الناس.

د ـ وضع رقابة حارسة أمينة على كل ما يقال أو ينشر من قبل جميع الملحدين، ومن يدور في فلكهم، مهما تكن الشعارات التي يرفعونها.

هـ ـ سن القوانين الصارمة القاطعة لألسن جميع الذين يتطاولون على الله، أو على كتبه، أو على رسله، أو على دينه، أو على شريعته، عملا بالأثر المشهور: «إنّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[1]، والأثر القائل: «فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له»[2]، وعملا بالحكمة الأدبية التي قالها الإمام الشاري:

---

(١) ورد هذا الأثر عن عثمان بن عفان عند ابن شبه؛ تاريخ المدينة المنورة، ٩٨٨/٣، وذكره الخطيب عن الفاروق ﷺ ؛ تاريخ بغداد، ١٠٧/٤.

(٢) من قول عمر ﷺ ، ينظر؛ ابن كثير: مسند الفاروق وأقواله على أبواب العلم، (رقم: ٧٦١، ٤٣٦/٢)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: إمام علي إمام، دار الفلاح ـ الفيوم، ط١: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، وأخرجه الدارقطني؛ سنن الدارقطني، كتاب في الأقضية والأحكام، (رقم: ٤٤٢٥، ١٣٢/٤)، وابن عساكر؛ تاريخ دمشق، ترجمة: عبد الله بن قيس بن سليم، (رقم الترجمة: ٣٤٦١)، (٧١/٣٢)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب (٦) لَا يُجِيلُ حُكْمُ الْقَاضِي عَلَى الْمَقْضِيِّ لَهُ، وَالْمَقْضِيِّ عَلَيْهِ وَلَا يَجْعَلُ الْحَلَالَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَرَامًا وَلَا الْحَرَامَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَلَالًا، (رقم: ٢٠٥٣٧، ٢٥٢/١٠).

السيف أمضى من مناجاة الفم ... من صم سمعًا عن عظات الحكم
فالسيف ينفي ما به من صمم ... الدين بالسيف منيع الحرم
الكفر بالسيف عظيم المأثم ... ضرب كأفواه الكلاب الشبم
أنفذ حكمًا من خطاب محكم ... طعن كأيدع المخاض الكوم
أمضى قضيات من التكلم ... ستين شهرًا يا أولي التغشم

و- العناية بالمرأة وتثقيفها فكريا ودينيا حتى تكون أما صالحة تعرف كيف تربي أولادها على الإيمان والتقوى.

وكل ذلك إنما هو مستوحى من القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، وهذا أمر يجب أن تعتني به الأمة الإسلامية بأسرها، وأن تتضافر عليه جهود جميع دولها، وأن يكون في أولويات اهتمام منظمة التعاون الإسلامي، فإنّ الإسلام كله، والمسلمين جميعًا أول ما يستهدف من قبل الإلحاد والملاحدة، وعلى جميع الشعوب المحبة للسلام أن تضافر جهودها مع المسلمين من أجل ذلك، فإنّ جرائم الإلحاد الشيوعي ما سلمت منها أمة من الأمم، وما هي منا ببعيد، ولنا نحن هنا في سلطنة عمان تجربة قاسية معها، وقد دفعت عمان حكومة وشعبًا ضريبة غالية من أجل درء شرها ووقف مدها، فكم من أرواح عمانية وأموال عمانية ذهبت فداء لهذا الوطن الغالي، ودينه وتأريخه، ومكانته السياسية والاجتماعية، وهذا مما يجب أن لا يعزب عن أذهان العمانيين قيادة وشعبًا، وليس إلحاد اليوم بأهون من إلحاد الأمس، فإنّ الإلحاد كله شر ووبال على الإنسانية، بأسرها، وقد أوضح لنا الله تعالى - وهو أصدق القائلين وأعلم بما في ضمائر الناس أجمعين - كيف

تكون عداوة أعـــداء الدين، وما يتربصونه بالمؤمنيـــن، كما في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقولـــه: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢].

وقد أدرك العقلاء ـ من الأمم الأخرى غير المسلمين من زمن سابق ـ أنّ الإلحاد إنما يتحقق النجاح في مقاومته بالتفاف الأمم وراء المســـلمين، لأن أقوى ســـلاح لدحره هو القرآن الكريم الذي خص الله تعالى به المســـلمين، فلست أنسى ذلك الاجتماع الذي دعا إليه الســـيد جورج بيطار رئيس حزب الأغلبية الصامتة من أجل مكافحة الشـــيوعية، فانعقد في فندق البستان بيت مري بجبل لبنان، وحضره لفيف من المفكرين من مختلف أنحاء العالم شرقًا وغربًا، وكان ذلك في أواخر شـــهر صفر ١٣٩٥هـ أواسط شهر مارس ١٩٧٥م، وقد كنت من بين الحضور، وقد شـــدتني كلمة ألقاها باللغة الإنجليزية رجل يوغسلافي الأصل، إلا أنه كان يعيش في بريطانيا لاجئا إليها، هاربًا من جحيم نظام تيتو[1] الشـــيوعي، وبسبب خبرته بأخطار الشـــيوعية الداهمة حضر هذا الاجتمـــاع، وكانت كلمته حافـــزة إلى التصدي للشـــيوعية بكل قـــوة، ومما اشتملت عليه: (أن أحق بقاع الأرض بالتصدي للشيوعية بلاد الشرق الأوسط، لما لها من مزايا فكرية وحضارية وتاريخية، وما بيدها من ســـلاح لمقاومتها لا يوجد عند سائر الأمم، وهو القرآن الكريم الذي هو أقوى ما يدحر كل فكر مخرب ومبدأ هدام).

---

(١) جوزيف بروز تيتو، ٧ مايو ١٨٩٢ ـ ٤ مايو ١٩٨٠، كان ثوريًا عسكريًا ورجل دولة يوغسلافي من أصل كرواتي، شغل العديد من المناصب منذ ١٩٤٣م حتى وفاته.

وقد تولى ترجمة كلمته إلى العربية د. جـورج بيطار الذي كان ـ أيضًا ـ غير مسلم، ولما في كلمته هذه من الإشادة بالقرآن الكريم والتنويه بالإسلام وما فيه من القوة التي تتحطم على صخرتها مبادئ الإلحاد وقع في نفسي أولًا أنه رجل مسلم، ولكن بالسـؤال عنه تبيّن لي أنه لم يكن مسلمًا، وإنما عقله الحصيف وإنصافه للحقيقة جعلاه ينطق بهذه الكلمات الواقعية.

وإذا كان هذا هو الواقع الذي يدركه العقلاء من الناس حتى وإن كانوا من غير أمة القـرآن، فإنّ على أمة القـرآن أولا أن تكتشـف مكانتها بين الأمم، ومنزلتها في هذا العالم، وتعرف ما بيدها من قوة لا تضاهيها قوة، يمكنها به دحر أعدائها، وأن يزيدها هذا تمسكًا بالقرآن وغيرة عليه، واستماتة من أجل الدفاع عنه، واعتزازًا بالانتماء إليه والارتباط به؛ فكرًا وسلوكًا وأخلاقًا وعبادة وشريعة وقولًا وعملًا، وعلى الشـعوب المحبة للسلام المتوجسة من مخاطر الإلحاد أن تمد أيديها إلى المسلمين ليسـتنيروا بما عندهم من الفكر الوقاد، ويهتدوا بما عندهم من النهج القويم، ويسـترفدوا ممـا بأيديهم من الرصيد الثري؛ الذي يتسع للعالم فيحل مشـكلاته ويقوم عوجه، ويضفي عليه الأمن والهدوء والطمأنينة والسلام.

ز ـ عدم السماح بالتحدث باسم الإسلام أو القرآن ـ إلا لمن كان صحيح الاعتقاد مستقيم السلوك، غيورًا على دين الله تعالى نصيرًا للحق، ضليعًا بعلوم القرآن وأحكام الشـريعة، خبيرًا ببراهيـن الحق في الاعتقـاد؛ صونًا للقرآن والإسلام عن تلويثهما برجس المعتقدات الفاسدة، والأفكار الضالة والمناهج المنحرفة ـ حتى يكون دين الله تعالى وكتابه العزيز في حرز ومأمن، مصونين من مؤامرات المتآمريـن، ومن تطاول أيـدي العابثين، فإنّ ديـن الأمة أعز ما تملكه، وأهم ما تدافع عنه، فبه عزت بعد الذلة، واجتمعت بعد الشـتات، واهتدت بعد الضلال، وقويت بعد الضعف، وحَيَّت بعد الموات، واسـتغنت

بعد العيلة، وارتقت بعد الانحطاط، فإنّ استهانت به فقدت كل شيء، وارتكست إلى أسفل حضيض.

وهل ارتقى السلف الصالح ـ حتى تبوأ مكان القيادة بين الأمم وكان له فضل الريادة في العلوم، فانقادت له الأمم، وأسلست له القوى الكبرى قيادها، فأصبحت تأتمر بأمره، وتترسم خطواته، وتأوي إلى ظله، وتستجدي من رفده ـ إلا بتمسكه بالدين، واعتزازه بالله، وإيثار مرضاته على كل شيء، وبهذا انتشر صيتهم في الآفاق، وامتلأت بالإعجاب بهم القلوب، وأَكْبَرَهم قواد العالم، وكانت هيبتهم تزلزل أركان الظلمة المستبدين، وتثل عروشهم، وتدك معاقلهم.

ناهيك بهذه القصة التي ذكرها ابن كثير: «أنّ هرقل سأل رجلًا ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوه حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين»[1].

وروى ابن عساكر بإسناده إلى «من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه من غسان، قال: لما كان المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أنّ دمشق ستحاصر، فقال أحدنا لصاحبه: هل لك أن تدخل المدينة فتتسوق من سوقها قبل حصارها؟ فبينا نحن نتسوق إذ أتانا رسول بطريقها اصطراخيه فذهب بنا إليه، فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية، قلنا: نعم، قال: ليذهب أحدكما إلى هؤلاء فليتجسس لنا من خبرهم ورأيهم، وليتثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا فلبث لبثًا ثم جاءه، فقال: جئتك من عند رجال دقاق، يركبون خيولًا مشاق، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويثقفون القنا، لو حدثت

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٥٠٥/٤.

جليســك حديثًا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، فالتفت إلى أصحابه، فقال: أتاكم منهم مالا طاقة لكم به»[1].

وقد كانت خصالهم هذه تشــد إليهم القلوب، وتلفت إليهم الأنظار، وتطأطئ لهم الرؤس، وتحني لهم الظهــور، وهي بقدر ما كانت مثــار إعجاب لأصحاب الحلوم من جميع الأمم، كانت مثار هيبة وقلق في نفوس المتألهين، فقد أوجفت منهم القلوب، وأسقطت من رؤسهم التيجان، وأرجفت من تحتهم العروش، ومن ذلك ما ذكر أنه عندما كانت جيوش المسلمين تكتسح ممالك فارس ضاق يزدجرد ذرعًا بالهزائم التي سحقت جيشه وشتت ملكه، فكتب إلى إمبراطور الصين طالبًا منه نجدته، ولما وصل رســوله إليه قال له: «قد عرفت أنّ حقًّا على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر منهم قلة وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثــال هؤلاء القليل الذي تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا لخير عندهم وشر فيكم».

قال: «فقلت اســألني عما أحببت، فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلــت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث، إما دينهم فــإنّ أجبناهم أجرونا مجراهــم، أو الجزية والمنعــة أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشــدهم، قــال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته، فقال: أيحرمون ما حلل لهــم أو يحلون ما حرم عليهم؟ قلت: لا، قال: فإنّ هؤلاء القوم لا يهلكون أبدًا، حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم، ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العــراب ووصفتها، فقــال: نعمت الحصون هــذه ووصفت لــه الإبل بركها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق.

---

(١) ابن عســاكر: **تاريخ دمشــق**، باب ما روي من توقع المشــركين لظهور دولة المســلمين، ٩٦/٢ ـ ٩٧، وينظر؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ٩٩/٧.

وكتب معه إلى يزدجرد: أنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلي لهم سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف، فسالمهم وأرض منهم بالسلامة ولا تهيجهم ما لم يهيجوك»[1].

وإذا كانت هذه الخصال هي التي أوقدت العزائم، ونهضت بالهمم في ذلك السلف العظيم، فلم يقف في مده المنتشر في آفاق الأرض، حتى وضع أقدامه على هامات الأكاسرة والقياصرة، ونفضوها على عروشهم، وأوطأوها على تيجانهم، فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهذا يعني أنّ عقلاء الأمم الذين يتطلعون إلى ما عند المسلمين من قوة القرآن، ومدد الإيمان لسحق قوى الإلحاد إنما يتطلعون إلى عودة المسلمين إلى هذا التأريخ المجيد، وسيرهم على نهج سلفهم الصالح، فما كان لأمة القرآن ـ التي ورثت من ذلك السلف العظيم عزائم الإيمان ـ أن تخيب أولئك العقلاء في تطلعاتهم، وإنما عليها أن تصدق ظنونهم، وتُقْدِمَ بمشيئة الله تعالى بعزائم ثابتة، وأقدام راسخة، وقلوب موصولة بالله تعالى، فتتصدى للإلحاد، وتفضح مساوئه، وتكشف مخازيه.

ومع تصديها لشبهات الإلحاد بتعرية سوآتها ومحق رسومها؛ فإنّ عليها أن تعد ـ أيضًا ـ القوة المادية لاستئصال شأفته، وتمزيق شمله، عملًا بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، مع أخذ الحذر الشديد منهم فإنّ الثقة بالله تعالى

---

(١) الكلاعي: **الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، ٣٧٧/٤ ـ ٣٧٨، وينظر: الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ٥٤٩/٢، وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٤٣٦/٢ ـ ٤٣٧، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، والنويري: أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ١٧٥/١٩ ـ ١٧٦، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، وابن كثير: **البداية والنهاية**، ٢٥٦/٧ ـ ٢٥٧.

لا تنافي اليقظة والحذر، فهو سبحانه الذي حض عباده على ذلك عندما قال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، ونحن واثقون أنه مع صدق العزائم وخلوص النوايا، ووصل القلوب بالله تعالى ستتلاشى كل قوة للإلحاد، ولن تبقى له عين ولا أثر، فإنّ هذه هي سنة الله في خلقه، ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وهذا آخر ما يسّر الله ـ سبحانه ـ جمعه وبيانه في هذا السفر؛ الذي أسفر بعون الله وتوفيقه عن حجة الحق الدامغة، المجتثة لشبهات الباطل الداحضة[1]، وقد يسره الله تعالى فقد جمعته في فترة قياسية من الزمن، إذ لم يتعد تأليفه عامًا واحدًا، مع ما فيه من الأشياء المعقدة التي هي بعيدة

---

(١) اعتاد أكثر الناس استعمال فعل دحض متعديًا بمعنى أسقط أو أبطل، وهذه وإن كانت لغة إلا أنها ليست اللغة الفصحى، التي جاء بها القرآن، إذ لم نجد في القرآن دحض إلا بمعنى سقط وبطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، وهو يتعدى بالهمزة كما في قوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، وقد حرصت على أن تكون عباراتي بنفسي منسجمة مع الفصيح من كلام العرب، وأن لا أعدل عما هو معهود في القرآن فيما استعمل فيه، ولكن عندما تأتي عبارات غيري فيما أنقله مخالفة للفصحى المستعملة في القرآن أو للفصيح في كلام العرب، وأنقل كلامه بالنص أورده كما هو، وأدعه على ذمة كاتبه، وقد أعَدِّله أحيانًا حتى ينسجم مع ما هو معهود عند العرب، وهذا يرجع إلى خروج الكُتّاب كثيرًا عما كان معهودًا عند العرب، وقد يتجاوزون كثيرًا الأوزان العربية المعهودة في الأفعال وتصاريفها وفي جمع الأسماء وتصغيرها، وهذا مما يؤسف له كثيرًا، وقد أورث ذلك بُعد الخاصة بله العامة عن التزام الأسلوب العربي في التعبير، والنأي عن لغة القرآن، نسأل الله تعالى ردهم إلى الصواب ردًا جميلًا.

عن ثقافتي الأصلية، فقد شـــرعت في هذا التأليف في شـــهر شعبان عام ١٤٣٩هـ، وانتهيت منه في نفس الشهر من العام الذي بعده، مع أنني كثيرًا ما شغلت عن مواصلة التأليف فيه، ففي فترة شهر رمضان المبارك ١٤٣٩هـ لم أمل حتى حرفًا واحدًا، وكذلك فـــي فترة العيدين، وقد اعترضتني في هذا العام أســـفار وأمراض حالت بيني وبين الاســـتمرار في هذا العمل، ولكن لطف الله تعالى هو الذي يســـره لي، فتمكنت مـــن إنجازه بعد أن خشيت أن يحال بيني وبين ذلك، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، فالحمد لله على نعمه الغامرة إذ لم يكلني إلى ضعفي، وإنما أمدني بقوته، وأحاطني بلطفه، وشملني برعايته، وما كنت لأبلغ من هذا الأمر ولا غيره قصدًا، لولا فضل الله الذي ضاقت بفضله أرجاء الوجود، وغمر بإحسانه كل موجود، فله الحمد تعالـــى حمدًا يوافي نعمه ويكافـــئ مزيده حمدًا لا ينتهي إلى حـــد، ولا يحصى بِعَـــدّ، وإنما هو كما يليـــق بجلال وجه وعظيم سلطانه.

وإليه أرغب، وبفضله أتوسل أن يجعل هذا العمل وسائر أعمالي خالصة لوجهه الكريم، وأن يكتب له النجاح فيفتح به قلوبًا غلفًا، ويبصر بنوره عيونًا عميًا، ويسمع حجته آذانًا صمًا، ويحيي به نفوسًا ميتة، فتهتدي بعد ضلالها، وتعود إليه بعد نفورها، وتستمسك بحبله بعد إفلاته، وإلى الله قصدي، وإلى دينه وجهتي، وعفوه ورضاه بغيتي، أسأله سبحانه أن يستخدمني فيما بقي من عمري في صنوف طاعته، وخدمة دينه وإعزاز الحق الذي جاءت به رســـله، وتضمنته كتبه، وأن يقويني بالحق دائمًا، ويمن علي بالغيرة عليه، والتفاني من أجله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

٨ شعبان ١٤٤٠هـ



المطبعات المعتمدة في مصرع الإلحاد

١ ـ الآجري؛ أبو بكر محمد بن الحسين: الشـريعة، دراسة وتحقيق: عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن ـ الرياض، ط١: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢ ـ أحمد حسـن: **الكل مبتلى.. ولكن، نظرات في الحالـة الإلحادية من الناحية النفسية**، دار مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، الكاتب للنشر والتوزيع، ط٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

٣ ـ د. أحمد مختار عبد الحميد عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب ـ بيروت، ط١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٤ ـ أديب؛ منير: **الإلحاد بيـن أفكار أصحابـه وهجرة أتباعه**، دار مقام للنشـر والتوزيع ـ مصر/الجيزة، ط: ٢٠١٣م.

٥ ـ أرنولد؛ سير توماس: **تراث الإسلام**، عربه وعلق حواشيه: جرجيس فتح الله، منشورات الجمل ـ بيروت، ط١: ٢٠١٢م.

٦ ـ الأزدي، ابن دريد؛ محمد بن الحسـن: **جمهرة اللغة**، حققه وقدم له: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط١: ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٧ ـ الأزهري؛ محمد بن أحمد: **تهذيب اللغة**، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة، (بدون ط).

٨ ـ الإسفرائني، أبو عوانة؛ يعقوب بن إسحاق: **مسند أبي عوانة**، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة ـ بيروت، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٩ ـ إسماعيل أحمد أدهم: **لماذا أنا ملحد**، دار النشر الإلكتروني.

١٠ ـ الأسنوي؛ عبد الرحيم بن الحسن:

- **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**، تحقيق: د. محمد حسن عواد، دار عمار ـ عمّان، ط١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **التمهيد في تخريج الفروع على الأصول**، تحقيق: القدس للدراسات والبحوث، المكتبة الأزهرية للتراث ـ القاهرة، (بدون ط).

١١ ـ الأصبحي، مالك بن أنس: **الموطأ**، رواية يحيى بن يحيى المصمودي، تحقيق وتخريج: محمد الإسكندراني، وأحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٢ ـ الأصبهاني، أبو نعيم؛ أحمد بن عبد الله الشافعي:

- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- **معرفة الصحابة**، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن ـ الرياض، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٣ ـ الأصفهاني، الراغب؛ الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم ـ دمشق، ط٥: ١٤٣٣هـ/٢٠١١م.

١٤ ـ أطفيش؛ أبو إسحاق إبراهيم:

- **الدعاية إلى سبيل المؤمنين**، مكتبة الضامري ـ السيب، ط٣: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- **مجلة المنهاج**، مجلة علمية سياسية اجتماعية نصف شهرية، تصدر بالقاهرة غرة كل شهر عربي، العدد الصادر في غرة محرم ١٣٤٤هـ، المطبعة السلفية ـ مصر.

١٥ ـ اطفيش، قطب الأئمة؛ محمد بن يوسف المصعبي:

- همیان الزاد إلى دار المعاد، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان، ط: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- تيسير التفسير، تحقيق وإخراج: إبراهيم بن محمد طلاي، وزارة التراث والثقافة ـ سلطنة عمان، ط ٢: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

١٦ ـ الألوسي؛ محمود بن عبد الله الحسيني: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، قرأه وصححه: محمد حسين العرب، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٧ ـ أنتوني فلو مع روي إبراهام فارجيس: هناك إله، كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره، تقديم د. محمد العوضي، ترجمة: جنات جمال، رواسخ ـ الكويت، ط ٢: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

١٨ ـ الأندلسي، ابن عبد ربه؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه: العقد الفريد، حققه وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٩ ـ البار؛ محمد علي:

- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة، ط ٤: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- العلمانية جذورها وأصولها، دار القلم ـ دمشق، ط ١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- خلق آدم.. ونظرية التطور، سلالة من طين، مقال نشر على شبكة المعلومات بصيغة PDF.

٢٠ ـ البخاري؛ محمد بن إسماعيل:

- (صحيح البخاري) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط ٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

ـ **الأدب المفرد، بتخريجات وتعليقات: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق/مؤسسة الريان ـ بيروت، ط ٥: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.**

٢١ ـ البخاري، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد: **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**، ضبط وتعليق وتخريج: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٢: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٢٢ ـ البركتي؛ محمد عميم الإحسان المجددي: **التعريفات الفقهية معجم يشرح الألفاظ المصطلح عليها بين الفقهاء والأصوليين وغيرهم من علماء الدين**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٢٣ ـ البرمكي، ابن خلكان؛ حمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، حققه: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، (بدون ط).

٢٤ ـ البزار؛ أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتيكي: **البحر الزخار المعروف بمسند البزار**، تحقيق: محفوظ عبد الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، ط: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٢٥ ـ البستاني؛ المعلم بطرس: **دائرة المعارف**، مؤسسة مطبوعاتي اسماعليان، تهران ناصر خسرو ـ باسار مجيدي.

٢٦ ـ البستي، ابن حبان؛ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة رسالة ـ بيروت، ط ٣: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٧ ـ البصري، ابن سعد؛ محمد بن سعد بن منيع الزهري: **الطبقات الكبرى**، دار صادر ـ بيروت، ط: ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٢٨ ـ البصري، ابن شبه؛ أبو زيد عمر بن شبه النميري: **تاريخ المدينة المنورة**، حققه: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة حبيب محمود أحمد ـ جدة، ط: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٢٩ ـ البغـــدادي، الخطيب؛ أحمد بن علـــي: **تاريخ بغداد أو مدينة الإســـلام**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (بدون ط).

٣٠ ـ البغدادي، ابن قانع؛ عبد الباقي بن قانع بن مرزوق الأموي: **معجم الصحابة**، ضبط نصه وعلق عليه: صلاح بن ســـالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية ـ المدينة المنورة، ط ١: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣١ ـ البغوي؛ أبو محمد الحســـين بن مســـعود بن محمد الشـــافعي: **شرح السنة**، تحقيق: شـــعيب الأرنؤوط، وزهير الشـــاويش، المكتب الإسلامي ـ دمشق/ بيروت، ط ٢: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٣٢ ـ بك، محمد فريد بن أحمد فريد باشا: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس ـ بيروت، ط ١: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٣٣ ـ البهلاني؛ أبو مسلم؛ ناصر بن سالم بن عديم الرواحي: **الآثار الشعرية لأبي مسلم**، حققها ووضع حواشيها وقدم لها: محمد الحارثي، منشورات الجمل ـ بيروت، ط ١: ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٣٤ ـ بوكاي؛ موريس: **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دارسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، ط ٢: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٣٥ ـ بيرلنكسي؛ ديفيد: **وهم الشـــيطان، الإلحاد ومزاعمه العلمية**، ترجمة وتعليق: عبد الله الشهري، مركز دلائل ـ الرياض، ط ٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

٣٦ ـ البيهقي؛ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخراساني:

- **الســـنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القـــادر عطا، دار الكتـــب العلمية ـ بيروت، ط ٣: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **معرفة السنن والآثار**، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية ـ باكســـتان/دار قتيبة ـ دمشـــق/دار الوعي ـ القاهرة/ دار الوفاء القاهرة، ط ١: ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

ـ **الجامع لشعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: عبد العلي عبد الحميد حامد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة قطر، ط: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.**

٣٧ ـ الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سورة: (سنن الترمذي) **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل**، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط ٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٣٨ ـ تشارلز داروين: **أصل الأنواع نظرية النشوء والارتقاء**، ترجمة: إسماعيل مظهر، دار التنوير ـ بيروت، ط ٤: ٢٠١٦م.

٣٩ ـ التل؛ عبد الله: **جذور البلاء**، دار الإرشاد ـ بيروت، ط ١: ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

٤٠ ـ توفيق علوان: **آيات الله المبصرة**، دار بلنسية ـ الرياض، ط ١.

٤١ ـ التونسي، ابن عاشور؛ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور: **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**، مؤسسة التاريخ ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٢ ـ جاك. س. ريسلر: **الحضارة العربية**، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية ـ القاهرة، (بدون ط).

٤٣ ـ الجرجاني؛ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، دار المعرفة ـ بيروت، ط: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٤٤ ـ الجرجاني، ابن عدي؛ عبد الله بن عدي: الكامل في الضعفاء، تحقيق: سهيل زكار، ويحيى مختار غزاوي، دار الفكر ـ بيروت، ط ٣: ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٤٥ ـ ابن الجزري؛ محمد بن محمد بن يوسف: **الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٦ ـ الجزري، ابن الأثير؛ علي بن محمد الشيباني:

ـ **الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.**

ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة، اعتنى به: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.**

٤٧ ـ جستون باريت: **فطرية الإيمان، كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله**، ترجمة: مركز دلائل، دار وقف دلائل للنشر ـ الرياض، ط١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

٤٨ ـ الجسر؛ حسين أفندي: **الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية**، تقديم وتحقيق: خالد زيادة، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، ط١: ٢٠١١م.

٤٩ ـ الجسر؛ نديم بن حسين أفندي: **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن**، حقوق الطبع محفوظة، طبع في لبنان

٥٠ ـ جلبي؛ خالص: **الطب محراب الإيمان**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٧: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥١ ـ الجندي؛ فداء ياسر: **العلم يؤكد شكوك داروين، الكون مادة وطاقة... وشيء آخر**، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

٥٢ ـ ابن الجوزي؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: **صيد الخاطر**، المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة، (بدون ط).

٥٣ ـ الجويني؛ أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف:

ـ **البرهان في أصول الفقه، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء ـ المنصورة/مصر، ط٤: ١٤١٨هـ/١٩٨٨م.**

ـ **غياث الأمم والتياث الظلم، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، د. مصطفى حلمي، دار الدعوة ـ الاسكندرية، ط١: ١٤٠٠/١٩٧٩م.**

٥٤ ـ الحراني، ابن تيمية؛ أحمد بن تيمية: **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، خرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث ـ القاهرة، ط: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٥٥ ـ الحميدي؛ عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي: **المسند**، حقق أصوله وعلق عليه: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٥٦ ـ حوى؛ سعيد: **الأساس في التفسير**، دار السلام ـ القاهرة، ط٢: ١٤٠٩هـ/١٩٨٥م.

٥٧ ـ الخادمي؛ أبو سعيد محمد بن محمد: **بريقة محمودية**، تحقيق: محمد أمين عمران، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر، ط١: ١٣٤٨هـ.

٥٨ ـ الخطيب؛ عبد الكريم يونس: **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط: ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٥٩ ـ الخفاجي؛ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي: **حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي = عناية القاضي وكفاية الراضي**، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق مهدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٦٠ ـ الخليلي؛ أحمد بن حمد:

- **جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ سلطنة عمان، ط٢: ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- **برهان الحق (دراسة معمقة في تأصيل العقيدة الإسلامية ودرء الشبه عنها بالأدلة العقلية والنقلية)**، الكلمة الطيبة ـ مسقط، ط٢: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.
- **الحقيقة الدامغة**، مكتبة مسقط ـ مسقط، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- **الاستبداد مظاهره ومواجهته**، طبع على نفقة الشيخ سعود بن علي الخليلي، ط١: ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

٦١ ـ الدارقطني؛ أبو الحسن علي بن عمر: **سنن الدارقطني**، علق عليه وخرج أحاديثه: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٦٢ ـ الدارمي؛ عبد الله بن محمد بن الفضل السمرقندي: **سنن الدارمي**، خرج آياته وأحاديثه: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٦٣ ـ دراز؛ محمد عبد الله: **الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، ط: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٦٤ ـ الدمشقي، ابن كثير؛ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي:

- **البداية والنهاية**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: رياض عبد الحميد مراد، ومحمد حسان عبيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، ط: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- **مسند الفاروق وأقواله على أبواب العلم**، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: إمام علي إمام، دار الفلاح ـ الفيوم، ط١: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٦٥ ـ الدمشقي، ابن العماد؛ أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، حققه وعلق عليه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير ـ دمشق/بيروت، ط١: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٦٦ ـ الدمشقي، ابن عابدين؛ محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز: رد المحتار على الدر المختار، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٦٧ ـ دُوزِي؛ رينهارت بيتر آن: **تكملة المعاجم العربية**، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية، ط١: ٢٠٠٠م.

٦٨ ـ دوكينز؛ ريتشارد:

ـ الكتاب المسمى وهم الإله، ترجمة: بسام البغدادي، حقوق الطبع محفوظة، ط ٢: ٢٠٠٩م.

ـ الداروينية الجديدة صانع الساعات الأعمى، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، مكتبة الفكر الجديد، دار العين للنشر ـ مصر، ط ٢: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٦٩ ـ الديلمي؛ شيرويه بن شهردار: كتاب فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب، قدم له وحققه وخرج أحاديثه: فواز أحمد الزمري، ومحمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٧٠ ـ الدينوري؛ أحمد بن مروان المالكي: المجالسة وجوهر العلم، تحقيق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧١ ـ الذهبي؛ محمد بن أحمد:

ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ تونس، ط ٢: ٢٠١١م.

ـ المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، حققه: محب الدين الخطيب، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة ـ الرياض، ط ٣: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٧٢ ـ الرازي؛ محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي:

ـ المحصول في علم الأصول، اعتنى به: عز الدين ضلي، مؤسسة رسالة ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

ـ مفاتيح الغيب، دار الفكر ـ بيروت، ط ٣: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٧٣ ـ الرازي؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: **مختار الصحاح**، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية ـ بيروت، ط ٥: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧٤ ـ الرازي، ابن مسكويه؛ أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة، ط ٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

٧٥ ـ الرازي، تمام بن محمد: **الفوائد**، حققه وخرج أحاديثه: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط ١: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٧٦ ـ رضا؛ محمد رشيد:

- **تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار)**، خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٢: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- **الوحي المحمدي**، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط ١٠: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **الخلافة**، الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة، (بدون ط).
- **مجلة المنار**، (العدد الصادر يوم الإثنين ١٦/شعبان/١٣٢٠هـ والموافق ١٧/ نوفمبر/١٩٠٢م) و(العدد الصادر يوم الثلاثاء غرة محرم/ ١٣٢٦هـ والموافق ٣/مارس/١٩٠٨م)، و(العدد الصادر بتاريخ ٢٩/ جمادى الآخرة/١٣٣٥هـ، والموافق ١٨/أبريل/١٩١٧م).

٧٧ ـ الرملي؛ أبو العباس أحمد الأنصاري: **حاشية الرملي على أسنى المطالب شرح روض الطالب**، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة، (بدون ط).

٧٨ ـ الروياني؛ محمد بن هارون: **مسند الروياني**، ضبطه وعلق عليه: أيمن علي أبو يماني، مؤسسة قرطبة ـ بيروت، ط ١: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٧٩ ـ الزبيدي؛ محمد مرتضى بن محمد الحسين: **تاج العروس من جواهر القاموس**، اعتنى به ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٨٠ ـ الزركشي؛ محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي: البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة ـ القاهرة، ط ٢: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٨١ ـ الزرعي، ابن قيم الجوزية؛ أبو عبد الله بن أبي بكر الدمشقي:

- الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث ـ القاهرة، ط ٣: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- مختصر الصواعق المرسل، اختصره: محمد بن الموصلي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة قطر، ط: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، ط ١: ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٣: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم ـ الدمام، ط ٢: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٨٢ ـ الزمخشري؛ محمود بن عمر:

- أساس البلاغة، دار النفائس ـ بيروت، ط ١: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبه وضبطه وصححه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٤: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٨٣ ـ السالمي؛ عبد الله بن حميد بن سلوم:

- **طلعة الشمس شرح شمس الأصول، تحقيق: عمر حسن القيام، مكتبة الإمام السالمي ـ بدية، ط١: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.**
- **مشارق أنوار العقول، تعليق: سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، دار الحكمة ـ دمشق، ط١: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.**
- **جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، علق عليه: أبو إسحاق أطفيش وإبراهيم العبري، مكتبة الإمام السالمي ـ السيب، ط١٤: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.**

٨٤ ـ ابن السبكي؛ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي: **رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب**، تحقيق وتعليق ودراسة: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب ـ بيروت، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٨٥ ـ السبكي؛ علي بن عبد الكافي: **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**، دراسة وتحقيق: أحمد جمال الزمزمي، ونور الدين عبد الجبار صغيري، دار البحوث ـ دبي، ط١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٨٦ ـ د. ستيفن ماير: **التصميم الذكي (فلسفة وتاريخ النظرية)**، ترجمة: محمد طه ـ عبد الله أبو لوز، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ط١: ٢٠١٦م.

٨٧ ـ السجستاني، أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن شداد الأزدي: **(سنن أبي داود) السنن**، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٨٨ ـ سرور؛ هيثم طلعت علي:

- **الإلحاد يسمم كل شيء، نيو بوك للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.**

- مناظرة الملحدين، تقديم: د. عمر شريف، نيو بوك - القاهرة، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- إما الإيمان وإما الفوضى، حقوق الطبع محفوظة، ط١.
- ٤٠ خطأ في نظرية التطور، أخطاء لا يريدونك أن تعرفها!!، (بدون باقي البيانات).

٨٩ - السعدي؛ جميل بن خميس: قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة، تحقيق: مجموعة من الباحثين، مكتبة الجيل الواعد - مسقط/سلطنة عمان، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

٩٠ - السُّغْنَاقي؛ الحسين بن علي بن حجاج بن علي: الكافي شرح البزدوي، تحقيق: فخر الدين سيد محمد قانت، مكتبة الرشيد - الرياض، ط١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٩١ - السفاريني: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٩٢ - سوزلر للنشر: العالم يتصفح رسائل النور: مؤلف رسائل النور بديع الزمان سعيد النورسي، لمحات من حياته وآثاره، شركة سوزلر للنشر، مدينة نصر - القاهرة، (بدون ط).

٩٣ - السيواسي، ابن الهمام؛ كمال الدين محمد بن عبد الواحد: شرح فتح القدير للعاجز الفقير، دار إحياء التراث - بيروت، (بدون ط).

٩٤ - السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري: تاريخ الخلفاء، ضبط وتحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة، ط١: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٩٥ - الشاربي، سيد قطب؛ إبراهيم حسين:
- في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، ط٨: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق - بيروت/القاهرة، ط٩: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٩٦ ـ الشافعي، ابن عساكر؛ علي بن الحسن بن هبة الله: **تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق**: عمر بن غلامة العمروي، دار الفكر ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٨م.

٩٧ ـ الشـــايع؛ خالد بن عبد الرحمن: **معبد داروين، صفحات من التاريخ المنسي لأفكار داروين**، مركز دلائل ـ الرياض، ط٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

٩٨ ـ الشرباصي، عبد الرحمن بدوي بن بدوي: **تاريخ الإلحاد في الإسلام**، المركز الأكاديمي للأبحاث ـ العراق، ط٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

٩٩ ـ الشرواني؛ عبد الحميد، والعبادي؛ أحمد بن القاسم: **حواشي الشرواني وابن القاســـم العبادي على تحفة المنهـــاج**، ضبطه وصححه: محمـــد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٠٠ ـ شريف؛ عمرو:

- **خرافة الإلحاد**، نيوبوك للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط٩: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.
- **رحلة عقل**، نيوبوك للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط١٢: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

١٠١ ـ الشنقيطي؛ محمود بن محمد المختار: **الدراوينية حين تتحزم بالقرآن، المفكر حاج حمد أنموذجًـــا**، مركز الفكـــر المعاصر، دار الوعي للنشـــر والتوزيع ـ الرياض، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

١٠٢ ـ الشـــيباني، ابن حنبل؛ أحمد بن حنبل: **المسند**، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر، وحمزة أحمد الزين، دار الحديث ـ القاهرة، ط١: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١٠٣ ـ الشيرازي؛ صدر الدين محمد: **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**، دار إحياء التراث ـ بيروت، ط: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٠٤ ـ الشـــيرازي؛ ناصر مكارم، ومعرفة؛ محمد هادي: **تفكروا في عظمة خلق الله ـ للإنســـان ـ الحيوان ـ الأرض ـ الكون ـ الحياة**، جمعه واعتنى به: محســـن عقيل، دار المحجة البيضاء ـ بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١٠٥ ـ صفوت؛ أحمد زكي: **جمهرة خطب العرب**، المكتبة العلمية ـ بيروت، (بدون ط).

١٠٦ ـ الصنعاني؛ عبد الرزاق بن همام: المصنف، تحقيق: أيمن نصر الدين الأزهري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٠٧ ـ الصوفي؛ ماهر أحمد: الموسوعة الكونية الكبرى، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت، ط: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٠٨ ـ الطائي؛ محمد باسل: أوهام الإلحاد العلمي، مركز دلائل ـ الرياض، ط١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

١٠٩ ـ الطبراني؛ أبو القاسم سليمان بن أحمد:

- المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السليفي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- المعجم الأوسط، حققه وخرجه وفهرسه: أيمن صالح شعبان، وسيد أحمد إسماعيل، دار الحديث ـ القاهرة، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١١٠ ـ الطبري؛ محمد بن جرير:

- تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١١١ ـ الطباطبائي؛ محمد حسين:

- نهاية الحكمة، صححه وعلق عليه عباس علي الزارعي، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ط٤: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- بداية الحكمة، صححه وعلق عليه عباس علي الزارعي، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١١٢ ـ الطحاوي؛ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحنفي: شرح معاني الآثار، خرج أحاديثه ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١١٣ ـ طيارة؛ نادية: **موسوعة الإعجاز القرآني في العلوم والطب والفلك**، مكتبة الصفاء/اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ـ أبو ظبي، ط٢: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١١٤ ـ الطيالسي؛ أبو داود سليمان بن داود بن جارود: **مسند أبي داود الطيالسي**، دار المعرفة ـ بيروت، (بدون ط).

١١٥ ـ الطيب؛ رضا: **دولة الخلافة العثمانية (عصر الفاتحين، السقوط والانهيار، الإسلاميون الجدد)**، (المكتبة الشاملة).

١١٦ ـ عامري؛ سامي: **براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم**، مركز تكوين ـ المملكة العربية السعودية/الخبر، ط١: ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م.

١١٧ ـ عبد الرحمن بن عبد الخالق: **الإلحاد، أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها**، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ـ الرياض، ط٢: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١١٨ ـ العبدي، ابن منده؛ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى الأصبهاني: **الإيمان**، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢: ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١١٩ ـ العجيري؛ عبد الله بن صالح:

- **مليشيا الإلحاد، مدخل لفهم الإلحاد الجديد، تكوين للدراسات والأبحاث ـ المملكة العربية السعودية/الخبر، ط٢: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.**
- **شموع النهار، إطلالة على الجدل الديني المعاصر في مسألة الوجود الإلهي، تكوين للدراسات والأبحاث ـ المملكة العربية السعودية/الخبر، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.**

١٢٠ ـ العراقي، أبو زرعة؛ أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين: **تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل**، تحقيق: عبد الله نوارة، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط١: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٢١ ـ عزمي؛ هشام:

- **الإلحاد للمبتدئين، دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، دار الكاتب للنشر والتوزيع ـ مصر، ط ٢: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.**

- **التطور الموجه بين العلم والدين، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، دار الكاتب للنشر والتوزيع ـ مصر، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.**

١٢٢ ـ العسقلاني، ابن حجر؛ أحمد بن علي بن حجر الشافعي:

- **الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٢: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.**

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام ـ الرياض، ط ٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.**

١٢٣ ـ العشي؛ عرفات كامل: **رجال ونساء أسلموا**، المكتب المصري الحديث ـ القاهرة، ط: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١٢٤ ـ عطار؛ أحمد عبد الغفور: **الشيوعية وليدة الصهيونية**، المكتبة العصرية ـ بيروت، ط ١: ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

١٢٥ ـ العطار؛ حسن بن محمد: حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار البصائر ـ القاهرة، ط ١: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٢٦ ـ العقاد؛ عباس محمود: **المجموعة الكاملة**، الإسلاميات ٣، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، (بدون ط).

١٢٧ ـ العقيلي؛ محمد بن عمرو بن موسى بن حماد المكي: **الضعفاء الكبير**، حققه ووثقه: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٢: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٢٨ ـ العلائي؛ خليل بن كيكلدي الشافعي: **إجمال الإصابة في أقوال الصحابة**، حققه وعلق عليه: محمد سليمان الأشقر، جمعية إحياء التراث الإسلامي ـ الكويت، ط١: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

١٢٩ ـ علي حسون: **عوامل انهيار الدولة العثمانية**، المكتب الإسلامي ـ دمشق، (بدون ط).

١٣٠ ـ عليوي؛ ابن خليفة: **الحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النشوء والارتقاء**، مطبعة خالد بن الوليد ـ دمشق.

١٣١ ـ العنزي، أبو العتاهية؛ إسماعيل بن القاسم العيني: **ديوان أبي العتاهية**، قدم له وشرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط١: ١٤٢٥هـ/١٩٩٥م.

١٣٢ ـ العواجي؛ عبد الرحمن بن غالب: **الإلحاد الحديث، تاريخه وأبرز نظرياته وآثاره، وسبل مواجهته**، مركز دلائل ـ الرياض، ط١: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

١٣٣ ـ غالغي؛ روبرت جميس: **خرافة التطور**، ترجمة: فداء ياسر الجندي، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

١٣٤ ـ الغاياتي منيرة علي: **مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين**، مكتبة وهبة ـ مصر، (بدون ط).

١٣٥ ـ الغزالي؛ محمد السقا:

- **قذائف الحق**، دار القلم ـ دمشق، ط٢: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- **الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر**، المكتبة العصرية ـ بيروت، (بدون ط).

١٣٦ ـ الغزالي، أبو حامد؛ محمد بن محمد:

- **المستصفى في علم الأصول**، دار إحياء التراث ـ بيروت، ط١: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- **إحياء علوم الدين**، أشرف على التحقيق والتصحيح: هيئة التحقيق بدار الوعي العربي، دار الهلال ـ بيروت، ط١: ٢٠٠٤م.

- المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، دار الفكر - دمشق/ دار الفكر المعاصر - بيروت، ط ٣: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٣٧ - العفاني؛ أبو التراب سيد بن حسين: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع - جدة، ط ١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

١٣٨ - الفراء؛ يحيى بن زياد: معاني القرآن، عالم الكتب - بيروت، ط ٣: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٣٩ - الفراهيدي؛ الخليل بن أحمد الأزدي: العين، تحقيق: مهدي مخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (بدون ط).

١٤٠ - الفراهيدي؛ الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي: الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، ويليه الفهارس، إعداد: سعود بن عبد الله الوهيبي، مكتبة مسقط - مسقط/سلطنة عمان، ط ١: ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

١٤١ - الفيومي؛ أحمد بن محمد الحموي: المصباح المنير، دار الحديث - القاهرة، ط: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٤٢ - فيتز؛ بول: نفسية الإلحاد، إيمان فاقد الأب، ترجمة ونشر: مركز دلائل - الرياض، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

١٤٣ - القرافي؛ أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي: كتاب الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق، دراسة وتحقيق: أ. د. محمد أحمد السراج، وأ. د. علي جمعة محمد، دار السلام - القاهرة، ط ٢: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١٤٤ - القرطبي؛ محمد بن أحمد الأنصاري:

- الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي - القاهرة، ط: ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق ودراسة: الصادق بن محمد بن إبراهيم، دار المنهاج - الرياض، ط ١: ١٤٢٥هـ.

١٤٥ ـ القروي؛ رشيد بن سليم بن طنوس الخوري: **الشاعر القروي الأعمال الكاملة**، النثر، جمعه وبوبه وضبطه وشرحه وقدم له: محمد أحمد قاسم، منشورات جروس برنس ـ لبنان، ط١: ١٩٩٦م.

١٤٦ ـ القزويني، ابن ماجه؛ محمد بن يزيد الربعي: **(سنن ابن ماجه) السنن**، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٤٧ ـ القزويني، ابن فارس؛ أحمد بن فارس بن زكرياء: **مجمل اللغة**، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٤٨ ـ القضاعي؛ أبو عبد الله محمد بن سلامة: **مسند الشهاب**، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٤٩ ـ كازاس؛ برتولومي دي لاس: **مذابح الهنود الحمر** (رسائل المطران برتولومي دي لاس كازاس)، راجعه وصدر له: د. محمد بن أحمد بن خلف الحسيني، دار الفضيلة ـ القاهرة، ط: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١٥٠ ـ الكرمي؛ مرعي بن يوسف الحنبلي:

- **منية المحبين وبغية العاشقين، دراسة وتحقيق: د. عباس هاني الجراخ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.**
- **قلائد العقيان في فضائل آل عثمان، دراسة وتحقيق: الدكتور إبراهيم فاعور الشرعة، كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية، طبع بدعم من الجامعة الإردنية، ط: ٢٠٠٨/٢٠٠٩م.**

١٥١ ـ الكشي، عبد بن حميد؛ أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر: **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه: صبحي البدري، ومحمود محمد خليل الصعيدي، عالم الكتب ـ بيروت، ط١: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٥٢ ـ الكفوي، أبو البقاء؛ أيوب بن موسى الحسيني: **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ٢: ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

١٥٣ ـ الكلاعي؛ أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي: **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب ـ بيوت، ط ١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٥٤ ـ الكلبي؛ أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ط ٣: ١٩٩٥م.

١٥٥ ـ الكوفي، ابن أبي شيبة؛ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي: **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، ضبطه وصححه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١٥٦ ـ لينكس؛ جون: **أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين**، جمع وتعليق م. أحمد حسن، مركز دلائل، الدار العربية للطباعة والنشر ـ الرياض، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

١٥٧ ـ ليدنر؛ جوردون: **الإيمان بالخالق والعلم، اقتباسات موثقة لمشاهير العلماء في العصر الحديث**، ص ٣٥، ترجمة ونشر: مركز دلائل ـ الرياض، ط ١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

١٥٨ ـ المالكي، محمد بن أحمد بن محمد عليش: **منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل**، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٥٩ ـ ماهر خليل: **سقوط نظرية داروين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة**، المركز العربي للناشر والتوزيع ـ القاهرة.

١٦٠ ـ د. مايكل دنتون: **التطور ما تزال نظرية في أزمة**، ترجمة: د. محمد القاضي، د. زيد الهبري وآخرين، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ط ١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

١٦١ ـ مجموعة أساتذة: **الأديان والمذاهب**، جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية ـ ماليزيا، ط: ٢٠١٠م.

١٦٢ ـ مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، مؤسسة أعمال الموسوعة ـ الرياض، ط ٢: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

١٦٣ ـ م. محمد حمدي غانم: **خرافة داروين حينما تتحول الصدفة إلى علم، نسف نظرية داروين باستخدام الرياضيات والبرمجة**، (مرقون).

١٦٤ ـ المرداوي؛ علاء الدين أبو الحسن علي ابن سليمان الحنبلي: **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**، تحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط ١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٦٥ ـ المرزوي، ابن المبارك؛ عبد الله بن المبارك: **الزهد والرقائق**، تحقيق وتعليق: أحمد فريد، دار المعراج ـ الرياض، ط ١: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٦٦ ـ المرسي، ابن سيده؛ علي بن إسماعيل: **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٦٧ ـ المصري، ابن منظور؛ محمد بن مكرم الإفريقي:

- **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق: روحية النحاس، ومحمد مطيع الحافظ، دار الفكر ـ دمشق، ط ١: ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- **لسان العرب**، دار صادر ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٦٨ ـ المقدسي، ضياء الدين؛ محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي: **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما**، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر ـ بيروت، ط ٣: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٦٩ ـ المقدسي، ابن قدامة؛ عبد الله بن أحمد بن قدامة: **المغني على مختصر الخرقي**، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٧٠ ـ المكـــي، أبو طالب؛ محمد بن علي بـــن عطية الحارثي: **قـــوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريج إلى مقام التوحيد**، ضبطه وصححه: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٧١ ـ م. ل. ســـيديو: **تاريخ العرب العام**، ترجمة: عادل زعيتـــر، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ط: ١٩٤٨م.

١٧٢ ـ ملكاوي؛ محمد أحمد محمـــد عبد القادر خليل: **عقيـــدة التوحيد في القرآن الكريم**، دار الزمان ـ المدينة المنورة، ط ١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٧٣ ـ الموصلي؛ أبو يعلى أحمد بن علي: **مسند أبي يعلى الموصلي**، حققه وخرج أحاديثه: حســـين سليم أســـد، دار المأمون للتراث ـ دمشـــق/بيروت، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط ٢: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

١٧٤ ـ المناوي؛ محمد عبد الرؤوف:

- **فيض القدير شـــرح الجامع الصغير مـــن أحاديث البشـــير النذير**، ضبطه وصححـــه: أحمـــد عبد الســـلام، دار الكتـــب العلميـــة ـ بيـــروت، ط: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، ط ١: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٧٥ ـ مونتكمري وات: **محمد في مكة**، تعريب: شعبان بركات، المكتبة العصرية ـ صيدا/بيروت.

١٧٦ ـ الميداني؛ عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الدمشقي:

- **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشـــير ـ الاستِشراق ـ الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه**، دار القلم ـ دمشق، ط ٥: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- **الكيد الأحمر، دراســـة واعية للشـــيوعية وجذورها وأفكارها**، دار القلم ـ دمشق، ط ٢: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٧٧ ـ النجدي؛ أحمد بن إبراهيم بن عيسى: **توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم**، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط ٣: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٧٨ ـ نخبة من العلماء الأمريكيين: **الله يتجلى في عصر العلم**، ترجمه: الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلق عليه: محمد جمال الدين الفندي، دار القلم ـ بيروت.

١٧٩ ـ الندوي؛ أبو الحسن علي الحسني:

- **السيرة النبوية، دار الشروق ـ جدة، ط ٧: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.**
- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة، ط ٢: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.**

١٨٠ ـ النسائي؛ أحمد بن علي بن شعيب:

- **(سنن النسائي الصغرى) المجتبى من السنن، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط ٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.**
- **كتاب السنن المعروف بـ (السنن الكبرى)، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل ـ القاهرة، ط ١: ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.**

١٨١ ـ النفراوي؛ أحمد بن غنيم بن سالم المالكي: **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٨٢ ـ النمري، ابن عبد البر؛ يوسف بن عبد الله بن محمد: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ١٤٦/١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، ط ١: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٨٣ ـ النويري؛ أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

١٨٤ ـ النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: **آداب الفتوى والمفتي والمستفتي**، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الفكر ـ ط ١: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٨٥ ـ النيسابوري؛ مسلم بن الحجاج: **(صحيح مسلم) المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل من العدل عن رسول الله ﷺ**، ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط ٣: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٨٦ ـ النيسابوري، الحاكم؛ محمد بن عبد الله: **المستدرك على الصحيحين**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٨٧ ـ هارون يحيى: **الديانة الداروينية**، ترجمة واختصار: مبارك عامر بقنة، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

١٨٨ ـ الهندي؛ علي المتقي بن حسام الدين: **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٤: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

١٨٩ ـ الهيثمي؛ علي بن أبي بكر:

- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.**
- **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، تحقيق ودراسة: حسين أحمد صالح الباكري، الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة، ط ١: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.**

١٩٠ ـ وجدي؛ محمد فريد: **دائرة معارف القرن العشرين**، دار المعرفة ـ بيروت، ط ٣: ١٩٧١م.

١٩١ ـ وحيد الدين خان: **الإسلام يتحدى** (مدخل علمي إلى الإيمان)، تعريب: د. ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٩٢ ـ ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة: محمد بدران وآخرون، لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة/ دار الجيل ـ بيروت، ط: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٩٣ ـ اليافعي؛ أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني المكي: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٩٤ ـ اليحصبي، القاضي عياض؛ بن موسى بن عمرون السبتي: **إكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم**، تحقيق: الدكتور يحْيَى إسْمَاعِيل، دار الوفاء ـ المنصورة، ط٣: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٩٥ ـ **إنجيل برنابا**، ترجمه من الإنجليزية: د. خليل سعادة، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، وتوفيق علي وهبة، مكتبة النافذة ـ الجيزة/مصر، ط١: ٢٠٠٦م.

١٩٦ ـ **الكتاب المقدس** أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ـ الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصلية مع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية، تصدرها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، جمعية الكتاب المقدس ـ لبنان، [العهد القديم ط١: ١٩٩٣م]، [العهد الجديد ط٤: ١٩٩٣م].

١٩٧ ـ **مجلة الداعي** الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، جمادى الثانية ـ رجب ١٤٣٤هـ أبريل ـ يونيو ٢٠١٣م، العدد: ٦ ـ ٧، السنة: ٣٧، دراسات إسلامية، بقلم: صلاح عبد الستار محمد الشهاوي تحت عنوان: **إنجيل برنابا حلقة الوصل المفقودة بين المسيحية والإسلام**.

١٩٨ ـ **مجلة البيان**، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد (٨) صدر في صفر ١٤٠٨هـ /أكتوبر ١٩٨٧م.

١٩٩ ـ **مجلة المجتمع الكويتية**، العدد ٤٠٤، الصادرة في ١٣ شعبان ١٣٩٨هـ ـ ١٨ يوليو ١٩٧٨م السنة التاسعة.

٢٠٠ ـ **صحيفة العروبة**، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ـ حمص، العدد ١٤٨٢٠، الثلاثاء ١٤ آذار ٢٠١٧م.

مراجع الشبكة العنكبوتية (الإنترنت):

١ ـ مقال بعنوان كيف تدمَّر بلدًا؟ لعوض بن حاسوم الدرمكي، نشر يوم الأربعاء ٣ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ ـ ١٢ ديسمبر ٢٠١٨م (مؤسسة دبي للإعلام، مجلة البيان).
(https://www.albayan.ae/opinions/articles/2018-12-16-1.3435368)

٢ ـ بحث بعنوان مفهوم الدين بين الفكر الإسلامي والمسيحي للدكتور عبد القادر بخوش، موقع إسلام أون لاين:
https://archive.islamonline.net/?p=324

٣ ـ عدنان فقيه: الصدفة المزعومة أين هي؟، رابطة العالم الإسلامي:
https://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/68-Issue-XI/594-The-alleged-accident

٤ ـ رضا البطاوي: أخطاء كتاب وهم الإله لريتشارد دوكنز:
http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=14590.

٥ ـ علاء الدين السيد: الكون المنظور أكبر مما نتوقع بـ ٢٠ ضعفًا.. أرقام مذهلة لا يمكن تخيلها:
https://www.sasapost.com/two-trillion-galaxies/.

٦ ـ موقع المعرفة الإلكتروني: https://www.marefa.org

٧ ـ مقال بعنوان جماجم أثرية في جورجيا تدحض نظرية التطور فيما يخص أصل الإنسان، مجلة رؤى الإلكترونية، ينظر:
https://www.ruoaa.com/2013/10/georgia-human-skulls-darwin-theory.html

٨ ـ مقال بعنوان (Universe Might be Bigger and Older than Expected) لـ (Ker Than):
https://www.space.com/2707-universe-bigger-older-expected.html

٩ ـ موقع مشروع الجينوم البشري:
https://web.ornl.gov/sci/techresources/Human_Genome/project/info.shtml

١٠ ـ موقع موضوع/الكيمياء/عدد العناصر في الجدول الدوري:

https://mawdoo3.com/

١١ ـ مقال بعنوان **الاقتصاد الإسلامي في عيون الغرب** لضياء الناروز، ينظر:

https://www.sasapost.com/opinion/islamic-economics-in-the-eyes-of-the-west

١٢ ـ خطاب الأمير ويلز أمام المنتدى الاقتصادي الإسلامي العالمي بلندن يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠١٣م:

https://www.princeofwales.gov.uk/speech/speech-prince-wales-world-islamic-economic-forum-london

١٣ ـ مقال بعنوان **الاقتصاد الإسلامي أمل البشـــرية** للكاتب د. زيد الرماني، نشر بتاريخ ٢٠١٥/٩/١٤م، مجلة المجتمع الإلكترونية:

https://mugtama.com/articles/item/23849-2015-09-14-16-00-11.html

١٤ ـ قناة (abcNEWS) مقتل ناشط بيئي على أيدي الشرطة في مقر قناة ديسكفري:

https://abcnews.go.com/us/gunman-enter-discovry-channel-headquarters-employees-evacuated/story?id=11535128



الـفـهـــرس

الباب الثالث:
في براهين الإيمان

- **المقـدمـة: بين يـدي البراهين** ٧
- **الفصل الأول: في البراهين المستوحاة من معجزة الحياة** ٤٥
  - **المبحث الأول:** في حيرة الألباب من أمر الحياة ٤٦
  - **المبحث الثاني:** في الخلية التي جعلها الله أصل هذه الحياة ٥٦
  - **المبحث الثالث:** في مشاهد آيات الخلق وعظمة الخالق في جزيئات الخلية ٧٣
    الأولى: مرحلة النسخ ٨٥
    الثانية: مرحلة النقل ٨٦
    الثالثة: مرحلة الترجمة والبناء ٨٦
  - **المبحث الرابع:** في طي أوهام الجهل بإشراق حقائق العلم ١٠١
  - **المبحث الخامس:** في دلالة الزمن على استحالة وجود أدنى شيء من هذه الخلايا، بتأثير الطبيعة ١٠٧

• **الفصل الثاني: في البراهين التي في خلق الإنسان** ١١٣

▫ **المبحث الأول:** في مراحل خلق الإنسان ١١٧

العبر والآيات في كل خطوة من مراحل الخلق ١٤٠

▫ **المبحث الثاني:** في الآيات التي يسطع نورها من طبيعة الإنسان ١٤٧

١ ـ عجائب آيات الله فيما جعل في الإنسان من النمو والنطق والحركة والغذاء والنوم ١٤٧

٢ ـ آيات الله في حركة الأوعية الدموية ١٦٤

٣ ـ في آيات الله تعالى في التنظيم الحراري في الجسم ١٦٨

٤ ـ آيات الله في تنظيم السكر في الدم ١٧٢

٥ ـ آيات الله في انبثاق الأعصاب الرأسية من عناصر الجهاز العصبي ١٧٤

٦ ـ آيات الله في الذاكرة وعجيب أسرارها ١٨٦

• **الفصل الثالث: في البراهين التي في خلق الحيوان** ٢٠٣

▫ **المبحث الأول:** فيما يشترك فيه الإنسان والحيوان وما يختلفان فيه ٢٠٤

▫ **المبحث الثاني:** في آيات الله تعالى في طبيعة الحيوانات الطائرة ٢٠٩

تجلي قوة الغرائز في هجرة الطيور ٢١١

ظهور أثر الغريزة في بناء الطيور أعشاشها ٢١٥

عجائب أخرى في أنواع من الطيور وغيرها من الحيوانات ٢١٨

مكابرة داروين لما بهره من معجزة العين بأوهام يحاول بها طمس الحقائق ٢٢٠

آية الله الكبرى في استغناء الخفاش بقوة السمع عن البصر ٢٢٧
في النحل آية باهرة لمن تدبر ٢٣٤
▫ المبحث الثالث: في آيات الله فيما خلق من الكائنات البحرية والبرية ٢٤٥
• **الفصل الرابع: في البراهين التي اشتملت عليها الكيمياء الحيوية** ٢٥٣
▫ المبحث الأول: في تأصيل المراد من الكيمياء الحيوية ٢٥٤
▫ المبحث الثاني: في نسف بحوث الكيمياء الحيوية لشبه الملحدين ٢٥٩
• **الفصل الخامس: في البراهين التي في أنحاء الآفاق** ٢٧٣
▫ المبحث الأول: في المراد بالآفاق ٢٧٤
▫ المبحث الثاني: في سعة آيات الله تعالى في خلق هذا الكون الدالة عليه ٢٩١
▫ المبحث الثالث: في اضطراب عقول الحائرين وزيغهم عن إدراك هذه الحقيقة ٢٩٢
▫ المبحث الرابع: في إبطال كون العالم أوجد نفسه بنفسه ٣٢٤
المطلب الأول: في الأرض ٣٤٣
المطلب الثاني: في المجموعة الشمسية ٣٥٩
المطلب الثالث: فيما وراء المجموعة الشمسية من أبعاد الكون ٣٦٠
• **الفصل السادس: في البراهين التي في خلق الذرة** ٣٧٣
▫ المبحث الأول: في تعريف الذرة ٣٧٤
▫ المبحث الثاني: في دلالة الذرة على وجود الله تعالى ٣٧٦

الباب الرابع:
في استحالة أن تكون الصدفة هي أساس وجود الكون

- **المقدمة: فيما يراد بالصدفة** ٤١٧

الصدفة في حياتنا اليومية ٤٢٠

- **الفصل الأول: في تخبط القائلين بأن وجود الكون صدفة** ٤٢٧

- **الفصل الثاني: في البراهين الشاهدة بأن الكون كان بخلق من خلاق عليم** ٤٤٧

▫ **المبحث الأول:** في الخلق ٤٤٨

▫ **المبحث الثاني:** في كون الإيمان بالله الخالق لكل ما عداه مطلبًا فطريًا ٤٥١

▫ **المبحث الثالث:** في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها في خلق الإنسان ٤٥٥

▫ **المبحث الرابع:** في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها في خلق النبات ٤٦٨

من الهواء إلى الماء ٤٧٧

▫ **المبحث الخامس:** في استحالة أن يكون للمصادفة المزعومة أي احتمال لصحتها مما تدل عليه الحقائق الرياضية ٤٧٨

الباب الخامس:
في شبهات الملاحدة

- المقدمة: في الشبهة لغة واصطلاحًا ٤٩٩
- الفصل الأول: في شبهات الإلحاد حول الإيمان بوجود الله ٥٠٩
- الفصل الثاني: في شبهات الإلحاد حول الإيمان بسائر الغيوب ٥٢٧
- خاتمة الكتاب ٥٤٩
- الطبعات المعتمدة في مصرع الإلحاد ٥٧١
- الفهـــرس ٦٠١

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى